د. محمد زكريا النداف

مسائل الاعتقاد عند
الشيعة الاثني عشرية

في ضوء مصادرهم الحديثية

المجلد الأول

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة




دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

مسائل الاعتقاد عند

الشيعة الاثني عشرية

في ضوء مصادرهم الحديثية

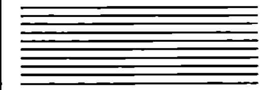
الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

النداف ، محمد زكريا .
مسائل الاعتقاد عند الشيعة الاثني عشرية في ضوء مصادرهم الحديثية / تأليف محمد زكريا النداف . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠ م .
٢ مج ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ٩١٨ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الاثنا عشرية . ٢ - الشيعة .
أ - العنوان .
٢٤٧, ٨



للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

مسائل الاعتقاد عند

الشيعة الاثني عشرية

في ضوء مصادرهم الحديثية

تأليف

د. محمد زكريا النداف

المجلد الأول

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ربنا ﷻ:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣، ٣٤].

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ ﴾

[آل عمران: ١٠٣].

* * *

فهرس محتويات المجلد الأول

الفصل الثالث: (مسائل الاعتقاد العامة بين الاثني عشرية وأهل السنة)

* * *



إهداء

- إلى النبي الخاتم ﷺ وآل بيته الطاهرين وصحابته الكرام الأبرار أجمعين..

- وإلى المجاهدين الصامدين في أرض الرباط في فلسطين وفي كل بقاع الأرض، وإلى المنكوبين في أرض الرافدين.. الذين تعصف بهم رياح الاحتلال وفتن المتآمرين.

- إلى والديّ الكريمين اللذين كانا سبب وجودي، وينبوع صبري.

- إلى سكن نفسي؛ زوجتي التي شاركتني همومي، وأعانتني على المثابرة رغم المحن.

- إلى كل باحثٍ عن الحق والحقيقة، منزِّهٍ نفسه عن العصبية والطائفية، آلى على نفسه أن ينطق بالحق مهما كان مرًّا.

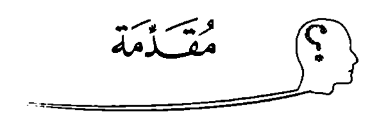
- إلى كل من شكّل لبنة من لبنات بنائي العلمي، من المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية.

- إلى قمم العلم الشامخة في كلية دار العلوم العريقة وكلية الشريعة الأبية الذين نهلت من علومهم وآدابهم.

- إلى كل من أسدى إليّ معروفًا لإنجاح هذا البحث.




منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



مُقَدِّمَة

الحمد لله الهادي من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

والصلاة والسلام على علم الهدى، ونبي الورى؛ سيدنا محمد بن عبد الله، رحمة الله تعالى للعالمين، وعلى آله الأخيار وصحبه الأبرار، ومن اتبع نهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن العلاقة بين الشيعة الإمامية الاثني عشرية وأهل السنة ما تزال علاقة يتخلّلها الغموض وسوء التفاهم في كثير من الجزئيات، رغم وجود قواسم جوهرية مشتركة بين الجانبين، ولم تستطع دعوات الحوار والتقارب والنقاش والجدال أن تزيل شيئًا من ذلك الغموض وسوء التفاهم.

ومع أن الدعوة إلى الحوار ثم التقارب بين أهل السنة والشيعة ما تزال دعوة مستمرة؛ لكنها دعوة لم تتكلل بالنجاح حتى الآن؛ لوجود موانع كثيرة تحول دون نجاح الحوار السني الشيعي، فتحولت حلقات الحوار إلى ساحات للمجاملات والمزايدات، أو إلى حلبات للتباغض والمشاحنات، فلم تغيّر شيئًا من تصور أي طرف عن الآخر.

وإذا تغافل المرء عن الأسباب الخارجية التي تمنع أن يؤتي هذا الحوار أُكُلَه – من التعصب والتقليد والاستبداد بالرأي والعوامل السياسية... – لأنها لا طائل من الحديث عنها، ودقق النظر في الأسباب العلمية الموضوعية التي يتوخاها المنصفون؛ فعند ذلك سيجد أن ضعف الاطلاع على الأصول العقدية للطرف الآخر ومصادره من أهم هذه الأسباب العلمية والموضوعية لفشل الحوار.

وهناك من يريد أن يبسّط الأمور فيقول: لماذا الحوار والاطلاع على ما عند الآخرين مادام أهل السنة والشيعة يعدّون القرآن الكريم والسنة المشرفة أهم مصدرين للعقيدة؟ فليس الخلاف حقيقيًا بينهما إذن. وهذا نوع متقدم من أنواع المجاملات التي تغفل الواقع، في زمن سهلت فيه الاتصالات وكثرت فيه اللقاءات بين كافة البشر، فلم يعد سهلًا إخفاء شيء من حقائق الأمور.

صحيح أن أهل السنة والشيعة يؤمنون بالقرآن الكريم، ولكن نظرة الشيعة إلى كثير

من آيات القرآن تختلف عن نظرة أهل السنة وتفسيرهم لها؛ وبالتالي سيصدر عن الطائفتين في الآية الواحدة فهمان مختلفان.

ويزداد الأمر صعوبة إذا انتقلنا إلى أحاديث العقيدة بين الطرفين، فحين يستشهد السُّني بحديث يعتقد صحته؛ إذ رواه له البخاري ومسلم مثلًا - يقول له الشيعي: إن هذا الحديث غير ثابت في كتبنا معشر الشيعة، وحين يستشهد شيعي بحديث يعتقد صحته؛ إذ رواه له الكليني في كتابه الكافي، وصححه علماء الشيعة - يقول له السُّنّي: لا أعرف هذا الحديث، ولا أجده في مصادري الحديثية المعروفة. فيصبح الحوار بين الطرفين حوارًا كلاميًّا بين رجلين أصمّين!.

إنّ قلة الاطلاع على عقائد كل طرف من مصادره المعتمدة بقصد الوصول إلى الحق لا بمنهج الانتقائية - إن كان للانتقائية منهج - أوقعت كلا الطرفين بأخطاء كثيرة في فهم الطرف الآخر، فوقعوا فيما يسمى بالتراجم؛ بحيث يرجم كل طرف صاحبه بتهمة يبرئ نفسه منها، ثم يعود الطرف الآخر فينفي هذه التهمة عن نفسه، ويرجم الطرف الآخر بها. وعلى سبيل المثال: تهمة التجسيم، وتحريف القرآن.

وحين يرى أهل السنة أن الشيعة فَاتَهُم كثير من الأحاديث النبوية بتركهم أخذ الحديث عن كبار محدِّثي الصحابة - رضوان اللّٰه عليهم أجمعين - كأبي هريرة راوية الإسلام؛ يقول الشيعة: إن أهل السنة فوّتوا على أنفسهم كثيرًا من أحاديث النبي ﷺ التي رواها أهل البيت.

فكيف يستقيم تقارب - وقبل التقارب الحوار - إن لم يكن الطرفان يجلسان على أرض صلبة ثابتة تجمعهما؟.

إن هذا الحوار الذي لا يقوم على هذه الأرض الثابتة لا بد أن ينهار، ويعطي ثمرة مرّة معاكسة للمرجو منه؛ حيث ينقلب الحوار إلى صراع فخصام فتكفير.

ولذلك جاء هذا البحث ليعرِّف بمسائل الاعتقاد عند الشيعة الإمامية من المصادر الأصلية التي يؤمنون بها، ومما كتبوا هم عن أنفسهم، لا مما كُتب عنهم، مستندًا إلى فهمهم للقرآن الكريم ورواياتهم الحديثية المعتمدة، دون الاعتماد على ما كُتب عن الشيعة في تراث خصومهم ولو كانوا من أهل السنة، فلا يأتي ذكر ما رواه أهل السنة عنهم إلا من باب الاطلاع أو المقارنة بين العقائد، أو لمعرفة مدى ما تميَّز به علماء السنة من إنصاف للفرق الأخرى.

وبعد جمع روايات أهل التشيع المعتبرة في باب العقيدة يأتي دور المقارنة لهذه العقائد مع ما توصل إليه علماؤهم من عقائد؛ ليصل الباحث إلى إجابة على سؤال مهم: ما مدى اتساق روايات الشيعة الحديثية مع أفكار علمائهم، وهل شهدت عقائد الشيعة تطورًا بعد غيبة الإمام الثاني عشر؟

أما عن أهم الصعوبات التي اعترضت البحث والباحث، فأهمها: ندرة المصادر الشيعية المتخصصة مع كثرة الركام الكبير من الكتابات حول التشيع - له أو عليه - وقد يسّر اللّٰه الحصول على هذه المصادر من خلال السفر إلى بعض الدول التي تكثر فيها كتب الشيعة، ومن خلال المعارض الدولية التي تلتقي فيها الثقافات من كل اتجاه، إضافة إلى وجود شبكة الاتصالات العالمية (الإنترنت) والتي سهلت معرفة مظان الكتب والتعريف بها... إلخ، ووجود الأقراص الليزرية التي يصدرها الاثنا عشرية موثقة من مراكزهم العلمية.

وكان من الصعوبات: حساسية هذا الموضوع الشائك الذي يتهيب المرء الولوج فيه؛ لما فيه من هالات القداسة لأهل البيت العظماء والصحابة الكرام، كما أنه يتعرض لعقائد حيّة لها أتباعها وأهلها؟ وليست من العقائد البائدة التي فني أهلها واندرس ذكرها، ناهيك عن أن معظم المحاولات السابقة في هذا المضمار لم تجلب إلا الأكدار. والمرء إذا ألّف - في أي علم - فقد استهدف، فكيف إذا ألّف في موضوع يختلف فيه الناس اختلافًا عظيمًا، وتتنوع فيه عوامل الاختلاف، وتتعدد فيه الأفهام، وتؤثّر فيه البيئات والنزعات والسياسات، وقد قال لي مرة أحدهم: بحثك هذا عقيم؛ لأنك لن ترضي أهل السنة ولن ترضي الشيعة، فقلت في نفسي: الهدف الوصول إلى الحقيقة والاجتهاد في طلبها، وهذا يتطلب التجرد الفكري والنظرة العلمية النزيهة العميقة، بأسلوب علمي هادئ بعيد عن التعصب والتزمّت، وعليّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح، وطالب الحق لا يرضى عن الحق بديلًا، ولا يطلب رضا غير خالقه ﷻ.

كما كان من الصعوبات: كثرة الاختلاف بين علماء الاثني عشرية تجاه كثير من المسائل العقدية؛ ففي بعض المسائل يذكر أحد علمائهم الإجماع على رأي معين (كالرجعة)، ثم يأتي عالم آخر فيخالف هذا الذي ادّعى الأول الإجماع فيه، والاستقراء لجميع الآراء كان هو السبيل لحل هذه المشكلة.

أما عن المناهج التي استخدمتها في صياغة هذا البحث: فهي المنهج التاريخي الوصفي الذي اعتمدت عليه في جمع نصوص العقيدة من كتب الحديث الاثني عشرية، والمنهج

التحليلي لدراسة هذه النصوص والغوص في معانيها، ثم المنهج النقدي لهذه النصوص، إضافة إلى المنهج المقارن؛ وذلك لإيضاح الفروق بين عقائد الاثني عشرية من خلال كتب المصادر الحديثية، وعقائد الاثني عشرية من خلال رجال المذهب الاثني عشري وعلمائه، والمقارنة لكل ذلك أيضًا مع عقائد أهل السنة والجماعة إذا لزم الأمر.

هذا وحاولت ما استطعت في هذا البحث الابتعاد عن العواطف؛ ولذلك ابتعدت عن كتب المناظرات والردود بين الشيعة والسنة، وقد جعلني هذا البحث أوقن أن كتب المناظرات والردود بين علماء الملل المختلفة لا تعبر - في غالب الأحوال - تعبيرًا دقيقًا عن مذاهب العلماء وآرائهم، فهي لا تخلو من مزايدات، ولا تخلو من اتهام الطرف الآخر بالسذاجة والبساطة، ومن أمثلة ذلك كتاب المراجعات لعبد الحسين شرف الدين الموسوي [١].

وكما جاء في كتاب (المناظرات بين فقهاء الشيعة والسنة) الذي طبعه صالح الورداني في مصر! [٢].

وكتاب (وركبت السفينة) لمروان خليفات، الذي يحاول أن يتصيد ما يدعم آراءه حول ضياع كثير من أحاديث السنة النبوية، وحول عدالة الصحابة من هنا وهناك، ولو اعتمد على كتب لا اعتبار لها ولا قيمة عند أهل السنة؛ كاعتماده على كتاب (أضواء على السنة المحمدية) لمحمود أبي رية، والذي يمثل تيارًا لهدم السنة النبوية ينكره ويحاربه علماء أهل السنة، فيجعل منه خليفات واسطة موصلة لأقوال علماء أهل السنة!

---

(١) حيث يقوم على « تصوير شيخ الأزهر وشيخ المالكية - وقد تجاوز الثمانين عامًا - على صورة جاهل لا يدري ما في كتب التفسير والحديث عند أهل السنة أنفسهم وما يدرس منها لطلاب الأزهر »!! انظر: د. علي أحمد السالوس: مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع الجزء الأول، دراسة مقارنة في العقائد (ص ٨)، دار التقوى - مصر (١٩٩٧م).

(٢) وسنرى أن قصة المناظرة قديمة مبثوثة في كتب الشيعة، وطبعت من قبل تحت مسمى آخر لم يشر له الورداني! وهو كتاب (مؤتمر علماء بغداد) الذي نسبه الناشر إلى (أبي الهيجاء شبل الدولة: مقاتل بن عطية البكري نسبًا الحنفي مذهبًا!!) مقدمه: السيد شهاب الدين الحسيني المرعشلي النجفي (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) تحقيق الشيخ محمد جميل حمّود، منشورات لبنان: الجنوب - النفاخية. حيث يدعي جهل الطرف المخالف وضعف حجته، وفي النهاية خضوعه لخصمه ورجوعه عن مذهبه « فقد غضب الملك وانزعج من كلام العباسي، وأطرق العباسي وسائر علماء السنة، وبقي العلوي رافعًا رأسه، ينظر في وجه الملك ليرى النتيجة. مرت لحظات على العباسي تمنى فيها أن تنشق الأرض تحته ويغيب فيها، أو يأتيه ملك الموت، فلقد ظهر بطلان مذهبه، ولقد ظهرت خرافة عقيدته أمام الملك ووزيره وسائر العلماء والأركان » مؤتمر علماء بغداد (ص ١٠٢ - ١٠٣). وهناك أمثلة أخرى في كتاب (ليالي بشاور) وغيره.

بحيث يأخذ ما يؤيد هواه، ويترك ما يثبت عكس مناه [1].

وكذلك كتاب (مؤتمر النجف) والذي يتهم فيه أحد أطراف المناظرة الطرف الآخر بالكفر لمجرد أنه لم يقف للسلام عليه! [2].

كما جهدت ما استطعت الابتعاد عن التعميم، حتى لا أنسب إلى هذه الفرقة أو تلك قولًا لم يقل به إلا بعض علمائهم؛ ولذلك لم أعتمد - مثلًا - في مسألة (القرآن الكريم وسلامته من التحريف) عند الشيعة على كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) للنوري الطبرسي؛ حيث لم يرتضه كثير من علماء الشيعة، وأنكروا قوله حقيقة كما سنبين.

وكذلك ابتعد البحث والباحث عن كيل التكفير والتفسيق والتبديع لجميع المخالفين من المسلمين؛ فالبحث العلمي ليس دأبه كيل التهم والمحاسبة والقضاء، إنما هو عرض ونقد علمي موضوعي؛ فالتكفير والتنفير لا يخدم المنهج العلمي، كما أنه لا يقنع ولا يقطع حجة المخالفين، وإنما الذي يخدم العلم ويفحم الخصم: التفكير لا التكفير، وردُّ الشُّبه ومقابلة الحجة بالحجة، وهذا المنهج القويم السديد تشرَّبه الباحث واصطبغ به من

---

(١) مثلًا (ص ١٦٨) يذكر رأيًا للشيخ محمد رشيد رضا ثم يقول في الهامش: « ذكر قوله أبو رية في الأضواء (ص ٥٠) ». وجدير بالذكر أن كتاب (خليفات) هذا يوزع مجانًا وعندي منه نسخة مكتوب عليها: (إهداء ممثلية سماحة آية الله العظمى السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم) مؤسسة الرشد للطباعة والنشر. وهذه بعض عناوين الباب الثاني من هذا الكتاب (الفصل الثاني: ضياع السنة، الفصل الثالث: إشكاليات في مرجعية الصحابة... الفصل الرابع: صور من حياة الصحابة - ومنه عنوان محاولة حرق بيت الزهراء - الفصل السابع: أربعة نماذج من الصحابة - وهم خالد بن الوليد، والمغيرة بن شعبة، والوليد بن عقبة، ومعاوية بن أبي سفيان -). هل هكذا يعمل إخواننا الشيعة من أجل التقريب!!.

(٢) يقول السويدي العباسي في كتاب مؤتمر النجف: « فلما أقبلت على « الاعتماد » وسلَّمت عليه رد علي السلام وهو جالس، فانفعلت ووجدت في نفسي؛ حيث لم يقم على قدميه، فقلت في نفسي: إذا استقر بي الجلوس أقول للاعتماد: إن الشاه أمر برفع المكفرات ووكلني على ذلك، فأول كفر أرفعه الكفر الصادر منك حيث قصدت تحقير العلماء وإهانتهم، ولا أرضى برفعه إلا بقتلك ثم أقوم من مجلسه وأذهب إلى الشاه لأخبره بالواقعة »!. صحيح أن الرجل لم يفعل ما فكر به؛ إذ ظهر له أنه أساء الظن، ولكن ما جال في خاطره وسطّره بيده يدل على الحالة النفسية التي كان داخلًا للحوار من خلالها. وقد ظهر في الكتاب نفسه أن السويدي أساء الظن بالرجل، « فلما استقر بي الجلوس نهض على قدميه ورحب بي... فلما قام علمت أن هذه عادتهم يقومون بعد جلوس القادم ». مؤتمر النجف: مقتطف من مذكرات علامة العراق وعماد هذا المؤتمر السيد عبد الله بن الحسين السويدي العباسي (١١٠٤ - ١١٧٤هـ)، (ص ٧٣، ٧٤)، (ط ٨) القاهرة، المطبعة السلفية (١٣٩٣).

خلال دراسة الكتاب والسنة ومنهجهما في مناقشة المخالفين، في كلية الشريعة وكلية دار العلوم، حرسهما اللّٰه تعالى.

أما عن غاية هذا البحث والمؤمَّل منه:

- تجلية عقائد الإمامية من خلال مصادرهم الأصلية الموثوقة؛ توخّيًا للإنصاف، دون قبول ما يُكتب عنهم بيد خصومهم.

- الاستيثاق من صحة ما ينسب إلى الاثني عشرية من عقائد؛ لأنها إنما وجدت ضمن المصادر الأصلية حيث لا مجال لدخول التقية فيها، بخلاف بعض التصريحات والكتب المؤلفة للتسويق والدعوة للتشيع، تلك التصريحات التي تغلّفها المجاملات أو التقية.

- معرفة ما اتفق عليه السنة والشيعة من عقائد، وما اختلفوا فيه منها.

- إزاحة ما تراكم لدى أهل السنة والشيعة من سوء فهم للآخر على مدى السنين بسبب البعد عن المصادر الأصلية أو سوء فهمها.

- وتكون نتائج الدراسة - إن شاء اللّٰه - أرضًا صلبة لأي نقاش بين أهل السنة والشيعة الاثني عشرية بعد تجلية عقائد كلا الجانبين.

واللّٰه تعالى هو الموفق والمعين، والهادي إلى الصراط المستقيم.

د. مُحَمَّد زَكَرِيَّا ٱلنَّدَاف

* * *

مَدْخَل
تاريخ الأمة المسلمة بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى

إن مما يساعد على معرفة التشيع ونشأته وفرقه وآرائه هو معرفة تاريخ الأمة المسلمة في قرونها الأولى من منظور أهل السنة، بمحاسنه ومساوئه، مع محاولة النظر إلى القرون الأولى من منظور الشيعة أنفسهم؛ إذ ليس هناك اتفاق بين السنة والشيعة على هذا التاريخ الإسلامي، فتاريخ الصدر الأول وهو التاريخ الذي نشأ فيه التشيع وفرقه ليس هو تاريخًا واحدًا بين السنة والشيعة؛ ذلك لأن كلًّا من هاتين الفرقتين ينظر إليه من زاوية مختلفة، وبروايات مختلفة، بحيث يصبح عندنا تاريخان مختلفان لأمة واحدة؛ وكأنهما تاريخان لأمّتين مختلفتين؛ إذ ليس هناك اتفاق على المصادر التاريخية، وليس هناك يقين في صدقها كلها على الإطلاق. فعندما يعتمد أهل السنة على تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير - يعتمد الشيعة على كتاب سليم بن قيس وروايات الكافي؛ بحيث يخرج الباحث لهذا التاريخ بنظرات متناقضة.

وما نراه أحيانًا من اعتماد أي من الطرفين على مصادر الطرف الآخر المقابلة لمصادره ليس اعترافًا بالآخر ومصادره؛ إنما هو من قبيل المقارنة أو إفحام وإسكات الخصم من خلال مصادره.

في حين ينطق تاريخ أهل السنة بأن النبي ﷺ لم ينصب خليفة من بعده، فقامت الأمة بطريقة أو أخرى باختيار خلفائها، مع الاعتقاد بأفضلية الخلفاء الأربعة الأوائل الذين كان آخرهم عليًا ﷺ، وأنه كان محبًا لمن سبقه من الخلفاء، مبايعًا لهم ومناصحًا، ولم يكن يرى لنفسه أفضلية عليهم، ولم يكن يرى منهجهم العقدي والشرعي مختلفًا عن منهجه، وأنه كان على تناصح وتوادد معهم حتى زوَّج ابنته من ثانيهم عمر ﷺ وسمى بعض أولاده بأسمائهم (عبد اللَّه، عمر، عثمان). وكانت عهودهم عهود خير وفتوح وامتداد للإسلام، إلى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان ﷺ، وأن الفتنة التي وقعت في عهد الخليفة الثالث ﷺ وبعيد استشهاده كانت فتنة سياسية يفترض ألا تؤثر على

عقيدة الأمة، ولكن أهوال تلك الأزمة السياسية وأحداثها سببت ظهور بعض الفِرقِ [1] كفرقة الخوارج التي لم ترتض ما ارتضاه علي ﷺ من التحكيم في صفين (رغم أن هذا لم يكن رأيه الخاص) تلك الفرقة التي أتى عن النبي ﷺ نبوءة بظهورها ووجوب قتالها، كما أن وجود عناصر مشوشة خارجية من السبئية اليهودية متمثلة في عبد الله بن سبأ اليهودي وأتباعه من الغلاة المحرضة على اقتتال المسلمين وتفرقهم، وتحويلهم إلى الغلو العقدي في علي ﷺ - سبَّب ظهور بعض الغلاة في علي، الذين حرق علي ﷺ بعضهم.

وبهذا يكون علي ﷺ قد حارب على ثلاثة محاور:

محور داخلي عقدي تمثل بالغلاة فيه؛ حارب غلوهم، وحرّق بعضهم تشنيعًا لاعتقادهم، وكان وراءهم عبد الله بن سبأ اليهودي اليمني. **ومحور داخلي عقدي وعسكري**، يمثله الخوارج الذين كانوا من شيعته بالأمس، ولكن خرجوا عليه بسبب مسألة التحكيم في صفين، فحاججهم وبعث لهم ابن عباس ﷺ يردّ شبههم، فلما يئس من رجوعهم حاربهم. **ومحور عسكري سياسي**: يمثله أهل الشام، ولم يكن في هذا المحور أي خلاف عقدي - كما صرح علي ﷺ نفسه بذلك في نهج البلاغة، وإنما هو خلاف حول السلطة الشرعية.

---

(١) قال ابن حزم: « مات رسول الله ﷺ والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب... كلهم قد أسلم وبنوا المساجد، ليس منها مدينة ولا قرية ولا محلة لأعراب إلا قد قُرِئَ فيها القرآن في الصلوات، وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكُتب، ومات رسول الله ﷺ والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف في شيء أصلًا، بل كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة... إلا ما حدث في آخر حياة رسول الله ﷺ وأول خلافة أبي بكر ﷺ من ظهور الأسود العنسي في جهة صنعاء ومسيلمة في اليمامة يدّعيان النبوة وهما في ذلك مقِرّان بنبوة محمد ﷺ معلنان بذلك، ومن انقسام العرب ومن باليمن من غيرهم أربعة أقسام إثر موته ﷺ؛ فطائفة ثبتت على ما كانت عليه من الإسلام لم تبدل ولزمت طاعة أبي بكر، وهم الجمهور والأكثر، وطائفة بقيت على الإسلام أيضًا إلا أنهم قالوا: نقيم الصلاة وشرايع الإسلام، إلا أنّا لا نؤدي الزكاة إلى أبي بكر ولا نعطي طاعة لأحد بعد رسول الله ﷺ... وطائفة ثالثة أعلنت بالكفر والردة كأصحاب طليحة وسجاح وسائر من ارتد... أخرج إليهم أبو بكر البعوث، فقتل مسيلمة، وقد كان فيروز وذاذويه الفارسيان الفاضلان ﷺ قتلا الأسود العنسي. فلم يمض عام واحد حتى راجع الجميع الإسلام أولهم عن آخرهم، وأسلمت سجاح وطليحة وغيرهم، وإنما كانت نزغة من الشيطان، كنار اشتعلت فأطفأها الله للوقت، ثم مات أبو بكر وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولًا وعرضًا، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق مصر إلا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقًا وغربًا، وبقي كذلك عشرة أعوام وأشهرًا والمؤمنون كلهم لا اختلاف بينهم في شيء بل ملة واحدة ومقالة واحدة... ثم ولي عثمان فزادت الفتوح واتسع الأمر... وبموته حصل الاختلاف وابتداء أمر الروافض » اهـ. [الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٦٦، ٦٧) مكتبة الخانجي - القاهرة].

وكان لتلك المحاور الثلاثة دورها في ضياع **المحور الرابع وهو المحور الخارجي** الذي كان الأَولى للمسلمين في ذلك العهد صرف جهودهم العلمية والعسكرية تجاهه في البلاد التي لم تصلها دعوة الإسلام، ولم يذعن طغاتها لدعوة الإسلام؛ إذ انحسرت في هذه المرحلة حركة الفتوحات الإسلامية التي كانت على أوجِّها في العهود السابقة ثم من بعده في العهود اللاحقة.

ولم يكن استعمال لقب « الشيعة » في عهد علي ﷺ إلا بمعنى الموالاة والنصرة، ولا يعني بحالٍ الإيمان بعقيدة من عقائد الشيعة اليوم [١]، « فإذا أطلقت كلمة شيعة على هذه الجماعات فإنها لا تخرج في دلالتها على معناها اللغوي العام الذي يشير إلى الأتباع والأنصار » [٢].

وانتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى دون وصية منه لأحد من بنيه في الخلافة، ولكن أتباعه (شيعته) – بالمعنى اللغوي ذي الجانب السياسي – بايعوا ابنه الحسن ﷺ والذي رأى أن وحدة الأمة خير من فرقتها، ولو كان ذلك على حساب خلافته؛ فتنازل لمعاوية ﷺ عن الخلافة فسُمي ذلك العام: عام الجماعة.

وإن كانت الأمة تعدّ ما فعله معاوية ﷺ من مبايعة ابنه يزيد خطّأً سياسيًا، لا يستلزم التكفير ولا التفسيق؛ فإنها ترى مقتل الحسين وكثير من أسرته في كربلاء فاجعةً شديدة وذنبًا عظيمًا يتحمله يزيد وواليه عبيد الله بن زياد وكل من اشترك في قتل ريحانة النبي ﷺ، هذه الفاجعة أفسدت ما بناه الحسن ﷺ في عام الجماعة، ومزقت الأمة ووحدتها من جديد، فتحركت مظاهر الغلو مرة أخرى – بعد أن وأدها علي ﷺ في مهدها – على يد المختار الثقفي وحركة « التوابين » في العراق، وما صاحب ذلك من ظلم سياسي نتج عنه ثورات كثيرة كانت أنظار الناس تتجه إلى قادتها من آل البيت.

كل تلك الأحداث الجسام حركت كوامن الماضي وفتحت المجال لغياب العقل وفيضان العاطفة الذي استغله أعداء الإسلام؛ فنشأت الفرق الغالية ومنها غلاة الشيعة وغيرهم، « وصار التشيع وسيلة لكل من أراد هدم الإسلام من ملحد ومنافق وطاغوت،

---

(١) د. ناصر بن عبد الله علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية: عرض ونقد (١/٩٨)، مكتبة الرضا – القاهرة (ط٣)، (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).

(٢) أستاذنا الدكتور عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٨٨) كلية دار العلوم – جامعة القاهرة مجلة حوليات دار العلوم العدد (١٧) سنة (١٩٩٤م) مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٥م).

ودخلت إلى المسلمين أفكار ومعتقدات أجنبية اكتست بثوب التشيع وتيسر دخولها تحت غطائه » [١].

هذا مختصر شديد لأحداث التاريخ المرتبط بنشأة التشيع؛ كما تذكرها كتب تاريخ أهل السنة. فما هي نظرة أهل التشيع لهذا التاريخ؟

نظرة أهل التنشيع الاثني عشري لهذا التاريخ:

إنه تاريخ آخر.. كأنه لأمة أخرى ليست هي الأمة التي خاطبها اللّٰه تعالى بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

مختصر هذا التاريخ يقول: إن التشيع له مبتدأ مغرق في القدم: من عهد آدم على أبعد الأقوال وأغورها، أو من عهد النبي ﷺ على أقرب الأقوال، وهو الحيز المتفق عليه بين الشيعة أنفسهم.

يقول هذا التاريخ: إن اللّٰه تعالى أثبت وصية علي بن أبي طالب عليه السلام وبنيه كما أثبت وصية هارون عليه السلام، وأنه ﷺ أعلن ذلك في عدة أحاديث؛ أشهرها حديث الغدير، وبه كمل الدين، ولكن الأمة بعد وفاة النبي ﷺ تنكّبت عن هذا الأمر، « فلما قبض النبي ﷺ افترست الذئاب وتهارشت الكلاب » [٢]!!؟ فضيّعت حق علي وبنيه عندما رضيت بيعة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، الذين تزعم الروايات الشيعية أنهم مكروا بعلي وفاطمة وأولادهما لسلبهم الخلافة، وأن عليًا عليه السلام إنما سكت عن حقه من أجل مصلحة الأمة تَقِيَّةً.

ويذكر كتاب سليم بن قيس (أقدم كتاب تاريخي مشهور ومتداول بين الشيعة) أن فاطمة تحركت تطوف بيوت الأنصار تذكّرهم بوصية النبي ﷺ فلم يستجيبوا لها، وأُجبر علي رضي الله عنه على البيعة بالخلافة ممن أذعنوا لبيعته زمن النبي ﷺ حتى قال الشاعر:

بايعوه وبعدها طلبوا البيـ ـعة منـه! للّٰه ريـب الدهـور [٣]

وتذكر الروايات الشيعية أن تلامذة النبي ﷺ الأوائل كادوا يحرقون بيت فاطمة وهي بداخله، ونالها من إيذاء عمر ما نالها، ثم ماتت وهي ساخطة على هذه الأمة ممثلة

(١) د. ناصر بن عبد اللّٰه علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد (١/٩٨).

(٢) الخنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٤٤)، مؤسسة البلاغ - بيروت (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).

(٣) الخنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٣٩).

بأبي بكر وعمر [١]. وأنه لم يثبت على وصية النبي ﷺ إلا بضعة أشخاص من الصحابة أشهرهم عمار وأبو ذر وسلمان؟ وجابر بن عبد الله الأنصاري [٢]، فارتدت الأمة إذن بعد وفاة نبيها؛ لأنها خالفت أمره في الإمامة التي ليست منصبًا دنيويًا متروكًا لاجتهاد الأمة كما يرى أهل السنة؛ ولكنها منصب ديني وركن ركين من عقائد الدين.

---

(١) قال سليم: « وضع عمر النار بالباب وهو متخوف أن يخرج علي عليه السلام بسيفه لما عرف من بأسه وشدته حتى احترق الباب. ثم قال لقنفذ: اقتحم عليه فأخرجه، فاقتحم هو وأصحابه، وثار علي عليه السلام إلى سيفه فسبقوا إليه وكاثروه فضبطوه وألقوا في عنقه حبلًا. وجاءت فاطمة عليها السلام لتحول بينهم وبينه، فضربها قنفذ بسوطه وأضغطت بين الباب فصاحت: يا أبتاه يا رسول الله! وألقت جنينا ميتًا، وأثر سوط قنفذ في عضدها مثل الدملوج، ثم أمر أناسًا حوله أن يحملوا الحطب فحملوا الحطب وحمل معهم عمر، فجعلوه حول منزل علي وفاطمة وابنيهما عليهم السلام. ثم نادى عمر حتى أسمع عليًا وفاطمة عليها السلام: (والله لتخرجن يا علي ولتبايعن خليفة رسول الله وإلا أضرمت عليك بيتك النار) فقالت فاطمة عليها السلام: يا عمر! ما لنا ولك؟ فقال: افتحي الباب وإلا أحرقنا عليكم بيتكم، فقالت: (يا عمر، أما تتقي الله تدخل عليَّ بيتي)؟ فأبى أن ينصرف. ودعا عمر بالنار فأضرمها في الباب ثم دفعه فدخل، فاستقبلته فاطمة عليها السلام وصاحت: (يا أبتاه يا رسول الله) فرفع عمر السيف وهو في غمده فوجأ به جنبها فصرخت: (يا أبتاه) فرفع السوط فضرب به ذراعها فنادت: (يا رسول الله، لبئس ما خلفك أبو بكر وعمر)... وقد كان قنفذ لعنه الله ضرب فاطمة عليها السلام بالسوط - حين حالت بينه وبين زوجها، وأرسل إليه عمر: (إن حالت بينك وبينه فاطمة فاضربها) - فألجأها قنفذ لعنه الله إلى عضادة باب بيتها ودفعها فكسر ضلعها من جنبها فألقت جنينًا من بطنها، فلم تزل صاحبة فراش حتى ماتت صلى الله عليها من ذلك شهيدة. قال: ولما انتهى بعلي عليه السلام إلى أبي بكر انتهره عمر وقال له: بايع ودع عنك هذه الأباطيل، فقال عليه السلام له: فإن لم أفعل فما أنتم صانعون؟ قالوا: نقتلك ذلًا وصغارًا... قال: أتجحدون أن رسول الله ﷺ آخى بيني وبينه؟ قال: نعم. فأعاد ذلك عليهم ثلاث مرات. ثم أقبل عليهم علي عليه السلام فقال: يا معشر المسلمين والمهاجرين والأنصار، أنشدكم الله، أسمعتم رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم كذا وكذا وفي غزوة تبوك كذا وكذا؟ فلم يدع عليه السلام شيئًا قاله فيه رسول الله ﷺ علانية للعامة إلا ذكرهم إياه. قالوا: اللهم نعم... فنادى علي عليه السلام قبل أن يبايع - والحبل في عنقه -: ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠] » كتاب سليم بن قيس (ص ١٥٠، ١٥٣، ١٥٨). تحقيق محمد باقر الأنصاري، وهو يمتدحه مدحًا هائلًا في مقدمته، مع أن الشيخ المفيد - من أعلام الاثني عشرية - يقول عن كتاب سليم: « هذا الكتاب غير موثوق به ولا يجوز العمل على أكثره وقد حصل فيه تخليط وتدليس » (المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق: ص ١٢٦).

(٢) قال ابن المرتضى المنية والأمل (ص ١٢٤، ١٢٥) (وهو من الزيدية): « فإن زعموا أن عمارًا، وأبا ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي كانوا سلفهم؛ لقولهم بإمامة علي عليه السلام أكذبهم كون هؤلاء لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهم، ألا ترى أن عمارًا كان عاملًا لعمر بن الخطاب في الكوفة [انظر: ابن الأثير: أسد الغابة (٦٤/٤)، ابن حجر: الإصابة (٥٠٦/٢)، ابن عبد البر: الاستيعاب (٤٧٣/٢)]، وسلمان الفارسي في المدائن » طبقات ابن سعد (٨٧/٤). وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٨٢/١).

أما ما جرى من حرب الردة على عهد أبي بكر؛ فإنما كان لأن القبائل لم ترتض أبا بكر خليفة؛ لأنهم يعلمون أن عليًا هو الخليفة بعد النبي ﷺ، وليس أبا بكر؛ ولذلك فلم تكن (حروب الردة) صوابًا ولا جهادًا، بل ظلمًا وزيادة في الطغيان؛ لإجبار الناس على الدخول في بيعة أبي بكر، وكذلك كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الثلاثة (وهو لقب الخلفاء الثلاثة الراشدين قبل علي عند الشيعة) لأطماع دنيوية، وكذلك كانت الفتوحات في عهود الأمويين والعباسيين من أجل حطام الدنيا لا من أجل الدعوة والعقيدة!.

ولم تكن الوصية النبوية لخلافة علي عليه السلام له وحده، بل هي وصية له وأحد عشر رجلًا من أولاده وأحفاده، وأن آخرهم ولد واختفى وأنه في سرداب ينتظر أمر ربه بالخروج ليقيم العوج ويصلح ما أفسده الرعيل الأول، ويُخرِج صاحبي النبي ﷺ فينتقم منهما.

وكل مفاخر أهل السنة من فتوحات ومن حكومات ودول إنما هي هباء لا قيمة له في النظرة الشيعية؛ لأنها إنما كانت على حساب غصب الخلافة من علي وبنيه. علاوة على أن « الفتوح الإسلامية كان القصد الأول منها السيطرة، وامتداد السلطان، وإيجاد أرض للمسلمين يعيشون فيها أغنى من أرضهم، وتربة أخصب من تربتهم » [(١)].

هذه نظرة الشيعة لتاريخ القرون الإسلامية الأولى [(٢)].

وهي نظرة مختلفة تمامًا عن نظرة أهل السنة الذين ينكرون هذه النظرة الشيعية الظالمة للتاريخ، ويرون أن « الشيعة حزب؛ وهم لذلك يزيفون كل ما يقف عقبة في سبيل توطيد مركزهم، ويتهافتون على كل ما يتوهمون أنه يساعدهم، ويؤولون التاريخ حسب ما تهوى نفوسهم » [(٣)]. ومن العجب أن يستقي بعض كتّاب أهل السنة أحداث التاريخ من هذه النظرة الشيعية [(٤)]!.

---

(١) الكاتب الشيعي: محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٢٧)، (ط٤) دار الشروق - بيروت.

(٢) انظر: مرتضى العسكري: معالم المدرستين (١/٤٦٠ - ٥٥٠ - ٥٥٦) المجمع العلمي الإسلامي (ط٦) (١٤١٣هـ / ١٩٩٤م).

(٣) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٣٢). طبعة دار المعارف - القاهرة (١٩٨٤م).

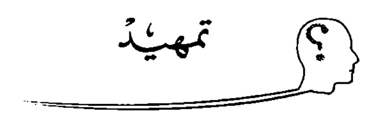
(٤) كما فعل د. علي سامي النشار في كتابه نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام؛ إذ يروي رواية قريبة من رواية سليم بن قيس، وفيها أن أبا بكر وعمر وأتباعهما هجموا على بيت فاطمة لما علموا دخول بعض الصحابة بيتها، فقالت: « والله! لتخرجُنَّ أو لأكشفن شعري ولأعجّن إلى الله. فخشي الصحابة دعوتها وخرجوا »!! نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/٢٥). حاشا لله؟ لا يفعل الشيخان مثل هذا بينت رسول الله، وحاشا بنت النبي ﷺ أن تكشف شعرها، وهي الزهراء البتول رضي الله عنها .

هذا ملخص تاريخ الأمة الإسلامية بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، عرضته من منظارين مختلفين، كما هو في عيون أهل السنة والجماعة وعيون الشيعة الاثني عشرية.

ولا شك أن هذا التاريخ سيبقى ماثلًا في عقول أبناء الطائفتين، وستبني كل طائفة مستقبلها بناء على تصورها الخاص لهذا التاريخ؛ ومن ههنا ستأتي النتائج مختلفة بين الفريقين.

وسنعرض فيما يلي تصور كل طائفة منهما لتعريف التشيع وتحليل مفاهيمه.

* * *



- **تعريف الشيعة والتشيع.**
- **فرق الشيعة.**
- **عوامل نشوء وتطور الفكر الشيعي.**

أولاً: تعريف الشيعة والتشيع:

لغةً:

قال ابن منظور (ت ٧١١هـ): « الشيعة أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شيع، وأشياع جمع الجمع... وأصل الشيعة: الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنًى واحدٍ، وقد غلب هذا الاسم على من يتولى عليًّا وأهل بيته - رضوان اللَّه عليهم أجمعين - حتى صار لهم اسمًا خاصًّا، فإذا قيل: فلان من الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي: عندهم، وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة...

والشيعة: قوم يرون رأي غيرهم، وتشايع القوم: صاروا شيعًا، وتشيّع الرجل إذا ادعى دعوى الشّيعة، وشايعه شياعًا وشيّعه تابعه... وشيَّعه على رأيه وشايعه، كلاهما: تابعه وقوَّاه...

وشاعت القطرة من اللبن في الماء وتشيعت: تفرقت. تقول: تقطر قطرة من لبن في الماء، وشَيّع فيه أي تفرَّق فيه » [١].

وقال الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ): « كل من عاون إنسانًا وتحزَّب له فهو له شيعة، وأصل الشيعة من المشايعة وهي المتابعة » [٢].

فالشيعة، والتشيع، والمشايعة في اللغة تدور حول معنى المتابعة، والمناصرة، والموافقة بالرأي، والاجتماع على الأمر، أو الممالأة عليه [٣].

---

(١) لسان العرب: مادة: ش ي ع (٨/ ١٨٨ - ١٩٢)، مختار الصحاح (ص ١٤٨) مادة شيع، وانظر النهاية في غريب الحديث (٢/١١٥).

(٢) تاج العروس (٥/٤٠٥)، مادة (ش ي ع).

(٣) د. ناصر بن عبد اللَّه علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٦).

وهذا التعريف اللغوي للشيعة محل اتفاق؛ ولذلك تقول دائرة المعارف الشيعية العامة: « الشيعة بالكسر الأتباع والأنصار، وقد غلب على كل من يتولى عليًا وأهل بيته » [(١)].

ولكن إذا دار معنى كلمة التشيع على الاجتماع والمناصرة، فإن له في الوقت نفسه معنًى آخر، يدل على عكس ذلك؛ فالتشيع يحمل في طيّات معانيه التفرق والتشرذم؛ لأن التشيع تجمُّع من ناحية، وتشرذمٌ وتفرّق عن باقي الشيع والفرق من ناحية أخرى، كما مر في لسان العرب (الشيعة: قوم يرون رأي غيرهم)، وهذا ما أشار إليه الجرجاني عندما بيّن أن الشياع في اللغة يدل على معنى الانتشار أيضًا، يقال: شاع القوم أي: انتشروا [(٢)].

التعريف الاصطلاحي للشيعة والتشيع:

إن التعريف الاصطلاحي لكلمة الشيعة ليس متفقًا عليه بين السنة والشيعة، ولا بين الشيعة أنفسهم، ولا يمكن الوصول إلى تعريف واضح ومقنع لهذا المصطلح إلا بعد التعرف على تاريخ نشوئه.

- أولًا: مفهوم كلمة الشيعة من منظور الشيعة الاثني عشرية أنفسهم:

لفظ الشيعة اصطلاحيًا لدى الشيعة الاثني عشرية لفظ قديم، على اعتبار أنهم يعدّون التشيع ممتدًا من حياة النبي ﷺ الذي يرون أنه نصَّ على خلافة علي رضي الله عنه والأحد عشر خليفة من ذريته [(٣)].

بل من الشيعة من يرى أن التشيع أقدم من هذا بكثير: فيرى القمي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣]: « أي إن إبراهيم من شيعة علي » [(٤)]!!

جاء في أصول الكافي - أشهر كتب الحديث الاثني عشرية - عن أبي الحسن عليه السلام

---

(١) دائرة المعارف الشيعية العامة، العلامة محمد حسين الأعلمي الحائري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت (١١/١٩٦).

(٢) الجرجاني: التعريفات (ص ٤٤٣) دار الكتاب العربي بيروت (١٤٠٥هـ)، (ط١) تحقيق إبراهيم الأبياري. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داودي (ص ٤٧٠).

(٣) أصول الكافي (١/٦٠٦) كتاب الحجة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم.

(٤) انظر: القمي: تفسير القمي (٢/٣٢٣)، المجلسي: بحار الأنوار (٦٨/١٢، ١٣) ونسبوا هذا إلى جعفر الصادق. وقد خالف بعض مفسري الشيعة هذا التفسير كالطبرسي في مجمع البيان (٥/٦٧) ففسر الآية قريبًا من قول أهل السنة، وأعرض عن رأي القمي والمجلسي وغيرهما.

قال: « **ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوة محمد ﷺ ووصيه علي عليه السلام** »[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « **ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبيًا قط إلا بها** »[٢].

وقد جاء تعريف القمي[٣] وكذلك النوبختي[٤] للشيعة بأنهم « فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي ﷺ وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته »[٥]، وهو تعريف يجمع كل فرق الشيعة الاثني عشرية وغيرها، فيدخل فيه الزيدية وغيرهم، كما يدخل فيه أنصار علي مطلقًا حتى من وافقه سياسيًا من الصحابة الكرام، كعمار ابن ياسر رضي الله عنه؛ فهذا التعريف ليس منطبقًا فقط على الاثني عشرية.

يقول الشيخ ابن البراج الشيعي: « إذا وقف إنسان شيئًا على المسلمين كان ذلك لجميع من أقر بالشهادتين، وأركان الشريعة؛ من الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد. فإن وقفه على المؤمنين؛ كان ذلك لمجتنبي الكبائر من أهل الحق والمعرفة بالإمامة دون غيرهم، ودون الفساق منهم. فإن وقفه على الشيعة، ولم يعين منهم فرقة دون أخرى، ولا قومًا دون قوم - كان ذلك جاريًا على الشيعة الإمامية، والجارودية وجميع فرق الشيعة، من الكيسانية، والناووسية، والفطحية، والواقفية، والاثني عشرية، إلا البترية؛ فإنهم لا يدخلون معهم جملة. فإن وقفه على الإمامية؛ كان جاريًا على القائلين بإمامة الاثني عشر، فإن وقفه على الزيدية؛ كان جاريًا على القائلين بإمامة زيد بن علي، وإمامة كل من خرج بالسيف من ولد فاطمة عليها السلام »[٦].

---

(١) أصول الكافي (٥٠٧/١). كتاب الحجة، بابٌ فيه نتفٌ وجوامع من الرواية في الولاية، نص محقق أصول الكافي على أنه حديث مجهول.

(٢) أصول الكافي (٥٠٧/١). كتاب الحجة، بابٌ فيه نتفٌ وجوامع من الرواية في الولاية.

(٣) القمي : سعد بن عبد الله القمي، هو عند الشيعة جليل القدر، واسع الأخبار، كثير التصنيف، ثقة. من كتبه: الضياء في الإمامة، ومقالات الإمامية، توفي سنة (٣٠١هـ) وقيل: (٢٩٩هـ). انظر: الطوسي: الفهرست (ص ١٠٥)، الأردبيلي: جامع الرواة (٣٥٥/١).

(٤) الحسن بن موسى النوبختي: أبو محمد، متكلم، فيلسوف، قال الطوسي: كان إماميًا حسن الاعتقاد، له مصنفات كثيرة منها: كتاب الآراء والديانات. توفي بعد الثلاثمائة). انظر في ترجمته: الطوسي: الفهرست (ص ٧٥)، الأردبيلي: جامع الرواة (٢٢٨/١)، ابن النديم: الفهرست (ص ١٧٧)، القمي: الكنى والألقاب (١٤٨/١)، كحالة: معجم المؤلفين (٢٩٨/٣)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (٣٢٧/١٥).

(٥) القمي: المقالات والفرق (ص ٣). والنوبختي: فرق الشيعة (ص ١٧ - ٢٠).

(٦) القاضي عبد العزيز بن البراج الطرابلسي (ت ٤٨١هـ)، المهذب (٨٩/٢) مؤسسة النشر التابعة لجماعة =

ويقول عبد اللّٰه شبر (ت ١٢٤٢هـ): « إن لفظ الشيعة يطلق على من قال بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام بعد النبي ﷺ بلا فصل، والمخالف في ذلك العامة [١]، ولفظ الإمامية والاثني عشرية مختص بمن قال بإمامة الاثني عشر صلوات اللّٰه عليهم، والمخالف في ذلك سائر فرق الشيعة » [٢].

وهناك تعاريف أخرى تبدأ بحصر مفهوم الشيعة في أقوام دون أقوام منهم، كالتعريف الذي نقله النجاشي عن أبان بن عثمان – أحد أصحاب الصادق والباقر وزين العابدين –: « الشيعة: الذين إذا اختلف الناس عن رسول اللّٰه أخذوا بقول علي، وإذا اختلف الناس عن علي أخذوا بقول جعفر بن محمد » [٣].

ومن هذه التعاريف تعريف الشيخ المفيد [٤]: « أتباع أمير المؤمنين صلوات اللّٰه عليه، على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول صلوات اللّٰه عليه وآله بلا فصل، ونفي الإمامة عمن تقدمه في مقام الخلافة، وجعله في الاعتقاد متبوعًا لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء » [٥].

ولذلك فالتعريف هنا ينتقل من الشيعة العامة إلى الشيعة العقدية الخاصة، بسماتها الاثني عشرية، وأهم ضروراتها: إنكار إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة، والقول بإمامة علي منذ وفاة النبي ﷺ دون فصل زمني.

ولذلك يؤكد المفيد أنه لا يدخل في هذا التعريف إلا الإمامية والجارودية [٦] من

= المدرسين، المطبعة العلمية رقم (١٤٠٦) تحت إشراف الشيخ جعفر السبحاني.

(١) مصطلح العامة عند الاثني عشرية، يعني من خالفهم من الفرق، كأهل السنة والجماعة. ويقابله مصطلح: الخاصة، أي: الاثني عشرية كما سنرى.

(٢) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٥١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت (ط١)، (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).

(٣) أحمد بن علي النجاشي: رجال النجاشي (٨٧/١). تحقيق محمد جواد النائيني (ط١) دار الأضواء – بيروت.

(٤) محمد بن محمد النعمان الكعبري الملقب بالمفيد شيخ الطائفة، وله قريب من مائتي مصنف. ومات سنة (٤١٣هـ). انظر في ترجمته: الطوسي: الفهرست (ص ١٩٠)، ابن النديم: الفهرست (ص ١٩٧)، وقارن: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٢٣١/٣)، ابن الجوزي / المنتظم (١١٨/٨).

(٥) أوائل المقالات (ص ٣٩). ويفهم أن قوله (على وجه الاقتداء) لإخراج المفيد التصرفات التي اقتدى فيها علي بالأئمة الثلاثة قبله ﷺ مخرج التقية والمداراة، لا الطاعة والاقتداء.

(٦) الجارودية: فرقة من فرق الزيدية وتنسب إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الهمداني الأعمى الكوفي. قال عنه أبو حاتم: كان رافضيًا، يضع الحديث في مثالب أصحاب رسول اللّٰه ﷺ ورضي اللّٰه عنهم... ومن مقالة =

الزيدية فقط؛ لأنها تقول بتعيين الإمام علي بعد النبي ﷺ إمامًا، وأن الناس ضلوا من بعده. وهم بهذا يوافقون الاثني عشرية في هذا الجانب المهم من عقيدة الإمامة، أما باقي الزيدية [١] والكيسانية [٢] فلا تشملهم كلمة الشيعة حسب تعريف المفيد، على خلاف تعريف القمي والنوبختي [٣].

ولما كان تعريف المفيد قد أغفل جانب النص على الإمام علي من النبي ﷺ، فقد جاء تعريف الطوسي [٤] ليحصر الشيعة أكثر فأكثر؛ فيربط وصف التشيع بالاعتقاد بكون علي إمامًا للمسلمين بوصية من الرسول ﷺ وبإرادة من اللّٰه [٥]. وهو التعريف الذي يرتضيه محمد جواد مغنية من المعاصرين فيقول في لفظ الشيعة أنه « علَم على من يؤمن بأن عليًا هو الخليفة بنصّ النبي » [٦]. وهذا التعريف يؤكد أن أهم عنصر من عناصر عقيدة الشيعة الاثني عشرية هو عنصر الإمامة والنص على الإمام بالذات.

ويرتضي عبد اللّٰه فياض - وهو شيعي - تعريف ابن حزم للشيعة ويراه من أدق التعاريف [٧]: يقول ابن حزم: « ومن وافق الشيعة في أن عليًا ﷺ أفضل الناس بعد رسول اللّٰه ﷺ وأحقهم بالإمامة وولده من بعده؛ فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا

= الجارودية: أن رسول اللّٰه ﷺ نص على علي ﷺ بالإشارة والوصف دون التسمية والتعيين، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره، انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٢١)، الأشعري: مقالات الإسلاميين (٦٦/١، ٦٧).

(١) الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين، كان يفضل عليًا على باقي الصحابة، ولكنه كان يتولى الشيخين ويرى الخروج على أئمة الجور. انظر: مقالات الإسلاميين (٦٦/١، ٦٧)، الهيئة العامة لقصور الثقافة (ط٤)، (١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).

(٢) سموا بالكيسانية نسبة إلى زعيمها المختار الثقفي الذي كان يقال له: (كيسان) ويقال: هو مولى علي ﷺ، وهي إحدى عشرة فرقة تدعي إمامة محمد ابن الحنفية، منهم من وقف الإمامة عليه وقال إنه بجبال رضوى، ومنهم من قال بإمامة ابنه أبي هاشم من بعده، ومنهم من يقول برجعة محمد بن الحنفية. انظر: الأشعري مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (٢١/١).

(٣) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٥٠/١).

(٤) أبو جعفر محمد بن الحسين بن علي الطوسي هو عندهم شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، وهو مؤلف كتابين من كتبهم الأربعة (التي هي كالكتب الستة عند أهل السنة) وهما: تهذيب (الأحكام) و (الاستبصار)، توفي سنة (٤٦٠هـ). انظر: القمي: الكنى والألقاب (٣٥٧/٢)، وانظر: لسان الميزان لابن حجر (١٣٥/٥).

(٥) تلخيص الشافي (٥٦/٢).

(٦) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٥).

(٧) عبد اللّٰه فياض: تاريخ الإمامية (ص ٣٣).

ذلك مما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيًا » [(١)].

ولذلك جاء في دائرة المعارف الشيعية: « الشيعي: في مقابل السني ينصرف أولًا إلى الإمامية » [(٢)].

أما تعريف الشيعة على لسان أئمة أهل البيت؛ فلم يكن هذا ولا ذاك من التعاريف السابقة، بل كان تعريفًا موحِّدًا للأمة لا مفرّقًا لها: فعن أبي جعفر (ع) قال: « **لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله ﷻ** » [(٣)]. أي: « لا تحسبوا أن مجرد القول بالتشيع كافٍ في النجاة... من دون مشايعة لنا في عبادة الله تعالى » [(٤)].

- **مفهوم الشيعة والتشيع عند أهل السنة:**

لقد لاحظ أهل السنة تطور مفهوم التشيع تطورًا كبيرًا عبر التاريخ.

فتعريف الشيعة مرتبط أساسًا بأطوار نشأتهم ومراحل تطور آرائهم؛ ذلك أن عقائد الشيعة وأفكارهم « في تغير وتطور مستمر، فالتشيع في العصر الأول غير التشيع فيما بعده » [(٥)]. ولذلك يرى كتّاب أهل السنة « أن الشيعة كفكر وعقيدة لم تولد فجأة، بل إنها أخذت طورًا زمنيًا، ومرت بمراحل » [(٦)].

فقد كان التشيع في البداية لفظًا عامًّا يطلق على كل جماعة اجتمعت على رأي؛ فقد وردت في القرآن الكريم على عدة معانٍ:

أحدها: الفرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله في حق فرعون: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ [القصص: ٤].

والثاني: الأهل والنسب، ومنه قوله تعالى في حق موسى ﵇: ﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٥].

والثالث: أهل الملة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٠٧/٢).

(٢) دائرة المعارف الشيعية العامة، العلامة محمد حسين الأعلمي الحائري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (٢٠١/١١).

(٣) أصول الكافي (٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى.

(٤) الوافي شرح الكافي (٦٠/٣).

(٥) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٦٤/١).

(٦) المرجع السابق (٩٥/١).

عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٥١]، وقوله: ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم ﴾ [سبأ: ٥٤]. وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣].

والرابع: الأهواء المختلفة، قال تعالى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ٦٥] [١].

والملاحظ أن لفظ الشيعة لم يأت ممدوحًا في القرآن على الغالب، اللَّهم إلا ما ورد في حق نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣]؛ لأن « لفظ الشيعة من الشِّياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع » [٢].

وكذلك وردت في السنة لفظًا عامًّا يشمل كل الفرق، حتى الخوارج؛ فقد قال رجل للنبي ﷺ: لم أرك عدلت قال: فغضب رسول اللَّه ﷺ ثم قال: « ... **فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرَّمِيَّة** » [٣]. ومعلوم أن هذا النص كان في شأن الخوارج.

وما ورد من روايات حديثية على لسان النبي ﷺ تخص الشيعة (مذهبًا عقديًّا) بالمديح أو الذم فإنه لا يصح منها شيء، بل كلها ضعيفة أو موضوعة [٤].

وكذلك في « خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يكن أحد يسمى من الشيعة، ولا تضاف الشيعة إلى أحد لا عثمان ولا علي ولا غيرهما، فلما قتل عثمان تفرق المسلمون؛ فمال قومٌ إلى عثمان، ومال قومٌ إلى علي، واقتتلت الطائفتان « وقيل حينئذ: شيعة عثمان، شيعة علي » [٥].

وكذلك ما ثبت من استخدام الصحابة لكلمة الشيعة فيما بعد - لم يكن على

---

(١) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٨ - ٤٠).

(٢) ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد (١/١٥٥) وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٤٠).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢/٢١٩) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه. صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر، وهذا الرجل الذي أساء الأدب مع النبي ﷺ هو ذو الخويصرة التميمي.

(٤) مثل حديث: « فاستغفرت لعلي وشيعته » ذكره الكناني في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١/٤١٤)، وكذلك ذكر ابن الجوزي بعض تلك الأحاديث في كتابه الموضوعات (١/٣٩٧). وقد نبه ابن تيمية على كذب ووضع الأحاديث التي فيها لفظ الرافضة - وهو معادل لفظ الشيعة تقريبًا - في منهاج السنة (١/٨).

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/٩٥).

أساس عقدي، بل على الأساس اللغوي، ولم تكن خاصة بعلي أو أتباعه؛ فقد استخدمت للإشارة إلى أهل الجمل، قال أحد التابعين من مخالفي السيدة عائشة رضي الله عنها في موقفها يوم الجمل: « نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئًا فأبت فيهما إلا مضيًا » (١)، واستخدمها الطرفان يوم صفين؛ فهناك شيعة علي وشيعة معاوية، ووردت في وثيقة التحكيم بين علي ومعاوية « بأن عليًا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس، ورضي معاوية وشيعته بعمرو ابن العاص » (٢). وقال معاوية لبسر بن أرطأة: « امض حتى تأتي صنعاء، فإن لنا بها شيعة » (٣).

ثم مع مرور الزمن صارت تطلق على من يدعي نصرة آل البيت خاصة، وكانت تدل على ميل عاطفي وموقف سياسي، وليس على اتجاه عقدي.

وقد خالف الأستاذ أحمد أمين ذلك عندما قال: « كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه، وأولى أهل البيت العباس عم النبي وعلي ابن عمه، وعلي أولى من العباس... والعباس نفسه لم ينازع عليًا في أولويته للخلافة » (٤).

وهذا القول لا يميز بين التشيع العاطفي أو السياسي البسيط الذي لا يعدو الميل إلى علي عاطفيًا أو سياسيًا، والتشيع العقدي الذي صار فيما بعد عقيدة خاصة تخالف جمهور المسلمين، فلو صح قول أحمد أمين؛ فلا بد من « القول بأنه إذا وجد تشيع في زمن النبي ﷺ فلا يمكن أن يكون كالتشيع في العهد الأموي وما بعده » (٥)؛ حيث اصطبغ بالجانب العقدي إلى العظم.

ولذلك علينا أن نتذكر أن « الشيعة باعتبارها فكرة وعقيدة لم تولد فجأة؛ بل إنها أخذت أطوارًا زمنية » (٦). فالأحداث التاريخية في عهد علي كانت تزيد من ترابط أتباعه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض رقم (٧٤٦) ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي - بيروت (١٣٩٢هـ)، (ط٢). وقائل القول هو: حكيم بن أفلح.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري (٥/٥٣)، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية (ص ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) تاريخ اليعقوبي (٢/١٩٧).

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٢١).

(٥) د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (اليهودية والمسيحية والمجوسية) (ص ٣٣)، (ط١)، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م)، وهو في الأصل رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، طنطا، قسم العقيدة والفلسفة (١٩٨٥م).

(٦) د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية، جامعة الأزهر كلية أصول الدين - القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م). (ص ٢١).

عاطفيًا [١]، حتى قتل ﷺ وجاء ابنه الحسن من بعده، وبقي أتباع أبيه على ولائهم له، وكان هذا سببًا لتعرض مخلصيهم ومشاهيرهم للقتل، فقد « كان زياد يتبع شيعة علي فيقتلهم، فبلغ ذلك الحسنَ بن علي فقال: اللَّهم تفرَّد بموته فإن القتل كفارةٌ » [٢]. ولكن طيلة هذه الفترة الطويلة لم يكن التشيع سوى اتجاه سياسي؟ ولم يكن قد أخذ وجهًا عقديًّا.

ولكن بعد مقتل الحسين ونشوء حركة التوابين [٣] كان اصطلاح الشيعة قد انحصر فيمن يدعي نصرة آل البيت، « وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة في الكوفة، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم على الحسين فلم يغيثوه، ورأوا أنهم أخطؤوا بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه » [٤] وتكونت حركة التوابين، ثم حركة المختار (الكيسانية) وبدأت الشيعة تتكون وتضع أصول مذهبها، وأخذت تتميز بهذا الاسم [٥].

« لقد انتهى القرن الأول والتشيع في غالب أمره ميل عاطفي وولاء قلبي لآل البيت من نسل النبي ﷺ، زاد من حرارته ومن مرارته في الوقت نفسه الكوارث التي عاناها قادة هذا البيت من السلطة الأموية، وعلى رأسها كارثة كربلاء، التي ذهب ضحيتها الحسين بن علي سبط الرسول وسيد شباب الجنة » [٦].

ثم صارت لفظًا عقديًّا فيما بعد: « وحكى الجاحظ أنه كان في الصدر الأول لا يسمَّى شيعيًّا إلا من قدَّم عليًّا على عثمان؛ ولذلك قيل: شيعي وعثماني، فالشيعي من قدم عليًّا والعثماني من قدم عثمان، وكان واصل بن عطاء ينسب إلى الشيعة في ذلك الزمان؛ لأنه كان يقدم عليًّا على عثمان » [٧].

---

(١) أقول عاطفيًا؛ لأنه ثبت عن علي ذمهم والشكاية الدائمة منهم بسبب تقاعسهم عن الجهاد. وكذلك فعلوا مع الحسن والحسين ﵄ وهذا ما سيظهر في ثنايا الرسالة.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد، وقال (٦/٢٦٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الذين لاموا أنفسهم على تقاعسهم عن نصرة الحسين، وصاروا يسعون في قتل قتلته.

(٤) المسعودي (علي بن الحسين، أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر (٢/١١٠)، وانظر د. علي سامي النشار (٢/٣٥)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٤٦).

(٥) انظر د.علي سامي النشار (٢/٣٥)، د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٤٦).

(٦) الأستاذ الدكتور حسن الشافعي: مدخل إلى علم الكلام (ص ٦٧). مكتبة وهبة (ط ٢)، (١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

(٧) د. عبد الفتاح الفاوي: اختلاف المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢١).

ويؤكد هذا المعنى ما في كتب الحديث؛ ففي صحيح البخاري عن اثنين من الرواة: « وكان علويًّا.. وكان عثمانيًّا... » [(١)]. قال ابن حجر: « (كان عثمانيًّا): أي يقدم عثمان على علي في الفضل... (وكان علويًّا): أي يقدم عليًّا في الفضل على عثمان. وهو مذهب مشهور لجماعة من أهل السنة بالكوفة » [(٢)].

ثم تطور لفظ الشيعة فأصبح يطلق على من فضّل عليًّا على الشيخين، وقد كان ذلك على يد الغلاة زمن علي، وهذا أمر بدهي؛ إذ ادَّعوا إلهية علي، فمن باب أولى أن يفضلوه على غيره من البشر، ولقد تسرّبت فكرة التفضيل له على الشيخين إلى بعض أتباعه، ثم تحول التفضيل لعلي على الشيخين إلى ذم الشيخين، وإنكار بيعتهما ورفضهما؛ فسموا بالرافضة لأجل ذلك، كما هو الحال في الصورة النهائية للإمامية الإسماعيلية والاثني عشرية، في حين امتنع بعض الشيعة عن ذم الشيخين وإن قالوا بأفضلية علي وأحقيّته بالخلافة، كما هو الحال عند الزيدية.

والتاريخ يبين أن مذهب تفضيل علي على الشيخين لم يكن مذهب أتباعه الأوائل، ويشهد لهذا أن شريك بن عبد اللّٰه النخعي قاضي واسط والكوفة (ت ١٧٧هـ) [(٣)] كان من شيعة علي، قيل له: أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر، فقال: « كان شيعة علي على هذا، وكان علي يقول على أعواد هذا المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر. أفكنّا نكذِّبه، واللّٰه! ما كان كذّابًا » [(٤)].

وهذا يعني أن فكرة تفضيل علي على الشيخين قد تسللت إلى الفكر الإسلامي

---

(١) صحيح البخاري: باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة.. إلخ رقم (٢٩١٥)، ترقيم الأستاذ الدكتور مصطفى ديب البغا، دار اليمامة، دار ابن كثير بيروت (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). ونصه: قال حدثني محمد بن عبد اللّٰه بن حوشب الطائفي حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن وكان عثمانيًّا، فقال لابن عطية، وكان علويًّا: « إني لأعلم ما الذي جرأ صاحبك على الدماء، سمعته يقول: ثم بعثني النبي ﷺ والزبير فقال: « ائتوا روضة كذا وتجدون بها امرأة أعطاها حاطب كتابًا ». فأتينا الروضة فقلنا: الكتاب! قالت: لم يعطني. فقلنا: لتخرجن أو لأجردنك. فأخرجت من حجزتها،... فهذا الذي جرّأه ».

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٩١/٦). دار المعرفة - بيروت.

(٣) قال ابن حجر في تقريب التهذيب (ص ٢٢٦): « شريك بن عبد اللّٰه النخعي الكوفي القاضي بواسط ثم الكوفة، أبو عبد اللّٰه صدوق يخطئ كثيرًا، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلًا فاضلًا عابدًا شديدًا على أهل البدع، من الثامنة، مات سنة سبع أو ثمان وسبعين ». ترجمة رقم (٢٧٨٧) دار الرشيد دمشق (ط١)، (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، تحقيق الشيخ / محمد عوامة.

(٤) ابن تيمية: النبوّات (ص ١٣٢).

أو طفت على السطح الشيعي في القرن الهجري الثاني، وأنها لم تكن قبل ذلك الوقت سمة التشيع، فقد قال أبو إسحاق السبيعي شيخ الكوفة وعالمها (ت ١٢٧هـ): « خرجت من الكوفة وليس أحد يشك في فضل أبي بكر وعمر وتقديمهما، وقدمت الآن وهم يقولون، ويقولون، ويقولون، لا والله! ما أدري ما يقولون » [(١)].

فالتشيع إذن مشى بخطوات متطورة على مدى الزمن؛ « فقد كان لكل عصر نوع من التشيع، ولكل طائفة شيعية لون منه. فقد وجد المعاصرون لعلي الذين أبرزوا فضائله وكفاءته، كما ظهر في عهده من فضّل عليًا على عثمان فقط، وظهر بعد ذلك الرافضة الذين رفضوا ولايتي أبي بكر وعمر، ثم ظهر الغلاة الذين كفّروا الصحابة » [(٢)]. وهكذا سار التاريخ بالتشيع في تطوره، فنشأت فِرَق وبادتْ فِرَق، حتى استقرت الفرق الشيعية إلى ما نعهده اليوم من زيدية واثني عشرية وإسماعيلية... إلخ.

وفي منظور أهل السنة لا يقتصر مفهوم الشيعة على فرقة واحدة كالإمامية، بل يشمل كل من شايع عليًا وبنى على أساس هذا التشيع أفكارًا، سواء أكانت هذه الأفكار معتدلة أم غالية؛ ولذلك يرى الدكتور دغيم أن « الشيعة هم الذين شايعوا عليًا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية، إما جليًا وإما خفيًا، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عن أولاده، وهي ركن الدين » [(٣)]. وهذا التعريف يشمل الزيدية كما يشمل الاثني عشرية والإسماعيلية، ويشمل من وقفوا على الطريق منهم أيضًا، كالواقفية الذين كانوا يقولون بحياة بعض الأئمة، بدءًا من علي ﷺ ونهاية بالمهدي المنتظر.

ثانيًا: فِرَق الشيعة:

تتعدد فرق الشيعة في التاريخ تعددًا كبيرًا يصعب الإحاطة به هنا؛ لأن بسط هذه الفرق يخرج عن مقصود البحث. وقد علل جعفر الصادق رحمه الله ذلك التفرق عندما سئل: « جعلني الله فداك! ما هذا الاختلاف الذي بين شيعتكم؟ فقال: وأي الاختلاف؟ فقال: إني لأجلس في حِلَقهم بالكوفة فأكاد أشك في اختلافهم في حديثهم.. فقال أبو عبد الله: أجل، هو كما ذكرت أن الناس أولعوا بالكذب علينا، وإني أحدّث أحدهم

---

(١) المنتقى (ص ٣٧٥).

(٢) أ.د. عبد الفتاح أحمد الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢٢). مطبوعات قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

(٣) د. سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي (١/٦٧٧، ٦٧٨)، مكتبة لبنان ناشرون.

بالحديث، فلا يخرج من عندي، حتى يتأوله على غير تأويله؛ وذلك أنهم لا يطلبون بحديثنا وبحبنا ما عند اللَّه، وإنما يطلبون الدنيا، وكلٌّ يحب أن يُدعى رأسًا » [١].

وهذه الرواية تبين أن من أسباب تفرق الشيعة:

- الكذب على الأئمة.
- تأوُّل أحاديثهم على غير المراد.
- طلب الدنيا بأقوال الأئمة.
- طلب الزعامة والرئاسة من بعض المتشيعين؛ مما يؤدي إلى التفرق والتشرذم.

كما أن الخلاف في المبادئ والتعاليم بين الشيعة قد قسمهم إلى غلاة ومعتدلين، وساهم هذا الخلاف في انشطار الشيعة وتشظِّيهم إلى فرق كثيرة؛ فكان من فرق الغلاة: (السبئية، والمختارية، والمغيرية، والخطابية... إلخ).

وقد كان الخلاف بين الشيعة - سواء أكانوا من المعتدلين أم الغلاة - حول تعيين الأئمة من أسباب تفرقهم [٢]؛ فبعد مقتل الحسين ﷺ اختلفت الشيعة في الإمامة، فمنهم من ساقها إلى محمد ابن الحنفية وعرفوا بالكيسانية، ثم إلى ابنه أبي هاشم فعرفوا بالهاشمية، ومنهم من ساقها إلى زين العابدين بن الحسين وذريته من بعده، ومنهم ساقها سوقًا آخر، وقد كان اختلافهم الأكبر بعد موت جعفر الصادق رحمه الله؛ حيث نشأت الإسماعيلية التي ساقت الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر - رغم أنه مات في حياة جعفر، والأفطحية التي ساقتها إلى عبد اللَّه الأفطح بن جعفر، والموسوية التي ساقتها إلى موسى ابن جعفر، ثم في بنيه حتى عدّت اثني عشر إمامًا؛ فسميت بعد ذلك بالاثني عشرية.

ظاهرة الوقف على الأئمة:

وهي تعني إنكار بعض الشيعة موت إمامهم لسبب من الأسباب؛ إما لغموض الإمام التالي، أو اختفائه، أو عدم رضاهم به، أو لطمع وكلاء الإمام السابق بأمواله؛ مما يدعو لرفضهم للإمام التالي خوفًا من تسليم مال الإمام السابق للإمام اللاحق [٣].

---

(١) رجال الكشي (ص ١٣٥، ١٣٦)، بحار الأنوار (٢/٢٤٦).

(٢) أنور الباز: عصمة الأئمة عند الشيعة، دار الوفاء (ط١) ، (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م). وأصلها رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة (ص ٢١).

(٣) انظر: أصول الكافي (١/٥٩٤، ٥٩٥) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب. وسيأتي الحديث عن دور هؤلاء الوكلاء عند الحديث عن العامل الاقتصادي وأثره في التشيع.

وقد ضمّنوا فكرة الوقف فكرة المهدية، وأن إمامهم الذي وقفوا عليه وأنكروا موته هو المهدي المنتظر والغائب القائم، كالناووسية « القائلين بغيبة الصادق، وأنه لم يمت بل هو المهدي الذي يظهر... وكالواقفية الواقفين على إمامة الكاظم عليه السلام زعمًا منهم أنه لم يمت، بل هو الغائب القائم » [١].

فبعد استشهاد الحسين قال قوم بإمامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية رحمه الله ورضي عن أبيه، وهم الكيسانية؛ حيث اعتقد بعضهم بعد وفاته أنه لم يمت وأنه سيعود، وأن مقره في جبل رضوى بالمدينة، على حد قول كُثيِّر عزة الذي كان كيسانيًّا:

ألا إن الأئمة من قريشٍ ... ولاة الحقّ أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسبطٌ غيّبته كربلاءُ
وسبطٌ لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
يغيب فلا يُرى فيهم زمانًا ... برضوى عنده عسلٌ وماء [٢]

والذين ساقوا الإمامة بعد الحسين في ولده زين العابدين علي بن الحسين، ثم في الباقر محمد بن علي، ثم في الصادق جعفر بن محمد؛ اختلفوا خلافًا عظيمًا بعد وفاة الصادق، ففرقة وقفت عليه، وهم الناووسية أتباع عجلان بن ناوس من أهل البصرة، وقيل: نسبة إلى قرية ناوسا قرب همدان،.... وفرقة قالت بانتقال الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر بالنص عليه، فلما مات قبل جعفر أنكرت فئة مماته، وقالت بمهديته، وهم الإسماعيلية الواقفة عند الشهرستاني، ويسميهم النوبختي الإسماعيلية الخالصة، وفرقة أقرت بموت إسماعيل ونقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل، وهم المباركية أصحاب المبارك مولى محمد بن إسماعيل، ومن هؤلاء من وقف الإمامة على محمد بن إسماعيل، وفرقة أخرى ساقت الإمامة إلى موسى بن جعفر نصًّا وهم أسلاف الاثني عشرية [٣].

وبعد موت موسى الكاظم بن جعفر (١٨٣هـ) اختلف هؤلاء وافترقوا إلى ثلاث

---

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٥١).

(٢) انظر: الفصول المختارة للشيخ المفيد (ص ٢٩٩، ٣٠٠). دار المفيد - بيروت (ط٢)، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م) تحقيق / السيد مير علي شريفي.

(٣) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة ماجستير كلية دار العلوم عام (١٩٦٧م)، إشراف الأستاذ الدكتور محمود قاسم (ص ٣٨).

فرق: فرقة شكّت في موته فتوقفت في موته وهم الممطورة، وفرقة أنكرت موته ووقفت عليه وهم الواقفة، وفرقة قطعت بموته وساقت الإمامة إلى ابنه الرضا، وسموا بالقطعية.. [١].

تكاثر فرق الشيعة:

وهكذا كانت فرق الشيعة تتعدد كلما مات إمام من أئمتهم، وقد ذكر المسعودي أن فرق الشيعة بلغت ثلاثًا وسبعين فرقة، كل فرقة تخطّئ أو ربما تكفّر الأخرى [٢]، بل أوصلها المقريزي إلى ثلاثمائة فرقة! [٣].

أما أصول هذه الفرق ورؤوسها في كتب الفرق عند أهل السنة فهي أيضًا مختلفة في العدد وفي المسميات وفي مدلولاتها أحيانًا؛ فهي عند الأشعري: (الغالية، والرافضة - وهي الإمامية - والزيدية). ويبلغ مجموع الفرق الشيعية عنده خمسًا وأربعين فرقة؟ ويعتبر الاثني عشرية من فرق الرافضة - الإمامية - ويسمون بـ (القطعية)؛ لأنهم قطعوا بموت موسى الكاظم، ونقلوا الخلافة بعده إلى ابنه الرضا، ويصفهم بأنهم جمهور الشيعة [٤].

أما عبد القاهر البغدادي فيرجع فرق الشيعة إلى أربع فرق: (زيدية، وإمامية، وكيسانية، وغلاة) ويلقب الجميع بالرافضة [٥].

أما الشهرستاني فيرجعهم إلى « خمس فرق: (كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية) » [٦].

وابن الجوزي يعتبر الشيعة اثنتي عشرة فرقة، ويسميها جميعًا بالرافضة [٧].

أما كتب الفرق عند الشيعة « فهي تذكر فرق الشيعة حسب الأئمة؛ حيث تجد أن الشيعة تفترق إلى فرق كثيرة بعد وفاة كل إمام، وقد وصل عدد فرق الشيعة في (المقالات والفرق)

---

(١) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم (ص ٣٨).

(٢) علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ. قال ابن حجر: كتبه طافحة بأنه كان شيعيًا معتزليًا، ويعتبره الاثنا عشرية من شيوخهم. توفي سنة (٣٤٦هـ). مروج الذهب (٣/٢٢١).

(٣) الخطط (٢/٣١٥).

(٤) مقالات الإسلاميين (١/٦٦ - ٨٨ - ١٤٠)، ويقترب منه ابن تيمية، انظر: التسعينية (ص ٤٠)، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المجلد (٥) ط. كردستان (١٣٢٩هـ).

(٥) انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢١).

(٦) الملل والنحل (١/١٤٧).

(٧) تلبيس إبليس (ص ٣١)، دار الكتاب العربي - بيروت (ط١)، (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، تحقيق: د. السيد الجميلي.

للقمي، و (فرق الشيعة) للنوبختي – إلى ما يربو على ستين فرقة » [١].

ويبين الدكتور النشار أن التشيع « ظاهرة مركبة معقدة، وبين طوائف الشيعة قديمًا وحديثًا من الاختلاف ما لا نجده بين طوائف أهل السنة قديمًا وحديثًا. وليس بين الخلف والسلف – وهما فريقا أهل السنة الكبيران الآن – ما بين الإسماعيلية والاثني عشرية – وهما فريقا الشيعة الكبيران الآن – من خلاف كبير وتنافر شديد » [٢].

فرق الشيعة اليوم:

معظم الفرق الشيعية المتكاثرة قد اندثرت، ولم يبق لها ذكر إلا في كتب الفرَق، أما اليوم فقد انحصرت الفرق الشيعية المعاصرة بثلاث فرق [٣]، هي:

– **الزيدية** أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسموا بالزيدية نسبة إليه وقد افترقوا عن الإمامية حينما سئل زيد عن أبي بكر وعمر فترضَّى عنهما، فرفضه قوم فسموا رافضة.. وسمي من لم يرفضه من الشيعة زيدية لاتباعهم له؛ وذلك في آخر خلافة هشام بن عبد الملك، سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين [٤] وهم اليوم في اليمن.

– **الإسماعيلية** وهم الذين قالوا: الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل بن جعفر (وليس موسى الكاظم بن جعفر كما يرى الاثنا عشرية)، ثم قالوا بإمامة محمد ابن إسماعيل بن جعفر [٥].

---

(١) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٩٦) حيث ذكر أن أصحاب الحسن العسكري افترقوا أربع عشرة فرقة بعد وفاته، بينما ذكر القمي أنهم خمس عشرة فرقة. وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/١١٧).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/٢٢) مقدمة الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة (ط٨).

(٣) انظر: د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٢/١٢)، العاملي: أعيان الشيعة (١/٢٢).

(٤) والزيدية فرق: منهم من لم يحمل من الانتساب إلى زيد إلا الاسم فهم روافض في الحقيقة يقولون: إن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غير علي، وهؤلاء الجارودية أتباع أبي الجارود عدّهم المفيد من الشيعة. ومنهم من يقترب من أهل السنة كثيرًا وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حي الفقيه، القائلون بأن الإمامة في ولد علي ﷺ، ويقول ابن حزم: « إن الثابت عن الحسن بن صالح هو أن الإمامة في جميع قريش، ويتولون جميع الصحابة إلا أنهم يفضلون عليًّا على جميعهم »؛ ولذلك سماهم ابن تيمية: المفضلة. ابن حزم، الفصل (٢/٢٦٦)، الملل والنحل (١/١٥٤)، منهاج السنة (١/٢١).

(٥) ومن الإسماعيلية انبثق القرامطة والحشاشون والفاطميون والدروز وغيرهم، وللإسماعيلية فرق متعددة وألقاب كثيرة تختلف باختلاف البلدان، يقول الغزالي وغيره: « إنه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ».=

- **الاثنا عشرية** « سموا كذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم إلى اثني عشر إمامًا » [(١)]. بعد النبي ﷺ وهم الذين نحن بصدد دراسة عقائدهم.

وهذا جدول بأسماء الأئمة الاثني عشر وألقابهم وسني ولادتهم ووفاتهم، كما يعتقد الاثنا عشرية:

م	اسم الإمام	كنيته	لقبه	الميلاد	الوفاة	عمره
١	علي بن أبي طالب	أبو الحسن	المرتضى	٢٣ق.هـ	٤٠هـ	٦٣ سنة
٢	الحسن بن علي	أبو محمد	الزكي	٢هـ	٥٠هـ	٤٨
٣	الحسين بن علي	أبو عبد الله	الشهيد	٣هـ	٦١هـ	٥٨
٤	علي بن الحسين	أبو محمد	زين العابدين	٣٨هـ	٩٥هـ	٥٧
٥	محمد بن علي	أبو جعفر	الباقر	٥٧هـ	١١٤هـ	٥٧
٦	جعفر بن محمد	أبو عبد الله	الصادق	٨٣هـ	١٤٨هـ	٦٩
٧	موسى بن جعفر	أبو إبراهيم	الكاظم	١٢٨هـ	١٨٣هـ	٥٥
٨	علي بن موسى	أبو الحسن	الرضا	١٤٨هـ	٢٠٣هـ	٥٥
٩	محمد بن علي	أبو جعفر	الجواد	١٩٥هـ	٢٢٠هـ	٢٥
١٠	علي بن محمد	أبو الحسن	الهادي	٢١٢هـ	٢٥٤هـ	٤٢
١١	الحسن بن علي	أبو محمد	العسكري	٢٣٢هـ	٢٦٠هـ	٢٨
١٢	محمد بن الحسن	أبو القاسم	المهدي	٢٥٥ أو ٢٥٦هـ	؟؟؟؟ [(٢)]	إلى الآن ١١٧٥ عامًا

=[فضائح الباطنية (ص ٣٧) وما بعدها] أو كما يقول ابن الجوزي: « فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ». [تلبيس إبليس (ص ١٢٤)].

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٣١)، الإمام عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٢٨)، دار المعارف - القاهرة (١٩٨٤م).

(٢) انظر هذا الجدول: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٩/١).

أما تفصيل وفاتهم حسب روايات الشيعة: فيقول الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٢، ٧٣): « وأمير المؤمنين عليه السلام قتله عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله ودفن بالغري. والحسن بن علي عليهما السلام سمته امرأته جعدة بنت الأشعث الكندي لعنهما الله فمات من ذلك. والحسين بن علي عليهما السلام قتل بكربلاء، وقاتِله سنان ابن أنس النخعي لعنهما الله. وعلي بن الحسين السيد زين العابدين عليهما السلام سمه الوليد بن عبد الملك لعنه الله فقتله. والباقر بن علي عليهما السلام سمه إبراهيم بن الوليد لعنه الله. والصادق عليه السلام سمه أبو جعفر المنصور الدوانقي لعنه الله فقتله [!!]. وموسى بن جعفر عليهما السلام سمّه هارون الرشيد لعنه الله فقتله [!!]. والرضا علي بن موسى عليهما السلام =

وقد ظهرت فرقة الاثني عشرية في مسرح التاريخ في أخريات القرن الثالث الهجري تقريبًا، وهي تمثل الصورة الأخيرة التي انتهى إليها الفكر الشيعي الإمامي » [(١)]. في حين تقول دائرة المعارف الإسلامية: « إن الاثني عشرية لم يسلّموا بترتيب أئمتهم المعهود إلا منذ القرن الخامس الهجري » [(٢)].

ويؤكد هذا أن تسميتهم بالاثني عشرية لم تكن موجودة في الكتب الشيعية القديمة ولا في كتب المقالات السُّنِّيَّة والشيعية على السواء؛ فلم توجد حتى في المقالات والفرق للقمي (ت ٢٩٩ أو ٣٠١هـ) ولا في فرق الشيعة للنوبختي (ت ٣١٠هـ) ولا في مقالات الإسلاميين للأشعري (ت ٣٣٠هـ). ولعل أول من ذكره المسعودي (ت ٣٤٩هـ) [(٣)]، فهذه التسمية لم يكن لها وجود حتى وجدت فكرة الإمام الثاني عشر الغائب بعد وفاة الإمام الحادي عشر سنة (٢٦٠هـ).

وطائفة الاثني عشرية هي أكبر الطوائف الشيعية اليوم، كما كانت تمثل أكثرية الشيعة وجمهورها في بعض فترات التاريخ. فقد وصفهم طائفة من علماء الفرق بـ « جمهور الشيعة » [(٤)]، وممن نعتهم بهذا: الأشعري والمسعودي [(٥)].

وقد انقسمت الاثنا عشرية في تطورها الفكري عبر الزمن إلى عدة اتجاهات فكرية،

= قتله المأمون لعنه الله بالسم [!!]. وأبو جعفر محمد بن علي عليه السلام قتله المعتصم لعنه الله بالسم [!!]. وعلي ابن محمد عليه السلام قتله المتوكل لعنه الله بالسم [!!]. والحسن بن علي العسكري عليه السلام قتله المعتمد لعنه الله بالسم « وبقي الإمام المنتظر الغائب ». وهذا الذي ذكره الصدوق كما يعتقدون في خلفاء الإسلام، ونحن لا نبرئ الحكّام، ولكن لا نخوض فيما لا نعلم لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. والنبي ﷺ ينهانا عن لعن المسلمين « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا البذيء ولا الفاحش » أخرجه ابن حبان: صحيح ابن حبان (٤٢١/١) رقم (١٩١)، مؤسسة الرسالة (ط٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) تحقيق / شعيب الأرناؤوط، وأخرجه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود (٤٠٥/١).

(١) الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، رسالة دكتوراه عام (١٩٧٧م)، (ص ٣٩).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٤٢٩/١).

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف (ص ١٩٨)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٧/١).

(٤) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٠/١).

(٥) مقالات الإسلاميين (٩٠/١). مروج الذهب (١٩٩/٤)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٠/١).

بحيث يمكن إطلاق لفظ الطائفة عليها؛ فانقسمت بسبب موقفها وطريقتها في الحكم والاستدلال إلى أصولية وأخبارية، فالأخبارية ترى قطعية الكتب الحديثية الأربعة من حيث ثبوتها عن الأئمة، وتقفل باب الاجتهاد والعقل، وتسمح بتقليد المجتهد الميّت. وهذه الطائفة تكثر في البحرين. بينما الأصولية تصحح وتضعّف في النصوص الحديثية، وتفتح باب الاجتهاد وتمنع تقليد المجتهد الميت، وتجعل العقل دليلًا شرعيًا، وهذه الطائفة تمثل غالبية الشيعة [(١)].

تسميات أخرى للاثني عشرية:

الإمامية: « سموا كذلك لأن أهم عقائدهم أسست حول الإمام، وقد قالوا بأن محمدًا ﷺ نص على خلافة علي... وجعلوا الاعتراف بالإمام جزءًا من الإيمان » [(٢)].

« ولقد تعددت الآراء في كون الإمامية فرقة واحدة من الشيعة أو كونها فرقًا عدة تنطوي تحت اسم الإمامية كالاثني عشرية والكيسانية والزيدية والإسماعيلية والفطحية وغيرهم » [(٣)].

ويرى كتّاب الفرق من أهل السنة أن « الإمامية فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الأئمة، فمن أشهر فرقهم: الاثنا عشرية » [(٤)]. فالشهرستاني يقول: « الإمامية هم القائلون

---

(١) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد (١٤٢/١ - ١٤٥). وعدّ من الأخبارية: (ابن بابويه القمي صاحب من لا يحضره الفقيه، والحر العاملي صاحب وسائل الشيعة، والكاشاني صاحب الوافي، والنوري الطبرسي صاحب مستدرك الوسائل، ومحمد حسين آل كاشف الغطا صاحب أصل الشيعة وأصولها) وعد من الأصولية: (الطوسي صاحب الاستبصار والتهذيب، والمرتضى المنسوب له نهج البلاغة، ومحسن الحكيم، وشريعت مداري، والخوئي، والخميني) وقد عدّ جعفر آل كاشف الغطا الخلاف بين الطائفتين راجعًا إلى ثمانين مسألة (الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الأخباريين) طهران (١٣١٦هـ)، بينما يحاول غيره التقليل من حجم الخلاف بينهما (فرج عمران: الأصوليون والأخباريون فرقة واحدة). وقد حصل بينهما ردود ومنازعات لدرجة التكفير والإفتاء بتحريم صلاة الأخباري خلف الأصولي والعكس!.

كما هناك طوائف أخرى كالشيخية أتباع الشيخ أحمد الإحسائي (١١٦٦هـ - ١٢٤١هـ) والكشفية (أصحاب كاظم بن قاسم الرشتي تلميذ الإحسائي) وقد اشتهرت الطائفتان بالغلو في الأئمة، ومنها خرج زعيم البابية.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٣١).

(٣) د. عائشة يوسف المناعي أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٣٩).

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٣١).

بإمامة علي ﷺ نصًا ظاهرًا، وتعيينًا صادقًا من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين »[1]، ومثله الأشعري حيث يقول: « .. وهم يدعون الإمامية لقولهم بالنص على إمامة علي ابن أبي طالب »[2]. ونلاحظ هنا أن اللفظ عام على كل الشيعة القائلين بالنص على الإمام.

« ومن المسلّم به أن فرق الإمامية - السابقة الذكر - على كثرتها وتنوع مذاهبها قد ذابت وانقرضت، ولم يبق منها إلا فرقتان فقط: هما الاثنا عشرية، والإسماعيلية، فهاتان الفرقتان يمكن اعتبارهما من الناحية المذهبية الحصيلة المتبقية من فرق الشيعة الإمامية »[3].

ولكن الاثني عشرية أرادوا قصر (الإمامية) لقبًا عليهم وحدهم؛ ولذلك يقول المفيد: « الإمامية علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان، وأوجب النص الجلي والعصمة والكمال لكل إمام، ثم حصر الإمامة في ولد الحسين بن علي، وساقها إلى الرضا علي بن موسى عليه السلام »[4]؛ وبهذا يكون قد أخرج من لقب (الإمامية) الإسماعيليةَ وغيرهم من فرق الشيعة، وجعل لفظ الإمامية مرادفًا للفظ الاثني عشرية، وإن كان أصل كلمة الإمامية يطلق على الاثني عشرية وغيرهم ممن قال بالنص الجلي في الإمامة.

ويعلل المفيد قَصْرَ التسمية بالإمامية على فرقته الاثني عشرية بأن الفرق الأخرى أحدثت مقالات غريبة في المذهب اقتضت إقصاءها عنه: فيقول: « لأنه وإن كان (أي لقب الإمامية) في الأصل علَمًا على من دان من الأصول بما ذكرناه[5] دون التخصيص لمن قال في الأعيان بما وصفناه، فإنه قد انتقل عن أصله، لاستحقاق فرق من معتقديه ألقابًا بأحاديث لهم وبأقاويل أحدثوها؛ فغلبت عليهم في الاستعمال، دون الوصف بالإمامية، وصار هذا الاسم في عرف المتكلمين وغيرهم من الفقهاء والعامة علمًا على من ذكرناه »[6]، وبهذا أخرج الزيدية؛ لأنهم لم يقولوا بالنص الجلي، وأخرج الإسماعيلية؛ لأنهم لم يسوقوا الخلافة بعد جعفر إلى موسى ثم علي بن موسى، ولكنهم ساقوها في إسماعيل بن جعفر ثم محمد بن إسماعيل.

وهكذا رأينا أن المفيد (ت ٤١٣هـ) يفعل بلفظ الإمامية ما فعله في لفظ الشيعة

---

(١) الملل والنحل (١٦٢/١). (٢) مقالات الإسلاميين (٨٦/١).

(٣) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠).

(٤) أوائل المقالات (ص ٤٤).

(٥) وهو القول بوجوب النص على الإمام والعصمة. كما بين ذلك في كتابه: العيون والمحاسن (٩١/٢) عن د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٤/١).

(٦) أوائل المقالات (ص ٤٤).

نفسه، ليحوّل هذه المصطلحات لمصلحة الاثني عشرية، فيجعل الاثني عشرية هم الأصل الذي حادت عنه الفرق الأخرى، وليس العكس.

الروافض أو الرافضة: ويسميهم مخالفوهم بالروافض والرافضة، وقد ثبت ذلك في مصادر الشيعة الأصلية كأصول الكافي: « .. ذاك إمام الرافضة ذاك الحسن بن عليّ المعروف بابن الرّضا » (١).

ويعلل مخالفوهم هذه التسمية بأنها بسبب رفضهم إمامة الشيخين، ورفْض إمامة زيد ابن علي بن الحسين ﷺ بسبب تولّيه للشيخين وتفضيلهما ﵄؛ فقد « كانت الشيعة أصحاب علي يقدمون عليه أبا بكر وعمر، وإنما كان النزاع في تقدمه على عثمان ولم يكن حينئذ يسمَّى أحد لا إماميًا ولا رافضيًا » (٢). ولكن لما ظهر زيد « بالكوفة سمع من بعض من بايعوه من الشيعة الطعن على الشيخين ﵄، فأنكر ذلك على من سمعه منه، فتفرق عنه الذين بايعوه، فقال لهم: رفضتموني.فيقال: إنهم سموا الرافضة لقول زيد لهم رفضتموني » (٣).

ولعلهم تعللوا بقولهم هذا؛ حتى ينجوا من القتال، وليس هذا بغريب عنهم، فقد خذلوا جد زيد بن علي بن الحسين ﷺ، وخذلوا والد جده من قبل، وهل الخلاف في مسألة من المسائل تمنع من نصرة بطل من أبطال آل البيت؟ لقد خذلوه وتركوه حتى قُتل ﵀ مع أصحابه الذين لقبوا بالزيدية، وهذا ما جعل ابن تيمية يقول: « فالزيدية خير من الرافضة، أعلم وأصدق وأزهد وأشجع » (٤)؛ ذلك أنهم قُتلوا مع قادتهم، ولم يخذلوهم كما فعل أهل الكوفة من الروافض.

ومع أن هذا القول هو الأشهر؛ فقد ينسب بعض المؤرخين كالنوبختي مصطلح الرفض إلى المغيرة بن سعيد؛ وذلك لقوله بمهدية محمد بن عبد اللّه بن الحسن، وأنه القائم وأنه حي لم يمت، يقول النوبختي: « وأظهر المغيرة بن سعيد المقالة بذلك، فبرئت

---

(١) جاء في أصول الكافي (٥٨٠/١) كتاب الحجة، باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي: « كان أحمد بن عبيد اللّه بن خاقان على الضياع والخراج بقم، فجرى في مجلسه يومًا ذكر العلوية ومذاهبهم، وكان شديد النصب، فقال:... فإني كنت يومًا قائمًا على رأس أبي - وهو يوم مجلسه للناس - إذ دخل عليه حجابه فقالوا: أبو محمد ابن الرضا بالباب، فقال بصوتٍ عالٍ: ائذنوا له... قلت: يا أبه من الرجل؟ فقال: يا بني ذاك إمام الرافضة، ذاك الحسن بن عليّ المعروف بابن الرضا ».

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٦/٢).

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين (٦٥/١).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٦/٢).

منه الشيعة أصحاب أبي عبد اللّٰه جعفر بن محمد – ورفضوه، فزعم أنهم رافضة وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم » [(١)].

وبهذا لا يكون اسم الرافضة خاصًّا بالاثني عشرية وحدهم، بل بعدة طوائف من الإمامية. ولكن لما فنيت تلك الطوائف وبقيت الاثنا عشرية كانت حَرِيّة بهذا اللقب؛ ولذلك ظهر من الاثني عشرية المعاصرين من يرى في هذا اللقب مدحًا ويؤوله تأويلًا آخر فيقول: « سموا به لرفضهم ما عليه عامة الناس في أمر الإمامة والحكم » [(٢)]. بل يخترع لهذا الاسم أصلًا تاريخيًّا قديمًا، فيقول: « لما بغض عبدة العجل هارون ومن معه سموهم رافضة؛ فأجري ذلك الاسم على شيعة علي لمناسبته لهارون وشيعته » [(٣)]!.

وقد جاءت روايات نسبت إلى الأئمة تدعم هذا الرأي، منها: « أن أبا بصير قال للصادق عليه السلام: إن الناس يسموننا الرافضة، فقال: واللّٰه! ما سموكم به ولكن اللّٰه سماكم، فإن سبعين رجلًا من خيار بني إسرائيل آمنوا بموسى وأخيه، فسموهم رافضة، فأوحى اللّٰه إلى موسى: أثبت هذا الاسم لهم في التوراة. ثم ادّخره اللّٰه لينحلكموه » [(٤)].

الجعفرية: وتسمى الاثنا عشرية بالجعفرية نسبة إلى جعفر الصادق إمامهم السادس – كما يزعمون – وهو من باب التسمية للعام باسم الخاص. فقد ورد أن: شيعة جعفر في الكوفة (أو من يدعون التشيع لجعفر) سموا بالجعفرية، وأن هذه التسمية نقلت إلى جعفر فغضب، ثم قال: « إن أصحاب جعفر منكم لقليل، إنما أصحاب جعفر من اشتد ورعه وعمل لخالقه » [(٥)]. وقد جاء في الكافي ما يدل على أن الناس كانوا يطلقون على من يدعي التشيع لجعفر الصادق « جعفري » [(٦)]؛ فهذا يدل – إن صحت الرواية – على أن اسم الجعفرية كان شائعًا في زمن جعفر [(٧)].

---

(١) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٦٣).

(٢) محمد جعفر شمس الدين في تعليقه على أصول الكافي (١/٥٨٠) هامش رقم (١).

(٣) زين الدين أبو محمد علي بن يونس النباطي العاملي البياضي (ت ٨٧٧هـ): الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (٣٢٣/١) المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية مطبعة الحيدري. الطبعة الأولى (١٣٨٤هـ).

(٤) العاملي [زين الدين أبو محمد علي بن يونس النباطي العاملي (ت ٨٧٧هـ)]، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (٧٦/٣)، المجلسي: بحار الأنوار (٦٨/ ٩٦ – ٦٧).

(٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٥٢٥/٢) طبع مؤسسة آل البيت قم (١٤٠٤هـ)، تحقيق / محمد باقر الحسيني وآخرين، وهو تهذيب لكتاب معجم الرجال للكشي.

(٦) أصول الكافي (٧٧/٢).

(٧) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٣٤/١).

الخاصة: وهو لقب يطلقه شيوخ الشيعة على طائفتهم، ويلقبون أهل السنة والجماعة بالعامة.

جاء في دائرة المعارف الشيعية ما نصه: « الخاصة في اصطلاح بعض أهل الدراية: الإمامية الاثنا عشرية، والعامة: أهل السنة والجماعة » [(١)].

وللاثني عشرية تسميات أخرى منها: القطعية؛ لأنهم قطعوا بموت موسى بن جعفر الصادق [(٢)]. في حين وقف بعضهم عليه وادعى مهديّته.

كما أن الرازي يلقّبهم بأصحاب الانتظار؛ وذلك لأنهم يقولون بأن الإمام بعد الحسن العسكري ولده محمد بن الحسن العسكري وهو غائب وسيحضر، فهم ينتظرون خروجه [(٣)]؛ ولذلك يسمّونه المهدي المنتظر.

وأُطلق عليهم لقب: المتاولة في العصور الأخيرة، وخصوصًا في بلاد الشام [(٤)].

توزُّع الشيعة في العالم وعددهم:

أما الإسماعيلية ففي الهند وباكستان وتركيا وسورية ولبنان.

وأما الزيدية فينتشرون في اليمن.

أما التوزع الجغرافي للشيعة الإمامية فهو ممتد في دول كثيرة؛ إذ ينتشر الشيعة الاثنا عشرية بنسبة كبيرة في العراق وإيران، كما يوجد منهم الملايين في الهند وباكستان، ولهم وجود واضح في أفغانستان ولبنان، وكذلك يوجدون في سورية، وبلاد القوقاز كأذربيجان، وفي دول الخليج العربي: في الكويت، ومنطقة الإحساء في بلاد الحجاز، والبحرين [(٥)].

يقول الدكتور عمارة: « إذا كان تعداد الأمة الإسلامية يبلغ الآن مليارًا وثلث المليار (١,٣٧٤٨٠٠) فإن نسبة أهل السنة تبلغ (٩٠٪) من هذا التعداد، والباقي شيعة بفرقها المختلفة وخوارج وإباضيون » [(٦)].

---

(١) دائرة المعارف الشيعية (١٢٢/١٧).

(٢) انظر: القمي: المقالات والفرق (ص ٨٩)، الأشعري: مقالات الإسلاميين (٩٠/١).

(٣) انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٨٤، ٨٥).

(٤) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٣١/١ - ١٣٥).

(٥) انظر: الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية (ص ١٣).

(٦) د. محمد عمارة: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية (ص ٨٦)، نهضة مصر (٢٠٠٠م).

وقد صرح الزعيم الروحي لشيعة إيران الخامنئي - وهو من أشهر مراجع الشيعة في العالم - في خطاب له نشره عدد من الفضائيات أن عدد الشيعة في العالم قرابة مائتي مليون؛ وذلك في الشهر الخامس من عام (٢٠٠٤م). وقد قدّر الخميني تعداد الشيعة في العالم بحدود هذا العدد عام (١٣٨٩هـ) [١].

وطائفة الاثني عشرية هي أكبر الطوائف الشيعية اليوم، « وعقيدتهم هي العقيدة الرسمية لدولة إيران » [٢].

ثالثًا: عوامل نشوء وتطور الفكر الشيعي:

لعل من أعظم الأخطاء التي يخطئها الباحثون والمحللون في كثير من الأحيان: نسبة أي حادثة تاريخية أو سياسية إلى عامل واحد أو مؤثر واحد، ويتضح هذا في تأملنا للتشيع وعوامل ظهوره.

فالتشيع كما لم ينشأ دفعة واحدة، لم ينشأ أيضًا من عامل واحد؛ بل تداخلت في نشأته عدة عوامل.

والتنبيه إلى عامل من العوامل لا يعني إقصاء العوامل الأخرى.

وقد يختلف العلماء حول العامل الأهم في نشأة هذه الفرقة أو تلك، أو هذه الفكرة أو تلك [٣]. ولكن يهمّنا - ونحن نتحدث عن عامل من العوامل - ألا نتجاهل العوامل الأخرى.

فيمكن أن نقول: إن العامل الديني العاطفي هو الدافع الأول لأفكار التشيع، والعامل السياسي يشكل البيئة الخصبة لنشوئه، والعامل الاقتصادي له دور التغذية والمساندة المادية المساهمة في ثبات التشيع ونشره، والعامل الفكري له دور محاولة دعم الفكر الشيعي من خلال تطويع بعض أفكار الفرق الأخرى لمصلحته، إضافة إلى العامل الخارجي التآمري

---

(١) انظر: الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ١٣٢)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، والكتاب في الأصل دروس فقهية ألقاها على طلاب النجف - تحت عنوان: ولاية الفقيه - عام (١٣٨٩هـ).

(٢) انظر: د. آمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩م)، (ص ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) كمسألة مرتكب الكبيرة عند الخوارج والمعتزلة؛ فقد ذهب الأستاذ الدكتور محمد عمارة إلى أن أصلها سياسي. انظر: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية (ص ٦٣). في حين أكد الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على أساسها الديني إلى جانب العامل السياسي. انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر (ص ٣٥)، وانظر مناقشة هذه الآراء: الدكتور حسن خطاف: منزلة السنة في الفكر المعتزلي (ص ٢٨)، أطروحة دكتوراه، جامعة الزيتونة (٢٠٠٣م).

الذي كان وبالًا ثقيلًا على الفكر الشيعي، ممثلًا بحركة ابن سبأ اليهودية وبعض الترسبات الفارسية والهندية في الفكر الشيعي.

وسندرس هذه العوامل بشيء من التفصيل:

١ - العامل الديني:

إذا كان كثير من الناس يتبادر إلى أذهانهم عند ذكر التشيع العامل السياسي؛ لأن الإمامة كانت قطب الرحى الذي دار حوله الفكر الشيعي - فإن العامل الديني لنشأة التشيع يشكل الدافع الأول؛ فالخلاف والجدل حول الإمامة « وإن كان سياسيًا في مظهره، وبالمعنى الذي يفهمه الناس اليوم، إلا أنه ديني في منشئه وأساسه » [(١)].

ذلك أن التشيع في مفهومه الديني لا يعدو « أن يكون محبة للرسول وآل بيته، وهذا قدر مشترك وعام بين المسلمين جميعًا؛ فلا يوجد مسلم لا يدين بهذا الحب » [(٢)].

وقد بيّن القرآن الكريم والسنة المشرفة مكانة أهل البيت عليهم السلام، دون إجحاف ولا مغالاة، كما بين فضائل الصحابة الكرام رضي الله عن الجميع. وزخرت كتب السنة بفضل علي رضي الله عنه وفضل سبطي النبي صلى الله عليه وسلم وريحانتيه، ولم يدع أهل السنة مجالًا للشك في محبتهم لآل البيت؛ ولذا فكُتب الحديث السُّنِّيَّة زاخرة بروايات صحيحة متعددة في وجوب اتباع آل البيت ومحبتهم وإكرامهم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (.. دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين يتقلبان على بطنه قال ويقول: « ريحانتي من هذه الأمة ») [(٣)]، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: « **ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين** » وفي رواية: « **فئتين عظيمتين من المسلمين** » [(٤)].

---

(١) الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر (ص ٣١)، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). مطبوعات جامعة دمشق.

(٢) أستاذنا الدكتور عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين، ا.د. عبد الفتاح الفاوي (ص ٣٠) مطبوعات قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

(٣) النسائي: سنن النسائي الكبرى (٥/٤٩): كتاب المناقب، باب فضائل الحسن والحسين ابني علي رضي الله عنهم رقم (٨١٦٦).

(٤) أخرجه البخاري: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، رقم (٣٥٣٦)، وفصّل موقف الحسن رضي الله عنه في الصلح في باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي رضي الله عنهما: « ابني هذا سيد.. » إلخ. رقم (٢٥٥٧).

وقال ﷺ في حق علي ﷺ : « **من كنت وليّه فهذا وليُّه، اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه** » [(١)].

وقال له النبي ﷺ: « **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي** » [(٢)]. وقال له أيضًا: « **لا يحبُّك إلا مؤمن؟ ولا يبغضك إلا منافق** » [(٣)].

وقد ذكر سعد بن أبي وقاص ﷺ بعض فضائل علي ﷺ فقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « ... **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي** »، وسمعته يقول يوم خيبر: « **لأعطين الراية رجلًا يحب اللّه ورسوله ويحبه اللّه ورسوله** ». قال: فتطاولنا لها فقال: « **ادعوا لي عليًا** ». فأتي به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح اللّه عليه، ولما نزلت هذه الآية ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول اللّه ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: « **اللّهم هؤلاء أهلي** » [(٤)].

وجاءت الوصية برعاية قرابة النبي ﷺ في القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣] [(٥)].

وقال تعالى ذاكرًا فضل آل البيت: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وجاء حديث الكساء ليؤكد دخول فاطمة وعلي والحسن والحسين ﷺ في مفهوم آل البيت. والآل والأهل بمعنى واحد؛ « وأصل

---

(١) الإمام النسائي: السنن الكبرى (٥/٤٥). دار الكتب العلمية بيروت (١٤١١هـ / ١٩٩١م). والموالاة هنا بمعنى المحبة بدلالة ضدها الموجود في النص (وعاد من عاداه) والمودة والمحبة ضد المعاداة. في حين يفهم الشيعة منها الموالاة من الولاية والإمامة.

(٢) صحيح مسلم (٧/١٢٠) كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ رقم (٢٤٠٤). وأورده الشيعة في مصنفاتهم: الكليني: الكافي (٨/١٠٧) دار الكتب الإسلامية آخوندي (١٣٨٩هـ) تحقيق: علي أكبر غفاري.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، رقم (٣٧٣٦).

(٤) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب (٤/١٨٧١) رقم (٢٤٠٤).

(٥) قال أنور الباز بعد سوقه الأقوال في تفسير هذه الآية « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معناه قل لا أسألكم عليه أجرًا يا معشر قريش إلا أن تودوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم » ونسبه إلى الطبري في تفسيره جامع البيان (٢٥/٢٢ - ٢٦). مطبعة الحلبي- مصر (ط٣)، (١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م). انظر: عصمة الأئمة عند الشيعة، أنور الباز (ص ٩٦).

آل: أهل، ثم أبدلت الهاء همزة، ثم أبدلت الهمزة الساكنة ألفًا على القاعدة من إبدال ثاني الهمزتين إذا سكنت حرف مد [١].

قالت أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل [٢] من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] » [٣]. ومن الملاحظ أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي راوية هذا الحديث؛ مما يدل على تقديرها لأهل البيت النبوي الشريف.

ومهما يكن من أمر حديث الكساء على ما فيه [٤] من بيان مكانة هذه الأسرة المحببة إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين من بعده؛ فإن دائرة آل البيت أوسع منه، فيدخل فيها أهل الكساء، ولكن لا يحرمون غيرهم من أفضلية الانضواء تحت اسم آل البيت؛ فقد جاء في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: والله لقد كبرت سنّي، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفونيه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يومًا فينا خطيبًا بماء يدعى خمًّا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: « **أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به** ». فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال: « **وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي** ». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم [٥].

---

(١) علي بن محمد المعروف بالموخر (كان حيًا عام ١١١٨هـ): مبلّغ الطالب إلى معرفة المطالب (ص ٩٦)، (ط١)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م). تحقيق: الشيخ حبيب بن الطاهر. وقد استند إلى قول ابن مالك في ألفيته:

ومدًّا أبدل ثاني الهمزتين من كلمه إن يسكن كآثر وائتمن

(٢) مرط بكسر الميم وسكون الراء المهملة كساء من صوف أو خزّ، الجمع مروط كذا في القاموس. وقيل: كساء من خزٍّ أو كتان. قوله: مرحَّل بميم مضمومة وراء مهملة مفتوحة وحاء مهملة مشددة ولام كمعظَّم وهو برد فيه تصاوير... قال النووي: والمراد تصاوير رحال الإبل. نيل الأوطار: الشوكاني (٩٥/٢) دار الجيل بيروت.

(٣) صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ، رقم (٢٤٢٤).

(٤) سيأتي الحديث حول دلالة آية التطهير في فصل العقائد الخاصة بالشيعة.

(٥) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٨)، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤).

ونلاحظ أن هذا الحديث قد رواه زيد ﷺ بعد طول العمر وطروء بعض النسيان عليه، ولكن محبة آل البيت ووصية النبي ﷺ في حقهم بقيت ثابتة في ذاكرته؛ مما يدلك على تأصُّل مكانة آل البيت في فؤاده وأفئدة إخوانه من صحابة النبي ﷺ.

وأخرج أحمد بن حنبل في المسند، وابن أبي عاصم في كتاب السنة، والبغوي في شرح السنة وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « **إني تركت فيكم، ما إن أخذتم به لن تضلّوا بعدي، الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب اللّٰه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يرِدا عليَّ الحوض** » [(١)].

وهكذا يفهم أهل السنة الأمر بموالاة عليّ ﷺ بمعنى المحبة والمودة، ولا يبنون على ذلك أمرًا بوجوب توليتهم الخلافة، هذا هو مذهب أهل السنة، « أما ما يرويه الشيعة وما تزخر به كتبهم من أحاديث ووصايا تؤكد أن مفهوم المودة تقتضي وجوب أن تكون الخلافة في علي وأبنائه، وأن عليًا كان أحق بها من الثلاثة قبله فشيء منه لم يثبت، ولو ثبت لاشتهر، ولما وسع أبا بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة أن يهملوه أو يتجاهلوه » [(٢)].

ولذلك كان من علماء المسلمين من رمي بالتشيع، ولم يكن به بأس، وإنما كان سبب ذلك ما عرف عنه من محبة آل البيت وتعاطفه السياسي مع آل بيته، وأدرك رجال الجرح والتعديل هذا فلم يجرّحوا من عرف بالتشيع المعتدل لا الغالي، ومن هؤلاء العلماء الذين عُرفوا بالتشيع المعتدل: عبد الرزاق صاحب المصنف (ت ٢١١)، قال العجلي في معرفة الثقات: « عبد الرزاق بن همام يماني ثقة يكنى أبا بكر، وكان يتشيع » [(٣)]. بل

---

(١) مسند أحمد بن حنبل (٥٩/٣)، وراجع (ص ١٤ - ١٧ - ٢٦). كتاب السنة (ص ٦٢٩). شرح السنة (١١٩/١٤) وقال: حسن غريب.

ويحاول الشيعة أن يلتمسوا أوجه الشبه بين القرآن الكريم وأئمة آل البيت، ولو وصلوا في هذا إلى شيء من التكلف، قال الشيخ دستغيب: « ومما يذكر أن عدد آيات القرآن (٦٦٦٦) آية على المشهور، وجروح بدن الحسين (ع) قيل: إنها أربعة آلاف جرح، ولو أضيف إليها مواضع سنابك الخيل فإن عددها ربما يطابق آيات القرآن ». آية اللّٰه السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٢٣٧)، مؤسسة المنار (ط٢)، وهو ينقل هذا عن كتاب اسمه الخصائص للشيخ الشوشتري.

(٢) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٣٦)، مطبوعات قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

(٣) العجلي [أحمد بن عبد اللّٰه (ت ٢٦١هـ)]، معرفة الثقات (٩٣/٢) رقم (١٠٩٧)، مكتبة الدار - المدينة المنورة (ط١)، (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، وذكره ابن حبان في الثقات (٤١٢/٢)، قال: « روى عنه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحاق بن إبراهيم وعلي بن المديني... ومات بعد أن عمي...=

وشيخه أيضًا محدّث اليمن معمر بن راشد أبو عروة معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي بالولاء الصنعاني اليماني، عدّه الشيعة من رجال الإمام جعفر الصادق، وهو من أئمة أهل الحديث عند أهل السنة [١].

وهذا الشافعي رحمه الله وقد كان على منهج السنة في حب الشيخين وتقديمهما رضي الله عنهما - يقول:

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي [٢]

فتقدير علماء السنة لأئمة أهل البيت على مدى الزمن أمر لا جدال فيه، ويستمر ما دامت الشجرة النبوية النيرة موجودة، ولقد رأينا ذلك التقدير في ثناء أهل العلم على أهل البيت ومشاهيرهم بعد عهد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

ففي حق زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله يقول سعيد بن المسيب عالم المدينة الكبير رحمه الله وهو شيخ الزين: « ما رأيت قط أفضل من علي بن الحسين عليه السلام، وما رأيته قط إلا مقتُّ نفسي » [٣].

ويقول ابن تيمية عن محمد الباقر - مع أن ابن تيمية معدود من أشهر خصوم الإمامية في الماضي والحاضر -: « أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين، وقيل: إنما سمّي الباقر لأنه بقَر العلم؛ لا لأجل بقْر السجودِ جبهتَه » [٤].

= كان يخطئ إذا حدّث من حفظه على تشيّع فيه » وقال عنه ابن حجر [تقريب التهذيب (٥٩٩) دار الكتب العلمية بيروت (١٤١٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا]: « ثقة حافظ مصنف شهير عمي في آخر عمره فتغيّر، وكان يتشيع ».

(١) انظر: عبد الحسين الشبستري: أصحاب الإمام الصادق (٢٧٨/٣، ٢٧٩). قال: معمر بن راشد أبو عروة معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي بالولاء، الحداني، وقيل: الحراني، الصنعاني، اليماني، البصري. محدث لم يذكر أصحابنا تفاصيل أحواله في كتبهم، ويعده العامة من ثقات محدثيهم وفقهائهم وحفاظهم، ويقولون عنه بأنه كان يتشيع... روى عنه عبد الرزاق بن همام، وسفيان الثوري، وعمرو ابن دينار وغيرهم. توفي بصنعاء في شهر رمضان سنة (١٥٣)، وقيل: سنة (١٥٤)، وقيل: سنة (١٥٠)، وقيل: سنة (١٥٢) عن ثمان وخمسين سنة.

(٢) رواه السنة والشيعة عن الإمام الشافعي، أورده المجلسي في بحار الأنوار (٢٣٥/٢٣)، وذكره الذهبي: سير أعلام النبلاء (٥٨/١٠) مؤسسة الرسالة - بيروت (ط٩)، (١٤١٣هـ) تحقيق / شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.

(٣) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ): تاريخ اليعقوبي (٣٠٣/٢).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة (٥٠/٤). (بقَر): شقّ ووسّع.

ويقول عنه ابن كثير: « تابعي جليل كبير القدر، أحد أعلام هذه الأمة علمًا وعملًا وسيادة وشرفًا » [١].

أما ابنه جعفر الصادق عند أهل السنة فهو: « أحد الأئمة الأعلام، بَرٌّ صادق كبير الشأن » [٢]، و « قال عمرو بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين » [٣].

ولكن أهل السنة لا يضخّمون مكانة آل البيت - عليهم رضوان الله - وينسون قدر باقي الصحابة ﷺ وعلماء السلف؛ بل يرتضون ما ارتضاه علماء أهل البيت من إكرام الصحابة وعلماء التابعين، فعلماء أهل البيت تعلموا في مدارس الصحابة والتابعين رحمهم الله تعالى. يقول ابن تيمية عن الإمام محمد الباقر ثم عن ابنه جعفر: « أخذ العلم عن جابر وأنس بن مالك، وروى أيضًا عن ابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة، وعن سعيد بن المسيب، ومحمد ابن الحنفية وعبيد الله بن أبي رافع... جعفر الصادق ﷺ : من خيار أهل العلم والدين أخذ العلم عن جده أبي أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعن محمد بن المنكدر ونافع مولى ابن عمر والزهري وعطاء بن أبي رباح وغيرهم » [٤].

بل مما يتميز به أهل السنة عن الاثني عشرية أن الاثني عشرية - كما سنرى - يدّعون احترام الأئمة من آل البيت، وهم في الحقيقة يكتفون بطرف واحد من شجرة آل البيت؛ وهو طرف علي ﷺ، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم هكذا يكون الأمر في نسل الحسين؛ فيسلطون الضوء على واحد من كل طبقة، دون غيره ممن هم في مكانته.

أما أهل السنة والجماعة فيتولون آل البيت كلّهم من كل الأطراف، كما ورد في تفسير زيد ﷺ لمعنى الآل في الحديث السابق: « نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة بعده [٥]، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس » [٦]؛

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٨/٩) دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط١)، (١٤١٨هـ) تحقيق / علي شيري.

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال (٢٨٥/٢). (٣، ٤) ابن تيمية: منهاج السنة (٥٢/٤، ٥٣).

(٥) جاء في تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (١٧٧/٥) أن نساء النبي ﷺ لا تحل لهن الزكاة أيضًا، وأورد حديثًا قال: إسناده حسن. عن عائشة رضي الله عنها قالت: « إنا آلَ محمد لا تحل لنا الصدقة » أخرجه ابن أبي شيبة.

(٦) سبق تخريجه (ص ٤٨).

فليس الأمر مقصورًا إذن على هؤلاء الاثني عشر من آل البيت؛ بل وأقاربهم وإخوانهم، وأعمامهم وأولاد أعمامهم. بل سنرى أن كتب الاثني عشرية تفيض بالطعن ببعض آل البيت النبوي، مرة بمحمد ابن الحنفية، ومرة بمحمد بن عبد اللَّه بن الحسن الملقب: النفس الزكية [(١)]، ومرة بجعفر أخي الحسن العسكري؛ إذ نسبوه للفسق والفجور [(٢)].

وبهذا يتبيّن أن أهل السنة يتولون آل البيت أكثر من الشيعة.

ثم هؤلاء الشيعة الذين كانوا حول الإمام علي والحسن [(٣)] والحسين، هل كانوا على قدر هذه المسؤولية؟ لقد خذلوا أئمتهم ثم جلسوا يبكون على قبورهم! كما فعلوا مع الحسين إذ أسلموه للظالمين، ثم لاموا أنفسهم وجلسوا يبكون، وبالغوا في ادعاء المحبة حتى رفعوا الأئمة فوق مكانهم السامق الذي رضيه لهم اللَّه تعالى؛ مما يدل على أن التعامل العاطفي من دون عمل هو دأب الحب الشيعي، وهو ما حاربه الأئمة أنفسهم؛ فقد كان زين العابدين علي بن الحسين رحمه الله يقول: « أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارًا » [(٤)]. وقال جعفر الصادق لمن سموا أصحابًا له: « إن أصحاب جعفر منكم لقليل، إنما أصحاب جعفر من اشتد ورعه وعمل لخالقه » [(٥)].

إن الولاء العاطفي القلبي دون عمل لا يثبت عند الشدائد؛ فعند الشدائد لا يبقى إلا من ثبتت عقيدته واستقام حاله وتعلق بربه؛ ولذلك رأينا أن بعض أتباع الأئمة يسيؤون الأدب معهم، يتبرّمون ويشكون إليهم ضجرًا ومللًا؛ فقد قال أحد أصحاب الصادق له: « ما نلقى من الناس فيك! فقال أبو عبد اللَّه: وما الذي تلقى من الناس فيّ؟ فقال: لا يزال يكون بيننا وبين الرجل الكلام فيقول: جعفري خبيث، فقال: يعيّركم

---

(١) جاء في أصول الكافي (١/٤٢٢ - ٣٢٦) كتاب الحجة باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة: ذمُّ جعفر الصادق لمحمد بن عبد اللَّه بن الحسن - وهو من آل البيت النبوي - بقوله: « فواللَّه إني لأراه أشأم سلحة أخرجتها أصلاب الرجال إلى أرحام النساء » لأنه - كما تزعم روايتهم - أراد إكراه جعفر على البيعة له، وسجنه لأجل ذلك.

(٢) أصول الكافي (١/٥٨٠، ٥٨١)، كتاب الحجة، بابٌ في مولد أبي محمد الحسن بن علي، وسبب ذمهم له أنه أعلن أن أخاه الحسن العسكري مات دون عقب، وهم يقولون بولادة القائم بالحجة من نسله الموهوم.

(٣) قال ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة (١١/٤٣): « بويع الحسن بن علي ثم غدر به، ووثب عليه أهل العراق، حتى طعن بخنجر في جنبه، فوادع معاوية ».

(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٤١/٣٧٤) دار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ)، تحقيق: علي شيري.

(٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٢/٥٢٥) طبع مؤسسة آل البيت قم (١٤٠٤هـ)، تحقيق: محمد باقر الحسيني وآخرين، وهو تهذيب لكتاب معجم الرجال للكشي.

الناس بي؟ فقال له أبو الصباح: نعم. قال: فقال: ما أقل والله من يتّبع جعفرًا منكم، إنما أصحابي من اشتد ورعه وعمل لخالقه ورجا ثوابه فهؤلاء أصحابي » [١].

ثم إن موقف الشيعة من آل البيت يختلف اختلافًا عظيمًا عن موقف أهل السنة؛ إذ يستثمرون الدافع الديني من حب المسلمين لعلي وبنيه ﷺ للوصول إلى القول بالإمامة التي يرونها أصلًا من أصول عقائدهم، وقد فسروا بعض الأحاديث الواردة في فضل علي ﷺ تفسيرًا يخدم فكرة الإمامة، وهو تفسير مخالف لما عليه أهل السنة.

ففي قوله ﷺ: « **من كنت وليه فهذا وليه. اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه** » [٢]. فأهل السنة يقولون – على فرض صحة الحديث [٣] – : الموالاة هنا بمعنى المحبة بدلالة ضدها الموجود في النص (وعاد من عاداه) والمودة والمحبة ضد المعاداة [٤]. ويشهد لذلك سبب ورود هذا الحديث؛ « من أن عليًا لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أميرًا هو وخالد بن الوليد، ورجع عليٌّ فوافى رسول الله ﷺ بمكة في حجة الوداع وقد كثرت فيه المقالة، وتكلم فيه بعض من كان معه بسبب استرجاعه منهم خِلَعًا كان خلعها نائبه عليهم لما تعجل السير إلى رسول الله ﷺ، فلما تفرغ رسول الله من حجة الوداع أحب أن يبرئ ساحة علي مما نسب إليه من القول الذي لا أصل له » [٥].

ولكن الشيعة يفهمون من الخبر أمرًا أعظم وأكبر، هو الوِلاية والإمامة والخلافة بعد النبي ﷺ [٦]. كما يرون في قول النبي ﷺ: « **أما ترضى أن تكون مني بمنـزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوة بعدي** » [٧] – دليلًا على خلافة علي للنبي بعد وفاته ﷺ.

قال المازندراني شارح الكافي: « واستدل أصحابنا رضوان الله عليهم بهذا الحديث المتواتر عند العامة والخاصة بالتنصيص على خلافته ﷺ وتوضيحه أن النبي ﷺ أثبت

---

(١) أصول الكافي (٨٢/٢، ٨٣) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى، قال محققه: والحديث موثق.

(٢) الإمام النسائي: السنن الكبرى (٤٥/٥). دار الكتب العلمية بيروت (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

(٣) إذ لا يقر ابن تيمية بصحة هذا الحديث. انظر: منهاج السنة النبوية (٥٢/٧).

(٤) قال البيهقي: « والمراد به ولاء الإسلام ومودته وعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضًا ولا يعادي بعضهم بعضًا، وهو في معنى ما ثبت عن علي ﷺ أنه قال والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق » الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد (ص ٣٥٤، ٣٥٥). دار الآفاق الجديدة بيروت (ط١)، (١٤١١هـ)، تحقيق أحمد عصام الكاتب.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٥/٧).

(٦) الشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٦٣).

(٧) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: باب من فضل علي ﷺ (١٢٠/٧)، رقم (٢٤٠٤).

لعلي عليه السلام جميع منازل هارون من موسى، واستثنى النبوة فبقي الباقي على عمومه؛ لأنه قضية الاستثناء، ومن جملة منازل هارون من موسى أنه كان خليفة لموسى عليه السلام: ﴿ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝ هَٰرُونَ أَخِى ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦] » [١].

ولا يرتضي أهل السنة هذا الاستنتاج من هذا الحديث؛ قال الإمام النووي رحمه الله: « هذا الحديث مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقًّا لعلي وأنه وُصّي له بها... وهذا الحديث لا حجة فيه لأحد منهم بل فيه إثبات فضيلة لعلي ولا تَعرُّض فيه لكونه أفضل من غيره أو مثله، وليس فيه دلالة لاستخلافه بعده؛ لأن النبي ﷺ إنما قال هذا لعلي حين استخلفه في المدينة في غزوة تبوك، ويؤيد هذا أن هارون المشبَّه به لم يكن خليفة بعد موسى، بل توفي في حياة موسى وقبل وفاة موسى بنحو أربعين سنة على ما هو مشهور عند أهل الأخبار والقصص، قالوا: وإنما استخلفه حين ذهب لميقات ربه للمناجاة، والله أعلم » [٢].

وبالرجوع إلى سبب ورود الحديث يتضح معناه، عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول له لمّا خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله! خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ : « **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوة بعدي** » [٣].

فالمشابهة بين هارون - عليه الصلاة والسلام - وعلي رضي الله عنه ليست على إطلاقها، كل ما في الأمر أن موسى عليه السلام استخلف هارون عليه السلام لما ذهب لتكليم ربه، واستخلف النبي ﷺ عليًا عندما توجه لغزوة تبوك، وقد ثبت عند أهل السنة أن النبي ﷺ استخلف على المدينة غير علي؛ فقد استخلف ابن أم مكتوم رضي الله عنه [٤]

(١) مولي محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٢٧٣/١١، ٢٧٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧٤/١٥). دار الكتاب العربي - بيروت (١٤٠٧هـ)، (ط٢).

(٣) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رقم (٢٤٠٤).

(٤) اسمه عبد الله أو عمرو، وهو أرجح، قال ابن سعد: أهل المدينة يقولون: اسمه عبد الله، وأهل العراق يقولون اسمه عمرو. واختلفوا في اسم أبيه، فقيل: هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، ومنهم من قال: عمرو ابن زائدة ولم يذكر قيسًا، ومنهم من قال: قيس بدل زائدة، وقال ابن حبان: من قال: ابن زائدة نسبه لجده، =

على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته [١]، واستخلف غيره أيضًا [٢].

لقد روى الشيعة أحاديث كثيرة تؤكد وصية النبي ﷺ لعلي بالخلافة، كما فسروا - قبل ذلك - آيات قرآنية بما يبيّن هذه الوصية؛ حتى شبّ عليها الصغير وشاخ عليها الكبير؛ فنشأ جيل يعتقد بإمامة آل البيت تديُّنًا، ولو صح عندهم ما صح عند أهل السنة من عدم هذه الوصية لما اعتقدوا بإمامة الاثني عشر إمامًا؛ ولذلك جاء دور الحوار لتغيير هذه المعتقدات التي لا تقوم على أدلة عقلية ولا نقلية صحيحة.

واليوم يعدّ العامل الديني - وهو محبة آل البيت - مدخلًا من مداخل نشر مذهب الشيعة بين المسلمين؛ إذ من خلاله يتسللون إلى عامة المسلمين، ويزعمون أنهم أحباب وأنصار آل البيت، فمن لا يحب آل البيت؟! فإذا اطمأنّ إليهم العامة بما في نفوسهم من حبّ وعاطفة جيّاشة تجاه أهل البيت الكرام؛ أوغروا صدور هؤلاء البسطاء على أصحاب النبي ﷺ بروايات مكذوبة مسمومة تدّعي ظلم الصحابة لآل بيت النبي ﷺ فأخرجوهم من مذهب أهل السنة والجماعة إلى مذهبهم، مستغلين العامل السياسي الملائم والعامل الاقتصادي الداعم، كما سنبين.

وواجب علماء المسلمين اليوم أن يؤكدوا على مكانة الصحابة الكرام وآل بيت النبي ﷺ بدرجة واحدة على السواء، والتأكيد على أنهم جميعًا ﷺ كانوا متحابّين، رحماء بينهم، ولم يكونوا كما تصورهم تلك الروايات المزعومة.

وأن يبيّنوا للعامة أنّ أي محاولة للنيل من الصحابة الكرام أو من آل بيت النبي ﷺ

= ويقال: كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد اللّٰه. حكاه ابن حبان، واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد اللّٰه المخزومية، وهو ابن خال أمّنا خديجة رضي الله عنها، كان من أوائل من أسلم بمكة ومن هاجر إلى المدينة، قيل: مع مصعب بن عمير، وقيل: بعده، كان معه اللواء يوم القادسية، قيل: استشهد فيها، وقيل: رجع إلى المدينة فمات فيها رضي الله عنه. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٦٠١/٤).

(١) انظر: تاريخ خليفة بن خياط (خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر) (ص ١٤)، دار القلم، مؤسسة الرسالة - دمشق، بيروت (ط٢)، (١٣٩٧هـ)، تحقيق / د. أكرم ضياء العمري. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٦٠١/٤).

(٢) استخلف ﷺ أبا رهم الغفاري كلثوم بن حصين حين سار إلى مكة وحنين والطائف، واستخلف محمد ابن مسلمة في غزوة قرقرة الكدر، وفي غزوة بني المصطلق نميلة بن عبد اللّٰه الليثي، وفي غزوة الحديبية عويف ابن الأضبط من بني الديل، وفي غزوة خيبر أبا رهم الغفاري، وفي عمرة القضاء أبا رهم أيضًا، وفي غزوة تبوك سباع بن عرفطة الغفاري، وفي بعض غزواته غالب بن عبد اللّٰه الليثي، واستخلف على مكة عند انصرافه عنها عتاب بن أسيد، فلم يزل عليها حتى مات ومات أبو بكر. تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٤).

هي دليل واضح على فساد عقيدة أصحابها، فحريّ بالأمة الحذر منهم؛ لأنهم يريدون تمزيق الأمة بالنيل من عظمائها وإسقاط رموزها وقدواتها [١].

٢ - العامل السياسي:

يرفض كتّاب الشيعة أن يكون التشيع قد نشأ بسبب العامل السياسي؛ يقول محمد جواد مغنية: « سبب التشيع ديني صرف، ولا صلة له بالسياسة من قريب أو بعيد، إنه فعل النبي ﷺ وقوله » [٢]. كما يرفض محمد باقر الصدر القول بوجود تشيع روحي نشأ زمن النبي ﷺ، وتشيع سياسي واجتماعي نشأ متأخرًا عن التشيع الروحي، ويرى أن التشيع واحد لا ينفصل، وهو يتضمن الجانب الروحي والسياسي والاجتماعي [٣].

ويمكن القول: إن الأفكار لا تخرج من هذا العامل السياسي؛ بل من الآثار التي يتركها، حيث يكوّن المناخ الخصب لنشأة الأفكار المتطرفة الخارجة عن عقيدة الأمة، كما حصل مع الخوارج والشيعة.

صحيح أن المظهر الديني كان الأبرز في نشأة الفرق، لكن يجب ألا ننسى الدور السياسي الذي سبّب البيئةَ الصالحة لخروج الأفكار، والمشكلة عندما نرى أن الفرق نشأت بعامل واحد، فنختلف في تعيينه بين هذا العامل أو ذاك.

وليس العامل السياسي مقصورًا في تأثيره على نشأة الشيعة وحدهم، بل له تأثير في نشأة بعض الفرق الأخرى في التاريخ كخصوم الشيعة (وهم الخوارج): « فالخوارج إنما خرجوا على علي ﷺ لا لأنه تحدث عن الله ﷻ أو عن صفاته بما لا يرضيهم، أو بما يخرجه عن حظيرة الإسلام... وإنما خرجوا عليه لأنه قبِل التحكيم، وقد كوّنوا في مقابل حزب الشيعة حزبًا معارضًا يستل السيف ويمتشق الحسام » [٤].

أما عن الدور الذي لعبته السياسة في تشكل فرقة الشيعة فكلُّنا يذكر عملها في

---

(١) انظر: المودة والمحبة بين القرابة والصحابة، للمؤلف، دار المعراج - دمشق (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).

(٢) الشيعة والحاكمون (ص ١٥)، دار الهلال - بيروت (١٩٨١م)، (ط٥)، وانظر: د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٤٩).

(٣) انظر: السيد محمد باقر الصدر: بحث حول الولاية (ص ٨٩ - ٩٣)، دار التعاريف للمطبوعات - بيروت (١٣٩٩هـ). وبهذا يرد الصدر على د. عبد الله فياض الذي قسم التشيع إلى تشيع خاص نشأ في عهد النبي ﷺ، وتشيع عام وهو القول بحق علي ﷺ في الخلافة والعمل على استردادها. في كتابه (تاريخ الإمامية) (ص ٣٨).

(٤) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٨).

تشكيل الشيعة الأوائل وتجمّعهم حول علي ثم الحسن فالحسين رضوان اللّه عليهم، وما كان في تلك العهود من أحداث أليمة أججت نار عاطفة التشيع، ورسّخت تفرّق الأمة عبر الجمل وصفين، ثم كربلاء والحرّة.

كما يذكر لنا التاريخ دور العامل السياسي في الثورات التي ترأّسها مشاهير أهل البيت، والردّ العنيف من الملك العضوض عليها؛ مما حرم الأتباع من أئمتهم الذين كانوا يربطونهم بباقي جسد الأمة، فتهيّأ السبيل لبعض طلّاب الانحراف الفكري أو المطامع السياسية ليركبوا موجة التشيع، ثم يقودوا دفّته إلى مصير مظلم، فتحوّل الفكر الشيعي من الظهور إلى الخفاء، ومن الاندماج مع الأمة المسلمة إلى الانطواء والانعزال عنها، مما هيّأ المناخ المناسب لتطرف أتباع الأئمة وغلوّهم في الأئمة، ومقتهم لملوك الأمويين والعباسيين، ثم للرعايا المغلوبين من أهل السنة الذين ما كانوا يملكون من أمر تلك الأحداث شيئًا.

وقد عدّ لنا الأشعري في مقالات الإسلاميين معظم هذه الثورات التي كانت تؤول في نهايتها إلى التقتيل في أسرة البيت النبوي، « بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة بحق مأساة من أكبر المآسي في تاريخ الإنسانية، ولقد صوّر الشيعة تلك المآسي تصويرًا أخّاذًا، وبكى شعراء الشيعة أهلَ البيت بكاءً مريرًا، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الحزينة » [(١)].

- فقد خرج الحسين بن علي ﷺ [(٢)] منكرًا على يزيد بن معاوية ما أظهر من ظلمه، فقُتل في كربلاء رضوان اللّه عليه، وحديثه مشهور، وقتله عمر بن سعد وكان الذي أنفذه عبيد اللّه بن زياد، وحمل رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية... وقتل مع الحسين من آل النبي ﷺ ابنه علي الأكبر ومن ولد أخيه عبد اللّه بن الحسن والقاسم بن الحسن وأبو بكر بن الحسن، ومن إخوته العباس بن علي، وعبيد اللّه بن علي وجعفر بن علي وعثمان بن علي وأبو بكر بن علي ومحمد بن علي وهو محمد الأصغر... » [(٣)].

- « ثم خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضوان اللّه عليهم - بالكوفة على هشام بن عبد الملك، ووالي العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فقُتل في

---

(١) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٩٢) كلية دار العلوم - جامعة القاهرة مجلة حوليات دار العلوم العدد (١٧) سنة (١٩٩٤م) مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٥م). وانظر: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢٢).

(٢) انظر حول ثورة الحسين بن علي: أصول الكافي (٣٢٧/١) كتاب الحجة باب ما يفصل به بين دعوى المحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٣) مقالات الإسلاميين (٧٥/١).

المعركة ودفن، فعلم به يوسف بن عمر فنبشه وصلبه، ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق فأُحرق ونُسف رماده في الفرات [!!]...

- ثم خرج يحيى بن زيد بأرض الجوزجان على الوليد بن يزيد بن عبد الملك... فقُتل في المعركة ودفن في الجبّانات » [١].

ويأتي دور السياسة من جديد في عهد بني عباس حيث تظاهروا أولًا بدعم الشيعة والتشيع، ثم بطشوا بالشيعة، فزادوهم حنقًا وكمدًا.

قال الإمام الأشعري:

- « ثم خرج محمد بن عبد اللَّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة وبويع له في الآفاق، فبعث إليه أبو جعفر المنصور بعيسى بن موسى وحميد بن قحطبة، فحارب محمد حتى قُتل، ومات تحت الهدم أبوه عبد اللَّه بن الحسن وعلي بن الحسن ابن الحسن، وقُتل بسببه رجال من أهل بيته...

- ثم خرج بعد محمد بن عبد اللَّه أخوه إبراهيم بن عبد اللَّه بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب بالبصرة، فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى ابن زيد بن علي، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قُتل وقُتلت المعتزلة بين يديه » [٢].

- وهكذا تتوالى الثورات التي كان يرأسها آل البيت، فخرج بعد ذلك: « الحسين ابن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فقتل.. ولم يجسر أحد أن يدفنهم حتى أكلت السباع بعضهم [!]..

- ثم خرج يحيى بن عبد اللَّه بن الحسن بن الحسن بن علي على أبي جعفر وصار إلى الديلم ثم قتل.

- ثم خرج محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد اللَّه بن الحسن...

- ثم خرج بالكوفة في أيام المأمون محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علي... ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه ودفن بالكوفة...

---

(١) مقالات الإسلاميين (١/٧٨، ٧٩).　　(٢) المرجع السابق (١/٨١).

- فخرج بعده محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » [(١)].

وهكذا حتى يعدد لنا الأشعري خمسة وعشرين رجلًا من آل بيت محمد ﷺ خرجوا على حكّام زمانهم [(٢)].

فتلك الثورات الشيعية وما تلاها من ردود أفعال عنيفة وشديدة من أصحاب الملك العضوض تركت آثارها في نفوس أتباع آل البيت، حيث لجؤوا إلى الانطواء والتخفي بمعتقداتهم وآرائهم، وزادت من اشتعال نار الحقد على هذه الأمة الجريحة التي لم تستطع أن تنصر آل بيت نبيها ﷺ. لقد « كانت الشيعة في بدء أمرها محبة... فلما أصبح الظلم اضطهادًا وتعذيبًا وتشتيتًا وبترًا للأعضاء وسملًا للعيون وقتلًا - تكونت الشيعة بالمعنى الاصطلاحي المعروف الآن » [(٣)].

وهاهنا تخرج الأفكار المنحرفة الضالة، كما رأينا فعل السجون في العصر الحاضر ببعض المعارضين السياسيين؛ إذ جعلت تلك السجون - بما فيها من عسف - بعضهم يصل إلى تكفير الأمة حكامًا ومحكومين!.

ومن الحقيقة أن هذا الظلم الذي وقع على رجالات الشيعة في التاريخ أمر مستنكر وغير مبرر، ولكن من الحقيقة أيضًا أن هذه المظالم والقتل والتعذيب لم يكن خاصًا بهم، بل أصاب الطوائفَ الأخرى من الأمة المسلمة، ولم يكن أصلًا باسم عداء التشيع ذاته؛ إنما كان باسم حِفَاظ الحكّام على السلطة، فحيث وجد تهديد عروش الحكم والحاكمين كان هناك الرد العنيف والدموي لمن قام بهذا التهديد، سواء كان شيعيًا أو سنيًا أو زيديًا... إلخ.

فكما حدثت فاجعة مقتل الحسين ﷺ، التي ينسبها الشيعة إلى تاريخهم، وهي في الحقيقة فاجعة لكل المسلمين - شيعة وسنة - حدثت أيضًا حادثة استباحة مدينة الرسول المقدسة من جند يزيد، حين خرج أهلها من أهل السنة على حكمه الأموي، ولكن أحدًا

---

(١) مقالات الإسلاميين (١/٨١ - ٨٥).

(٢) وفي بدايات القرن العشرين، عندما فكر المتآمرون بتمزيق الخلافة العثمانية بفصل العرب عنها؛ لجأ المخططون إلى رجل من أهل البيت، هو الشريف حسين - شريف مكة - ليقود تلك الثورة؛ فقد كان وجود رجل من آل بيت النبي ﷺ - وهم أهل الاحترام بين الناس - سيسهل إسقاط الخلافة العثمانية ذات الصبغة الدينية؛ مما يدل على أن تأثير البيت النبوي في الناس لا يزال موجودًا. وعلى كلٍّ فنحن لا نتحدث حول مشروعية هذه الثورات المتتالية أو عدم مشروعيتها، ولكننا نسوق ذكرها لنبين أثرها في فكر الشيعة.

(٣) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٢٦).

لم يذكر أن هذه الفواجع كانت سببًا في إنشاء عقيدة خاصة بأهل السنة والجماعة، أوغلوا من خلالها في مخالفة باقي الطوائف، وبهذا نعلم أن مظالم التاريخ لا تكوّن وحدها عقيدة خاصة؛ وإنما تكوّن المناخ الملائم الذي يسهّل دور العوامل الأخرى في نشر تلك العقائد المنحرفة الغالية.

وإذا كان كتّاب الشيعة يسلطون الأضواء على الصور القاتمة التي تعكس سوء العلاقة بين سادة آل البيت والحكّام في التاريخ، فإن التاريخ يحمل لنا الصور المشرقة في حسن العلاقة بين الآل والحكّام؛ إذ تذكر المصادر الشيعية وغيرها مظاهر توقير خلفاء بني العباس لآل البيت: فالمأمون يعرض الخلافة على الإمام الرضا، ثم يزوجه ابنته، وعند رفضه الخلافة يعرض عليه ولاية العهد [1].

والمتوكل يكرم الإمام أبا الحسن الثالث ويأمر بإكرامه وإجلاله. كما روى الشيعة رسالة كتاب الخليفة المتوكل إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام سنة ثلاثٍ وأربعين ومائتين، ومما جاء فيه: (بسم اللّه الرّحمن الرّحيم، أمّا بعد فإن أمير المؤمنين عارفٌ بقدرك راعٍ لقرابتك، موجبٌ لحقك، يقدر من الأمور فيك وفي أهل بيتك ما أصلح اللّه به حالكَ وحالهم، وثبت به عزّك وعزّهم، وأدخل اليمن والأمن عليك وعليهم، يبتغي بذلك رضاء ربّه وأداء ما افترض عليه فيك وفيهم، وقد رأى أمير المؤمنين صرف عبد اللّه بن محمّدٍ عمّا كان يتولاه من الحرب والصلاة بمدينة رسول اللّه ﷺ؛ إذ كان على ما ذكرت من جهالته بحقّك واستخفافه بقدرك، وعند ما قرفك به ونسبك إليه من الأمر الّذي قد علم أمير المؤمنين براءتك منه وصدق نيتك في ترك محاولته، وأنّك لم تؤهّل نفسك له. وقد ولّى

---

(١) انظر الخبر في أصول الكافي (١/٥٦٤)، كتاب الحجة بابٌ في مولد أبي الحسن الرضا. وقال محققه: الحديث صحيح. وفيها: « .. لما انقضى أمر المخلوع [يعني الأمين] واستوى الأمر للمأمون كتب إلى الرضا عليه السلام يستقدمه إلى خراسان.. فعرض عليه المأمون أن يتقلد الأمر والخلافة، فأبى أبو الحسن عليه السلام، قال: فولاية العهد فقال: على شروطٍ أسألكها. قال المأمون له: سل ما شئت. فكتب الرضا عليه السلام: إني داخلٌ في ولاية العهد على أن لا آمر ولا أنهى ولا أفتي ولا أقضي ولا أولي ولا أعزل ولا أغير شيئًا مما هو قائمٌ، وتعفيني من ذلك كله. فأجابه المأمون إلى ذلك كله ». فهذه الرواية تثبت الموقف السلبي للإمام من قضية الخلافة، وها هي صارت بين يديه فرفضها، ثم اختار ولاية العهد بشكل سلبي أيضًا، فلماذا يصرّ شيعة اليوم على المطالبة بما تنازل عنه أئمتهم السابقون كالحسن رضي الله عنه وأبي الحسن الرضا؟. وإن كان الأمر في الواقع أن بني العباس هم الذين رفضوا أن يُنصّب الإمام موسى الرضا وليًا للعهد، فقد قال الخطيب البغدادي: « بعث المأمون إلى علي بن موسى الرضا، فحمله وبايع له بولاية العهد، فغضب من ذلك بنو العباس وقالوا: لا يخرج الأمر عن أيدينا. وبايعوا إبراهيم بن المهدي » وهو عمّه، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه [انظر: تاريخ بغداد (٦/١٤٢)].

أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمّدَ بن الفضل وأمره بإكرامك وتبجيلك والانتهاء إلى أمرك ورأيك، والتقرب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بذلك. وأمير المؤمنين مشتاقٌ إليك يحبّ إحداث العهد بك والنّظر إليك.. » [١].

وهذا النص يبين أن هنالك من الوشاة من كان يحاول إساءة العلاقة بين آل البيت والخلفاء، ويزعم أنهم يريدون الانقضاض على الخلافة والانقلاب على الخلفاء، فلما تبين بطلان ذلك للخليفة عزل واليه لإساءته لآل بيت النبي ﷺ ممثلين بالإمام الهادي علي ابن محمد (أبي الحسن الثالث)، وعيّن مكانه آخر، وأوصاه بآل بيت النبي ﷺ خيرًا.

وفي الحقيقة أن عمل الوشاة لم يكن خاصًا بأئمة الشيعة، بل بكل عَلَم وُشي به أنه ينازع في الملك، فالإمام الشافعي رحمه الله تعرّض لما تعرّض له الإمام الهادي وأكثر؛ حيث جيء به موثقًا بالحديد من اليمن إلى العراق لمّا حسده والي اليمن وادعى أنه يريد الخروج على هارون الرشيد مع بعض رجال آل البيت [٢].

ولكن تلك الصور الجميلة التي تبيّن أن الخلفاء كانوا يحترمون أئمة آل البيت لم تكن لتغير شيئًا من نظرة الشيعة إلى الحكّام؛ فقد كانت عقائد الشيعة الاثني عشرية قد تبلورت بشكل لا يمكن التراجع عنه، إلا بالتراجع عن التشيع ذاته. فهؤلاء الحكّام في عقيدة الاثني عشرية غاصبون لإمامة أهل البيت؛ ولذلك لم تُجْدِ تلك المودّات من الخلفاء شيئًا في تغيير نظرة كتّاب الشيعة إلى هؤلاء الحكّام.

– ويظهر العامل السياسي في التشيع أيضًا في حركات الطامعين بالسلطة الثائرين على الخلفاء؛ فقد ذكر التاريخ الأموي والعباسي أن من أراد الثورة على الحكام كان لا بد أن يتخذ من آل البيت درعًا ووقاءً، وكان الأذى يصل إلى آل البيت بسبب هؤلاء، كما فعل المختار الثقفي صاحب الأطماع؛ إذ حاول التقرب من محمد ابن الحنفية، وكذلك أبو مسلم الخراساني [٣] دعا الناس إلى إمامة آل البيت، ولما عرف الخليفة الأموي مروان

---

(١) أصول الكافي (١/٥٧٦)، كتاب الحجة، بابٌ في مولد أبي الحسن علي بن محمد، سكت عنه المحقق.

(٢) قال الشافعي: خرجت إلى اليمن، وكان بها وال غشوم من قبل الرشيد فكنت أمنعه من الظلم وآخذ على يده، وكان باليمن سبعة من العلوية، ولا أمر لي معه ولا نهي، فكتب إليه بحملنا جميعًا فحملنا فضربت رقاب العلوية ونظر إلي فوعظته فبكى » الوافي في الوفيات (١/٢٢٣). وانظر: تاريخ دمشق (٥١/٢٩٠).

(٣) هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، أحد مؤسسي الدولة العباسية وأحد كبار القادة. ولد سنة (١٠٠هـ) في ماه البصرة – مما يلي أصبهان – فلما شبَّ أرسله إبراهيم بن محمد الإمام من بني العباس داعية إلى خراسان، فاستولى على نيسابور وخطب باسم عبد الله بن محمد السفاح العباسي، ثم هزم جنود =

ابن محمد أن الدعوة إلى إبراهيم – من آل البيت النبوي – أخذه وحبسه، فتحيرت الشيعة فقال لهم يقطين بن موسى – وهو أحد رؤساء الدعوة الشيعية –: « ذهبتُ إلى إبراهيم الإمام وهو في حبس مروان، فقلت له: إلى من تكلُني؟ فقال: إلى ابن الحارثية، وعنى به: أخاه أبا العباس السفاح »[1] أول خلفاء الدولة العباسية.

ويروى أن أبا مسلم كتب إلى جعفر الصادق: « أني قد دعوت الناس عن موالاة بني أمية إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فيها فلا مزيد عليك. فكتب الصادق إليه: ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني »[2]. فلما يئس منه لعب على حبل الكيسانية وأتاه دعاتها، « واستخدمهم أبو مسلم الخراساني على مختلف مشاربهم... ليقضي على بني أمية »[3] باسم التشيع. وبهذا مهّد الشيعة لحكم بني العباس، وساهموا في إسقاط خلافة الأمويين، لكنهم لم ينالوا الإمامة التي كانوا يريدون.

= مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وصفا الجو للسفاح بعد مقتل مروان بن محمد، ولما خلفه أخوه المنصور بعد موته رأى من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع بالملك – وكانت بينهما ضغينة – فقتله برومة المدائن سنة (١٣٧هـ). روي عنه أنه قال: « ارتديت الصبر، وآثرت الكفاف، وحالفت الأحزان والأشجان، وشامخت المقادير والأحكام، حتى بلغت غاية همتي، وأدركت نهاية بغيتي ». قال عنه الذهبي: « كان ذا شأن عجيب، ونبأ غريب، من شاب دخل إلى خراسان ابن تسع عشرة سنة على حمار بإكاف، فما زال بمكره وحزمه وعزمه يتنقل، حتى خرج من مرو بعد عشر سنين يقود كتائب أمثال الجبال، فقلب دولةً وأقام دولةً، وذلت له رقاب الأمم، وحكم في العرب والعجم، وراح تحت سيفه ستمائة ألف أو يزيدون ».

انظر: وفيات الأعيان (١٤٥/٣ – ١٥٥)، وميزان الاعتدال (٣٠٣/٣، ٣٠٤)، والبداية والنهاية (٦٧/١٠ – ٧١)، والأعلام (٣٣٧/٣، ٣٣٨).

(١) انظر: المحصل للرازي (ص ٢٤٥). وأبو العباس هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أول خلفاء الدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. ولد سنة (١٠٤هـ) بالشداة – بين الشام والمدينة – ونشأ بها، ثم انتقل إلى الكوفة، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني، وكافأه بعد ذلك بأن ولاه خراسان، وبويع بالخلافة جهرًا في الكوفة سنة (١٣٢هـ) وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين في الشام، وكان شديد العقوبة عظيم الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس، ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم. وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، وكان سخيًا جدًا. أصيب بالجدري فتوفي شابًا بالأنبار سنة (١٣٦هـ). انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٥٣٩/٥ – ٥٤٢).

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١٣٧/١)، والمحصل للرازي (ص ٢٤٥). وذكر الطوسي أن كل ما يروى عن أبي مسلم هنا بخلاف ما ذكره عنه أصحاب التواريخ. انظر: تلخيص المحصل له (ص ٢٤٦).

(٣) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٦٤).

- ويتجلى دور العامل السياسي في ازدهار التشيع في عهود الدول الشيعية التي قامت في التاريخ؛ فالناس على دين ملوكهم وحكّامهم.

- يقول التاريخ: لما كانت دولة بني بويه ببغداد سنة (٣٣٤هـ) قوي بهم أمر التشيع والرافضة وجهروا بلعن الصحابة على المنابر، وكتبوا على أبواب المساجد سنة (٣٥١هـ): « **لعن اللّٰه معاوية بن أبي سفيان، ولعن من أغضب فاطمة** » [(١)].

- فلما دالت دولتهم أُزيل ما كتبوه على أبواب المساجد من غلو في علي ﷺ وإساءة للصحابة الكرام، « ودخل المنشدون من باب البصرة إلى باب الكرخ ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابة؛ وذلك أن نوء الرافضة اضمحل لأن بني بويه كانوا حكّامًا، وكانوا يقوُّونهم وينصرونهم، فزالوا وبادوا وذهبت دولتهم وجاءَ بعدهم قوم آخرون » وذلك في عام (٤٤٨هـ) [(٢)].

- وقد كرّر العُبيديون (الفاطميون) في مصر ما فعله البويهيون في بغداد، ففي سنة (٤٧٨هـ) (في عهد المستنصر معد العبيدي) كُتب « سبّ الصحابة على الحيطان »، وفشا مذهب الشيعة بين العامة بمصر في تلك الأيام « بسبب ولاة مصر بني عُبيد، إلا من ثبّته اللّٰه تعالى على السنّة » [(٣)]، وبقيت مصر رسميًّا أسيرة الفكر الشيعي حتى جاء صلاح الأيوبي، فأسقط دولتهم الإسماعيلية، وقطع الخطبة لآخرهم (العاضد) وأقامها للعباسيين السنّة، بأمر من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في أول المحرم سنة (٥٦٧هـ) [(٤)]. وهذا الذي جعل بعض كتّاب الشيعة ينقمون على صلاح الدين رحمه الله.

يقول داعية التقريب الشيعي محمد جواد مغنية: « ولولا سياسة الضغط والتنكيل التي اتبعها صلاح الدين الأيوبي مع الشيعة لكان لمذهب التشيع في مصر اليوم وبعد اليوم شأن أي شأن، وإذا لم يكن الفاطميون على مذهب الاثني عشرية؛ فإن هذا المذهب قد اشتد أزره ووجد منطلقًا في عهدهم؛ فقد عظم نفوذه ونشطت دعاته وعملوا على نشره وتوطيده... ذلك أن الاثني عشرية والإسماعيلية وإن اختلفوا من جهات فإنهم يلتقون في هذه الشعائر... في تدريس علوم أهل البيت والتفقه بها وحمل الناس عليها » [(٥)].

---

(١) الخطط للمقريزي (٣٥٦/٢) (٢٦١/٢).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٢) وانظر: ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢/٨).

(٣) ابن تغري بردي [يوسف، جمال الدين أبو المحاسن، (ت ٨٧٤هـ)]: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢٠/٥). المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة.

(٤) النجوم الزاهرة (٧/٦).

(٥) الشيعة في الميزان (ص ١٧٣).

فلا أدري كيف يستنكر مغنية ما فعله صلاح الدين في تقوية المذهب السني في مصر - وقد كان هو السائد قبل مجيء العبيديين - في حين يجيز ذلك لأبناء عمّه الإسماعيلية الدخلاء على مصر؟! [(١)].

- وفي عهد الدولة الصفوية قام مؤسسها الشاه إسماعيل الصفوي بفرض التشيع على إيران قسرًا وجعله المذهب الرسمي، وأمر بتنظيم المآتم ومجالس العزاء بذكرى قتل الحسين ﷺ، وجرى تمثيل مقتل الحسين كل عام لكسب عواطف العوام، فكان لهذه الدولة أثرها الكبير في صرف كثير من أهل إيران عن المذهب السنّي إلى المذهب الاثني عشري [(٢)].

وحسبك أن تعلم أن الكافي للكليني (ت ٣٢٩هـ) أهم مصدر شيعي بقي دون أي شرح مشهور ما يزيد على سبعة قرون، حتى ازدهر التأليف تحت راية الدولة الصفوية (٩٠٥ - ١١٤٨هـ) في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين [(٣)].

وقد اشتهر الغلو في معظم مؤلفات هذا العهد الصفوي؛ فهذا هو علي الكركي (٩٨٤هـ) المقرب من الشاه طهماسب بن إسماعيل الصفوي يؤلف رسالة في التربة التي

---

(١) سنناقش رأي مغنية في صلاح الدين في الفصل الأخير من الرسالة (موقف الاثني عشرية من الأمة..).

(٢) انظر: د.ناصر عبد الله بن علي القفاري أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣/١٤٧٥). راجع تاريخ الصفويين (ص ٥٥) كامل مصطفى الشيبي: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري (ص ٤١٣).

جاء في كتاب: الشيعة في الميزان - محمد جواد مغنية (ص ١٧٦، ١٧٧): « أمر الشاه عباس أن يؤذن (بحي على خير العمل) في جميع بلاد إيران، ونقش على النقود اسم علي وآله، ونشر في الأقطار المجاورة لإيران الدعاة لمذهب التشيع، وحين دخل إلى بغداد، وذلك في (٢٥) جمادى الآخرة سنة (٩١٤هـ)، فرح الناس بقدومه، والتجؤوا إلى عدله، وكانوا ينتظرونه بفارغ الصبر، وأخذوا يقدمون القرابين والذبائح إكرامًا له، وفي اليوم التالي بلا فاصل توجه إلى كربلاء، وأدى مراسم الزيارة، وبات ليلته معتكفًا في الحائر، منكبًا على قبر الحسين الشهيد (ع)، وأمر بصنع الصندوق المذهب للقبر الشريف، وعلق بالحضرة (١٢) قنديلًا من الذهب، وفرشها بأنواع السجاد الثمين، كما أمر بصنع صناديق أخرى للنجف الأشرف والكاظمية وسامراء بدلًا عن صناديقها القديمة. ثم سافر إلى النجف الأشرف، وتشرف بزيارة المشهد العلوي، وقدم القناديل من الذهب والفضة، والمفروشات الثمينة، وفي هذه السنة شرع ببناء حرم الكاظميين والمسجد الكبير المعروف بمسجد الصفويين، وأمر بحفر النهر الذي كان قد حفره عطا ملك، ثم اندثر بمرور الزمن، فجدده الشاه إسماعيل، ووقف ريعه على خدام المشهدين: العلوي والحسيني، هذا إلى حبه وتعظيمه العلماء والعلويين، وإنعامه عليهم بالأموال والمناصب، والاستعانة بأهل الكفاءة والمقدرة على نشر المذهب، وإعلان أسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر وفي المحافل، وبشتى المناسبات... ».

(٣) انظر: تقديم أصول الكافي (١/٢٤ - ٢٦)، وانظر الذريعة: باب (الكاف) وباب (شرح).

يسجد عليها الشيعة الآن في صلواتهم، وألف رسالة في جواز السجود للعبد، تقربًا للسلطان، وألف رسالة في لعن الشيخين ﵄، سماها (نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت)، ويقال: إنه الذي شرع السب في المساجد أيام الجُمَع.

وكذلك كان من شيوخ الشيعة في العصر الصفوي المجلسي صاحب موسوعة (بحار الأنوار) التي كان لها دور في نشر الغلو بين الشيعة، وقد قيل: إن كتابه (حق اليقين في الإمامة) كان سببًا في تشييع سبعين ألفًا من سنّيِيّ الإيرانيين [١].

إن ما كان من عهد التقيَّة قد ولى في كثير من جوانبه في زمن الصفويين؛ فظهر التشيع على حقيقته، وزاد غلوًّا على غلو، ساهم في ذلك الصراع السياسي بين الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية، فكان للخلاف السياسي دوره في إذكاء نار الخلاف بين المذهبين.

- وقد ذكر التاريخ دور الصفويين في حرب الدولة العثمانية لدرجة تعاون الصفويين مع البرتغاليين ثم الإنجليز ضد العثمانيين [٢].

- ثم جاء في العصر الحاضر الدفعة القوية للشيعة بنجاح ثورة-إيران المعاصرة في الربع الأخير من القرن الماضي؛ حيث اصطبغت بالمذهب الاثني عشري [٣]، وما جاء به إمام الاثني عشرية الخميني من فكرة تصدير الثورة إلى العالم، وما تقوم به الملاحق الثقافية في سفارات إيران في العالم من نشاط للتعريف بالتشيع والدعوة إليه؛ مما يزيد نشاط حركة التشيع والتفكير بالمذهب الشيعي بين الأوساط السنية وغيرها، خصوصًا مع جو الإحباط الذي تعيشه هذه الأوساط في ظلّ حالة التمزق الذي تعيشه الأمة، مع عدم وجود متنفَّس شرعي يخلِّصها من مصائبها - وفي مقدمتها العدو الجاثم على صدور أهلنا في فلسطين - مما يجعل البسطاء يطلبون الخلاص من واقع الأمة الأليم من أي جهة كانت، ولا عجب؛ فقد طلبه السذّج من عقود في الفكر الماركسي والليبرالي البعيدين كل البعد عن تعاليم الإسلام، فلأن يطلبوه من الفكر الشيعي فلا غرابة.

- ولكي تعلم الدور السياسي في تطور وانتشار الفرق، وأنه ما يزال مستمرًّا، فاعلم

---

(١) انظر: دونلدسن: عقيدة الشيعة (ص ٣٠٢).

(٢) انظر: تاريخ الصفويين (ص ٩٣) وما بعدها، وانظر د. جميل صبري: حاضر العالم الإسلامي (ص ١١٧).

(٣) أكد الخميني على الصبغة الاثني عشرية للدولة في دستور إيران. انظر: د. آمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩م)، (ص٢٤٣، ٢٤٤).

أنه بمجرد لقاء عابر بين الرئيس الإيراني والرئيس المصري على هامش قمة دولية – رفع الشيعة في مصر رؤوسهم ليعلنوا أن عددهم (٧٠٠) ألف نسمة!! [١].

– وكذلك غذَّت السياسة الخلاف بين المسلمين الشيعة والسنة بسبب العلاقات الإيرانية المتدهورة في الماضي القريب مع دول الجوار من دول الخليج العربي، في حرب الخليج الأولى؛ حيث زادت الهوة بين المسلمين الشيعة في إيران مع المسلمين السنة في الخليج. وشُنّت حملات واسعة من بعض مفكري الطائفتين، وخصوصًا في الخليج وإيران، وسعت المراكز الثقافية في سفارات تلك الدول لتأجيج نار الخلاف بين الطرفين [٢] مما لم نشهده في دول أخرى كسورية ولبنان، التي يعيش فيها المسلمون جميعًا في شتى مذاهبهم في سلام ووئام.

٣ – العامل الاعتزالي: (تفسير علاقة التشيع بالاعتزال):

ثبت عن أئمة أهل البيت كراهتهم للاعتزال وذمّهم له؛ حتى لعنهم الإمام جعفر الصادق

---

(١) نشرت جريدة الحياة اللندنية بتاريخ الخميس (١٦) ذو القعدة (١٤٢٤)، الموافق له (٨) كانون الثاني / (يناير) (٢٠٠٤) العدد (١٤٨٩٦) عن منظمة حقوقية مصرية نبأ اعتقال (١١) مصريًا في محافظة البحر الأحمر في مدينة رأس غارب، بتهمة التشيع، ثم ظهر أنهم ينتمون لقبائل الأشراف (ذوو النسب الهاشمي) وليسوا على مذهب الشيعة.

في تصريح لـ « إسلام أون لاين. نت » الثلاثاء (٢٠٠٤/٢/١٠)، في حين قدم أحمد راسم النفيس الأستاذ بكلية الطب جامعة المنصورة طلبًا لوزير الداخلية المصري يطالب فيه بالاعتراف رسميًا بالطائفة الشيعية في مصر، مشيرًا إلى أن عدد الشيعة فى مصر يتجاوز (٧٠٠) ألف (إجمالي السكان يصل إلى ٧٠ مليون نسمة)، وطالب النفيس في نهاية مذكرته التي تقدم بها نيابة عنه هاني أبو شنب المحامي بالاعتراف بالشيعة المصريين « كطائفة مذهبية رسمية. وقد جاء هذا الطلب في الوقت الذي تبذل فيه محاولات من أكثر من جهة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية بين إيران ومصر. ولكن الطبيب أضاف أن السبب الرئيسي وراء تقديمه للطلب ما حدث في محافظة البحر الأحمر مؤخرًا. ولا مشكلة دينية في مصر حول الشيعة؛ إنما المشكلة سياسية وأمنية؛ ذلك أن الأزهر من زمن شيخه محمود شلتوت أفتى بجواز التعبد بالمذهب الجعفري (الشيعي) في فتواه الصادرة في (١٦) شوال سنة (١٣٧٩هـ)، معتبرًا أن مذهب الشيعة الإمامية مذهب « يجوز التعبد به شرعًا كسائر مذاهب أهل السنة » وما زالت هذه الفتوى سارية ومعترفًا بها من قبل الأزهر الشريف حتى الآن. فلا مشكلة دينية إذن وإنما المشكلة سياسية.

(٢) فأصرّ الشيعة على أن الطرف الآخر لا يمثل الإسلام؛ وإنما هي الحركة الوهابية، في حين يركز الطرف الآخر على نقاط الغلو عند الشيعة. وصارت المراكز الثقافية للطرفين توزع الكتب الهجومية المسيئة بالمجان في البلاد الإسلامية!! في حين يشكو المسلمون الفقر والضنك هنا وهناك!.

قائلًا: « لعن اللّه المعتزلة أرادت أن توحد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه فأثبتت » [١]، وقد كان والده الباقر مخاصمًا صريحًا للمعتزلة، وأوردت المصادر حجاجه العنيف لعمرو ابن عبيد وواصل بن عطاء [٢].

فكيف إذن تأثر المتأخرون من الشيعة بالمذهب المعتزلي؟.

يوضح لنا الدكتور النشار سير خط التشيع وتطوره، فيراه مر على الشكل التالي: عقائد سلفية قديمة تمتد حتى وفاة محمد الباقر، « ثم عقائد كلامية عقلية تتوسط المذاهب وهي أقرب إلى الأشاعرة على يد جعفر الصادق، وعقائد مجسّمة على يد تلامذة جعفر؛ هشام ابن الحكم وهشام الجواليقي ومؤمن الطاق،... ثم ظهر كتاب الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) أوائل المقالات الذي يمثل لنا المرحلة المعتزلية في عقائد الشيعة أو يمثل لنا تكوّن العقائد الشيعية الاثني عشرية » [٣].

ومهما أنكر الاثنا عشرية صلتهم بالمعتزلة، وأكدوا أن آراءهم العقدية بنت منهجهم المعتمد على أئمة أهل البيت، وليس على فكر المعتزلة؛ فإن الواقع أكبر دليل على عكس ذلك؛ لوجود قواسم مشتركة بين الفرقتين. وهي حقيقة يقر بها الشيعة، فيقول عبد اللّه نعمة: « أما آراء الشيعة الكلامية فإن الكثير منها يتفق مع جملة من الآراء الاعتزالية، وخاصة في مسألة العدل، ونفي رؤية الخالق، وفي إثبات الحسن والقبح العقليين، وقاعدة اللطف، ونفي قِدم الصفات، وأن صفاته تعالى عين ذاته، وفي وجوب الأصلح للعبد في دار الدنيا، وإن اختلفوا في جهة الوجوب؛ فعند أكثر الشيعة ومنهم المفيد أنه واجب من جهة الكرم والتفضل، وعند أكثر المعتزلة والنوبختي صاحب كتاب (الياقوت) أنه واجب من باب العدل، وفي أنه تعالى قادر على الشر كما أنه قادر على الخير، ولكنه لا يفعل الشر؛ لأنه قبيح » [٤].

صحيح أن المعتزلة حاربت التطرف الشيعي والغلو فيه، ولكن « التشيع نما في أوساط المعتزلة نمو الخضاب في اليد » [٥]. فالمعتزلة يرجعون مذهبهم إلى أئمة أهل البيت: علي

---

(١) الكراجكي، كنز الفوائد (١/١٢٥ - ١٢٧)، وانظر: الشيخ جعفر السبحاني: رسائل ومقالات (ص ٣٦٣)، مؤسسة الإمام الصادق.

(٢) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢١٨، ٢١٩).

(٣) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٢١).

(٤) عبد اللّه نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٥٢).

(٥) الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٣٤).

وبنيه من بعده، فإذا نظرنا إلى الكتب التي تحدثت عن طبقات المعتزلة وجدنا الحسن والحسين ابنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ معدودين في الطبقة الثانية من رجال المعتزلة، كما نجد في الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن ﷺ وابنه عبد اللَّه، وابن ابنه محمد، وأبا هاشم عبد اللَّه بن محمد ابن الحنفية وأخاه الحسن، ومحمد بن علي بن عبد اللَّه ابن عباس، وزيد بن علي، كما نجد في الطبقة التاسعة الحسن بن موسى النوبختي صاحب (فرق الشيعة) وهو من أعلام الإمامية [١].

وترى الدكتورة عائشة المناعي: « أن المعتزلة وإن كانوا قد انقرضوا فإن مقولاتهم لا تزال تعيش وتحيا ضمن مقولات علم الكلام الإمامي، ومن هنا كان الاهتمام بعلم الكلام الإمامي اهتمامًا في نفس الوقت بعلم الكلام الاعتزالي » [٢].

ويفسر الإمام عبد الحليم محمود هذا التمازج بين المعتزلة والشيعة بقوله: « كانت الشيعة حزبًا ولكنه حزب ديني، أعني أنه يرى أن الأسرة العلوية خير من يقيم الدين على ظهر المعمورة... نقول: إنها حزب وليست بفرقة، ونحتكم إلى التاريخ؛ فإذ به يحدثنا أن زيد بن علي إمام الزيدية تتلمذ في الأصول على واصل بن عطاء رأس المعتزلة... الزيدية إذن كلهم معتزلة أهم شيعة أم معتزلة؟ إنهم شيعة باعتبار حزبهم، معتزلة باعتبار فرقتهم، ولا أظن أنه يمكننا تفسير الأمر على غير هذا، والإمام أبو حنيفة معروفة عقيدته أنه من أهل السنة، ومع ذلك... كان يوالي زيدًا ويناصره » [٣].

فالمعتزلة نُسبوا إلى الشيعة بتفضيلهم عليًا ﷺ ونصرتهم آل البيت سياسيًا؛ فقد كان بين المعتزلة وآل البيت وشيعتهم الزيدية تناصر وتآزر؛ إذ يقول التاريخ: لما خرج « إبراهيم ابن عبد اللَّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالبصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس وأكثر السواد وشخَص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن علي، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قُتل وقُتلت المعتزلة بين يديه » [٤].

---

(١) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٨). دار الهلال (١٩٧١).

(٢) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية: دار الثقافة - الدوحة (ط١)، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)، وأصلها رسالة دكتوراه جامعة الأزهر (١٩٩١م)، (ص ١٤، ١٥).

(٣) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (٧٦، ٧٧).

(٤) مقالات الإسلاميين (٨١/١).

« فإذا جاء عهد هارون الرشيد (ت ١٩٤هـ) نجده يسجن بشر بن المعتمر المعتزلي؛ لاتهامه بميول شيعية » [١].

إذن فالاعتزال مذهب عقدي، والتشيع - في بدايته - اتجاه سياسي، وإن اعتمد على فكرة دينية لم ترق لتكون أصلًا عقديًا عند الزيدية - وهي الإمامة - ولكنها لم تلبث حتى تطورت لتصبح كذلك عند الاثني عشرية.

لقد توجّب على الضعفاء أن يتحدوا ضد الأقوياء، فكما تآزر المعتزلة والشيعة ليقفوا أمام طغيان الحكم السياسي تآزروا أيضًا - ولكن فكريًا هذه المرة - ضد أفكار أهل السنة، وكان مما ساهم في تقارب الشيعة من المعتزلة ما كان عليه بعض المعتزلة من تفضيل لعلي ﷺ. « وكان واصل بن عطاء ينسب إلى الشيعة في ذلك الزمان؛ لأنه كان يقدم عليًا على عثمان » [٢]. وكذلك القاضي عبد الجبار في كتابه: شرح الأصول الخمسة نقل عن جمع من المعتزلة تفضيلهم لعلي على عثمان، ولم يكونوا شيعة.

أضف إلى ذلك أن كثيرًا من الزيدية دخلوا في مذهب الإمامية، وحملوا معهم كثيرًا من عناصر مذهبهم المعتزلي ومزجوه بمذهب الاثني عشرية [٣].

وبعد ثبوت القواسم المشتركة سياسيًا وفكريًا بين الشيعة والمعتزلة يأتي السؤال هنا: أيهما أسبق؛ فكر التشيع أو الاعتزال؟ ومن الذي تأثر بالآخر: الشيعة بالمعتزلة أم المعتزلة بالشيعة؟

الرأي السائد أن فكرة الاعتزال أسبق، وأن الشيعة تأثروا بالمعتزلة، ويدل على ذلك « ما حدث بين الشيعة الاثني عشرية والمعتزلة من مخالطة في غضون القرن الرابع الهجري، فقد انخرط بعض الشيعة في صفوف المعتزلة، وخاصة معتزلة أصفهان، الذين انتسبوا بسبب ذلك إلى علي ﷺ، ورووا سند مذهبهم إليه » [٤]، « وتكشف الدراسات القديمة [و] الحديثة عن أن المعتزلة - منذ القرن الرابع الهجري - حالفوا الشيعة الذين كان يحكم منهم بنو بويه في فارس (٣٣٢هـ)؛ وبذلك فشا الاعتزال في ظل الدولة

---

(١) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٨). دار الهلال (١٩٧١م).

(٢) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: اختلاف المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢١).

(٣) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢٢١/٢)، ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية (ص ١٠، ١١).

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية (ص ١١).

البويهية في العراق وخراسان ودخل فيه جماعة من مشاهير الفقهاء... ووجد الشيعة - بالمقابل - بغيتهم في المذهب الكلامي الاعتزالي؛ إذ لم يكن لهم مذهب كلامي خاص بهم، فتسنى لهم أن يقتبسوا عنهم أصول الكلام وأساليبه »[١]. وبناء على هذا الرأي قال آدم متز: (إن الشيعة ورثة المعتزلة) »[٢].

ولكن الشيعة ينحون طريقًا معاكسًا، فيؤكد كتّابهم أن « من الأغلاط الواضحة ما يحاوله بعض الباحثين بقصد وبدون قصد حين يردّ أصول التفكير الشيعي إلى المعتزلة، ويربط أفكار الشيعة بالأفكار الاعتزالية.

فالشيعة يعكسون القضية، ويرون أن الشيعة هم أساتذة المعتزلة؛ حيث تتلمذ واصل ابن عطاء على أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية[٣].

فأنصار الإمامية يرون أن التشيع - كعقيدة - سابقٌ على الاعتزال؛ لأن أئمة آل البيت سبقوا المعتزلة في معالجة قضايا علم الكلام، فأبو هاشم ابن الحنفية ألف فيه كتابًا جليلًا، ثم عيسى بن روضة التابعي، وهما أسبق من واصل بن عطاء وأبي حنيفة »[٤].

« أما نشأة واصل بن عطاء على يد محمد ابن الحنفية فهي حقيقة تاريخية ثابتة »[٥].
ولكن أينسى الاثنا عشرية أنهم لا يقرون لمحمد ابن الحنفية وابنه أبي هاشم بشيء؟ فليسا عندهم من الأئمة المعصومين ولا من أتباعهم. بل إن التاريخ ليؤكد أن الاثني عشرية استفادوا من الكيسانية فيما قالوه في أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية. يقول د. النشار: « وكما أخذت الشيعة المعتدلة فيما بعد بكل العقائد التي أعلنها الشيعة في محمد

---

(١) د. عبد العزيز حاجي: تفسير آيات العقيدة: استعراض شامل لمذاهب المفسرين في العقيدة (٢/٨٤٣)، دار الصابوني (١٤٢٤هـ)، وهي في الأصل رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم - القاهرة.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (١/١٠٦)، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة (ط٣) وقد ردّ قوله عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٤٢) وجعفر سبحاني في: رسائل ومقالات (ص ٢٥٥) وما بعدها.

(٣) انظر: العلامة الحسن بن يوسف الحلي: كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين (ص ٥٩)، (ط١)، طهران (١٤١١هـ / ١٩٩١م)، تحقيق: حسين الدركاهي، عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٤٣).

(٤) انظر: آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ٢٧)، د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٤٥٠).

(٥) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٢٨) دار الثقافة - الدوحة (ط١)، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)، وأصلها رسالة دكتوراه جامعة الأزهر.

ابن الحنفية ونسبوها إلى الأئمة الاثني عشر - دخلت العقائد الغنوصية بعد عهد أبي هاشم في عقائد الشيعة الإمامية الاثني عشرية في صورة معتدلة وفي عقائد الإسماعيلية في صورة مغالية » [١].

وعلى كلٍّ فإن ابن المطهر الحلي لم يقنع بأن يكون المعتزلة وحدهم أتباعًا للشيعة؛ بل أراد أن ينسب إلى الشيعة كل جهود مدارس علم الكلام! إذ يقول: « فإن المعتزلة انتسبوا إلى واصل بن عطاء وهو كبيرهم، وكان تلميذ أبي هاشم عبد اللّٰه بن محمد ابن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علي عليه السلام، والأشعرية تلامذة أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وهو شيخ من شيوخ المعتزلة » [٢].

وقد وجدت د. عائشة المناعي أن الحديث عن أسبقية الظهور بالنسبة لفكر كلتا المدرستين يعد « مسألة غامضة إلى حد بعيد، وهي نقطة نزاع قديم وحديث أيضًا بين أنصار المعتزلة وأنصار الإمامية »، وإن كانت دراستها التاريخية أثبتت - من حيث ظهور أعلام هاتين المدرستين - تأثر الشيعة بالمعتزلة؛ فهناك تشابه بين آراء أبي القاسم البلخي (ت ٣١٩هـ) المعتزلي وآراء المفيد (ت ٤١٣هـ) الشيعي الإمامي؛ فلا بد أن يتأثر المتأخر بالمتقدم [٣]، وكذلك هناك تشابه بين القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) والشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦هـ) الإمامي رئيس نقابة الطالبيين في عصره، بل يؤكد لنا التاريخ أن الشريف المرتضى تتلمذ على يد الشيخ أبي عبد اللّٰه المرزباني الذي كان شيخًا من شيوخ المعتزلة [٤]. ومن هنا رأينا المرتضى والحسن بن موسى النوبختي - صاحب (فرق الشيعة) وهو من أعلام الإمامية - وغيرهما معدودين من أعلام المعتزلة [٥].

والحقيقة أن العلاقة بين التشيع والاعتزال علاقة تأثير وتأثر متبادل؛ حيث أخذ كل منهما من الآخر.

فإن لقاءات الشيعة بالمعتزلة لا بد وأن تكون قد أثَّرت في الطائفتين؛ ففكرة تبادل الأسلحة بين المتحاورين ممكنة؛ فكيف إذا ارتقت ليتتلمذ رجال من المعتزلة على يد الشيعة

---

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/٦١).

(٢) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة (ص ١٦٢).

(٣) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د.عائشة يوسف المناعي (ص ٤٥٠).

(٤) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٦، ٥٧). دار الهلال (١٩٧١م).

(٥) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٨). دار الهلال (١٩٧١م).

الأوائل كالنظّام المعتزلي على يد هشام بن الحكم، كما تتلمذ من قبل واصل رائد الاعتزال على يد أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية؟!

لقد احتكّ رجال الشيعة الأوائل مع المعتزلة في العراق، فهذا هو الميثمي علي بن إسماعيل ابن شعيب بن ميثم التمار (ت ١٧٩هـ) الذي « كان من كبار متكلمي الروافض وأول من كتب منهم كتبًا، قد ناظر أبا الهذيل عند أمير البصرة، ثم قابله هشام بن الحكم وحضر مجالسه... وسيسير على نهجه فيما بعد ويناقش المعتزلة نقاشًا عنيفًا » [(١)]. ولا بد لهذه النقاشات في بداية تشكيل الفكر الاثني عشري من دور فعّال في صياغة المذهب الإمامي.

بل كان لتلك اللقاءات دورها في تشكيل كثير من الآراء حتى الاعتزالية منها؛ فهذا إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي يأخذ نظرية جسمية الأعراض (كاللون والطعم والرائحة) عن هشام بن الحكم [(٢)]. ويعتمد قوله « بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ » [(٣)].

وإذا كان لا بد للباحث من رأي؛ فإنه يميل إلى القول بتأثر الاثني عشرية بالفكر المعتزلي وغيره أيضًا أكثر من العكس؛ ذلك أن الباحث وجد من استقرائه لآرائهم أن من خصائص مذهب الاثني عشرية أنه مذهب جمعي، فهو يعتمد على جمع ما عند الفرق الأخرى من نقاط، سواء اتُّفق عليها أو اختُلف فيها، ثم يأخذ من هذه الآراء ما لا يتعارض مع مبادئه الأساسية كالإمامة، ولعل خير مثال لهذا مسألة اللطف؛ إذ استعارها الشيعة من المعتزلة ليثبتوا أن وجود الإمام لطف من اللّه تعالى. « والحق أن فكرة الاستعانة بآراء الآخرين ونظرياتهم فكرة جوهرية في مذهب الاثني عشرية؛ حيث إنهم يلتقطون من كل مذهب القضايا التي تخدم أغراضهم وتؤكد نظرياتهم دون التزام بهذه القضايا ذاتها... وتطبيقًا لهذا المنهج استعان الشيعة الاثنا عشرية برأي المعتزلة في اللطف الإلهي ووجوب فعل الأصلح من اللّه تعالى، ولما كانت هذه الآراء نابعة من عقيدة المعتزلة في العدل الإلهي لم يجد الاثنا عشرية صعوبة أن ينقلوا فكرة العدل بكل ما يلزم عنها من مجالها الميتافيزيقي إلى مجالها السياسي » [(٤)].

---

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٧١/٢).

(٢) عبد اللّه نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٦٠).

(٣) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٧٢/٢).

(٤) الأستاذ الدكتور السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٥٧).

ومما يسهل هذه الاستفادة أن الاثني عشرية يعبرون عن باقي الأمة المسلمة باسم (العامة)، ويعدّون أنفسهم الخاصة، وهذا يسوغ لهم الأخذ من العامة فيما اتفق عليه، بخلاف العامة ممثلين بأهل السنة والمعتزلة وغيرهم؛ إذ يعدون الاثني عشرية من الفرق المبتدعة أو المنحرفة، وبالتالي يمتنع الاستناد إلى آرائها والأخذ عنها.

فلم تَشُبْ فكرَ الاثني عشرية أفكارُ الاعتزال وحده؛ بل شابته وخالطته بعض الأفكار الصوفية والفلسفية، وذلك في عهود متأخرة عن الأفكار الاعتزالية؛ ففي عهد الدولة الصفوية ازدادت صلة التشيع بالتصوف من خلال تأثر مدرسة أصفهان الشيعية بالتصوف على يد محمد باقر الإستراباذي (الداماد) (ت ١٠٤١هـ)، وصدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ) حيث ازدادت صلة التشيع بالتصوف والتفلسف [١].

وإذا جمعنا ما ألفه متكلمو الشيعة وما ألفه المعتزلة في قرن واحد، وقارنّا الجهود؛ لرأينا غزارة ما أنتجه المعتزلة وضآلة ما أنتجه الاثنا عشرية، وعلى سبيل المثال فلا يمكننا المقارنة بين كتاب المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي بمجلداته الضخمة مع أعظم مؤلَّف للشيعة الاثني عشرية في زمانه، فلو صح ادعاء الاثني عشرية من شدة تأثر الفكر المعتزلي ببعض رجال الشيعة كأبي هاشم؛ فلماذا برز اسم القاضي عبد الجبار، ولم يبرز من الشيعة من يحمل لواء فكر أبي هاشم بدل أن يخطفه منهم المعتزلة؟!.

٤ - العامل الاقتصادي:

ربما يفاجأ القارئ أن يكون للمال دور في انتشار التشيع وتطوره، وخصوصًا إذا تذكر ما كان عليه آل البيت الكرام من زهد وتقوى.

وعندما طلب معاوية ﷺ من أحد أصحاب علي ﷺ - وهو ضرار بن ضمرة الضبابي - وصف حال علي ﷺ قال: « فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا! يا دنيا! إليك عني، أبي تعرضتِ، أم إلي تشوفتِ؟ لا حان حينك، هيهات غرّي غيري. لا حاجة لي فيك. قد طلقتك ثلاثًا لا رجعة فيها. فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير. آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد » [٢].

---

(١) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ص ١٢).

(٢) نهج البلاغة (٤/١٦، ١٧). السليم: الملدوغ من حية ونحوها.

ولكن كثيرًا ممن كان حوله لم يكن على هذه التقوى، حتى ذمهم علي ﷺ فقال:

« كم أداريكم كما تُدارى البكار العمدة؟ والثياب المتداعية؟ كلما حيصت من جانب تهتَّكت من آخر، أكلّما أطل عليكم مَنْسِرٌ من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه وانجحر انجحار الضبّة في جحرها والضبع في وجارها؟ الذليل والله من نصرتموه، ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل [١]. إنكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، ولكني والله لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي » [٢] يقصد ببذل مال بيت المال لهم.

وكذلك كانوا مع ابنه الحسن من بعده: فيذكر لنا التاريخ نماذج من هذه الجنود المخلصة لآل البيت!! كيف كانوا طامعين في أموال أئمتهم: « فبينا الحسن في سرادقه بالمدائن وقد تقدم قيس بن سعد؛ إذ نادى مناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا، فنفروا إلى سرادق الحسن فنازعوه حتى أخذوا بساطًا كان تحته، وطعنه رجل بمشقص فأدماه، فازدادت رغبته في الدخول في الجماعة، وذعر منهم فدخل المقصورة التي في المدائن بالبيضاء، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار ولاه عليها علي عليه السلام. فقال له المختار [٣]، وكان شابًا: هل لك في الغَنَاء والشرف؟ قال: وما ذلك؟ قال: تستوثق من الحسن وتسلمه إلى معاوية، فقال له سعد: قاتلك الله، أثب على ابن رسول الله وأوثقه وأسلمه إلى ابن هند؟ بئس الرجل أنا إن فعلته » [٤].

وسيجري الحديث الآن عن المال، وكيف كان يصل للأئمة من الأتباع، فيقوّون مواقفهم به، ثم كيف صار يجري ويسري إلى فقهاء الشيعة بعد غيبة الإمام، وكيف سبب هذا العامل الاقتصادي ظهور أفكار شيعية متطرفة كالقول بعدم موت أحد الأئمة والوقف عليه اعتقادًا بأنه المهدي، ثم كيف صار هذا المال عاملًا من عوامل ثبات المراجع الشيعية (الآيات) على منهجهم لما يحقق لهم من مصالح.

---

(١) البكر: الفتيّ من الإبل، والعمدة: بفتح العين وكسر الميم: الإبل التي انفضح وانشدخ داخل سنامها من كثرة الركوب وظاهرها سليم، حيصت: خيطت، المنسر: كمجلس، وقيل: مِنْسَر: القطعة من الجيش، والوجار: جحر الضبع، والسهم الأفوق الناصل: المكسور مكان موضع الوتر منه، والمنزوع النصل، فلا أثر له في الرمية.

(٢) نهج البلاغة (١/١١٨) دار المعرفة – بيروت، تحقيق الشيخ محمد عبده، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (٦/١٠٢) تحت عنوان: كلام له عليه السلام في ذم أصحابه.

(٣) سيأتي الحديث عن المختار وفرقته في فصل الغلو والغلاة وأثره في التشيع.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٤٤/٢٨)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٨/١٦). دار إحياء التراث العربي بيروت.

لقد أورد الشيعة أحاديث كثيرة تحبب بذل الأموال للأئمة، منطلقين من أن الأرض كلها للإمام، « فإن الدنيا كلها للإمام على وجه المُلْك، وإنه أولى بها من الذين هي في أيديهم » [(١)]؛ عن مسمعٍ أبي سيار عن أبي عبد اللّٰه جعفر الصادق أنه قال: « .. يا أبا سيارٍ! إن الأرض كلّها لنا، فما أخرج اللّٰه منها من شيءٍ فهو لنا. فقلت له: وأنا أحمل إليك المال كلّه؟ فقال: يا أبا سيّارٍ! قد طيّبناه لك وأحللناك منه، فضمّ إليك مالك، وكل ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون » [(٢)].

وإذا كان الخمس عند أهل السنة موقوفًا على الغنائم لقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ فإن الشيعة يرون الخمس للإمام من كل ما يستفيده الناس من مكاسبهم؛ « عن سماعة قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخمس، فقال: في كلّ ما أفاد النّاس من قليلٍ أو كثير » [(٣)].

« أي كل ما يستفاد حتى بالاكتساب والتجارة فهو من الغنيمة، فتشمله الآية في وجوب إخراج خمسه فورًا، ولكن المشهور عند فقهائنا هو استثناء المؤونة منها، وقد استثنوا من وجوب الخمس الميراث المحتسب والهدية والمهر » [(٤)].

وثبت في الروايات التشجيع على دفع المال للإمام:

عن عمر عن الخيبريّ ويونس بن ظبيان قالا: سمعنا أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول: « ما من شيءٍ أحب إلى اللّٰه من إخراج الدّراهم إلى الإمام، وإنّ اللّٰه ليجعل له الدّرهم في الجنّة مثل جبل أحدٍ، ثمّ قال: إنّ اللّٰه تعالى يقول في كتابه: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ [الحديد: ١١] قال: هو واللّٰه! في صلة الإمام خاصّةً » [(٥)].

وعن إسحاق بن عمّارٍ عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: « سألته عن قول اللّٰه عز وجل: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى

---

(١) ا.د. محمد عمارة: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية، نهضة مصر (٢٠٠٠م)، (ص ٨٤).

(٢) أصول الكافي (١/٤٧٤)، كتاب الحجة، بَاب في أن الأرض كلها للإمام عليه السلام. والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (١/٦٢٤)، كتاب الحجة، بَاب صلة الإمام. قال المحقق: هذا الحديث حسن أو موثق.

(٤) أصول الكافي (١/٦٢٤) الهامش حاشية رقم (٨)، وانظر: المجلسي: مرآة العقول (٦/٢٧٢، ٢٧٣).

(٥) أصول الكافي (١/٦١٦)، كتاب الحجة، بَاب صلة الإمام.

﴿ يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١١] قال: نزلت في صلة الإمام » (١).

وعن عليّ بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « درهمٌ يوصل به الإمام أفضل من ألفي ألف درهمٍ فيما سواه من وجوه البرّ » (٢).

ويأتي إلى الأئمة بعض الأتباع ممن يريد أن يتحلل من خمسه ولا يريد دفعه، فيرفض الأئمة ذلك؛ عن محمّد بن زيدٍ قال: قدم قومٌ من خراسان على أبي الحسن الرّضا عليه السلام فسألوه أن يجعلهم في حلٍّ من الخمس فقال: « ما أمحل هذا، تمحضونا بالمودّة بألسنتكم وتزوون عنّا حقًّا جعله الله لنا وجعلنا له وهو الخمس لا نجعل، لا نجعل، لا نجعل لأحدٍ منكم في حلٍّ » (٣).

وكان الإمام أحيانًا يحلل في الظاهر من ساومه على الخمس من خزّان الخمس تقيةً، فإذا أدبر هذا المساوم توعده بالحساب الشديد يوم القيامة:

عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه قال: كنت عند أبي جعفرٍ الثّاني عليه السلام؛ إذ دخل عليه صالح بن محمّد بن سهلٍ، وكان يتولّى له الوقف بقمّ، فقال: يا سيّدي! اجعلني من عشرة آلافٍ في حلٍّ فإنّي أنفقتها. فقال له: أنت في حلٍّ. فلمّا خرج صالحٌ قال أبو جعفرٍ عليه السلام: أحدهم يثب على أموال حقّ آل محمّدٍ وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم وأبناء سبيلهم، فيأخذه ثمّ يجيء فيقول: اجعلني في حلٍّ، أتراه ظنّ أنّي أقول: لا أفعل، والله! ليسألنّهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالًا حثيثًا » (٤).

أين هذا الكلام المزعوم عن الأئمة في مقابل قول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].. وغيرها من الآيات التي تحذر من اتخاذ الدين وسيلة لكسب الأموال؛ كما قال تعالى في ذمّ اليهود: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

---

(١) أصول الكافي (١/٦١٧)، كتاب الحجة، بَابُ صلة الإمام، والحديث موثق.

(٢) أصول الكافي (١/٦١٧)، كتاب الحجة، بَابُ صلة الإمام.

(٣، ٤) أصول الكافي (١/٦٢٨) كتاب الحجة، بَابُ صلة الإمام.

ومع أن الإمام جعفر الصادق قد طيّب أموال الشيعة إلى يوم خروج الإمام القائم الاثني عشري ورفض أخذ الخمس من أبي سيار - أحد شيعته - فقال: « ... يا أبا سيّارٍ قد طيّبناه لك وأحللناك منه؛ فضمّ إليك مالك وكلّ ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون حتّى يقوم قائمنا فيجبيهم طسق ما كان في أيديهم ويترك الأرض في أيديهم » (١).

ولكن أصحاب الأئمة ثم الفقهاء صار لهم خمُس الإمام حال الغَيبة. وقد تحول بعض تلامذة الإمام إلى نهبة للأموال من بعده؛ فهذا زياد بن مروان القندي وكان من خُزّان أخماس الإمام موسى بن جعفر، فلما مات موسى أنكر بيعة ابنه علي الرضا، وصار من الواقفة على الإمام الميت موسى، مدعيًا أنه لم يمت، ولكنه الإمام المنتظر الغائب عن الأنظار، وأن له عودة. ويعلل المازندراني وقفه على موسى وإنكاره إمامة الرضا قائلًا: « كان عنده سبعون ألف دينار من مال موسى، فأنكر موته وإمامة الرضا لئلّا يدفع المال إليه » (٢). فأنت تلاحظ أنه شارك عثمان بن سعيد في الوكالة، فلما توفي استأثر بالمال.

وتأمل كيف كنزت أموال الخمس، فلماذا تكنز سبعون ألف دينار؟! والنبي ﷺ - وهو الإمام الأعظم - لم يترك دينارًا ولا ذهبًا ولا فضة، وانتقل للرفيق الأعلى ودرعه مرهونة عند يهودي.

ويؤكد نصٌّ آخر أن هذا الرجل لم يكن وحده، بل إن جماعة من أتباع موسى فعلوا الفعل نفسه، « فلما مضى وقفوا عليه طمعًا في الأموال، ودفعوا إمامة ابنه علي الرضا وجحدوه » (٣). ويؤكد ذلك قول أحدهم - وقد عُنّف على قوله بالوقف - « فقال: هذا أمرٌ قد جرينا عليه » (٤). فهذا الدخل الوفير هو الذي يجعله يقول بالوقف فيأخذ ويجبي من الخمس ما كان يجبيه لإمامه من قبل.

---

(١) أصول الكافي (٤٧٤/١)، كتاب الحجة، بَاب في أن الأرض كلها للإمام عليه السلام. والحديث مصحّح عندهم.

(٢) المازندراني: (١٦٨/٦).

(٣) غيبة الطوسي (ص ٢٢٧)، انظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٥٨).

(٤) عن محمّد بن عليّ بن إبراهيم بن موسى بن جعفرٍ قال: ضاق بنا الأمر، فقال لي أبي: امض بنا حتّى نصير إلى هذا الرّجل - يعني: أبا محمّدٍ - فإنّه قد وصف عنه سماحةٌ. فقلت: تعرفه؟ فقال: ما أعرفه ولا رأيته قطّ. قال: فقصدناه فقال لي أبي وهو في طريقه: ما أحوجنا إلى أن يأمر لنا بخمسمائة درهم؛ مائتا درهم للكسوة ومائتا درهم للدَّين ومائةٌ للنّفقة، فقلت في نفسي: ليته أمر لي بثلاثمائة درهمٍ؛ مائةٌ أشتري بها حمارًا ومائةٌ للنّفقة ومائةٌ للكسوة، وأخرج إلى الجبل. قال: فلمّا وافينا الباب خرج إلينا غلامه فقال: يدخل عليّ بن إبراهيم ومحمّدٌ ابنه، فلمّا دخلنا عليه وسلّمنا قال لأبي: يا عليّ ما خلّفك عنّا إلى هذا الوقت؟ فقال: يا سيّدي استحييت أن ألقاك على هذه الحال، فلمّا خرجنا من عنده جاءنا غلامه فناول أبي صرّةً فقال: هذه خمسمائة =

وبهذا نرى أثر العامل الاقتصادي على بعض أفكار التشيع. وفي مثل هذه النصوص إلماحة خطيرة إلى ما كان عليه بعض أتباع الأئمة من ذبذبة فكرية؛ بحيث يضلون بعد وفاة أئمتهم.

ويذكر الطوسي أن رجلًا يدعى محمد بن علي بن بلال رفض نيابة محمد بن عثمان العمري عن المهدي المنتظر في حالة الغيبة الصغرى، وأنه تمسك « بالأموال التي كانت عنده للإمام، وامتنع من تسليمها، وادعى أنه الوكيل حتى تبرأت منه الجماعة ولعنوه »(١).

وهذا يعلل كثرة أدعياء النيابة عن المهدي في غيبته الصغرى، ويشكك في حال الأربعة الرسميّين ذاتهم؛ حيث ظهر ما يزيد على عشرين مدّعيًا للنيابة عن المهدي، تلقّهم المطامع والشبهات التاريخية وعلامات الاستفهام؛ مما يجعل الشك يحوم حول جميع من ادعى النيابة (٢).

- شكوك الناس بوكلاء الإمام الغائب:

وقد أتى الكليني بأحاديث تدعم أمانة الوكلاء ونزاهتهم عند امتحان الناس لهم (٣)، ولكن هذه الأحاديث تبيّن أن الذين كانوا يريدون السطو على مال الوكلاءِ صاروا وكلاءً.

عن محمّد بن إبراهيم بن مهزيار قال: شككت عند مضيّ أبي محمّدٍ ﷺ واجتمع عند أبي مالٌ جليلٌ فحمله وركب السّفينة وخرجت معه مشيّعًا، فوعك وعكًا شديدًا فقال: يا بنيّ ردّني فهو الموت وقال لي: اتّق اللّه في هذا المال. وأوصى إليّ فمات، فقلت في نفسي: لم يكن أبي ليوصي بشيءٍ غير صحيحٍ، أحمل هذا المال إلى العراق وأكتري دارًا على الشّطّ ولا أخبر أحدًا بشيءٍ، وإن وضح لي شيءٌ كوضوحه في أيّام أبي محمّدٍ ﷺ

= درهم مائتان للكسوة ومائتان للدّين ومائةٌ للنّفقة. وأعطاني صرّةً فقال: هذه ثلاثمائة درهم، اجعل مائةً في ثمن حمارٍ ومائةً للكسوة ومائةً للنّفقة، ولا تخرج إلى الجبل وصر إلى سوراء فصار إلى سوراء وتزوّج بامرأةٍ فدخله اليوم ألف دينارٍ، ومع هذا يقول بالوقف. فقال محمّد بن إبراهيم فقلت له: ويحك أتريد أمرًا أبين من هذا؟ فقال: هذا أمرٌ قد جرينا عليه » أصول الكافي (٥٨٢/١)، كتاب الحجة، باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي.

(١) الغيبة للطوسي (ص ٢٤٥).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٦)، (ط١)، (١٩٩٧م).

(٣) أصول الكافي (٥٩٤/١، ٥٩٥) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب قال محققه: والحديث هذا صحيح. وفيه عن « عليّ بن محمّدٍ عن سعد بن عبد اللّه قال: إنّ الحسن بن النّضر وأبا صدامٍ وجماعةً تكلّموا بعد مضيّ أبي محمّدٍ ﷺ فيما في أيدي الوكلاء وأرادوا الفحص.. » أي حصر ما في يد الوكيل من أموال الإمام.

أنفذته وإلا قصفت به. فقدمت العراق واكتريت دارًا على الشّطّ وبقيت أيّامًا، فإذا أنا برقعةٍ مع رسولٍ فيها: « يا محمّد معك كذا وكذا في جوف كذا وكذا ». حتّى قصّ عليّ جميع ما معي ممّا لم أحط به علمًا، فسلّمته إلى الرّسول وبقيت أيّامًا لا يرفع لي رأسٌ واغتممت فخرج إليّ: « قد أقمناك مكان أبيك فاحمد اللّه » [(١)].

- **تهارش الوكلاء على أموال الخمُس:**

لقد صار بعض أصحاب الأئمة يتنافسون على الوكالة والنيابة عن الأئمة، فهذا محمد بن علي الشلمغاني، كان وكيلًا عن النائب الثالث الحسين بن روح [(٢)]، ثم انشق عنه وادعى النيابة لنفسه وقال: ما دخلنا مع أبي القاسم الحسين بن روح في هذا الأمر - يعني النيابة في حلْب الأموال من الناس - إلا ونحن نعلم فيما دخلنا فيه، لقد كنا نتهارش على هذا الأمر كما تتهارش الكلاب على الجِيَفِ. قال أبو محمد: فلم تلتفت الشيعة إلى هذا القول وأقامت على لعنه والتبرؤ منه » [(٣)].

ولما وصلت دعوى غيبة الإمام الصغرى إلى طريق مسدود؛ بسبب كثرة خلافات من يدعي النيابة (البابية) عن الإمام - أخرج نوّاب الإمام توقيعًا منسوبًا للمهدي المنتظر يعلن فيه انقطاع البابية أو الوكالة المباشرة عن الإمام الثاني عشر الغائب، ويقرر حلول الغيبة الكبرى، واختراع مبدأ النيابة العامة للفقهاء، بحيث توسعت دائرة المنتفعين من الخمس، فصار يناله فقهاء الشيعة [(٤)].

- **واقع الخمُس اليوم:**

والواقع المعاصر يبين أن عامة الشيعة ما يزالون يدفعون الخمس ديانةً إلى فقهائهم ومراجعهم (الآيات)، فمنهم من يجعله في مصارف خيّرة كبناء المشافي وغيرها، أو يستخدمه في الدعوة إلى التشيع، وتشجيع الناس على الدخول فيه بالأموال والكتب... وغير ذلك، وقد يستخدم في خدمة الثورات السياسية الشيعية، ولا يستبعد أن يصرفه بعضهم فيما يريد من أمور الدنيا، بغياب تنظيمه والرقابة عليه.

---

(١) أصول الكافي (٥٩٤/١، ٥٩٥) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه.

(٢) هذا هو النائب الثالث للإمام القائم في غيبته الصغرى.

(٣) الطوسي: الغيبة (ص ٣٩٣)، مؤسسة المعارف الإسلامية قم (ط١)، (١٤١١هـ)، بحار الأنوار (٣٥٩/٥١)، وانظر: أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي (ص ٢٢٦). (ط١)، (١٩٩٧م).

(٤) انظر: د. ناصر بن عبد اللّه القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠١٨/٢، ١٠١٩).

يقول الخميني: « الخمس مورد ضخم يدر على بيت المال أموالًا طائلة تشكل النصيب الأكبر من بيت المال.... السادة متى كانوا بحاجة إلى مثل هذا المال، خمس سوق بغداد يكفي لاحتياجات جميع السادة، ولجميع نفقات المجامع العلمية والدينية ولجميع فقراء المسلمين، فضلًا عن سوق طهران وإسلامبول والقاهرة [!!] [١] وغيرها، فميزانية بمثل هذه الضخامة إنما تراد لتسيير أمة كبرى، ولإشباع الحاجات الأساسية المهمة للناس... هل نلقي بهذه الثروة الواسعة في البحر؟ أو ندسها في التراب حتى ظهور الحجة؟ أو نوزعها على (٥٠) هاشميًا أو خمسمائة ألف هاشمي؟ وإذا دفع إليهم هذا المال أليس يذهلهم ويحيرهم؟ ألا نعلم أن حق الهاشميين في هذا المال إنما هو بمقدار ما يحتاجون إلى إنفاقه بقصد واعتدال » [٢].

يقول د. القفاري: « والمتأمل للحركات الشيعية الكثيرة في تاريخ الأمة المسلمة... لا ينبغي أن يفوته أن المادة المموّلة لهذه الحركات هي ما أخذ من أولئك الأتباع الأغرار باسم آل البيت وحقهم من الخمس... بل إن الحركات الشيعية في العالم إلى اليوم إنما تموّل من هذا المورد، وآيات الشيعة يعتبرون من كبار الرأسماليين في العالم... وهذا الجانب التمويلي هو الذي غذّى ويغذّي دور النشر التي تقذف سنويًا بمئات النشرات والكتب والمراجع... وأصبح هؤلاء الآيات أو المراجع يوجهون فتاواهم على رغبات رجل الشارع، بل ويكتمون الحقيقة مجاراةً لهم » [٣].

وهذا الخمُس هو الذي يموّل بناء الحوزات والحُسينيات والمكتبات والمراكز البحثية الشيعية، ويؤمّن الحاجات الاقتصادية لعدد كبير من الباحثين الشيعة ليتفرّغوا ويوجّهوا جهودهم العلمية من أجل توسيع دائرة المذهب الشيعي والرد على خصومه، في حين يعيش معظم علماء الفرق الأخرى في عوز وفقر، فينشغلون في معظم أوقاتهم بلقمة العيش عن كثير من الواجبات الشرعية المناطة في أعناقهم.

٥ - العوامل الخارجية:

يرى بعض الباحثين أن التشيع صار مأوًى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة

---

(١) لاحظ تطلعه لتشييع أهل هذه العواصم السنّية الكبرى إسلامبول والقاهرة!.

(٢) روح اللّه الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٢٩ - ٣١).

(٣) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٤٩٦/٣).

أو حقد؛ فقد تستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، وما في نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم، وكان هؤلاء وأمثالهم يتخذون من حب آل البيت ستارًا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم.

قال المقريزي: « واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت [في] سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها... وكانوا يعدون الناس عبيدًا لهم... وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا.. وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر اللَّه الحق.. فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى »(١).

كما صار التشيع ملجأً لمن يريد إدخال تعاليم آبائه في الدين الجديد؛ فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وبقول الشيعة: إن النار محرمة على الشيعة إلا قليلًا، كما قال اليهود: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [آل عمران: ٢٤] والنصرانية ظهرت في التشيع في تشبيه الأئمة بالمسيح عليه السلام. والبرهمية والمجوسية وأقوال الفلاسفة ظهرت في التشيع في القول بتناسخ الأرواح، والقول بالتجسيم والحلول والخوض في الصفات(٢).

ويرى د. القفاري أن من تتبّع مذاهب الشيعة على اختلافها فسيجد أن فيها آثارًا لمعظم المذاهب والأديان التي جاء الإسلام بمخالفتها(٣).

وتختلف وجهات نظر الباحثين حول أعظم هذه المؤثرات في التشيع، فبعض المستشرقين كـ (فلهوزن) يرى - كما يذكر الأستاذ أحمد أمين - أن العقيدة الشيعية نشأت من اليهودية أكثر مما نشأت من الفارسية، مستدلًا بابن سبأ ودوره في غلو الشيعة، في حين يميل (دوزي) إلى أن أساسها الفارسي أبلغ من الأثر اليهودي؛ لأن الفرس يدينون بالملك والوراثة في الحكم، وأن الفرس اعتادوا النظرة الإلهية لحكامهم، ويرجح أحمد أمين أن التشيع في البداية لم يكن لا هذا ولا ذاك، إنما كان بسيطًا ساذجًا في العهد الأول إلى بُعيد عهد عثمان، ثم بعد ذلك بدأت تظهر المؤثرات الأخرى فيه، فصار

---

(١) انظر: الأستاذ أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٤٣٧، ٤٣٨).

(٢) المقريزي (٣٦٢/١) مختصرًا. وانظر: فجر الإسلام (ص ٤٣٧، ٤٣٨). وانظر: مختصر التحفة (ص ٢٩٨) وما بعدها.

(٣) انظر حول هذه المؤثرات: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٦/١ - ١٠٨).

اليهود يصبغونه بصبغتهم، وكذلك النصارى وكذلك المجوس، وإن كان الأثر الفارسي أظهر هذه المؤثرات [١].

- **أولًا: حول الأثر الفارسي في التشيع:**

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: « إنا نعتقد أن الشيعة قد تأثروا بالأفكار الفارسية حول الملك والوراثة، والتشابه بين مذهبهم ونظام الملك الفارسي واضح، ويزكي هذا أن أكثر أهل فارس من الشيعة، وأن الشيعة الأولين كانوا من فارس » [٢].

ومن دلائل الأثر الفارسي في التشيع:

١ - تعظيم سلمان الفارسي ﷺ.

٢ - ما ذكره ابن حزم والمقريزي من أن الفرس كادوا للإسلام من داخله بنشر العقائد الضالة.

٣ - التشابه في الأفكار، فالعرب تدين بالحرية، أما الفرس فتدين بالوراثة والملك، وهو ما جاء التشيع فأكّده من خلال تسلسل الأئمة الاثني عشر من سلالة واحدة.

٤ - لقد أثبت التاريخ أن الحسين بن علي ﷺ تسرّى بـ (شهربانويه) بنت (يزدجرد) أحد ملوك فارس، وأنجبت له علي بن الحسين (زين العابدين) رحمه الله تعالى، « وذلك أن عمر بن الخطاب لما أتى بابنتي يزدجرد وهب إحداهما للحسين بن علي، فسماها غزالة، وكان يقول بعض الأشراف إذا ذكر علي بن الحسين: يود الناس كلهم أن أمهاتهم إماء » [٣]. وهكذا صار الفرس أخوالًا لأحد أئمة آل البيت، وهو علي ابن الحسين؛ فربما كان لذلك أثرٌ في نفوس الفرس، فضخّموا ذكر نسله من بعده، في حين أهملوا ذكر نسل الحسن، فلا مكان لهم في الإمامة.

٥ - كما يدل على الأثر الفارسي في التشيع بغضهم الشديد للخليفة عمر بن الخطاب، الذي سقطت إمبراطورية الفرس تحت سنابك خيل جنوده، ومحبتهم وتقديسهم لقاتله أبي لؤلؤة؛ فمن المشهور بين الناس أن في مدينة كاشان الفارسية في شارع الفيروزي هناك

---

(١) أحمد أمين فجر الإسلام (ص ٤٣٩).

(٢) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية (١/٣٨). وانظر: منهاج السنة: (٤/١٤٧)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/١٠٣).

(٣) اليعقوبي [أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ)]: تاريخ اليعقوبي (٢/٣٠٣). دار صادر - بيروت. انظر بحار الأنوار (٤٥/٣٣٠) للمجلسي - مؤسسة الوفاء - بيروت (ط٢) - (١٤٠٣).

مزار مقام في ميدان فيروزي، هو مزار لقبر المجوسي فيروز أبي لؤلؤة قاتل سيدنا عمر ﷺ. ويسمون هذا المجوسي بـ (بابا شجاع الدين) [١].

بل إنهم يعدّون يوم مقتل عمر ﷺ من أعظم الأعياد، يقول الجزائري: « إن هذا يوم عيد وهو من خيار الأعياد » [٢]؛ والعلة الظاهرة من هذا هو أن عمر ﷺ ورجاله الكرام كانوا وراء سقوط إمبراطورية الفرس.

ومن أوضح الأدلة على هذا الأثر الفارسي ما أوردته بعض الروايات الحديثية الشيعية التي أثبتت نجاة كسرى فارس، وأن « اللَّه خلصه من عذاب النار، والنار محرمة عليه » [٣]. في حين جاءت روايات كثيرة تقدح بالعرب؛ وتتوعدهم بالقتل على يد المهدي المنتظر، فعن أبي عبد اللَّه قال: « اتقِ العرب؛ فإن لهم خبر سوء، أما أنه لم يخرج مع القائم منهم أحد » [٤]. وعنه أيضًا قال: « ما بقي بيننا وبين العرب إلا الذبح » [٥].

وتستمر نار الحقد على العرب حتى اليوم فتتهمهم بالتخلف، وتنمي روح الشعوبية الفارسية، وعلى سبيل المثال يقول أحدهم:« إن الصدمات التي واجهها كل من شعبي إيران والروم الكبيرين نتيجة لحملات المسلمين والمعاملة التي تلقوها من الأعراب البدائيين الذين لا علم لهم بروح الإسلام العظيمة - أورثت في نفوسهم نزعة صدود عن العرب، وشريعة العرب؛ فطبيعة سكان البادية الأوباش الخشنة، وذلك الخراب والدمار اللذين ألحقوهما بالمدن الجميلة، والأراضي العامرة في الشرق والغرب، وغارات عباد الشهوات العطاشى إلى عفة وناموس الدولتين الملكية والإمبراطورية... إلخ » [٦].

وقد يجد الباحث من بعض النصوص ما فيه بعض الإشارات إلى آثار ديانة الفرس وتقديسهم للنور ومن ذلك هذا الخبر: عن أبي الحسن: بينما رسول اللَّه ﷺ جالس إذ دخل عليه ملَك له أربعة وعشرون وجهًا. فقال له رسول اللَّه ﷺ: « **حبيبي جبرائيل لم أرك في مثل هذه الصورة** » قال الملك: لست بجبرائيل يا محمد. بعثني اللَّه ﷻ أن

---

(١) انظر: عباس القمي: الكنى والألقاب (٥٥/٢).

(٢) انظر أخبارهم في ذلك في الأنوار النعمانية للجزائري (١٠٨/١) وما بعدها، فصل (نور سماوي يكشف عن ثواب يوم قتل عمر بن الخطاب). وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩١٤/٢).

(٣) بحار الأنوار (٤١/١٤).

(٤) الطوسي: الغيبة (ص ٤٧٦)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٣٣/٥٢).

(٥) بحار الأنوار (٣٤٩/٥٢).

(٦) ميرزا حسن الحائري الإحقاقي: الإيمان (ص ٣٢٣)، مكتبة الصادق - الكويت (ط٢)، (١٤١٢).

أزوج النور من النور. قال: « **من ممن؟** » قال: فاطمة من علي. قال: فلما ولى الملك إذا بين كتفيه: محمد رسول اللّٰه، علي وصيه. فقال رسول اللّٰه تعالى: « **منذ كم كُتِبَ هذا بين كتفيك؟** » فقال: من قبل أن يخلق اللّٰه آدم باثنين وعشرين ألف عام » (١).

ومن المعلوم أن الأفكار الفارسية كانت قبل الإسلام قد تغلغلت في العراق لمجاورتها له، و « أكثر شيعة علي كانوا في العراق، وكانوا من عناصر متنوعة، والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة، والمذاهب الغريبة، وقد سادت فيهم قبل الإسلام تعاليم ماني ومزدك وابن ديصان... ومنهم نصارى ويهود سمعوا المذاهب المختلفة في حلول اللّٰه في بعض الناس، كل هذه الأمور جعلت منهم من يؤله عليًا.

ومن المعلوم أن العرب كانوا أبعد الناس عن هذه المقالات والمذاهب الدينية، حياتهم البسيطة وعقليتهم التي على الفطرة تأبى عليهم أن يلصقوا بمحمد ﷺ ألوهيةً، وهو الذي يكرر دائمًا ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] » (٢).

- **ثانيًا: حول الأثر اليهودي والنصراني في التشيع:**

قد يجد المرء بعض النقاط التي تدل على تأثر الفكر الشيعي باليهودية والنصرانية، ومن هذه النقاط:

١ - **التشابه في بعض الأصول الفكرية بين اليهود والشيعة**، ولعل أول بيان لذلك وأشمله هو ما روي عن الشعبي (٣) كما أشار ابن حزم إلى شيء من ذلك حينما قال: « سار هؤلاء الشيعة في سبيل اليهود القائلين.. إن إلياس عليه السلام، وفنحاس بن العازار ابن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم » (٤). وقد ذكر ابن تيمية أن في الشيعة من الجهل والغلو واتباع الهوى ما أشبهوا فيه النصارى من وجه واليهود من وجه، وأن الناس ما زالوا يصفونهم بذلك، ثم نقل ما روي عن الشعبي من مشابهة الشيعة لليهود والنصارى (٥). وقد قال بهذا الرأي جمع من الباحثين (٦).

---

(١) أصول الكافي (٣٨٣/١) كتاب الحجة، باب مولد الزهراء عليها السلام.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٤٢٨، ٤٢٩)، الهيئة المصرية للكتاب (٢٠٠٠م).

(٣) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، توفي (١٠٢هـ). (تهذيب التهذيب: ٥/٥).

(٤) الفصل (٣٧/٥).

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة (٦/١).

(٦) من هؤلاء: الأستاذ أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٢٧٦)، ويرى جولد تسيهر أن فكرة الرجعة تسربت =

وهناك بعض الآثار التي تومئ إلى الأثر اليهودي في بعض الروايات المزعومة، كتلك التي تشير إلى أن الأئمة سيحكمون بحكم داود وسليمان إذا ظهروا:

عن أبي عبيدة الحذّاء... قال أبو عبد الله عليه السلام: « يا أبا عبيدة إذا قام قائم آل محمّد عليه السلام حكم بحكم داود وسليمان لا يسأل بيّنةً » (١).

وعن عمّارٍ السّاباطيّ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « بم تحكمون إذا حكمتم؟ قال: بحكم الله وحكم داود » (٢).

وكذلك سيوف آل داود تؤيد المهدي المنتظر في الروايات الاثني عشرية، قال الصادق: « فضحك أبي عليه السلام وقال:... فلذلك كفّ فوددت أنّ عينك تكون مع مهديّ هذه الأمّة والملائكة بسيوف آل داود بين السّماء والأرض تعذّب أرواح الكفرة من الأموات وتلحق بهم أرواح أشباههم من الأحياء » (٣).

٢ - عبد الله بن سبأ اليهودي ودوره: كان عبد الله بن سبأ اليهودي أول من قال بالنص والوصية والرجعة، وهذه المسائل صارت من أصول المذهب الشيعي؛ ولهذا أشار القمي والنوبختي والكشي - وهم من شيوخ الشيعة القدامى - إلى الأثر اليهودي في التشيع حينما استعرضوا آراء ابن سبأ والتي أصبحت فيما بعد من أصول الشيعة، قالوا: « فمن هنا قال من خالف الشيعة: إن أصل الرفض كان مأخوذًا من اليهودية » (٤).

وقد أثار ربط التشيع بابن سبأ وحزبه علماءَ الشيعة وباحثيهم؛ ومن ثم حرصوا على إبعاد

=إلى التشيع من طريق المؤثرات اليهودية والنصرانية [انظر: العقيدة والشريعة (ص ٢١٥)]. وكذلك يرى فريد لندر أن التشيع قد استمد أفكاره الرئيسة من اليهودية. [انظر: المصدر السابق (ص ١٠٠) وما بعدها]، ويقول فلهوزن بالأصل اليهودي للتشيع، ويشير إلى بعض أوجه التشابه في الأفكار بين اليهود والشيعة [أحزاب المعارضة (ص ١٧٠)].

(١) أصول الكافي (٤٦٠/١) كتاب الحجة، بابٌ في الأئمّة - عليهم السلام - أنّهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البيّنة - عليهم السلام - والرّحمة والرّضوان. قال محققه: والحديث حسن أو موثق.

(٢) أصول الكافي (٤٦٣/١) كتاب الحجة، بابٌ في الأئمّة - عليهم السلام - أنّهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البيّنة عليهم السلام والرّحمة والرّضوان.

(٣) أصول الكافي (٢٩٩/١) كتاب الحجة، باب في شأن ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] وتفسيرها. قال محقق أصول الكافي: الحديث ضعيف على المشهور بالحسن بن العباس.

(٤) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٢٢)، رجال الكشي (ص ١٠٨)، د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٠/١).

هذه التهمة عنهم، « وشنوا هجومًا عنيفًا على السبئية محاولين إخراجها من دائرتهم » [١]، بل وصل الأمر ببعض كتّابهم المعاصرين (كمرتضى العسكري ومحمد جواد مغنية وغيرهما) - لدرجة إنكار وجود ابن سبأ اليهودي نفسه، وهو ما سنتعرض له في الحديث عن الغلاة من الشيعة وعلاقة الأئمة بهم.

إن « المجامع اليهودية من ناحية والغنوصية من ناحية أخرى وجدت في انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت - زمن علي وبنيه - فرصة لا تعوض لإلقاء بذور الفتنة بينهم، فألقت في مجتمع الكوفة والمدائن بآراء يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبئية » [٢]. ومن أشهرها القول بالوصية والرجعة.

٣ - ومما يدل على الأثر النصراني في التشيع ما فعله رواة الشيعة من ربط التشابه بين علي ﷺ وعيسى ابن مريم عليه السلام، من حيث إنهما واجها الواقع نفسه؛ إذ قابلهما الناس بالإفراط والتفريط في حقهما. فقد روى المجلسي: عن علي عليه السلام أنه قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يومًا فوجدته في ملأ من قريش فنظر إلي ثم قال: « يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا » [٣].

كما حاولوا إظهار التشابه بين نبي الله عيسى عليه السلام والحسين بن علي رضي الله عنهما ؛ إذ يصورون كربلاء تصويرًا يقترب من تصوير النصارى لقصة الفداء من عيسى المخلّص للبشر !! عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لمّا نزل النّصر على الحسين بن عليّ حتّى كان بين السّماء والأرض ثمّ خيّر: النّصر أو لقاء اللّه، فاختار لقاء اللّه » [٤].

وإذا كان عيسى - عليه الصلاة والسلام - قد أحيا الموتى؛ فكذلك تنسب الروايات إلى علي ﷺ أنه أحيا إنسانًا من بني مخزوم [٥]. وتنسب إلى المهدي المنتظر إحياء بعض

---

(١) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ١٦).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣٩/٢).

(٣) بحار الأنوار: المجلسي (١٥١/٩)، وفي معناه روى أهل السنة عن علي ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ: (فيك مثلٌ من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به) ثم قال ﷺ: « يهلك فيَّ رجلان: محبٌّ مفرط يقرظني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني ». مسند الإمام أحمد (١٦٠/١) بسند ضعيف، والحاكم في المستدرك (١٢٣/٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي، فقال عن أحد رواته: الحكم بن عبد الملك وهّاه ابن معين.

(٤) أصول الكافي (٥٣٨/١) كتاب الحجة باب مولد الحسين بن علي ﷺ حسنه المحقق.

(٥) أصول الكافي (٥٢٩/١)، كتاب الحجة بابٌ في مولد النبي ﷺ ووفاته. سكت عنه محقق أصول الكافي.

الموتى، كإحياء بقرة بمنًى لامرأة فقيرة « فصوّت بالبقرة فنخسها نخسةً أو ضربها برجله فاستوت على الأرض قائمةً، فلمّا نظرت المرأة إلى البقرة صاحت وقالت: عيسى ابن مريم وربّ الكعبة! » (١).

ثالثًا: دور العقائد الآسيوية في التشيع:

يرى بعض الكتّاب أن المذهب الشيعي كان موئلًا ومستقرًا للعقائد الآسيوية القديمة كالبوذية وغيرها (٢). يقول الأستاذ أحمد أمين: « وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح (٣) ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة في العقائد الآسيوية القديمة كما هو الحال عند البراهمة والفلاسفة والمجوس (٤) قبل الإسلام ».

ولقد كانت الكوفة والعراق وفارس أرض التشيع الغالي، ولا عجب في ذلك؛ فإن هذه المنطقة « ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل البديعة... وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومزدك وغيرهم... ففي الكوفة إذن يجتمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم، وأتى الصحابة كما أتى النصارى واليهود، وأقبلت القبائل العربية كما أقبل الموالي، وانتشرت الزندقة والسحر... وأطلّت رؤوس المجامع السرية والمراكز المتغلغلة الخفية، وبجانب هذا كله كان هناك اليهود، وفي العراق وفي منفاهم السحيق

---

(١) أصول الكافي (١/٥٥٧)، كتاب الحجة بابٌ في مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، وقال محققه: الحديث صحيح.

(٢) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة (١/٣٧ - ١٠٠).

(٣) تناسخ الأرواح: انتقال الروح بعد الموت من بدن إلى آخر، إنسانًا أو حيوانًا. قال بهذه النظرية بعض الهنود، وفيثاغورس من اليونان، وتسربت للعالم الإسلامي. [انظر: المعجم الفلسفي (ص ٥٥)، التعريفات للجرجاني (ص ٩٣)]. وتجسيم الله: المقصود وصف الله - جل شأنه - بصفات المخلوقين، وقد وجد هذا عند طوائف من الشيعة كالهشامية أتباع هشام بن الحكم وغيرها.. انظر في ذلك: ابن تيمية: التدمرية (ص ٣٢، ٣٣)، منهاج السنة (٢/٩٧) وما بعدها، (٢/١٤٥) وما بعدها، درء تعارض العقل والنقل (١/١١٨، ١١٩)، التعريفات للجرجاني (ص ١٠٣)، والحلول: هو الزعم بأن الإله قد يحل في جسم عدد من عباده، أو بعبارة أخرى أن اللاهوت يحل في الناسوت [المعجم الفلسفي (ص ٧٦)].

(٤) البراهمة: هم المنتسبون إلى رجل منهم يقال له: براهم [الملل والنحل (٢/٢٥١)] أو: برهام من ملوك الفرس [المنية والأمل (ص ٧٢)]. يقرون بالله، ويجحدون الرسل.. وهم فرق مختلفة (انظر نفس الموضع من المصدرين السابقين).

المجوس: هم عبدة النار، ويقولون بأصلين؛ أحدهما: النور، والآخر: الظلمة. انظر: الملل والنحل (١/٢٣٢) وما بعدها، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ١٣٤). وانظر: فجر الإسلام (ص ٢٧٧).

أنشدوا التلمود وكتبوه، وكان هناك النصارى أيضًا ينادون بتجسيد الألوهية » (١).

ويشير بعض المستشرقين إلى تسرُّب كثير من العقائد الآسيوية إلى الشيعة ويقول: « إن تلك العقائد انتقلت إليها من المجوسية، والمانوية (٢)، والبوذية وغيرها من الديانات التي كانت سائدة في آسيا قبل ظهور الإسلام » (٣).

(ردود علماء الشيعة الاثني عشرية على القول بتأثر التشيع بالعامل الخارجي):

ومن الإنصاف أن نذكر أن كتّاب الشيعة المعاصرين يردون هذه الدعاوى ويجدون ما يناقضها؛ لأنها لا تمتلك أدلة كاملة دامغة، إنما هي بعض الدلائل والقرائن، فلا يمكن - في نظر الباحث - الاعتماد عليها في قضية كبيرة وخطيرة كهذه القضية.

وهذه نماذج من ردودهم:

١ - أن تهمة التأثر بالأديان السابقة قد وجهت إلى رسول الله ﷺ نفسه، ونص الذكر الحكيم على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

٢ - أن هذا الاتهام لم يكن خاصًا بالتشيع؛ بل ذهب المستشرقون وغيرهم إلى اتهام الإسلام بأنه تأثر بالعقائد السابقة، وأن الرسول ﷺ قد بشّر بها.. قال جولد تسيهر: « فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا » (٤). وهذا خلاف الواقع الذي جاء به الإسلام من نقده الشديد لعقائد أهل الكتاب المنحرفة التي كانت سائدة في المحيط العربي آنذاك.

٣ - من الطبيعي أن تكون بعض الأفكار مشتركة بين الأديان المختلفة؛ خصوصًا

---

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٦٦/٢).

(٢) المانوية: أصحاب ماني بن فاتك، كان في الأصل مجوسيًا، ثم أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، وقد خالفته المجوس وسعت في قتله، حتى قتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى عليه السلام وبقي مذهبه في أتباعه. والمانوية يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما، وأن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود. (انظر: الملل والنحل (٢٤٤/١) وما بعدها، المنية والأمل (ص ٦٠)، شرح الطحاوية (ص ١٨)، الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ١٣٨)).

(٣) فلوتن: السيادة العربية (ص ٨٣، ٨٤).

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام (ص ٦) دار الرائد العربي - بيروت.

المنزَّلة من اللّٰه سبحانه؛ إذ هي صدرت من منبع واحد رغم طروء التحريف والتبديل؛ لأن القرآن الكريم جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه [1].

٤ – أما عن تأثر الشيعة بالبيئة الفارسية على الخصوص، فيجيب الشيخ الوائلي عن هذه الدعوى، ويجمع من أقوال المستشرقين أنفسهم ما يرد عليها:

فيذكر قول جولد تسيهر أن الحركة الشيعية نشأت في أرض عربية بحتة؛ فقد مال لاعتناق التشيع قبائل عربية تشبعت بالآراء الثيوقراطية وبشرعية حق علي بالخلافة، وقوله: « يمثل الأثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الأمم الإيرانية في الإسلام بعد أن اعتنقته وخضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا الوهم الشائع مبني على سوء فهم الحوادث التاريخية؛ فالحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحتة »، وقول المستشرق فلهوزن: « أما أن آراء الشيعة تلائم الإيرانيين فهذا مما لا شك فيه، وأما كون هذه الآراء انبعثت من الإيرانيين فليست تلك الملاءمة دليلًا عليه؛ بل الروايات التاريخية تقول عكس ذلك؛ إذ تقول: إن التشيع الواضح الصريح كان... أولًا في الدوائر العربية ثم انتقل منها إلى الموالي »، وقول المستشرق آدم متز: « إن مذهب الشيعة لا كما يعتقد البعض رد فعل من جانب الروح الإيرانية تخالف الإسلام؛ فقد كانت جزيرة العرب شيعية كلها عدا المدن الكبرى كمكة وتهامة وصنعاء. وكان للشيعة غلبة في بعض المدن مثل عمان وهجر وصعدة وفي بلاد خوزستان التي تلي العراق فكان نصف أهلها على مذهب الشيعة، أما إيران فكانت سنية عدا قم، وكان أهل أصفهان يغالون في معاوية »، وقول المستشرق نولدكه: « ظلت بلاد فارس في أجزاء كبيرة منها تدين بالمذهب السني واستمر ذلك حتى سنة (١٥٠٠م) عندما أعلن التشيع مذهبًا رسميًّا فيها بقيام الدولة الصفوية » [2].

أما عن شبهة دخول الفرس في الإسلام ونشر التشيع كيدًا للإسلام، فيقول مغنية: « وإذا جاز أن يقال: إن الفرس تشيعوا كيدًا للإسلام؛ لأنه قهرهم – جاز أن يقال: إن

---

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٤٤، ٤٥) دار الهادي بيروت (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ، (ط١).

(٢) أحمد الوائلي: هوية التشيع، دار الصفوة – بيروت (ط٣)، (١٤١٣هـ)، (ص ٨٥)، وانظر نقولاته عن هؤلاء المستشرقين في: الشيعة والخوارج (ص ٢٤١). الحضارة الإسلامية (١/١٠١) العقيدة والشريعة (ص ٢٠٤)، دراسات في الفرق والعقائد (ص ٣٢٦).

غير الفرس تسنّنوا كيدًا للإسلام؛ لأنه غلب وقهر الجميع لا الفرس وحدهم » [١].

وينفي شيخ الأزهر الإمام عبد الحليم محمود دور المؤثرات الخارجية في التشيع فيقول: « نرى أن السبب في نشأة الشيعة لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم الإسلام ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة في عبد اللّٰه بن سبأ، وإنما أقدم من ذلك؛ فنواته الأولى ترجع إلى شخصية علي ﷺ من جانب، وصلته بالرسول ﷺ من جانب آخر »، و « كانت الشيعة في بدء أمرها محبة كمحبة سلمان الفارسي لآل البيت، ثم أصبحت محبة وعطفًا وشفقة، حينما اعتقد بعض الناس أن البيت العلوي لم يأخذ المكانة اللائقة في المجتمع، فلما أصبح الظلم اضطهادًا وتعذيبًا وتشتيتًا، وبترًا للأعضاء، وسملًا للعيون، وقتلًا - تكونت الشيعة بالمعنى الاصطلاحي المعروف الآن » [٢].

وهنا نسأل: هل كان لهذه المؤثرات الخارجية: الفارسية واليهودية والآسيوية دورها في الشيعة كل الشيعة؟ أم الغالية منها؟ ثم ما مدى تأثر الاثني عشرية على الخصوص بهذه المؤثرات الخارجية؟

يجيبنا الشهرستاني فيقصر دور هذه المؤثرات في الفرق الشيعية الغالية، وليس في الاثني عشرية فيقول معرِّفًا بهم: « الغالية هؤلاء هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبهوا واحدًا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير، وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية، ومذاهب التناسخية، ومذاهب اليهود والنصارى؛ إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسَرَت هذه الشبهات في أذهان الشيعة الغلاة؛ حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة » [٣]. ثم صار يعدد بعض فرق الغلاة وأفكارهم، وعدّ منهم: السبئية والكاملية والعلبائية والمغيرية والمنصورية والخطابية والكيالية والهشامية والنعمانية واليونسية والنصيرية والإسماعيلية [٤].

ولذلك فينبغي التفريق بين كل طور من أطوار التشيع، عند الحديث عن تأثر التشيع

---

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٦٥).

(٢) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٢٦).

(٣) الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ): الملل والنحل، المكتبة التوفيقية، تحقيق / محمد بن فريد (١/١٨٠، ١٨١).

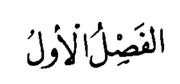
(٤) الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٨٠ - ٢٠٠٤).

بالعوامل الخارجية؛ فالتشيع المعتدل غير التشيع الغالي. يقول د. القفاري: « والذي أرى أن التشيع المجرد من دعوى النص والوصية ليس هو وليد مؤثرات أجنبية؛ بل إن التشيع لآل البيت وحبهم أمر طبيعي، وهو حب لا يفرق بين الآل، ولا يغلو فيهم، ولا ينتقص أحدًا من الصحابة، كما تفعل الفرق المنتسبة للتشيع، وقد نما الحب وزاد للآل بعدما جرى عليهم من المحن والآلام بدءًا من مقتل علي، ثم الحسين... إلخ. هذه الأحداث فجّرت عواطف المسلمين؛ فدخل الحاقدون من هذا الباب؛ ذلك أن آراء ابن سبأ لم تجد الجو الملائم لتنمو وتنتشر إلا بعد تلك الأحداث.

لكن التشيع بمعنى عقيدة النص على علي ﷺ، والرجعة، والبداء، والغيبة، وعصمة الأئمة... إلخ - فلا شك أنها عقائد طارئة على الأمة، دخيلة على المسلمين، ترجع أصولها لعناصر مختلفة؛ ذلك أنه قد ركب مطية التشيع كل من أراد الكيد للإسلام وأهله، وكل من احتال ليعيش في ظل عقيدته السابقة باسم الإسلام؛ من يهودي، ونصراني، ومجوسي، وغيرهم. فدخل في التشيع كثير من الأفكار الأجنبية والدخيلة » [1].

* * *

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/١٠٨، ١٠٩).



الفَصْلُ الأول

الغلو والغلاة وموقف أئمة أهل البيت منهم

(وفيه مباحث):

ٱلْمَبْحَثُ ٱلْأَوَّلُ: ابن سبأ والسبئية.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّانِي: الغلاة الذين ركبوا موجة التشيع.

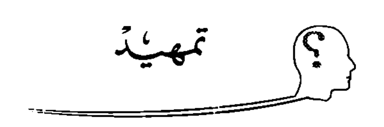
ٱلْمَبْحَثُ ٱلثَّالِثُ: رجال الشيعة الأوائل بين الغلو والاعتدال.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلرَّابِعُ: موقف أئمة أهل البيت من الغلو والغلاة.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلْخَامِسُ: الغلو يتسلل إلى أحاديث الشيعة.

ٱلْمَبْحَثُ ٱلسَّادِسُ: موقف علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة.





تمهيد

قال الراغب الأصبهاني: الغلو تجاوز الحد، وقال ابن منظور: أصل الغلاء الارتفاع ومجاوزة القدر في كل شيء، وغلا في الدِّين يغلو غلوًّا: جاوز حده، والغلاء ضد الرخص، وغالى بالشيء: اشتراه بثمن غال [1]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷺ محذرًا من الغلو: « **أيها الناس! إياكم والغلوّ في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين** » [2]. أي: التشدد فيه.

ومع أن الغلو عام يشمل العبادة، كما يشمل العقيدة؛ فإن هذا المصطلح يطلقه علماء الشيعة على نوع مخصوص من الغلو في العقيدة، يقول المفيد: « والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبوّة، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد، وهم ضلّال كفار، حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام » [3].

وهذا المعنى للغلو متفق عليه بين طوائف الشيعة والسنة، فالغالية كما يقول الشهرستاني: « **هؤلاء هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبهوا واحدًا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق** [4] **وذلك كقولهم بتجسيم الخالق؛ حيث (ركزوا همهم في الارتفاع بالإنسان مرة حتى يصير إلهًا، والنزول بالإله حتى يصير إنسانًا)** » [5].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب (١٣٢/١٥)، (ط ١)، دار إحياء التراث العربي (١٤٠٥هـ) مادة (غ. ل. و).

(٢) أخرجه ابن ماجه، باب قدر حصى الرمي رقم (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، وذكره من الشيعة: ابن مطهر جمال الدين الحسن بن علي بن يوسف الحلي في تذكرة الفقهاء (٣٧٤/١)، و (٢١٠/٨) مؤسسة آل البيت، قم (١٤١٧هـ).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١٠٩).

(٤) الشهرستاني: (محمد بن عبد الكريم أبو الفتح ت ٥٤٨هـ): الملل والنحل، المكتبة التوفيقية، تحقيق محمد بن فريد (ص ١٣١).

(٥) مصطفى كامل الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع (ص ١٣٥)، (ط ٣)، دار الأندلس - بيروت (١٩٨٢م).

تطور مفهوم الغلو بين السنة والشيعة:

ولا بد من البيان أن الغلو عند الشيعة يختلف في مفهومه وأهله عن الغلو في فكر أهل السنة؛ إذ يعدّ علماءُ أهل السنة مذهبَ الإمامية - اليوم - فيما انفردوا به من القول بعصمة الأئمة وغير ذلك من العقائد الخاصة لديهم غلاةً مطلقًا، فمجرد القول بعصمة الأئمة يعدّ غلوًّا، في حين لا يسمى هذا غلوًّا في نظر الاثني عشرية؛ بل يعدّ من ضرورات المذهب الاثني عشري. كما أن هناك عقائد كانت تعدّ من الغلو في نظر بعض علماء الشيعة الأوائل صارت بعد ذلك من سمات الاعتدال الاثني عشري، ومن ضروراته أيضًا.

فقد سار الغلو بخطى متتالية متطورة عبر القرون، فما كان يُعدُّ غلوًّا عند الشيعة الأوائل صار بتوالي القرون اعتدالًا ومنهجًا نابعًا من المذهب عند المتأخرين.

ويقرّ علماء الشيعة أن مفهوم الغلو قد تطور داخل المذهب الشيعي، فإن بعض الأفكار التي كانت تعتبر غلوًّا عند المتقدمين صارت مع الوقت من ضروريات المذهب!! فقد أكد الحلي: « أن جملةً مما هو من ضروريات مذهبنا اليوم قد كان يُعدّ في سالف الزمان غلوًّا، وعليه فرّعوا تضعيف جمع من الثقات »[(١)].

ولعل من خير الأمثلة على ذلك مسألة (عصمة الأئمة من السهو والنسيان)؛ فقد كان هذا يعدّ في نظر الصدوق من الغلو، في حين صار بعد ذلك على يد المفيد ومن بعده من ضرورات مذهب الاثني عشرية في العهود المتأخرة.

ويبين لنا المفيد في (تصحيح اعتقادات الصدوق) وجود التصارع بين الفكر المعتدل والغالي في زمانه فيقول: « وقد وجدنا جماعة وردُوا علينا من قم يقصرون تقصيرًا ظاهرًا في الدين، وينزلون الأئمة عن مراتبهم، ويزعمون أنهم كانوا لا يعرفون كثيرًا من الأحكام الدينية حتى ينكت في قلوبهم... ويدّعون مع ذلك أنهم من العلماء، وهذا هو التقصير الذي لا شبهة فيه! »[(٢)].

فالمفيد يرى أن ضوابط الحكم على الفكر بالغلو مرتبط بوصم الأئمة بالألوهية ومستلزماتها؛ حيث يقول بعد قوله السابق: « ويكفي في علامة الغلو في نفي القائل به عن الأئمة سمات الحدوث، وحكمه لهم بالإلهية والقِدم؛ إذ قالوا بما يقتضي ذلك من خلق أعيان الأجسام واختراع الجواهر وما ليس بمقدور العباد من الأعراض، ولا يحتاج

---

(١) العلامة الحلي: إيضاح الاشتباه (ص ١٣١)، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين.

(٢) تصحيح الاعتقاد (ص ١١٤، ١١٥).

مع ذلك إلى الحكم عليهم وتحقيق أمرهم بما جعله أبو جعفر سمة للغلو » [١]. أما إنكار السهو عليهم وما شابه ذلك فليس من الغلو في شيء في نظر المفيد ومن جاء بعده، وخصوصًا في زمن علماء الحكم الصفوي، وهذا تطور في المذهب جدير بالاهتمام والملاحظة.

وهذه النظرة للغلو الشيعي وتطوره أدركها علماء السنة أنفسهم، ولكنهم جعلوا التشيع المعتدل - الذي لا يضر في دين صاحبه - ما كان نابعًا عن زيادة محبة لآل البيت، ولم يتجاوز ذلك إلى تكفير كبار الصحابة والقول بالتقية بين المسلمين؛ فقد قال الإمام الذهبي في معرض الحديث عمن رمي ببدعة التشيع من المحدثين: « إن البدعة على ضربين (فبدعة صغرى) كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو؛ فهذا كثير في التابعين وأتباعهم مع الدين والورع والصدق، فلو رد حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بينة، ثم (بدعة كبرى) كالرفض الكامل، والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر ﵄ والدعاء إلى ذلك؛ فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة، وأيضًا فما أستحضر الآن في هذا الضرب رجلًا صادقًا، ولا مأمونًا، بل الكذب شعارهم، والتقية والنفاق دثارهم؛؛ فكيف يقبل نقل من هذا حاله؟ حاشا وكلا.

فالشيعي الغالي - في نظر أهل السنة - في زمان السلف وعرفهم هو من تكلم في عثمان، والزبير، وطلحة، ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليًا ﷺ وتعرض لسبهم.

والشيعي الغالي في زمننا وعُرفنا هو الذي يكفِّر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين، فهذا ضال مفترٍ » [٢].

ومن خلال كلام الذهبي وابن حجر يتبين أن التشيع الغالي مر بمراحل متعددة، وهذا الذي يسميه هذان العالمان ممثلين لأهل السنة غلوًا إنما هو اليوم مذهب الاثني عشرية عينه، ثم زيد عليه غلو آخر، وهو ما أطلق عليه الاثنا عشرية أنفسهم غلوًا من المغالاة بالأئمة كالقول بإلهية علي ﷺ.

وهكذا تطور الغلو؛ فقد كان من الشيعة من قال بأفضلية علي على باقي الصحابة ﷺ، ثم قالوا بعصمته، وانتقلوا من القول بتخطئة أبي بكر وعمر وعثمان - رضوان الله عليهم -

---

(١) تصحيح الاعتقاد (ص ١١٤، ١١٥).

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال (١/٥، ٦)، وانظر: ابن حجر: لسان الميزان (١/٩، ١٠)، د. ناصر عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة (١/٦٧).

لعدم تولية علي الخلافة في عهودهم إلى القول بتفسيقهم، ثم بتكفيرهم ومن شايعهم، ولم يكتفوا بعد ذلك بعصمة علي؛ بل زعموا أنه يعلم الغيوب، ثم ألّهه بعضهم فزعموا أن الرعد صوته والبرق تبسمه [١].

ويحاول الشيعة القول أن الغلاة فئة ظهرت وماتت ودفنت في مدافن التاريخ، ولكن يرى الدكتور النشار أن الغلو لا بد أن يبقى أثره في التشيع فيقول: « وقد تبينت لي ظاهرة لا تخلُّف فيها [في] كل عصور التشيع، وهي ظهور نظرية معتدلة مقتصدة، ونظرية غالية مسرفة؟ ثم يعقب كلًّا من هذه وتلك نظرية تأخذ عناصر من هذه وعناصر من تلك، ولكل نظرية أتباعها ورجالها، وإن كان الإطار العام للتشيع واحدًا إلا أن التشيع يختلف » [٢].

أسباب الغلو:

يفصل لنا الشيعة على لسان أمير المؤمنين علي (أسباب الغلو؛ فقد جاء في الكافي: « عن سليم بن قيسٍ الهلاليّ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلوّ والشّكّ والشّبهة... **والغلوّ على أربع شعبٍ: على التّعمّق بالرّأي، والتّنازع فيه، والزّيغ، والشّقاق**؛ فمن تعمّق لم ينب إلى الحقّ ولم يزدد إلا غرقًا في الغمرات ولم تنحسر عنه فتنةٌ إلا غشيته أخرى وانخرق دينه، فهو يهوي في أمرٍ مريجٍ، ومن نازع في الرّأي وخاصم شهر بالعثل [٣] من طول اللّجاج، ومن زاغ قبحت عنده الحسنة وحسنت عنده السّيّئة، ومن شاقّ اعورّت عليه طرقه واعترض عليه أمره، فضاق عليه مخرجه إذا لم يتّبع سبيل المؤمنين » [٤].

- **كما أن من أسباب الغلو: الجهل**، فيظهر أثر الجهل والهوى في تفكير الغلاة؛ إذ يذكر الإمام أبو جعفر سبب هلاك أبي الخطاب: فيقول: « هي التي هلك فيها أبو الخطّاب [٥]

---

(١) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٨٠) وما بعدها، أحمد أمين فجر الإسلام (ص ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/١٥) مقدمة الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة (ط٨).

(٣) المريج: المختلط والمضطرب، والعثل: أي الحمق وهو في بعض النسخ بالفشل.

(٤) أصول الكافي (٢/٣٧٣) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الكفر وشعبه، سكت عنه المحقق.

(٥) أبو الخطاب هو محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، زعم أنه من أتباع جعفر الصادق وصار يفتري على لسانه الأباطيل، فلما وقف الصادق على كذبه وغلوه في حقه تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه، عندها ادعى أبو الخطاب لنفسه بالإمامة، وزعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٧٩).

فلم يدر ما تأويل المحدّث والنبيّ »[١]. أي أن الذي جعل أبا الخطاب يقول بنبوة الأئمة عدم تفريقه بين المحدّث الذي يأتيه الملك فيُسمعه صوته، والنبي الذي يعاين الملك.

وتدل المصادر الشيعية أن الشيعة مروا بمرحلة كان الجهل فيها مسيطرًا؛ ففي أصول الكافي: « كانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم، حتى كان أبو جعفر؛ ففتح لهم، وبيّن لهم مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم.. »[٢].

– **كما أن من أسباب الغلو محاولة إسقاط العقائد القديمة على الدين الجديد** من قِبل أولئك الداخلين في الدين الذين عزّ عليهم أن يتخلوا عن عقائدهم السابقة، كشأن أولئك الفرس الذين دخلوا الإسلام فأرادوا منح الأئمة صفات العظمة الكسروية. يقول الشيخ الندوي رحمه الله: « إن عقيدة الإمامة الغالية التي ذكرناها والتي تصل جذورها وأبعادها إلى تقديس السلالات والبيوتات وتأليهها يعكس عليها معتقدات إيران القديمة... وكان الفرس يعتقدون في طبقة الكهنوت أنهم ظل الإله على الأرض، ولم يخلقوا إلا لخدمة الآلهة، ولا بد للحاكم أن يكون من هذه القبيلة، فإن ذات الإله يتجسم فيه »[٣].

– **والكيد لهدم الدين** سبب وجيه للغلو من قِبل أولئك الحاقدين على الإسلام، يريدون تهديمه من داخله بعد أن عجزوا عن مواجهته عسكريًّا. وقد تجلى ذلك في ابن سبأ والسبئية.

– **ويظهر دور الأطماع** واضحًا جليًّا في أسباب الغلو، كما هو شأن الطامعين في كل زمان؛ إذ يصلون بالأئمة والحكّام إلى درجة الألوهية في مزايدة ومبالغة عظيمة يرتجون منها الشهرة والحظوة، ولعل خير مثال لهذا الدور هو حركة المختار الثقفي.

– **ولا ننسى دور العاطفة الجياشة والمحبة في ظهور الغلو**؛ لأن حبك الشيء يعمي ويصم، ويظهر هذا في كثير من مبالغات تلامذة الأئمة ورواة الشيعة في حق أئمتهم.

وقد عد الدكتور الزغبي من أسباب الغلو:

– **الإفراط في الحب**: « الفكرة بدأت محبة، وأن المحبة أصبحت هيامًا، والهيام استحال عشقًا، والعشق غلوًّا وتقديسًا »[٤].

---

(١) أصول الكافي (٣٢٦/١)، كتاب الحجة بَابٌ أن الأئمة (ع) محدثون مفهمون.

(٢) أصول الكافي (٢٠/٢).

(٣) أبو الحسن الندوي: صورتان متضادتان (ص ٩٩، ١٠٠).

(٤) د. صبحي الصالح: النظم الإسلامية (ص ٩٦)، دار العلم للملايين، عن د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة =

والإسلام يأمرنا أن نسيطر على عواطفنا، وإن التعبير عن المحبة باتباع أوامر المحبوب والسير على نهجه أولى من الثناء الزائد على المحبوب؛ فالثناء الموصل إلى الغلو ليس دليلًا على تمام المحبة، بل الثناء المعتدل مع اتباع المحبوب أولى بالصواب؛ ذلك أن اتباع المحبوب والحرص على رضاه يدل على المحبة القلبية، أما ثناء اللسان فربما أخفى في القلوب أطماعًا تبتغي من وراء الثناء والمديح؛ ولذلك قال علي ﷺ لرجل امتدحه يومًا: « أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك » [1].

– **الاضطهاد والحرمان:** كان الاضطهاد وما أدى إليه من حرمان سببًا من أسباب الغلو الشيعي [2]. ولقد جعل الاضطهاد والحرمان الشيعة يعيشون في خيال واسع شاسع، تغذيه الأماني، فهم يحلمون بالنصر على أعدائهم وانتشار مذهبهم؛ ولذلك فالمطالع لأخبار القائم المنتظر عندهم يرى أنه يأتي ليشفي غليل الشيعة من أعدائهم ويفعل ما عجزوا في تاريخهم من فعله.

– **كراهة الصحابة:** وقد أوقعتهم حالة الاضطهاد التي مورست ضدهم في حالة من اختلال موازين الحكم على الشخصيات، فوقعوا في حبائل مبغضي الصحابة من اليهود والفرس، وصاروا من أشهر من عرف بكراهة الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم أجمعين – هذه الكراهة أوقعتهم في غلو أشد؛ إذ إن كراهة الصحابة – وهم المقتدون الأوائل بالنبي ﷺ، وحماة الإسلام ورجاله الأقدمون – جعلت الشيعة محرومين مما رواه الصحابة عن النبي ﷺ من أخبار، وكذلك حرموا الاقتداء بهم، وهم – رضوان الله عليهم – الذين تربَّوا على يد النبي ﷺ » [3]. وقد كان حرمان الخوارج أيضًا من الاقتداء بالصحابة سببًا واضحًا في غلوهم؛ لدرجة أنهم قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا!.

– **السّرّية:** فقد « اتسمت حركة الغلاة بالسرية، وهذه السرية هي التي شجعتهم على الغلو، وما دام قوم يستترون ولا يجهرون بعقيدتهم فإن هذه العقيدة سيدخلها كثير من الباطل » [4]؛ حيث يُحرم أتباعها من مناقشة الفرق الأخرى ونقدها لعقائدهم الباطلة؛

= وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (اليهودية والمسيحية والمجوسية) (ص ٥٣)، (ط ١)، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م).

(١) نهج البلاغة (ص ١٩٤)، باب المختار من حِكم أمير المؤمنين، دار المعرفة – بيروت، بشرح الشيخ محمد عبده.

(٢) د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٥٨).

(٣) انظر حول أثر كراهة الصحابة في الغلو: المرجع السابق (ص ٦٠).

(٤) د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٦٢). وانظر: بركات =

مما يجعل رجوعهم عنها شبه مستحيل.

إن السرية الدائمة والمستمرة تولد التطرف والغلو في جميع الطوائف؛ فكلما أوغلت طائفة منها في السرية ازداد تطرفها وغلوها. ولما كان الإسماعيلية وإخوان الصفا قد أوغلوا في السرية فلأجل ذلك ازدادوا تطرفًا وغلوًا بالمقارنة مع الفرق الشيعية الأخرى التي أظهرت عقائدها كالزيدية.

ولما كانت عقائد الاثني عشرية تقسم إلى عقائد عامة معلنة - وهو غالب عقائد المسلمين العامة -، وعقائد خاصة سرّية مكتومة - وهي مسألة الإمامة وما اتصل بها - فإننا نرى أنهم توحّدوا مع باقي المسلمين في العقائد الإسلامية العامة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر) في حين ابتعدوا عن باقي الأمة في مسألة الإمامة التي تواصوا بكتمان أسرارها فمسّهم فيها الغلو؛ فقد رووا عن الإمام زين العابدين، عليّ بن الحسين قوله: « وددت والله! أنّي افتديت خصلتين في الشّيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النّزق وقلّة الكتمان »[1]. ورووا عن جعفر الصادق ﷺ: « من أذاع علينا حديثنا سلبه الله الإيمان »[2].

والمتوقع في هذا العصر الذي يشتهر بسرعة الاتصالات، وسهولة وسائل الحوار، ونشاط الإعلام - أن يغلق باب السرية أمام كثير من العقائد؛ ومن ثم ظهورها للنور المبهر، وهناك يظهر خيرها من شرها، وحقائقها من زيوفها. وهذا سلاح جديد، لو أحسن المسلمون استخدامه؛ فإنه سيكون فتحًا جديدًا للإسلام والمسلمين في هذا العصر.

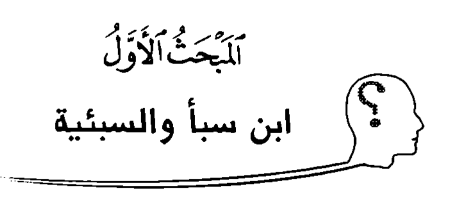
- **العوامل الخارجية:** إن لهذا العامل دورًا مهمًا، لكنه لا يمكن أن يؤثر إلا مع وجود العوامل السابقة: (الجهل بالدين، والتقديس، والاضطهاد والحرمان، والسرية، وكراهة الصحابة والحرمان من الاقتداء بهم). وقد ظهر هذا العامل في حركة ابن سبأ، وحركات أخرى كانت لها دوافع سياسية خارجية أو داخلية.

* * *

=دويدار: تاريخ الجمعيات السرية في الإسلام (ص ٣١).

(١) أصول الكافي (٢/٢٢٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الكتمان. قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٢/٣٥٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الإذاعة. قال محققه: الحديث صحيح.



المَبْحَثُ الأَوَّلُ
ابن سبأ والسبئية

لقد كان للخلافات السياسية في أواخر العهد الراشدي دور كبير في كسر باب الفتن المغلق، هذا الباب صار مفتوحًا على مصراعيه منذ ذلك العهد؛ فتوالدت الفتن وتكاثرت على الأمة وما تزال.

ففي عهود الفتن يضعف قلب الأمة، وينشط أعداؤها في الداخل والخارج، وقد وجدت مجامع اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام والمسلمين « في انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت - فرصةً لا تعوض لإلقاء بذور الفتنة بينهم؛ فألقت في مجتمع الكوفة والمدائن بآراء يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبئية » (١).

وتكاد المصادر القديمة، سواء عند السنة أو الشيعة تجمع على وجود ابن سبأ وأتباعه، وقد كان لهذه الشخصية دور سياسي وعقدي في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما.

وملخص سيرته أنه كان يهوديًا قدم من صنعاء فأظهر الإسلام، وأخذ يتنقل في بلاد المسلمين يريد ضلالتهم؛ فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم بالشام، فلم يقدر على شيء فيها، فأتى مصر واستقر بها، ووضع لهم عقيدتي الوصية والرجعة، مبشرًا برجعة النبي ﷺ كرجعة عيسى عليه السلام وأن وصي محمد ﷺ هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن عثمان - والخليفتين قبله - غاصب حق هذا الوصي فيجب مناهضته لإرجاع الحق لأهله، وهو أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وتبعه على ذلك شُذّاذ الآفاق من كل جاهل وفاسق ناقم على الخليفة الثالث رضي الله عنه. كما غُرِّر به بعض أبناء الصحابة رضي الله عنهم، حتى حاصروا المدينة وقتلوا الخليفة رضي الله عنه، ثم كان لهم دورهم في تأجيج الفتن بين المسلمين في معركة الجمل؛ حيث اندسّوا بين الفريقين (فريق علي وفريق عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم) وأشعلوا القتال بينهم ليلًا، حتى قُتل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢).

---

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣٩/٢).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣٤٠/٤)، والكامل لابن الأثير (٧٧/٣)، البداية والنهاية لابن كثير (١٦٧/٧)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/٢٩، ٨) ضمن أحداث سنة (٣٥هـ).

وقد ذكر ابن سبأ للناس « أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيًّا، وأن عليًّا وصي محمد ﷺ، وأنه خير الأوصياء، كما أن محمدًا ﷺ خير الأنبياء »[١]، وقد استند في ذلك إلى ما ذكره اليهود؛ حيث قالوا: « كان موسى ﵇ قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه وفتاه والقائم بالأمر من بعده ليفضي بها إلى أولاد هارون؛ لأن الأمر كان مشتركًا بينه وبين أخيه هارون ﵉؛ إذ قال تعالى حكاية عن موسى ﵇ في دعائه حين أوحى إليه أولًا: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴾ [طه: ٣٢] وكان هو الوصي، فلما مات هارون في حال حياة موسى انتقلت الوصية إلى يوشع بن نون وديعة ليوصلها إلى شبير وشبر ابني هارون قرارًا؛ وذلك أن الوصية والإمامة بعضها مستقَرّ وبعضها مستودَع »[٢].

ولم يكتف ابن سبأ بهذه الأراجيف؛ بل زاد عليها إلحادًا وكفرًا، حين ادعى ألوهية علي ﷺ بعد ذلك، حتى حرّقه فيمن حرّق من جماعته، وقيل: لم يحرقه بل نفاه إلى المدائن مع ابن السوداء، وهو يهودي مثله داعٍ إلى فكره معين له على الغلو.

فقد ذكر البغدادي أنه لمّا بلغ عليًّا غلو ابن السوداء فيه همّ بقتله فنهاه ابن عباس عن ذلك وقال له: إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام، وتحتاج إلى مداراة أصحابك. فلما « خشي من قتله ومن قتل ابن سبأ الفتنةَ التي خافها ابن عباس نفاهما الى المدائن، فافتتن بهما الرعاع بعد قتل علي ﷺ »[٣]؛ ذلك أنه لما بلغ ابن سبأ نعي علي ﷺ قال: « لم يمت ولم يقتل، وأنه لا يموت حتى يسوق العرب ويملك الأرض بعصاه... وأنه إله العالمين، وأنه توارى عن خلقه سخطًا منه عليهم وسيظهر »[٤]. وأكّد زعمه ابن السوداء قائلًا: « والله! لينبعن لعلي في مسجد الكوفة عينان تفيض إحداهما عسلًا والأخرى سمنًا، ويغترف منهما شيعته »[٥].

قال الشهرستاني في حق ابن سبأ: « وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي ﷺ ومنه انشعبت أصناف الغلاة »[٦].

---

(١) د. محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٤٢٧).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (١/٢٠٩).

(٣) انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥).

(٤) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٤٠، ٤١)، والشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٥٥)، والبغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥).

(٥) انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥).

(٦) الشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٥٥).

هذا عن ابن سبأ، أما السبئية أتباعه، وما فعل بهم علي ﷺ عندما وصله غلوُّهم في ذاته ﷺ؛ فيقول ابن حجر: « وزعم أبو المظفر الإسفراييني في « الملل والنحل » أن الذين أحرقهم علي طائفة من الروافض ادعوا فيه الإلهية وهم السبئية، وكان كبيرهم عبد الله ابن سبأ يهوديًا ثم أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة، وهذا يمكن أن يكون أصله ما رويناه في الجزء الثالث من حديث أبي طاهر المخلص من طريق عبد اللّٰه بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن هنا قومًا على باب المسجد يدّعون أنك ربهم. فدعاهم فقال لهم: « ويلكم! ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال: ويلكم! إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت اللّٰه أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا اللّٰه وارجعوا. فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر، فقال: قد واللّٰه رجعوا يقولون ذلك الكلام. فقال: أدخلهم، فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلتم ذلك لأقتلنّكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك... فخَدّ لهم أخدودًا بين باب المسجد والقصر، وقال: احفروا فأبعِدوا في الأرض، وجاء بالحطب فطرحه بالنار في الأخدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا. فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا. قال:

إني إذا رأيت أمرًا منكرًا أوقدت ناري ودعوت قنبرًا »

قال ابن حجر بعد أن أورد هذه الرواية: « وهذا سند حسن » (١).

ابن سبأ بين التضخيم والإنكار:

هناك موقفان متناقضان من ابن سبأ والسبئية؛ فهناك من يضخم دوره السياسي والفكري، فيرى أن أحداث الفتن كلّها في عهد الصحابة الكرام كانت من تخطيطه وتنفيذه، وأن التشيع كلّه من اختراعه، ووليد أفكاره؛ وذلك بما كان يتمتع به شخصيًا من دهاء عجيب، ولما كانت تتمتع به جماعته السرية من تماسك وقوة وتنظيم.

وهناك من ينكره إنكارًا تامًا وينسف وجوده من التاريخ أصلًا، فيلغي الصفحات الطوال التي سطّرها المؤرخون سُنة وشيعة في إثبات وجوده ووجود جماعته ودورهم السياسي والفكري.

---

(١) فتح الباري (٢٧٠/١٢). دار المعرفة - بيروت. وانظر: الشوكاني: نيل الأوطار (٨/٥)، وصحح إسناده. وانظر الحديث: سنن البيهقي الكبرى (٧١/٩)، دار الباز، مكة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) تحقيق محمد عبد القادر عطا، مسند الإمام أحمد (٢٨٢/١)، رقم (٢٥٥٢) وليس فيه إلا أنهم مرتدون، وليس أنهم السبئية أو غيرهم.

ولكلٍّ من المضخّمين والمنكرين غايات وأهداف مختلفة.

فيرى بعض المستشرقين وبعض كتّاب الفرق المعاصرين أن تضخيم دور ابن سبأ على يد « كتّاب الفرق من أهل السنة وأشاعرة وسلفية » - كما يقولون - يهدف إلى: « إدانة التشيع من جهة، وإلى تبرير قيام حرب بين بعض كبار الصحابة وتبرئتهم من دمائها؛ حتى تتسنى موالاتهم جميعًا من جهة أخرى، لقد ساءتهم الحرب، فأرادوا أن يحفظوا لصحابة كبار مكانتهم في نفوس المسلمين؛ فلم يجدوا إلا أن يتحمل وزر ذلك كله يهودي أسلم ليكيد للإسلام، ولكن فاتهم أن هذا التفسير يعني أن يهوديًا نكرة قد تلاعب بصحابة كبار فأثار بينهم قتالًا » [(١)].

وعلى الجهة الأخرى يذهب كثير من كتّاب الشيعة وبعض كتّاب أهل السنة المعاصرين إلى إنكار وجود ابن سبأ وجماعته إنكارًا تامًا، أو جزئيًا بالتقليل من دوره التاريخي والفكري. فقد « أثار ربط التشيع بابن سبأ علماء الشيعة وباحثيهم ومن حرصوا على إبعاد هذه الفئة عنهم، وشنوا هجومًا عنيفًا على السبئية، محاولين إخراجها من دائرتهم، وذهبوا إلى أن شخصية ابن سبأ من اختلاق خصوم الشيعة » [(٢)]. - وقد تبعهم بعض كتّاب السنة - فقام بعضهم بنفي وجوده تمامًا، وقام بعضهم بالتشكيك في وجوده فقط، كما ظهر بعض الكتّاب الشيعة - كالشيبي - الذين لم ينكروا وجود ابن سبأ، ولكن التبست عليهم حقيقته، فزعموا أن ابن سبأ وابن السوداء وعمار بن ياسر الصحابي الجليل ﷺ شخصية تاريخية واحدة [(٣)]!! وحاشا هذا الصحابي الجليل أن يمثل

---

(١) د. أحمد محمود صبحي: الزيدية (ص ٢٣) الزهراء للإعلام العربي (ط٢)، (١٤٠٤هـ /١٩٨٤م)، عن برنارد لويس: أصول الإسماعيلية.

(٢) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٨٦).

(٣) أ - المشككون بوجود ابن سبأ من أهل السنة:

١ - يقف الدكتور طه حسين عل رأس الكتّاب المحدثين الذين شككوا في وجود ابن سبأ بل وأنكروه. انظر كتاب الفتنة الكبرى: عثمان (ص ١٣٢)، وعلي وبنوه (ص ٩٠).

٢ - الدكتور: حامد حنفي داود، وهو من الذين تأثروا بكتابات الشيعة حول شخصية ابن سبأ فأنكر وجودها، وذلك عندما قام بكتابة المقدمة المتعلقة بكتاب (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى)، وضمن كتابه: التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية (ص ١٨).

٣ - وهناك أيضًا الدكتور: محمد كامل حسين في كتابه: أدب مصر الفاطمية (ص ٧).

٤ - عبد العزيز الهلابي في كتابه عبد الله بن سبأ (ص ٧٣)، حيث حجب هذا الشخص الغموض الذي أثاره غيره من المشككين في وجود ابن سبأ فلازم الإنكار.

=

هذا الدور الخطير الحقير، وهو من هو إيمانًا وتقوى، وقد بشّره النبي ﷺ بالجنة.

وللمرء أن يسأل لماذا هذا الإصرار على إنكار ابن سبأ اليوم من قبل بعض كتّاب الشيعة؟

١ - إنهم يريدون من وراء ذلك قطع الصلة بين التشيع والغلو، بإنكار وجود رأسه ومدبّره؛ فإذا ثبت أن ابن سبأ موجود وهو القائل الأول بالوصية لعلي ﷺ، وهو القائل بالطعن على الخلفاء الثلاثة، وهو القائل بالرجعة للأئمة؛ فإن الشيعة اليوم - وهم يعتقدون بهذه المعتقدات - فهم إذن غلاة وسبئيون؛ لأن هذه العقائد مما آل إليه مذهب الشيعة الاثني عشرية اليوم. في حين يصر الشيعة على أن التشيع بدأ منذ عهد النبي ﷺ،

= ٥ - وأيضًا الدكتور: محمد عمارة في كتابه الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية (ص ١٥٤، ١٥٥)، فيقول: « وتنسب أغلب مصادر التاريخ والفكر الإسلامي إلى ابن السوداء هذا نشاطًا عظيمًا وجهدًا خرافيًا »، ويقول: « فإن وجود ابن سبأ على فرض التسليم بوجوده... ».

٦ - والدكتور: عبد اللّه السامرائي في كتابه الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية (ص ٨٦)، إلا أنه يثبت وجود الأفكار التي تنسب إلى عبد اللّه بن سبأ، من غير جزم بوجود صاحبها.

ب - المنكرون لوجود ابن سبأ من الشيعة:

١ - محمد الحسين كاشف الغطاء، في كتابه أصل الشيعة وأصولها (ص ٦١) يقول: « على أنه لا يستبعد أن يكون هو - أي عبد اللّه بن سبأ - ومجنون بني عامر وأبو هلال.. وأمثالهم أحاديث خرافية وضعها القصاص لتزجية الفراغ وشغل أوقات الناس ».

٢ - مرتضى العسكري: وله كتابان في هذا الموضوع، ينفي فيهما وجود ابن سبأ من الأصل، ويعتبر مرتضى هذا من أكثر الشيعة المحدثين اهتمامًا بمسألة عبد اللّه بن سبأ. الكتاب الأول بعنوان: (عبد اللّه بن سبأ بحث حول ما كتبه المؤرخون والمستشرقون ابتداء من القرن الثاني الهجري). ورمز له بالجزء الأول. الكتاب الثاني بعنوان: (عبد اللّه بن سبأ وأساطير أخرى).

٣ - محمد جواد مغنية، وقد ذكر ذلك في تقديمه لكتاب عبد اللّه بن سبأ وأساطير أخرى لمرتضى العسكري (١٢/١). وكتاب التشيع (ص ١٨).

٤ - الدكتور علي الوردي، في كتاب وعاظ السلاطين (ص ٢٧٣ - ٢٧٦)، يقول: « يخيل إليّ أن حكاية ابن سبأ من أولها إلى آخرها كانت حكاية متقنة الحبك رائعة التصوير ». ويعتبر علي الوردي صاحب القول بأن ابن السوداء هو عمار بن ياسر ﷺ (ص ٢٧٨).

٥ - عبد اللّه الفياض في كتابه تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة (ص ٩٥)، يقول: « يبدو أن ابن سبأ كان شخصية إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ».

٦ - الدكتور كامل مصطفى الشيبي في كتاب الصلة بين التصوف والتشيع (ص ٤١)، وقد تابع الدكتور علي الوردي في كلامه حول كون عمار بن ياسر هو ابن السوداء (ص ٨٨).

٧ - طالب الرفاعي في التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية (ص ٢٠).

٨ - إحسان الأمين: في كتابه التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٥ - ٢٧٨).

وأنه ﷺ هو الذي أوصى لعلي بالخلافة، وأن الصحابة الكرام ﷺ خالفوا الأوامر النبوية في ذلك.

٢ - وإذا كان التاريخ يؤكد على الدور الذي قام به ابن سبأ والسبئية في التفريق بين المسلمين في زمن عثمان وعلي ﷺ، فهو وجماعته هم الذين أجّجوا معركة الجمل، وإذا كان التاريخ ينزه الصحابة الكرام من قصد الكيد والمكر في تلك الأحداث المريرة؛ فإن الشيعة - سيرًا وراء موقفهم السياسي ثم العقدي من هؤلاء الصحابة الكرام - يريدون الطعن على الصحابة الكرام ﷺ ونسبة تلك الأحداث الدامية إليهم رضوان الله عليهم.

والحقيقة أننا نرفض نسبة الأحداث التاريخية والسياسية التي مرت على عهد الصحابة، وخصوصًا الأحداث الأليمة في صفين والجمل، نرفض نسبتها كاملة إلى ابن سبأ صياغة وفعلًا؛ فلهذه الأحداث عدة عوامل كثيرة داخلية وخارجية متداخلة، ولكن إن كنا نرفض تضخيم دور ابن سبأ في تلك الأحداث المحزنة؛ فإننا نرفض أيضًا المكابرة وإنكار الواقع بإلغاء وجود ابن سبأ وأتباعه تاريخيًا.

وقفة مع منكري وجود ابن سبأ والسبئية:

لقد اتكأ منكرو وجود ابن سبأ على عدة شبهات يجدر طرحها ومناقشتها، ومن هذه الشبهات:

١ - غموض شخصية ابن سبأ في التاريخ، والحقيقة أن شخصية ابن سبأ شخصية غامضة، حتى التبس على بعض المؤرخين هل هو ابن السوداء أم هو غيره [(١)]، وحتى ذهب بعض الكتّاب إلى أنه عمار بن ياسر ﷺ!! [(٢)].

٢ - ضخامة الدور الذي أعطي لابن سبأ؛ فلا يمكن أن يكون مذهبٌ كبير في العقيدة قد تشكل بناء على آراء رجل واحد، كان له دوره المهم في موت الخليفة الثالث

---

(١) كثير من المصادر التاريخية ترى أن ابن سبأ هو ابن السوداء نسبة إلى أمه، ولكن البغدادي يرى أن ابن السوداء شريك لابن سبأ لا نفسه. [انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥، ٢٢٦)]، وكذلك فعل الأشعري القمي من الشيعة؛ حيث قال: « هو عبد الله بن وهب بن سبأ الراسبي الهمداني، وساعده على ذلك عبد الله بن حرس وابن أسود وهما من جلّة أصحابه »، فجعل لابن سبأ نسبًا آخر (ابن وهب الراسبي)، وجعل له شريكين منهما ابن أسود (ولعله يقصد ابن السوداء) [انظر: المقالات والفرق (ص ٢٠، ٢١)].

(٢) د. علي الوردي: وعاظ السلاطين (ص ٢٧٨)، د. كامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع (ص ٤١).

عثمان ﷺ؛ فقد « رسمت هذه الروايات أدوارًا خيالية لشخص يسلم مؤخرًا زمن عثمان أو علي، ولكنه يستطيع بفترة قصيرة أن يكون العقل المدبر للأحداث، يدير بها جملة ومن وجوه الصحابة، ويجول البلاد طولًا وعرضًا، دون أن يناله خطر أو عقوبة »[١].

٣ - تناقض الروايات في حقه: هل أحرقه علي؟ أم نفاه إلى المدائن؟ وخصوصًا أن أشهر من روى روايات ابن سبأ في كتب التاريخ هو سيف بن عمر، وقد « اتفق علماء الرجال على ضعف سيف بل على زندقته ووضعه للحديث »[٢]؛ فقد قال مغنية عن سيف: « كما ابتدع رجالًا من التابعين وغير التابعين، ووضع على لسانهم الأخبار والأحاديث. من هؤلاء بطل اختلق شخصيته، واختلق اسمه، واختلق قضايا ربطها به، هذا البطل الأسطوري هو (عبد الله بن سبأ) الذي اعتمد عليه كل من نسب إلى الشيعة ما ليس لهم به علم، وتكلم عنهم جهلًا وخطأً، ونفاقًا وافتراءً، وجاء المؤرخون بعد سيف الوضاع فرأوا الكتابين المذكورين بين مصادر التاريخ؛ فنهلوا منهما دون فحص وتمحيص »[٣].

والجواب عن هذه الشُّبَه:

١ - أما أن يكون ابن سبأ شخصية غامضة؛ فنعَم، ولا بد من أن تكون كذلك؛ لأن من يريد أن يقوم بالتخريب الذي قام به هذا الرجل لا بد أن يكون صاحب حيلة ودهاء حتى لا يكشف أمره، وهناك شخصيات تاريخية كان لها التأثير العظيم، مع أنها كانت غامضة، ولم نسمع من أحد إنكار وجودها بسبب هذا الغموض الذي لفّها؛ فهذا أبو مسلم الخراساني، « ولقد أحاط الغموض بهذه الشخصية الكبرى في تاريخ الإسلام، هل هو أعجمي أم عربي أم كردي؟ هل هو من نسل بني العباس أنفسهم... أم هو مولًى؟ هل هو شخصية سياسية حربية، أم هو وجه غنوصي؟ »[٤]. ولم ينكر وجوده أحد.

---

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٨٧).

(٢) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٨). قال النسائي عن سيف: « ضعيف متروك الحديث، ليس بثقة ولا مأمون، وقال عنه ابن حبان: « يروي الموضوعات عن الأثبات، اتهم بالزندقة وقالوا: كان يضع الحديث ». انظر: أقوال العلماء فيه: مرتضى العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى (١/٧٤ - ٧٦)، (ط٦)، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢).

(٣) محمد جواد مغنية: تقديمه لكتاب: ابن سبأ (ص ١٢)، وانظر: مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٢/٤٤٧).

(٤) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٦٢).

٢ - وأما الحديث عن ضخامة الدور الذي أعطي لابن سبأ؛ فإن الجواب عليه من التاريخ نفسه؛ ألم يستطع شاؤول اليهودي (بولس النصراني) قلب ديانة النصرانية، رأسًا على عقب، وحرفها عن التوحيد، وادعاء أن عيسى ابن الله (تعالى الله عن ذلك) حتى تحولت من دين ربّاني إلى دين قائم على التثليث. قال البغدادي: « وقال المحققون من أهل السنة: إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده؛ لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصارى في عيسى عليه السلام » [١].

٣ - وأما أن يكون هناك تناقضات تاريخية في الروايات المتحدثة عن ابن سبأ وأعماله فهو أمر ممكن الحصول في التاريخ والحديث، وليس الحل هو إنكار كل حقيقة تاريخية لمجرد أن يكون في بعض رواياتها تناقضات، وهذا كثير في التاريخ؛ فهل ننكر كل حقائق التاريخ لوجود بعض التناقضات، أم نرجح بين الروايات؟ ولو مشينا على منهج المنكرين لابن سبأ لأجل هذا السبب لضربنا بالمعاول آلاف الروايات التي تحوي تناقضات في كتب الشيعة - وما أكثرها - قبل غيرهم.

وعلى سبيل المثال: فإن أكبر عقيدة يصرّ عليها الاثنا عشرية، وهي عقيدة الإيمان بالمهدي المنتظر الغائب - يلفّ رواياتها تناقضات كثيرة؛ فقد اختلفت تلك الروايات في تحديد أمه واسمها، وتحديد تاريخ ولادته، وعمره يوم وفاة أبيه، وطريقة ولادته ونموّه ووصفه... إلخ [٢]؛ فلماذا لا ينكر الاثنا عشرية وجوده بسبب هذه التناقضات؟!

وأما أن مصادر التاريخ حول ابن سبأ تقف في سندها إلى رجل ضعفه علماء الرجال واتهموه بما اتهموه به؛ فهذا أمر صحيح، ولكن هل انفرد هذا الرجل بذكر ابن سبأ، إن كان انفرد في كتب التاريخ العامة كالطبري وابن كثير وغيرهما؛ فما بال تلك الروايات الواضحة بأسانيد الشيعة أنفسهم تذكر ابن سبأ وتؤكد وجود دوره التخريبي؟!.

والعجيب أن الخوئي بعد أن ذكر الروايات عن زين العابدين وجعفر الصادق [٣] والتي تدل على دور ابن سبأ في الكذب على لسان علي رضي الله عنه، وأنه ادعى في نفسه النبوة،

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢١ - ٢٢٣).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٦)، وسنتعرض لذلك في فصل (العقائد الخاصة).

(٣) الخوئي: أبو القاسم الموسوي: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة (١١/٢٠٧)، رقم الترجمة (٦٨٨٩).

وادعى الألوهية في علي [١] - يعود فيردّ تلك الروايات، زاعمًا أنها من أكاذيب سيف ابن عمر أحد رواة التاريخ السني [٢].

مع أن ابن سبأ ورد في معظم المصادر الشيعية القديمة؛ فقد ورد في رجال الكشي، والمقالات والفرق للقمي، وورد في فرق الشيعة للنوبختي، والصدوق في (من لا يحضره الفقيه) [٣]، وذكره أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ) في كتابه تهذيب الأحكام [٤] وابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) في مناقب آل البيت [٥]. وابن أبي الحديد (٦٥٦هـ) في شرح نهج البلاغة [٦]، كما أورده العاملي في وسائل الشيعة [٧]، وأشار الحسن بن علي الحلّي (ت ٧٢٦هـ) [٨] إلى ابن سبأ ضمن أصناف الضعفاء، وذكره الأردبيلي (ت ١١٠٠هـ) [٩]، وذكره نعمة اللّه الجزائري (ت ١١١٢هـ) [١٠]، ووردت بعض روايات ذُكر فيها ابن سبأ عند المامقاني (ت ١٣٢٣هـ) [١١]، وكذلك ذكر الخوانساري لعن ابن سبأ واتهامه بالكذب والتزوير على لسان جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ [١٢].

ولم تكتف المصادر الشيعية الكثيرة بذكر ابن سبأ، بل أوردت الفرقة التي انتشرت بسببه وهي السبئية؛ فقد جاء ذكرهم في بحار الأنوار، وأنهم يقولون برجعة علي ﷺ [١٣]،

---

(١) الخوئي: أبو القاسم الموسوي: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة (٢٠٦/٤).

(٢) المرجع السابق (٢٠٧/١١)، رقم الترجمة (٦٨٨٩).

(٣) من لا يحضره الفقيه (٢١٣/١). وذكر اعتراض ابن سبأ على الإمام علي ﷺ في رفع اليدين إلى السماء عند الدعاء.

(٤) تهذيب الأحكام (٣٢٢/٢)، وذكر أن ابن سبأ رجع إلى الكفر وأظهر الغلو.

(٥) مناقب آل أبي طالب (٢٢٧/١، ٢٢٨).

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (١٢٠/٨)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية اللّه المرعشلي النجفي. قال: « فلما قتل أمير المؤمنين، عليه السلام، أظهر ابن سبأ مقالته، وصارت له طائفة وفرقه يصدقونه ويتبعونه ».

(٧) محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ): وسائل الشيعة (٣٣٦/٢٨) مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، (١٤١٤هـ).

(٨) الرجال (٧١/٢).

(٩) جامع الرواة (٤٨٥/١)، وذكر أن ابن سبأ غال ملعون يزعم ألوهية علي ﷺ ونبوّته.

(١٠) الأنوار النعمانية (٢٣٤/٢): قال: « قال عبد اللّه بن سبأ لعلي بن أبي طالب ﷺ: أنت الإله حقًّا. فنفاه علي عليه السلام إلى المدائن، وقيل: إنه كان يهوديًّا فأسلم، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وفي موسى مثل ما قال في علي ».

(١١) تنقيح المقال في أحوال الرجال (١٨٣/٢). (١٢) روضات الجنات (١٤١/٣).

(١٣) بحار الأنوار (٢١٠/٥١). إضافة إلى رواية تذكره باسمه كما ذكرت في الأصل.

بل ذكرهم الشيخ الصدوق (٣٨١هـ) في كمال الدين وتمام النعمة [١] والشيخ المفيد (٤١٣هـ) في الفصول العشرة وشرح عقائد الصدوق [٢].

وجاء في رجال الكشي المعروف باختيار معرفة الرجال للطوسي - عدة روايات عن الأئمة منهم أبو جعفر وجعفر الصادق أن ابن سبأ كان يهوديًا فأسلم، وأنه كان يقول في علي ﷺ بقول اليهود في يوشع بن نون بعد موسى ؑ، ثم إنه ادعى ألوهية علي ﷺ وأنه [أي ابن سبأ] نبي وقد حرقه علي ﷺ بعد استتابته [٣].

وهناك روايات تثبت أن عليًا نفاه إلى المدائن [٤]، ويمكن الجمع بين الروايات بأنه نفاه أولًا عندما قال بالوصية، فلما قال بإلهيته حرّقه مع أتباعه بعد استتابتهم، والله أعلم.

ومهما يكن فإنَّ الروايات مجمعة على وجوده، وإن اختلفت في مصيره.

وقد ذكره علماء الفرق الشيعة؛ فقد ذكر القمي (ت ٣٠١هـ) وقريبًا منه النوبختي (ت ٣١٠هـ) أن عبد الله بن سبأ أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ منهم، وادّعى أن عليًا أمره بذلك، وأن السبئية قالوا للذي نعاه - أي علي بن أبي طالب -: « كذبت يا عدو الله! لو جئتنا والله بدماغه خربة فأقمت على قتله سبعين عدلًا ما صدقناك، ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، وإنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملك الأرض » [٥].

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: لمحمد بن علي بن بابويه القمي المشهور بالصدوق (ص ١٠١)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (١٤٠٥هـ).

(٢) الشيخ المفيد (محمد بن النعمان بن المعلم): الفصول العشرة (ص ٣٠ - ١٠٩)، دار المفيد - بيروت، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، تحقيق فارس حسون، شرح عقائد الصدوق (ص ٢٥٧).

(٣) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٣٢٤/١) رقم الرواية (١٧١) وما بعدها، (٢٠٥/١١، ٢٠٦)، رقم الترجمة (٦٨٨٩) طبعة قم (١٤٠٤هـ). مؤسسة أهل البيت تحقيق محمد باقر الحسيني وآخرين. وقارن: السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ): نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين (٣٠٨/٢) مؤسسة النشر الإسلامي - قم، تحقيق / السيد الرجائي.

(٤) السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ): نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين (٣٠٨/٢)؛ حيث عكس الأمر: « قال عبد الله بن سبأ لعلي ؑ: أنت الإله حقًا، فنفاه علي ؑ إلى المدائن، ولما كان يهوديًا قبل الإسلام كان يقول في يوشع بن نون وفي موسى مثل ما قال في علي ؑ، ومنه تشعبت الغلاة ». وقد ضعف المازندراني (ت ١٠٨١هـ) في شرحه على الكافي (١٧٩/٤) أن يكون علي قد حرقه.

(٥) المقالات والفرق (ص ٢٠)، تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور فيروي - طهران (١٩٦٣م). وقريبًا منه النوبختي: في كتابه فرق الشيعة (ص ٢٣).

وهذه بعض الروايات الشيعية التي ذكرت ابن سبأ:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « إذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه إلى السماء ولينصب في الدعاء. فقال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين، أليس الله في كل مكان؟ فقال: بلى. قال: فلم يرفع يديه إلى السماء؟ قال: أما تقرأ في القرآن ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] فمن أين يطلب الرزق إلا من موضعه؟ وموضع الرزق وما وعد الله السماء » (١).

وتذكر إحدى الروايات أن ابن سبأ أُحضر إلى علي متلبسًا بتهمة الكذب على النبي ﷺ: « عن أبي الطفيل: جاء المسيب بن نجبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام متلببًا بعبد الله ابن سبأ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ما شأنك؟ فقال: يكذب على الله وعلى رسوله. فقال: ما يقول؟ قال: فلم أسمع مقالة المسيب... » (٢). ولكن الخبر للأسف لم ينقل لنا مقالة ابن سبأ وكذبه، واكتفى بإجمال كذبه على النبي ﷺ.

ويذكر المجلسي جامع روايات الشيعة في بحار الأنوار رواية تقول: « دخل عمرو ابن الحمق وحجر بن عدي وحبة العرني والحارث الأعور وعبد الله بن سبأ على أمير المؤمنين بعدما افتتحت مصر وهو مغموم حزين فقالوا له: بين لنا ما قولك في أبي بكر وعمر؛ فقال لهم علي عليه السلام: هل فرغتم لهذا؟! وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي بها قد قتلت » (٣).

ولم تخف حقيقة وجود ابن سبأ على أئمة الشيعة؛ فقد حذروا منه ومن بدعته، « فعن هشام بن سالم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وهو يحدث أصحابه بحديث عبد الله بن سبأ، وما ادعى من الربوبية في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: إنه لما ادعى ذلك فيه استتابه أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يتوب فأحرقه بالنار ».

وعن أبان بن عثمان، قال: « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لعن الله عبد الله ابن سبأ، إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام، وكان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبدًا لله طائعًا، الويل لمن كذب علينا، وإن قومًا يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، نبرأ إلى الله منهم، نبرأ إلى الله منهم ».

---

(١) الطوسي: تهذيب الأحكام (٣٢٢/٢). تحقيق حسن الخرسان مطبعة خورشيد، دار الكتب الإسلامية (ط٤)، وذكره المحقق البحراني في الحدائق الناضرة (٥١١/٨) نشر جماعة المدرسين، قم.

(٢) الطوسي: الأمالي (ص ٢٣٠)، (ط١)، (١٤١٤هـ) دار الثقافة، قم.

(٣) المجلسي (محمد باقر المجلسي ١١١١هـ): بحار الأنوار (٥٦٧/٣٣). مؤسسة الوفاء - بيروت (ط٢)، (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: « قال علي بن الحسين صلوات الله عليهما: لعن الله من كذب علينا. إني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي، لقد ادعى أمرًا عظيمًا ما له لعنه الله؟! كان علي عليه السلام والله عبدًا لله صالحًا، أخا رسول الله، ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله الكرامة من الله إلا بطاعته الله ».

وقال أبو جعفر عليه السلام: « إن عبد الله بن سبأ كان يدعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين عليه السلام هو الله!! تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فدعاه وسأله فأقر بذلك، وقال: نعم أنت هو، وقد كان ألقي في روعي أنك أنت الله، وأني نبي! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ويلك! قد سخر منك الشيطان، فارجع عن هذا ثكلتك أمك وتب، فأبى؛ فحبسه واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار. وقال: إن الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك ».

وقال أبو عبد الله عليه السلام : « إنا أهل بيت صدّيقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الناس لهجة وأصدق البرية كلها، وكان مسيلمة يكذب عليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ اللهُ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه ويفتري على الله الكذب عبد الله بن سبأ » [١].

وعن زرارة أنه قال: « قلت للصادق عليه السلام: إن رجلًا من ولد عبد الله بن سبأ يقول بالتفويض، فقال عليه السلام: وما التفويض؟ فقلت: يقول: إن الله عز وجل خلق محمدًا صلى الله عليه وسلم وعليًا عليه السلام، ثم فوّض الأمر إليهما، فخلقا ورزقا وأحييا وأماتا، فقال عليه السلام: كذب عدو الله، إذا رجعت إليه فاقرأ عليه الآية التي في سورة الرعد: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦]. فانصرفت إلى الرجل فأخبرته بما قال الصادق عليه السلام، فكأنما ألقمته حجرًا، أو قال: فكأنما خَرِس » [٢].

---

(١) الخوئي: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة (١١/٢٠٥، ٢٠٦) رقم الترجمة (٦٨٨٩)، (ط٥) لجنة التحقيق (١٤١٣هـ).

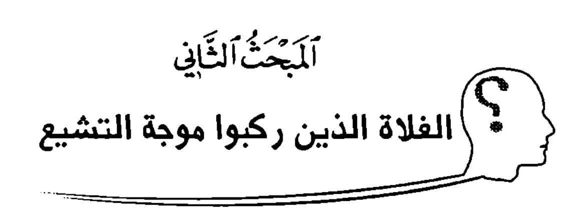
(٢) الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٤). والعجيب أن بعض الشيعة يؤمنون بنظرية تفويض أمر الأرض للإمام، فيعتقدون أن « للإمام عليه السلام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون » انظر: روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية (٥٢، ٥٣)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت، وانظر: رجب البرسي: مشارق أنوار اليقين (ص ٢٢٥)، الشيخ جلال الصغير: الولاية التكوينية، الحق الطبيعي للمعصوم (ص ١٠٣).

وبهذه النقول والنصوص الواضحة في كتب الشيعة أنفسهم تتضح لنا حقيقة شخصية ابن سبأ اليهودي، ومن طعن من الشيعة في ذلك؛ فقد طعن في كتبهم التي نقلت لعنات الأئمة المعصومين - عندهم - على هذا اليهودي (ابن سبأ)، ولا يجوز ولا يتصور أن تخرج اللعنات من المعصوم على شخص متوهَّم مُتخَيَّل، وكذلك لا يجوز في معتقد القوم تكذيب المعصوم [(١)].

وعلى كلٍّ فهناك أشخاص آخرون اشتهروا بالغلو، والتصقوا بتاريخ الشيعة وأئمتهم، ومن هؤلاء: المختار الثقفي وغيره.

* * *

(١) د. سعدي الهاشمي: ابن سبأ حقيقة لا خيال (ص ٧٦).



١ - حركة المختار الثقفي:

من المختار بن أبي عبيد الثقفي؟ إنه رجل طامح طامع في السلطة؛ ولأجل ذلك تذبذبت آراؤه السياسية والعقدية حسب المصالح، ذكر ابن كثير أنه كان خارجيًا، ثم زبيريًا، ثم شيعيًا من أنصار زين العابدين، ثم لما رأى انقطاعه للعبادة والزهد تركه إلى محمد ابن الحنفية ونادى بإمامته، ثم رأى خير وسيلة لتأييده هو الانتقام من قتلة الحسين ﷺ، وقد فعل، ونُسب إليه الغلو.

« وأدق وصف للمختار أنه رجل منفعة ومصلحة، يسعى لكسب الجاه والمال دون اهتمام بالوسائل التي تحقق له ذلك »[(١)].

ويذكر التاريخ أنه « لما بايع ابن الزبير قال: « أبايعك على ألا تقضي الأمور دوني، وعلى أن أكون أول من تأذن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك ». فلم يأبه له ابن الزبير وأهمله، فتحول عنه إلى حركة التوابين، وانتظر وفاة سليمان بن صرد[(٢)]

---

(١) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، ماجستير دار العلوم بإشراف الأستاذ الدكتور محمود قاسم (١٩٦٧م). (ص ١٩)، وانظر: د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (١٩٣/٢).

(٢) صحابي جليل، قال المزي: « كان اسمه في الجاهلية يسارًا فسماه رسول الله ﷺ سليمان، سكن الكوفة وابتنى بها دارًا في خزاعة، وكان نزوله بها في أول ما نزلها المسلمون، وكانت له سن عالية وشرف في قومه وشهد مع علي صفين وهو الذي قتل حوشبًا ذا ظليم الألهاني بصفين مبارزة. ثم اختلط الناس يومئذ، وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قتل الحسين ندم هو والمسيب بن نجبة الفزاري وجميع من خذله ولم يقاتل معه، ثم قالوا: ما لنا توبة مما فعلنا إلا أن نقتل أنفسنا في الطلب بدمه. فخرجوا وعسكروا بالنخيلة، وذلك مستهل ربيع الآخر سنة خمس وستين، وولوا أمرهم سليمان ابن صرد وسموه أمير التوابين، ثم ساروا إلى عبيد الله بن زياد فلقوا مقدمته في أربعة آلاف عليها شرحبيل ابن ذي الكلاع، فاقتتلوا فقُتل سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة بموضع يقال له: عين الوردة. وقيل: إنهم خرجوا إلى الشام في الطلب بدم الحسين فسموا التوابين، وكانوا أربعة آلاف، فقتل سليمان بن صرد، رماه يزيد ابن الحصين بن نمير بسهم فقتله، وحمل رأسه ورأس المسيب بن نجبة إلى مروان بن الحكم أدهم بن محرز =

ليعلن زعامته لهذه الحركة [١]. وقد اختلطت حركته بالكيسانية عند بعض الكتّاب؛ ذلك أنه أراد غطاءً دينيًا لحركته، فالتمسها عند أتباع محمد ابن الحنفية » [٢]؛ ولذلك ادعى مهدية محمد ابن الحنفية وعلمه الغزير الذي استودعه إياه أبوه علي ﷺ [٣].

ويُسقط ابن تيمية حديث النبي ﷺ في كذّاب ثقيف على المختار قائلًا: « وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: « **سيكون في ثقيف كذّاب ومُبير** » [٤]. فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان المبير هو الحجاج بن يوسف الثقفي » [٥].

ويذكر التاريخ أنه لما أصيب الحسن في المدائن قبيل عام الجماعة، « وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار - ولاه عليها علي عليه السلام. فقال له المختار، وكان شابًا: هل لك في الغنَاء والشرف؟ قال: وما ذلك؟ قال: تستوثق من الحسن وتسلمه إلى معاوية، فقال له سعد: قاتلك اللّٰه، أثب على ابن رسول اللّٰه وأوثقه وأسلمه إلى ابن هند؟ بئس الرجل أنا إن فعلتُه » [٦]. فهذا الخبر يدلّك على ما كان يتصف به المختار من انتهازية.

وقد اضطرب موقف الشيعة من هذا الرجل؛ فقد روى الكشي له مدحًا وذمًّا، ورجّح المدح [٧]. والذي رجح المدح على الذم هو أنه شفى قلوب الشيعة من أعدائهم، رغم فساد عقيدته؛ جاء في طرائف المقال: « وفيه أحاديث مختلفة قادحة ومادحة، والترجيح مع الثانية، ويكفي في حقه أنه كسر قوارير الكفر وقتل جمًّا خطيرًا من بني أمية يبلغ إلى ثمانين ألف رجل كما في بعض الأحاديث » [٨]، فهل يغير فعله هذا بقتَلة الحسين

= الباهلي، وكان سليمان يوم قتل ابن ثلاث وتسعين سنة، وقال غيره: إن ذلك كان سنة سبع وستين. فاللّٰه أعلم. روى له الجماعة ». المزي: تهذيب الكمال (٤٥٤/١١).

(١) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١). وانظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري (٥٩/٧ - ٦٢).

(٢) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢٤ - ٢٦).

(٣) انظر: د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٥٣/٢).

(٤) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، رقم (٢٥٤٥)، (١٩٧١/٤) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. (المبير): المهلِك، السفّاك.

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٦٩/٢، ٧٠).

(٦) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨/٤٤)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية (١٦/٨). دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٧) وسائل الشيعة الحر العاملي (٤٩٠/٣).

(٨) السيد علي البروجردي الجابلقي (ت ١٣١٣هـ): طرائف المقال (٧١/٢) رقم (٧٢٦٩) مكتبة آية اللّٰه العظمى المرعشلي قم (١٤١٠م) تحقيق محمد السيد الرجائي.

والأمويين شيئًا من فساد عقيدته وسوء سريرته؟

« وقد قيل: إن السيد محمد ابن الحنفية تبرأ من المختار حين وصل إليه أنه قد لبّس على الناس أنه من دعاته ورجاله، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها المختار من التأويلات الفاسدة والمخاريق المموهة »[١].

وقد ورد أن المختار بعث إلى علي بن الحسين بهدايا من العراق، « فلما وقفوا على باب علي بن الحسين دخل الآذن يستأذن لهم، فخرج إليهم رسوله فقال: أميطوا عن بابي، فإني لا أقبل هدايا الكذابين ولا أقرأ كتبهم »[٢].

قال ابن حجر عنه بعد أن ذكر تأثره بالسبئية: « ولما غلب على الكوفة وتتبع قتلة الحسين فقتلهم أحبته الشيعة، ثم فارقه أكثرهم لما ظهر منه من الأكاذيب »[٣].

ويرى د. النشار أن « الخطأ الذي وقع فيه بعض مؤرخي العقائد من الشيعة وأهل السنة أنهم خلطوا بين المختار بن أبي عبيد وبين شخصية أخرى معاصرة له هي شخصية كيسان... فهو أبو عمرة السائب بن مالك الأسعدي المتوفى سنة (٦٧هـ)، وكان يجاور المختار بن أبي عبيد، وكان صاحب سره ومؤامراته، فلما قام المختار بن أبي عبيد بحركته جعله صاحب شرطته[٤]... وهو أعجمي فيما يقول الشعبي... يقول الدينوري: « إن المختار ولّى الشرطة كيسان أبا عمرة... ويرى المؤرخون أنه تجاوز المختار في القول والفعل والقتل، أي أنه غلا في عقيدته أكثر من المختار، كما أنه أيضًا غلا في قتل أعداء الحسين بن علي وقاتليه، وكان يقول: المختار وصي محمد ابن الحنفية وعامله، وكان يكفّر من تقدّم عليًا، ويكفّر أهل صفين والجمل، بينما كان المختار لا يكفّر من تقدم عليه... وأخيرًا يذكر أبو خلف[٥] والنوبختي أن أبا عمرة كان يزعم أن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره بذلك ولا يراه »[٦].

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٤٦).

(٢) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (١/٣٤١).

(٣) فتح الباري (٩/١٦٧).

(٤) أبو خلف القمي: المقالات والفرق (ص ٣١).

(٥) أبو خلف القمي: المقالات والفرق (ص ٢٢)، والنوبختي: فرق الشيعة (ص ٣٣).
وأبو الخطاب هو محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، وقف نفسه على جعفر الصادق، فلما علم الصادق بغلوه في حقه تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه، وعندها ادعى أبو الخطاب لنفسه بالإمامة، وزعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٧٩).

(٦) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٢/٥٠ - ٥٣).

وهذا الفرق بين المختار وأبي عمرة كيسان جعل د. النشار يرى « أنه لا مانع من أن يكون – حسب التقية الشيعية – محمد ابن الحنفية قد تبرأ من المختار ظاهريًا، كما تبرأ جعفر الصادق من زرارة ظاهريًا، في حين كان ابن الحنفية يضمر محبته للمختار؛ لأنه كان من أخلص رجاله »[1].

وهذا القول لا دليل عليه، وقد طوى تفاصيله التاريخ، ولا نستطيع الجزم بمثل هذا.

« وهنا نتساءل هل كان أبو عمرة حقًّا غنوصيًا وهل كان على صلة بجماعات ثنوية ومسيحية ويهودية نفثت سمومها فيه؟ ثم حملها هو وأتباعه إلى شيعة الكوفة؛ ومن ثم نسبت إلى المختار؟ ليس لدينا نصوص قاطعة بذلك »[2]. فالأولى عدم الجزم به، وإن كان احتماله قائمًا.

وتذكر بعض المصادر – كالشهرستاني – أن المختار هو أول من قال بالبداء من الشيعة، « وإنما سار المختار إلى اختيار القول بالبداء؛ لأنه كان يدَّعي علم ما يحدث من الأحوال، إما بوحي يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليلًا على صدق دعواه، وإن لم يوافق قال: قد بدا لربكم »[3]. وتفصيل ذلك كما ذكر الإسفراييني: « اعلم أن السبب الذي جوّزت الكيسانية البداء على الله تعالى أن مصعب بن الزبير بعث إليه عسكرًا قويًّا، فبعث المختار إلى قتالهم أحمد بن شميط مع ثلاثة آلاف من المقاتلة، وقال لهم: أوحي إلي أن الظفر يكون لكم. فهُزم ابن شميط فيمن كان معه، فعاد إليه فقال: أين الظفر الذي قد وعدتنا؟ فقال له المختار: هكذا كان قد وعدني، ثم بدا [له]، فإنه ﷺ قد قال: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، ثم خرج المختار إلى قتال مصعب ورجع مهزومًا إلى الكوفة فقتلوه بها »[4].

ومما يجدر ذكره أن القول بالبداء لم ينسب فقط إلى المختار وحده، فإذا كان بعض كتّاب الفرق كالشهرستاني والإسفراييني، ينسبون بداية القول بالبداء إلى المختارية، فإن أبا حسين الملطي ينسبه إلى فرق السبئية[5]. ولا يستغرب هذا؛ ذلك أن البداء واضح في

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

(٢) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٥٣/٢).

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (١٤٦/١).

(٤) التبصير في الدين (٣٤/١)، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٣م) تحقيق: كمال يوسف الحوت.

(٥) أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع =

فكر اليهود، وابن سبأ يهودي الأصل والمذهب، فقد جاء في سفر التكوين: « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه »[(١)].

وهكذا يلتقي الرأيان على أن أصل الفكرة يهودي محض؛ ولذلك يرى د. النشار أن البداء عند المختار فكرة يهودية، ويذكر د. إحسان إلهي أن البداء من الأفكار التي روجها اليهود في المجتمع المسلم[(٢)].

٢ - أشهر الكذابين والوضاعين الذين حذّر منهم أئمة أهل البيت:

ونحن هنا لا نتحدث عن رجال الشيعة الذين يعتبرهم الاثنا عشرية من رجالهم؛ بل نتحدث عن الذين كذّبهم الأئمة وتبرأوا منهم؛ لما كانوا يقومون به من تزييف وتدجيل وكذب، إذ لم يكن ابن سبأ وحده يكذب على الأئمة ويبتدع العقائد ويدسها بين المسلمين، ويخدع الناس باسم التشيع؛ بل كان هناك عدد من هؤلاء الكذابين ورد ذكرهم في كتب الإمامية؛ منهم:

- **أبو الخطاب محمد بن مقلاص الأسدي الكوفي:**

يعدّ من أشهر الغلاة، كان يدّعي اتباع الإمام الصادق، ثم كذب وافترى على لسانه، فلعنه الصادق وتبرأ منه. فعن عيسى شلقان قال: كنت قاعدًا فمرّ أبو الحسن موسى عليه السلام ومعه بهمةٌ قال قلت: يا غلام! ما ترى ما يصنع أبوك؟ يأمرنا بالشيء ثمّ ينهانا عنه، أمرنا أن نتولّى أبا الخطّاب ثمّ أمرنا أن نلعنه ونتبرّأ منه. فقال أبو الحسن عليه السلام وهو غلامٌ:.. كان أبو الخطّاب ممّن أعير الإيمان »[(٣)].

= (ص ١٩) المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٧٧م)، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري. حيث قال بعد تعداده فرق السبئية: « هؤلاء الفرق كلهم يقولون بالبداء وأن الله تبدو له البداوات، وكلامًا لا أستجيز شرحه في كتاب ولا أقدم النطق به، وهؤلاء كلهم أحزاب الكفر وفرق الجهل، فمتى لم يقروا بموت محمد وعلي عليهما السلام فالضرورة إلى المكابرة، وأينما كانوا لا حجة لهم. وأما قولهم: إن عليًا هو الإله القديم فقد ضاهوا بذلك قول النصارى ».

(١) سفر التكوين (٦/٦ - ٨).

(٢) نشأة الفكر الفلسفي (٥٨/٢)، د. إحسان إلهي ظهير: الشيعة والسنة (ص ٥٥)، توزيع دار الأنصار - القاهرة (١٩٧٩م)، وانظر للتوسع: د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٤٢٧).

(٣) أصول الكافي (٣٩٧/٢) كتاب الإيمان والكفر باب المعارين. قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

وقال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين؛ فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام وقال لي: إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن؛ فإنا إن تحدّثنا حدّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنّة، إنا عن الله وعن رسوله نحدث، ولا نقول: قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إن كلام آخرنا مثل كلام أولنا، وكلام أولنا مصداق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليه وقولوا: أنت أعلم وما جئت به، فإن مع كل قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك قول الشيطان » [(١)].

ومن الكتّاب من يعقد شبهًا بين حركة المختار الثقفي وانقطاعه لمحمد ابن الحنفية، وأبي الخطاب وانقطاعه لجعفر، بل هناك تشابه بين الرجلين وأطماعهما وأفكارهما؛ فكلاهما اشتهر عنه البداء، وزاد أبو الخطاب القول بنظرية الإمام الصامت بجانب الإمام الناطق، وأنه الإمام الصامت وجعفر بن محمد الإمام الناطق، كما ادعى أنه يتصور بأي صورة شاء ومنها صورة جعفر [(٢)].

أما عن موقف جعفرٍ من حركة أبي الخطاب: « فبلغ أمره جعفر بن محمد فلم يقدر عليه أكثر من لعنه، وتبرأ منه وجميع أصحابه فعرفهم بذلك، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه » [(٣)]. ولكن يرى د. النشار أن تبرؤ جعفر منه كان ظاهريًّا، وكانت هذه خطة جعفر الصادق وهي إعلان التبرّي من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه، وقد فعل هذا مع زرارة بن أعين، وهو من أصحابه المقربين ورواته

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢/٢٥٠)، مؤسسة الوفاء بيروت، الطبعة الثانية المصححة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، وعند الطوسي: اختيار معرفة الرجال. وهو تهذيب رجال الكشي: فيه ذكر المغيرة فقط دون أبي الخطاب (٢/٤٩١)، ولكن ثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٢/٥٨٤)، مؤسسة آل البيت – قم.

(٢) انظر: القمي: المقالات والفرق (ص ٥١)، د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٣ – ٢٣٧).

(٣) القاضي النعمان، نعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي (ت ٣٦٢هـ): دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١/٤٩، ٥٠)، دار المعارف (١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م). تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي.

المكثرين [١]. ويستدل على ذلك بأن أصحاب أبي الخطاب قالوا بعد مقتله: في تأويل قوله تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا.. ﴾ [الكهف: ٧٩] أن السفينة أبو الخطاب، وأن المساكين أصحابه، وأن الملك الذي وراءهم هو عيسى ابن موسى العباسي قاتل أبي الخطاب، وأن جعفرًا الصادق أراد أن يعيبهم بلعنهم في الظاهر، وفي الباطن يعني أضدادهم ومن خالفهم [٢].

ولكن هذا بعيد؛ لأن جعفرًا وإن لعن زرارة، لكنه لم يتهمه بالكذب عليه، ثم إن أبا الخطاب اشتهر عنه الفسوق وتحليل ما حرمه اللّه، وإسقاط فرائض اللّه ﷻ، وهو أمر اشتهر عنه حتى عند كتّاب غير أهل السنة، وقد « كتب أبو عبد اللّه إلى أبي الخطاب: بلغني أنك تزعم أن الزنى رجل، وأن الخمر رجل، وأن الصلاة رجل، وأن الصيام رجل، وأن الفواحش رجل، وليس هو كما تقول.. » [٣].

قال القاضي النعمان الإسماعيلي عن أبي الخطاب: « وادعى النبوة وزعم أن جعفر ابن محمد إله، ثم استحل المحارم كلها ورخّص فيها، ويذكر أن أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه، وقالوا: يا أبا الخطاب خفف علينا فيأمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور، وقال: من عرف الإمام فقد حل له كل شيء حرم عليه » [٤].

وهذا شأن جميع المنحرفين من عهد مسيلمة إلى قيام الساعة؛ إذ الهوى يدفعهم إلى ترك الفرائض ويحضهم على انتهاك الحرمات. وصدق رسول اللّه ﷺ عندما قال: « **إن بين يدي الساعة نحوًا من ثلاثين دجّالاً كذّابًا** » [٥]. وسنرى أن فكر أبي الخطاب والخطابية سيتغلغل إلى الإسماعيلية؛ حيث آمنوا أن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل، وليس موسى (إمام الاثني عشرية بعد جعفر)، حتى صارت الخطابية مرادفة للإسماعيلية، يقول النوبختي: « وأما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب.. » [٦].

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

(٢) انظر: القمي: المقالات والفرق (ص ٥٥)، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

(٣) رجال الكشي (ص ٢٩١)، بحار الأنوار (٢٤/٢٩٩).

(٤) القاضي النعمان: دعائم الإسلام (١/٥٠).

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد (٢/١١٧)، مسند عبد اللّه بن عمر، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٦) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٦٩). انظر: د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٨).

- **المغيرة بن سعيد:**

ولقد كان المغيرة بن سعيد كذابًا ساحرًا. وقال الجوزجاني: قُتل المغيرة على ادعاء النبوة. كان أشعل النيران بالكوفة على التمويه والشعبذة حتى أجابه خلق. وقال أبو معاوية: قال الأعمش: أول من ينتقص أبا بكر وعمر: المغيرة المصلوب. وقال ابن عدي: لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد فيما يروى عنه من الزور عن علي ﷺ، هو دائم الكذب على أهل البيت، ولا أعرف له حديثًا مسندًا، حكى ابن حزم مذهبه ولعَنه. قتله خالد بن عبد الله القسري في حدود العشرين ومائة [١].

وعن هشام بن الحكم أنه سمع جعفر الصادق عليه السلام يقول: « لا تقبلوا علينا حديثًا إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهدًا من أحاديثنا المتقدمة؛ فإن المغيرة ابن سعيد - لعنه الله - دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا ﷺ، فإنا إذا حدثنا قلنا: قال الله ﷻ، وقال رسول الله ﷺ » [٢].

وإذا كان أئمة أهل البيت قد حذّروا من المغيرة بن سعيد وأمثاله، فإن رواة الحديث من أهل السنة قد علموا حاله وحال أمثاله وحذروا منهم؛ مما يدل على اتفاق أئمة أهل البيت وعلماء أهل السنة في المنهج العقدي والفكري في موقفهم من الغلاة؛ ففي صحيح مسلم قال « إبراهيم - وهو أحد رواة الحديث -: إياكم والمغيرة بن سعيد وأبا عبد الرحيم فإنهما كذابان » [٣].

وقد تخوّض المغيرة بن سعيد في كتاب الله تعالى، يتأوّله تأويلًا باطنيًا متعسفًا؛ فقوله

---

(١) كتاب المجروحين - ابن حبان: (٣ ٧)، تحقيق محمود إبراهيم زايد وانظر: الذهبي: ميزان الاعتدال (١٦١/٤) دار المعرفة - بيروت، وابن حجر: لسان الميزان (٧٦/٦)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (١٣٩٠هـ).

(٢) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٤٨٩/٢)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٥٠/٢).

(٣) صحيح مسلم: مقدمة مسلم (٥٩/١) رقم الحديث (٥٠)، دار المعرفة بيروت (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥)، (ط٢). كما هناك حديث آخر يحذر من جابر الجعفي وهو راوي الشيعة المعروف: قال جرير: « لقيت جابر بن يزيد الجعفي، فلم أكتب عنه كان يؤمن بالرجعة ». المصدر السابق (٦٠/١)، رقم (٥٢)، وفي حديث آخر عن سفيان: « كان الناس يحملون عن جابر قبل أن يظهر ما أظهر فلما أظهر ما أظهر اتهمه الناس في حديثه وتركه بعض الناس، فقيل له: وما أظهر، قال: الإيمان بالرجعة ». مقدمة صحيح مسلم (٦١/١) رقم الحديث (٥٥)، وكان جابر يقول: « عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر عن النبي ﷺ كلها »!. المصدر السابق رقم (٥٦).

تعالى: « ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠] عند المغيرة: فاطمة، ﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾: الحسن والحسين، ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾: فلان، ﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾: فلان »[(١)] ينتقص من أبي بكر وعمر ﵄، « وسيوجد تأويل هذه الآية بهذه الصورة نفسها عند غلاة الإسماعيلية »[(٢)].

- **بيان بن سمعان:**

وكان مع المغيرة بن سعيد في أفكاره، بل وزاد عليها، وقد صلب معه، كان يقول: « يفنى اللّٰه كله ويبقى وجهه » تعالى اللّٰه عن ذلك علوًّا كبيرًا، وكان يرى نفسه المقصود بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]؟!!.

وكان بيان يثبت للّٰه تعالى الأعضاء والجوارح، ثم شبّه اللّٰه بإنسان نوراني ذي جسد، وقرر أن علي بن أبي طالب قد حلّ فيه جزء إلهي واتحد بجسده - وهذه فكرة مسيحية - وأنه كان يعلم الغيب[(٣)].

قال أبو الحسن الرضا ﵇: « كان بيان يكذب على علي بن الحسين ﵇ فأذاقه اللّٰه حر الحديد. وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر ﵇ فأذاقه اللّٰه حر الحديد، وكان محمد بن بشير يكذب على أبي الحسن موسى ﵇ فأذاقه اللّٰه حر الحديد، وكان أبو الخطاب يكذب على أبي عبد اللّٰه ﵇ فأذاقه اللّٰه حر الحديد، والذي يكذب عليّ محمد بن فرات. قال أبو يحيى: وكان محمد بن فرات من الكتّاب، فقتله إبراهيم ابن شكلة[(٤)] »[(٥)].

- **أبو منصور العجلي:**

وكذلك ظهر أبو منصور العجلي المصلوب في الكوفة (عام ١٢١هـ) وهو الملقب

---

(١) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان (٦/٧٥ - ٧٨) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (ط٣)، (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، تحقيق دائرة المعارف الهند.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٨٢).

(٣) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (ص ١٤٢).

(٤) هو إبراهيم بن المهدي بن المنصور، وشكلة أمه. بويع له بالخلافة ببغداد، في أيام المأمون، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه، وكان أسود حالك اللون، ولم ير في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانًا، ولا أجود شعرًا (انظر: تاريخ بغداد: ٦/١٤٢).

(٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (وهو تهذيب رجال الكشي) (٢/٥٩١) وثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٢/٥٨٤)، مؤسسة آل البيت قم، وانظر: بحار الأنوار للمجلسي (٢/٢٥٠).

بالكسف وكان يقول: إنه المراد بقول الله ﷻ: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾ [الطور: ٤٤]، « وكان لعنه الله يقول: إنه عرج به إلى السماء، وإن الله تعالى مسح رأسه بيده، وقال له: ابني اذهب فبلغ عني » [(١)] مما يذكرنا بما قاله شاؤول بولس مبدّل دين النصارى عندما زعم أن الرب تعالى تجلّى له في طريقه « بينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نور من السماء قد سطع حوله، فسقط إلى الأرض، وسمع صوتًا يقول له: « شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ » فقال: « من أنت يا رب؟ » قال: « أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل » [(٢)].

فالفرق أن أبا منصور حرّف نص الإنجيل، وجعل نفسه عارجًا إلى السماء، « وكان لعنه الله يقول بأن أول من خلق الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام ثم علي بن أبي طالب » [(٣)] وهذا يدل على تأثير النصرانية فيه، وأخذ يفسر الآيات على طريقة الغنوصيين الباطنية، فأباح « المحرمات من الزنى والخمر والميتة والخنازير والدم وقال: إنما هم أسماء رجال.. » [(٤)].

وهناك ثلاث ملاحظات يجدر ذكرها عند الحديث عن هؤلاء الغلاة والكذّابين:

الملاحظة الأولى: اتحاد موقف حكّام المسلمين وعلمائهم مع موقف أئمة آل البيت في وجه هؤلاء الزنادقة والكذابين على الأئمة؛ فلقد لاحظنا أن علماء المسلمين لم يقصّروا في بيان كذب أولئك الدجالين على الأئمة، وأفتوا بزندقتهم، كما أن حكام المسلمين من أهل السنة لم يتركوا هؤلاء الزنادقة يرتعون ويفسدون بل كانوا على موقف الصرامة معهم دفاعًا عن العقيدة؛ فكل من كذب على الأئمة ذاق حرّ الحديد أي السجن، أما سمعان والمغيرة وأبو الخطاب فكان مصيرهم الموت جزاء وفاقًا. فلا بد للعقيدة من علماء يدافعون عنها، ويبينون زيف الزائفين، ولا بد لها من حكّام مخلصين يذودون عن التوحيد ويحمون بسطاء الأمة من الكاذبين والمدجّلين، وبهذا نعلم أن موقف أئمة أهل البيت جاء مع مواقف علماء المسلمين وحكام المسلمين على جادة واحدة بيّنة واضحة.

الملاحظة الثانية: توالد فرق الغالية واستمرار ظهورها:

إن حركة التدجيل هذه لم تنته، وسيبقى الزمن شاهدًا على وجود دجالين يستغلون

---

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٤١).

(٢) الكتاب المقدس – مجمع الكنائس الشرقية أعمال الرسل (ص ٣٩٦)، الفقرات (٣ – ٦).

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٤١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

بعض عقائد المسلمين للوصول إلى أهدافهم، فكما خرج أبو الخطاب وأصحابه في عهد الباقر والصادق - رحمهما اللَّه تعالى - فقد خرج من بعدهم محمد بن نصير الفهري النميري والحسن بن محمد بن بابا القمي من عباءة التشيع أيضًا؛ وذلك في زمن الإمام الحادي عشر علي بن محمد أبي الحسن العسكري.

أما محمد بن نصير الفهري النميري فكان يدعي ربوبيّة العسكري، وأنه أرسله للناس نبيًا رسولًا، وكان يقول بالتناسخ وإباحة المحارم، ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضًا، ويقول: إنه من الفاعل والمفعول به أحد الشهوات والطيبات [(١)]!؛ ولذلك قال المجلسي عن أتباعه: « وهم قوم إباحية، تركوا العبادات والشرعيات، واستحلوا المنهيات والمحرّمات » [(٢)].

وقد تطورت هذه الفرقة في العصر الحديث، فظهر منها زعيم ادعى الألوهية، وما يزال له أتباع اليوم ينتمون إليه، ويعبدون أولاده من بعده. وفي هذا العصر عصر النور والدعوة يرجع كثير منهم إلى الحق والصواب، ويتخلى عن تلك المعتقدات الفاسدة، ويؤوب إلى الإسلام الحق. نسأل اللَّه هداية الجميع.

وأما الحسن بن محمد بن بابا القمي فقد ادعى النبوّة.

وقد تبرّأ الإمام العسكري منهما قائلًا لأحد أتباعه: « أبرأُ إلى اللَّه من الفهري والحسن ابن محمد بن بابا القمي، فابرأْ منهما؛ فإني محذّرك وجميع مواليّ، وإني ألعنهما، عليهما لعنة اللَّه، مُشتأكلين يأكلان بنا الناس، فتّانين مؤذيين آذاهما اللَّه وأركسهما في الفتنة ركسًا. يزعم ابن بابا أني بعثته نبيًا وأنه باب، ويله! لعنه اللَّه، سخر منه الشيطان فأغواه، فلعن اللَّه مَنْ قَبِل منه ذلك، يا محمد، إن قدرت أن تشدخ رأسه بحجر فافعل؛ فإنه قد آذاني آذاه اللَّه في الدنيا والآخرة » [(٣)].

- وكذلك خرجت الشيخية [(٤)] الغالية من داخل المذهب الشيعي، وقد خصّت

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٣١٧/٥٢، ٣١٨)، الطوسي: رجال الطوسي (ص ٣٩٢)، وانظر في ذم هذه الفرقة: ابن شهراشوب: مناقب آل أبي طالب (٢٢٨/١)، المطبعة الحيدرية النجف (١٣٧٦هـ).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٥/٥٢).

(٣) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٨٠٥/٢)، النوري الطبرسي: خاتمة مستدرك الوسائل (١٤١/٤)، مؤسسة آل البيت، قم، (١٤١٦هـ).

(٤) هو مذهب من الاثني عشرية يخص أتباعه الإمام الاثني عشر المستور وباقي الأئمة بالقداسة الزائدة، وهم من الغلاة، جاء في مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا: « هم أتباع الشيخ أحمد الإحسائي؛ وهم كريم خان القاجار والسيد كاظم الرشتي، وهم من غلاة الشيعة، ابتدعوا فيها فلسفة جديدة خيالية كانت المنشأ لِما هو شر =

الإمام المهدي المنتظر المستور بهالة زائدة من التقديس [(١)]، وقد استغلت البابية والبهائية هذا التقديس للمهدي المنتظر، فظهرتا إلى الوجود.

فقد نسبت البابية إلى الميرزا علي محمد الذي أطلق على نفسه الباب؛ فسمي أتباعه البابية، وقد ولد ميرزا علي محمد في مدينة شيراز من أبوين منتسبين للتشيع عام (١٢٣٥هـ / ١٨١٩م)، وزار الأماكن المقدسة عند الشيعة في العراق، واستقر بكربلاء، وتتلمذ في مدرسة الشيخية على يد الشيخ كاظم الرشتي الذي كان يبشر بقرب ظهور المهدي، وبعد موت الرشتي، استغل ميرزا علي محمد بشارة أستاذه فادعى أنه الباب - وهو مصطلح إسماعيلي أطلقوه على الشيخ الأساس الذي يعلم الناس أسرار الدعوة - ثم أطلق ميرزا على نفسه لقب المهدي ذاته، ثم ادعى النبوة، ونسخ الشريعة المحمدية، وأنكر اليوم الآخر، ونادى بالإباحية والحلول، وقد مال إلى دعوته بسطاء العقول. وقد حكم العلماء بكفره؛ ولذا أعدمه شاه إيران نصّار الدين عام (١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م) [(٢)].

وبعد وفاته خلفه الميرزا حسين الملقب بالبهاء صاحب دعوة البهائية، والذي ادعى الوحي والوحدة مع الله تعالى، ثم ادعى الإلهية، وقد جاءت البهائية لتطور فكر البابية وتوسع دائرة توسعها في العالم [(٣)].

إن توالي هؤلاء الدجّالين الكذابين جاء كما أخبر النبي ﷺ؛ فعن عبد الله بن عمر ﵄ أنه كان عنده رجل من أهل الكوفة « فجعل يحدّثه عن المختار فقال ابن عمر: إن كان كما تقول؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن بين يدي الساعة ثلاثين دجّالًا كذّابًا** » [(٤)].

الملاحظة الثالثة: أن كل دعوة ضالة مضلة مهما سخفت آراؤها لا بد أن يكون لها أتباع وشيعة، رغم بطلانها ووضوح فسادها!، ويتدخل في هذا عوامل متعددة، ليس هذا مكان بيانها، وإن المرء ليستغرب من ظهور آراء فاسدة إلى درجة الإسفاف كآراء

= منها وهو فتنة البابية والبهائية، والأصل لذلك كله ضلالات قدماء الباطنية ». مجلة المنار مجلد (١٣)، (٢١٨/٣)، عدد فبراير (١٩١٤م) ربيع الأول (١٣٣٢هـ).

(١) انظر: العقيدة والشريعة جولد تسيهر (ص ٢٧٠).

(٢) د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٢٦٩)، وانظر: أحمد صبحي: نظرية الإمامة (ص ٤٣٥)، الشيخ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية (ص ٢١١).

(٣) انظر: د. فتحي محمد الزغبي: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٢٧٠ - ٢٩٧).

(٤) مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن عمر ﵄: (١١٧/٢)، دار صادر - بيروت.

التجسيم والحلول، ويأخذه العجب أكثر أن تجد هذه الدعوات بعض الأتباع السذّج - على ندرتهم - في المجتمع المسلم في قرونه الأولى. ولكن لا مغير لقضاء اللّه تعالى.

والسؤال الذي يبحث عن جواب في هذا المضمار:

هل أثّر فكر السبئية والمختارية وغيرهم من الغلاة في فكر الاثني عشرية، أم هل تخلص الفكر الشيعي في أقسامه المختلفة من أفكار هؤلاء الغلاة؟

هذا ما ستجيب عنه تتمة الكتاب.

* * *

المَبحَثُ الثَّالِثُ

رجال الشيعة الأوائل بين الغلو والاعتدال

ما دمنا نتحدث في الإطار التاريخي للتشيع؛ فلا بد لنا من الاطلاع على أهم الشخصيات التي قام عليها المذهب؟ والتي أثرت في نشوئه وتطوره حتى وصل إلى ما وصل إليه لدى الشيعة الاثني عشرية. وليس الحديث هنا عن الأئمة الاثني عشر الذين يدعي الشيعة عصمتهم؛ فهؤلاء في الفكر الإمامي ليسوا محل نقاش، إنهم أسّ المذهب، وما يصح عنهم فهو وحي يجب اتباعه لدى الاثني عشرية [١]. ولكن الحديث عمن دونهم من شخصيات المؤسسين للفكر الشيعي، والمؤرخين الناقلين للوقائع التاريخية التي تأثرت بها عقائد الشيعة عبر الزمن.

ومن أجل ذلك يتعرض البحث لنماذج شيعية كان لها أثر بالغ في التشيع، سواء في إطار التأصيل العقدي للمذهب - وهذا يتعلق بأشهر متكلمي ومفكري الشيعة الأوائل أو في إطار الرواية للوقائع التاريخية - وهو يتعلق برواة الشيعة ومحدثيهم. هذه النماذج التي كان لظهورها في ساحة التاريخ الأثر الفعال في ظهور فكر الشيعة وتطوره.

أشهر متكلمي الشيعة:

ومما لا خلاف فيه أن عهد جعفر الصادق يمثل العصر الذهبي العلمي لتوطيد المذهب الاثني عشري، ويشهد لهذا استقراء روايات كتب الحديث الشيعية؛ حيث مدار أغلبها على أقوال الإمام جعفر الصادق أبي عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد كان حوله تلامذة نقلت عنهم كتب الحديث الشيعية آراءً وأفكارًا، كما نقلت عنهم أقوال أئمتهم.

فهشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي وشيطان الطاق [٢] - هؤلاء هم أشهر متكلمي الشيعة المنسوبين إلى الإمام جعفر الصادق، قال

---

(١) كما سنرى في الفصل القادم: مصادر تلقي العقيدة.

(٢) وصاحب الطاق، ومؤمن الطاق هي ألقاب لشخص واحد يسميه أهل السنة: شيطان الطاق، والأحول، وهو محمد بن علي بن النعمان أو جعفر الأحول (ت ١٦٠هـ) قال ابن حجر: « قيل: إن هشام بن الحكم شيخ الرافضة لما بلغه أنهم لقبوه شيطان الطاق سماه هو مؤمن الطاق ». ومما ذكر ابن حزم عن الجاحظ قال:=

الرازي: « هؤلاء رؤساء علماء الروافض » [١].

أما هشام بن الحكم فهو الشيباني بالولاء الكوفي، أبو محمد، متكلم مناظر، وشيخ الإمامية في وقته، ولد بالكوفة ونشأ بواسط، وسكن بغداد، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي. « وكان عارفًا بصناعة الكلام، له فيه مصنفات كثيرة، وكان من أصحاب جعفر بن محمد الصادق، ومات بعد نكبة البرامكة بمديدة مستترًا، ويقال: عاش إلى خلافة المأمون » [٢]، « توفي حوالي عام (٢٠٠هـ)، وهو أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وله مؤلفات عديدة تناول فيها الكثير من المواضيع الكلامية، وكثير منها يردّ على أصحاب المقالات والفرق » [٣]، ويردّ في بعضها على أقرانه من الشيعة كهشام الجواليقي.

ويقول عبد الله نعمة - من علماء الشيعة المعاصرين -: إن « هشام بن سالم الجواليقي يلتقي مع هشام بن الحكم في كثير من الآراء، ويكونان معًا مدرسة خاصة عرفت بالهشامية » [٤]، وقد ذكر الإسفراييني أن « هشام بن الحكم قد كان يوافق هشامًا الجواليقي في كثير من بدعه » [٥]. وهذا لا يعني أنهما شيء واحد؛ فقد ثبت أن هشام بن الحكم اختلف مع الجواليقي في بعض المسائل، فألف كتابًا أسماه: (الرد على هشام الجواليقي)، وكذلك اختلف مع رفيق دربه في المذهب شيطان الطاق فألف كتابًا أسماه (الرد على شيطان الطاق) [٦].

= « أخبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنهما قالا لجعفر الرافضي المعروف بشيطان الطاق: ويحك! أما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة: إن الله تعالى لم يقل قط في القرآن: ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة : ٤٠]؟!. قالا: فضحك والله شيطان الطاق طويلًا حتى كأنّا نحن الذين أذنبنا » الفصل (٣٩/٥)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٥٣/١).

(١) الرازي (محمد بن عمر بن الحسين الرازي أبو عبد الله): اعتقادات المسلمين والمشركين (٦٤/١)، دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٢هـ)، تحقيق: علي سامي النشار.

(٢) انظر: ابن حجر: لسان الميزان (١٩٤/٦)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت الطبعة الثالثة، (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م)، الزركلي: الأعلام (٨٥/٨).

(٣) عبد الله نعمة: فلاسفة الإسلام (ص ٤٥).

(٤) عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٤٥). وانظر الشهرستاني الملل والنحل (١٠٧/١).

(٥) طاهر بن محمد الإسفراييني: تبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، الناشر: عالم الكتب - بيروت الطبعة الأولى (١٩٨٣م) تحقيق: كمال يوسف الحوت.

(٦) انظر: الزركلي: الأعلام (٨٥/٨).

ولأجل ذلك تشظّت آراء هؤلاء الأربعة؛ حتى صار كل واحد منهم يشكل فرقة خاصة به، بعيدة كل البعد عن منهج أئمة أهل البيت، فصار من فرق الشيعة: « الحكمية: وهم أصحاب هشام بن الحكم:... الجواليقية: أتباع هشام بن سالم الجواليقي الرافضي... اليونسية: أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي... الشيطانية أتباع شيطان الطاق »! [(١)].

هشام بن الحكم: نشأته وعلومه الفلسفية:

وإذا وضعنا مجهر البحث على نشأة وعلوم أنموذج من نماذج هؤلاء التلاميذ، وهو أشهرهم، حتى عدّه عبد الله نعمة من فلاسفة الإسلام: هشام بن الحكم - نلاحظ أن هشام قد نشأ في بيت من بيوت الثنوية [(٢)] الملحدة الديصانية [(٣)]. كما جاء في رجال الكشي: « هشام بن الحكم من غلمان أبي شاكر، وأبو شاكر زنديق » [(٤)].

وقد مر فكر هشام بعدة مراحل؛ إذ « نشأ هشام بن الحكم في الكوفة أولًا جهميًّا، فتابع آراء جهم بن صفوان،... ثم قابل علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار (ت ١٧٩هـ)... سكن البصرة، وكان من كبار متكلمي الروافض - وكان مجسمًا أيضًا كما سيأتي - وأول من كتب منهم كتبًا، وقد ناظر أبا الهذيل عند أمير البصرة، ثم قابله هشام بن الحكم، وحضر مجالسه، وقد كان علي بن إسماعيل أول من وجّه هشامًا إلى المذهب الإمامي، وسيسير على نهجه فيما بعد ويناقش المعتزلة نقاشًا عنيفًا » [(٥)].

« فيبدو من ثبْت كتبه أنه درس كل ما في عصره من فلسفات ومذاهب، وأنه تعمق فيها أكثر من جميع معاصريه، فله كتب في الرد على الزنادقة والثنوية، كما أن له كتابًا

---

(١) الرازي: اعتقادات المسلمين والمشركين (٦٣/١ - ٦٥)، وانظر: الإسفراييني: التبصير في الدين (ص ٤٠).

(٢) هم الذين اتخذوا إلهين اثنين، فقالوا: أحدهما: خالق الخير، والآخر: خالق الشر. وعبر بعضهم عن خالق الخير بـ « يزدان » وعن خالق الشر بـ « أهرمن ». وبعضهم عن خالق الخير بـ « النور » وعن خالق الشر بـ « الظلمة ». وهؤلاء الثنوية خمسة أصناف: مانوية، وديصانية، ومرقيونية، وماهانية، ومجوس.

(٣) وهم طائفة من الثنوية، قال الشهرستاني: « الديصانية: أصحاب ديصان. أثبتوا أصلين: نورًا وظلامًا، فالنور: يفعل الخير قصدًا واختيارًا، والظلام: يفعل الشر طبعًا واضطرارًا ».، وذكر أن ديصان أقدم من ماني، وأن ماني أخذ منه مذهبه. الملل والنحل (٢٣٠/١ - ٢٣٢)، والتبصرة للنسفي (١٠٠/١).

(٤) رجال الكشي (ص ٢٧٨).

(٥) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٧١/٢). وانظر: المسعودي: حيث ذكر نقاشات أبي الهذيل مع هشام وقال: « قد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام بن الحكم الكوفي الحرار، وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة في وقته ممن وافقه على مذهبه... [ولكنّ] أبا الهذيل يذهب إلى نفي التجسيم ورفع التشبيه، وإلى ضد قول هشام في التوحيد والإمامة ».

في الرد على أصحاب الطبائع، ومن المحتمل أن تكون كتب أرسطوطاليس قد وصلته... وأنه بهر الإمام جعفرًا الصادق بما لديه من معرفة واسعة، وأنه عاصر حركة الترجمة التي بدأها المنصور ورعاها الرشيد، ثم بلغت أوجَها لدى المأمون، وقد كان منقطعًا إلى يحيى ابن خالد البرمكي، والبرامكة اعتنوا بالعلم القديم وساعدوا على نقله » [1]، والبرامكة نسبوا إلى الزندقة بسبب ذلك - على حدّ قول ابن قتيبة -: « البرامكة كانوا يُرمون بالزندقة إلا من عصم اللّٰه تعالى منهم، وفيهم قال الأصمعي:

إذا ذكر الشرك في مجلس　　　أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية أتوا　　　بالأحاديث عن مزدك » [2]

وهذه نصوص من كتب الحديث الشيعية تثبت ما كان عليه هذا الرجل من اطلاع فلسفي: عن هشام ابن الحكم قال: « الأشياء كلّها لا تدرك إلا بأمرين بالحواسّ والقلب، والحواسّ إدراكها على ثلاثة معانٍ: إدراكًا بالمداخلة وإدراكًا بالمماسّة وإدراكًا بلا مداخلةٍ ولا مماسّةٍ... وأمّا الإدراك بلا مماسّةٍ ولا مداخلةٍ فالبصر فإنّه يدرك الأشياء بلا مماسّةٍ ولا مداخلةٍ في حيّز غيره ولا في حيّزه، وإدراك البصر له سبيلٌ وسببٌ فسبيله الهواء وسببه الضّياء، فإذا كان السّبيل متّصلًا بينه وبين المرئيّ والسّبب قائمٌ أدرك ما يلاقي من الألوان والأشخاص، فإذا حمل البصر على ما لا سبيل له فيه رجع راجعًا فحكى ما وراءه، كالنّاظر في المرآة لا ينفذ بصره في المرآة، فإذا لم يكن له سبيلٌ رجع راجعًا يحكي ما وراءه، وكذلك النّاظر في الماء الصّافي يرجع راجعًا فيحكي ما وراءه؛ إذ لا سبيل له في إنفاذ بصره، فأمّا القلب فإنّما سلطانه على الهواء، فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهّمه، فإذا حمل القلب على ما ليس في الهواء موجودًا رجع راجعًا فحكى ما في الهواء. فلا ينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ما ليس موجودًا في الهواء من أمر التّوحيد جلّ اللّٰه وعزّ، فإنّه إن فعل ذلك لم يتوهّم إلا ما في الهواء موجودٌ كما قلنا في أمر البصر، تعالى اللّٰه أن يشبهه خلقه » [3].

فنلاحظ من هذا النص ما كان عليه هشام من معرفة بالفلسفة ومصطلحاتها، وأنه أراد الاستفادة منها في قضية التوحيد وتنزيه اللّٰه تعالى، كما في هذه الرواية على الأقل.

---

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/ ١٧٠).

(٢) ابن قتيبة: المعارف (ص ٣٨٢)، وقد نسبه له عباس القمي: الكنى والألقاب (١/ ٢٧٨).

(٣) أصول الكافي (١/ ١٥٣)، كتاب التوحيد باب في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وتذكر إحدى الروايات اللحظة الأولى من لقاء هشام بالإمام جعفر الصادق، وأنه وسّع له في حلقته رغم صغر سنه: « فورد هشام بن الحكم وهو أوّل ما اختطّت لحيته وليس فينا إلا من هو أكبر سنًّا منه، قال: فوسّع له أبو عبد اللّه عليه السلام وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده »(١).

وفي أصول الكافي أيضًا أن جعفرًا الصادق أوكل تعليم الزنديق الذي أسلم على يديه إلى هشام: « يا هشام بن الحكم! خذه إليك وعلمه، فعلّمه هشام؛ فكان معلّم أهل الشام وأهل مصر الإيمانَ، وحسنت طهارته »(٢).

وتذكر إحدى الروايات أن الإمام جعفرًا شجّع هشامًا على جدال المخالفين، ودعا له بالتثبيت:

عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبد اللّه عليه السلام عن أسماء اللّه واشتقاقها... (ثم قال له:) « فهمت يا هشام فهمًا تدفع به وتناضل به أعداءنا والمتّخذين مع اللّه جلّ وعزّ غيره؟ قلت: نعم. قال: فقال: نفعك اللّه به وثبّتك يا هشام! قال هشامٌ: فواللّه! ما قهرني أحدٌ في التّوحيد حتّى قمت مقامي هذا »(٣).

وقد ثبت في روايات الشيعة أن هشامًا كان يناقش ويجادل الملاحدة، ومنهم عبد اللّه الديصاني الملحد الذي نشأ هشام في كنفه(٤).

عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكرٍ الدّيصانيّ: « إنّ في القرآن آيةً هي قولنا. قلت: ما هي؟ فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ.. ﴾ [الزخرف: ٨٤]. فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبّرت أبا عبد اللّه عليه السلام فقال: هذا كلام زنديقٍ خبيثٍ، إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنّه يقول: فلانٌ. فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فإنّه يقول فلانٌ: فقل: كذلك اللّه ربّنا في السّماء إلهٌ، وفي الأرض إلهٌ، وفي البحار إلهٌ، وفي القفار إلهٌ، وفي كلّ مكانٍ إلهٌ. قال فقدمت فأتيت أبا شاكرٍ فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز »(٥).

وأنه كان يناقش المعتزلة كعمرو بن عبيد والعلاف، فقد ذكر الشهرستاني في سياق

(١) أصول الكافي (١/٢٢٥)، كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة..

(٢) أصول الكافي (١/١٣٠)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٣) أصول الكافي (١/١٤٢)، كتاب التوحيد باب المعبود.

(٤) أصول الكافي (١/١٣٥).

(٥) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد باب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤].

حديثه عن أبي الهذيل العلاف، شيخ المعتزلة: « ... وجرت بينه وبين هشام بن الحكم مناظرات في أحكام التشبيه » [(١)].

وتؤكد روايات الكافي: لقاءات هشام بالمعتزلة ومناقشاته لهم:

فعن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد اللّه عليه السلام جماعةٌ من أصحابه منهم حمران ابن أعين ومحمّد بن النّعمان وهشام بن سالم والطّيّار، وجماعةٌ فيهم هشام بن الحكم وهو شابٌّ، فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: « يا هشام، ألاَ تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيدٍ وكيف سألته؟... قال هشامٌ: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيدٍ وجلوسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقةٍ كبيرةٍ فيها عمرو بن عبيدٍ وعليه شملةٌ سوداء متّزرًا بها من صوفٍ وشملةٌ مرتديًا بها، والنّاس يسألونه، فاستفرجت النّاس فأفرجوا لي، ثمّ قعدت في آخر القوم على ركبتيّ ثمّ قلت: أيّها العالم، إنّي رجلٌ غريبٌ تأذن لي في مسألةٍ؟... فقلت له: يا أبا مروان! فاللّه تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إمامًا (وهو القلب) يصحّح لها الصّحيح ويتيقّن به ما شكّ فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم في حيرتهم وشكّهم واختلافهم لا يقيم لهم إمامًا يردّون إليه شكّهم وحيرتهم، ويقيم لك إمامًا لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك؟! قال: فسكت ولم يقل لي شيئًا، ثمّ التفت إليّ فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت لا: قال أمن جلسائه؟ قلت: لا. قال فمن أين أنت؟ قال: قلت: من أهل الكوفة، قال: فأنت إذًا هو، ثمّ ضمّني إليه وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه، وما نطق حتّى قمت. قال: فضحك أبو عبد اللّه عليه السلام وقال: يا هشام، من علّمك هذا؟ قلت: شيءٌ أخذته منك وألّفته. فقال: هذا واللّه مكتوبٌ في صحف إبراهيم وموسى » [(٢)].

وثبت في أصول الكافي أيضًا مديح الإمام الصادق لهشام بقوله: « يا هشام، لا تكاد تقع تلوي رجليك إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم النّاس، فاتّق الزّلّة. والشّفاعة من ورائها إن شاء اللّه » [(٣)].

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١/ ٢٠) دار المعرفة - بيروت (١٤٠٤هـ). وذكر ابن حجر العسقلاني أن العلاف غلب هشامًا في تلك المناظرة. انظر: لسان الميزان (٥/٤١٣)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت. وتنقل كتب الفرق - كالمقالات للأشعري - أقوالًا كثيرة منكرة ينقلها العلاف عن هشام، وقد ناظره، وكذلك على لسان الجاحظ. انظر مقالات الإسلاميين (ص ٣٢، ٣٣ - ٤١٩ - ٤٩١). (ط٣)، (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، دائرة المعرف النظامية - الهند.

(٢) أصول الكافي (١/٢٢٣، ٢٢٤) كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة.

(٣) أصول الكافي (١/٢٢٥) كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة.

ثبوت القول بالتجسيم عن هشام ورجال الشيعة الأوائل:

ورغم ما في تلك الروايات السابقة من بيان فضل لهشام وأنه كان على خط الأئمة، فإن علماء الفرق من أهل السنة يرون أنه وصف الرب ﷻ بالجسمية، حتى صار القول بالجسمية سمة رجال الشيعة الأوائل [١]. مع أن فكرة التجسيم غريبة عن المجتمع المسلم، فهي فكرة دخيلة وأجنبية عنه، « وإنما أخذوا تشبيههم من اليهود حين نسبوا إليه الولد وقالوا: عزير ابن اللّٰه. وأثبتوا له المكان والحد والنهاية والمجيء والذهاب، تعالى اللّٰه عن ذلك علوًّا كبيرًا » [٢].

والمطالع للتوراة الحالية يلاحظ كثرة التجسيم، فالرب يتمشى في الجنة كما في أول سفر التكوين [٣]، ويتشكل في شكل رجل يصارع يعقوب... إلخ [٤].

إن علماء الملل من أهل السنة قد أكّدوا أن مذاهب المجسّمة والمشبّهة انطلقت من أفواه من ادعى اتباع الأئمة، وأنهم أخذوا ذلك عن اليهود؛ فقد قال الرازي:

« الحكمية: وهم أصحاب هشام بن الحكم، وكان يزعم أن اللّٰه تعالى جسم، وغيّر مذهبه في سنة واحدة عدة تغيرات، فزعم تارة أن اللّٰه تعالى كالسبيكة الصافية، وزعم مرة أخرى أنه كالشمع الذي من أي جانب نظرت إليه كان ذلك الجانب وجهه...

الثانية الجواليقية: أتباع هشام بن سالم الجواليقي الرافضي، وهم يزعمون أنه تعالى ليس بجسم لكن صورته صورة الآدمي، وهو مركب من اليد والرجل والعين، لكن أعضاءه ليست من لحم ولا دم.

الثالثة اليونسية: أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي، وهم يزعمون أن النصف الأعلى من اللّٰه مجوف وأن النصف الأدنى منه مصمت [٥].

الرابعة الشيطانية أتباع شيطان الطاق. وهم يزعمون أن الباري تعالى مستقر على

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١٥٤/١ - ١٥٦). ومقالات الأشعري (١٠٦/١ - ١٠٩).

(٢) طاهر بن محمد الإسفراييني (ت ٤٧١هـ): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين (ص ٤١)، (ط١)، عالم الكتب بيروت (١٩٨٣م)، تحقيق كمال يوسف الحوت.

(٣) انظر: سفر التكوين الإصحاح (٣)، د. محمد علي البار: اللّٰه والأنبياء في التوراة والعهد القديم (ص ٤٦)، دار القلم - دمشق.

(٤) انظر: سفر التكوين الإصحاح (٢٣/٣٢ - ٣٢)، د. محمد علي البار: اللّٰه والأنبياء في التوراة والعهد القديم (ص ٣٠)، دار القلم - دمشق.

(٥) المصمت ما لا جوف له. انظر: لسان العرب (٥٤/٢)، مادة (ص م ت).

العرش والملائكة يحملون العرش، وهم وإن كانوا ضعفاء بالنسبة إلى اللّه تعالى، لكن الضعيف قد يحمل القوي، كرِجل الديك التي تحمل مع دقّتها جثة الديك »! [(١)].

والسؤال المهم: هل خرج كلام علماء الملل من أهل السنة عما أثبتته روايات الشيعة؟

إذا كان كتّاب الشيعة يؤكدون على روايات المديح لبعض رجال الشيعة؛ فإن هناك روايات شيعية يتجاهلونها تؤكد أن رجال الشيعة الأوائل كانوا مجسّمة مشبّهة، وأن الأئمة نفوا القول بالتشبيه والتجسيم المستشري في فكر بعض تلامذتهم وأتباعهم [(٢)]:

فعن إبراهيم بن محمّدٍ الخزّاز ومحمّد بن الحسين قالا: « دخلنا على أبي الحسن الرّضا عليه السلام فحكينا له أنّ محمّدًا ﷺ رأى ربّه في صورة الشّابّ الموفّق في سنّ أبناء ثلاثين سنةً، وقلنا: إنّ هشام بن سالم وصاحب الطّاق والميثميّ [(٣)] يقولون: إنّه أجوف إلى السّرّة، والبقيّة صمدٌ. فخرّ ساجدًا للّه ثمّ قال: سبحانك ما عرفوك ولا وحّدوك، فمن أجل ذلك وصفوك سبحانك، لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به نفسك سبحانك » [(٤)].

ولكن مفكري الشيعة يرفضون هذه الروايات، فيقولون عن هشام الجواليقي: « هشام هذا جليل القدر بريء كهشام بن الحكم عن مثل هذا القول الشنيع في حقه تعالى، والظاهر أن نسبته إليهما من مدسوسات أعداء مذهب أهل البيت (ع) للتشنيع على أصحاب الأئمة بغية الإيقاع بهم عند السلاطين. والحديث مرسل » [(٥)].

ولكن المسألة ليست مرتبطة برواية واحدة؛ فالروايات التي نسبت التجسيم إلى رجال الشيعة ليست نادرة، بل هناك عدة روايات تقارب العشرين في الكافي وحده، كثير منها أوردت ذكر الهشامين في قائمة المجسمة، فإنكار هذه الروايات كلها أمر غير مسوّغ، ثم إن القول: إن « نسبته – أي التجسيم – إليهما من مدسوسات أعداء مذهب أهل البيت » يوقع الشيعة في مشكلة أعظم، وهي عدم الوثوق بالكافي وهو أهم مرجع في الحديث عند الشيعة!.

---

(١) الرازي: اعتقادات المسلمين والمشركين (١/٦٣ – ٦٥)، وانظر: الإسفراييني: التبصير في الدين (ص ٤٠).

(٢) أصول الكافي (١/١٣٨).

(٣) ذكر محقق أصول الكافي (١/١٥٤): أن الظاهر أنه علي بن إسماعيل بن شعيب، أبو الحسن، أول من تكلم على مذهب الإمامية وكان من وجوه المتكلمين كما ذكر في جامع الرواة للأردبيلي (١/٥٥٨).

(٤) أصول الكافي (١/١٥٤)، كتاب التوحيد باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى. ولكن محقق الكتاب ضعّف الحديث دون ذكر علّته.

(٥) أصول الكافي (١/١٥٧، ١٥٨)، كتاب التوحيد باب النهي عن الجسم والصورة.

ويتهم المعتزلة هشامًا بأنه تأثر بالثنوية الملحدة الديصانية؛ إذ كان صاحبًا لأبي شاكر الديصاني، قال القاضي عبد الجبار: « هشام.. ليس من أهل القبلة، وهو معروف بعداوة الأنبياء، وقد أُخذ مع أبي شاكر الديصاني صاحب الديصانية، وكان معروفًا به وبصحبته، فادعى أنه من الشيعة، فخلصه بعض أصحاب المهدي حين ادعى أنه يتشيع لبني هاشم فلم يصلبه مع أبي شاكر » (١).

وعلاقة هشام بأبي شاكر الديصاني ثابتة في نصوص الكافي (٢)، ونظريته في نفي الأعراض وجعلها صفات للأجسام مشابهة لقول بعض الثنوية؛ فقد ذكر « أن من أهل التثنية من يثبت الأعراض من الحركات والسكون وسائر الأفعال غير الأجسام، وأن منهم من يزعم أنها صفات الأجسام لا هي الأجسام ولا غيرها » (٣). وهذا القول الأخير قريب من قول هشام في الأجسام. وهذه الأفكار كانت قد تنوقلت في المجتمع المسلم زمن هشام (٤).

في حين يرى أبو إسحاق الإسفراييني (ت ٤٧١هـ) أن اليهود هم مصدر أقوال هشام في التشبيه والتجسيم، وقد أُشربوا العجل، فالتجسيم في اليهود طباع؛ يقول أبو إسحاق: « أما الهشامية فإنهم أفصحوا عن التشبيه... وإنما أخذوا تشبيههم من اليهود » (٥).

وتنقل بعض مصادر الملل أن هشامًا قد تمادى في القول بالجسمية؛ فقد ذكر ابن حزم وغيره عن هشام أنه قال في « مناظرته لأبي الهذيل العلاف أن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه. وهذا كفر صحيح » (٦). ومن المحتمل أن يكون هذا القول من وضع المعتزلة خصوم هشام (٧)، ولكن مما لا شك فيه أن هشامًا قد أثَّر « في معاصريه من متكلمي الإمامية، فسادت النزعة التجسيمية كتاباتهم؛ فهذا هو هشام بن سالم الجواليقي ومن

---

(١) تثبيت دلائل النبوة (ص ٢٢٥).

(٢) أصول الكافي (١٣٤/١)، كتاب التوحيد باب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤].

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٤٩) وقد نقل هذا القول عن أبي عيسى الوراق.

(٤) د.علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٨٩).

(٥) طاهر بن محمد الإسفراييني (ت ٤٧١هـ): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين (ص ٤١)، (ط١)، عالم الكتب بيروت (١٩٨٣م)، تحقيق كمال يوسف الحوت.

(٦) الفصل في الملل (١٣٩/٤).

(٧) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٧٢).

تبعه « يزعمون أن ربهم على صورة الإنسان، وينكرون أن يكون لحمًا ودمًا، ويقولون: هو نور ساطع يتلألأ بياضًا، وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان، له يد ورجل وأنف وأذن وعين وفم و... أن هشام بن سالم كان يزعم أن لربه وفرة سوداء، وأن ذلك نور أسود » (١)! حتى اضطر الأئمة لإنكار هذه الأقوال المشوّهة المنبوذة. ونزّهوا اللّٰه تعالى بقولهم: « سبحانك ما عرفوك ولا وحّدوك؛ فمن أجل ذلك وصفوك، سبحانك، لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به نفسك، سبحانك » (٢).

وعلى كلٍّ فهناك روايتان تعبران عن رأي هشام بن الحكم بأن اللّٰه تعالى جسم ليس كالأجسام، وهذا ما نقله أهل السنة عن هشام أيضًا، تقول الروايتان:

عن يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد اللّٰه عليه السلام فقلت له: « إنّ هشام ابن الحكم يقول قولًا عظيمًا، إلا أنّي أختصر لك منه أحرفًا فزعم أنّ اللّٰه جسمٌ؛ لأنّ الأشياء شيئان: جسمٌ وفعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصّانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل ».

وعن الحسن بن عبد الرّحمن الحمّانيّ قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفرٍ عليه السلام: « إنّ هشام بن الحكم زعم أنّ اللّٰه جسمٌ ليس كمثله شيءٌ عالمٌ سميعٌ بصيرٌ قادرٌ متكلّمٌ ناطقٌ، والكلام والقدرة والعلم يجري مجرى واحدٍ ليس شيءٌ منها » (٣).

ولذلك فإن المجلسي دافع عن هشام بأنه « أخطأ في إطلاق لفظ الجسم عليه تعالى، ونفى عنه صفات الأجسام كلها، ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يشبهه شيء من الأجسام؛ بل هو نوع مباين لسائر أنواع الأجسام » (٤).

وهو ما بيّنه عنه الأشعري – ثم ابن حزم – من قبل، قال الأشعري: « قال هشام ابن الحكم: معنى الجسم أنه موجود، وكان يقول: إنما أريد بقولي جسم أنه موجود، وأنه شيء، وأنه قائم بنفسه » (٥)، فهل « المسألة ستنتهي إلى بحث لغوي » (٦)؟

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٤)، الفرق بين الفرق (ص ٤٨)، ابن تيمية: منهاج السنة (٢/٢١٨).

(٢) أصول الكافي (١/١٥٤)، كتاب التوحيد باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى. ولكن محقق الكتاب ضعّف الحديث دون ذكر علّته.

(٣) أصول الكافي (١/١٥٨)، كتاب التوحيد باب النهي عن الجسم والصورة.

(٤) مرآة العقول (٢/٨).

(٥) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٠٤). دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق هلموت ريتر (ط٣).

(٦) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٧٦).

ولذلك أكّد ابن حزم أن دعوى أن الجسم بمعنى الشيء أو الموجود « دعوى باطلة على اللغة التي يتكلمون بها، وأيضًا فهو باطل؛ لأن الحقيقة أنه لو كان الشيء والجسم بمعنى واحد لكان العرض جسمًا؛ لأنه شيء، وهذا باطل يتعين. والحقيقة هي أنه لا فرق بين قولنا: شيء وقولنا: موجود وحق وحقيقة ومثبت؛ فهذه كلها أسماء مترادفة على معنى واحد لا يختلف، وليس منها اسم يقتضي صفة أكثر من أن المسمى بذلك حق ولا مزيد. وأما لفظة جسم فإنها في اللغة عبارة عن الطويل العريض العميق المحتمل للقسمة ذي الجهات الست التي هي فوق وتحت ووراء وأمام ويمين وشمال... فمن أراد أن يوقع شيئًا منها على غير موضوعها في اللغة فهو مجنون... وأما مزج الأشياء وقلبها عن موضوعاتها في اللغة فهذا فعل السوفسطائية الوقحاء الجهال » (١).

وما هذه الأقوال إلا من آثار ولوع هشام بالفلسفة التي تدخل نفسها فيما ليس لها من الحديث عن ذات اللَّه تعالى وصفاته، ناهيك عن التخبّط والجهل في مصطلحاتها ومصطلحات اللغة!.

لقد خاض هشام ورفاقه في صفات اللَّه تعالى كما خاضوا في ذاته؛ فقد ذكر ابن تيمية قول هشام: إن « إرادة اللَّه حركة وهي معنى، لا هي اللَّه ولا هي غيره، وأنها صفة للَّه ليست غيره »! (٢). لأنه يرى أن الإرادة صفة والصفة لا توصف، فلا يقال لصفات اللَّه قديمة ولا حادثة، ولذلك يرى هشام أنه محال أن يكون اللَّه لم يزل عالمًا بالأشياء بنفسه، وأنه إما يعلمها بعلم لا يوصف بقدم ولا حدوث، ويقترب هشام في فكرته عن العلم من جهم بن صفوان، « والمصادر تجمع على أنه كان جهميًا في مطلع شبابه » (٣).

فأي شيء بيّنه هشام ومن سار سيره على هذه الطريق في الحديث عن صفات اللَّه تعالى؟.

« هذا هو الأصل الذي أصّله هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وغيرهما من المجسمة الرافضة وغير الرافضة كالكرامية، فقالوا: بل يجوز ثبوت جسم قديم أزلي لا أول لوجوده، وهو خال عن جميع الحوادث، وهؤلاء عندهم الجسم القديم الأزلي يخلو عن الحوادث، وأما الأجسام المخلوقة فلا تخلو عن الحوادث، ويقولون: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، لكن لا يقولون: إن كل جسم فإنه لا يخلو عن الحوادث، ثم إن هؤلاء الجهمية أصحاب هذا الأصل المبتدع احتاجوا أن يلتزموا طرد هذا الأصل فقالوا:

---

(١) ابن حزم: الفصل (٢/٩٣). (٢) منهاج السنة (٢/٢٤١).

(٣) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٧٩).

إن الرب لا تقوم به الصفات ولا الأفعال، فإنها أعراض وحوادث، وهذه لا تقوم إلا بجسم، والأجسام محدثة؛ فيلزم أن لا يقوم بالرب علم ولا قدرة ولا كلام ولا مشيئة ولا رحمة ولا رضا ولا غضب، ولا غير ذلك من الصفات، بل جميع ما يوصف به من ذلك فإنما هو مخلوق منفصل عنه » [١].

ولعل الراجح أن هشام بن الحكم وبعض أصحابه كما هو حال التشيع، قد مشى بأطوار متعددة، ابتدأ أولًا بالتجسيم والتشبيه، وربما تأخر تخلّصهم منه فترة من الزمن بسبب بيئتهم التي تربّوا فيها والتي كانت مليئة بآثار هذا التجسيم والتشبيه، فلما عرض ذلك على الإمام الصادق أنكره عليهم إنكارًا شديدًا؛ فكان لا بد أن يتخلوا عن هذا القول اتباعًا لأمره، وتأثرًا باحتكاكهم بالمعتزلة الذين كانوا بعيدين كل البعد عن التشبيه إلى حد التعطيل.

ولكن مناظرات هشام وإخوانه مع المعتزلة واحتكاكاتهم معهم أورثتهم علة أخرى هي الخوض في صفات اللّٰه تعالى؛ حيث سيتجهون بردة فعل عنيفة نحو محاربة التجسيم والتشبيه إلى حد تعطيل الصفات، وإنكار كثير منها، متأثرين بالفكر الفلسفي المعتزلي، فصاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار. فهذا زرارة بن أعين أشهر رواة الشيعة حتى رووا أن جعفرًا الصادق قال عنه: « لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي » [٢] يرى أن « اللّٰه لم يزل غير سميع ولا عليم ولا بصير حتى خلق ذلك لنفسه » [٣] « فصار بعد أن

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣١١/١).

(٢) أعيان الشيعة (١٤٤/٢٧). وهناك نصوص تثبت لعن الأئمة وشتمهم لزرارة، ولكن الشيعة يؤولونها على التقية كما ورد في أعيان الشيعة: عن عبد اللّٰه بن زرارة، قال: قال لي أبو عبد اللّٰه عليه السلام: اقرأ على والدك السلام وقل له: إنما أعيبك دفاعًا مني عنك، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه، لإدخال الأذى فيمن نحبه ونقربه، فيذمونه لمحبتنا له وقربه ودنوه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل من عبناه نحن وأن يحمد أمره. فإنما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا وبميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس، غير محمود الأثر، لمودتك لنا، وبميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منا دفع شرهم عنك، يقول اللّٰه عز وجل: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩] هذا التنزيل من عند اللّٰه، لا واللّٰه! ما عابها إلا لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ، والحمد للّٰه، فافهم المثل يرحمك اللّٰه، فإنك واللّٰه! أحب الناس إلي، أحب أصحاب أبي إليّ حيًا وميتًا ». العاملي: أعيان الشيعة (١٩٦/٢٠، ١٩٧).

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٦). وقد نقل عنه ابن تيمية: منهاج السنة (٢٣٥/٢).

خلق لنفسه هذه الصفات حيًا قادرًا عالمًا مريدًا سميعًا بصيرًا »! (١).

وفي النهاية امتنع من امتنع منهم عن الخوض في الصفات لمّا لم يجدهم ذلك نفعًا، ولم يجدوا إلى الحق أو الفهم فيه سبيلًا، ويدلّك على هذا ما نقله علماء الفرق من أهل السنة « أن شيطان الطاق وهشام بن سالم امتنعا في آخر حياتهما عن الخوض في دقيق الكلام وجليله ».

قال الشهرستاني: « وذكر عن هشام بن سالم ومحمد بن النعمان [وهو شيطان الطاق] أنهما أمسكا عن الكلام في اللّه، ورويا عمن يوجبان تصديقه أنه سئل عن قول اللّه تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] قال: « إذا بلغ الكلامُ إلى اللّه تعالى فأمسكوا » (٢) فأمسكا عن القول في اللّه والتفكر فيه حتى ماتا » (٣).

وهذا النص وأمثاله يثبت ما كان عليه علماء الملل (كالشهرستاني والأشعري وابن حزم) من أهل السنة من الإنصاف والتجرّد في ابتغاء الحق والعدل في الحكم على المخالفين؛ حيث وضحوا مراد هشام من الجسمية، وإن خطّؤوه فيها، ثم نقلوا توبة من تاب من قرنائه (كالجواليقي ومؤمن الطاق)، رغم مخالفة هؤلاء لمدرسة أهل السنة العقدية.

إن الخوض في اللّه تعالى أمر مذموم من قبل أئمة أهل السنة وأئمة الشيعة، ولا يبعد أن يكون هذا سوء أدب مع الخالق ﷻ الجبار المتكبر؛ فكيف تناله الألسن وتتصوره الأفهام بما لم ينزل في كتابه ولا سنة نبيه ﷺ؟!. ولو أن هشامًا وغيره وقفوا عند حدود ما بيّنه اللّه تعالى في حق ذاته العليّة وصفاته الكريمة لما أصابهم ما أصابهم من انحراف وغلو. فالمنهج الحق في دراسة صفات اللّه تعالى هو النظر إلى هذه الصفات بآثارها في خلق اللّه تعالى، والتفكر في عظمة اللّه تعالى من خلالها، لا محاولة معرفة كنهها.

الخلاف في المنهج بين الأئمة ورجال الشيعة الأوائل:

هل كان منهج هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، وشيطان الطاق، والميثمي، وزرارة وغيرهم من متكلمي ورواة الشيعة الأوائل - وهم تلاميذ الصادق - هو منهج الإمام الصادق الواضح في كتب الاثني عشرية؟

---

(١) عبد القادر البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٥٢) دار الآفاق الجديدة - بيروت (ط٢)، (١٩٧٧م).

(٢) أصول الكافي (١/١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٨٧).

الجواب: لا، لم يكونوا على منهج الصادق، وقد صرّح الإمام الصادق بذلك؛ بل لم يكونوا على منهج واحد - شأن علماء الكلام غالبًا -، فهذا هشام بن الحكم يكتب كتابًا في (الرد على هشام بن سالم الجواليقي) [١]، وكذلك في (الرد على شيطان الطاق) [٢].

وقد جاء في أصول الكافي ما يدل على اختلاف مناهج تلامذة جعفر فيما بينهم، واختلاف منهجه ذاته عن مناهجهم:

« التفت أبو عبد الله عليه السلام إلى حمران فقال: تُجري الكلام على الأثر فتصيب.

والتفت إلى هشام بن سالمٍ فقال: تريد الأثر ولا تعرفه.

ثمّ التفت إلى الأحول [شيطان الطاق] فقال: قيّاسٌ روّاغٌ تكسر باطلًا بباطلٍ، إلا أنّ باطلك أظهر.

ثمّ التفت إلى قيسٍ الماصر فقال: تتكلّم وأقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله ﷺ أبعد ما تكون منه، تمزج الحقّ مع الباطل، وقليل الحقّ يكفي عن كثير الباطل. أنت والأحول قفّازان حاذقان.

ثمّ قال: يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم النّاس، فاتّق الزّلّة والشّفاعة من ورائها إن شاء اللّه » [٣].

فالذي سلم من نقد الإمام في هذه الرواية هو هشام بن الحكم، وقد أسلفنا سابقًا مخالفته لمنهج الأئمة في كثير من آرائه.

وعن أبي مالك الأحمسي - في حديث -: « أن مؤمن الطاق كلم رجلًا من الشراة فقطعه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله! لقد سررتني، والله ما قلت من الحق حرفًا، قال: ولم؟ قال: لأنك تكلمت على القياس، والقياس ليس من ديني » [٤].

وعن فضيل بن عثمان، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام في جماعة من أصحابنا فلما أجلسني، قال: ما فعل صاحب الطاق؟ قال: قلت صالح، قال: أما إنه بلغني أنه جدِل...، قلت: أجل هو جدل، قال: إما إنه لو شاء طريف من مخاصميه أن يخصمه

---

(١) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٩٩)، الزركلي: الأعلام (٨/٨٥).

(٢) ولم يصل هذا الكتاب ولا غيره من كتب هشام.

(٣) أصول الكافي (١/٢٢٥) كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة..

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٢٧/٥٨) رقم (٣٣١٨٩).

فعل، قلت: كيف ذاك؟ فقال: يقول أخبرني عن كلامك هذا من كلام إمامك. فإن قال: نعم، كذب علينا، وإن قال: لا، قال له: كيف تتكلم بكلام لم يتكلم به إمامك؟.

ثم قال: « أنتم تتكلمون بكلام إن أنا أقررت به ورضيت به أقمت على الضلالة، وإن برئت منهم شق علي، نحن قليل وعدونا كثير ». قلت: جعلت فداك فأبلغه عنك ذلك؟ قال: أما إنهم قد دخلوا في أمرٍ ما يمنعهم عن الرجوع عنه إلا الحمِيّة، قال: فأبلغت أبا جعفر الأحول ذاك، فقال: صدق بأبي وأمي، ما يمنعني من الرجوع عنه إلا الحمية »[1].

ومن كان يسير في تفكيره وراء الحمية فلن يعرف الحق أبدًا.

تسامح الأئمة وتشدد وتعصّب الأتباع:

- زرارة بن أعين (نموذجًا):

يعد زرارة بن أعين من أشهر رواة حديث أئمة الاثني عشرية[2]، وكتب الحديث الشيعية زاخرة برواياته عن الإمام الباقر والصادق.

وها هو الإمام الباقر يرمي هذا الراوي المكثر بالتشدد: عن زرارة قال: قال لي أبو جعفرٍ عليه السلام: « ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلا مؤمنون أو كافرون، إن دخلوا الجنّة فهم مؤمنون، وإن دخلوا النّار فهم كافرون. فقال: واللّه! ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين دخلوا الجنّة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النّار كما دخلها الكافرون. ولكنّهم قومٌ استوت حسناتهم وسيّئاتهم فقصرت بهم الأعمال، وإنّهم لكما قال اللّه عز وجل، فقلت: أمن أهل الجنّة هم أو من أهل النّار؟ فقال: اتركهم حيث تركهم اللّه. قلت: أفترجئهم؟ قال: نعم أرجئهم كما أرجأهم اللّه، إن شاء أدخلهم الجنّة برحمته وإن شاء ساقهم إلى النّار بذنوبهم ولم يظلمهم. فقلت: هل يدخل الجنّة كافرٌ؟ قال: لا. قلت: هل يدخل النّار إلا كافرٌ؟ قال: فقال: لا إلا أن يشاء اللّه. يا زرارة إنّني أقول: ما شاء اللّه، وأنت لا تقول: ما شاء اللّه، أما إنّك إن كبرت رجعت وتحلّلت عنك عقدك ».

وقد ورد في إحدى الروايات ذم زرارة: عن حفص مؤذن علي بن يقطين يكنى أبا محمد، عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ

---

(١) الخوئي: معجم رجال الحديث: (١٨/٤٠، ٤١) الطبعة الخامسة (١٤١٣هـ).

(٢) أصول الكافي (٢/٣٨٩) كتاب الإيمان والكفر باب أصحاب الأعراف قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ.. ﴾ [الأنعام: ٨٢]؟ قال: أعاذنا الله وإياك يا أبا بصير من ذلك الظلم، ذلك ما ذهب فيه زرارة وأصحابه وأبو حنيفة وأصحابه » (١).

ففي هذه الرواية جعل زرارة مذمومًا مع بعض علماء أهل السنة؛ مما يجعل احتمال شتم زرارة للتقية غير وارد؛ لأنه لو كان للتقية لما ذم معه أحد علماء من سيتقي عليهم، وهو الإمام أبو حنيفة. وقد دافع المجلسي عن زرارة وما ورد فيه من هذه الرواية فقال: « وكأنه قال بمذهب باطل ثم رجع عنه » (٢). في حين حكم الخوئي في معجم رجال الحديث على هذه الرواية بالجهالة حيث قال: « حفص المؤذن مجهول »، فكيف يكون مؤذن ابن يقطين مجهولًا؟ وإن جُهل المؤذن فمن يُعرف؟!.

وزرارة هذا كان في تشدده السلوكي والعقدي قد بلغ غاية الأمر، فقد ترك الزواج من المسلمات خوفًا من أن يقع فيما لا يحل له!!؟ عن زرارة عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال قلت له: فما تقول في مناكحة النّاس، فإنّي قد بلغت ما تراه وما تزوّجت قطّ؟.

فقال: وما يمنعك من ذلك؟ فقلت: ما يمنعني إلا أنّني أخشى أن لا تحلّ لي مناكحتهم، فما تأمرني؟...

قلت: وهل تعدو أن تكون مؤمنةً أو كافرةً؟

فقال: تصوم وتصلّي وتتّقي الله ولا تدري ما أمركم؟

فقلت: قد قال الله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢] لا والله! لا يكون أحدٌ من النّاس ليس بمؤمنٍ ولا كافرٍ.

قال: فقال أبو جعفرٍ عليه السلام: قول الله أصدق من قولك يا زرارة! أرأيت قول الله عز وجل: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فلما قال عسى فقلت: ما هم إلا مؤمنين أو كافرين.

قال: فقال: ما تقول في قوله عز وجل: ﴿ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨] إلى الإيمان؟

فقلت: ما هم إلا مؤمنين أو كافرين.

فقال: والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين » (٣).

---

(١) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٣٥٨/١).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (١٥٢/٦٦).

(٣) أصول الكافي (٣٨٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أصحاب الأعراف، قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

فيبين هذا الحديث خلاف زرارة مع إمامه الباقر؛ فهو يرى أن القسمة إما مؤمن أو كافر ولا ثالث لهما؛ ولذلك أعرض عن الزواج خوفًا من أن يقع على (كافرة!!) - مع أنها تصلي وتصوم!! -، أما إمامه فيرى أن القسمة ثلاثية؛ ولذلك يرى صحة الزواج بمن لم يعرف الإمامة ولم يعتقد بالأئمة أساسًا، وشتّان بين الرأيين.

وعن زرارة - أيضًا وهو يتمم الحديث السابق - « قال: قلت في نفسي: شيخٌ لا علم له بالخصومة. قال: فقال لي: يا زرارة! ما تقول فيمن أقرّ لك بالحكم أتقتله؟ ما تقول في خدمكم وأهليكم أتقتلهم؟ قال: فقلت: أنا واللّه الّذي لا علم لي بالخصومة »[1].

قال المجلسي: « وحاصل كلامه [أي كلام الإمام] الرد عليه بإثبات الواسطة؛ لأن المخالفين في بعض الأحكام في حكم المسلمين... وإن كان يمكن دخول بعض المخالفين كالمستضعفين الجنة، فلما لم يفهم زرارة غرضه عليه السلام وكان يفهم أن الواسطة غير معقولة نبّهه عليه السلام بأحوال من أقر له بالحكم أي خدمه... وسائر أهاليه فقال عليه السلام: أتجوّز قتلهم؟ ولمَ لا تقتلهم إن كانوا كفارًا مشركين؟ فتفطّن من ذلك بالفرق بينهم وبين سائر الكفار، وعلم أنه إذا جاز الفرق في القتل بينهم وبين سائر الكفار، فيجوز في غير ذلك من الأمور، فاعترف بأنه نفسه لا علم له بالخصومة »[2].

إن هذه الرواية تظهر لنا تشدد هؤلاء الأتباع، وتؤكّد شكوكهم بحصافة أئمتهم.

ولست أدري ألا يعتبر ذلك الشك من زرارة في فطانة إمامه مسقطًا للعدالة بل للدين، في ميزان التشيع الذي عد الأئمة أعلم من الأنبياء - كما سيبيّن البحث -؟

وعن زرارة قال: دخلت أنا وحمران أو أنا وبكير على أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: « إنا نمد المطمار قال: وما المطمار[3]؟ قلت: التُّر، فمن وافقنا من علوي أو غيره توليناه، ومن خالفنا من علوي أو غيره برئنا منه.

فقال لي: يا زرارة قول اللّه أصدق من قولك، فأين الذين قال اللّه عز وجل: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ

---

(١) أصول الكافي (٣٦٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث حسن كالصحيح. قال المحقق: والظاهر أن المراد بالشيخ الذي أساء زرارة الظن به هو الإمام (ع) ».

(٢) مرآة العقول (١١٦/١١).

(٣) المطمار - بالمهملتين - خيط للبناء يقدر به، وكذا التر بضم المثناة الفوقية والراء المشددة. قال المحقق: والمعنى أن المقياس الذي نزن به الناس هو ولايتنا لأهل البيت؛ فمن كان على مذهبنا فيه أحببناه وعظمناه ونصرناه، ومن كان على مذهب غيرنا أبغضناه وحقرناه وخذلناه وتبرأنا منه.

مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨]؟ أين المرجون لأمر الله؟ أين الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا؟ أين أصحاب الأعراف؟ أين المؤلفة قلوبهم؟!. وزاد حماد في الحديث قال: فارتفع صوت أبي جعفر عليه السلام وصوتي حتى كان يسمعه من على باب الدار » [1].

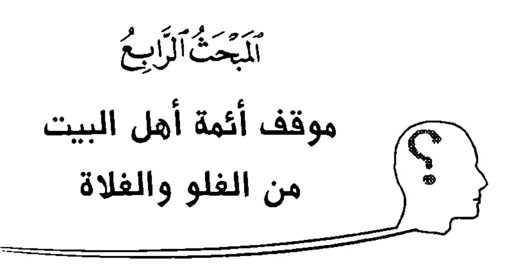
وهذا الحديث يظهر لنا تسامح الأئمة مع من خالفهم؛ فلم يكفروهم ولم يتبرؤوا منهم، في حين يظهر الحديث تعصُّب الأتباع؛ بحيث يسوقون من خالفهم سوقًا واحدًا إلى جهنم، يضاهئون قول الخوارج فيمن خالفهم، ويكونون أسوة للتكفيريين في عصرنا، وهم يسيرون مع الطغيان العالمي الذي يقول: (من لم يكن معنا فهو علينا). وليس هنالك موقف ثالث.

وسنرى أن هؤلاء التلاميذ هم الذين سينقلون روايات أهل البيت، وهم الذين سيصوغون فكر المذهب الاثني عشري؛ مما سيظهر التناقض والتصارع بين منهجين في الفكر الشيعي: فكر الأئمة، وفكر من ادعى أنه من أتباعهم، ثم خالفهم في المنهج.

* * *

---

(١) أصول الكافي (٢/٣٦٥) كتاب الإيمان والكفر، باب أصناف الناس، قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.



المَبْحَثُ الرَّابِعُ

موقف أئمة أهل البيت من الغلو والغلاة

لقد أدرك علماء أهل السنة أن آل بيت النبي ﷺ عمومًا وعلماءهم خصوصًا، كعلي وزين العابدين والباقر والصادق رضي الله عنهم أنكروا مواقف الغلاة وأفكارهم المسمومة، وتبرّأوا منهم ولعنوهم، وحذّروا الأمة من دسائسهم.

ونقلت المصادر السنية والشيعية ما فعله علي رضي الله عنه بمن ادعى ألوهيته من السبئيين.

وقد سأل أحدهم أمير المؤمنين: أنت نبي؟ قال: « ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ »[(١)].

وهذه الحقيقة التي ذكرها علماء السنة؟ نجدها في ثنايا كثير من روايات الشيعة عن الأئمة الكرام. فتذكر هذه الروايات أن الأئمة كانوا يحذرون من الابتداع والموالاة على أساسه:

عن أبي العبّاس قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركًا، قال: فقال: « من ابتدع رأيًا فأحبّ عليه أو أبغض عليه »[(٢)].

لقد كان موقف الأئمة من أهل البيت عليهم السلام حادًّا وقطعيًا في صدّ وتكفير الغلاة، ولعنهم والبراءة منهم، ونفي وجود أي صلة لهم بهم، وتحذير الناس من مجالستهم والاستماع إليهم.

فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يجلس إلى غالٍ فيستمع إلى حديثه ويصدّقه على قوله، إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عليهم السلام: أن رسول اللّه ﷺ قال: « **صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام: الغلاة؟ والقدرية** ».

وقال عليه السلام مخاطبًا أحد أصحابه: « أيا مرازم، قل لهم (أي للغالية): توبوا إلى اللّه تعالى، فإنكم فساق، كفار، مشركون ».

---

(١) ابن بابويه: التوحيد (ص ١٧٤، ١٧٥)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٣/٨)، الطبرسي: الاحتجاج، وقارن: منهاج السنة (٦٩/٤).

(٢) أصول الكافي (٣٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك قال محققه: والحديث صحيح.

وقال ﷺ مشيرًا إلى نفي صلة أولئك الغلاة بأهل البيت ﷺ: « لعن اللَّه المغيرة ابن سعيد، ولعن اللَّه يهوديةً كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي فسلبه اللَّه الإيمان، وإن قومًا كذبوا علي، ما لهم؟! أذاقهم اللَّه حر الحديد.. أبرأ إلى اللَّه مما قال فيّ الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطاب لعنه اللَّه ».
وقال مخاطبًا أحد الغلاة (وهو بشار الشعيري): « أُخرج عني، لعنك اللَّه » (١).

وجاء في تفسير « البرهان » تبرؤ الصادق من كل من يفسر القرآن بما يدعم نظرية الإمامة أو ينال من الشيخين (أبي بكر وعمر ﷺ) بالتأويلات الفاسدة، فعن حبيب بن معلى الخثعمي قال: « ذكرت لأبي عبد اللَّه ﷺ ما يقول أبو الخطاب.. قال: في قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ [الزمر: ٤٥]: أنه أمير المؤمنين ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٤٥]: فلان وفلان [يعني بهما: أبا بكر وعمر ﷺ]. قال أبو عبد اللَّه: من قال هذا فهو مشرك باللَّه ﷻ، ثلاثًا، أنا إلى اللَّه منهم بريء، ثلاثًا. بل عنى اللَّه بذلك نفسه، قال: فالآية الأخرى التي في حم قول اللَّه ﷻ: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ [غافر: ١٢] ثم قلت: زعم أنه يعني بذلك أمير المؤمنين ﷺ. قال أبو عبد اللَّه: من قال هذا فهو مشرك باللَّه ﷻ، ثلاثًا، أنا إلى اللَّه منهم بريء، ثلاثًا، بل عنى اللَّه بذلك نفسه » (٢).

وجاء في كتاب رجال الكشي نفي الأئمة هرطقات الغلاة الذين رفعوا الأئمة إلى مراتب الألهية، قال الإمام الصادق: « فواللَّه ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرّ ولا نفع، وإن رحمنا فبرحمته، وإنّ عذّبنا فبذنوبنا، واللَّه ما لنا على اللَّه حجّة، ولا معنا من اللَّه براءة، وإنّا لميّتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون، ويلهم! ما لهم؟ لعنهم اللَّه؛ فقد آذوا اللَّه وآذوا رسوله ﷺ في قبره، وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي صلوات اللَّه عليهم.. أشهدكم أنّي امرؤ ولدني رسول اللَّه ﷺ وما معي براءة من اللَّه، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذّبني عذابًا شديدًا » (٣).

ويخاطب الإمام زين العابدين علي بن الحسين أتباعه قائلًا: « أحبّونا حب الإسلام، فواللَّه ما زال بنا ما تقولون حتى بغّضتمونا إلى الناس » (٤).

---

(١) الشيخ كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ١٧٤).
(٢) البرهان (٧٨/٤). (٣) رجال الكشّي (ص ٢٢٥، ٢٢٦).
(٤) طبقات ابن سعد (٢١٤/٥)، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٣٧٤/٤١) دار الفكر - بيروت (١٤١٥هـ)، تحقيق / علي شيري.

الإمام جعفر الصادق والغلاة:

ويتفق علماء الملل من أهل السنة مع روايات الشيعة التي تقول: إن جعفرًا الصادق؛ لجلالته وعلمه ومكانته في الدوحة النبوية - كان مقصد الغلاة ومحطّ أنظارهم؛ ولأجل ذلك كان رحمه الله يتبرّأ منهم ويلعنهم، يقول الشهرستاني فيه: « جعفر بن محمد الصادق، وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام... ما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحدًا في الخلافة قط،... وقد تبرأ عما كان ينسبه إليه بعض الغلاة، وبرئ منهم ولعنهم، وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه. لكن الشيعة بعده افترقوا وانتحل كل واحد منهم مذهبًا، وأراد أن يروّجه على أصحابه فنسبه إليه وربطه به، والسيد بريء من ذلك ومن الاعتزال والقدر أيضًا... فنذكر الأصناف الذين اختلفوا فيه، ونعدُّهم لا على أنهم من تفاصيل أشياعه، بل على أنهم منتسبون إلى أصل شجرته وفروع أولاده، ليعلم ذلك »[(١)].

وقد جاءت روايات الشيعة عن الصادق لتؤكد قول الشهرستاني. يقول الإمام الصادق - كما تروي كتب الشيعة -: « والله لو أقررت بما يقول فيّ أهل الكوفة لأخذتني الأرض، وما أنا إلا عبد مملوك لا أقدر على شيء بضرّ ولا بنفع »[(٢)].

لقد كان الأئمة يشكُون من مبالغات ومزاعم هؤلاء الغلاة؛ ولهذا جاء في رواية ذكرها صاحب البحار وصاحب الاحتجاج عن الأئمة: « تعالى الله عز وجل عما يصفون سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاء في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥].. قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقاؤهم، ومَنْ دينه جناحُ البعوضة أرجحُ منه، وأشهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيدًا... أني بريء إلى الله وإلى رسوله ممن يقول: إنا نعلم الغيب أو نشارك الله في ملكه، أو يحلّنا محلًّا سوى المحل الذي رضيه الله لنا »[(٣)].

وكان الرضا عليه السلام يقول في دعائه: « اللَّهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللَّهم إني أعوذ بك وأبرأ إليك من الذين ادّعوا لنا ما ليس لنا بحق، اللَّهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللَّهم لك الخلق ومنك

(١) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨هـ): الملل والنحل (١/١٦٦) دار المعرفة - بيروت (١٤٠٤هـ)، تحقيق / محمد سيد كيلاني.

(٢) تنقيح المقال (٣/٣٣٢)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٢/٧٦٢).

(٣) المرجع السابق (٢/٦٨٤).

الرزق وإياك نعبد وإياك نستعين، اللَّهم أنت خالقنا وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين، اللَّهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا تصلح الإلهية إلا لك، فالْعَنِ النصارى الذين صغَّروا عظمتك والْعَن المضاهئين لقولهم من بريّتك » [١].

الأئمة يلقّبون الغلاة بالخوارج:

عن هاشمٍ صاحب البريد قال: كنت أنا ومحمّد بن مسلمٍ وأبو الخطّاب مجتمعين فقال لنا أبو الخطّاب: « ما تقولون فيمن لم يعرف هذا الأمر؟ فقلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافرٌ. فقال أبو الخطّاب: ليس بكافرٍ حتّى تقوم عليه الحجّة، فإذا قامت عليه الحجّة فلم يعرف فهو كافرٌ، فقال له محمّد بن مسلمٍ: سبحان اللَّه ما له إذا لم يعرف ولم يجحد يكفر؟! ليس بكافرٍ إذا لم يجحد قال: فلمّا حججت دخلت على أبي عبد اللَّه فأخبرته بذلك فقال: إنّك قد حضرت وغابا ولكن موعدكم اللّيلة الجمرة الوسطى بمنًى، فلمّا كانت اللّيلة اجتمعنا عنده وأبو الخطّاب ومحمّد بن مسلمٍ، فتناول وسادةً فوضعها في صدره ثمّ قال لنا: ما تقولون في خدمكم ونسائكم وأهليكم أليس يشهدون أن لا إله إلا اللّه؟ قلت: بلى. قال: أليس يشهدون أنّ محمّدًا رسول اللَّه ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أليس يصلّون ويصومون ويحجّون؟ قلت: بلى. قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما هم عندكم؟ قلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافرٌ. قال: سبحان اللَّه أما رأيت أهل الطّريق وأهل المياه؟ قلت: بلى. قال: أليس يصلّون ويصومون ويحجّون أليس يشهدون أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمّدًا رسول اللّه؟ قلت: بلى. قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما هم عندكم؟ قلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافرٌ. قال: سبحان اللّه! أما رأيت الكعبة والطّواف وأهل اليمن وتعلّقهم بأستار الكعبة؟ قلت: بلى. قال: أليس يشهدون أن لا إله إلا اللّه وأنّ محمّدًا رسول اللَّه ﷺ ويصلّون ويصومون ويحجّون؟ قلت: بلى. قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما تقولون فيهم؟ قلت: من لم يعرف فهو كافرٌ. قال: سبحان اللّه! هذا قول الخوارج. ثمّ قال: إن شئتم أخبرتكم، فقلت أنا: لا. فقال: أما إنّه شرٌّ عليكم أن تقولوا بشيءٍ ما لم تسمعوه منّا. قال: فظننت أنّه يديرنا على قول محمّد بن مسلمٍ » [٢].

(١) المفيد: الاعتقادات (ص ٩٩)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٤٣/٢٥).

(٢) أصول الكافي (٣٨٣/٢، ٣٨٤) كتاب الإيمان والكفر باب الضلال، قال محققه: والحديث مجهول.

الأئمة يوصون أتباعهم بالاعتدال، ويحذّرونهم من الغلاة:

عن أبي جعفر الطَّيْلاً قال: « يا معشر الشيعة – شيعة آل محمد – كونوا النمرقة الوسطى يرجع إليكم الغالي ويلحق به التالي، فقال له رجل من الأنصار – يقال له: سعد –: جعلت فداك! ما الغالي؟ قال: قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منا ولسنا منهم، قال: فما التالي؟ قال: المرتاد يريد الخير يبلُغه الخير يؤجر عليه، ثم أقبل علينا فقال: واللَّه ما معنا من اللَّه براءة، ولا بيننا وبين اللَّه قرابة، ولا لنا على اللَّه حجة، ولا نتقرب إلى اللَّه إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعًا للَّه تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصيًا للَّه لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغترّوا، ويحكم لا تغترّوا » [1].

وقد وقف الأئمة من تأويلات الغلاة للقرآن موقفًا حازمًا، فقد ذُكر عند جعفر أن بعض الشيعة قال في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤] قال: هو الإمام، فقال أبو عبد اللَّه: « لا واللَّه لا يأويني وإياه سقف بيت أبدًا، هم شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، واللَّه ما صغّر عظمة اللَّه تصغيرهم شيء قط.. واللَّه لو أقررت بما يقول فيّ أهل الكوفة لأخذتني الأرض. وما أنا إلا عبد مملوك لا أقدر على شيء ضر ولا نفع » [2].

وإليك بعض أقوال الأئمة في حق الغلاة وموقفهم منهم:

- وأحبوا أهل بيتكم حبًا مقتصدًا؟ ولا تغلوا.
- ولا تفرقوا... ولا تقولوا ما لا نقول.
- ولا تفضّلوا على رسول اللَّه ﷺ أحدًا، فإن اللَّه تبارك وتعالى قد فضّله.
- يقولون فينا ما قالت اليهود في عزير وما قالت النصارى في عيسى ابن مريم [3].

---

(١) أصول الكافي (٢/٨١) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى. النمرقة: الوسادة الصغيرة، والمراد لا تكونوا من المغالين في دينكم ولا من المقصرين فيه، كما الوسادة الوسطى ليست بالمرتفعة جدًا ولا المنخفضة جدًا. انظر: الوافي (٣/٦٠). والحديث سكت عنه المحقق.

(٢) رجال الكشي (ص ٣٠٠).

(٣) وقد مر معنا أن الإسفراييني أدرك هذا القدر المشترك بين عقائد الغلاة وعقائد اليهود عندما قال عن الهشامية: « أما الهشامية فإنهم أفصحوا عن التشبيه بما هو كفر محض باتفاق جميع المسلمين، وهم الأصل في التشبيه وإنما أخذوا تشبيههم من اليهود حين نسبوا إليه الولد وقالوا: عزير ابن اللَّه، وأثبتوا له المكان والحد والنهاية والمجيء والذهاب. تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا ». التبصير في الدين (ص ٤١).

- من قال بالتناسخ فهو كافر... لعن اللّه الغلاة.

- إنما وضع الأخبار عنا في التشبيه والجبر الغلاةُ.

- هم سبعة: المغيرة، وبيان، وصائد، وحمزة بن عمارة البربري، والحارث الشامي، وعبد اللّه بن الحارث، وأبو الخطاب.

- كذّاب يكذب علينا أو عاجز الرأي.

- ويسقط صدقنا كذبه علينا عند الناس.

- فإن الغلاة شر خلق اللّه... واللّه إن الغلاة شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا.

- إنما وضع الأخبار الذين صغروا عظمة اللّه.

- إن فيهم من يكذب حتى إن الشيطان ليحتاج إلى كذبه!

- فمن أحبهم فقد أبغضنا، ومن أبغضهم فقد أحبنا، ومن والاهم فقد عادانا، ومن عاداهم فقد والانا.

- صنفان لا تنالهما شفاعتي... وغالٍ في الدين مارق منه غير تائب ولا نازع.

- لعن اللّه الغلاة... لا تقاعدوهم ولا تصدّقوهم، وابرؤوا منهم، برئ اللّه منهم.

- من جالسهم أو خالطهم أو واكلهم.. أو صدق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة خرج من ولاية اللّه ﷻ وولاية الرسول ﷺ وولايتنا أهل البيت.

- فلا هُم منّا ولا نحن منهم.

- الغلاة كفار والمفوضة مشركون [1].

- وقال زين العابدين: « أيها الناس أحبُّونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارًا » [2].

- وفي رواية: قال علي بن الحسين: يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام؛ فإني سمعت أبي يقول: قال رسول اللّه ﷺ: « يا أيها الناس لا ترفعوني فوق حقي فإن اللّه اتخذني

---

(١) انظر: بحار الأنوار (٥٢) الباب التاسع الأرقام (٦، ٨، ١٢، ١٦، ١٨، ١٩، ٣٤، ٣٧، ٤١، ٤٦، ٥٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٢١٤/٥)، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٣٧٤/٤١).

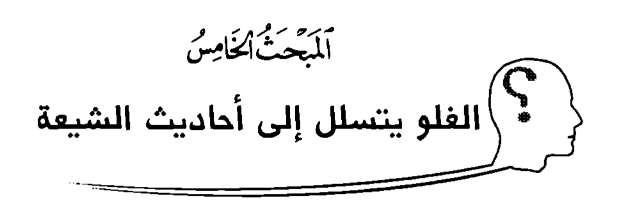
عبدًا قبل أن يتخذني نبيًا » [1].

- « يا إسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين، وقولوا فينا ما شئتم فلن تبلغوا » [2].

* * *

(١) أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (ت ٣١٠): الذرية الطاهرة (ص ٨٩) الدار السلفية - الكويت (١٤٠٧هـ)، تحقيق / سعد المبارك الحسن.

(٢) بحار الأنوار (٦٨/٤٧) باب معجزاته واستجابة دعوته، وانظر لماذا أنا شيعي (ص ٨٤).



المبحث الخامس

الغلو يتسلل إلى أحاديث الشيعة

نعم نحن نعتقد براءة الأئمة الكرام أئمة آل البيت عليهم السلام والرضوان من هؤلاء الدجالين والمحرفين، كما ثبت في كتب الشيعة تبرّؤ أئمة آل البيت الكرام منهم ولعنهم.

ولكن ما مدى تسرّب روايات هؤلاء وأفكارهم إلى عقيدة الاثني عشرية؟ سنرى آثار هؤلاء الكذابين في روايات الشيعة التي تبالغ في الأئمة وترفعهم عن مستوى البشرية إلى قريب من الإلهية. ولأجل هذه الروايات وأمثالها « نتساءل: هل توضع الاثنا عشرية في نسق الغلاة أم في نسق المعتدلين من الشيعة؟

إن ابن خلدون - من قبل - اعتبر القائلين بالرجعة من الاثني عشرية غلاة، وكذلك ابن تيمية؛ حيث قال: « وفيهم من الشرك والغلو ما ليس في سائر طوائف الأمة؛ ولهذا أظهر ما يوجد الغلو في طائفتين: في النصارى والرافضة، ويوجد في طائفة ثالثة من أهل النسك والزهد والعبادة، الذين يغلون في شيوخهم ويشركون بهم » [١].

ولكن د. النشار يرى أنه من الصعوبة بمكان أن نضع الاثني عشرية في فرق الغلاة، إن ما يمكننا أن نقوله هو أنهم فرقة معتدلة من الشيعة، اعتنقت بعض الآراء الغالية، امتزجت فيها عقائد المعتزلة بعقائد الغنوص إلى قدر ما » [٢].

وترجيح أحد هذين الرأيين يتبين من خلال عرضنا لبعض روايات الاثني عشرية التي ستجيب عن هذا التساؤل: هل دخل الغلو في التشيع الاثني عشري، وهل أثّر فكر الغلاة - مهما كانوا ومهما كان مصدرهم - في فكر الشيعة الاثني عشرية؟

إن الإفراط والتفريط ممنوع في دين الله، وقد مرّت رواية المجلسي: « عن علي عليه السلام أنه قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يومًا فوجدته في ملأٍ من قريش، فنظر إلي ثم قال: « **يا علي، إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه**

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة (١/٤٨٦).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٠٩).

فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا » [١].

وقد عرفنا أن الغلاة رفعوا الأئمة إلى درجة الإلهية والنبوة، وقد جاء أتباع الأئمة إلى أئمتهم يخبرونهم بذلك:

عن أبي طالبٍ عن سديرٍ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إنّ قومًا يزعمون أنّكم آلهةٌ يتلون بذلك علينا قرآنًا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤] فقال: يا سدير، سمعي وبصري وبشري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براءٌ، وبرئ الله منهم، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإيّاهم يوم القيامة إلا وهو ساخطٌ عليهم.

قال: قلت: وعندنا قومٌ يزعمون أنّكم رسلٌ يقرؤون علينا بذلك قرآنًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] فقال: يا سدير، سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براءٌ، وبرئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإيّاهم يوم القيامة إلا وهو ساخطٌ عليهم » [٢].

إن تسلل الغلو إلى روايات الاثني عشرية قد بلغ حدًّا لا يمكن لأحد إنكاره، قد يصل أحيانًا إلى حد تقليد الغلاة في ألفاظهم، فإذا كانت الغلاة تزعم في أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أنه: هو الذي يجيء بالسحاب والرعد صوته، والبرق سوطه أو تبسمه [٣] – فإن روايات الاثني عشرية تقول عنه على لسان جعفر الصادق: « أما إنه ما كان من هذا الرعد ومن هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم، قلت: من صاحبنا؟ قال: أمير المؤمنين عليه السلام » [٤].

وممعن النظر في هذه الروايات الموضوعة على ألسنة الأئمة سيصم أصحابها بالغلو قطعًا، وسيصم بالغلو أيضًا من يعتقد بها من أتباع الاثني عشرية. فإذا لم يكن القول

---

(١) بحار الأنوار: المجلسي (١٥١/٩)، وفي معناه روى أهل السنة عن علي رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (فيك مثلٌ من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبّته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به). مسند الإمام أحمد (١٦٠/١) بسند ضعيف، وجاء في مجمع الزوائد للهيثمي (١٣٣/٩) كتاب المناقب، باب فيمن يفرط في محبة علي وبغضه، عن علي بن أبي طالب، وهو ضعيف.

(٢) أصول الكافي (٣٢٥/١)، كتاب الحجة بابٌ في أنّ الأئمّة بمن يشبهون ممّن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوّة.

(٣) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل (١٨٠/١) وما بعد.

(٤) المفيد: الاختصاص (ص ٣٢٧)، بحار الأنوار (٣٣/٢٧)، البرهان (٤٨٢/٢).

بعصمة الأئمة ومخاطبة الملائكة لهم، واختصاصهم بالعلوم، وتميّزهم بالولاية التكوينية والتصرف في الكون؛ إذا لم يكن كل هذا من الغلو، فماذا يكن منه إذن؟! ولنقرأ معًا هذه الروايات التي تزيد صورة الغلو وضوحًا:

– عن الرضا: « الإمام كالشّمس الطّالعة المجلّلة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار، الإمام البدر المنير والسّراج الزّاهر والنّور السّاطع... والدّليل في المهالك من فارقه فهالكٌ، الإمام السّحاب الماطر والغيث الهاطل والشّمس المضيئة والسّماء الظّليلة والأرض البسيطة.... ومفزع العباد في الدّاهية النّآد، الإمام أمين اللّه في خلقه وحجّته على عباده وخليفته في بلاده والدّاعي إلى اللّه والذّابّ عن حرم اللّه، الإمام المطهّر من الذّنوب والمبرّأ عن العيوب، المخصوص بالعلم الموسوم بالحلم، نظام الدّين وعزّ المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين ».

– و « الإمام واحد دهره لا يدانيه أحدٌ ولا يعادله عالمٌ، ولا يوجد منه بدلٌ ولا له مثلٌ ولا نظيرٌ، مخصوصٌ بالفضل كلّه من غير طلبٍ منه له ولا اكتسابٍ بل اختصاصٌ من المفضل الوهّاب؛ فمن ذا الّذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره، هيهات هيهات.. ضلّت العقول وتاهت الحلوم وحارت الألباب » [1].

– « فالإمام هو المنتجب المرتضى والهادي المنتجى والقائم المرتجى، اصطفاه اللّه بذلك واصطنعه على عينه في الذّرّ حين ذرأه وفي البريّة حين برأه ظلًّا قبل خلق نسمةٍ عن يمين عرشه محبوًّا بالحكمة في علم الغيب عنده اختاره بعلمه وانتجبه لطهره » [2].

– وتذكر إحدى الروايات أنه لا آية للّه أكبر من الإمام، ولا نبأ أعظم منه: فعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك! إنّ الشّيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ١، ٢] قال: ذلك إليّ إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم. ثمّ قال: لكنّي أخبرك بتفسيرها قلت: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [النبأ: ١]؟ قال: فقال: هي في أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه كان أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه يقول: « ما للّه عز وجل آيةٌ هي أكبر منّي، ولا للّه من نبأٍ أعظم منّي » [3].

---

(١) أصول الكافي (١/٢٥٧) كتاب الحجة، باب جامع في فضل الإمام وصفاته.

(٢) أصول الكافي (١/٢٦٠) كتاب الحجة، باب جامع في فضل الإمام وصفاته. قال محققه: هذا حديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (١/٢٦٤)، كتاب الحجة، باب أن الآيات التي ذكرها اللّه عز وجل في كتابه هم الأئمة.

- والأنبياء بعثوا بولاية آل البيت:

يروي الكافي عن أبي الحسن قال: « ولاية علي ﷺ مكتوبةٌ في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولًا إلا بنبوّة محمّدٍ ﷺ ووصيّه عليٍّ ﷺ » (١). وعن أبي عبد الله ﷺ قال: « ولايتنا ولاية الله الّتي لم يبعث نبيًا قطّ إلا بها » (٢).

- بل يروي الشيعة أن الأنبياء توسلوا بالأئمة:

فنوح ﷺ لما خشي الغرق « دعا الله بحقّنا فدفع عنه الغرق (٣)، ولما رمي إبراهيم ﷺ في النار دعا الله بحقّنا (٤) فجعل الله النار عليه بردًا وسلامًا، وإن موسى ﷺ لما ضرب طريقًا في البحر دعا الله بحقنا فجعله يبسًا، وإن عيسى ﷺ لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل فرفعه إليه... » (٥).

- والجن تخدم الأئمة تشبيهًا لهم بسليمان ﷺ: تقول الرواية عن أبي جعفرٍ: « إنّ لنا خدمًا من الجنّ، فإذا أردنا السّرعة بعثناهم » (٦).

- ويروي المجلسي في بحار الأنوار قدرات أمير المؤمنين الفائقة فيقول:

فقال أمير المؤمنين: « لو أنني أردت أن أجوب الدنيا بأسرها والسماوات السبع وأرجع في أقل من الطرف لفعلت بما عندي من اسم الله الأعظم؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين أنت والله الآية العظمى والمعجز الباهر » (٧).

فمادام الإمام عنده هذه القدرات؛ فلماذا لم يظهرها أمام خصومه الذين حاربوه؟ ولماذا اعتمد على رجال قلّت طاعتهم له، فتذمّر منهم كما تذكر روايات نهج البلاغة؟

- والأئمة أوتاد الأرض، ولولا الأئمة لساخت الأرض بأهلها:

عن أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنّي واثني عشر من**

---

(١) أصول الكافي (١/٥٠٧). كتاب الحجة، بابٌ فيه نتفٌ وجوامع من الرّواية في الولاية، نص محقق أصول الكافي على أنه حديث مجهول.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) وكيف يخشى الغرق، وقد أمّنه الله تعالى وقال له: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود: ٤١].

(٤) في حين ثبت عند أهل السنة أنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) كما في الصحيح.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (١١/٦٩)، الحر العاملي: وسائل الشيعة (٧/١٠٣).

(٦) أصول الكافي (١/٤٦٠) كتاب الحجة باب أن الجن تأتيهم.... والحديث حسن عند محقق أصول الكافي.

(٧) بحار الأنوار (٢٧/٤٠).

ولدي وأنت يا عليّ زرّ الأرض يعني أوتادها وجبالها، بنا أوتد اللّه الأرض أن تسيخ بأهلها، فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم ينظروا » (١).

- ولولا الأئمة ما عُبد اللّه:

قال أبو عبد اللّه عليه السلام: « إنّ اللّه عز وجل خلقنا فأحسن خلقنا وصوّرنا فأحسن صورنا وجعلنا خزّانه في سمائه وأرضه ولنا نطقت الشّجرة، وبعبادتنا عُبد اللّه عز وجل، ولولانا ما عُبد اللّه » (٢).

- وعلم الغيب عند الأئمة:

عن عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: « قد ولدني رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وأنا أعلم كتاب اللّه وفيه بدء الخلق وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة وفيه خبر السّماء وخبر الأرض وخبر الجنّة وخبر النّار، وخبر ما كان وخبر ما هو كائنٌ، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفّي، إنّ اللّه يقول: ﴿ فيه تبيان كلّ شيءٍ ﴾ » (٣).

« فقال هشامٌ: هذا القاعد الّذي تشدّ إليه الرّحال ويخبرنا بأخبار السّماء والأرض وراثةً عن أبٍ عن جدٍّ. قال الشّاميّ: فكيف لي أن أعلم ذلك؟ قال هشامٌ: سله عمّا بدا لك. قال الشّاميّ: قطعت عذري، فعليّ السّؤال. فقال أبو عبد اللّه عليه السلام : يا شاميّ أخبرك كيف كان سفرك وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا، فأقبل الشّاميّ يقول: صدقت » (٤).

- والأئمة يختصّون بوجود ملائكة معهم تسددهم:

عن أبي بصيرٍ قال: « سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: ﴿ .. وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥] قال: خلقٌ أعظم من جبرئيل وميكائيل لم يكن مع أحدٍ ممّن مضى

---

(١) أصول الكافي (٦١٣/١) كتاب الحجة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. سكت عنه المحقق. والعجيب أن هذه الرواية تجعل الأئمة ثلاثة عشر، ولكن المحقق يقول: « ومعنى الكلام على هذا أن عليًّا وفاطمة والأئمة الأحد عشر (ع) هم أوتاد الأرض » (٦١٣/١) هامش حاشية رقم (١).

(٢) أصول الكافي (٢٤٩/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر اللّه وخزنة علمه.

(٣) أصول الكافي (١١٥/١) كتاب فضل العلم باب الرد إلى الكتاب والسنة، قال محقق أصول الكافي: « لا توجد هذه الآية في القرآن ولعله (ع) نقل بالمعنى قوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] » اهـ، فعجيب أن يُعتقَد في شخص علم الغيب وعلم الأولين والآخرين، ثم ينقل آية من القرآن بغير ما هي عليه. وهو يقول: « إن اللّه تعالى يقول »، فلا احتمال لنقل المعنى إذن.

(٤) أصول الكافي (٢٢٦/١) كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة.

[أي من الأنبياء] غير محمّدٍ ﷺ وهو مع الأئمّة يسدّدهم، وليس كلّ ما طلب وجد » [(١)].

- وتذكر رواية أخرى أن عليًا أعلم من الأنبياء السابقين:

قال أبو جعفرٍ عليه السلام: « يمصّون الثّماد ويدعون النّهر العظيم: قيل له: وما النّهر العظيم؟ قال: رسول اللّه ﷺ والعلم الّذي أعطاه اللّه. إنّ اللّه عزّ وجلّ جمع لمحمّدٍ ﷺ سنن النّبيّين من آدم وهلمّ جرًّا إلى محمّدٍ ﷺ. قيل له: وما تلك السّنن؟ قال: علم النّبيّين بأسره، وإنّ رسول اللّه ﷺ صيّر ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام. فقال له رجلٌ: يا بن رسول اللّه، فأمير المؤمنين أعلم أم بعض النّبيّين؟ فقال أبو جعفرٍ عليه السلام: اسمعوا ما يقول! إنّ اللّه يفتح مسامع من يشاء، إنّي حدّثته أنّ اللّه جمع لمحمّدٍ ﷺ علم النّبيّين، وأنّه جمع ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام وهو يسألني أهو أعلم أم بعض النّبيّين » [(٢)].

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: « إنّ للّه تبارك وتعالى علمين: علمًا أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله؛ فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه، وعلمًا استأثر به؛ فإذا بدا للّه في شيءٍ منه أعلمنا ذلك وعرض على الأئمّة الّذين كانوا من قبلنا » [(٣)].

- والأئمة تطّلع على بواطن القلوب وتعلم السرائر (كالإيمان والنفاق):

عن عبد اللّه بن جندبٍ أنّه كتب إليه الرّضا عليه السلام: « أمّا بعد فإنّ محمّدًا ﷺ كان أمين اللّه في خلقه فلمّا قبض ﷺ كنّا أهل البيت ورثته؛ فنحن أمناء اللّه في أرضه عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام وإنّا لنعرف الرّجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النّفاق، وإنّ شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ اللّه علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا ليس على ملّة الإسلام غيرنا وغيرهم، نحن النّجباء النّجاة ونحن أفراط الأنبياء، ونحن أبناء الأوصياء ونحن المخصوصون في كتاب اللّه عزّ وجلّ، ونحن أولى النّاس بكتاب اللّه، ونحن أولى النّاس برسول اللّه ﷺ » [(٤)].

---

(١) أصول الكافي (١/٣٢٩) كتاب الحجة باب الروح التي يسدد بها الأئمة. قال محققه: والحديث حسن. وليس كل ما طلب وجد: أي بل هو فضل من اللّه يؤتيه من يشاء.

(٢) أصول الكافي (١/٢٨٠) كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة عليهم السلام ورثة العلم يرث بعضهم بعضًا العلم.

(٣) أصول الكافي (١/٣١٠) كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم الّتي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرّسل عليهم السلام.

(٤) أصول الكافي (١/٢٨٠، ٢٨١) كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النّبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء الّذين من قبلهم. قال محقق أصول الكافي: الحديث حسن.

- والكتب السماوية السابقة محفوظة عند الأئمة:

عن المفضّل بن عمر قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: « إنّ سليمان ورث داود، وإنّ محمّدًا ورث سليمان، وإنّا ورثنا محمّدًا، وإنّ عندنا علم التّوراة والإنجيل والزّبور وتبيان ما في الألواح. قال: قلت: إنّ هذا لهو العلم، قال: ليس هذا هو العلم، إنّ العلم الّذي يحدث يومًا بعد يومٍ وساعةً بعد ساعةٍ » (١). وفي رواية: « وإن عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى » (٢). وما الحاجة إلى هذه الكتب بعد ثبوت تحريفها، وبعد نزول القرآن مهيمنًا على الكتب السابقة وناسخًا لها؟!

- والأئمة ولاة أمر اللّه وخزنة علمه:

عن عبد الرّحمن بن كثيرٍ قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: « نحن ولاة أمر اللّه وخزنة علم اللّه وعيبة وحي اللّه » (٣).

- وهناك في كتاب الحجة باب (أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون متى يموتون، وأنّهم لا يموتون إلا باختيارٍ منهم).

وقد ضعف المحقق روايات هذا الباب (٤). ولو ضعّف روايات باقي الأبواب المغالية في الأئمة لأفلح وأنجح.

- والأئمة وجه اللّه، وبهم تينع الثمار:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: « نحن المثاني الّذي أعطاه اللّه نبيّنا محمّدًا صلى الله عليه وسلم، ونحن

---

(١) أصول الكافي (١/٢٨١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين قبلهم. « لعل المراد والعلم عند اللّه: أن العلم ليس ما يحصل بالسماع وقراءة الكتب وحفظها؛ فإن ذلك تقليد، وإنما العلم ما يفيض من عند اللّه سبحانه على قلب المؤمن يومًا فيوم وساعة فساعة » انظر: الفيض الكاشاني: الوافي شرح الكافي (٢/١٢٩). وما الفرق بين هذا الكلام وما يقوله بعض المتصوفة: حدثني قلبي عن ربي. وأنهم يأخذون علومهم عن الأحياء، أما أهل العلم فيأخذونه عن الأموات.! هذا قاسم مشترك جديد بين الشيعة وبعض المتصوفة.

(٢) أصول الكافي (١/٢٨٢) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين قبلهم. قال المحقق: والحديث صحيح على الظاهر. وهناك روايات أخرى تقول: إن ألواح موسى وعصاه عند الأئمة، وقميص من الجنة ألبسه اللّه تعالى لإبراهيم لما ألقوه في النار فلم تضره وأنه صار قميص يوسف ثم صار للنبي صلى الله عليه وسلم ثم للأئمة من بعده: باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء (١/٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) أصول الكافي (١/٢٤٨) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر اللّه وخزنة علمه. (عيبة الرجل): خاصته وموضع سره، والعيبة ما يجعل فيه الثياب. المازندراني (٥/٢٠١، ٢٠٢).

(٤) أصول الكافي (١/٣١٣ - ٣١٥). وسيأتي نقض نظرية علم الغيب عند الأئمة في الفصل القادم.

وجه اللّه نتقلّب في الأرض بين أظهركم، ونحن عين اللّه في خلقه ويده المبسوطة بالرّحمة على عباده، عرفنا من عرفنا وجهلنا من جهلنا » [١].

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: « نحن واللّه الأسماء الحسنى الّتي لا يقبل اللّه من العباد عملًا إلا بمعرفتنا » [٢].

قال أبو عبد اللّه عليه السلام: « إنّ اللّه خلقنا فأحسن خلقنا وصوّرنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده ولسانه النّاطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرّأفة والرّحمة، ووجهه الّذي يؤتى منه، وبابه الّذي يدلّ عليه، وخزّانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثّمار وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السّماء وينبت عشب الأرض، وبعبادتنا عُبد اللّه، ولولا نحن ما عُبد اللّه » [٣].

وغلو بعض الروايات يوقع في تناقضات عجيبة، بل في أمور لا يرضى العاقل أن تنسب لسادة آل البيت؛ مما يسيء للإسلام ونبيه ﷺ وآل بيته الكرام أكثر مما يحسن، وعدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل.

- ومن تلك التناقضات التي لا نرضاها للخليفة الرابع: وصفه بأنه دابة الأرض:

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: « كان أمير المؤمنين ﷺ كثيرًا ما يقول: أنا قسيم اللّه بين الجنّة والنّار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا والميسم [٤] ولقد أقرّت لي جميع الملائكة والرّوح والرّسل بمثل ما أقرّوا به لمحمّدٍ ﷺ ولقد حُملتُ على مثل حمولته وهي حمولة الرّبّ » [٥].

ما أغرب هذا النص الذي يريد الغلو في علي؛ فيصفه بأنه دابة الأرض التي تخرج

(١، ٢) أصول الكافي (١/١٩٢)، كتاب التوحيد باب النوادر.

(٣) أصول الكافي (١/١٩٢، ١٩٣)، كتاب التوحيد باب النوادر.

(٤) الميسم: الحديدة التي كانت العرب توسم بها الدواب.

(٥) أصول الكافي (١/٢٥٢)، كتاب الحجة باب أن الأئمة هم أركان الأرض، قال محققه: والحديث ضعيف بسنديه على المشهور. أما عن حكم الحديث الضعيف عندهم، فيقول الشهيد الثاني - زين الدين ابن نور الدين علي بن أحمد العاملي (ت ٩٦٥هـ) -: « جوّز الأكثرون العمل بالحديث الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في نحو صفات اللّه تعالى، وأحكام الحلال والحرام، وهو حسن حيث لا يبلغ بالضعيف حد الوضع والاختلاق لما اشتهر بين العلماء المحققين من التساهل بأدلة السنن، وليس في المواعظ والقصص غير محض الخبر... »!!. مقباس الهداية (١/١٩٢). وهذا يدل على أن الخبر الضعيف يعتد به عندهم في مجال الأخبار، وانظر: د. عمر محمد الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين جامعة الأزهر (ص ١٢٠).

آخر الزمان، فهل في هذا مدح أم قدح؟! وللأسف أكد هذا المجلسي لدى شرحه هذا الحديث؟ فقال: « هذا إشارة إلى أنه (ع) الدابة التي أخبر بها في الآية (٨٢) من سورة النمل، وعن حذيفة عن النبي ﷺ: « **دابة الأرض لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه: مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه: كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتحطم أنف الكافر بالخاتم حتى يقال: يا مؤمن ويا كافر** »[(١)].

- ولقد ذكر المجلسي في فضائل فاطمة الزهراء رضي الله عنها ما لا يليق بها ولا بغيرها من النساء:

عن حذيفة: « كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقبّل عرض وجنة فاطمة أو بين ثدييها ». وعن جعفر بن محمد قال: « كان رسول اللّٰه ﷺ لا ينام حتى يضع وجهه الكريم بين ثديي فاطمة »[(٢)]. فهل هذا الذي ذكروه يتناسب مع غيرة النبي ﷺ على آل بيته؟ وهل من عادات العرب أصحاب الحياء فعل هذا العمل، أو حتى جواز مروره على الألسنة؟ أم أن وراء الأكمة ما وراءها؛ من آثار المجوسية الإباحية القديمة؟.

- كما تزخر بعض الروايات بالغلو في الصفات الجسمانية للأئمة:

قال أبو جعفر: « للإمام عشر علامات: يولد مطهرًا مختونًا، وإذا وقع على الأرض وقع على راحته رافعًا صوته بالشهادتين ولا يَجْنُب، وتنام عينه ولا ينام قلبه، ولا يتثاءب ولا يتمطّى ويرى من خلفه كما يرى من أمامه، ونجوه (فساؤه وضراطه وغائطه) كريح المسك »[(٣)].

وهذه الأخيرة، يستحي المرء من الحديث عنها، فقد كان من أدب النبي ﷺ أن يبعد إذا أراد الغائط كما ورد في السنن، فمن أين جاء الشيعة بهذا الوصف لنجو الأئمة؟؟! وماذا يستفيد المرء من معرفة ذلك إلا أن يغالي بالأئمة.

- ويدّعون أن الحسين كان لا يرتضع الحليب كباقي الغلمان، بل يتغذى من لسان النبي ﷺ:

عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام « أنّ النّبيّ ﷺ كان يؤتى به الحسين فيلقمه لسانه فيمصّه فيجتزئ به ولم يرتضع من أنثى »[(٤)]. فماذا كان يفعل الحسين لما كان يغيب النبي ﷺ في غزواته الكثيرة؟!.

---

(١) مرآة المجلسي (٣٦٨/٢). وانظر: عبد اللّٰه بن شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٠٨).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٧٨/٤٣) تحت عنوان: تاريخ سيدة النساء فاطمة الزهراء.

(٣) الكافي (٣١٩/١). كتاب الحجة، باب مواليد الأئمة.

(٤) أصول الكافي (٥٣٧/١). كتاب الحجة باب مولد الحسين بن علي. سكت عنه المحقق.

- بل يدعي الشيعة أن النبي ﷺ نفسه رضع من ثدي عمه أبي طالب:

عن أبي عبد الله قال: « لما ولد النبي ﷺ مكث أيامًا ليس له لبن. فألقاه أبو طالب على ثدي نفسه. فأنزل الله فيه لبنًا فرضع منه أيامًا حتى وقع أبو طالب على حليمة السعدية فدفعه إليها » (١). والهدف من الرواية واضح، هو إبراز مكانة أبي طالب، والد أول الأئمة الاثني عشر، الإمام علي ﷺ.

- وقد وصل الغلو إلى درجة إنكار العلوم القطعية الكونية، كقولهم: إن فاطمة لا يصيبها الطمث:

عن عليّ بن جعفرٍ عن أخيه أبي الحسن عليه السلام قال: « إنّ فاطمة عليها السلام صدّيقةٌ شهيدةٌ وإنّ بنات الأنبياء لا يطمثن » (٢).

في حين روى الكليني في أصول الكافي ما يناقض هذه الرواية: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « كان بين الحسن والحسين عليه السلام طهرٌ وكان بينهما في الميلاد ستّة أشهرٍ وعشرًا » (٣). قال المحقق: « أي بين ولادة الحسن وعلوق الحمل بالحسين مقدار أقل الطهر لدى النساء عادة وهو عشرة أيام ».

وأي شرف للمرأة إن كانت لا تحيض أو تحيض، وهو أمر جبلّي « كتبه الله على بنات حواء »؟.

- كما ينسبون إلى علي ﷺ من الخوارق ما لم يرد عنه ولم يتواتر، كإحياء الموتى تشبيهًا له بعيسى عليه السلام، أو مسخه لبعض خصومه، وهو أمر لم يشتهر عن النبي محمد ﷺ:

عن عيسى شلقان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إنّ أمير المؤمنين عليه السلام له خؤولةٌ في بني مخزومٍ، وإنّ شابًّا منهم أتاه فقال: يا خالي إنّ أخي مات وقد حزنت عليه حزنًا شديدًا قال: فقال له: تشتهي أن تراه؟ قال: بلى. قال: فأرني قبره، قال: فخرج ومعه بردة رسول الله ﷺ متّزرًا بها فلمّا انتهى إلى القبر تلملمت شفتاه ثمّ ركضه برجله فخرج من قبره وهو يقول بلسان الفرس. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألم تمت وأنت رجلٌ من العرب؟ قال: بلى، ولكنّا متنا على سنّة فلانٍ وفلانٍ فانقلبت ألسنتنا » (٤).

---

(١) أصول الكافي (٣٧٣/١) كتاب الحجة. باب مولد النبي ﷺ ووفاته.

(٢) أصول الكافي (٥٣٥/١) كتاب الحجة مولد الحسن بن علي. وصححه المحقق.

(٣) أصول الكافي (٥٣٦/١) كتاب الحجة مولد الحسين بن علي. وصححه المحقق.

(٤) أصول الكافي (٥٢٩/١)، كتاب الحجة بَابٌ في مولد النبي ﷺ ووفاته. سكت عنه محقق أصول =

ولذلك فلا عجب أن تنسب إحدى الروايات إلى المهدي المنتظر - الذي يظهر في عدة أماكن فجأة - أنه أحيا بقرة:

عن عبد اللَّه بن المغيرة قال: « مرّ العبد الصّالح [وهم يقصدون بذلك المهدي المنتظر] بامرأةٍ بمِنًى وهي تبكي وصبيانها حولها يبكون وقد ماتت لها بقرةٌ، فدنا منها ثمّ قال لها: ما يبكيك يا أمة اللَّه؟ قالت: يا عبد اللَّه إنّ لنا صبيانًا يتامى، وكانت لي بقرةٌ معيشتي ومعيشة صبياني كان منها، وقد ماتت وبقيت منقطعًا بي وبولدي لا حيلة لنا. فقال: يا أمة اللَّه، هل لك أن أحييها لك؟ فأُلهمت أن قالت: نعم يا عبد اللَّه، فتنحّى وصلّى ركعتين ثمّ رفع يده هُنيهةً وحرّك شفتيه ثمّ قام فصوّت بالبقرة، فنخسها نخسةً أو ضربها برجله فاستوت على الأرض قائمةً، فلمّا نظرت المرأة إلى البقرة صاحت وقالت: عيسى ابن مريم وربّ الكعبة! فخالط النّاس وصار بينهم ومضى عليه السلام » [1].

وروي في كتاب جمع من هذه الطامات ما جمع وهو (سلوني قبل أن تفقدوني من مختصات أمير المؤمنين) أن عليًا رضي الله عنه صعد منبر الكوفة. « فقام رجل من أهل المسجد فقال له: يا بن أبي طالب سحرت أهل الحجاز وأتيت تسحر أهل العراق بتأويلك القرآن. فرمقه عليه السلام بطرفه، فإذا هو قد صار غرابًا، فطار بين القوم ووقع على حائط المسجد يزعق والناس ينظرون إليه » [2].

- وهناك رواية في بحار الأنوار على لسان علي رضي الله عنه نسبت إليه من صفات الربوبية ما لا يختلف عما كان يقول به ابن سبأ، والعياذ باللَّه تعالى:

ومما جاء فيها: « لي الكَرّة بعد الكرّة، والرجعة بعد الرجعة، وأنا صاحب الرجعات والكرّات، وصاحب الصولات والنقمات، والدولات العجيبات، وأنا قرن من حديد، وأنا عبد اللَّه وأخو رسول اللَّه ﷺ. أنا أمين اللَّه وخازنه، وعَيْبة سره وحجابه، ووجهه وصراطه وميزانه، وأنا الحاشر إلى اللَّه، وأنا كلمة اللَّه التي يجمع بها المفترق ويفرق بها

= الكافي. لاحظ أن الجواب جاء من الرجل (بلى) مع أن صيغة السؤال ليس فيها نفي « فقال له: تشتهي أن تراه، قال: بلى ». وهذا خلاف اللغة.

(١) أصول الكافي (١/٥٥٧)، كتاب الحجة بابٌ في مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، وقال محققه: الحديث صحيح.

(٢) محمد رضا الحكيمي: سلوني قبل أن تفقدوني من مختصات أمير المؤمنين (٢/٢٧)، مكتبة الصدر، طهران (١٤٢٠هـ)، وهو يأخذ عن الأنوار النعمانية (٢/٩٠).

المجتمع. وأنا أسماء اللّه الحسنى، وأمثاله العليا، وآياته الكبرى، وأنا صاحب الجنة والنار، أسكن أهل الجنة الجنة، وأسكن أهل [النار] النار، وإليَّ تزويج أهل الجنة وإليَّ عذاب أهل النار، وإليَّ إياب الخلق جميعًا، وأنا الأيّاب [١] الذي يؤوب إليه كل شيء بعد القضاء، وإليَّ حساب الخلق جميعًا، وأنا صاحب الهبّات، وأنا المؤذن على الأعراف، وأنا بارز الشمس، وأنا دابة الأرض، وأنا قسيم النار، وأنا خازن الجنان وصاحب الأعراف. وأنا أمير المؤمنين، ويعسوب المتقين، وآية السابقين، ولسان الناطقين، وخاتم الوصيين، ووارث النبيين، وخليفة رب العالمين، وصراط ربي المستقيم، وفسطاطه والحجة على أهل السماوات والأرضين، وما فيهما وما بينهما، وأنا الذي احتج اللّه به عليكم في ابتداء خلقكم، وأنا الشاهد يوم الدين، وأنا الذي علمت علم المنايا والبلايا والقضايا، وفصل الخطاب والأنساب، واستحفظت آيات النبيين المستخفين المستحفظين. وأنا صاحب العصا والميسم، وأنا الذي سخرت لي السحاب والرعد والبرق، والظلم والأنوار، والرياح والجبال والبحار، والنجوم والشمس والقمر، أنا القرن الحديد، وأنا فاروق الأمة، وأنا الهادي وأنا الذي أحصيت كل شيء عددًا بعلم اللّه الذي أودعنيه، وبسرّه الذي أسرّه إلى محمد ﷺ، وأسرّه النبي ﷺ إليَّ، وأنا الذي أنحلني ربي اسمه وكلمته وحكمته وعلمه وفهمه. يا معشر الناس اسألوني قبل أن تفقدوني، اللّهم إني أشهدك وأستعديك عليهم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، والحمد للّه متبعين أمره » [٢].

فمادام علي ﷺ بهذه الصفات؛ كيف غُلب على الخلافة وقال - كما تذكر إحدى الروايات: مقولة هارون عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠]؟! [٣].

- كما تزعم إحدى روايات بحار الأنوار أن عليًا ﷺ يعرج إلى السماء!:

فعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: « أتيت فاطمة صلوات اللّه عليها فقلت لها: أين بعلك؟ فقالت: عرج به جبريل عليه السلام إلى السماء، فقلت: فيم؟ فقالت: إن نفرًا من الملائكة تشاجروا في شيء فسألوا حكمًا من الآدميين، فأوحى اللّه تعالى إليهم أن تخيّروا، فاختاروا علي بن أبي طالب »!!! [٤].

---

(١) لعلها الأواب!!. (٢) المجلسي: بحار الأنوار(٥٣/٤٧، ٤٨).

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ١٥٨).

(٤) الشيخ المفيد: الاختصاص (ص ٢١٣)، والمجلسي: بحار الأنوار (٣٩/١٥١).

- ادعاء العصمة للأئمة:

عن جعفر الصادق أنه قال: « نحن قومٌ معصومون، أمر اللَّه تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السّماء وفوق الأرض » (١).

- والإمام يتكلم جميع لغات المخلوقات:

فالحسن يتكلم سبعين مليون لغة!. عن أبي عبد اللَّه أن الحسن قال: « إن للَّه مدينتين، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب. وفيها سبعون ألف ألف لغة... وأنا أعرف جميع تلك اللغات » (٢).

وعن أبي حمزة نصير الخادم قال: « سمعت أبا محمّدٍ غير مرّةٍ يكلّم غلمانه بلغاتهم تركٍ ورومٍ وصقالبة فتعجّبت من ذلك وقلت: هذا ولد بالمدينة ولم يظهر لأحدٍ حتّى مضى أبو الحسن عليه السلام ولا رآه أحدٌ فكيف هذا؟! أحدّث نفسي بذلك. فأقبل عليّ فقال: إنّ اللَّه تبارك وتعالى بيّن حجّته من سائر خلقه بكلّ شيءٍ ويعطيه اللّغات ومعرفة الأنساب والآجال والحوادث، ولولا ذلك لم يكن بين الحجّة والمحجوج فرقٌ » (٣).

وعن ابن أبي عميرٍ عن رجاله عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: إنّ الحسن عليه السلام قال: « إنّ للَّه مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، عليهما سورٌ من حديدٍ وعلى كلّ واحدةٍ منهما ألف ألف مصراعٍ وفيها سبعون ألف ألف لغةٍ يتكلّم كلّ لغةٍ بخلاف لغة صاحبها، وأنا أعرف جميع اللّغات وما فيهما وما بينهما وما عليهما حجّةٌ غيري وغير الحسين أخي » (٤).

قال المجلسي مصدّقًا بهذه الرواية: « ومما يؤيد أن الإمام وجب أن يكون عالمًا بجميع اللغات أنه لو حضر عنده خصمان بغير لسانه ولم يوجد هناك مترجم لزم تعطيل الأحكام، وهو مع استلزامه تبدد النظام يوجب فوات الغرض من نصب الإمام » (٥).

والحقيقة أننا لو تتبعنا نصوص القرآن والسنة لما وجدنا هذه المبالغات في الأئمة ثابتة

---

(١) أصول الكافي (١/٣٢٥)، كتاب الحجة بابٌ في أنّ الأئمّة بمن يشبهون ممّن مضَى وكراهية القول فيهم بالنّبوّة. والحديث عن العصمة طويل، وسيكون له مبحث خاص سيأتي في فصل العقائد الخاصة بالشيعة.

(٢) أصول الكافي (١/٣٨٤، ٣٨٥) كتاب الحجة، باب مولد الحسن بن علي.

(٣) أصول الكافي (١/٥٨٥)، كتاب الحجة، بابٌ في مولد أبي محمد الحسن بن علي.

(٤) أصول الكافي (١/٥٣٠) كتاب الحجة، باب مولد الزهراء، وصححه المحقق.

(٥) مرآة العقول (٦/١٥٦).

في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم أولى بهذه الأمور من الأئمة. بل رأينا النبي ﷺ وهو خاتم الأنبياء يبعث برسائله المشهورة المنشورة إلى الملوك وكلّها بلُغته؛ لغة العرب، ويأمر أحد فتيان الصحابة أن يتعلم لغة يهود، عن زيد بن ثابت ﷺ قال: (أمرني رسول اللّه ﷺ فتعلمت له كتاب يهود، وقال: « **إني واللّه ما آمن يهود على كتابي** » فتعلمته فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حَذِقتُه - أي عرفته -، فكنت أكتب له إذا كتب وأقرأ له إذا كُتب إليه) [1]. ولو كان ﷺ يعلم كل اللغات - كما زعمت روايات الاثني عشرية - لما كان لأمره لزيد أي معنى، حاشا وكلا.

والحقيقة أن روايات المبالغات في الأئمة هذه قد دسّت من قبل الغلاة؛ لأنَ المتتبع لكثير من روايات الاثني عشرية يلاحظ أن الأئمة كانوا يؤكدون على بشريتهم وعدم اختصاصهم بالعصمة ولا بغيرها، ويربطون قلوب أتباعهم باللّه ﷻ:

قال أبو الحسن ﷺ لمحمد بن أبي نصر: « أخبرني عنك؛ لو أني قلت لك قولًا أكنت تثق به مني، فقلت له: جعلت فداك إذا لم أثق بقولك فبمن أثق وأنت حجة اللّه على خلقه؟ قال: فكن باللّه أوثق فإنك على موعد من اللّه، أليس اللّه ﷻ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.. ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ... ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا.. ﴾ [البقرة: ٢٦٨] فكن باللّه ﷻ أوثق منك بغيره، ولا تجعلوا في أنفسكم إلا خيرًا فإنه مغفور لكم » [2].

وقال الإمام الرضا: « والإمام يولد ويلد، ويصح ويمرض، ويأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، وينكح وينام، وينسى ويسهو، ويفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويحيا ويموت، ويُقبر ويُزار، ويحشر ويُوقف، ويُعرض ويسأل ويثاب ويكرم ويُشفع. ودلالته في خصلتين: في العلم واستجابة الدعوة، وكل ما أخبر به من الحوادث التي تحدث قبل كونها؛ فذلك بعهد معهود إليه من رسول اللّه ﷺ توارثه عن آبائه ﷺ ويكون ذلك مما عهد إليه جبريل من علام الغيوب » [3].

---

(١) سنن أبي داود (٣٤٢/٢) كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٥) وهو حديث حسن صحيح.

(٢) أصول الكافي (٤٥٨/٢) كتاب الدعاء باب من أبطأت عليه الإجابة، قال محققه: والحديث هذا صحيح. ومعنى: لا تجعلوا في أنفسكم إلا خيرًا: أي لا تظنوا بربكم إلا خيرًا.

(٣) عيون أخبار الرضا (١٩٣/١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (١٤٠٤هـ).

وهذا ما أكده بعض علماء الاثني عشرية؛ فقد قال الشيخ المفيد: « فأما إطلاق القول عليهم (أي الأئمة) بأنهم يعلمون الغيب فهو منكر بيّن الفساد؛ لأن الوصف بذلك إنما يستحقه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، وعلى قولي هذا جماعة أهل الإمامة، إلا من شذ عنهم من المفوضة [1] ومن انتمى إلى الغلاة » [2].

* * *

(١) المفوضة: فرقة من الغلاة: تقول إن الله خلق محمدًا ﷺ ووكل الأمور وفوضها إليه فخلق الدنيا، ثم فوّض محمد ﷺ إلى علي بن أبي طالب ﷺ تدبير العالم، ولهم هرطقات كثيرة، منها تخوين محمد وموسى عليهما صلوات الله وسلاماته. ويؤولون الجنة والملائكة تأويلات باطنية. انظر: ابن الجوزي: تلبيس إبليس (ص ١١٩)، البغدادي:الفَرْق بين الفِرَق (ص ٢٣٨)، الإسفراييني: التبصير في الدين (ص ١٢٨). وانظر: بحار الأنوار (٢٥/٣٤٥).

(٢) الشيخ المفيد: أوائل المقالات (ص ٧٧).

المَبْحَثُ السَّادِسُ

موقف علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة

وأمام هذا التناقض في الروايات عن الأئمة: روايات تؤكد بشريتهم، وروايات تؤكد عصمتهم وارتفاعهم عن البشر - كان هناك موقفان لعلماء الاثني عشرية؛ فغالبية علماء الاثني عشرية وقفوا مع روايات تعظيم الأئمة والمبالغة فيهم، وأوّلوا الروايات النافية « بأنها صادرة عن الأئمة في مقام التعليم لعامة الناس، أو أنها صادرة تَقيَّة، وقاموا إلى جانب ذلك برواية مجموعة من الروايات التي تدعي العصمة بصراحة، وتشترطها في الإمام أو الأئمة، وهي روايات ضعيفة وغامضة وغير ذات دلالة » [1].

في حين أدرك بعض العلماء الاثني عشرية أن هذه الروايات من تسريبات الغلاة، فحكموا بضعف أو وضع هذه الروايات، وهذا يدل على وجود تصارع شديد داخل المدرسة الشيعية؛ بين فكر يميل إلى التوسط الاعتدال، وفكر يميل إلى الغلو والانغلاق.

وإذا كان الأئمة قد تبرؤوا من الغلو والغلاة؛ فإن علماء الاثني عشرية أيضًا قد تبرؤوا منهم باللسان، ولكن سنرى في المواقف والأفكار الجزئية أن آراءهم تتراوح بين المد والجزر، بين الاعتدال والغلو.

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

تبرؤ علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة

يشهد كثير من نصوص علماء الاثني عشرية أنهم تبرّؤوا من الغلاة وكفّروهم؛ كالصدوق والمفيد وغيرهما.

قال الشيخ الصدوق: « قال الشيخ أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنهم كفار بالله جل اسمه، وأنهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن

---

(١) أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي (ص ٧٥، ٧٦).

جميع أهل البدع والأهواء المضلة، وأنه ما صغر الله ﷻ تصغيرهم بشيء، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١] » (١).

وقال المفيد: « وهم ضُلّال كفار، حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار، وقضت عليهم الأئمة عليهم السلام بالإكفار والخروج عن الإسلام (٢).

وأما النوبختي الشيعي فقد بيّن الأثر الخارجي في نشأة الغلاة؛ فقال: « فهذه فرق أهل الغلو ممن انتحل التشيع، وإلى الخرميدنية والمزدكية والزنديقية والدهرية مرجعهم جميعًا، لعنهم الله تعالى » (٣).

واتخذ علماء الحديث الاثنا عشرية أيضًا موقفًا حازمًا من غلاة الرواة؛ فلم يقبلوا من حيث المبدأ رواية الغلاة، قال الشيخ الطوسي: « فأما ما رواه الغلاة ومن هو مطعون عليه في روايته ومتهم في وضع الأحاديث فلا يجوز العمل بروايته إذا انفرد » (٤). وكثيرًا ما يقول علماء الرجال: « ضعيف جدًّا لا يلتفت إليه، في مذهبه غلو »، « كذاب غال ضعيف متروك الحديث »، « غال ضعيف ». يقول إحسان أمين: « ومن يراجع كتب الرجال المعتمدة عند الشيعة يخرج بنتيجة قاطعة عن موقفهم الحاسم ضد الغلاة وردّ أحاديثهم » (٥).

وقد ورد في الذريعة إلى تصانيف الشيعة ما يقارب عشرين مؤلَّفًا في الرد على الغلاة (٦).

---

(١) الشيخ الصدوق: الاعتقادات في دين الامامية (ص ٧١، ٧٢). والحرورية: فرقة ممن كان مع علي عليه السلام وخالفته بعد تحكيم الحكمين بينه وبين معاوية وأهل الشام، وقالوا: لا حكم إلا لله، وكفّروا عليًا عليه السلام وتبرؤوا منه، وأمّروا عليهم ذا الثدية وهم المارقون، فخرج علي عليه السلام فحاربهم بالنهروان فقتلهم وقتل ذا الثدية فسموا (الحرورية) لوقعة حروراء، وسموا جميعًا: الخوارج ».

(٢) المفيد: أوائل المقالات (٢٣٨). (٣) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٤١).

(٤) محمد بن الحسن الطوسي: عدة الأصول (ص ٣٥١). مؤسسة آل البيت - قم.

(٥) انظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٦٦، ٢٦٧)، وهو يعزو ذلك إلى كتب الرجال كرجال النجاشي، والفهرست للطوسي واختيار الرجال للكشي، ومعجم رجال الحديث للخوئي.

(٦) انظر: آغا بزرك الطهراني الذريعة إلى تصانيف الشيعة الجزء العاشر، عبد الله نعمة: روح التشيع (ص ١٠٠).

ويرى بعض كتاب الشيعة أن نسبة الغلاة إلى الشيعة فيه ظلم كبير؛ يقول الشيخ جعفر سبحاني: « قد ذكر أصحاب الفرق فرقًا للشيعة باسم الغلاة، ومع أنهم يصرحون بأنهم ليسوا من فرق المسلمين، ولكن يذكرونها فرقًا للشيعة ويحملون أوزار الغلاة على الشيعة » [(١)].

ولكن عذر كتّاب الفرق من أهل السنة أن هذه التقسيمات وردت في كتب الفرق السنّية والشيعية على السواء، كالنوبختي والقمي. والسبب في نسبة فرق الغلو إلى الشيعة: خروج الغلاة من عباءة التشيع، وكونهم في البداية من أتباع الأئمة كأبي الخطاب وغيره.

ويحاول إحسان الأمين قصر مفهوم الغلو على الخارجين عن الدين دون المغالين في الأئمة فيقول: « بقي أمر وهو أن البعض اعتبر كل مبالغة أو زيادة أو إفراط في القول في أئمة أهل البيت (ع) نوعًا من الغلو، والواقع أن إطلاق القول بهذا التسرع على كل زيادة هو في ذاته نوع من الغلو والتطرف؛ إذ إن الغلو وإن كان يعني التجاوز عن الحد ولكنه صار مصطلحًا في العرف الإسلامي يقترن بالغلاة الخارجين عن الدين لإطلاقهم صفات الربوبية على البشر، لا كل زيادة وإفراط... كما نجد اليوم كثيرًا من المسلمين من أتباع الفرق الصوفية وغيرهم ممن يبالغ في كرامة الأولياء ويعطيهم صفات عظيمة وآثارًا خارقة... إلخ » [(٢)].

والحق أننا نرفض الغلو من كل الأطراف ومن كل الطوائف، وفي كل المجالات: العقدية والتعبّدية والسلوكية..

* * *

المَطْلَبُ الثَّانِي

بعض مظاهر الغلو في فكر بعض علماء الشيعة

ولكن للأسف نرى أن حبل هذا الغلو موصول بين الغلاة ورواة الأحاديث الشيعية، وبعض مفكري الشيعة القدامى والمعاصرين، وإن حاول بعض كتّاب الشيعة إنكار ذلك.

فالصدوق يرى أن السجود لآدم لأجل نور الأئمة: « السر في أمره تعالى الملائكة

---

(١) جعفر سبحاني: بحوث في الملل والنحل (٧/١٠). مؤسسة الصادق - قم (١٤١٦هـ).

(٢) التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٠، ٢٧١).

بالسجود لآدم عليه السلام واستعباد الله عز وجل الملائكة بالسجود لآدم تعظيمًا له... وذلك أنه عز وجل إنما أمرهم بالسجود لآدم لما أودع في صلبه عليه السلام من أرواح حجج الله تعالى » [١] يعني: الأئمة.

ويقول كثير من مفكري الشيعة بخضوع ذرات الكون للإمام، بإثبات الولاية التكوينية للأئمة: « فإن للإمام عليه السلام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله... وقد ورد عنهم (ع) أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومثل هذه المنزلة موجود لفاطمة عليها السلام » [٢].

وقد زادوا على هذه المعاني معنى آخر اشتركوا به مع بعض المتصوفة، وهو معنى الفناء مع الله تعالى، « وقالوا عليهم السلام أيضًا: لنا مع الله حالات هو فيها نحن ونحن هو، وهو هو ونحن نحن » [٣].

هذه النصوص صريحة بوجود تسرّب من فكر الغلاة إلى فكر بعض علماء الاثني عشرية، وهي لا ترفع الأئمة؛ بل على العكس تسيء إليهم؛ فقد كان أجمل وصفٍ وُصفَ به النبي صلى الله عليه وسلم هو العبودية، وهو عارج فوق السماوات السبع: قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا

---

(١) الصدوق: كمال الدين (١٣/١).

(٢) روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية (٥٢، ٥٣)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، وأصله دروس فقهية ألقاها على طلاب علوم الدين في النجف تحت عنوان (ولاية الفقيه) (١٣٨٩هـ). وانظر: رجب البرسي: مشارق أنوار اليقين - (ص ٢٢٥)، الشيخ جلال الصغير: الولاية التكوينية، الحق الطبيعي للمعصوم (ص ١٠٣).

(٣) التبريزي الأنصاري: اللمعة البيضاء (ص ٢٨)، وعزاه المحقق إلى: الكلمات المكنونة للفيض الكاشاني (ص ١١٤) في معنى الفناء في الله، وأورده أيضًا الخميني في كتاب مصباح الهداية صفحة (٦٧)، وقال بعده: « وكلمات أهل المعرفة - خصوصًا الشيخ الكبير، محيي الدين - مشحونة بأمثال ذلك، مثل قوله: « الحق خلق، والخلق حق، والحق حق، والخلق خلق ». وهكذا يتقاطع فكر أهل (العرفان) الشيعي مع أهل (التصوف) السني.

حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

وقد كان سيد الأنبياء محمد ﷺ يكرر التأكيد على بشريته فيقول: « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله** » [(١)]. عن جرير ابن عبد الله ﷺ قال: أتى النبي ﷺ برجل ترعد فرائصه. قال: فقال له: « **هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء** » [(٢)].

ويرى إحسان أمين - الاثني عشري المعاصر - أن « المُراجِع لتفاسير الشيعة الاثني عشرية المعروفة كالتبيان ومجمع البيان والميزان وغيرها مما يصح أن تنسب إليهم وتمثل وجهة نظرهم في التفسير يجدها خلوًا تمامًا مما يمكن أن يكون غلوًّا » [(٣)]. وهذه الدعوى يدحضها كثير من الروايات الغالية التي تزخر بها هذه الكتب، وخصوصًا في مسألة الإمامة [(٤)].

كما أن شرّاح أحاديث الأئمة الذين نشؤوا في عهود فشوّ الفكر الغالي - كالعهد الصفوي - صاروا يلوون أعناق نصوص الأئمة لدعم غلوهم في الأئمة. ومن أمثلة ذلك: أن هناك رواية تقول: سأل أحدهم جعفر الصادق: إنكم تقدرون أرزاق العباد؟ فقال: « والله ما يقدر أرزاقنا إلا الله، ولقد احتجت إلى طعام لعيالي فضاق صدري وأبلغت إليّ الفكرة في ذلك حتى أحرزت قوتهم، فعندها طابت نفسي. لعنه الله وبرئ منه » [(٥)].

وكذلك رواية تقول: « يا عجبًا لأقوامٍ يزعمون أنّا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلا الله ﷻ. لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت منّي فما علمت في أيّ بيوت الدّار هي » [(٦)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم: ١٦]، رقم (٣٢٦١).

(٢) سنن ابن ماجه رقم (٣٣١٢)، (٢/١١٠١)، وفي الزوائد هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، الحاكم: المستدرك (٢/٥٠٦). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (القديد): اللحم المجفّف بتشريقه وتعريضه للشمس.

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٣).

(٤) سيمر عدد كبير من هذه الروايات في فصل العقائد الخاصة بالشيعة، مبحث الإمامة.

(٥) بحار الأنوار (٢٥/٣٠١)، رجال الكشي (ص ٣٢٣)، وانظر رواية في هذا المعنى في بحار الأنوار (٢٥/٣٢)، ورجال الكشي (ص ٣٢٤، ٣٢٥)، وأخرى أيضًا في البحار (٢٥/٣١٦)، ورجال الكشي (ص ٥١٨، ٥١٩).

(٦) أصول الكافي (١/٣١٣)، كتاب الحجة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: وهذا الحديث مجهول.

ولكن هذا لم يعجب شراح الحديث الشيعة فجاء المازندراني ليقول: « .. الغرض من هذا التعجب وإظهاره هو ألا يتخذه الجهال إلهًا، أو يدفع عن وهم بعض الحاضرين المنكِرين لفضله ما نسبوه إليه من العلم بالغيب حفظًا لنفسه، وإلا فهو ﷺ كان عالمًا بما كان وما يكون؛ فكيف يخفى عليه مكان الجارية؟ فإن قلت: إخباره بذلك على هذا يوجب الكذب، قلت: إنما يوجب الكذب لو لم يقصد التورية، وقد قصدها؛ فإن المعنى ما علمت علمًا غير مستفاد منه تعالى بأنها في أي بيوت الدار »[1].

وهكذا يخالف المازندراني نصّ الرواية، ويقف أمامها وجهًا لوجه، ويحتال في تأويلها؛ لأن ضروريات مذهبه لا تسمح له بالإقرار بها. فأيهما واجب الاتباع: قول الإمام أم تأويل الشرّاح؟!.

وبهذا نصل إلى أن الفكر الشيعي يحمل في طياته بذور الاعتدال والغلو معًا؛ ولذلك فنحن ندعو المسلمين جميعًا سنة وشيعة إلى الاعتدال، وأخذ موقف واضح من الغلو والغلاة.

* * *

المَطلَبُ الثَّالِثُ

كتّاب الشيعة المعاصرون بين الغلو والاعتدال

إن الغلو في الأئمة ليس هو اللحن الوحيد الذي يظهر على الساحة الشيعية؛ فهناك من علماء الشيعة من يحارب الغلو والغلاة، ويظهر هذا بكل وضوح في عبارات دعاة الوسطية والوحدة الإسلامية والحوار بين الطوائف الإسلامية.

ويمكن تقسيم دعاة الاعتدال والوسطية من الشيعة المعاصرين، وهم دعاة التقريب مع المذاهب الإسلامية الأخرى إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى:

تتضمن هذه المجموعة نماذج لعلماء الاثني عشرية الذين حاربوا الغلو بكافة أنواعه، جملة وتفصيلًا، حتى خرجوا أو أُخرجوا من دائرة التشيع، وتحمّلوا لأجل ذلك العناء والعنت من قومهم. ومن أشهر هؤلاء:

---

(١) المازندراني: شرح أصول الكافي (٦/٣٠، ٣١).

١ - أحمد مير قاسم بن مير أحمد الكسروي:

ولد (١٢٦٧) في تبريز، عمل أستاذًا في جامعة طهران، ومحررًا لجريدة (برجم) الإيرانية، كما تولى عدة مناصب قضائية، حتى أصبح المدعي العام في محكمة طهران.

ألّف عدة كتب ينتقد فيها الأفكار المنحرفة عن التصور الإسلامي.

- **فمن مؤلفاته:**

١ - نقد الصوفية.

٢ - نقد البهائية.

٣ - نقد الشيعة.

٤ - التشيع والشيعة.

وقد أثار كتابه « التشيع والشيعة » ردّة فعل عنيفة تجاهه؛ حيث اتهم الكسروي بالعلمانية والشيوعية، والنيل من الحوزة العلمية ومراجعها، كما حارب طغيان الاتجاه الفلسفي في فهم الدين الإسلامي؛ إذ رآه عقّد الدين وخرج بالإسلام عن روحه. وانتقد مآتم الشيعة في عاشوراء وأمثالها قائلًا: « مما لا ريب فيه أن الحسين قتل مظلومًا مخدوعًا، ولكن أي جدوى لتكرار البكاء والنحيب وإقامة المآتم عليه بعد مضي ألف وثلاثمائة عام » [(١)]. كما نسف نظرية الإمامة من أساسها، واعتمد نظرية الشورى باعتبارها تعليمًا من تعاليم القرآن الكريم.

ولذلك فقد قام الخميني بتأليف كتابه (كشف الأسرار) للرد على أفكار الكسروي، وإن لم يسمّه باسمه؛ بل بالخبيث [(٢)].

ولذلك تعرض لمحاولة اغتيال بالرصاص، وأسعف إلى المستشفى فشفاه اللَّه تعالى. كما اتهم بعد ذلك بالخروج عن الإسلام، فاستدعي إلى المحكمة فأطلق عليه خصومه الرصاص وطعنوه بخنجر حتى مات وفي جسده تسعة وعشرون جرحًا، عام (١٩٤٦م). وعمره (٥٧) سنة [(٣)].

---

(١) انظر: خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، (ص ١٧١)، (في صفوف الإمامية في القرن الأخير)، (ط١)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م)، نسخة مصورة من مكتبة الملك فهد الوطنية، عن التشيع والشيعة (ص ١٤١).

(٢) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ١٧٣).

(٣) المرجع السابق (ص ١٥٧).

٢ - محمد بن إسكندر الياسري:

ينحدر من عائلة علوية النسب، فكان أبوه يلقب بالسيد كاظم، ولد في مدينة الحلّة، تعلم الهندسة، ثم التحق بالحوزة العلمية لعدة سنوات [١].

- **من مؤلفاته:**

١ - مذهبنا الإمامي الاثني عشري بين منهج الأئمة والغلو.

٢ - المنهاج والمرجعية القرآنية.

٣ - القرآن وعلماء أصول ومراجع الشيعة.

انتقد فكر الغلاة، ودافع عن سلامة القرآن الكريم من التحريف، فانتقد الكليني والمجلسي لقولهما بتحريف القرآن في كتبهما، ورأى أن هذا واضح في كتبهما [٢].

كما انتقد النوح عند الشيعة؛ لأنه يخالف اتجاه الأئمة، مستشهدًا بقول علي ﷺ: « ينزل الصبر على قدر المصيبة، ومن ضرب يده على فخذه، عند مصيبته حبط عمله » [٣] وقوله: « تغلبكم نساؤكم على ما أسمع، ألا تنهونهن عن هذا الرنين » [٤].

توفي رحمه الله عندما أطلق عليه النار ثلاثة من المتعصبين عام (١٩٩٧م).

٣ - إسماعيل بن عبد الكريم آل إسحاق الخوئيني:

ولد عام (١٩٣٧م) في زنجان في أسرة لها مكانتها الاجتماعية والعلمية، فوالده آية اللّٰه عبد الكريم الخوئيني، تعلم الأدب العربي والفارسي، سافر إلى النجف وتتلمذ على يد مراجعه، ودرس على يد مرتضى مطهري خمس سنوات في جامعة طهران.

- **من مؤلفاته:**

١ - أنواع الشرك وأقسامه.

٢ - الحسين وليس يا حسين واحسيناه.

٣ - علي وليس يا علي.

---

(١) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، (ص ١٨٦، ١٨٧).

(٢) انظر: القرآن وعلماء أصول ومراجع الشيعة (ص ١٠ - ١٧)، خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٢١٠).

(٣) انظر: كتابه مذهبنا الإمامي الاثني عشري بين منهج الأئمة والغلو (ص ٧٠).

(٤) انظر: نهج البلاغة، قصار الحكم رقم (١٤٤)، ورقم (٣٢٢)، جامع أحاديث الشيعة (٣٨٧/٣).

٤ - البدع في الدين.

نبذ الخوئيني المذهب الاثني عشري مع ما كان يقدّمه له من امتيازات؛ فحاول خصومه اتهامه بالعمالة فلم يفلحوا، ولذلك حورب الخوئيني وضيّق عليه في مكانته السياسية وفي رزقه؛ حيث اضطرت عائلة (أبي إسحاق) إلى التخلي عنه، وجاء القرار بإلغاء عمله رئيسًا لمكتب مركز حماة القدس، كما عاش في فاقة شديدة اضطرته أن يبيع مزرعته العامرة من أجل العلاج، ولم يكن يستجيز أخذ الخمس كباقي المراجع الشيعية، ثم قبض عليه وألقي في السجن، وحُكم عليه بالإعدام، ولكن حال موت الخميني بين قومه وبين إعدام الخوئيني، ولكن ضيّق إلى أن توفي عام (٢٠٠٠م) عن عمر يناهز ثلاثًا وستين سنة [(١)].

قال في قصيدة له: « تركت منصبًا بعد ما كنت مرجعًا للمذهب كالآخرين؛ ابتغاء وجه اللّٰه وخوف عقوبة الجناية على دين اللّٰه، لو لم أترك لكنت خائنًا، لن أكون من أهل التزوير، ولن آخذ أموالًا من الناس، ولن أكون داعيًا إلى ترويج المذهب؛ بل سأكون موحدًا ومتبعًا للإسلام » [(٢)].

٤ - آية اللّٰه العظمى أبو الفضل بن رضا البرقعي:

هو أبو الفضل بن رضا البرقعي، درس في الحوزة العلمية بقم على يد كبار مراجعها، كأبي الحسن الأصفهاني وعبد الكريم الحائري اليزدي، ونال فيها درجة الاجتهاد. له مئات التصانيف التي أتت على نبذ التعصب الطائفي المقيت، ونبّهت إلى ضرورة الرجوع إلى دراسة القرآن والسنّة دراسة هادئة متأنية.

- **من مؤلفاته:**

١ - كتاب أحكام القرآن.

٢ - دروس من الولاية.

٣ - تضاد (مفاتيح الجنان) مع القرآن.

٤ - دراسات في أخبار المهدي.

٥ - الجامع المنقول في سنن الرسول بالفارسية.

---

(١) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٢٢٥).

(٢) النص مترجم من قصيدته بالفارسية (أشكرك يا إلهي)، انظر: أعلام التصحيح (ص ٢٣٠).

٦ - ترجمة مختصر منهاج السنة النبوية لابن تيمية.

٧ - كسر الصنم.

انتقد في كتابه كسر الصنم منهج الكليني في الكافي، وحكم بوضع كثير من رواياته، وقد حظرت هذه الكتب ومنع طبعها أو تداولها في إيران [١]..

وقد تبرّأت مراجع الاثني عشرية من البرقعي رغم مكانته العلمية السامقة، واتهمته بالعمالة وخفة العقل، جاء في فتوى (على الإنترنت) لمركز الأبحاث العقائدية: « كان أبو الفضل البرقعي من أسرة عريقةٍ من أهالي قم، وكان من جملة المحصّلين في الحوزة العلمية؛ إلا أنه كان منذ شبابه خفيف العقل منحرف الفكر، فترك الدراسة وذهب إلى طهران بدعوةٍ من بعض السّفارات الأجنبيّة بواسطة بعض عملائهم، فجعلوا يروّجون له ويمدونه بالأموال ويطبعون مقالاته؛ حتى أفتى كبار المراجع بضلالته، وأوعزوا إلى الجهات الحكومية بإلقاء القبض عليه وتأديبه، فانكشف حاله وافتضح أمره ومَقتَه الناس وطردوه، فمات على تلك الحال، وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين » [٢].

ولو كان ما يقوله هؤلاء صحيحًا؛ إذن لحكموا على من زكّاه أولًا من مراجعهم بخفة العقل وانحراف الفكر، فقد ضمّ آخر كتابه (كسر الصنم) صورًا لعدد من إجازات وشهادات كبار المراجع الدينية في حقّه، ومن هؤلاء العلماء الذين أثنوا على علمه وذكائه وتقواه: آية اللّٰه العظمى أبو الحسن الأصفهاني، وآية اللّٰه الكاشاني، وآغا بزرك الطهراني [٣].

أوذي الشيخ البرقعي في سبيل الحق الذي وصل إليه؛ حيث وشى به بعض المتعصبين للسلطات الإيرانية، فتعرض للإيذاء في عهد الشاه، ثم ازداد إيذاؤه في عهد الثورة الإيرانية؛ حيث تعرّض لمحاولة اغتيال بالرصاص، وقد ناهز الثمانين، فدخلت رصاصة من خدّه الأيسر إلى خدّه الأيمن، وفي المستشفى مُنع الأطباء من مداواته، فنصحه أحدهم أن يمضي إلى بيته ويُعالج هناك، وشفي الشيخ البرقعي بقدرة اللّٰه تعالى، ولم تلن له قناة في

(١) انظر البرقعي: كسر الصنم، (نقض كتاب أصول الكافي) مقدمة المؤلف (ص ٢٩)، (ط ١)، دار البيارق - عمان (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، ترجمه إلى العربية عبد الرحيم ملا زاده البلوشي.

وقد ظهر من قبله في سيد أسد اللّٰه الخرقاني وآية اللّٰه شريعتي سنغلى، ودكتور شعار، وسيد مصطفى طباطبائي، وحسين الموسوي، وكلهم كتبوا مقالات ومؤلفات في نقد المذهب الاثني عشري، فنالهم ما نالهم من الأذى والتضليل. راجع قسم الملحقات (الوثائق) آخر الرسالة.

(٢) انظر: مركز الأبحاث العقائدية، ضمن قرص المعجم الفقهي.

(٣) انظر صور شهادات الآيات بالبرقعي وذكائه وعلمه في آخر كتابه كسر الصنم (ص ٣٧٤ - ٣٧٦).

الصدع بآرائه، فما كان من خصومه إلا أن يودعوه في سجن (إوين) الذي يعتبر من أقسى السجون السياسية من حيث وضعه وطرق التعذيب فيه، وأقام في غياهبه قرابة السنة، ليُنفى بعد ذلك إلى مدينة (يزد)، ولكن بعد خمسة أيام من نفيه اقتيد مرة أخرى إلى السجن، ثم نفي مرة أخرى إلى (يزد). حتى توفي عام (١٩٩٢م) عن عمر يناهز (٩٣) عامًا، وقد خرج عن مذهب الاثني عشرية، وأوصى بأن يدفن في مدافن السنة [١].

٥ - الدكتور موسى الموسوي:

ولد في النجف عام (١٩٣٠م) من أسرة علوية علمية عريقة، فينتهي بنسبه إلى الإمام موسى الكاظم، وجدّه أبو الحسن الأصفهاني أحد أبرز مراجع الشيعة في القرن الماضي، درس في النجف، ونال درجة الاجتهاد، كما حصل على درجة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة طهران عام (١٩٥٥م)، وحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة باريس (السوربون) عام (١٩٥٩م)، عمل مدرّسًا في جامعة طهران (١٩٦٠ - ١٩٦٢م) وجامعة بغداد (١٩٦٨ - ١٩٧٨م)، ودرّس في جامعة طرابلس في ليبيا، وجامعة هالة في ألمانيا، وجامعة لوس أنجلوس.

انتخب رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى في غرب أمريكا عام (١٩٧٩م).

- **من أشهر مؤلفاته:**

١ - الشيعة والتصحيح.

٢ - يا شيعة العالم استيقظوا.

٣ - الصرخة الكبرى، أو عقيدة الشيعة الإمامية في أصول الدين وفروعه في عصر الأئمة وبعدهم.

٤ - الديموقرطية في عصر الخلفاء الراشدين.

٥ - فقه الصادق.

٦ - المتآمرون على المسلمين الشيعة.

---

(١) انظر: مقدمة د. عبد الرحيم ملا زاده البلوشي، مترجم كتاب البرقعي: كسر الصنم (نقض كتاب أصول الكافي)، (ص ٢٤)، (ط١)، دار البيارق - عمان (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، وراجع موقع صحوة الشيعة: www.newshia.com.

٧ - الثورة البائسة.

أنكر موسوي جميع مظاهر الغلو في الفكر الاثني عشري، كالقول بتحريف القرآن الكريم، والنيل من الصحابة، وعصمة الأئمة (١).

كما أنكر تعذيب الجسد بالتطبير الذي يقوم به عوام الشيعة في ذكرى عاشوراء، ورآه مناقضًا لتكريم الله تعالى للإنسان، وأكد أنه من المظاهر التي أساءت إلى الإسلام في العالم الغربي (٢).

- **أهم الأفكار التي نادى بها:**

- العودة إلى التشيع الأول الذي لم يكن يختلف عن عقيدة الأمة إلا في مسألة تفضيل علي ﷺ.

- تحكيم القرآن الكريم والعودة إلى عهد السلف الصالح لتصحيح الخلل الذي نال عقيدة الشيعة الاثني عشرية.

- السعي لأن يكون الخلاف بين السنة والشيعة خلافًا فقهيًا، لا عقديًا.

- ترك التبعية لفقهاء الشيعة المجتهدين، والأخذ بفقه الإمام جعفر الصادق مباشرة.

- **وضع الموسوي برنامجًا من أجل تطبيق هذه الأفكار على أرض الواقع:**

١ - اختيار لجنة من العلماء الثقات لتأليف كتب تتضمن غربلة لروايات وأحاديث الاثني عشرية، ثم طباعة هذه الكتب ونشرها.

٢ - نشر فقه الإمام الصادق وترجمته إلى جميع لغات العالم.

٣ - إنشاء مركز دائم لتهيئة رجال التصحيح، واشترط أن يكون في بلد يتمتع بالحرية، بعيدًا عن تدخل السياسية فيه.

٤ - إصدار مجلة تهتم بقضايا التصحيح (٣).

لقد ظهرت أفكار الدكتور موسى الموسوي في أوج الثورة الخمينية؛ حيث لم يكن هنالك مجال للتروي والتفكير في آرائه في أوساط الشيعة؛ ولذلك وُوجِهَتْ أفكاره بالمحاربة والانتقاد من قِبل مراجع الشيعة، يقول القزويني عنه: « ويبدو أن مروقه عن

---

(١) انظر: الشيعة والتصحيح (ص ٣٠) وما بعدها.

(٢) انظر: موسى الموسوي: يا شيعة العالم استيقظوا (ص ٥٣)، ولا تنسَ أنه عاش في الغرب، فكلامه عن معاينة.

(٣) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٤١ - ٣٤٣).

الدين وعدم تورعه في ارتكاب المنكرات وعداءه الشديد للتشيع يعود إلى عقدة نفسية عميقة الجذور في شخصيته » [(١)].

توفي الدكتور موسى الموسوي عام (١٤١٧هـ) رحمه الله.

وهناك شخصيات شيعية كثيرة شبيهة بهذه الشخصيات الصامدة على الحق، ولكن لا يتسع المقام لبسط الحديث عنها، مثل سيد أسد الله الخرقاني، وآية الله شريعتي سنغلى، ودكتور شعار، وسيد مصطفى طباطبائي، وأحمد الكاتب [(٢)]، وحسين الموسوي [(٣)]، ولهم مقالات ومؤلفات في نقد المذهب الاثني عشري، وجميعهم نالهم ما نالهم من قومهم الأذى والتضليل.

المجموعة الثانية:

وهم مجموعة من علماء الاثني عشرية المعاصرين الذين انتقدوا بعض مسائل الغلو داخل مذهبهم، مع محافظتهم على البنيان الاثني عشري ومراكزهم الدينية داخل هذا المذهب، ومن أشهر هؤلاء:

١ - آية الله العظمى محمد بن محمد مهدي بن حسين الخالصي:

ولد عام (١٨٨٨) في مدينة الكاظمية في العراق، ووالده آية الله العظمى محمد مهدي الخالصي.

كان الخالصي الذي كان قائدًا علميًا، وجهاديًا؛ حيث له الباع الطويل في جهاد المستعمر، حيث قاد ثورة عام (١٩٢٠م) ضد الإنكليز في العراق، ومنع عمال العراق من العمل في معامل الإنكليز؛ مما اضطرهم لنفيه إلى مدينة (كاشان) الإيرانية، وبعدها كانت له وقفات طويلات في جهاد الإنكليز، فتعرّض للنفي مرارًا، وبلغ مجموع

---

(١) انظر: الدكتور علاء الدين بن السيد أمير محمد القزويني: مع الدكتور موسى الموسوي في كتابه الشيعة والتصحيح (ص ١٦)، دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقًا لمذهب أهل البيت (ط٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).

(٢) وكان اسمه عبد الرسول بن عبد الزهراء بن عبد الأمير لاري، وقد نسف نظرية ولاية الفقيه، وغيبة المهدي، ونادى بالشورى طريقًا إسلاميًا لاختيار الإمام انظر: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه.

(٣) صاحب كتاب (لله ثم للتاريخ) الذي يذكر فيه الفظائع عن بعض رموز الشيعة الذين عاصرهم، وقد صدرت في حقّه فتوى المرجع الديني الأعلى السيد حسين بحر العلوم عام (١٤٢١هـ) وهذا نصّها: « قولنا في المدعو حسين الموسوي أنه ضال مضل أعمى الله بصيرته، كما أعمى قلبه، وقد أصبح سببًا في فتنة كثير من الناس، لعنه الله، وقد قامت زعامة الحوزة العلمية بإسقاط جميع درجاته العلمية، واعتبار جميع أحكام المرتدين منطبقة عليه، وأن رسائله العلمية غير مبرئة للذمة ».

ما قضاه في المنافي سبعة وعشرين عامًا [١]، حاول مع باقي علماء المسلمين إصلاح الخلافة العثمانية؛ حيث شارك في مشروع إصدار الدستور العثماني أيام السلطان عبد الحميد الثاني، وعبّر عن وحدة المسلمين عندما لبّى مع من أطاعه دعوة المجاهدين في ليبيا لجهاد الإيطاليين.

وقف الخالصي في وجه الإلحاد والشيوعية، وفي وجه فكر غلاة الشيعة كالشيخية، هذا الفكر الذي رآه يتسلل إلى فكر خطباء ووعاظ الشيعة في مجالس العزاء الحسينية، وألّف لأجل ذلك كتابه: (علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين)؛ حيث حارب فيه كثيرًا من الأفكار الغالية كالقول بأن الأئمة يعلمون الغيب [٢]، ويملكون الولاية التكوينية في الكون [٣]، كما أنكر الاستغاثة بالأئمة وحرم دعاء الفرج (وفيه: يا محمد يا علي، يا علي يا محمد! اكفياني فإنكما كافياني) وقد رأى هذه الاستغاثات تناقض عقيدة التوحيد.

وعندما رأى ما يفعله بعض الشيعة في إيران من الاستغاثة بالأموات ذكّره ذلك بما فعله بعض السنوسيين في طرابلس ليبيا من الاستنجاد بأصحاب الأضرحة (كالشيخ أحمد البدوي) زاعمين أن هؤلاء الأموات قادرون على دحر الطليان، وكذلك بما فعله أصحاب الطرق في العراق أثناء الحرب العالمية الأولى؛ حيث جاؤوا متسلّحين بالطبول والدفوف مستنجدين بالشيخ (عبد القادر الجيلاني) فلما سمعوا أزيز رصاص الإنكليز ولّوا هاربين، وبيّن الخالصي أن هذه الاستغاثات تناقض التوحيد، وتخالف منهج النبي ﷺ في أخذه بالأسباب.

كما أنكر الخالصي غلو الشيعة في الأئمة، مثل زعمهم أن الأئمة وجه اللّه، وأن النبي ﷺ والأئمة علّة خلق اللّه للكون، وأن الأئمة إذا شاؤوا أن يموتوا ماتوا، وأنهم يملؤون الكون بذواتهم - على حدّ زعم الشيخية [٤].

---

(١) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٢٨١).

(٢) علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين (ص ٤١٥)، وما بعدها، وانظر: خالد ابن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٠١).

(٣) علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين (ص ٣٨٨ - ٤١٦، ٤١٧)، وانظر: خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٠٦).

(٤) علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين (ص ٤٠٧)، وما بعدها وانظر: خالد ابن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣١٦) وما بعدها.

كما أحيا الخالصي شعيرة صلاة الجمعة في العراق؛ حيث كانت معطلة بسبب فتاوى مراجع الشيعة، ومن أشهرهم آية اللّه العظمى محسن الحكيم بمنع صلاة الجمعة حال غياب الإمام المهدي المنتظر، فأقام الخالصي صلاة الجمعة في الكاظمية أولًا، ثم في كربلاء، ثم سعى لإقامة صلاة الجمعة موحّدة بين الشيعة والسنّة.

عمل الخالصي على وحدة المسلمين، من خلال فتحه باب الحوار والتعاون مع علماء المسلمين السنة في شتى البقاع، فاتصل بالشيخ بهجت البيطار في الشام، ونسّق للعمل السياسي مع قادة العراق السنّة كالشيخ أحمد الزهاوي مفتي العراق، والشيخ فؤاد الألوسي، وله صحبة مميزة مع الشيخ عبد العزيز البدري، ويكفي موقفه في الاستنفار إلى قتال الطليان في ليبيا دليلًا على روحه الوطنية.

وهذا لا يعني أنه تخلّى عن المذهب الشيعي وعن آرائه فيه (كوقفه من الصحابة) ولكن مراسلاته الصريحة وحواره مع علماء أهل السنة أثبتت أن مدرسته كانت جدّية في طلب الوصول إلى الحق في حواره لأهل السنة والجماعة، لم يمار ولم يدار ولم يستخدم التَّقِيّة.

وقد تعرض الخالصي لحرب ضروس من مراجع الشيعة الكبار في زمنه مثل الشيخ محسن الحكيم، ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، ولكن مكانة الخالصي العلمية وقربه من والده آية اللّه العظمى، ونضاله وجهاده - جعلت مهمة أعدائه في حربه شديدة الصعوبة، فلجؤوا إلى تلفيق الأكاذيب حوله، فاتهمه بعضهم بالعمالة للإنكليز، وأن نفيه مع أبيه إلى إيران كان يهدف لجعله جاسوسًا على أبيه، وأن حربه على الشيخية إنما كانت من أجل تقوية زعامته الدينية من خلال مزاحمة زعيمها أبي القاسم زين العابدين ابن كريم خان الكرماني. كما زعم خصومه أن أطباء إيران حكموا على الخالصي بالجنون بعد الفحص الدقيق، أما سعيه في سبيل الوحدة الإسلامية مع أهل السنة، فإنه جعل أعداءه يتهمونه بمخالفة ضروريات الدين [١].

ولأجل ذلك حرّمت تلك المراجع تقليده، حتى قال عادل رؤوف: « إنه من سوء الحظ للعراق أنه لم يكن الخالصي الابن مرجعًا أعلى » يعني للشيعة بعد وفاة أبيه [٢].

---

(١) التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، تأليف: خالد بن محمد بن صالح البديوي (ص ٣٢٥).
(٢) عادل رؤوف: عراق بلا قيادة (ص ١٦٠).

وبعد موت الخالصي نرى أن أولاده من بعده ساروا على خطى والدهم، ولهم اليوم مدرسة علمية ممثلة بالشيخ جواد الخالصي [١].

وقد أثبت طروء الاحتلال على العراق - الإنكليزي والأمريكي - أن أتباع مدرسة الخالصي لم يلطّخوا يدهم في الحرب الطائفية، ولم يستكينوا ضد المحتل الغاصب.

٢ - آية الله العظمى محمد حسين فضل الله [٢]:

آية الله العظمى أبو علي محمد حسين بن عبد الرؤوف بن نجيف فضل الله.

لبناني الأصل، ولد في مدينة النجف عام (١٩٣٥م)؛ حيث كان أبوه مقيمًا فيها، درس في النجف، في مدرسة على النظام الحديث في النجف، ثم التحق بالحوزة العلمية في النجف. واطلع على الحركة العلمية في مصر من خلال المجلات التي ازدهرت في تلك الآونة مثل (الرسالة، والكاتب، والمصور).

- **من مؤلفاته:**

١ - مفاهيم إسلامية.

٢ - الحوار في القرآن.

٣ - تأملات في الفكر السياسي الإسلامي.

٤ - صلاة الجمعة الكلمة والموقف.

٥ - الحركة الإسلامية هموم وقضايا.

٦ - أحاديث في قضايا الاختلاف والوحدة).

أنكر فضل الله الولاية التكوينية، ورأى أن مهمة الأنبياء التشريعية في الأمة تجعلهم في غنى عن الولاية التكوينية، كما أنكر خرافات القُصاص وغلوّهم في الأئمة، كزعمهم أن الأئمة يعلمون الغيب، وكذلك أنكر تحريف القرآن الكريم، كما أنكر شتم الصحابة الكرام، وأفتى بتحريم التطبير.

كما نادى آية الله حسين فضل الله بوحدة المسلمين بعيدًا عن الطائفية قائلًا: « إنني أرى أن يفكر المسلم الشيعي كمسلم، لا كشيعي يعيش في دائرته الضيقة التي يختنق

---

(١) التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، تأليف: خالد بن محمد بن صالح البديوي (ص ٣٢٩).

(٢) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال؛ مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٨٤ - ٤٣٥).

فيها بعصبيته، وأن يفكر المسلم السني كمسلم قبل أن يفكر بسنّيته » [١].

حورب آية اللَّه فضل اللَّه من أقرانه من آيات الشيعة، وأصدرت الفتاوى بتحريم قراءة كتبه، بل وبتكفيره وإخراجه من الدين [٢]. وصدرت فتوى عن المرشد الأعلى للثورة الإيرانية السيد الخامنئي تقرر أن العدول عن تقليد فضل اللَّه صحيح، بسبب انحرافاته الفكرية.

ويقول عنه محمد تقي بهجت: « إنه مشروع وهابي ينخر في كيان التشيع من داخله » [٣].

ويقول آية اللَّه العظمى الميرزا جواد التبريزي عن أقوال فضل اللَّه: « خلاف المسلمات بل ضروريات المذهب الحق، وقائلها خارج عن طريق المذهب الاثني عشري، وأن فضل اللَّه ومن يساهم في نشر أقواله يدخلون في عنوان من يشري مرضاة أعدائنا بسخط الخالق » [٤].

وآخر ما يتوقعه المرء أن يأتي طعن فضل اللَّه من قِبل أحد دعاة التقريب في لبنان، وهو الشيخ محمد مهدي شمس الدين، حيث وقع تحت يدي صورة لنقصّ رسالة منه إلى آية اللَّه العظمى الميرزا جواد التبريزي، يؤيد فيها فتواه ضد فضل اللَّه.

وجاء فيها قول شمس الدين مخاطبًا التبريزي: « وقد كان موقفكم المرجعي القيادي موضع تقدير كبير عند علماء الدين في لبنان وفي الحوزات الدينية اللبنانية المبنية على التقوى، وقد تبين لنا من شأن هذا الرجل في عقيدته وسلوكه منذ سنين ما دعانا إلى التحذير من خطر أفكاره وسلوكه على الدين وعلى وحدة المؤمنين، ولكن المؤسف أن تحذيرنا لم يُسمع، بل قوبل بالإهمال، واستمرت بعض الجهات في دعمه ماليًا ومعنويًا حتى تعاظم خطره بالصورة التي ظهرت أخيرًا، وغدا خطرًا على مذهب الإمامية وعلى سلامة بعض العقائد الإسلامية الأساسية؛ حيث إن انحرافاته لم تقتصر على آحاد القضايا العقائدية، بل تبلغ العشرات، ويقول بعض المتتبعين: إنها مئات، وغدت أفكاره

---

(١) السيد محمد حسين فضل اللَّه: مقابلة في جريدة القدس العربي عدد (٣٠٣٥)، (ص ١٨)، بتاريخ (٢٤) شوال (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م).

(٢) جاء بيان أساتذة الحوزة العلمية في قم تحارب أفكاره وتحرّم قراءة كتبه وتنسبه إلى الضلال، وكذلك أفتى آية اللَّه العظمى اللنكراني بتحريم قراءة كتبه وبيعها. راجع موقع البرهان؛ حيث هناك صور لوثائق تحتوي عدة فتاوى حول المرجع حسين فضل اللَّه: قسم الوثائق، تحت عنوان الحوزة العلمية تدين الانحراف، القسم الثالث.

(٣) فتنة فضل اللَّه: فصل الموقف من الفتنة.

(٤) الحوزة العلمية تدين الانحراف، القسم الثالث، وثيقة (١٢)، الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

المعلنة وما يسميه (فتاواه) حجة يتسلح بها أعداء الدين من جهة، وأعداء المذهب من جهة أخرى، والمتربصون شرًّا بالمرجعية الدينية للشيعة الإمامية من الأجانب وغيرهم من جهة ثالثة، كما غدا فتنة وحجة لأتباع المدنية الغربية من الشيعة من جهة رابعة.. » (١).

ولكن كل هذا الهجوم من رموز الاثني عشرية على الشيخ فضل الله لا يسوّغ لنا أن نصنّفه في المجموعة الأولى التي هجرت التشيع الاثني عشري؛ لأن فضل الله ما يزال مرجعًا دينيًّا لدى أتباعه من الاثني عشرية، وله كلمته المؤثرة في الوسط الشيعي. كما أنه وإن قام بتطويع هذا المذهب في كثير من القضايا لما ينسجم مع الرؤية القرآنية، التي هي رؤية الأمة الإسلامية؛ فإن دوره في تعزيز المذهب الاثني عشري في الواقع ما يزال قائمًا.

وقد تعرض فضل الله لحادثة اغتيال في الجمعة (٨) / آذار / (١٩٨٥م)، في مجزرة عُرفت بمجزرة بئر العبد؛ حيث وقع الانفجار قبل أن يخرج فضل الله من المسجد بسبب تأخره في إجابة امرأة استفتته في المسجد، وكان حصيلة الانفجار (٨٠) قتيلًا (٢).

٣ - محمد باقر البهبودي:

محقق ومدقق بارع في التراث الاثني عشري، ولخبرته في هذا المضمار أعاد النظر في صحة أحاديث كتاب (الكافي)، المصدر الحديثي الأول للاثني عشرية، مخالفًا في التصحيح والتضعيف طريقة من سبقه، فسطر كتابه: (الصحيح من الكافي) في ثلاثة مجلدات (٣). واعتبر الصحيح من روايات الكافي (٤٤٢٨) رواية من أصل (١٦١٢١) (٤)، وأسقط من حسابه عددًا من أبواب كتاب الكافي؛ لأنها تمثل تسربات فكر الغلاة، مثل: باب أن الأئمة إذا شاؤوا أن يعلموا علموا، وباب أن الأئمة يعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا باختيار منهم، وباب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء، كما حذف روايات تحوي جملة من العقائد التي تُنتقد فيها الشيعة، مثل روايات باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة، والروايات التي تنسب التحريف لكتاب الله تعالى، مع أن المجلسي حكم عليها بالصحة في مرآة العقول (٥).

---

(١) صورة لنص رسالة تأييد الشيخ محمد مهدي شمس الدين من لبنان إلى الميرزا جواد التبريزي بتاريخ (١٤) / جمادى الآخر / (١٤١٨هـ)، الحوزة العلمية تدين الانحراف الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

(٢) التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، تأليف: خالد بن محمد بن صالح البديوي (ص ٣٨٥).

(٣) البهبودي: صحيح الكافي، طبعة الدار الإسلامية (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

(٤) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٤٤).

(٥) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٦٩).

ولكن لم يُسمع للبهبودي، فكأن فعله كان صيحة في واد، أو نفخة في رماد؛ فقد انتقده كثير من علماء الشيعة - وعلى الأخص الأخباريون منهم - على هذه الخطوة الجريئة، واعتبروا فعله هذا « إساءة كبيرة إلى التراث الشيعي، بل إساءة إلى أهل البيت عليهم السلام » [١].

المجموعة الثالثة: (أدعياء الاعتدال):

إن كثيرًا من علماء الاثني عشرية صرّحوا بكل وضوح بعقائدهم وآرائهم التي خالفوا فيها أهل السنة والجماعة، ولم يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التقِيَّة أو ادعاء تطوير المذهب أو تعديله، فهم غير مهتمين بنظرة الآخرين إليهم، ونحن نشكرهم على صراحتهم هذه، ولعلّها تكون مدخلًا لحوار بنّاء يوصلنا معًا إلى قواسم مشتركة كثيرة.

ولكن هنالك شخصيات أخرى أرادوا إظهار المذهب الاثني عشري بمظهر آخر، محاولين عرضه بأسلوب إعلامي يجلب الأنظار، ويكثر الأتباع والأنصار، مدّعين أنهم أصحاب الاعتدال والتقريب والوحدة بين المسلمين، ولكن دون أن يعطونا الدليل، بل جاءت الأدلة تخالف دعواهم، ومن هذه الأدلة:

- **أولًا:** أنهم لو صدقوا في دعواهم محاربةَ الغلو لأنكروا مظاهره على كثرتها في المجتمع الشيعي، كما فعل إخوانهم من أصحاب المجموعة الأولى والثانية، بل رأينا منهم العكس؛ فهم يجاملون الغلاة، فمنهم من يقدّم لكتب الغلاة ويثني عليها.

- **ثانيًا:** أنهم عندما يترجمون للمغالين - كالقائلين بتحريف القرآن الكريم - لا ينكرون على مؤلفيها، بل يترحّمون ويثنون عليهم [٢].

وعلى سبيل المثال:

١ - محمد جواد مغنية:

.. الذي يتظاهر بالتقريب مع أهل السنة، ويحاول أن يظهر بمظهر العالم الاثني عشري المعتدل الذي يحرّم اللطم والتطبير، ولكنه يمتدح محمد حسن النجفي الذي أباح غيبة وهجاء مخالفي الشيعة، ويقول عنه وعن كتابه الجواهر: « لم يؤلف أحد مثل كتاب (الجواهر) في سعته وإحاطته وعمقه وتدقيقاته... إن توفيق كتاب الجواهر ورواجه يعود

---

(١) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢): مؤسسة النشر الإسلامي - قم (١٤١٦هـ)، (ط ١).

(٢) عبد الله عبد الله الموصلي: حقيقة الشيعة (ص ١٠٠).

بالدرجة الأولى إلى إخلاص مؤلفه وطيب سريرته وتواضعه لله وللناس... ورحم الله صاحب الجواهر؛ فقد كانت له مناقب لا يبلغها الحصر »(١).

كما يثني مغنية أيضًا على الشيخ يوسف البحراني صاحب الحدائق الناضرة الذي كفّر المخالفين لفكر الشيعة، وفي مقدمتهم أهل السنة(٢).

٢ - الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني (من كبار علماء (سمنان) بإيران):

إنه لتناقض عجيب أن يؤكد بعض علماء الاثني عشرية على سلامة القرآن من التحريف، ثم بعد ذلك يثني على من تولّى كبره في العصر الحديث وهو النوري الطبرسي صاحب مستدركات الوسائل.

فالحائري المازندراني يسطر المقالات في التقريب مع أهل السنة، ولكنه مع ذلك يقول أثناء تعريفه بكتب الاثني عشرية: « (مستدركات الوسائل) لمحمد الحسين المرحوم المعاصر النوري، صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة »(٣). ومن المعلوم أن النوري الطبرسي صاحب المستدركات هو صاحب الفرية الكبرى في تحريف القرآن الكريم، فهو مؤلف كتاب: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)؛ فكيف يمتدحه المازندراني، ثم يأتي ويدّعي التقريب مع أهل السنة؟.

٣ - الشيخ عبد الحسين شرف الدين:

ومما يدل على التناقض بين المبدأ والتطبيق في فكر مدّعي الوسطية والاعتدال والتقريب قولهم ما يخالف أفعالهم، فهم يدعون للتقريب بين المذاهب الإسلامية باللسان، ويهدمون وحدة الأمة بالأفعال والأقلام والبنان.

ومن أمثلة هؤلاء عبد الحسين شرف الدين، فقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله أنه رأى عبد الحسين شرف الدين عام (١٩٥٣م) في صور، وأنه حدّثه عن التقريب والوحدة بين المسلمين، ولكن عبد الحسين يؤلف بعد أعوام كتاب: (أبو هريرة)(٤)

---

(١) محمد جواد مغنية: مع علماء النجف الأشرف (ص ٨١ - ٨٤) دار الجواد - بيروت (١٩٨٤م).

(٢) محمد جواد مغنية: مع علماء النجف الأشرف (ص ٦٩). وانظر: حقيقة الشيعة: عبد الله عبد الله الموصلي (ص ٤١، ٤٢).

(٣) انظر: منهاج عملي للتقريب: الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني من كبار علماء « سمنان » بإيران. مطبوع ضمن كتاب الوحدة الإسلامية (ص ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٤) السنة ومكانتها في التشريع (ص ٨، ٩).

يحكم فيه على هذا الصحابي الجليل بالنفاق والاختلاق والكذب [(١)]، وأن « أبا هريرة كلما ازداد مثالة زاده اللَّه رعالة » [(٢)]. مع أن من أهم ما يُعرف به الغلاة: النيل من صحابة النبي ﷺ وتكفيرهم.

ثم ينتقص عبد الحسين من البخاري ومسلم وأحمد - رحمهم اللَّه تعالى -؛ لأنهم رووا عن أبي هريرة رضي الله عنه قائلًا: « وايم اللَّه! إني لا ينقضي عجبي من البخاري ومسلم وأحمد وأمثالهم ممن يرجعون إلى عقل أصيل ورأي جميع، ثم ينقادون انقياد الأكمه الأبله إلى ما يشاء أبو هريرة وأمثاله » [(٣)].

فأي وحدة وأي تقريب يدّعي هؤلاء وأمثالهم، وهم ينتقصون صحابة النبي ﷺ ورموز ورجالات أهل السنة!!.

وبناء على هذا التقسيم يتوجّب على من رام الإنصاف ألا يرمي جميع علماء الاثني عشرية بالغلو؛ فإن منهم من قصد الحق فأصابه، ومنهم من حاول وقارب الوصول إلى الحق، ومنهم من لزم الحق في مسائل، وغاب عنه الحق في مسائل أخرى، ومنهم من علم الحق، ولكن أسكته عن الصدع به ما رآه من مصير العلماء الذين خرجوا على الخط العام، فأصابهم الذبح أو التشريد أو التهميش.

كما يتوجّب أيضًا مد اليد إلى هؤلاء العلماء المنصفين المعتدلين ومن سار على دربهم (من المجموعة الأولى والثانية) لبناء مستقبل مشرق للأمة الإسلامية بعيدًا عن التطرف والغلو والطائفية.

أما أصحاب المجموعة الثالثة ومن لفّ لفّهم فإننا نمهلهم وننظرهم، ونتركهم للأيام، فهي كفيلة بإظهار ما أبطنوه، وكشف ما بيّتوه.

وعلى كلّ الأحوال فإن لهم منّا التسامح وحسن التعايش والتناصح الذي أمرنا به الإسلام؛ عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويقتدوا بإخوانهم الذين عرفوا الحق فاتبعوه.

* * *

---

(١) يتهم عبد الحسين شرف الدين الموسوي أبا هريرة بأنه كان: « يلفق أحاديث في فضائل الخليفتين نزولًا على رغائب معاوية... وتارة يرتجل أحاديث يدافع فيها عن منافقي بني أمية ». أبو هريرة (ص ٤٥ - ٤٧).

(٢) عبد الحسين شرف الدين الموسوي: أبو هريرة (ص ٦٨)، وشرحها في الهامش بقوله: مثل يضرب لمن كان كلما ازداد رزقًا ازداد حمقًا.

(٣) عبد الحسين شرف الدين الموسوي: أبو هريرة (ص ٢١٣).

الفَصْلُ الثَّانِي

مصادر تلّقي العقيدة عند الاثني عشرية

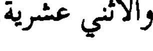
(وفيه مباحث):

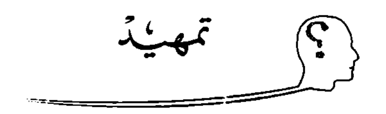
المَبْحَثُ الأَوَّلُ: نظرية اختصاص آل البيت بعلوم الوحي بعد النبي ﷺ ونقضها.

المَبْحَثُ الثَّانِي: موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: السنة عند الاثني عشرية.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: بعض مصادر التلقي الخلافية بين أهل السنة والاثني عشرية.





تمهيد

إذا كانت العقيدة السنّية مستمدة من القرآن الكريم والسنة المشرفة والإجماع؛ فإن الشيعة الاثني عشرية ترى أن « أصول الأحكام ثلاثة: الكتاب، والسنة النبوية، وأقوال الأئمة » [١].

فإذا كان الأصلان الأساسيان (القرآن والسنة) متفقًا عليهما إجماليًا بين أهل السنة والإمامية: فقد قال جعفر الصادق رحمه الله: « من خالف كتاب اللّٰه وسنّة محمّدٍ ﷺ فقد كفر » [٢]، وقال داعيًا للتمسك بالكتاب والسنة، ولو خالف أقوال الرجال: « من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال ولم يزل » [٣].

ولكن هذا لا يعني اتفاق السنة والإمامية تفصيليًا حول القرآن والسنة. وسيظهر الخلاف من عدة نواحٍ:

- من حيث طريق الوصول إلى معاني القرآن الكريم وتفسيره، هل هو شامل لكل خبر صحيح وصلنا عن الصحابة الكرام أو آل بيت النبي ﷺ، كما هي طريقة أهل السنة والجماعة؟ أم أن معرفة أسرار التفسير مقتصرة على ما ورد عن النبي ﷺ من طريق الأئمة الاثني عشر دون غيرهم من الصحابة والتابعين؟

- كما أن هناك خلافا كبيرًا حول سلامة القرآن من التحريف، وما ورد في ذلك من روايات وأقوال لدى الشيعة الاثني عشرية، في حين تُعدُّ سلامة القرآن من التحريف من مسلمات العقيدة لدى أهل السنة والجماعة.

- وبالنسبة للسنة من حيث مصدرها (أو مفهومها) أهي مقتصرة على سنة النبي ﷺ

---

(١) محمد رضا المظفر: أصول الفقه (٣/١٢١)، النجف (١٩٦٧م). وبهذا نعلم أن الاثني عشرية لا يعدون الإجماع ولا القياس من مصادر التشريع عندهم. وأما القياس فقد ذمته روايات الأئمة بشدة. وأما الإجماع فلا يعتبر إلا إذا كان بين المجمعين إمام من الأئمة المعصومين.

(٢) الكليني: أصول الكافي (١/١٢٣)، كتاب العلم، بابُ الأخذ بالسّنّة وشواهد الكتاب.

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٥٧).

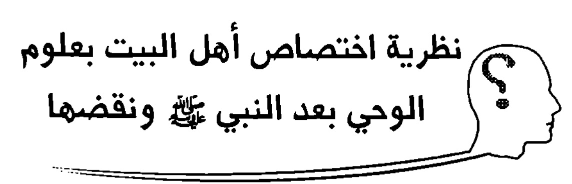
كما يعتقد أهل السنة، أم أنها تطلق على سنة النبي ﷺ وسنة الأئمة الاثني عشر بالدرجة نفسها من حيث الإلزام والقوة؟

- وكذلك هناك خلاف كبير حول مظانّ السنة، أي الكتب الحديثية التي حوتها، بين السنة والاثني عشرية. بحيث تختلف مصادر الحديث - والتفسير من قبل ذلك - بين كل طائفة منهما.

وهناك كلام كثير حول المصادر التبعية بعد القرآن والسنة، من الإجماع والقياس، وكذلك خلاف عريض حول بعض المصادر التي تفرد بها الشيعة، وأنكرها أهل السنة والجماعة، كالإلهام وتوقيعات الأئمة.

* * *

المَبحثُ الأوَّلُ



نظرية اختصاص أهل البيت بعلوم الوحي بعد النبي ﷺ ونقضها

يجيب هذا المبحث عن سؤال كبير، وهو: هل اختص علي ﷺ وأئمة الاثني عشرية من بعده بعلوم الوحي من تفسير وحديث بعد النبي ﷺ دون صحابة النبي وأزواجه الذين صاحبوه في حضره وسفره؟

تؤكد الروايات عن الأئمة اختصاص الأئمة وحدهم بالعلوم كلها، وأهمها علوم القرآن والسنة؛ فعن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفرٍ ﷺ يقول: « ليس عند أحدٍ من النّاس حقٌّ ولا صوابٌ ولا أحدَ من النّاس يقضي بقضاءِ حقٍّ إلا ما خرج منّا أهل البيت، وإذا تشعّبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصّواب من عليٍّ ﷺ » [1].

- ومن وصفه اللّٰه تعالى في كتابه بالعلم هم الأئمّة ﷺ:

عن جابرٍ عن أبي جعفر ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ .. هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩]؟ قال: « نحن الّذين يعلمون، وعدوّنا الّذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب » [2].

- والأئمة أهل الذكر ولا يسأل غيرهم:

وعن معلّى بن محمّدٍ عن الوشّاء قال: سألت الرّضا ﷺ فقلت له: « جعلت فداك ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] فقال: نحن أهل الذّكر ونحن المسؤولون، قلت: فأنتم المسؤولون ونحن السّائلون؟ قال: نعم. قلت: حقًّا علينا أن نسألكم؟ قال: نعم. قلت: حقًّا عليكم أن تجيبونا؟ قال: لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل. أما تسمع قول اللّٰه تبارك وتعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] » [3].

---

(١) أصول الكافي (٤٦٤/١) كتاب الحجة باب أنّه ليس شيءٌ من الحقّ في يد النّاس إلا ما خرج من عند الأئمّة ﷺ وأنّ كلّ شيء لم يخرج من عندهم فهو باطلٌ. والحديث صحيح كما ذكر محقق أصول الكافي.

(٢) أصول الكافي (٢٦٩/١) كتاب الحجة، باب أنّ من وصفه اللّٰه تعالى في كتابه بالعلم هم الأئمّة ﷺ.

(٣) أصول الكافي (٢٦٧/١) كتاب الحجة، باب أنّ أهل الذّكر الّذين أمر اللّٰه الخلق بسؤالهم هم الأئمّة ﷺ.

- فالقرآن الكريم جمعًا وحفظًا وتفسيرًا وتأويلًا منوط بالأئمة دون غيرهم من الناس:

عن أبي بصيرٍ قال: قال أبو جعفرٍ عليه السلام في هذه الآية: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]: « أما والله يا أبا محمّدٍ! ما قال بين دفّتي المصحف. قلت: من هم جعلت فداك؟ قال: من عسى أن يكونوا غيرنا؟ » (١). وفي ضوء تفسير الأئمة لهذه الآية قال المازندراني: « ما: نافية، يعني ما قال (بينات) أي واضحات بين دفتي المصحف؛ لأنه خفي غير واضح بينهما » (٢).

وعن حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] « قال: هم الأئمّة عليهم السلام خاصّةً » (٣).

- وكذلك فإن تأويل القرآن عند الأئمة وحدهم؛ لأنهم هم - دون غيرهم - الراسخون في العلم:

عن بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧] « فرسول الله ﷺ أفضل الرّاسخين في العلم قد علّمه الله ﷻ جميع ما أنزل عليه من التّنزيل والتّأويل. وما كان الله لينزل عليه شيئًا لم يعلّمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه » (٤).

- ويروون عن علي رضي الله عنه قوله: « ليس كل أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله فيفهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهم » (٥). وأن عليًا رضي الله عنه قد اختصه النبي ﷺ بخصائص منها فهم القرآن؛ فقد جاء في بعض الروايات ما يفسر تفرّد علي - رضوان الله عليه - بالعلم عن رسول الله ﷺ بقرب علي رضي الله عنه من رسول الله ﷺ، وطول خلواته مع رسول الله ﷺ:

عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: وقد كنت أدخل على رسول الله ﷺ كلّ يوم دخلةً وكلّ ليلةٍ دخلةً فيخلّيني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنّه لم يصنع ذلك بأحدٍ من النّاس غيري فربّما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازله أخلاني وأقام عنّي نساءه، فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عنّي فاطمة ولا أحدٌ من بنيّ، وكنت إذا

(١) أصول الكافي (١/٢٧١) كتاب الحجة، باب أنّ الأئمّة قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم.

(٢) شرح المازندراني على الكافي (٥/٣٢٩).	(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) أصول الكافي (١/٢٧٠) كتاب الحجة، باب أنّ الرّاسخين في العلم هم الأئمّة عليهم السلام.

(٥) كتاب سليم بن قيس (ص ١٨٣). تحقيق محمد باقر الزنجاني الأنصاري.

سألته أجابني، وإذا سكتّ عنه وفنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت على رسول اللّه ﷺ آيةٌ من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطّي وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها ودعا اللّه أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آيةً من كتاب اللّه ولا علمًا أملاه عليّ وكتبته منذ دعا اللّه لي بما دعا، وما ترك شيئًا علّمه اللّهُ من حلالٍ ولا حرامٍ ولا أمرٍ ولا نهيٍ كان أو يكون ولا كتابٍ منزلٍ على أحدٍ قبله من طاعةٍ أو معصيةٍ إلا علّمنيه وحفظته، فلم أنس حرفًا واحدًا، ثمّ وضع يده على صدري ودعا اللّه لي أن يملأ قلبي علمًا وفهمًا وحكمًا ونورًا. فقلت: يا نبيّ اللّه بأبي أنت وأمّي! منذ دعوت اللّه لي بما دعوت لم أنس شيئًا ولم يفتني شيءٌ لم أكتبه، أفتتخوّف عليّ النّسيان فيما بعد؟ فقال: « **لا لست أتخوّف عليك النّسيان والجهل** » [(١)].

وقد أكّد أحد شيوخ الاثني عشرية المعاصرين (حسين البروجردي) العقيدة المنبثقة عن هذه الروايات قائلًا: « اعلم أن علم القرآن مخزون عند أهل البيت، وهو مما قضت به ضرورة المذهب » [(٢)].

– كما أن هنالك روايات أخرى تنسب إلى الأئمة علومًا أخرى بكتب خاصة، غير القرآن الكريم؛ إذ تدعي وجود كتب خاصة بعلي رضي الله عنه كالجفر والجامعة:

عن أبي شيبة قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: « ضلّ علم ابن شبرمة عند الجامعة إملاء رسول اللّه ﷺ وخطّ علي عليه السلام بيده، إنّ الجامعة لم تدع لأحدٍ كلامًا فيها علم الحلال والحرام، إنّ أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحقّ إلا بعدًا. إنّ دين اللّه لا يصاب بالقياس » [(٣)].

وعن أبي بصيرٍ قال: دخلت على أبي عبد اللّه عليه السلام فقلت له: « جعلت فداك، إنّي أسألك عن مسألةٍ هاهنا، أحدٌ يسمع كلامي؟ قال: فرفع أبو عبد اللّه عليه السلام سترًا بينه وبين بيتٍ آخر، فاطّلع فيه ثمّ قال: يا أبا محمّدٍ سل عمّا بدا لك. قال: قلت: جعلت فداك، إنّ شيعتك يتحدّثون أنّ رسول اللّه ﷺ علّم عليًا عليه السلام بابًا يفتح له منه ألف بابٍ. قال: فقال: يا أبا محمّدٍ! علّم رسول اللّه ﷺ عليًا عليه السلام ألف بابٍ يفتح من كلّ بابٍ ألف بابٍ...

---

(١) أصول الكافي (١/١١٨، ١١٩)، كتاب فضل العلم باب اختلاف الحديث، وانظر: كتاب سليم ابن قيس (ص ١٨٣).

(٢) تفسير الصراط المستقيم (٣/٤).

(٣) أصول الكافي (١/١٠٤) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس.

وإنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة؟! قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة؟ قال: صحيفةٌ طولها سبعون ذراعًا بذراع رسول اللّٰه ﷺ وإملائه من فلق فيه وخطّ عليٍّ بيمينه، فيها كلّ حلالٍ وحرامٍ وكلّ شيء يحتاج النّاس إليه حتّى الأرش في الخدش... وإنّ عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر؟! قال: قلت: وما الجفر؟ قال: وعاءٌ من أدمٍ فيه علم النّبيّين والوصيّين وعلم العلماء الّذين مضوا من بني إسرائيل... ثمّ قال: وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟! قال: قلت: وما مصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: مصحفٌ فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّات، واللّٰه ما فيه من قرآنكم حرفٌ واحدٌ. قال: قلت: هذا واللّٰه العلم... ثمّ قال: إنّ عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائنٌ إلى أن تقوم السّاعة. قال: قلت: جعلت فداك، هذا واللّٰه هو العلم. قال: إنّه لعلمٌ، وليس بذاك. قال: قلت:جعلت فداك فأيّ شيءٍ العلم؟ قال: ما يحدث باللّيل والنّهار الأمر من بعد الأمر، والشّيء بعد الشّيء إلى يوم القيامة » [1].

عن الحسين بن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول: « إنّ عندي الجفر الأبيض قال: قلت: فأيّ شيءٍ فيه؟ قال زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم عليه السلام والحلال والحرام ومصحف فاطمة، ما أزعم أنّ فيه قرآنًا، وفيه ما يحتاج النّاس إلينا ولا نحتاج إلى أحدٍ، حتّى فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش، وعندي الجفر الأحمر. قال: قلت: وأيّ شيءٍ في الجفر الأحمر؟ قال: السّلاح وذلك إنّما يفتح للدّم يفتحه صاحب السّيف للقتل. فقال له عبد اللّٰه بن أبي يعفور: أصلحك اللّٰه! أيعرف هذا بنو الحسن، فقال: إي واللّٰه! كما يعرفون اللّيل أنّه ليلٌ والنّهارَ أنّه نهارٌ، ولكنّهم يحملهم الحسد وطلب الدّنيا على الجحود والإنكار، ولو طلبوا الحقّ بالحقّ لكان خيرًا لهم » [2].

فهذه الرواية تثبت وجود كتب خاصة عند الأئمة، ولكنها تثبت أن الجامعة وأمثالها ليست قرآنًا، حتى لا تستمر دعوى تحريف القرآن ملاصقة للشيعة بسبب الرواية السابقة لها على الأقل. وإن كان في الرواية ما يشكل؛ فما حاجة البشر إلى الصحف الأولى

(١) أصول الكافي (١/٢٩٥) بابٌ فيه ذكر الصّحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (١/٢٩٦) بابٌ فيه ذكر الصّحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث حسن.

ما دام القرآن قد نسخ تلك الشرائع السابقة؟ بل نسخ بعضها بعضًا؛ فهذا عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة، كما ذكر القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فما الحاجة إلى التوراة إذن، وقد قال تعالى في حق كتابه القرآن الكريم: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.. ﴾ [المائدة: ٤٨].

- وتذكر بعض الروايات نزول جبريل عليه السلام على فاطمة بعلوم ومعارف:

عن أبي عبيدة قال: « سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر فقال: هو جلد ثورٍ مملوءٌ علمًا، قال له: فالجامعة؟ قال: تلك صحيفةٌ طولها سبعون ذراعًا في عرض الأديم مثل فخذ الفالج فيها كلّ ما يحتاج النّاس إليه، وليس من قضيّةٍ إلا وهي فيها حتّى أرش الخدش. قال: فمصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: فسكت طويلًا ثمّ قال: إنّكم لتبحثون عمّا تريدون وعمّا لا تريدون. إنّ فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله خمسةً وسبعين يومًا، وكان دخلها حزنٌ شديدٌ على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيّب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذرّيّتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة عليها السلام » [1].

- وتؤكد روايات كثيرة أن الأئمة هم خزنة علم الله:

عن عبد الرحمن بن كثير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة [2] وحي الله ».

وعن سورة بن كليبٍ قال: قال لي أبو جعفرٍ عليه السلام: « والله! إنّا لـخُزّان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهبٍ ولا على فضّةٍ إلا على علمه » [3].

وعن سديرٍ عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: « نحن

(١) أصول الكافي (٢٩٧/١) بابٌ فيه ذكر الصّحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح. وورد قريبًا منه كتاب الحجة باب مولد الزهراء فاطمة (٥٣٠/١) نص المحقق على صحته.

(٢) (عيبية الرجل) خاصته وموضع سره، والعيبة ما يجعل فيه الثياب. المازندراني (٢٠١/٥، ٢٠٢) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

(٣) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

خُزّان علم اللّه ونحن تراجمة وحي اللّه، ونحن الحجّة البالغة على من دون السّماء ومن فوق الأرض » [(١)].

وعن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفرٍ عليه السلام يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: « **قال اللّه تبارك وتعالى: استكمال حجّتي على الأشقياء من أمّتك من ترك ولاية عليّ والأوصياء من بعدك، فإنّ فيهم سنّتك وسنّة الأنبياء من قبلك، وهم خُزّاني على علمي من بعدك. ثمّ قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: لقد أنبأني جبرئيل عليه السلام بأسمائهم وأسماء آبائهم** » [(٢)].

لقد اعترض الطبرسي في مجمع البيان على من نسب إلى الشيعة أنهم يقولون: إن الأئمة يعلمون الغيب، وجعل هذه النسبة من الظلم للإمامية، وقال: « ولا نعلم أحدًا منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق » [(٣)]، وأكّد على ذلك صاحب (الشيعة في الميزان) [(٤)]، مع أن روايات الشيعة أنفسهم تزعم أن الأئمة يعلمون غيوب أخبار السماء والأرض، فهم على حد تعبير الكليني: (يعلمون علم ما كان وما يكون؟ وأنّه لا يخفى عليهم الشّيء)، وهذا عنوان باب في أصول الكافي.

وعن ضريسٍ الكناسيّ قال: سمعت أبا جعفرٍ عليه السلام يقول: « أترون أنّ اللّه – تبارك وتعالى – افترض طاعة أوليائه على عباده، ثمّ يخفي عنهم أخبار السّماوات والأرض، ويقطع عنهم موادّ العلم فيما يرد عليهم ممّا فيه قوام دينهم؟! » [(٥)].

– كما أن بعض الروايات تذكر اختصاص الأئمة بعلوم لا يعلمها الملائكة المقربون ولا الرسل والأنبياء:

عن أبي عبد اللّه جعفر الصادق قال: « إنّ للّه تبارك وتعالى علمين: علمًا أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله؛ فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه، وعلمًا استأثر

(١، ٢) أصول الكافي (١/٢٤٨) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر اللّه وخزنة علمه.

(٣) الطبرسي: تفسير مجمع البيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [هود: ١٢٣]. (٥/٣٥٢).

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٤٣).

(٥) أصول الكافي (١/٣١٧) كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنّه لا يخفى عليهم الشّيء صلوات اللّه عليهم. قال المحقق: وهذا الحديث صحيح. وانظر هذه الجرأة من الكليني، عندما بوب هذا الباب بما وصف اللّه تعالى به نفسه، فاللّه تعالى هو الذي ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

به؛ فإذا بدا للّٰه في شيءٍ منه أعلمنا ذلك وعرض على الأئمّة الّذين كانوا من قبلنا »[١].

وهكذا يصل الغلو إلى أقصاه في روايات الكافي، حين ينسب إلى الأئمة النّهل من معين علم لا ينهل منه غيرهم، حتى الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون؛ فما فائدة أن تأتي رواية أخرى صحيحة عندهم لتنفي النبوة عن هؤلاء الأئمة قائلة: « لا نبيّ بعد نبيّنا »[٢]؟!.

إن من مقتضيات هذه الرواية الصحيحة أن يقف الشيعة عند نصوص القرآن الكريم التي تثبت تعليم اللّٰه ما شاء من علم الغيب للرسل كما في سورة الجن: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]. يقول الشيخ المفيد: « من يزعم أن أحدًا بعد نبينا ﷺ يوحى إليه فقد أخطأ وكفر »[٣].

وتحاول الرواية السابقة نفسها أن تفسر علوم الأئمة: عن أبي الحسن الأوّل موسى عليه السلام قال: « مبلغ علمنا على ثلاثة وجوهٍ: ماضٍ، وغابرٍ، وحادثٍ. فأمّا الماضي فمفسّرٌ، وأمّا الغابر فمزبورٌ، وأمّا الحادث فقذفٌ في القلوب ونقرٌ في الأسماع، وهو أفضل علمنا، ولا نبيّ بعد نبيّنا »[٤].

وتؤكد رواية أخرى أن الأئمة يعلمون بالإلهام، فعن صفوان قال: قلت للرّضا عليه السلام: « أخبرني عن الإمام متى يعلم أنّه إمامٌ حين يبلغه أنّ صاحبه قد مضى أو حين يمضي مثل أبي الحسن قبض ببغداد وأنت هاهنا؟ قال: يعلم ذلك حين يمضي صاحبه. قلت بأيّ شيءٍ؟ قال: يلهمه اللّٰه »[٥].

فتقرر هاتان الروايتان أن من مصادر علوم الأئمة القذف في القلوب وهو الإلهام،

---

(١) أصول الكافي (٣١٠/١) كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم الّتي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرّسل عليهم السلام.

(٢) أصول الكافي (٣١٩/١) كتاب الحجة، باب جهات علوم الأئمة، والمفسر أي من جهة النبي والمزبور « مكتوب لنا في الجامعة ومصحف فاطمة وغيرها » مرآة المجلسي (١٣٦/٣). قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح على الظاهر.

(٣) أوائل المقالات (ص ٧٦).

(٤) أصول الكافي (٣١٩/١) كتاب الحجة، باب جهات علوم الأئمة، والمفسر أي من جهة النبي والمزبور « مكتوب لنا في الجامعة ومصحف فاطمة وغيرها » مرآة المجلسي (١٣٦/٣). قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح على الظاهر.

(٥) أصول الكافي (٤٤٣/١) كتاب الحجة باب في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه. والحديث صحيح.

وتتفرد الرواية الثانية بأن من طرق علوم الأئمة: النقر في الأسماع دون رؤية الملك، وتؤكد أنه أفضل علم الأئمة، وهذا ينسجم مع ما ذكرته رواية الباقرة في تعريف الإمام والتفريق بينه وبين النبي: « النّبيّ الّذي يرى في منامه ويسمع الصّوت ولا يعاين الملك، والرّسول الّذي يسمع الصّوت ويرى في المنام ويعاين الملك » فسأله زرارة: الإمام ما منزلته؟ قال: « يسمع الصّوت ولا يرى ولا يعاين الملك ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج: ٥٢] ولا محدّثٍ » (١).

وفي هذه الرواية هدم للرواية السابقة التي أكدت اختصاص الأئمة بعلوم دون الملائكة والأنبياء والمرسلين، (رواية: « إنّ للّه تبارك وتعالى علمين: علمًا أظهر عليه ملائكته... إلخ » (٢)). فنسبت إلى الأئمة علم الأنبياء والملائكة جميعًا، ثم نسبت إلى الأئمة زيادة علم من خلال اطلاعهم على شيء من القسم الثاني من علم اللّه!

إذ كيف يصل من كان طريق علمه الإلهام أو سماع صوت الملك - إن صح أنه ملك! - إلى علوم لم تصل إلى الأنبياء الذين رأوا الوحي عيانًا، أو إلى من كلّم الحق تكليمًا من رسل اللّه عليهم السلام، كموسى عليه السلام؟!. وما الحكمة في حجب علوم عن الأنبياء والمرسلين - وهم رسل اللّه المبلغين رسالات اللّه لإصلاح عقيدة وسلوك البشر - ثم اختصاص اثني عشر رجلًا بهذه العلوم السرية، وهم - على جلالة قدرهم - لم يكن لهم الدور الحضاري الذي قام به أنبياء اللّه تعالى؟!.

والاثنا عشرية يعتقدون أن هذا من تعليم اللّه للأئمة، وليس هذا من باب علم الغيب. وذلك يخفف من غلواء فكرة علوم الغيب عند الأئمة، ويلطفها قليلًا: « سأل أبا الحسن عليه السلام رجلٌ من أهل فارس فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال: قال أبو جعفرٍ عليه السلام: يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنّا فلا نعلم، وقال: « سرّ اللّه عز وجل أسرّه إلى جبرئيل عليه السلام، وأسرّه جبرئيل إلى محمّدٍ صلى الله عليه وسلم، وأسرّه محمّدٌ إلى من شاء اللّه » (٣).

وعن عمّارٍ السّاباطيّ قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشّيء أعلمه اللّه ذلك (٤).

---

(١) أصول الكافي (١/ ٢٣٠) كتاب الحجة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث.

(٢) أصول الكافي (١/ ٣١٠) كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم الّتي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرّسل عليهم السلام.

(٣) أصول الكافي (١/ ٣١١)، كتاب الحجة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: والحديث صحيح.

(٤) أصول الكافي (١/ ٣١٣)، كتاب الحجة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: والحديث موثق.

- ويرى الشيعة أن نزول هذه العلوم من لدن السماء على الأئمة مستمر؛ لنمو معارفهم؛ إذ يزدادون علمًا من الله على مدى الزمن، وإلا نفدت علومهم:

عن زرارة قال: سمعت أبا جعفرٍ عليه السلام يقول: « لولا أنّا نزداد لأنفدنا، قال: قلت: تزدادون شيئًا لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أما إنّه إذا كان ذلك عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ على الأئمّة، ثمّ انتهى الأمر إلينا » [(١)].

وهناك ثلاث روايات تبين كيفية ذلك، وأن أرواح الأئمة توافي العرش مع أرواح النبيين كل ليلة جمعة، فيرجعون وقد زيدوا علمًا [(٢)].

- وصغار الأئمة ككبارهم؛ فلا يشترط في الإمام سنّ معين، ولا ينتظر له سن رشد ولا بلوغ، في حين أتت الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الأربعين. فهذا أحد الأئمة، وهو ابن عشر سنين - يجيب عن ثلاثين ألف مسألة - وهي تحتاج إلى أيام طوال - في مجلس واحد؛ فقد « استأذن على أبي جعفر عليه السلام قومٌ من أهل النّواحي من الشّيعة فأذن لهم، فدخلوا فسألوه في مجلسٍ واحدٍ عن ثلاثين ألف مسألةٍ، فأجاب عليه السلام وله عشر سنين » [(٣)].

وفي كتاب الحجة باب أنّ الأئمّة عليهم السلام « يعلمون متى يموتون وأنّهم لا يموتون إلا باختيارٍ منهم » [(٤)]. وهذا أمر لم يجعله الله تعالى لأحد من البشر حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

نقض نظرية اختصاص أهل البيت - أو غيرهم - بالعلوم:

نبدأ من حيث انتهينا بتلك الروايات التي أوردها الكافي في باب (أنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون متى يموتون وأنّهم لا يموتون إلا باختيارٍ منهم) [(٥)]. وأمثالها من الروايات التي تنسب علم الغيوب للأئمة؛ فهي روايات تخالف ما في القرآن الكريم مخالفة ظاهرة بيّنة.

---

(١) أصول الكافي (١/٢٩٧) كتاب الحجة باب لولا أنّ الأئمّة عليهم السلام يزدادون لنفد ما عندهم. والحديث صححه محقق أصول الكافي.

(٢) أصول الكافي (١/٣٠٨، ٣٠٩) كتاب الحجة، باب أن الأئمة يزدادون في ليلة الجمعة. ولكن ضعف محقق أصول الكافي هذه الروايات، وقد لاحظت منه تضعيف كثير من الروايات التي فيها مبالغات أو مخالفات ظاهرة لأهل السنة، إلا ما كان متصلًا بوجوب الإمامة، وهذا يعدّ دفعًا بالمذهب نحو الاعتدال.

(٣) أصول الكافي (١/٥٧٠) كتاب الحجة، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي الثاني وقال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٤، ٥) أصول الكافي (١/٣١٣ - ٣١٥). وقد ضعف المحقق روايات هذا الباب.

حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وكأن الذين يقولون بمعرفة الأئمة علم الغيب لم يقرؤوا صريح آياته ليعلموا أن اللّه تعالى أعلن في سورة النمل: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله لرسوله ﷺ في سورة الأنعام: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠] وفي سورة يونس: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ [يونس: ٢٠].

إن شخصية الرسول - كما بيّنها القرآن الكريم - هي شخصية المتلقي لوحي اللّه تعالى، والذي يقف علمه حيث وقف الوحي؛ فاللّه يكشف لرسله بعض الأخبار الغيبية التي يشاء، ويحجب عنهم ما يشاء، كما جاء في سورة الجن: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وكما جاء في سورة هود بعد بيان قصة نوح، يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

فهل تكون شخصية الأئمة أرسخ قدمًا من الأنبياء والمرسلين حتى يدعي الكليني في أحد أبواب كتابه (الكافي) أن الأئمة (يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم الشّيء) وأنهم « لخزّان اللّه في سمائه وأرضه »!؟ [1].

وكأن هؤلاء الذين يغالون في أئمتهم لم يقرؤوا أيضًا تلك الروايات التي نفى فيها الأئمة عن أنفسهم علم الغيب: فعن ابن المغيرة قال: كنت أنا ويحيى بن عبد اللّه ابن الحسن عند أبي الحسن عليه السلام فقال له يحيى: « جعلت فداك إنهم يزعمون أنك تعلم الغيب، فقال: سبحان اللّه، ضع يدك على رأسي، فواللّه! ما بقيت شعرة فيه و [لا] في جسدي إلا قامت، ثم قال: لا واللّه ما هي إلا وراثة عن رسول اللّه ﷺ » [2].

وما أروعها من رواية تبين بشرية الأئمة وبراءتهم مما نسب إليهم من الغلو. عن سديرٍ قال: كنت أنا وأبو بصيرٍ ويحيى البزّاز وداود بن كثيرٍ في مجلس أبي عبد اللّه عليه السلام؛ إذ خرج إلينا وهو مغضبٌ؟ فلمّا أخذ مجلسه قال: « يا عجبًا لأقوامٍ يزعمون أنّا نعلم

---

(١) أصول الكافي (١/٢٤٨) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر اللّه وخزنة علمه.

(٢) المفيد: الأمالي (ص ٢٣).

الغيب! ما يعلم الغيب إلا الله ﷻ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت منّي، فما علمت في أيّ بيوت الدّار هي » [١].

لقد وقف علماء الاثني عشرية أمام هذه الرواية مندهشين، وقد أسقط في أيديهم. ولذلك عمدوا إلى تحويرها، فمنهم من أوّلها أو زاد عليها، ومنهم من فسّرها بالتقية ليفرغها من مضمونها الناصع المنسجم مع الكتاب والسنة، ومنهم من ضعّف سندها - على أقل تقدير - كما فعل محقق الكافي.

فقد جاءت تتمة تلك الرواية لتقول:

قال سديرٌ: فلمّا أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصيرٍ وميسّرٌ وقلنا له: جعلنا فداك! سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنّك تعلم علمًا كثيرًا ولا ننسبك إلى علم الغيب. قال: فقال: يا سدير ألم تقرأ القرآن، قلت: بلى. قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﷻ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]؟ قال: قلت: جعلت فداك قد قرأته. قال: فهل عرفت الرّجل وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب، قال: قلت: أخبرني به. قال: قدر قطرةٍ من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟. قال: قلت: جعلت فداك ما أقلّ هذا! فقال: يا سدير! ما أكثر هذا أن ينسبه الله ﷻ إلى العلم الّذي أخبرك به، يا سدير! فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﷻ أيضًا: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفْهَمُ أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا بل من عنده علم الكتاب كلّه، قال: فأومأ بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب، والله! كلّه عندنا، علم الكتاب والله! كلّه عندنا » [٢].

قال البرقعي - وهو المرجع الشيعي الذي أنكر الغلو في الأئمة - معلقًا على هذه الرواية متهمًا سديرًا وأبا بصير بوضع آخر الرواية؛ لكسر المعنى الأول منها: « وسدير وأبو بصير اللذان أحبا أن يعظّما الإمام، اختليا مع الإمام بعد المجلس؛ حيث لم يعجبهما أن يصغر الإمام نفسه بأن يقول: لا أعلم الغيب، وأرادا منه أن يعظم نفسه قليلًا ويثني على علمه، وعندها صنعا أخبارًا لا توافق القرآن. ومن المؤكد أن الإمام الذي يجب عليه

(١ ، ٢) أصول الكافي (٣١٣/١)، كتاب الحجة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: وهذا الحديث مجهول.

أن يكون عالمًا بالقرآن لا يقول كلامًا كهذا؛ لأن هذا الإمام نفسه يقول في صدر الحديث: « لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني، فما علمت في أيّ بيوت الدار هي » كيف يقول في آخر الخبر أنا أعلم الغيب ويقول: « أفمن عنده علم الكتاب كلّه أفْهَمُ أم من عنده علم الكتاب بعضه »؟ » [١].

« وقد أراد بعض الوضّاعين من غير الشيعة أن يقرروا نفس الشيء بالنسبة لأبي بكر الصديق ﷺ فقالوا: إنه أصبح خليفة لأن الرسول ﷺ قد نقل إليه العلوم السرية، وحباه بمعارف لم يمكّن منها غيره، وروى هؤلاء عن الرسول ﷺ قوله: « **ما صبّ اللَّه في صدري شيئًا إلا صببته في صدر أبي بكر** » [٢]. وهؤلاء « من أنصاف العلماء الذين قاوموا الكذب بالكذب، وهرعوا إلى الوسائل السهلة لمقاومة الخصوم والتأثير على الأتباع » [٣]؛ ولذلك لم يستقر في الفكر السني مثل هذه الترّهات.

ونحن نطمع أن يستعلي الفكر الشيعي أيضًا على مثل هذه الأكاذيب، وخصوصًا أن آية عظمى من آياتهم، وهو الشيخ آية اللَّه العظمى أبو الفضل بن رضا البرقعي قد قام بنقد هذه الروايات في أصول الكافي سندًا ومتنًا، فحكم عليها بالوضع، والحقّ أحقّ أن يتّبع.

ولقد أمر اللَّه تعالى نبيّه ﷺ أن يبلغ كل ما أوحي إليه للناس كافّة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

و « جاء الإسلام داعيًا إلى المساواة بين البشر بطريقة تضمن للاجتهاد مكانته، وتحث على العلم والعمل، وتدعو إلى تمكين الأفراد من الفرص المتكافئة التي تمكّنهم من المعرفة.... فأخبار نقل العلم من إمام إلى آخر بطريقة لا تعتمد على البذل والاجتهاد تتعارض والأصول الإسلامية؛ فلا بدّ من عدّها من الموضوعات » [٤].

إن اعتقاد بعض الناس باختصاص أهل البيت بشيء من العلوم نشأت في الصدر الأول للإسلام، والإمام علي ﷺ حي؛ فقد كان السبئية يشيعون مثل هذه الأفكار ذات

---

(١) البرقعي: كسر الصنم (نقض كتاب أصول الكافي)، (ص ١٨٩)، (ط١)، دار البيارق - عمان (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، ترجمة: د.عبد الرحيم ملا زاده البلوشي.

(٢) محسن عبد الناظر: مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية (ص ٤٤٢)، والحديث ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (ص ٩٣).

(٣) محسن عبد الناظر: مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية (ص ٥١٧).

(٤) المرجع السابق (ص ٤٤٣، ٤٤٤).

الأصل اليهودي؛ فقد صح عند أهل السنة أن عليًا ﷺ سئل: « هل خصكم النبي ﷺ بشيء لم يخص به الناس كافة؟ ». وهذا يدل على أن الغلو في علي رضوان الله عليه كان موجودًا في حياته: عن عامر بن واثلة ﷺ قال: « كنت عند علي بن أبي طالب فأتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يسر إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يسر إليَّ شيئًا يكتمه الناس غير أنه قد حدثني بكلمات أربع، قال: فقال: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: « لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غيّر منار الأرض » [(١)].

ومرة أخرى يقف المغالون أمام خبر يدحض ما بنوه من مبالغات في علوم الأئمة، فيردّ أحدهم الحديث السابق الذي رواه الإمام مسلم، قائلًا: « رواه أهل السنة في كتبهم، وارد فقط من طرقهم، وليس من طرق الشيعة، فلم تثبت صحته عند الشيعة ولا يعلمون قطعًا بصدور هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام... فلا يلزم الشيعة ولا يحتج عليهم بأحاديث وردت من طرق غيرهم أو لم تثبت عندهم صحتها »، بل ورأى أن روايات الحديث متناقضة: فقال: « تناقض الروايات التي ذكرها أهل السنة بما يخص السؤال الموجه لأمير المؤمنين عليه السلام (هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟) » ثم سرد الروايات [(٢)]. وغاية ما في تلك الروايات السنّية: روايتها بالمعنى؛ فإذا اختلفت في بعض ألفاظها فهي متفقة في مقصودها ومعانيها، وهو أمر لا تخلو منه أحاديث الشيعة قبل أحاديث أهل السنة.

وعلى كلٍّ فقد جاء الوضّاعون برواية تحارب رواية أهل السنة التي تنكر اختصاص علي بشيء من العلوم، وتناقض معناها: عن أبي بصيرٍ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « كان في ذؤابة سيف رسول الله ﷺ صحيفةٌ صغيرةٌ، فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيّ شيءٍ كان في تلك الصّحيفة؟ قال: هي الأحرف الّتي يفتح كلّ حرفٍ ألف حرفٍ، قال أبو بصيرٍ: قال أبو عبد الله عليه السلام: فما خرج منها حرفان حتّى السّاعة » [(٣)].

وقد مرّ - في فصل الغلاة وموقف الأئمة منهم - أن الاعتقاد بعلم الغيب عند الأئمة

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي: باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨).

(٢) الشيخ حسن عبد الله: وقفة مع الجزائري (ص ٢٨).

(٣) أصول الكافي (٣٥٢/١) كتاب الحجة باب الإشارة والنّصّ على أمير المؤمنين عليه السلام، قال محققه: والحديث موثق.

هو من افتراءات الغلاة، وفي تصرفات الأئمة ما يكذب هذه الافتراءات؛ فقد كان جعفر الصادق يأمر أتباعه أن يتولَّوا أبا الخطّاب ثمّ أمرهم أن يلعنوه ويتبرؤوا منه [(١)]؛ لما ثبت أنه كان يكذب على الأئمة، ولو كان جعفر رَحِمَهُ اللهُ يعلم الغيب لما أمر أتباعه أولًا بموالاة أبي الخطاب، ما دام يعلم أنه سيكذب على لسانه!

ثم إن فكرة العلوم السرية فكرة يهودية صرفة؛ إذ يزعم اليهود أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ « كان قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون، وصيّه وفتاه والقائم بالأمر بعده، ليفضي بها إلى أولاد هارون... شبّر وشُبير ابني هارون » [(٢)]، وانتقلت نظرية العلوم السرية من اليهودية إلى التشيع عن طريق عبد اللّٰه بن سبأ الذي كان أول من أظهر هذه الفرية في المجتمع الإسلامي، بزعمه أن محمدًا ﷺ كتم تسعة أعشار العلم عن جمهور صحابته وأعطى آل البيت بعلوم خفية [(٣)]. « وسرعان ما انتقلت النظرية من السبئية، وتأصلت لدى فرقة الكيسانية » [(٤)].

وكذلك « فكرة إضفاء علم الغيب على الأئمة نبتت أول ما نبتت على يد الغلاة من السبئية؛ حيث كانوا يقدسون عليًا ويدّعون حلول روح الإله فيه بقولهم: (أنت أنت)، ثم انتقلت الفكرة إلى فرقة البيانية الذين ادعوا إلهية علي » [(٥)].

والحقيقة أن « فكرة العلوم السرية تتنافى مع روح الإسلام الذي ينكر أشد الإنكار فكرة احتكار العلم والمعرفة؛ فكيف يكتم النبي ﷺ شيئًا عن جمهور أمته [(٦)]، وهو القائل: « **فليبلغ الشاهد الغائب فرُبَّ مُبلَّغ أَوعَى من سامع** » [(٧)]، وعن عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « **نضّر اللّٰه امرأ سمع منا شيئًا فبلّغه كما سمع، فرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع** » [(٨)] ؟!

وكيف يُفسح المجال للعلوم السرية في الإسلام والنبي ﷺ يتوعد بلجام من النار لمن

---

(١) أصول الكافي (٣٩٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المعارين قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (٢٠٩/١). (٣) انظر تاريخ اليعقوبي (٢٠٨/٢).

(٤) انظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٣٢٢).

(٥) المرجع السابق (ص ٣٦٦).

(٦) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٣١٩).

(٧) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٦٥٤).

(٨) سنن الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع رقم (٢٦٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح (٣٤/٥)، وأخرج قريبًا منه أبو داود عن زيد بن ثابت بسند صحيح أيضًا.

يكتم علمًا عن أهله؟! فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **« من سُئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة »** (١).

يقول ابن حزم: « اعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه، واتهموا كلَّ من يدعو أن يتبع بلا برهان، وكلَّ من ادعى للديانة سرًّا وباطنًا؛ فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به - من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب - على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده - عليه الصلاة والسلام - سر، ولا رمز، ولا باطن غير ما دعي الناس كلهم إليه، ولو كتمهم شيئًا لما بلّغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر » (٢).

إن إكمال الرب ﷻ لدينه وختم النبوة برسول الله محمد ﷺ هو أكبر دليل على أن تلك الروايات التي يرويها الشيعة في مضمار علوم الأئمة إنما هي من الموضوعات التي وضعها الغلاة في حق الأئمة ثم تسربت إلى المذهب الاثني عشري.

فقد قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. ويؤكد ذلك روايات شيعية تقرر أنه لا حاجة لعلوم أحد في شؤون الدين بعد وفاة النبي ﷺ: فعن أبي جعفر عليه السلام قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: **« أيها الناس، والله ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا وقد نهيتكم عنه »** (٣).

كما أن فكرة اختصاص الإمام علي والأئمة من بعده بالعلوم الشرعية تتعارض مع كثير من النصوص الصحيحة والصريحة التي تثبت كون بيت النبي ﷺ منبعًا ومرتعًا وفيرًا للعلم لكل سائل، دون اختصاص علي رضي الله عنه وزوجه وبنيه رضي الله عنهم؛ فقد قال ربنا ﷻ في حق أمهات المؤمنين: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود بسند صحيح: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨). وأخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وقال: حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه، وأحمد في مسنده.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (٢/٩١، ٩٢).

(٣) أصول الكافي (٢/٧٩) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى. قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

فالآية الأخيرة أمرت نساء النبي ﷺ بحفظ ما يتلى في بيوت النبي ﷺ من الكتاب والحكمة، وفي نصوص السنة ما يثبت أن عائشة لكانت تستمع إلى ما يتساءله الناس في بيتها، كما في قصة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها في حادثة تشريع الظهار [١].

بل في روايات السنة أن عليًا وغيره من الصحابة فاتهم شيء من أحاديث النبي ﷺ، وما في ذلك من ضير عليهم، كما في مسألة منع التحريق بالنار؛ ففي مصادر أهل السنة أن عليًا ﷺ أتى بقوم من الزنادقة فحرقهم بالنار، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو كنت أنا ما حرقتهم لقول رسول الله ﷺ: « **لا تعذبوا بعذاب الله** » [٢]. وكذلك في عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقد أفتى بأبعد الأجلين (وضع الحمل، أو الأربعة أشهر وعشرًا) في حين قررت السنّة أن عدتها وضع حملها، كما ورد في كتب الحديث والفقه [٣].

ومن العجب أن الاثني عشرية مع ادعاء اختصاص الأئمة بالعلوم يقررون أنه لا يجب على الإمام الجواب على من سأله، فهناك تسع روايات تؤكد عدم وجوب الجواب على الأئمة إن سُئلوا، منها ما هو مصحّح، كرواية عَلِيِّ بن الحسين عليه السلام: « على الأئمّة من الفرض ما ليس على شيعتهم، وعلى شيعتنا ما ليس علينا، أمرهم الله عز وجل أن يسألونا قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] فأمرهم أن يسألونا، وليس علينا الجواب، إن شئنا أجبنا وإن شئنا أمسكنا » [٤].

---

(١) قالت عائشة رضي الله عنها: إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللّهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] انظر: سنن ابن ماجه (١/٦٦٦) باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).

(٢) سنن البيهقي الكبرى (٩/٧١)، دار الباز - مكة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) تحقيق محمد عبد القادر عطا، مسند الإمام أحمد (٢٥٥٢)، (١/٢٨٢)، وانظر: فتح الباري (١٢/٢٧٠). دار المعرفة - بيروت. وانظر: الشوكاني: نيل الأوطار (٥/٨)، وصحح الخبر.

(٣) انظر: رأي علي، في مصنف ابن أبي شيبة (٣/٥٥٥) وهو قول ابن عباس أيضًا. وقد جاء في صحيح البخاري: باب وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٤/١٨٦٤) رقم (٤٦٢٦): أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وضعت حملها بعد وفاة زوجها بأربعين يومًا فخطبت وأنكحها النبي ﷺ.

(٤) انظر: أصول الكافي (١/٢٦٧ - ٢٨٩) كتاب الحجة، باب أنّ أهل الذّكر الّذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمّة عليهم السلام.

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: « جعلت فداك، إنّ الشّيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ١، ٢]. قال: ذلك إليّ إن شئت أخبرتهم، وإن شئت لم أخبرهم » (١).

قال محقق أصول الكافي: « هذا يظهر منه عدم وجوب الجواب من قبلهم عليه السلام على أية مسألة توجه إليهم، بل هم مخيرون في الجواب وعدمه حسب ما تقتضيه المصلحة، وسوف يمر معنا من الروايات ما يدل على ذلك » (٢).

فكيف يوجب اللّه تعالى طاعة من لا يجب عليهم أن يجيبوا إذا سألهم الناس؟! وقد كان النبي ﷺ مأمورًا بالتبليغ عن ربه عز وجل.

الأمة وعاء العلوم الإسلامية وليس الأئمة:

لا ينكر أحد من المسلمين فضل علي رضي الله عنه ولا علمه، ولكن هل يمكن أن تكون علوم الشريعة كلها مخصوصة بعلي وآل بيته وحدهم دون باقي الصحابة؟.

ونحن لا ندعي في حق أحد من الصحابة، حتى الخلفاء الراشدين ولا ابن عباس ولا ابن مسعود ولا غيرهم من علماء الصحابة – ما ادعاه الشيعة في علي، ونرى أن الإحاطة بعلوم القرآن الكريم من قبل شخص واحد أمر متعذر، وهنا يأتي حفظ اللّه تعالى للأمة وعلومها من خلال مجموعها؛ فهي الأمة المنصورة المرحومة، التي لا تجتمع على خطأ.

ونسأل: ما الذي دعا الإمامية للقول بإلزام الناس بما ورد عن الأئمة، وترك ما ورد عن غيرهم من الصحابة أو التابعين، إن ذلك يعود إلى أنهم اعتقدوا أن الإمام هو الخليفة عن النبي ﷺ، وهو مستودع العلم الإلهي، ووارث الأنبياء، وحافظ الكتاب والسنة فلا يجمعهما غيره، وهو صاحب السلطة والمسؤول عن إصدار الأحكام وبيان الحق؛ فلا بد أن يكون معصومًا (٣)، فالأرض لا تبقى بلا إمام، و « لو بقيت الأرض بغير إمامٍ لساخت » (٤). وهلك أهلها وقامت قيامتهم، فعلى الناس أن يتبعوا هؤلاء الأئمة المعصومين، و « من مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهليّةً... جاهليّة كفرٍ ونفاقٍ وضلالٍ » (٥).

---

(١) أصول الكافي (١/٢٦٤)، كتاب الحجة باب أن الآيات التي ذكرها اللّه عز وجل في كتابه هم الأئمة.

(٢) انظر: أصول الكافي (١/٢٦٤)، كتاب الحجة باب أن الآيات التي ذكرها اللّه عز وجل في كتابه هم الأئمة.

(٣) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٢٦).

(٤) أصول الكافي (١/٢٣٣) كتاب الحجة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة.

(٥) أصول الكافي (١/٤٣٩) كتاب الحجة باب من مات وليس له إمامٌ من أئمة الهدى. وهذا الحديث متفق عليه لفظًا بين أهل السنة والشيعة بل ثبت عند السنة زيادة عليه تحريم الخروج على الحاكم وتفريق=

في حين يعتقد أهل السنة أن العصمة للأمة وليس للأئمة؛ فالمسؤول عن بيان الحق وصاحب السلطة ووارث الأنبياء وحافظ السنن النبوية هي الأمة ممثلة بجماعة المؤمنين التي حذر اللّٰه تعالى من الشذوذ عنها فقال ﷻ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، منذ عهد الصحابة الكرام، وهم خير القرون إلى يوم القيامة؛ « فأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمتين قبلهم اليهود والنصارى، وقد أخبر اللّٰه أنهم الذين اصطفى، وتواتر عن النبي ﷺ أنه قال: « **خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** » [١] ومحمد ﷺ وأصحابه هم المصطفون من المصطفين من عباد اللّٰه [٢].

فاجتماع هذه الأمة في نقل القرآن والحديث، وفي الاجتهاد حجة على الناس، لقول النبي ﷺ في الحق: « **ما كنت عليه وأصحابي** » [٣]، وقوله: « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق** » [٤]، وقوله: « **يد اللّٰه مع الجماعة** » [٥]، وقوله: « **هذه الأمة مرحومة** » [٦]. وقوله ﷺ: « **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين،**

= المسلمين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل؛ فقتلة جاهلية. ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها. ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه »، انظر: صحيح مسلم (٣٣) - كتاب الإمارة (١٣) - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة. رقم (٥٣) - (١٨٤٨)

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، بلفظ: « خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته » رقم (٢٥٣٣).

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٣٤/٢، ٣٥).

(٣) سنن الترمذي (٢٦/٥) عن عبد اللّٰه بن عمرو قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا: ومن هي يا رسول اللّٰه؟ قال: « ما أنا عليه وأصحابي ». وهو حديث حسن. وفي ألفاظ الحديث تفصيل طويل نؤخره للفصل الأخير من الرسالة.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: « لا تزال طائفة.. » رقم (١٩٢٠).

(٥) أخرجه الترمذي: أبواب الفتن، باب لزوم الجماعة رقم (٢٢٥٦)، والنسائي كتاب تحريم الدم، باب قتل من فارق الجماعة.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري رقم (١٩٥٧٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ رقم (٤٢٩٢).

عضّوا عليها بالنواجذ » [(١)].

عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: « إن اللّه نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند اللّه حسن، وما رأوا سيّئًا فهو عند اللّه سيئ » [(٢)]. ومن المعلوم أن عليًا ﷺ من أوائل هؤلاء الصحابة الكرام، وأعلمهم وأقربهم للنبي ﷺ.

وعقيدة أهل السنة في مجال حفظ الشريعة أن اللّه تعالى تكفّل بحفظ كتابه بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فيسر حفظه وجمعه وتلاوته وبيانه إذ قال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] وحفظ بحفظ كتابه سنّة نبيه ﷺ في صدور أهل الحديث؛ فالسنة هي المبينة لكتابه الشارحة له، وقد ذكر المحدثون من أهل السنة أنه لم يحط بسنة النبي ﷺ حافظ رغم كثرة الحفاظ، ولكن الأمة بمجموعها حافظة لسنة نبيها ﷺ بما ثبت عن النبي ﷺ من عصمة هذه الأمة عن الخطأ.

قال السيوطي: « من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث اللّه به رسوله ﷺ » [(٣)].

ولم يدّع أحد من صحابة النبي ﷺ اختصاصه وحده بحفظ القرآن، ولم يجسر أحد على دعوى جمع كل السنة، وعلي منهم رضوان اللّه عليهم، بل على العكس من هذا، فلو كان علي ﷺ وحده اختص دون غيره بحفظ القرآن الكريم لما تجاوزه الصحابة الكرام في

---

(١) سنن الترمذي وقال: حديث صحيح. عن العرباض بن سارية ﷺ، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع رقم (٢٦٧٦)، وأبو داود كتاب السنة، باب في لزوم السنة رقم (٤٦٠٧). وأخرجه أحمد في المسند (٣٧٩/١)، رقم (٣٦٠٠)، بإسناد صحيح.

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٣٧٩/١)، حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، ورواه الحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي (٨٣/٣).

(٣) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (١٢٠٤/٢). دار ابن كثير، دمشق (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، (ط٣)، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.

جمع المصحف ثم نسخه [١]. وقد أثبت الصحابة الكرام لعلي ﷺ التقدّم في القضاء، وأثبتوا لأبيّ ابن كعب ﷺ التقدم في القراءة؛ فقد قال عمر ﷺ: « أقرؤنا أبيّ، وأقضانا علي » [٢].

وحياة علي ﷺ مع أصحابه وأتباعه كانت تجسيدًا لهذا الحق، فإن « عليًا ﷺ كان ينازعه أصحابه وأتباعه في مسائل كثيرة لا يرجعون فيها إلى قوله؛ بل فيها مسائل كثيرة وجد فيها نصوص النبي ﷺ توافق من نازعه لا قوله، منها المرأة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملًا فإن عليًا أفتى بأنها تعتدّ أبعد الأجلين، وعمر وابن مسعود وغيرهما ﷺ أفتوا بأنها تعتدّ بوضع الحمل، وبهذا جاءت سنة النبي ﷺ، وقد كان أبو السنابل ابن بعك ﷺ أفتى بمثل قول علي ﷺ، وقال النبي ﷺ: « **كذب أبو السنابل، قد حللت فانكحي** » [٣].

ولا نستغرب ألا يصل هذا الحديث إلى علي؛ فقد غاب ﷺ عن النبي ﷺ فترة من الزمن بمهمّات رسمية جليلة، فقد بعثه النبي ﷺ داعيًا وقاضيًا إلى اليمن، وخلّفه في أهله في غزوة تبوك فلم يحضرها. فلعل هذا الحديث الصحيح مما قاله النبي ﷺ في فترة غياب علي ﷺ. فعذر علي ﷺ ومن اتبعه في رأيه في عدة الحامل عدم علمهم بحديث النبي ﷺ الذي بيّن فيه أن عدة الحامل وضع حملها مهما قصرت مدّته، وقد جاء البخاري بعد ذلك وخرّج هذا الحديث عن النبي ﷺ [٤]، ولم يبلغ عليًا، ولو اختص علي ﷺ بالإحاطة بحديث النبي ﷺ وبحفظ الحديث النبوي لما غاب عنه هذا الحديث وأمثاله.

وهذه القاعدة (قاعدة عدم اختصاص أحد من الأمة بحفظ السنة) ليست خاصة في علي ﷺ؛ فقد أعمل أهل السنة هذه القاعدة فيما ورد من آراء عن بعض الصحابة الكرام، خالفت نصوصًا نبوية لم تبلغهم، أو فهموها بغير ما فهمها جمهور الصحابة. ومن ثمّ صار قول هذا الصحابي أو ذاك قولًا مهجورًا لا يعتدّ به، مع حفظ حرمة وقدر هذا الصحابي، فلم يأخذ أهل العلم بقول عائشة وابن عمر وعلي ﷺ في مسألة جواز

---

(١) انظر: د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٥١٠). وهو يعتمد على أبي حامد المقدسي: رسالة في الرد على الرافضة (ص ٢٦١).

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب قوله ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] رقم (٤٢١١).

(٣) د.عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٥١٠). وكذب هنا معناه مخالفة الحقيقة، وليس الكذب الذي يأثم صاحبه، والله أعلم.

(٤) انظر: حديث سبيعة بنت الحارث الأسلمية: صحيح البخاري ومسلم. وانظر مسألة الحامل التي توفي عنها زوجها: الفقه الإسلامي وأدلته: أستاذي الدكتور وهبة الزحيلي (٦٣٤/٧) دار الفكر - دمشق (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

انتعال رِجْلٍ واحدة؛ لأنها مخالفة لحديث صحيح (١).

وسنرى أن الشيعة بعد غيبة الإمام - وخصوصًا بعد الغيبة الكبرى - سيضطرون للإذعان إلى نظرية أهل السنة في عصمة الأمة؛ فماذا فعل الشيعة بعد غيبة الإمام للوصول إلى الأحكام وبيان الحق؟ لقد ذهبوا إلى القول بوجوب اتباع المراجع الدينية من الفقهاء والمجتهدين، وهم بذلك يعودون إلى رأي أهل السنة من دون أن يشعروا:

عن يعقوب بن شعيبٍ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إذا حدث على الإمام حدثٌ كيف يصنع النّاس؟ قال: أين قول الله عز وجل: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]؟ قال: هم في عذرٍ ما داموا في الطّلب، وهؤلاء الّذين ينتظرونهم في عذرٍ حتّى يرجع إليهم أصحابهم » (٢).

وهذه الرواية قريبة جدًّا من منهج أهل السنة والجماعة، وأبعد ما تكون عن فكر الذين يعتمدون على توقيعات الإمام الثاني عشر، الذي ما يزال غائبًا في عقيدة الشيعة الاثني عشرية منذ ما يزيد عن ألف ومائة عام.

ولذلك فإن مجتهدي الشيعة المعاصرين رسخوا هذا المبدأ القريب من منهج أهل السنة، ولكنهم زادوا عليه نظرية أخرى هي نظرية وجوب حكم الفقهاء للدولة تحت مسمى (ولاية الفقيه) كما هو معمول به في دولة إيران؛ حيث « منح الدستور الجديد الفقيه سلطات مطلقة، منها سلطة تعيين قائد القوات المسلحة وحق إعلان الحرب، وعقد السلم، وحق إلغاء انتخابات الرئاسة، كما منحه الدستور حق إقالة رئيس الجمهورية بعد الحصول على موافقة البرلمان »، وتنتقل هذه السلطات بعد هذا المرشد الأعلى إلى مرجع

---

(١) فقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: « لا يمشي أحدكم في نعل واحدة ليحفهما جميعًا أو لينعلهما جميعا ». أخرجه البخاري، باب لا يمشي في نعل واحدة، رقم (٥٥١٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب استحباب لبس النعل في اليمنى أولًا، رقم (٢٠٩٧). وأجازت أم المؤمنين عائشة وعلي وابن عمر رضي الله عنهم انتعال رجل واحدة، قال ابن حجر: « وكأنها لم يبلغها النهي.. وقال ابن عبد البر: لم يأخذ أهل العلم برأي عائشة في ذلك، وقد ورد عن علي وابن عمر أيضا أنهما فعلا ذلك، وهو إما أن يكون بلغهما النهي فحملاه على التنزيه، أو كان زمن فعلهما يسيرًا بحيث يؤمن معه المحذور، أو لم يبلغهما النهي ». (ابن حجر: فتح الباري ١٠/٣١٠).

(٢) أصول الكافي (١/٤٤١) كتاب الحجة، باب ما يجب على الناس عند مضي الإمام، قال محققه: والحديث صحيح.

فقهي مجتهد آخر متفق على مكانته، وفي حالة تعذر العثور عليه تنتقل هذه السلطات إلى لجنة مكوّنة من خمسة فقهاء [(١)] .

معوّقات الاستفادة من علوم الأئمة من خلال روايات الاثني عشرية:

وإذا اعتمدنا على روايات الشيعة ذاتها سنرى أن التقية ووجوب كتمان المذهب، وصعوبة حديث أهل البيت، وغياب الإمام الثاني عشر، وكثرة الكذابين على الأئمة؛ كل هذه الظواهر تعد معاول تهدم دعوى اختصاص الأئمة بالعلوم، كما تمنع الاستفادة من علومهم.

١ – دور التقِيّة في تعذر الانتفاع بعلوم الأئمة:

التقِيّة: إظهار خلاف ما في الباطن [(٢)]. وقد عرّفها المفيد بقوله: « التقية كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضررًا في الدين أو الدنيا » [(٣)].

عن موسى بن أَشْيَمَ قال: « كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجلٌ عن آيةٍ من كتاب الله عز وجل فأخبره بها، ثمّ دخل عليه داخلٌ فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبر به الأوّل، فدخلني من ذلك ما شاء الله، حتّى كأنّ قلبي يشرح بالسّكاكين فقلت في نفسي: تركت أبا قتادة بالشّام لا يخطئ في الواو وشبهه وجئت إلى هذا يخطئ هذا الخطأ كلّه. فبينا أنا كذلك إذ دخل عليه آخر فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبرني وأخبر صاحبيّ، فسكنت نفسي فعلمت أنّ ذلك منه تقيّةٌ. قال: ثمّ التفت إليّ فقال لي: « يا بن أشيم إنّ الله عز وجل فوّض إلى سليمان بن داود فقال: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] وفوّض إلى نبيّه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]. فما فوّض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد فوّضه إلينا » [(٤)].

ومما زاد مشكلة التقية تعقيدًا: عجز الشيعة في كثير من الأحيان عن التفريق بين

---

(١) د. آمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ – ١٩٧٩م) (ص ٢٤٣، ٢٤٤)، سلسلة عالم المعرفة رقم (٢٥٠) الكويت (١٩٩٩م).

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير (١/١٩٣).

(٣) شرح عقائد الصدوق (ص ٢٦١) (ملحق بكتاب أوائل المقالات). وسنتعرض للتقية في مبحث مستقل في فصل (العقائد الخاصة عند الاثني عشرية).

(٤) أصول الكافي (١/٣٢١) كتاب الحجة باب التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدّين.

ما قاله الإمام تقية وما قاله على الحقيقة، حسب زعمهم، فنرى « أن الحقيقة التي تعبر عن مذهب الأئمة قد تخفى على شيوخ الشيعة أنفسهم؛ فلا يعلمون أي القولين تقية، فكان هذا من أسباب ضياع مذهب الأئمة واستمرار الغلو » [1]. فصار كل نص يخالف ما استقرت عليها عقائدهم يتهم بأنه قيل تقِيَّة، فلا عجب إذن أن الكليني يذكر بعض أحاديث التقية في باب اختلاف الحديث في أصول الكافي: عن عليّ بن رئابٍ عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: « يا زياد ما تقول لو أفتينا رجلًا ممّن يتولانا بشيءٍ من التّقيّة؟ قال: قلت له: أنت أعلم جعلت فداك. قال: إن أخذ به فهو خيرٌ له وأعظم أجرًا ». وفي روايةٍ أخرى: « إن أخذ به أجر، وإن تركه واللّٰه أثم ».

وعن نصرٍ الخثعميّ قال: سمعت أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول: « من عرف أنّا لا نقول إلا حقًّا فليكتف بما يعلم منّا، فإن سمع منّا خلاف ما يعلم فليعلم أنّ ذلك دفاعٌ منّا عنه » [2].

« فالتقية عند الاثني عشرية والإسماعيلية وسيلة دفاعية لا تكلف الإنسان ضررًا، وإنما تطلب منه أن يصدّق بما يصدر عن الأئمة بدون نقاش، حتى ولو بدا له أن في أقوالهم تضاربًا أو في مواقف أحدهم تناقضًا؛ فعليه أن لا يشك في الإمام لا من حيث العلم أو من حيث القدرة، بل يحمل ذلك التناقض على التقية » [3].

قال المحقق يوسف البحراني (١١٨٦هـ): « فإنّ جل الاختلاف الواقع في أخبارنا بل كله عند التأمل والتحقيق إنما نشأ من التقية، ومن هنا دخلت الشبهة على جمهور متأخري أصحابنا رضوان اللّٰه عليهم، فظنوا أن هذا الاختلاف إنما نشأ من دس أخبار الكذب في أخبارنا، فوضعوا هذا الاصطلاح ليميزوا به صحيحها عن سقيمها » [4].

وقد يختلف علماء الاثني عشرية في صحة بعض أقوال الأئمة، لا من حيث ثبوت صدورها عنهم؛ بل من حيث هل كانت على التقية أم على الحقيقة؟ وما عليك إلا أن تنتظر حتى يأتي أحد العلماء فيقول لك: « إذا عرفت ذلك فاعلم أن الذي ظهر لي في معنى الخبرين المذكورين أنهما إنما خرجا مخرج التقية » [5].

---

(١) د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٦٨/١، ٢٦٩).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث (١١٩/١).

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة: باب وجوه الجمع بين الأحاديث المختلفة وكيفية العمل بها، محسن عبد الناظر: مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية (ص ٤٢٣)، الدار العربية للكتاب.

(٤) الحدائق الناضرة (٨/١).

(٥) يوسف البحراني: الحدائق الناضرة (٣٥٩/١).

ومن أمثلة جعل التقية مشجبًا تعلق عليه الحيرة من تناقض الروايات: قول أبي عبد الله الصادق: « لا تسافر يوم الإثنين ولا تطلب فيه حاجة »[١]، في حين وردت روايتهم عن سيدنا علي ﷺ: « يوم السبت يوم مكر وخديعة [!!]، ويوم الأحد يوم غرس وبناء، ويوم الإثنين يوم سفر وطلب، ويوم الثلاثاء يوم حرب ودم، ويوم الأربعاء يوم شؤم يتطير فيه الناس [!!]، ويوم الخميس يوم الدخول على الأمراء وقضاء الحوائج، ويوم الجمعة يوم خطبة ونكاح »[٢].

فإنك تلحظ أن الرواية الأخيرة عدّت يوم الإثنين يوم سفر وطلب، وهذا يخالف ما مضى من روايات؛ ولذلك حمل شيخهم الحر العاملي هذا على التقيَّة[٣]. وهذا يؤكد أن التقية لم تكن فقط لمجرد الخوف من المخالفين وبطشهم، بمقدار ما هي تعبير عن الحيرة من تناقض روايات المذهب. « فلا يميزون بين ما يصح نقله عن أئمتهم وما لا يصح، ولا يعرفون أدلتهم ومآخذهم... وفيما ينقلونه عمن يقلدونه من الاختلاف وفيما لا ينقلونه عمن يقلدونه من الاختلاف ما لا يكاد يحصى »[٤].

وفي هذه الحيرة وعدم القدرة على التوفيق بين الروايات المتضاربة، « حتى لا يكاد يتفق خبر إلا وبإزائه ما يضاده، ولا يسلم حديث إلا وفي مقابلته ما ينافيه، حتى جعل مخالفونا ذلك من أعظم الطعون على مذهبنا، وتطرقوا بذلك إلى إبطال معتقدنا « على حد قول الطوسي في تهذيب الأحكام »[٥].

ومع انتفاء القدرة على الترجيح بينها يلجأ الشيعة إلى التسليم والتفويض للأئمة، يقول يوسف البحراني: « فلم يعلم من أحكام الدين على اليقين إلا القليل لامتزاج أخباره بأخبار التقية، كما قد اعترف بذلك ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في جامعه الكافي، حتى إنه تخطى العمل بالترجيحات المروية عند تعارض الأخبار، والتجأ إلى مجرد الرد والتسليم للأئمة الأبرار »[٦]. « حتى صار سببًا لرجوع بعض

---

(١) المحاسن (ص ٣٤٦)، وسائل الشيعة (٢٥٥/٨).

(٢) الصدوق: علل الشرائع (ص ١٩٩)، الخصال (٢٨/٢). عيون الأخبار (ص ١٣٧)، وسائل الشيعة (٢٥٨/٨).

(٣) وسائل الشيعة (٢٥٨/٨).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٧٥/٢، ٤٧٦).

(٥) أبو جعفر الطوسي: تهذيب الأحكام (٢/١) دار الكتب الإسلامية – طهران، تحقيق السيد حسن الموسوي.

(٦) يوسف البحراني: الحدائق الناضرة (٥/١).

الناقصين عن اعتقاد الحق »[١].

٢ - الكتمان ودوره في ضياع علوم الأئمة:

وإلى جانب التقية كانت مبالغة الشيعة في كتمان الأخبار سببًا من أسباب عدم اشتهارها؛ استجابة لدعوة الأئمة بوجوب الكتمان:

عن عبد اللّٰه بن أبي يعفورٍ قال: سمعت أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول: « التّقيّة ترس المؤمن، والتّقيّة حرز المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقيّة له. إنّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيدين اللّٰه عز وجل به فيما بينه وبينه فيكون له عزًّا في الدّنيا ونورًا في الآخرة، وإنّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيذيعه فيكون له ذلًّا في الدّنيا وينزع اللّٰه عز وجل ذلك النّور منه »[٢].

وعنه أيضًا قال: « من أذاع علينا حديثنا سلبه اللّٰه الإيمان »[٣].

وتذكر الروايات أن الأئمة كانوا يشكون من إذاعة أتباعهم وجهرهم بعقائد المذهب؛ لأن ذلك يجلب لهم الويلات:

عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: « وددت واللّٰه أنّي افتديت خصلتين في الشّيعة لنا ببعض لحم ساعدي: النّزق وقلّة الكتمان »[٤].

وهذه المرويات تخالف روايات أخرى تقرر أن قدر الرجال عند الأئمة بمقدار كثرة روايتهم عنهم:

عن أبي عبد اللّٰه جعفر الصادق قال: « اعرفوا منازل النّاس على قدر روايتهم عنّا »[٥].

ولذلك يمتدح جعفر الصادق رواة الحديث عن أبيه الباقر، فهذا زرارة بن أعين يقول فيه جعفر الصادق: « لولا زرارة ونظراؤه لاندرست أحاديث أبي »[٦].

وهذا جابر الجعفي[٧] « روى سبعين ألف حديث عن الباقر عليه السلام، وروى مائة

---

(١) حقيقة الشيعة: عبد اللّٰه عبد اللّٰه الموصلي عن: دلدار علي اللكهنوي: أساس الأصول (ص ٥١)، (ط١)، لكهنؤ الهند.

(٢) أصول الكافي (٢/٢٢٤) كتاب الإيمان والكفر، باب التقية. قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٢/٣٥٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الإذاعة. قال محققه: الحديث صحيح.

(٤) أصول الكافي (٢/٢٢٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الكتمان. قال محققه: والحديث صحيح.

(٥) أصول الكافي (١/١٠٢) كتاب فضل العلم، باب في النوادر.

(٦) أعيان الشيعة (٢٧/١٤٤).

(٧) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي، توفي سنة (١٢٧هـ).

وأخبار الشيعة فيه متناقضة كابن زرارة (انظر حول ابن زرارة العاملي: أعيان الشيعة ٢٠/١٩٦، ١٩٧)، فأخبار =

وأربعين ألف حديث » [١]. فهل كان مخالفًا في روايته لوصية الأئمة بالكتمان؟.

أليس من العجيب أن أهم خبر فصّل أسماء الأئمة كان محلًّا للكتمان والإخفاء؟ إن أهم نصوص أحقية الأئمة الاثني عشر هو ما ورد في لوح أخضر لفاطمة رضي الله عنها استنسخه جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه يذكر فيه الأئمة بأسمائهم؛ فكان يجب في حق هذا النص - لو ثبت - أن يشتهر وينشر في الآفاق. ولكن كيف يشتهر وهم يتواصون بكتمانه إلا عن ثقاتهم؟! ففي نص الرواية: « فصنه إلا عن أهله » [٢]. فإن صح هذا النص ألا تعذر عامة الناس لعدم قناعتهم بالأئمة؛ لأنهم لم يصلهم هذا النص الخطير الذي يجب صونه عن غير أهله!.

٣ - صعوبة حديث آل البيت:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكرت التّقيّة يومًا عند عليّ بن الحسين عليهما السلام فقال: « والله، لو علم أبو ذرٍّ ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخى رسول الله ﷺ بينهما، فما ظنّكم بسائر الخلق؟ إنّ علم العلماء صعبٌ مستصعبٌ لا يحتمله إلا نبيٌّ مرسلٌ أو ملكٌ مقرّبٌ أو عبدٌ مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان » [٣].

= تجعل الجعفي ممن انتهى إليه علم أهل البيت، وأخبار تطعن فيه. ذكر الكشي: قال زرارة: سألت أبا عبد الله رضي الله عنه عن أحاديث جابر فقال: « ما رأيته عند أبي قط إلا مرة واحدة، وما دخل عليّ قط ». لكنهم يحملون أخبار الطعن فيه على التقية (انظر: وسائل الشيعة (٢٠/٥١)، رجال الكشي (ص ١٩١)، جامع الرواة (١/١٤٤)). أما عند أهل السنة فقد قال ابن حبان: كان سبئيًا من أصحاب عبد الله بن سبأ. كان يقول: إن عليًا يرجع إلى الدنيا، وروى العقيلي بسنده عن زائدة أنه قال: جابر الجعفي رافضي يشتم أصحاب رسول الله ﷺ، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: لا يكتب حديثه ولا كرامة، قال ابن حجر: ضعيف رافضي. (انظر: ميزان الاعتدال (١/٣٧٩، ٣٨٠)، تقريب التهذيب (١/١٢٣)، الضعفاء للعقيلي (١/١٩١ - ١٩٦). انظر: د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (١/٢٠٣) هامش (٢).

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٣٠ /٣٢٩). وقال عنه: ضعفه بعض علمائنا، والأرجح توثيقه. فلماذا يستنكر الشيعة أن صحابيًا واحدًا كأبي هريرة يروي عن النبي ﷺ (٥٣٧٤) حديثًا؟ ما دام رجل واحد من الشيعة يروي مائة وأربعين ألف حديث؟.

(٢) أصول الكافي (١/٦٠٦) كتاب الحجة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. سكت عنه المحقق.

(٣) أصول الكافي (١/٤٦٦، ٤٦٧) كتاب الحجة باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب قال المجلسي: « أي من مراتب معرفة الله سبحانه ومعرفة النبي والأئمة (ع) وغيرها، فلو كان أظهر سلمان له شيئًا من ذلك كان لا يحتمله، وحمله على الكذب والارتداد، أو العلوم والأعمال الغريبة التي لو أظهرها لحملها على السحر فقتله أو كان يفشيه فيصير سببًا لقتل سلمان » مرآة العقول (٤/٣١٥)، وهنا قاسم مشترك مع بعض المتصوفة الذين يقولون بالمعارف الخاصة التي لا يجوز الكشف عنها، وأن الحلاج إنما قتل لما أباح السر.

وقد أوردوا حديثًا آخر فيه هذا المعنى، ولكن تأوله لهم أحد الأئمة على معنى آخر: عن محمّد بن أحمد عن بعض أصحابنا قال: كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام: « جعلت فداك، ما معنى قول الصّادق عليه السلام: حديثنا لا يحتمله ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ ولا مؤمنٌ امتحن اللّه قلبه للإيمان، فجاء الجواب: إنّما معنى قول الصّادق عليه السلام أي لا يحتمله ملكٌ ولا نبيٌّ ولا مؤمنٌ، إنّ الملك لا يحتمله حتّى يخرجه إلى ملكٍ غيره، والنّبيّ لا يحتمله حتّى يخرجه إلى نبيٍّ غيره، والمؤمن لا يحتمله حتّى يخرجه إلى مؤمنٍ غيره. فهذا معنى قول جدّي عليه السلام » (١). قال المجلسي: أي لا يصبر ولا يطيق كتمانه؛ لشدة حبه لهم وحرصه على ذكر فضائلهم حتى ينقله إلى آخر فيحدثه به. والحاصل أن هذا الاحتمال غير الاحتمال الوارد في الأخبار المتضمنة للاستثناء فلا تنافي بينهما » (٢).

ولكن يرد هذا المعنى عنوان الباب نفسه (حديثهم صعب مستصعب) وكذلك سياق الأحاديث؛ فقبله كان حديث (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله) وهي دعوة لكتم العلوم عن غير أهلها، وكذلك الحديث الذي بعده وفيه ما يبين أن معنى عدم الاحتمال هو صعوبته حتى لا يصدّقه الناس: قال أبو عبد اللّه عليه السلام : « يا أبا محمّدٍ إنّ عندنا واللّه سرًّا من سرّ اللّه وعلمًا من علم اللّه، واللّه ما يحتمله ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ ولا مؤمنٌ امتحن اللّه قلبه للإيمان، واللّه ما كلّف اللّه ذلك أحدًا غيرنا، ولا استعبد بذلك أحدًا غيرنا، وإنّ عندنا سرًّا من سرّ اللّه وعلمًا من علم اللّه أمرنا اللّه بتبليغه فبلّغنا عن اللّه عزّ وجلّ ما أمرنا بتبليغه فلم نجد له موضعًا ولا أهلًا ولا حمّالةً يحتملونه، حتّى خلق اللّه لذلك أقوامًا خلقوا من طينةٍ خلق منها محمّدٌ وآله وذرّيّته عليهم السلام ومن نورٍ خلق اللّه منه محمّدًا وذرّيّته وصنعهم بفضل رحمته الّتي صنع منها محمّدًا وذرّيّته فبلّغنا عن اللّه ما أمرنا بتبليغه فقبلوه واحتملوا ذلك، فبلغهم ذلك عنّا فقبلوه واحتملوه وبلغهم ذكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا؛ فلولا أنّهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك لا واللّه ما احتملوه. ثمّ قال: إنّ اللّه خلق أقوامًا لجهنّم والنّار فأمرنا أن نبلّغهم كما بلّغناهم واشمأزّوا من ذلك ونفرت قلوبهم وردّوه علينا ولم يحتملوه وكذّبوا به، وقالوا: ساحرٌ كذّابٌ، فطبع اللّه على قلوبهم وأنساهم ذلك، ثمّ أطلق اللّه لسانهم ببعض الحقّ فهم ينطقون به وقلوبهم منكرةٌ ليكون ذلك دفعًا عن أوليائه وأهل طاعته، ولولا ذلك ما عبد اللّه في

---

(١) أصول الكافي (٤٦٧/١) كتاب الحجة باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب.

(٢) المجلسي: مرآة العقول (٣١٨/٤).

أرضه، فأمرنا بالكفّ عنهم والسّتر والكتمان، فاكتموا عمّن أمر اللّه بالكفّ عنه، واستروا عمّن أمر اللّه بالسّتر والكتمان عنه » [(١)].

وإذا كان وحي السماء جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن العنت إلى اليسر والخير: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ۝ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]؛ فما حاجة البشرية إلى أشخاص عندهم كل العلوم، لكنهم:

- قد يُسألون فلا يجيبون؛ لأنهم لا تجب عليهم الإجابة.

- وقد يتكلمون بكلام يناقض بعضه بعضًا، ويطلب من السامعين تحليل هذا الكلام هل كان على التقية أم على الحقيقة؟

- وعلمهم غير منشور ولا مشهور؛ لأنهم أمروا أتباعهم بكتمانه.

- وصفة حديثهم أنه صعب مستصعب، لا تدركه إلا عقول الخواص.

ما حاجة البشرية إلى علوم من هذه صفاتهم، واللّه تعالى قد أنزل الكتاب المبين، وبيّنه بسنة نبيه الأمين ﷺ؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]؟!.

ثم من خلال الاستقراء للنصوص عند الشيعة والسنة فيمكن القول: إن أهل السنة لم يفُتْهُم شيء من حديث النبي ﷺ الذي رواه الشيعة؛ اللّهم إلا ما وضعه الشيعة في مسألة الإمامة، وهذه الحقيقة قد أشار إليها علماؤنا قديمًا حين قالوا: « وأما ما انفردت به الشيعة عن جميع طوائف السنة فكله خطأ، وليس معهم صواب إلا وقد قاله بعض أهل السنة » [(٢)]. فلو قارنّا ما رواه البخاري وغيره من محدثي السنة في باب الأخلاق، مثلًا مع ما أورده الكليني في (الكافي) [(٣)]، لوجدنا اشتراك الشيعة والسنة في معظم أحاديث

---

(١) أصول الكافي (٤٦٧/١) كتاب الحجة، باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب. قال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٧٩/٢).

(٣) انظر: مثلًا أصول الكافي (١٠٦/٢ - ٢١٥) كتاب الإيمان والكفر باب حسن الخلق وما بعده؛ ترَ شبه الوفاق على كثير من هذه الأحاديث المتعلقة بالأخلاق والآداب العامة. ثم تعود للافتراق عن أهل السنة في باب التقيّة وباب الكتمان (٢١٩/٢) وما بعد، ثم يعود الاتفاق على أحاديث أخلاقية (٢٨٣/٢) =

الأخلاق؛ حيث لا سبب للخلاف فيها؛ لأن الفطرة السليمة تدعو إلى هذه الأخلاق، أما في مسائل الاعتقاد فيلعب التعصب دوره، وتنشط همم الوضاعين من أجل « خدمة المذهب »، وهو أمر لا تخلو منه طائفة من الطوائف. ولكن المشكلة عندما تتحول هذه الموضوعات إلى عقائد يرتضعها الصغار، ويموت عليها الكبار، دون أن يخضعوها للنقد والتمحيص.

* * *

= وما بعدها في باب طلب الرئاسة.. الغضب... الحسد.. الطمع.. العقوق.... إلخ. وانظر الوفاق شبه التام في كتاب الدعاء للّه تعالى (٤٣٧/٢) وما بعده.

المبحث الثاني

موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله ﷻ، أنزله على قلب رسوله محمد ﷺ، هداية للعالمين، وهو المصدر الأعظم من مصادر تلقي العقيدة والأحكام عند كل المسلمين. وقد « ذكر الرضا ﷺ يومًا القرآن فعظّم الحجة فيه.. فقال: « هو حبل الله المتين وعروته الوثقى.. جعل دليل البرهان، وحجة على كل إنسان، ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] » (١).

« فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم؛ فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفّع، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل » (٢).

وروى الكليني قول رسول الله ﷺ: « **إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل** » (٣).

ولقد بينت روايات الأئمة شمول القرآن الكريم، وعجز العقول عن إدراك أسراره: قال أبو عبد الله عليه السلام: « ما من أمرٍ يختلف فيه اثنان إلا وله أصلٌ في كتاب الله ﷻ، ولكن لا تبلغه عقول الرّجال » (٤).

ولذلك تعددت الروايات عن الأئمة توصي بتعهد القرآن وحفظه ورعايته:

عن الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة » (٥). وهي رواية رواها أهل السنة في الصحيحين (٦).

---

(١) انظر: المجلسي: البحار (١٤/٩٢)، ابن بابويه: عيون أخبار الرضا (١٣٠/٢).

(٢) انظر: تفسير العياشي: (٢/١)، البحار (١٧/٩٢).

(٣) أصول الكافي (٧٩/١) كتاب العلم، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء.

(٤) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة (١١٤/١).

(٥) أصول الكافي (٥٦٨/٢) كتاب الدعاء باب فضل حامل القرآن. قال محققه: والحديث صحيح.

(٦) متفق عليه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة =

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **تعلّموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له القرآن: أنا الذي كنت أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك، وأجففت ريقك وأسلت دمعتك، أؤول معك حيثما ألت، وكل تاجر من وراء تجارته، وأنا اليوم لك من وراء تجارة كل تاجر، وسيأتيك كرامة الله ﷻ فأبشر. فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويعطى الأمان بيمينه والخلد في الجنان بيساره ويكسى حلتين ثم يقال له: اقرأ وارقه، فكلما قرأ آية صعد درجة، ويكسى أبواه حلتين إن كانا مؤمنين، ثم يقال لهما: هذا لما علمتماه القرآن** » [1]، وقد روى قريبًا منه أهل السنة كما في مسند أحمد [2].

وعن أبي عبد الله ﵇ قال: « إن الذي يعالج القرآن ويحفظه بمشقة منه وقلة حفظ له أجران » [3]. ومعنى هذه الرواية مما صح عند أهل السنة أيضًا.

وروي عنه أنه قال أيضًا: « من نسي سورة من القرآن مثّلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة فإذا رآها قال: ما أنت؟ ما أحسنك! ليتك لي. فتقول: أما تعرفني؟ أنا سورة كذا وكذا ولو لم تنسني رفعتك إلى هذا » [4].

وكذلك ثبت عند أهل السنة ضرورة تعاهد القرآن حتى لا ينسى: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « **بئسما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسّي. استذكروا القرآن فلهو أشد تفصّيًا من صدور الرجال من النّعم بعُقُله** » [5].

وقد كان الإمام الصادق يقرأ مصحفًا جزّأه إلى أجزاء: عن حسين بن خالد، عن أبي عبد الله ﵇ قال: قلت له: « في كم أقرأ القرآن، فقال: اقرأه أخماسًا، اقرأه أسباعًا،

=والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران ». صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة عبس رقم (٤٦٥٣)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به رقم (٧٩٨)، واللفظ له.

(١) أصول الكافي (٥٦٨/٢) كتاب الدعاء، باب فضل حامل القرآن. قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده عن بريدة ﵁ (٣٥٢/٥). عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: « يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول لصاحبه: أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك »، وإسناده حسن في المتابعات والشواهد، وقال الحاكم في المستدرك (٧٤٢/١): « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ».

(٣) أصول الكافي (٥٧١/٢) كتاب الدعاء باب من يتعلم القرآن بمشقة قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) أصول الكافي (٥٧٢/٢) كتاب الدعاء باب من حفظ القرآن ثم نسيه قال محققه: والحديث حسن.

(٥) صحيح مسلم: كتاب فضائل القرآن، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول: نسيت آية كذا، وجواز قول: أُنسيته، رقم (٧٩٠). شبه المصطفى ﷺ سرعة نسيان القرآن لمن لم يتعاهده بالقراءة بسرعة انطلاق الإبل من عقالها ورباطها إذا فكّت منه.

أما إن عندي مصحفًا مجزأ أربعة عشر جزءًا » [(١)].

وهكذا أجمعت روايات أهل السنة والاثني عشرية على لزوم تعهد القرآن وحفظه؛ فكيف تأتي روايات بعد ذلك تخالف هذه الوصايا عن النبي ﷺ وعن الأئمة؟!.

* * *

المطلب الأول

هل اختص الأئمة بجمع القرآن وحفظه؟

تؤكد روايات الكافي أنه لم يجمع القرآن إلا الأئمة، وأن القرآن في صدور الأئمة أبلغ مما في المصحف:

عن جابرٍ قال: سمعت أبا جعفرٍ عليه السلام يقول: « ما ادّعى أحدٌ من النّاس أنّه جمع القرآن كلّه كما أنزل إلا كذّابٌ، وما جمعه وحفظه كما نزّله اللّه تعالى إلا عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام والأئمّة من بعده عليهم السلام » [(٢)].

ورووا « في أخبار أهل البيت عليهم السلام أنه [أي علي] آلى أن لا يضع رداءه على عاتقه إلا للصلاة حتى يؤلف القرآن ويجمعه، فانقطع عنهم مدة إلى أن جمعه، ثم خرج إليهم به في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد، فأنكروا مصيره بعد انقطاع مع التيه، فقالوا: لأمر ما جاء أبو الحسن؟ فلما توسطهم وضع الكتاب بينهم، ثم قال: إن رسول اللّه ﷺ قال: « **إني مخَلِّف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي** ». وهذا الكتاب وأنا العترة. فقام إليه الثاني [يقصدون عمر رضي الله عنه] فقال له: إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله، فلا حاجة لنا فيكما! فحمل عليه السلام الكتاب وعاد به بعد أن ألزمهم الحجة.

وفي خبر طويل عن الصادق عليه السلام أنه حمله وولى راجعًا نحو حجرته وهو يقول: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولهذا قرأ ابن مسعود: « إن عليًا جمعه وقرآنه » [(٣)]. وهذا تحريف واضح للنص القرآني.

---

(١) أصول الكافي (٥٨٢/٢) كتاب الدعاء باب في كم يقرأ القرآن ويختم قال محققه: والحديث حسن.

(٢) أصول الكافي (٢٨٤/١) كتاب الحجة باب أنّه لم يجمع القرآن كلّه إلا الأئمّة عليهم السلام وأنّهم يعلمون علمه كلّه. قال المحقق: هذا الحديث مختلف فيه، ولم يبين السبب. قال المازندراني: « المراد بجمعه جمع المباني والمعاني الأولية والثانوية فصاعدًا » شرح المازندراني للكافي (٣٦٠/٥).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (١٥٥/٤٠، ١٥٦).

وقد ورد في كتاب المصاحف عند أهل السنة رواية ضعيفة تذكر جمع علي للمصحف، أوردها ابن أبي داود في كتابه (المصاحف)، قال: « حدثنا عبد الله قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي قال: أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، إلا أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه، ثم رجع ».

ثم علّق ابن أبي داود على هذه الرواية قائلًا: « قال أبو بكر: لم يذكر المصحف إلا أشعث وهو لين الحديث، وورد: « حتى جمع القرآن » يعني أتمّ حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: جمع القرآن » [1].

فمعنى الحفظ في هذه الرواية وفي الرواية الشيعية - إن صحتا - هو الحفظ في الصدر، وليس الكتابة في الكتاب، وإن كانت كتابة المصحف ممن حفظه ليست بمستحيلة، فقد كان لعدد كبير من الصحابة مصاحف خاصة، وقد يكون لعلي ذاته مصحف خاص به، ولكنه لا يختلف عن المصحف الذي جمعه أبو بكر، ولا الذي نسخه نسخًا عثمان.

والصحيح عند أهل السنة أن الذي جمع القرآن أولًا زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر وبمشورة من عمر، فهل كان لكراهة الاثني عشرية لأبي بكر وعمر دور في رد هذه الرواية الصحيحة عند أهل السنة؟

ففي صحيح البخاري قول زيد بن ثابت ﷺ: « أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر ﷺ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ، قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن...فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُبِ واللّخاف [2] وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة

---

(١) ابن أبي داود: كتاب المصاحف (ص ١٦).

(٢) قال ابن منظور: « اللّخاف: الحجارة، والعُسُب: جريد النخل » (لسان العرب ٢٧/٨ مادة: تبع).

الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ.. ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر ﷺ » [(١)].

أما نسخ المصاحف وإرسالها إلى الأمصار الكبرى على عهد عثمان؛ ففي صحيح البخاري أيضًا أن حذيفة بن اليمان ﷺ قدم على عثمان ﷺ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحف نَنسخُها في المصاحف ثم نردّها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم فافعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فألحقناها في سورتها في المصحف » [(٢)]. وقد كان الصحابة يحفظون هذه الآية، ولكن كان زيد يطلبها مكتوبة، - كما قال ابن حجر - فقد: « كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ ألّا تكون تواترت عند من لم يتلقّها من النبي ﷺ ، وإنما كان زيد يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة » [(٣)].

وقد جاء في كتاب المصاحف لابن أبي داود: قول علي ﷺ: « أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر! هو أول من جمع بين اللوحين » [(٤)]. وقد

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٧٠٢).

(٣) ابن حجر: فتح الباري (١٥/٩).

(٤) ابن أبي داود (أبو بكر، عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث): كتاب المصاحف (ص ١١) باب جمع القرآن، دار الكتب العلمية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).

سرد ابن أبي داود خمس روايات حول هذا المعنى، كلّها عن علي.

وقد لمز بعض الغلاة في عهد علي بعثمان وتحريقه للمصاحف غير الرسمية التي استنسخها، فقال علي ﷺ: « لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فواللّه ما فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا » (١)، وقال أيضًا: « لو لم يصنعه هو لصنعته » (٢).

ومثل هذه الروايات مروي عن كتّاب الاثني عشرية أيضًا؛ فقد جاء عند الزنجاني أن عليًا ﷺ قال: « أيها الناس اللّه اللّه إياكم والغلو في أمر عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف، فواللّه ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول اللّه ﷺ » (٣).

وإذا صح عند أهل السنة أن القرآن منزل على سبعة أحرف: عن ابن عباس ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: « **أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف** » (٤). فإن بعض روايات الاثني عشرية تنكر ذلك: عن الفضيل ابن يسار قال: قلت لأبي عبد اللّه ﷺ: « إن الناس يقولون: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: كذبوا أعداء اللّه، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد » (٥).

قال المازندراني: اتفقت العامة على أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وإن اختلفوا في تفسيرها وتعيينها، حتى نقل ابن حبان أنه بلغ الاختلاف في معنى الأحرف السبعة إلى خمسة وثلاثين قولًا، وبالغ الصادق في الرد عليهم، وقال: إنه نزل على حرف واحد، والاختلاف إنما جاء من قبل الرواة، فالتبس الحرف المنزل بغيره على الأمة لأجل ذلك، فيجوز لهم القراءة بأحد هذه الحروف حتى يظهر الأمر » (٦).

وهكذا يستغل المازندراني هذا اللفظ ليصل إلى أن الصحابة اختلفوا في القرآن ولم يحسنوا حفظه ولا جمعه، وقد جاء النوري الطبرسي بعد ذلك ليستدل على وقوع التحريف باختلاف القراءات (٧).

وإذا كانت بعض روايات الأئمة تتهم الصحابة بتضييع للقرآن ورفض مصحف علي،

---

(١) فتح الباري (١٨/١٣). (٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف (ص ١٩).

(٣) تاريخ القرآن: للزنجاني (ص ٦٨).

(٤) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف رقم (٤٧٠٥).

(٥) أصول الكافي (٥٩٤/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: هذا الحديث حسن.

(٦) شرح المازندراني (٧٠/١١).

(٧) رسول جعفريان: أكذوبة تحريف القرآن بين السنة والشيعة (ص ١٢٧، ١٢٨).

فإن مباهاة بعض علماء الاثني عشرية بالأئمة اضطرتهم إلى الاعتراف من حيث لا يشعرون بصحة قراءة أهل السنة، وصحة جمع القرآن على يد عثمان ﷺ، يقول المجلسي: « والقراء السبعة إلى قراءته (يعني قراءة علي) يرجعون، فأما حمزة والكسائي فيعولان على قراءة علي.. وأما نافع وابن كثير وأبو عمرو فمعظم قراءاتهم يرجع إلى ابن عباس، وابن عباس قرأ على أبي بن كعب وعلي، والذي قرأ هؤلاء القراء يخالف قراءة أبي فهو إذًا مأخوذ عن علي عليه السلام وأما عاصم فقرأه على أبي عبد الرحمن السلمي، وقال أبو عبد الرحمن: قرأت القرآن كله على علي بن أبي طالب عليه السلام »[1].

بل يقول بعضهم: « ثم عاد عثمان فجمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب ﷺ »[2].

وقالوا: إنه ورد عن أهل البيت عليهم السلام أن عثمان بن عفان لما رأى اختلاف الصحابة في قراءة القرآن طلب من علي عليه السلام مصحف فاطمة الذي كانت هي – سلام الله عليها – دونته بإشارة أبيها، وطابقه مع المصاحف الأخرى التي كانت بيد الصحابة، فما طابق منها مصحف فاطمة نشره وما لم يطابقه أحرقه. فعلى هذا يكون المصحف الذي بأيدينا مصحف فاطمة لا مصحف عثمان، وعثمان كان ناشره لا مدوّنه ومرتبه »[3].

وقد قارن الشيعة بين مصحف عثمان ومصحف علي؛ فلم يثبتوا بينهما أي فرق كما نقل المفيد عن الطوسي – وإن كان المفيد له رأي آخر في القرآن سنذكره –: « قال الشيخ – يعني الطوسي –: اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة. وعندنا أن (الضحى) و (ألم نشرح) سورة واحدة، و (لإيلاف) و (ألم تر كيف) سورة واحدة، ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك فهو كاذب »[4].

وكيف يتّهم أهل السنة بترك قراءة علي، وقد تواترت عندهم قراءة علي؟! فمن بين القراء المشهورين من يرجع سند قراءته إلى علي، وعن طريق أهل البيت أنفسهم، فأحد

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٥٣/٩٢، ٥٤)، مناقب آل أبي طالب (٤٢/٢، ٤٣).

(٢) الزنجاني: تاريخ القرآن (وهو من الاثني عشرية المعاصرين) (ص ٦٧).

(٣) انظر: ناصر القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٢٧/١، ٣٢٨). عن المرعشي: المعارف الجلية (ص ٢٧).

(٤) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ – ٨٦).

القراء السبعة المشهورين حمزة الزيات، وسند قراءته هو: حمزة الزيات، عن جعفر الصادق، وهو قرأ على محمد الباقر، وهو قرأ على زين العابدين، وهو قرأ على أبيه الحسين، وهو قرأ على أبيه علي بن أبي طالب ﷺ، فهؤلاء الأبرار من آل البيت لم يخرجوا على إجماع المسلمين على المصحف الإمام، وآية رضاهم به: إقراؤهم الناس بمحتواه دون زيادة أو نقص أو ادعاء يمس كمال كتاب اللَّه سبحانه [١].

وقال الدكتور محمد بلتاجي رحمه الله: « ونضيف إلى ذلك أن قراءة علي بن أبي طالب للقرآن قد رويت أيضًا بطريق زيد بن علي أخي الإمام الباقر وعم الإمام الصادق - وهذا ما يسلّم به الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم - » [٢].

تواتر حفظ القرآن:

لم ينتقل الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وهو مطمئن على سلامة القرآن وحفظه؛ فقد كان ﷺ يراجع القرآن مع جبريل كل عام مرة، وفي عام وفاته راجعه مرتين، وكان ﷺ يبعث بالقرّاء إلى القبائل لتعليمهم القرآن، وكان حوله عدد كبير من حفّاظ القرآن الكريم. « إن القرآن الكريم كان على عهد رسول اللَّه ﷺ مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه في ذلك الزمان.. وكان يعرض على النبي ﷺ ويُتلى عليه، وإن جماعة من الصحابة مثل عبد اللَّه بن مسعود وأُبيّ بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمّل على أنه كان مرتبًا غير مبتور ولا مبثوث » [٣].

والحقيقة أن كثيرًا من صحابة النبي ﷺ وآل بيته الكرام - وفي مقدمتهم علي ﷺ - حفظوا كتاب اللَّه، ولم يختص علي ولا بنوه وحدهم بحفظ القرآن الكريم، ولا يستغرب ذلك؛ فإن حفظ القرآن لا يحتاج إلى معجزة أو خارقة يختص بها الأئمة، فإن حفاظ القرآن الكريم اليوم من أهل السنة ومن الشيعة لا يعدّون ولا يحصون، فهل هذا الجيل - الذي ضاعت سليقته العربية، وتعرض للفتنة في دينه، وكثرت وسائل صرفه عن القرآن - أحرص على حفظ القرآن من الجيل الذي نزل في عهده القرآن منجّمًا مفرقًا، متناسبًا مع

---

(١) د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن (ص ١٦٥ - ١٧٠).

(٢) مناهج التشريع الإسلامي (١/١٨٩)، وأحال في هذا الاعتراف إلى كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام (ص ٢٨٥ - ٣٤٣)، والفهرست للطوسي (ص ١١٥).

(٣) رسول جعفريان: أكذوبة تحريف القرآن بين السنة والشيعة (ص ٣٢، ٣٣)، الناشر: ممثلية الإمام الخامنئي في الحج عام (١٤١٣هـ)، مطبعة سلمان الفارسي.

كثير من أحداثه، ناهيك عن سلامة فطرته، وقوة ذاكرته، وقلة دواعي النسيان لديه؟!

ويستغرب كيف أراد بعض علماء الاثني عشرية حصر حفظ القرآن على عدد محدود هم الأئمة، باسم الغلو في الأئمة، أو بغض بعض الصحابة؛ ليفتحوا بذلك مجالاً للمشككين في حفظ الكتاب الكريم من المستشرقين والعلمانيين؟!.

لقد كان كثير من الصحابة يحفظون القرآن، وقد كان شهداء بئر معونة السبعون يسمون بالقراء، وفي صحيح البخاري قول عمر ﷺ: « قد استحرّ القتل يوم اليمامة بقرّاء القرآن » [١]، وقد مر قوله: « أقرؤنا أُبيّ وأقضانا علي » [٢]. وعن عبد الله بن عمرو قال: « سمعت النبي ﷺ يقول: « **خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب** » [٣].

وقد عدّ ابن حجر جماعة من حفّاظ القرآن الكريم من الصحابة الكرام، فعدّ منهم: (أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعدًا، وحذيفة، وأبا هريرة، وعبد الله ابن السائب، وعبد الله بن مسعود، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وسالم مولى أبي حذيفة، وتميم بن أوس الداري، وأبا موسى الأشعري، وعقبة بن عامر، وعبادة ابن الصامت، ومجمع بن حارثة، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وعمرو بن العاص، وسعد بن عبادة). وعدّ من النساء: (عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم ورقة) [٤] ﷺ.

يقول الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) مؤكدًا تواتر حفظ القرآن الكريم: « إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته لم يبلغه ما ذكرناه؛ لأن القرآن معجزة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه؛ من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرًا ومنقوصًا مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟! ».

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] رقم (٤٢١١).

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٥٩٧).

(٤) ابن حجر: فتح الباري (٩/ ٥٢).

ثم ذكر أنه لو رام أحد الزيادة أو النقص من كتاب مشهور ككتاب سيبويه والمزني لعُرف ونقل؛ لأن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما، حتى لو أن مدخلًا أدخل في كتاب سيبويه بابًا في النحو ليس من الكتاب لعُرف ومُيّز، وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المُزني. ومعلوم أن العناية بالقرآن وضبطه أصدق من العناية بنقل كتاب سيبويه ودواوين الشعراء [1].

* * *

المطلب الثاني

موقف الاثني عشرية من سلامة القرآن الكريم من التحريف

إذا كان اعتقاد أهل السنة أن القول بتحريف القرآن الكريم أو القول بنقصه أو زيادته من المكفّرات المخرجة من الملّة لقول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. فمنكر سلامة القرآن منكر لمعلوم من الدين بالضرورة، خارج عن الملة الإسلامية، سيئ العقيدة بالصحابة الكرام الذين حملوا هذا الدين ونشروه في أرجاء المعمورة – إذا كان اعتقاد أهل السنة كذلك؛ فالقرآن الكريم عند الشيعة ليس محل اتفاق في عدد آياته، ولا في معانيها؛ ولذلك كان عندهم عدة آراء في سلامة القرآن من التحريف، فقسم منهم يقول بتحريف القرآن العظيم كالنوري، وقسم ينزّه القرآن عن التحريف والزيادة والنقصان كالصدوق والشريف المرتضى والطوسي، وقسم يتردد بينهما كالمفيد، وقسم يتناقض فيذهب إلى تنزيه القرآن عن الزيادة والنقص، ولكنه يصحح بعض الروايات التي تزعم وقوع التحريف.

وسنعرض فيما يلي الروايات الشيعية التي تقول بالتحريف أو النقص أو الزيادة، وما يعارضها من روايات تثبت سلامة القرآن من كلّ ذلك:

أولاً: الروايات الشيعية بين إثبات التحريف وإنكاره:

لقد وضع غلاة الشيعة روايات كثيرة تؤكد تحريف القرآن الكريم ونقصانه، وسبب وضع تلك الروايات أن أصحاب العصبية والهوى لم يجدوا في المصحف ذكر ولاية علي ولا ذكر الأئمة ولا ولايتهم، ولا ذكر أعدائهم.. فوضعوا روايات على لسان أهل

---

(١) انظر: مجمع البيان (١/ ٣١).

البيت تؤكد وجود ذلك كله في المصحف، ثم زعموا أن أعداء أهل البيت قاموا بحذف تلك الآيات من كتاب اللَّه!! فقد رووا « عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لولا أنه زيد في كتاب اللَّه ونقص منه، ما خفي حقّنا على ذي حجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدّقه » [١].

وبناء على هذه الرواية ترد أيضًا رواية أخرى تقول: « نزل القرآن أثلاثًا: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام » [٢]. فواضح أن الذي يزعمون أنه فُقِد وحُذِف هو هذا الثلث الأول الذي فيه مدح آل البيت وذم أعدائهم.

وعن محمد بن سليمان، عن بعض أصحابه، عن أبي الحسن عليه السلام قال: « قلت له: جعلت فداك! إنا نسمع الآيات في القرآن ليس هي عندنا كما نسمعها ولا نحسن أن نقرأها كما بلغنا عنكم، فهل نأثم؟ فقال: لا، اقرؤوا كما تعلمتم فسيجيئكم من يعلمكم » [٣].

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: « دفع إليّ أبو الحسن عليه السلام مصحفًا وقال: لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [البينة: ١] فوجدت فيها اسم سبعين رجلًا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. قال: فبعث إلي: ابعث إلي بالمصحف » [٤].

وعن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبي عبد اللَّه عليه السلام وأنا أستمع حروفًا من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد اللَّه عليه السلام: « كفّ عن هذه القراءة اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام القائم عليه السلام قرأ كتاب اللَّه عز وجل على حدّه، وأخرج المصحف الذي كتبه علي عليه السلام ».

وقال: أخرجه علي عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه فقال لهم: « هذا كتاب اللَّه عز وجل كما أنزله اللَّه على محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جمعته من اللوحين. فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن، لا حاجة لنا فيه، فقال: أما واللَّه ما ترونه بعد يومكم هذا أبدًا، إنما كان

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٥٥/٨٩). الحجى: العقل (الخطابي: غريب الحديث) (٢٥٩/٢).

(٢) أصول الكافي (٦٢٧/٢) تحقيق غفاري. وقال: « ليس بناء هذا التقسيم على التسوية الحقيقية ولا على التفريق من جميع الوجوه، فلا ينافي زيادة بعض الأقسام على الثلاث أو نقصه عنه، ولا دخول بعضها في بعض، ولا ينافي أيضًا مضمونه مضمون ما يأتي بعده ». ونحن نترك الحكم على التناقض بين الرواية أعلاه وهذه الرواية للقارئ: « عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: إن القرآن نزل أربعة أرباع: ربع حلال وربع حرام وربع سنن وأحكام وربع خبر ما كان قبلكم ونبأ ما يكون بعدكم وفصل ما بينكم »!.

(٣) أصول الكافي (٥٨٣/٢) كتاب الدعاء، باب أن القرآن يرفع كما أنزل. قال محققه: هذا الحديث مجهول.

(٤) أصول الكافي (٥٨٣/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: الحديث ضعيف.

عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرؤوه »[(١)].

وعن جعفر بن محمد: خرج عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص من عند عثمان فلقي أمير المؤمنين صلوات اللّٰه عليه فقال له: يا علي! بتنا الليلة في أمر نرجو أن يثبت اللّٰه هذه الأمة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: « لن يخفى عليّ ما بيّتم فيه: حرّفتم وغيّرتم وبدّلتم تسعمائة حرف: ثلاثمائة حرفتم وثلاثمائة غيرتم، وثلاثمائة بدّلتم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] »[(٢)].

وعن هشام بن سالم عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام قال: « إن القرآن الذي جاء به جبرئيل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم سبعة عشر ألف آية »[(٣)].

وهذه الرواية أربكت علماء الشيعة؛ ولذلك يقول الكاشاني: « وقد اشتهر اليوم بين الناس أن القرآن ستة آلاف وستمائة وست وستون آية،... فهل البواقي تكون مخزونة عند أهل البيت وتكون فيما جمعه أمير المؤمنين (ع)؟ أو جاء الاختلاف من قبل تحديد الآيات وحسابها أو يكون مما نسخ تلاوته؟ »[(٤)].

قراءة آل البيت هل تزيد في القرآن؟

يعرف المطلعون على كتب علوم القرآن ما يسمى بالقراءة التفسيرية، وهي لا تعد جزءًا من القرآن، ولا يتعبّد بقراءتها، ولكن دورها التفسير، ولكن هناك قراءات منسوبة لآل البيت تزيد في المصحف، وهذا تحريف واضح:

عن الحكم بن عتيبة قال: دخلت على عليّ بن الحسين عليهما السلام يومًا فقال: يا حكم! هل تدري الآية الّتي كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام يعرف قاتله بها ويعرف بها الأمور العظام الّتي كان يحدّث بها النّاس؟ قال الحكم: فقلت في نفسي: قد وقعت على علم من علم عليّ بن الحسين أعلم بذلك تلك الأمور العظام. قال: فقلت: لا واللّٰه! لا أعلم، قال: ثمّ قلت: الآية تخبرني بها يا بن رسول اللّٰه! قال: هو واللّٰه قول اللّٰه عزّ ذكره: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (ولا محدَّثٍ) ﴾ [الحج: ٥٢] وكان عليّ

(١) أصول الكافي (٥٩٦/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: الحديث ضعيف.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٥٥/٨٩).

(٣) أصول الكافي (٥٩٧/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: الحديث موثق.

(٤) الوافي للفيض الكاشاني (٢٧٤/٥).

ابن أبي طالب عليه السلام محدَّثًا » [١]. قال محقق أصول الكافي: « (ولا محدَّث) هو على قراءة أهل البيت (ع) » [٢]! فهل يسمح لقراءة آل البيت أن تزيد في القرآن، وخصوصًا أنهم ينكرون أن القرآن نزل على سبعة أحرف؟

عن الحسين بن محمّدٍ عن معلّى بن محمّدٍ رفعه في قول اللّه عز وجل: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] (أبالنّبيّ أم بالوصيّ تكذّبان) نزلت في الرّحمن [٣]..

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: « نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمّدٍ صلى الله عليه وسلم هكذا: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ (آلَ محمّدٍ حقّهم) قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ (آلَ محمّدٍ حقّهم) رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩] » [٤]. وأمثلة هذه الزيادات كثيرة في أصول الكافي.

وقد ذكرنا في المبحث السابق الروايات التي تثبت الكتب التي ادعت روايات الشيعة نزولها على الأئمة: (الجامعة، والجفر، ومصحف فاطمة). فهي كتب أعطاها الشيعة قدسيّة كالقرآن وكثيرًا من ميزاته، فهي وحي من اللّه، وفيها تفصيل كل شيء كالحلال والحرام وما يحتاجه الناس، وهي تحيط بالكتب الإلهية السابقة!.

فهنالك « الجامعة إملاء رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وخطّ علي عليه السلام بيده، إنّ الجامعة لم تدع لأحدٍ كلامًا فيها علم الحلال والحرام » [٥]. « صحيفةٌ طولها سبعون ذراعًا بذراع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وإملائه من فلق فيه وخَطِّ عليٍّ بيمينه، فيها كلُّ حلالٍ وحرامٍ وكلُّ شيءٍ يحتاج النّاس إليه حتّى الأرش في الخدش... وإنّ عندنا الجفْرَ، وما يدريهم ما الجفرُ، قال: قلت: وما الجفر؟ قال: وعاءٌ من أدمٍ فيه علمُ النّبيّين والوصيّين وعلم العلماء الّذين مضوا من بني إسرائيل... ثمّ قال: وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: قلت: وما مصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: مصحفٌ فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّاتٍ، واللّه ما فيه من قرآنكم حرفٌ واحدٌ » [٦].

---

(١) أصول الكافي (٣٢٦/١)، كتاب الحجة، بابٌ أن الأئمة (ع) محدثون مفهمون..

(٢) أصول الكافي (٣٢٦/١)، كتاب الحجة، بابٌ أن الأئمة (ع) محدثون مفهمون..حاشية رقم (٢).

(٣) أصول الكافي (٢٧٤/١)كتاب الحجة، باب أنّ النّعمة الّتي ذكرها اللّه عز وجل في كتابه الأئمّة.

(٤) الكليني: أصول الكافي (٤٩٢/١) كتاب الحجة، باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية.

(٥) أصول الكافي (١٠٤/١) كتاب فضل العلم باب البدع والرأي والمقائيس.

(٦) أصول الكافي (٢٩٥/١) بابٌ فيه ذكر الصّحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: « إنّ عندي الجفر الأبيض. قال: قلت: فأيّ شيءٍ فيه؟ قال: زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم عليه السلام والحلال والحرام ومصحف فاطمة، ما أزعم أنّ فيه قرآنًا، وفيه ما يحتاج النّاس إلينا، ولا نحتاج إلى أحدٍ، حتّى فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش.. » (١).

وتقول إحدى روايات الكافي عن مصحف فاطمة: «.. إن الله تعالى لما قبض نبيه ﷺ دخل على فاطمة عليها السلام من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فأرسل الله إليها ملكًا يسلّي غمها ويحدّثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين ؓ فقال: إذا أحسست بذلك، وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك، فجعل أمير المؤمنين ؓ يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفًا.. أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون » (٢).

وهاتان الروايتان متناقضتان، فالأولى تذكر بعض مسائل التشريع المتعلقة الحلال والحرام، « فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش » (٣). والثانية تجعل مصحف فاطمة المزعوم مختصًّا بالأخبار المستقبلية، « ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون » (٤)!.

ولا يكفي هذا التناقض؛ بل إن الرواية السابقة التي تجعل مصحف فاطمة سطّر بعد وفاة النبي ﷺ وتقول إحدى روايات الكافي عن مصحف فاطمة: « .. إن الله تعالى لما قبض نبيه ﷺ... فأرسل الله إليها ملكًا يسلّي غمها ويحدّثها » تناقض رواية مزعومة أخرى تدّعي أن هذا المصحف من إملاء النبي ﷺ وخط علي، تقول الرواية: « وخلفت فاطمة عليها السلام ما هو قرآن، ولكنّه كلام من كلام الله أنزله عليها إملاء رسول الله وخطّ عليّ » (٥).

إن هذه التناقضات تدلّ على كذب واضعي هذه الروايات، وصدق الله تعالى القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) أصول الكافي (٢٩٦/١) بابٌ فيه ذكر الصّحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث حسن.

(٢) أصول الكافي (٢٤٠/١)، بحار الأنوار (٤٤/٢٦)، بصائر الدرجات (ص ٤٣).

(٣) أصول الكافي (٢٤٠/١).

(٤) أصول الكافي (٢٤٠/١)، بحار الأنوار (٤٤/٢٦)، بصائر الدرجات (ص ٤٣).

(٥) بحار الأنوار (٤٢/٢٦)، عن بصائر الدّرجات (ص ٤٢).

ثم يتساءل المرء: أين هذه الكتب المزعومة ما دامت بهذه الأهمية؟ ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

لما اضطر الشيعة للجواب على هذا السؤال أتبعوا ما سبق بزعم آخر، وهو أن هذه الكتب مخزونة عند المهدي المنتظر!.

المهدي المنتظر سيأتي بكتاب جديد:

هناك روايات تزعم أن من أعمال المهدي المنتظر عند الشيعة أن يخرج لهم كتابًا جديدًا وقرآنًا يتلى: « لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد، على العرب شديد » [1].

وجاء في كتاب (الغيبة) رواية مزعومة عن علي ﷺ قال: « كأني أنظر إلى الشيعة، قد بنوا الخيام بمسجد الكوفة، جلسوا يعلّمون الناس القرآن الجديد » [2].

وهناك رواية يقول فيها أحد الأئمة لأحد الأتباع: « اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم » [3].

وهذه الروايات تذهب أكثر من القول بتحريف القرآن الموجود؛ إذ هي ترميه بسهم مسموم آخر، وهو انتهاء صلاحية هذا القرآن الكريم لدى خروج القائم، مع أن اللّٰه تعالى يقول عن القرآن: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] أي هو حجة لمن يبلغه هذا القرآن إلى قيام الساعة، فهو كما وصفه قائله تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] وهذا المعنى هو ما يؤكده علماء الشيعة المعاصرون، فهم يقولون: « إن القرآن الكريم لن يفقد صحته واعتباره أبدًا » [4]، كما سنبين لاحقًا.

ويتتبع أحد كتّاب الشيعة المعاصرين روايات التحريف - مشكورًا - ويردّ على النوري الطبرسي صاحب (فصل الخطاب) الذي جمع روايات التحريف، فيصل بنا إلى النتيجة التالية:

- « إن أكثر من (٣٢٠) رواية من هذه الأحاديث يرجع إلى السياري [5] الملعون

(١، ٢) كتاب الغيبة للنعماني (ص ١٠٢).

(٣) بصائر ذوي الدرجات (٤/٤١٣). مامادو كارامبيري: موقف الرافضة من القرآن الكريم (ص ٥٧).

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣١٠).

(٥) هو أبو عبد اللّٰه أحمد بن محمد السياري، قال عنه النجاشي في رجاله: « ضعيف الحديث فاسد المذهب »، « ضعيف متهالك غال منحرف، مجفو الرواية » انظر: رجال النجاشي (ص ٨٠)، الخوئي: معجم رجال الحديث (٢/٢٩٠) طبعة قم، انظر: أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة لرسول جعفريان (ص ٧٦، ٧٧).

على لسان الصادق عليه السلام، والمخدوش من قبل جميع الرجاليين [أي علماء الرجال والجرح والتعديل].

– وإن أكثر من (٦٠٠) حديث من مجموع الألف حديث مكررة، والفرق فيها: إما من جهة نقلها من كتاب آخر مع وحدة السند، أو نقلها عن طريق آخر.

– أما غير ما ورد من الروايات عن السياري وكذلك غير المكررات فإننا نجد أن أكثر من مائة حديث عبارة عن قراءات مختلفة أكثرها عن الطبرسي في مجمع البيان.. » [١].

ويصل بنا الباحث إلى أن روايات التحريف هي « روايات آحاد وطرقها ضعيفة، لا تمكّنها من الوقوف والصمود أمام تلك الروايات المتواترة للقرآن الكريم » [٢].

وقائع تثبت وجود مصحف خاص للشيعة:

قال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: « ومن محاسن الشيخ أبي حامد [أحمد ابن محمد الإسفراييني] أنه اتفق في سنة (٣٩٨هـ) وقوع فتنة بين أهل السنة والشيعة ببغداد بسبب إخراج الشيعة مصحفًا قالوا: إنه مصحف ابن مسعود، وهو يخالف المصاحف كلها، فثار عليه أهل السنة... ثم آل الأمر إلى جمع العلماء والقضاة في مجلسٍ... وأحضر المصحف المشار إليه، فأشار الشيخ أبو حامد والفقهاء بتحريقه، ففعل ذلك بمحضر منهم » [٣].

ويذكر جولد تسيهر أنه وجد بمكتبة (بانكيبور) بالهند نسخة شيعية من القرآن تغاير المصحف العثماني المتفق على صحته وسلامته، وتشتمل على سورتين زائدتين عما في هذا المصحف الإمام، إحداهما سورة الولاية، والأخرى تسمى سورة النورين » [٤].

---

(١) رسول جعفريان: أكذوبة تحريف القرآن (ص ١٢٦، ١٢٧).

(٢) رسول جعفريان: أكذوبة تحريف القرآن، المقدمة.

(٣) السبكي (عبد الوهاب تقي الدين) طبقات الشافعية الكبرى (٣/٢٦)، وانظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٤، ٢١٥).

(٤) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٥) عن مذاهب التفسير الإسلامي (ص ٢٩٤، ٢٩٥).

وهاتان المفتريتان: سورة النورين: « يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالنورين اللذين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم ».

« يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالنورين اللذين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي. إن الذين يوفون ورسوله في آيات لهم جنات نعيم. والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم. =

وإنّ من المريب حقًّا اهتمام المستشرقين الشديد بهذه المسألة؛ إذ يذكر الأستاذ محب الدين الخطيب في كتابه (الخطوط العريضة) أن خبيرًا في وزارة العدل المصرية هو الأستاذ محمد علي سعودي أطلعه مستشرق اسمه (شفيق دايفز براين) على مصحف إيراني وفيه سورة الولاية المزعومة، فنقلها منه بالتصوير الشمسي. كما أن سورة النورين نشرها المستشرقون في أوربا، كالفرنسي (جارمان دي سي)، والألماني (نولدكه)، والإنجليزي (كليرندال) [1]. وكأنهم بنشرها قد عثروا على صيد ثمين أو كنز دفين، يفرق الأمة المسلمة ويقطع أوصالها؛ ولذلك فلا أرى أي قيمة لما نقلوه وما نشروه في هذا الصدد، فليسوا بالعدول...

وما أنت بالحكم الذي ترضى حكومته ولا الأصيل ولا بالحاكم العدل

= ظلموا أنفسهم وعصوا الوصي الرسول يسقون من حميم. إن اللّٰه الذي نور السماوات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل اللّٰه ما يشاء... إن عليًا من المتقين وإنا لنوفيه حقه يوم الدين.. فإنه وذريته الصابرون، وإن عدوهم إمام المجرمين... يا أيها الرسول قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهدًا فخذه وكن من الشاكرين بأن عليًا قانتًا بالليل، يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون. سيجعل الأغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون ». فصل الخطاب (ص ١٨٠، ١٨١).

أما سورة الولاية المزعومة: « يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالنبي والولي اللذين بعثناهما يهديانكم إلى صراط مستقيم، نبي وولي بعضهما من بعض، وأنا العليم الخبير، إن الذين يوفون بعهد اللّٰه لهم جنات النعيم، فالذين إذا تليت عليهم آياتنا كانوا به مكذبين إنّ لهم في جهنم مقام عظيم إذا نودي له يوم القيامة: أين الضالون المكذبون للمرسلين، ما خلقهم المرسلون إلا بالحق وما كان اللّٰه لينظرهم إلى أجل قريب، وسبح بحمد ربك وعليٌ من الشاهدين » (ص ١٦٥)، عن تذكرة الأئمة للمجلسي (ص ١٩، ٢٠). وراجع مقدمة الأستاذ محب الدين الخطيب للخطوط العريضة.

هذه هي الآيات المزعومة، وهي لا تحتاج إلى نقد، لركاكتها وسوء نظمها، وبعدها عن أسلوب القرآن الكريم، فأين الثرى من الثريا! وكأن الرب تعالى حكم على من أراد تحريف القرآن وتزويره أن ينحط في أسلوبه انحطاطًا لا يدانيه أحد، كما حصل لمسيلمة ولقائل هذه الكلمات!؛ ولذلك قال الدكتور القفاري: « فهي من هذر الكلام وسقط المتاع، تلفيق مهلهل مضطرب المعاني والألفاظ، وإن أقل الأدباء ليأبى نسبتها إليه فضلًا عن أن تكون من كتاب اللّٰه الذي أعجز أرباب البيان وفرسان الفصاحة، وقد نقد هذه السورة المخترعة [سورة النورين] الشيخ يوسف الدجوي في كتابه: (الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف في القرآن الشريف) (ص ١٧٤) وما بعدها، وقد ردها - أيضًا - وبيّن زيفها أحد شيوخ الشيعة وهو البلاغي في تفسيره آلاء الرحمن (ص ٢٤، ٢٥).

(١) المرجع السابق (ص ٢١٨).

والله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

ولكن الضالّ المضلّ النوري الطبرسي أثبتها في كتابه (فصل الخطاب) وكذلك فعل حسن الكشميري في كتابه (دبستان مذاهب) المطبوع باللغة الإيرانية، وقد طبع الكتابان في إيران طبعات متعددة [(١)].

وأغلب الظن أن هذه الفقرات المزعومة والعبارات المفتراة من تأليف بعض الغلاة من متأخري الإمامية الذين عزّ عليهم ألا يجدوا خلال مواريثهم الضخمة سورة الولاية التي ادعت بعض روايات الشيعة حذفها من القرآن، فأرادوا أن يصيّروا هذه الدعوة السلبية واقعًا ملموسًا فألّفوها، أما سورة ذي النورين المكذوبة، فيشير الباحثون أنها لم توجد قبل القرنين التاسع والعاشر الميلاديين [(٢)].

ولو كانت هاتان السورتان موجودتين في الزمن القديم كزمن المفيد ومن جاء بعده ممن يقول بالتحريف - لاستدلوا بها على إثبات وقوع التحريف، ولشكّلت إذن واقعًا ملموسًا ودليلًا أكيدًا على التحريف، ولكنها لم تكن قد أُلّفت بعد، وحتى النوري الذي حارب من أجل القول بإثبات التحريف لم يستطع أن يجدها في كتب الإمامية على حرصه الشديد على أمثالها؛ ولذلك نقلها من كتاب (دابستان مذاهب) الذي ظهر في القرن السابع عشر لا من كتب أصيلة في المذهب [(٣)].. الناظر في هذه الصياغة وعنده مسكة عقل وقليل معرفة بلغة العرب يستطيع اكتشاف زيفها وأنها أبعد عن القرآن بُعد الثرى عن الثريا.

وللأسف فقد وجد المستشرقون والمنصّرون والعلمانيون من أعداء الإسلام من ظهور هاتين الضلالتين ومن ظهور كتاب (فصل الخطاب) « فرصة مواتية للطعن على القرآن والنيل منه، فبادروا إلى ترجمة هذا الكتاب بلغاتهم قصدًا إلى ترويج الباطل وإشاعة الفتنة وتشكيك المسلمين في صحة هذا الأثر الخالد من وحي السماء » [(٤)]. ولا عجب أن

---

(١) انظر: محب الدين الخطيب في الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية، المقدمة (ص ١١ - ١٣)، وانظر: الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٩).

(٢) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٩).

(٣) انظر إن شئت: فصل الخطاب (ص ١٨١).

(٤) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢٢١).

ينادوا اليوم بكتاب جديد أسموه (فرقان الحق) (١).

صحيح أن مثل هذه الأنباء تُحزن القلب، ولكن المرء من ناحية أخرى يستبشر بهلاك من يريد الاعتداء على كتاب اللّٰه تعالى؛ لأن حرب القرآن الكريم وإهانته تنقل المعركة من حرب بين الكافرين والمسلمين المغلوبين على أمرهم اليوم - إلى حرب بين الكافرين الطاغين، والجبار القهار القائل في كتابه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وما دامت المعركة قد سارت في هذا الاتجاه فنصرة كتاب اللّٰه مؤكدة مؤكدة.

الدوافع الكامنة وراء دعوى بعض الشيعة تحريف القرآن الكريم:

ويظهر للباحث أن الذين أثبتوا التحريف ووضعوا رواياته من الشيعة هم أكثر من فئة، ولأكثر من دافع، ومن هذه الدوافع:

١ - **كراهتهم للصحابة الكرام،** فاتهموهم بتحريف القرآن؛ إذ « كيف يجتمع حينئذ في قلب واحد وعقل واحد الاعتقاد بسلامة القرآن وخيانة جامعيه؟! » (٢)؛ ولذلك غمزوا ولمزوا بعثمان وجمعه للمصحف. ولكي يقولوا بتخوين الصحابة مع إرادتهم القول بسلامة القرآن وضعوا المقالة الأخيرة التي تقول: إن عثمان قابل القرآن على مصحف فاطمة؛ للخروج من هذا المأزق.

ولكن هذا يوقعهم في تناقض آخر وهو مخالفة أخبارهم التي تقول: إن مصحف فاطمة غير القرآن (٣). وأنه ليس قرآنًا.

٢ - **عدم وجود نصوص قرآنية تدعم رأيهم في النص والإمامة على علي ﷺ**، وعدم وجود نصوص قرآنية في فضائل علي وآل بيته وعدم وجود نصوص قرآنية تذم أعداء الشيعة. وخصوصًا وقد جاء في الكافي: « عن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: « نزل القرآن أثلاثًا: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام » (٤).

٣ - **الغلو في علي ﷺ** جعل بعضهم يزعم أن عليًا وحده قام بمهمة جمع القرآن، بل يزعم أن عليًا ﷺ كان عالمًا بالكتب السماوية السابقة؛ ولذلك نسبوا إليه: « لو ثنى الناس لي وسادة.... لحكمت بين أهل التوراة بالتوراة، ولحكمت بين أهل الإنجيل بالإنجيل،

---

(١) وهو يوزع في بعض الدول العربية، التي أخبرني أحد الناشرين أنها تمنع عرض المصحف الشريف في معرضها السنوي للكتاب!!

(٢) د. ناصر بن عبد اللّٰه القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٢٧/١، ٣٢٨).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) أصول الكافي (٦٢٧/٢) تحقيق غفاري.

ولحكمت بين أهل الزبور بالزبور، ولحكمت بين أهل الفرقان بالفرقان » [١]. وهذا النص يخالف ما ثبت عند الجميع من نسخ القرآن الكريم للكتب السابقة وهيمنته عليها، وقد أمر اللَّه تعالى نبيه محمدًا أن يحكم بين اليهود والنصارى بالقرآن لا بحكم كتبهم المحرفة: قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾ [المائدة: ٤٨].

ألا تدل روايتهم الأخيرة هذه على أضحوكة وحدة الأديان؟! أليست دليلًا على أن التشيع كان عبر الزمن مأوى يجمع النحل والأديان، وكل صاحب دين يجد فيه مراده؟ [٢].

والذين قالوا بتحريف القرآن بسبب الدافع الأول ليسوا هم القائلين بالتحريف بسبب الدافع الثاني، والثالث كذلك، وهذا يدلنا على اختلافهم بسبب العاطفة التي تُترك لتعمل عملها دون تعقّل، وصدق ربنا القائل عن كتابه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

- وقد حاول بعض العلماء الشيعة الرد على هذه الروايات إما بتضعيفها أو تأويلها. ثم باتهام الفرق الأخرى بتحريف معاني القرآن الكريم:

يقول باقر شريف القرشي: « وما ورد في بعض الروايات الشاذة من وجود تحريف فيه فإنها باطلة؛ لأنها تتصادم مع الكتاب العزيز والسنة المقدسة، وما ذكر من الروايات المنافية لذلك فإنها موضوعة أو مؤولة » [٣].

ويقول مؤولًا تلك الروايات ولامزًا بالفرق الأخرى: « وقد دلت هذه الكوكبة من الروايات على ذم المحرفين لكتاب اللَّه تعالى، كما دلت على وقوع التحريف فيه، وليس المراد منه الزيادة أو النقصان منه؛ فذلك باطل جزمًا جملة وتفصيلًا، وإنما المراد منه تأويله وتفسيره على غير ما أنزل اللَّه تعالى؛ فقد عمد بعض المفسرين إلى ذلك دعمًا للحكم الأموي والعباسي، فمن ذلك ذكر بعض المفسرين أن الآية الكريمة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزلت في ابن ملجم الباغي الأثيم - ونلاحظ أنه لم يذكر هؤلاء المفسرين الذين يزعم أنهم قالوا

---

(١) بحار الأنوار (١٨٢/٢٦).

(٢) د. ناصر بن عبد اللَّه القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٧٤٠/٢).

(٣) باقر شريف القرشي: سلامة القرآن الكريم من التحريف (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م)، (ص ٧٤).

هذا الافتراء والكذب - لأنه عمم بسيفه رائد الحكمة والعدالة الاجتماعية في الإسلام؛ أمير المؤمنين... وكثير من أمثال هذا التفسير يوجد في مصادر تفسير القرآن الكريم، وهي بعيدة كل البعد عن كتاب اللّه تعالى وسنة نبيه، وقد وضعها من لا حريجة له في الدين تقربًا للسلطات الحاكمة التي جهدت على تدعيم حكمها بكل ما خالف القرآن الكريم »[(١)].

ويناقش الطباطبائي الرواية المزعومة في عرض أمير المؤمنين علي ﷺ القرآن على الصحابة وردّهم له فيقول:

« إن جمعه ﷺ القرآن وحمله إليهم وعرضه عليهم لا يدل على مخالفة ما جمعه لما جمعوه في شيء من الحقائق الدينية الأصلية أو الفرعية، إلا أن يكون في شيء من ترتيب السور أو الآيات من السور التي نزلت نجومًا، بحيث لا يرجع إلى مخالفة في بعض الحقائق الدينية. ولو كان كذلك لعارضهم بالاحتجاج، ودافع فيه ولم يقنع بمجرد إعراضهم عما جمعه واستغنائهم عنه، كما روي عنه ﷺ في موارد شتى، ولم ينقل عنه ﷺ فيما روي من احتجاجاته أنه قرأ في أمر ولايته ولا غيرها آية أو سورة تدل على ذلك، وجبههم على إسقاطها أو تحريفها »[(٢)].

ثم من التناقضات العجيبات أن المجلسي يورد هذه الرواية العجيبة التي أتى الراقع ليكذبها عن أمير المؤمنين قال: « لو ثني لي الوسادة[(٣)] وعرف لي حقي لأخرجت لهم مصحفًا كتبته وأملاه علي رسول اللّه ﷺ »[(٤)]؛ ولذلك قال نعمة اللّه الجزائري: « ولما جلس أمير المؤمنين ﷺ على سرير الخلافة لم يتمكن من إظهار ذلك القرآن وإخفاء هذا لما فيه من إظهار الشنعة على ما سبقه »[(٥)].

قال ابن حزم رحمه الله رادًّا على هذا الزعم: « ولقد كان جهاد من حرّف القرآن وبدّل الإسلام أوكد عليه من قتال أهل الشام الذين إنما خالفوه في رأي يسير رأوه ورأى خلافه فقط »[(٦)].

---

(١) سلامة القرآن الكريم من التحريف (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) السيد الطباطبائي: تفسير الميزان (٢٥١/١٢). مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

(٣) وهو كناية عن توليه الحكم كما شرح المجلسي ذاته.

(٤) بحار الأنوار (٥٢/٩٢).

(٥) الأنوار النعمانية (٣٦٢/٢). ومع ذلك فللجزائري منزلته عندهم، وقد وصفوه بأنه السيد السند، والركن المعتمد، المحدث النبيه، المحقق، النحرير، المدقق العزيز النظير، وقالوا بأنه من أكابر متأخري علماء الإمامية، محدث جليل القدر، ومحقق عظيم الشأن، توفي سنة (١١١٢هـ). انظر: أمل الآمل (٣٣٦/٢)، الكنى والألقاب (٢٩٨/٣)، سفينة البحار (٦٠١/٢)، مقدمة الأنوار النعمانية.

(٦) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (٢١٦/٢، ٢١٧).

وقد تولى علي ﷺ أمر الخلافة، فلو كان عنده مصحف خاص به لوجب عليه أن ينشره في الآفاق كما فعل عثمان ﷺ. فلو كان ما ادعاه دعاة التحريف صحيحًا لكان علي هو المقصّر الملوم - وحاشاه - حيث إنه لم يصحح - مع قدرته وتمكّنه في عهد خلافته - ما طرأ على القرآن من تحريف [١].

وهكذا يتبين سخف تلك الروايات التي زعمت هذا الزور والبهتان، وسقوطها سندًا ومتنًا، ثم هذه هي بلاد المسلمين مجمعة على مصحف واحد، فينبغي إذن طرح تلك الروايات والتأكيد على زيفها ووضعها، ما دامت تخالف القرآن الكريم الذي قال اللّٰه فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، خصوصًا وقد جاء عن الأئمة روايات تخالفها وتؤكد سلامة القرآن من التحريف، فينبغي التعويل عليها، وطرح ما عداها.

الروايات الشيعية التي تؤكد سلامة القرآن وتدحض كل تلك الروايات المزعومة:

لقد جاءت رواية صحيحة عن أبي عبد اللّٰه جعفر الصادق - وهو الذي يروون عنه تلك الروايات المزعومة المثبتة لمصحف فاطمة - تنفي أي كتاب بعد القرآن: عن أيّوب ابن الحرّ قال: سمعت أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول: « إنّ اللّٰه عزّ ذكره ختم بنبيّكم النّبيّين فلا نبيّ بعده أبدًا، وختم بكتابكم الكتب فلا كتاب بعده أبدًا، وأنزل فيه تبيان كلّ شيءٍ وخلقكم وخلق السّماوات والأرض، ونبأ ما قبلكم وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم، وأمر الجنّة والنّار وما أنتم صائرون إليه » [٢].

ويقول الإمام الصادق أيضًا: « القرآن واحد، نزل من عند واحد على واحد، وإنما الاختلاف من جهة الرواة » [٣].

ويقول الإمام الرضا: « شريعة محمد ﷺ لا تُنسخ إلى يوم القيامة، فمن ادعى بعده نبوة، أو أتى بعد القرآن بكتاب؛ فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه » [٤].

وهناك رواية عن الصادق تبين أن قراءة آل البيت هي قراءة أبي بن كعب؛ فعن

---

(١) انظر: الوشيعة (ص ٤٦)، والخطوط العريضة (ص ١٢).

(٢) أصول الكافي (١/٣٢٤)، كتاب الحجة بابٌ في أنّ الأئمّة بمن يشبهون ممّن مضى وكراهية القول فيهم بالنّبوّة، قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) رواه الكليني في الكافي (٢/٤٦١) باب النوادر باختلاف يسير. وصيغة الحديث: (أنزل من واحد على واحد، وإنما الاختلاف وقع من جهة الرواية).

(٤) بحار الأنوار (٧٩/٢٢١)، و (١١/٣٤، ٣٥)، وعزاه إلى علل الشرائع لابن بابويه.

عبد اللَّه بن فرقد والمعلى بن خنيس قالا: كنا عند أبي عبد اللَّه عليه السلام ومعنا ربيعة الرأي، فذكرنا فضل القرآن فقال أبو عبد اللَّه عليه السلام: « إن كان ابن مسعود لا يقرأ على قراءتنا فهو ضال، فقال ربيعة: ضال؟ فقال: نعم ضال، ثم قال أبو عبد اللَّه عليه السلام: أما نحن فنقرأ على قراءة أُبي ». وهذا « يدل على أن قراءة أبيّ بن كعب أصح القراءات عندهم عليهم السلام » [١].

وهذه الرواية وإن حوت سوء الأدب مع عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه، وهو من خيرة قرّاء الكتاب الكريم - ونحن ننزّه الإمام جعفر الصادق عنه - ولكنها تبين أن قراءة جعفر الصادق هي قراءة أبي بن كعب وهو أيضًا من أشهر قرّاء كتاب اللَّه تعالى. فلا غضاضة أن يختار الصادق قراءته ويفضله على غيره، المهم أن هذه الرواية تثبت اتّباع الصادق لقراءة أحد الصحابة الكرام، لا أن يدعي أن عنده قرآنًا آخر مختلفًا.

قال الدكتور القفاري: « كما أن لديهم روايات تقول بالتحريف، فإن عندهم روايات أخرى تنفي هذا الباطل وتنكره... مثل ما جاء عندهم في ثواب قراءة القرآن [٢]، وفضل حامل القرآن [٣]، ووجوب عرض أحاديثهم عليه [٤] والتمسك به إلى قيام الساعة، وهذا يبطل أن يكون محرفًا أو مخفيًّا عند منتظرهم [٥]... وقد صدر حديثًا كتاب اسمه: (صحيح الكافي) [٦]. وقد راجعته فوجدت صاحبه قد جرده من الروايات التي تمس كتاب اللَّه، فحذف أبوابًا بكاملها مع أحاديثها مثل: باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة، وهو من أبواب الكافي الصريحة في هذا الافتراء، كما حذف كل روايات « باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية » والبالغة (٩٢) رواية، (ما عدا روايتين فقط ليس فيهما الطعن في نص القرآن) [٧].

غير أن بعض علماء الشيعة لم يرتض صنيع البهبودي في (صحيح الكافي)، ورأى في فعله: « إساءة كبيرة إلى التراث الشيعي، بل إساءة إلى أهل البيت عليهم السلام » [٨]!. وهذا يدل

---

(١) تعليق علي أكبر غفاري محقق كتاب الكافي على الرواية السابقة (٦٣٤/٢).

(٢) أصول الكافي، كتاب فضل القرآن (٦١١/٢).

(٣) أصول الكافي (٦٠٣/٣).

(٤) أصول الكافي (٥٩/١) باب الرد إلى الكتاب والسنة.

(٥) د. ناصر بن عبد اللَّه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٩/١).

(٦) طبع سنة (١٤٠١هـ) من تأليف أحد شيوخهم المعاصرين « محمد الباقر البهبودي » ويقع في ثلاثة أجزاء.

(٧) انظر: د. ناصر بن عبد اللَّه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٩/١).

(٨) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (١٤١٦)، (ط١).

على عمق الخلاف بين علماء الشيعة أنفسهم، وأن ما فعله البهبودي لم يكن مجرد تقية، فقد كان البهبودي بغنًى عن حملة التشويه التي أطلقها ضده بعض معاصريه من الاثني عشرية.

وإذا كان الغلاة قد هالهم عدم وجود اسم علي وآل بيته في كتاب الله ﷻ، فوضعوا روايات تؤكد حذف اسم علي وآل بيته، وحذف أعداء آل البيت أيضًا من القرآن بعد نزولها، فإن في روايات الكافي ما يؤكد أن القرآن في عهد النبي لم يكن يشتمل على ما ادعوا وكذبوا:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام.. فقلت له: « إن الناس يقولون: لم يسمّ عليًّا في القرآن وأهل بيته في كتاب الله، فقال: قولوا لهم: إن رسول الله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله ثلاثًا وأربعًا، كان رسول الله هو الذي فسّر لهم ذلك » [1].

فهذه رواية دامغة، تؤكد أن الأئمة يقرّرون أن القرآن الذي أنزله الله تعالى لا يحتوي أسماء الأئمة؛ وبالتالي فإن الروايات التي تزعم أن أسماءهم قد حُذفت من المصحف هي روايات مكذوبة موضوعة.

ثانيًا: آراء علماء الشيعة في سلامة القرآن من التحريف:

القول المشهور بين علماء الشيعة الأقدمين والمعاصرين هو سلامة القرآن الكريم من التحريف، وإن خالف في ذلك بعض رموزهم. وسنتعرّض فيما يلي لتفصيل آراء علمائهم من هذه المسألة الخطيرة.

١ - القائلون بسلامة القرآن الكريم من علماء الاثني عشرية:

- أولًا: أشهر القائلين بذلك من علماء الاثني عشرية المتقدّمين:

- يُعدّ **ابن بابويه القمي**، الصدوق، شيخ الطائفة - من أشهر علماء الاثني عشرية المنكرين للتحريف؛ حيث يقول: « اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة. وعندنا أن (الضحى) و (ألم نشرح) سورة واحدة، و (لإيلاف) و (ألم تر كيف) سورة واحدة، ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك؛ فهو كاذب » [2].

---

(١) أصول الكافي: كتاب الحجة، باب نص الله ورسوله على الأئمة.

(٢) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

- وقد أكد رجحان القول بسلامة القرآن في مذهب الاثني عشرية أحد أعلام مفسريهم ومتكلميهم، وهو **الشيخ الطوسي** عندما قال في مقدمة تفسيره التبيان « وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه العلم بمعاني القرآن؛ لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها والنقصان منه، فالظاهر من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره الشريف المرتضى وهو الظاهر في الروايات، غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع طريقها الآحاد لا توجب علمًا ولا عملًا، والأولى الإعراض عنها وترك التشاغل بها؛ لأنه يمكن تأويلها... ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه، وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه وعرضها عليه، فما وافقه عمل عليه، وما يخالفه يجتنب ولم يتلفت إليه » [1].

ويستدل الطوسي على سلامة القرآن الكريم بالأخبار الدالة على وجوب التمسك بالقرآن الكريم إلى قيام الساعة، فيقول: « وقد وردت عن النبي ﷺ رواية لا يدفعها أحد أنه قال: « **إني مخلِّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض** » [2]، وهذا يدل على أنه موجود في كل عصر؛ لأنه لا يجوز أن يأمر الأمة بالتمسك بما لا تقدر على التمسك به، كما أن أهل البيت ومن يجب اتباع قوله حاصل في كل وقت، وإذا كان الموجود بيننا مجمعًا على صحته، فينبغي أن نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه وترك ما سواه » [3]، وهذا دليل على سلامة القرآن؛ لأنه لا يمكن اتباع القرآن والعترة إن لم يكن القرآن سليمًا من التحريف.

- وعلى نهجه **الطبرسي** [4] (الفضل بن الحسن) صاحب مجمع البيان الذي قال: « والكلام في زيادة القرآن ونقصانه مما لا يليق بالتفسير، أما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييرًا ونقصانًا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه » [5].

---

(١) الطوسي: التبيان، المقدمة. (٢) المجلسي: بحار الأنوار (٤٠/١٥٥، ١٥٦).

(٣) تفسير التبيان (١/٣). وانظر: الدكتور القفاري: أصول مذهب الشيعة (١/٣٥٣).

(٤) لاحظ أن الطبرسي ليس واحدًا، فأشهرهم الطبرسي (الفضل بن الحسن ت ٥٤٨ أو ٥٦١هـ) صاحب مجمع البيان، وهو ينكر التحريف، والطبرسي (أحمد بن علي من علماء القرن السادس الهجري) صاحب الاحتجاج، والنوري الطبرسي وهو في القرن الماضي صاحب (فصل الخطاب) وهما يقولان بتحريف كتاب الله تعالى.

(٥) مجمع البيان: المقدمة، وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨ - ٨٥٩).

- أما **الشريف المرتضى** علي بن الحسين أبو القاسم (ت ٤٣٦هـ) فقد استدل - كما ذكرنا سابقًا - على تواتر القرآن الكريم بتواتر ما هو دونه من الكتب؛ فلو أن مدخلًا أدخل في كتاب سيبويه بابًا في النحو ليس من الكتاب لعُرف ومُيّز، وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المُزني. ومعلوم أن العناية بالقرآن وضبطه أصدق من العناية بنقل كتاب سيبويه ودواوين الشعراء [١].

وقد نقل أهل السنة عنه أنه كان يكفّر من يقول بتحريف القرآن، قال ابن حزم عنه: « فإنه كان يُنكر هذا القول ويكفّر من قاله » [٢].

- ويقول المحقق الحلّي (ت ٧٢٦) عن القرآن الكريم: « الحق أنه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه، وأنه لم يزد منه ولم ينقص، ونعوذ باللّه تعالى من أن يُعتقد مثل ذلك، فإنه يوجب التطرق إلى معجزة الرسول المنقولة بالتواتر » [٣].

- **ثانيًا: جمهور علماء الشيعة المعاصرين يؤكدون سلامة القرآن من التحريف:**

- يقول **الزنجاني** عن القرآن الكريم: « لا يعتريه التبديل والتغيير والتحريف، وهو الذي بين أيدينا، هو نفس القرآن المنزل على النبي ﷺ ومن ادعى فيه غير ذلك فهو منحرف أو مغالط أو مشتبه، وكلهم على غير هدى، فإنه كلام اللّه الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] » [٤].

---

(١) انظر: مجمع البيان (٣١/١). (٢) الفصل (١٣٩/٤)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٣) الحلي: أجوبة المسائل المهنائية (ص ١٢١)، عن جعفر سبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ص ١٧٢).

(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثنى عشرية (ص ٤٩)، مؤسسة الأعلمي - بيروت. ولي وقفة وصلت إليها بعد جهد بليغ، وهو الاختيار الدقيق للكلمات، حسب المفهوم الاثني عشري، فقد قال مغنية عن سلامة القرآن: إنه (ضرورات الدين وعقيدة جميع المسلمين)، وهناك سؤال يطرح نفسه: هل هو من عقيدة جميع المسلمين أم جميع المؤمنين!؟ سنرى أن بين اللفظين فرقًا عظيمًا عند الاثني عشرية - كما سيظهر في الفصل القادم - حيث إن لفظ الإيمان مقصور على الاثني عشرية، ولفظ المسلمين أعم، يشمل غيرهم، ولا يقتضي النجاة من الخلود في جهنم، ولو أراد التزام سلامة التحريف وجعله من ضرورات الدين لقال: (من ضرورات الدين وعقيدة جميع المؤمنين) وكذلك الزنجاني يقول: « ومن ادعى فيه غير ذلك فهو منحرف أو مغالط أو مشتبه »، فنلاحظ أنه لم يستخدم كلمة (فهو كافر) بل استخدم كلمات أخرى (مغالط). أما في الأمور التي تدل على مذهبهم كالموقف من الصفات يقول (كافر)، (بمنزلة كافر)!! إن سبب هذا التحرج من تكفير من ادعى تحريف القرآن نابع من أن قسمًا كبيرًا من علماء الشيعة قد اعتقدوا هذه العقيدة الفاسدة، وكبر على معظم كتّاب الاثني عشرية وَصْمُهُم بالكفر؛ فقد كان الزنجاني مدركًا =

- ويقول **باقر شريف القرشي**: « وعلى أي حال فإن الشيعة تبرأ من تحريف الكتاب العزيز، وتجمع على أنه هو الكتاب المنزل من رب العالمين، لا زيادة ولا نقصان فيه » [(١)].

- ويقول **محمد اليزدي**: « صرح كبار علماء الإسلام من الشيعة وأهل السنة وأكدوا عدم تعرض القرآن الكريم للنقيصة كما لم يتعرض للزيادة، وجاؤوا بأدلة كثيرة على هذه الحقيقة، ولكن مع الأسف ونتيجة لنقل بعض الروايات الموضوعة في كتب الحديث لدى الفريقين والتفسير الخاطئ والفهم المنحرف لبعض الروايات المعتبرة احتمل بعضهم بل ربما ذهبوا إلى حذف بعض الآيات من القرآن الكريم... يمكن أن نثبت اعتمادًا على القرآن الكريم نفسه صيانته من حذف آية أو سورة مستقلة ».

ومن الآيات التي اعتمد عليها لنفي التحريف قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ثم يضيف أن النقص في بعض نسخ المصحف، أو عروض الخطأ عليها، أو الخلاف في القراءات، أو في ترتيب بعض الآيات والسور، أو الخلاف في التفسير « لا ينافي صيانة القرآن الكريم عن التحريف » [(٢)].

كما يؤكد على خلود القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ « حيث تدل على أن القرآن الكريم لن يفقد صحته واعتباره أبدًا » [(٣)].

- ويقول **مغنية**: « اتفق المسلمون بكلمة واحدة على أنه لا زيادة في القرآن، ونحن لا نتردد ولا نتوقف في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن، وأن جحود البعض تمامًا كجحود الكل؛ لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي ﷺ بضرورة الدين واتفاق المسلمين » [(٤)].

- ويقول **آية الله دستغيب**: « في تفسير قوله تعالى: ﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩] وجهان: **الأول:** أن المكنون هو اللوح المحفوظ. **الوجه**

= ما يقول عندما قال عمن أثبت التحريف: (فهو منحرف أو مغالط أو مشتبه)؛ لأنه سيذكر هذه العقيدة الفاسدة عن بعض « سادات » الإمامية. عقائد الإمامية الاثنى عشرية (ص ٥٥).

(١) باقر شريف القرشي: سلامة القرآن الكريم من التحريف (ص ٥٦).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) المرجع السابق (ص ٣١٠).

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

الثاني: أن هذا المصحف بشكله هذا وبكلماته وسطوره لا تمسه يد الخيانة، ولن تمسه أي: لا يمكنها زيادة شيء عليه، وهذه من معجزات القرآن؛ أن لا تناله يد الخيانة من أول نزوله إلى الآن » [١].

- ويقول **جعفر سبحاني**: « فإن القرآن الكريم بقي مصونًا من أي نوع من أنواع التحريف والتغيير، فإن رسول الله ﷺ ترك للبشرية من بعده مائة وأربع عشرة سورة قرآنية كاملة، وقد قام كتّاب الوحي، وبالخصوص الإمام علي ﷺ بكتابة الوحي وتدوينه منذ البداية، ولحسن الحظ لم ينقص من القرآن الكريم وسوره وآياته شيء قط، رغم مرور قرابة خمسة عشر قرنًا على بدء نزول القرآن، كما لم يزد عليه شيء أبدًا » [٢]. ثم ساق كثيرًا من الأدلة على سلامة القرآن من التبديل والتغيير، وفي مقدمتها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

٢ - القائلون بتحريف القرآن الكريم من علماء الاثني عشرية:

ومع أننا نؤيد موقف علماء الشيعة المعاصرين في تأكيدهم - ونحن نؤكد معهم - على سلامة القرآن من التحريف، ولكننا لا نرضى طمس الحقائق؛ إذ يدّعي بعضهم إجماع علماء الشيعة الأقدمين على سلامة القرآن من التحريف، يقول إحسان الأمين: « ولأنهم التزموا صحة الأخبار عمومًا وتمسكوا بظاهرها دون بحث أو تنقيب، فإن بعضهم وخلافًا لإجماع علماء الشيعة وأعلامهم قد اتجه إلى القول بنقص بعض الآيات في الولاية من القرآن الكريم كالشيخ النوري والسيد الجزائري وغيرهما » [٣]. كما أن منهم من نسب القول بسلامة القرآن الكريم إلى من لا يقرّ به من قدماء علماء الشيعة، كما فعل صاحب مجمع البيان؛ إذ نسب إلى الشيخ المفيد القول بسلامة القرآن من التحريف [٤]، وليس هذا هو مذهبه عند التحقيق والتأمل.

- قال كاشف الغطاء: « القول بالتحريف هو مذهب الأخباريين [٥] والحشوية،

---

(١) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٢٣٤).

(٢) جعفر سبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ص ١٦٩ - ١٧٣). نقله إلى العربية جعفر الهادي (ط١)، (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، قم.

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٤).

(٤) انظر: الطبرسي: مجمع البيان (١/ ٣١).

(٥) انظر مثلًا مشارق الشموس الدرية في أحقّيّة مذهب الأخبارية لعدنان العلوي آل عبد الجبار البحراني منشورات المكتبة العدنانية البحرين (ص ١٢٧): عن القرآن « منه ما هو خلاف ما أنزل الله، ومنه ما هو =

خلافًا لأصحاب الأصول الذين رفضوا احتمال التحريف في القرآن رفضًا قاطعًا » [١].

– وحتى نضع الأمور في نصابها، ولا نظلم للحقيقة؛ سنكتفي ببعض الأمثلة التي تجرح دعوى إجماع علماء الشيعة على حفظ القرآن من التحريف:

– القمي المفسر والكليني المحدّث: وقد استدل آية اللَّه الأصفهاني بما أورده كل من الكليني في الكافي وعلي بن إبراهيم القمي في تفسيره على وضوح رأييهما في التحريف والنقصان. أما القمي فأمره واضح، وأما الكليني فقد روى في كتابه الكافي « الأحاديث الظاهرة في ذلك ولم يعلق عليها » [٢]. وعلى سبيل المثال: عن الحسين بن محمّدٍ عن معلّى بن محمّدٍ رفعه في قول اللَّه ﷻ: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] (أبالنّبيّ أم بالوصيّ تكذّبان) نزلت في الرّحمن » [٣].

وروى الكليني أيضًا عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمّدٍ ﷺ هكذا: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ (آلَ محمّدٍ حقّهم) قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ (آلَ محمّدٍ حقّهم) رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩] » [٤].

« والظاهر من طريقته أنه يعقد الكتاب على ما يرتضيه » [٥].

– موقف الشيخ المفيد: يلاحظ متتبع أقوال المفيد اختلاف كلام المفيد وتناقضه؛ فمرة يحاول أن يوفق بين القول بسلامة القرآن والتصديق برواية أنه سبع عشرة ألف آية بأن يفرق بين القرآن والوحي؛ فيقول:

« إنه قد نزل الوحي الذي ليس بقرآن، ما لو جمع إلى القرآن لكان مبلغه مقدار سبعة عشر ألف آية. وذلك مثل قول جبرئيل للنبي ﷺ: « **إن اللَّه تعالى يقول لك يا محمد:**

= محرف ومغيّر وأنه قد حذف منه أشياء كثيرة منها اسم علي (ع) في كثير من المواضع ومنها لفظة آل محمد (ع) ومنها أسماء المنافقين ومنها غير ذلك، وأنه ليس على الترتيب المرضي عند اللَّه وعند رسول اللَّه (ص) كما في تفسير علي بن إبراهيم » يعني القمي.

(١) صيانة القرآن من التحريف (ص ٦٤، ٦٥)، وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨).

(٢) آية اللَّه العظمى الأصفهاني: آراء حول القرآن: دار الهادي (ص ٨٨)، انظر: علماء الشيعة يقولون (ص ١٢).

(٣) أصول الكافي (١/٢٧٤) كتاب الحجة باب أنّ النّعمة الّتي ذكرها اللَّه ﷻ في كتابه الأئمّة.

(٤) الكليني: أصول الكافي (١/٤٩٢) كتاب الحجة باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية.

(٥) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ١٩١).

دار خلقي » [(١)] ومثل قوله: « **اتق شحناء الناس وعداوتهم** » [(٢)].... ومثل هذا كثير، كله وحي ليس بقرآن، ولو كان قرآنًا لكان مقرونًا به، وموصلًا إليه غير مفصول عنه، كما كان أمير المؤمنين عليه السلام جمعه، فلما جاءهم به قال: « هذا كتاب ربكم كما أنزل على نبيكم، لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف ». فقالوا: لا حاجة لنا فيه، عندنا مثل الذي عندك. فانصرف وهو يقول: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال الصادق عليه السلام: « القرآن واحد، نزل من عند واحد على واحد، وإنما الاختلاف من جهة الرواة » [(٣)] » [(٤)].

ويقول: « القول في تأليف القرآن وما ذكر قوم من الزيادة فيه والنقصان أقول: إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الحذف والنقصان، فأما القول في التأليف فالموجود يقضي فيه بتقديم المتأخر وتأخير المتقدم، ومن عرف الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني لم يرتب بما ذكرناه. وأما النقصان فإن العقول لا تحيله ولا تمنع من وقوعه، وقد امتحنت مقالة من ادعاه، وكلمت عليه المعتزلة وغيرهم طويلًا فلم أظفر منهم بحجة أعتمدها في فساده. وقد قال جماعة من أهل الإمامة [(٥)]: إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتًا في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله، وذلك كان ثابتًا منزلًا، وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز، وقد يسمى تأويل القرآن قرآنًا، قال الله تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] فسمى تأويل القرآن قرآنًا، وهذا ما ليس فيه بين أهل التفسير اختلاف.

وعندي أن هذا القول أشبه من مقال من ادعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل، وإليه أميل. والله أسأل توفيقه للصواب. وأما الزيادة فيه فمقطوع على فسادها من وجه، ويجوز صحتها من وجه؛ فالوجه الذي أقطع على فساده أن يمكن لأحد من الخلق زيادة مقدار سورة فيه على حد يلتبس به عند أحد من الفصحاء، وأما

---

(١) الكليني: الكافي (٢/٩٥) باب المداراة.

(٢) الكليني: الكافي (٢/٢٢٨) باب المراء والخصومة.

(٣) الكليني: الكافي (٢/٤٦١) باب النوادر. (٤) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

(٥) لاحظ « قال جماعة »، ولم يذكر الإجماع على مقالتهم.

الوجه المجوّز فهو أن يزاد فيه الكلمة والكلمتان والحرف والحرفان وما أشبه ذلك مما لا يبلغ حد الإعجاز، ويكون ملتبسًا عند أكثر الفصحاء بكلم القرآن، غير أنه لا بد متى وقع ذلك من أن يدل اللَّه عليه، ويوضح لعباده عن الحق فيه، ولست أقطع على كون ذلك؛ بل أميل إلى عدمه وسلامة القرآن عنه » (١).

ولكن انظر إلى نسف المفيد ما أثبته أعلاه - مع ردّنا بعضه - عندما يقول في المسائل السروية: « إن الذي بين الدفتين من القرآن جميعه كلام اللَّه تعالى وتنزيله، وليس فيه شـيء من كلام البشر، وهو جمهور المنزل، [أي: ليس كل المنزل!]، والباقي مما أنزله اللَّه تعالى قرآنًا عند المستحفظ للشريعة، المستودع للأحكام [أي: المهدي المنتظر!]، لم يضع منه شيء ». ويقول أيضًا: « إن الخبر قد صح من أئمتنا عليهم السلام أنهم أمروا بقراءة ما بين الدفّتين، وأن لا نتعداه، بلا زيادة فيه ولا نقصان منه، حتى يقوم القائم عليه السلام فيقرأ الناس القرآن على ما أنزله اللَّه تعالى وجمعه أمير المؤمنين » (٢).

ويقول: « وإنما نهونا عليهم السلام عن قراءة ما وردت به الأخبار من أحرف تزيد على الثابت في المصحف؛ لأنها لم تأت على التواتر، وإنما جاء بها الآحاد، وقد يغلط الواحد فيما ينقله. ولأنه متى قرأ الإنسان بما خالف ما بين الدفتين غرر بنفسه وعرض نفسه للهلاك. فنهونا عليهم السلام عن قراءة القرآن بخلاف ما ثبت بين الدفتين لما ذكرناه » (٣).

ثم تأمّل كيف يروي المفيد رواية تثبّط الناس عن حفظ القرآن الكريم؛ لأن من حفظه على حاله الآن كان حفظه للقرآن الذي سيأتي به القائم صعبًا: فقد روى المفيد بإسناده إلى جابر الجعفي عن أبي جعفر أنه قال: « إذا قام قائم آل محمد ﷺ ضرب فساطيط، ويعلّم الناس القرآن على ما أنزل اللَّه ﷻ، فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم؛ لأنه يخالف فيه التأليف » (٤).

قال الدكتور القفاري « هذه الرواية لمفيدهم الذي يقدسونه ويعظمونه حتى زعموا أنه

---

(١) المفيد: أوائل المقالات (ت ٤١٣هـ) (ص ٨٠ - ٨٢): دار المفيد - بيروت تحقيق إبراهيم الأنصاري الزنجاني الخوئي (١٤١٤هـ).

(٢) المفيد: المسائل السروية (ص ٧٨) مطبعة المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، وانظر في الخبر الذي أورده أصول الكافي (٦٣٢/٢) باب النوادر، والمجلسي: بحار الأنوار (٧٤/٩٢).

(٣) المسائل السروية (ص ٨٢)، بحار الأنوار (٧٤/٩٢).

(٤) المفيد: الإرشاد في معرفة حجج اللَّه على العباد (٣٨٦/٢) دار المفيد - بيروت.

فوق مستوى البشر؛ لأن إمامهم المنتظر خاطبه (بالأخ السديد والمولى الرشيد) [١]... هذه الرواية جاءت في كتابه الإرشاد وهو في قمة كتبهم المعتبرة، حتى قال شيخهم المجلسي: « كتاب الإرشاد أشهر من مؤلفه » [٢] وهذه الرواية التي نقلها المفيد تثبت أنه يقول: إن مع المهدي كتابًا أوضح من القرآن الكريم، أو - على الأقل - تصويبًا أو زيادة على ما في المصحف الشريف!! وهكذا يستوي المفيد في نقله لهذه الرواية مع النعماني صاحب كتاب (الغيبة)؛ حيث روى النعماني في كتابه ما يشبه الرواية السابقة، بإسناده إلى أمير المؤمنين علي ﷺ قال: « كأني بالعجم فساطيطهم في مسجد الكوفة يعلّمون الناس القرآن كما أنزل، قلت: يا أمير أوليس هو كما أنزل؟ فقال: لا، مُحِيَ منه سبعون من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، وما ترك أبو لهب إلا إزراءً على رسول الله ﷺ لأنه عمه » [٣].

ومن الجدير بالملاحظة اعتراف المفيد بأن أهل السنة ينكرون وقوع تحريف القرآن؛ حيث يقول في كتابه أوائل المقالات: « واتفقوا - أي الإمامية - على أن أئمة الضلال خالفوا في كثير من تأليف القرآن وعدّلوا فيه عن موجب التنزيل وسنة النبي ﷺ ، وأجمعت المعتزلة، والخوارج، والزيدية، والمرجئة، وأصحاب الحديث - على خلاف الإمامية » [٤].

وعجبًا لأمر المفيد، لم يستفد ممن سبقه ولا ممن لحقه، فإن شيخه ابن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق (ت ٣٨١هـ) قد أنكر نسبة التحريف إلى الإمامية [٥]، وتبعه على ذلك الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) [٦]، والطوسي (ت ٤٥٠هـ) [٧] وهما من تلامذة المفيد، ورابعهم الطبرسي (ت ٥٤٨ أو ٥٦١هـ).

---

(١) انظر: السيد علي البروجردي: طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال (٤٨٣/٢)، مكتبة آية الله العظمى المرعشلي النجفي، قم، (ط١)، (١٤١٠هـ).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٢٧/١).

(٣) النعماني (محمد بن إبراهيم ت ٣٨٠هـ): الغيبة (٣١٨) مكتبة الصدوق طهران، تحقيق علي أكبر غفاري، وانظر: بحار الأنوار (٣٦٤/٥٢، ٣٦٥). وانظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣١٥/١).

(٤) أوائل المقالات (ص ١٣)، د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٣٦/١).

(٥) انظر: الاعتقادات (ص ١٠١، ١٠٢).

(٦) انظر: التبيان (٣/١)، مجمع البيان (٣١/١).

(٧) انظر: التبيان (٣/١).

- **الطبرسي (أحمد بن علي) صاحب الاحتجاج**: أما الطبرسي صاحب الاحتجاج فقد روى ما جرى من حجاج بين علي ﷺ وبعض الزنادقة، فنسب إلى علي ﷺ قولًا عظيمًا؛ إذ نسب إليه القول بإسقاط المنافقين آيات كثيرة من القرآن الكريم، وأنها تتعدى في موضع واحد أكثر من ثلث القرآن!: « هذا من إسقاط المنافقين من القرآن، وبين القول في اليتامى وبين نكاح النساء والخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن » (١).

وعلى كلٍّ فإن منزلة هذا الطبرسي ليست بالمنزلة السامقة حتى عند الشيعة أنفسهم، وفي كتابه طامات غير مسألة التحريف، مما يجعله لا يستحق الوقوف عليه أو الالتفات إليه (٢). ويأسف المرء من طبعه ونشره في أوساط الشيعة، ووضعه في الأقراص الليزرية التي يشرف عليها علماؤهم.

- **المجلسي**: المجلسي صاحب كتاب (بحار الأنوار) الموسوعة الحديثية الشيعية الكبيرة، الذي يقول في حقّه محققو الاثني عشرية: « أجمع كِتَابٍ في فنون الحديث » (٣). أما عن مصداقية مصادره فيقولون: « وأكثر مآخذ البحار من الكتب المعتمدة والأصول المعتبرة » (٤).

يقول المجلسي معتمدًا على ما نقل من روايات في حق القرآن الكريم: « ولا يخفى أن هذا الخبر وكثير من الأخبار الصحيحة صريحة في نقص القرآن وتغييره، وعندي أن الأخبار في هذا الباب متواترة معنًى، وطرحها جميعًا يوجب رفع الاعتماد عن الأخبار رأسًا، بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا تقصر عن أخبار الإمامة، فكيف بثبوتها بالخبر » (٥). وقد روى كثيرًا من الروايات في بيان ذلك عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لولا أنه زيد في كتاب اللَّه ونقص منه ما خفي حقنا على ذي حجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدّقه » (٦).

وروى عن جعفر بن محمد: خرج عبد اللَّه بن عمرو بن العاص من عند عثمان، فلقي أمير المؤمنين صلوات اللَّه عليه فقال له: يا علي بتنا الليلة في أمر نرجو أن يثبت اللَّه هذه الأمة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: « لن يخفى عليّ ما بيّتم فيه: حرّفتم وغيّرتم وبدلتم

---

(١) الاحتجاج (ص ٢٤٠). ونقلها عنه تفسير الصافي (٢٨/١ - ٣٢).

(٢) انظر حول قيمة كتاب الاحتجاج: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٠٦، ٢٠٧). وسيمرّ في المبحث التالي.

(٣) محسن العاملي: أعيان الشيعة (٢٩٣/١).

(٤) الذريعة (٢٦/٣، ٢٧).

(٥) المجلسي: مرآة العقول (٥٢٥/١٢).

(٦) المصدر السابق (٥٥/٨٩).

تسعمائة حرف: ثلاثمائة حرّفتم وثلاثمائة غيّرتم وثلاثمائة بدّلتم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] » (١).

ولم تنته مهمة المجلسي في رواية أخبار التحريف، بل حكم على كثير منها بالصحة، في كتابه الذي شرح فيه (الكافي) كتصحيحه رواية: « القرآن الذي جاء به جبرائيل عليه السلام إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية » (٢).

ومع ذلك يقول عنه كتّاب الاثني عشرية: « شيخ الإسلام والمسلمين » (٣)، و « رئيس الفقهاء والمحدّثين، آية اللّٰه في العالمين، ملاذ المحدثين في كل الأعصار، ومعاذ المجتهدين في جميع الأمصار » (٤).

والمجلسي مع تصحيحه لكثير من روايات التحريف، وزعمه أنها متواترة تواترًا معنويًّا، إلا أنه يناقض نفسه فيدعي أنها تفصيليًّا آحاد لا يركن إليها. فيقول: « الذي ين الدفتين كلام اللّٰه تعالى على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان » (٥) « فإن قال قائل: كيف يصحّ القول بأن الذي بين الدفتين هو كلام اللّٰه تعالى على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان، وأنتم تروون عن الأئمة عليهم السلام أنهم قرؤوا: (كنتم خير أئمة أخرجت للناس) أو (وكذلك جعلناكم أئمة وسطًا) وقرؤوا: (يسألونك الأنفال) وهذا بخلاف ما في المصحف الذي في أيدي الناس؟ قيل له:.. إن الأخبار التي جاءت بذلك أخبار آحاد لا يقطع على اللّٰه بصحتها؛ فلذلك وقفنا فيها، ولم نعدل عما في المصحف الظاهر على ما أمرنا به.. مع أنه لا ننكر أن تأتي القراءة على وجهين منزلين أحدهما ما تضمنه المصحف، والثاني ما جاء به الخبر، كما يعترف مخالفونا به من نزول القرآن على وجوه شتى » (٦).

وهو يحاول أن يربط تشابهًا بين هذه المخالفات لنصوص القرآن الكريم واختلاف وجوه القراءات عند أهل السنة. ولكن شتّان بين الأمرين؛ فإن اختلاف القراءات المتواترة

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٨٩/٥٥).

(٢) انظر: مرآة العقول (٥٣٦/٢)، ومن المعلوم أن آيات القرآن كما هو معروف لا تصل إلى سبعة آلاف آية، فكيف تصل إلى سبعة عشر ألفًا؟!

(٣) الأردبيلي: جامع الرواة (٧٨/٢). (٤) مقدمة البحار (ص ٣٩).

(٥) بحار الأنوار (٨٩/٧٥). (٦) المصدر السابق نفسه.

لا يغير شيئًا في المعنى، ولا يخالف الرسم العثماني الذي أجمع عليه الصحابة، بخلاف ما أورده المجلسي من أمثلة تخالف الرسم القرآني بزيادة حروف مثل زيادة الهمزة في قوله: (أئمة) بدل (أمة)، وإنقاص كلمات مثل قوله: (يسألونك الأنفال) فأسقط (عن).

والملاحظ أن شيوخ الدولة الصفوية هم الأجرأ على التصريح بتحريف القرآن، ولعل سبب هذه الجرأة: العامل السياسي وازدياد قوة الأخباريين؛ إذ إن قوة الدولة الصفوية التي ساندتهم ألغت دور التقية لديهم، فنبشوا الروايات القديمة منذ القرن الثالث الهجري، وضخموها ونشروها.

حيث إن شيوخ الدولة الصفوية كالمجلسي في بحاره [١]. والكاشاني في تفسير الصافي والبحراني في البرهان ونعمة اللّه الجزائري في الأنوار النعمانية وما سواها من كتبه، وأبي الحسن الشريف في مرآة الأنوار، والمازندراني شارح الكافي وغيرهم تولوا نشر هذه الفرية على نطاق واسع في ظل الحكم الصفوي الذي انحسرت فيه التقية إلى حد ما ». ولهذا كثرت أقوالهم بتواتر هذا الكفر عندهم حتى زعم شيخهم أبو الحسن الشريف وهو من تلامذة المجلسي بأنه: « يمكن الحكم بكونه [أي القول بتحريف القرآن] من ضروريات مذهب التشيع »!! [٢].

- **حسين النوري الطبرسي و (فصل الخطاب)**!: ألف شيخ الشيعة وراويتهم صاحب الموسوعة الحديثية الشيعية (مستدرك الوسائل) حسين النوري الطبرسي الذي يحظى بتعظيمهم [٣] مؤلّفًا في إثبات هذا الكفر، قال في مقدمته: « هذا كتاب لطيف وسفر شريف عملته في إثبات تحريف القرآن وفضائح أهل الجور والعدوان، سميته (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) » [٤].

لقد حاول هذا النوري الطبرسي أن يؤكّد تأكيدًا جازمًا أن الشيعة منذ نشأتها كانت

---

(١) انظر: بحار الأنوار: كتاب القرآن، باب تأليف القرآن وأنه على غير ما أنزل اللّه ﷻ: (٦٦/٩٢) وما بعدها.

(٢) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٣٣٣/١)، عن مرآة الأنوار (ص ٤٩).

(٣) فقد جعلوا كتابه « مستدرك الوسائل » مصدرًا من مصادرهم المعتمدة في الحديث، كما سيأتي عند الحديث عن عقيدتهم في السنة، وبعد أن مات هذا الطبرسي وضعوه في أشرف بقعة عندهم « في الإيوان الثالث عن يمين الداخل إلى الصحن الشريف من باب القبلة (في النجف) ». انظر: (أغا بزرك الطهراني: أعلام الشيعة، القسم الثاني من الجزء الأول ص ٥٥٣).

(٤) كان تأليفه سنة (١٢٩٢هـ)، وطبع في إيران سنة (١٢٩٨هـ). انظر: موقف الرافضة من القرآن الكريم: مامادو كارامبيري، مكتبة ابن تيمية.

على مذهبه الضال في القول بالتحريف، وأن مخالفة هذا المذهب كانت طارئة!، ولكن هيهات هيهات. فإن الحقيقة التي لا شك فيها أن أوائل الشيعة ما كانت على هذا الكفر، فما كان خلاف الشيعة في أول الأمر إلا في مسألة الأحق بالإمامة. وما كانت مسألة سلامة القرآن من التحريف من المسائل التي اختلفت فيها الآراء والفرق، فشيعة علي، وجند معاوية، والخوارج، ومن اعتزل الفتنة من الصحابة في الصدر الأول.. كلّهم كانوا على رأي واحد في سلامة القرآن ووجوب تحكيمه والعمل به، ولو داخل القرآن شيء من التحريف في العهد الأول لما ترك علي ﷺ وجنده القتال لمّا رأوا المصاحف مرفوعة فوق رماح جند الشام يوم صفين، ولكان بوسع علي ﷺ أن يقول لهم: لا نتحاكم إلى كتاب حرّفتموه وغيّرتموه. في حين يثبت التاريخ خضوعه لتحكيم كتاب اللّه تعالى؛ ولذلك جاء في كتاب أمير المؤمنين عليّ إلى أهل الأمصار يذكر فيه ما جرى بينه وبين جند معاوية: « وكان بدء أمرنا التقينا والقوم من أهل الشّام، والظّاهر أنّ ربّنا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان باللّه، والتّصديق برسوله، ولا يستزيدوننا، الأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء »[1]. ولو كان هناك خلاف حول المصحف وسلامته لكان الأولى أن يرمي أهل الشام به، وأن يحاربهم ويجالدهم من أجله.

ولذلك يعترف النوري الطبرسي بشيوع القول بسلامة القرآن بين عامة طائفته – وإن لم يسلّم هو به – فيقول: « ثم شاع هذا المذهب (يعني إنكار التحريف) بين الأصوليين من أصحابنا، واشتهر بينهم حتى قال المحقق الكاظمي في (شرح الوافية): إنه حكي عليه الإجماع »[2]. ثم حاول النوري ردّ دعوى الإجماع.. ليجعل جل الشيعة الاثني عشرية على مذهبه[3].

وبعد افتضاح أمر النوري قام فئة من شيوخ الشيعة المعاصرين يتبرؤون من قوله، كما فعل البلاغي في آلاء الرحمن[4]، ومحسن الأمين في الشيعة بين الحقائق والأوهام[5]، وعبد الحسين شرف الدين في أجوبة مسائل جار اللّه[6]، ومحمد حسين آل كاشف

---

(١) نهج البلاغة (ص ٤٤٨).
(٢) فصل الخطاب (ص ٣٨).
(٣) د. ناصر بن عبد اللّه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٤٣/١).
(٤) آلاء الرحمن (١٧/١ – ٣٢).
(٥) الشيعة بين الحقائق والأوهام (ص ١٦٠).
(٦) أجوبة مسائل جار اللّه (ص ٢٧ – ٣٧).

الغطا في (أصل الشيعة وأصولها) [(١)]، ومحمد جواد مغنية في (الشيعة في الميزان) [(٢)]. ومحمد تقي مصباح اليزدي في (دروس في العقيدة الإسلامية) [(٣)]. والخوئي في تفسيره (البيان في تفسير القرآن) [(٤)]، حيث يقول منبهًا إلى وجوب طرح كل ما خالف القرآن والسنة من تلك المرويات التي ساقها النوري في (فصل الخطاب) وأمثاله: « فلا بد من طرح هذه الروايات لمخالفتها للكتاب والسنة، والأدلة المتقدمة على نفي التحريف. وقد دلت الأخبار المتواترة على وجوب عرض الروايات على الكتاب والسنة، وأن ما خالف الكتاب منها يجب طرحه، وضربه على الجدار » [(٥)].

- موقف القائلين بالتحريف من شيخ الطائفة الصدوق:

يُعَدّ ابن بابويه القمي، الصدوق، شيخ الطائفة، من أشهر علماء الاثني عشرية المنكرين للتحريف - كما عرفنا - حيث يقول: « اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة. وعندنا أن (الضحى) و (ألم نشرح) سورة واحدة، و (لإيلاف) و (ألم تر كيف) سورة واحدة، ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك؛ فهو كاذب » [(٦)].

والذي يدل على اعتقاد الصدوق بسلامة القرآن من التحريف - بعيدًا عن التقية - أنه أورد رواية حوار علي ﷺ مع أحد الزنادقة، وهي الرواية التي ذكرها الطبرسي صاحب الاحتجاج بزيادة: « هذا من إسقاط المنافقين من القرآن، وبين القول في اليتامى وبين نكاح النساء والخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن » [(٧)]. ولكن الصدوق يوردها في كتابه (التوحيد) دون هذه الزيادة المكذوبة [(٨)]. فهل هذه الزيادات الأثيمة زيدت بعد قرنين من عصر الصدوق، ليثبتها صاحب الاحتجاج ثم المجلسي ثم النوري؟ أم أنها كانت في أصل الرواية لدى الصدوق، فحذفها لأنه لا يرضى بالتحريف؟.. مهما يكن

---

(١) أصل الشيعة وأصولها (ص ٨٨). (٢) الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (١٤٢٤)، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، ترجمة هاشم محمد طهران.

(٤) البيان في تفسير القرآن، المقدمة (ص ٢٢٦). دار الزهراء - بيروت (١٣٩٥هـ)، (ط٤).

(٥) المرجع السابق: المقدمة (ص ٢٣٠، ٢٣١). (٦) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

(٧) الاحتجاج (ص ٢٤٠). ونقلها عنه تفسير الصافي (٢٨/١ - ٣٢).

(٨) انظر: التوحيد (ص ٢٥٥ - ٢٦٩). جماعة المدرسين - قم (١٣٨٧هـ)، تحقيق هاشم الحسيني الطهراني.

الجواب؛ فإن عدم وجود هذه العبارات الفاسقة تشهد بسلامة الصدوق من القول بالتحريف.

وقد احتار صاحب النوري في تعليل عدم وجود هذه الزيادة لدى الصدوق، فقال: « وساق (يعني الصدوق) الخبر مع نقصان كثير عما في (الاحتجاج)، منه ما يتعلق بنقصان القرآن وتغييره، إما لعدم الحاجة إليه كما يفعل ذلك كثيرًا، أو لعدم موافقته لمذهبه » [1].

وقال في مستدرك الوسائل: « إن الساقط [يعني من خبر حجاج الزنديق لعلي ﷺ في كتاب التوحيد للصدوق] هي المواضع التي صرح ﷺ بوقوع النقص والتغيير في القرآن المجيد، وهي تسعة مواضع، ولمّا لم يكن النقص والتغيير من مذهبه ألقى منه ما يخالف رأيه، قال المحقق الكاظمي الشيخ أسد اللّٰه في كشف القناع: وبالجملة فأمر الصدوق مضطرب جدًّا، إلى أن قال: وقد ذكر صاحب البحار حديثًا عنه في كتاب (التوحيد) عن الدقاق عن الكليني، بإسناده عن أبي بصير، عن الصادق ﷺ ثم قال: هذا الخبر مأخوذ من الكافي وفيه تغييرات عجيبة، تورث سوء الظن بالصدوق، وأنه إنما فعل ذلك ليوافق مذهب أهل العدل » [2]. يعني المعتزلة القائلين بعدم التحريف.

مع أن الصدوق هو شيخ الطائفة كما يقولون، وصاحب أحد أشهر أربعة كتب حديثية عند الاثني عشرية، وهو كتاب (من لا يحضره الفقيه)، ومن العجيب أن المجلسي الذي شارك في اتهام الصدوق بالاضطراب وعدم الموثوقية روى في بحاره من سبعة عشر كتابًا من كتب الصدوق [3]!.

ولذلك جاء الخوئي ليردّ على النوري ومن لفَّ لفَّه اتهامهم للصدوق بسبب اختصاره رواية حجاج الزنديق لعلي ﷺ؛ لأن هذا الاتهام سينقلب على مصداقية كتبهم الحديثية، فيقول: « جلالة مقام الصدوق قدس سره تمنع إساءة الظن به، ولم يوجد أي شاهد من أن الخبر مأخوذ من الكافي، وإنما رواه الصدوق عن الدقاق (علي بن أحمد بن موسى) عن الكليني، فلعل السقط منه غفلة أو لأمر آخر، فمن أين ظهر أن الصدوق – قدس سره – هو الذي اختصر الحديث، وأسقط منه ما أدى نظره إلى إسقاطه؟ » [4].

---

(١) فصل الخطاب (ص ٢٤٠).

(٢) النوري الطبرسي: مستدركات الوسائل (١١/١٧٠).

(٣) انظر: المجلسي: بحار الأنوار (١/٢٦ – ٧٣).

(٤) الخوئي: معجم رجال الحديث (١٧/٣٤٨).

- أهم الملاحظات والنتائج المستخلصة من موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم:

١ - تناقضات بعض القائلين بسلامة القرآن الكريم من علماء الاثني عشرية: لقد صنّفنا الشيخ الصدوق وكذلك الطوسي ضمن علماء الشيعة المنكرين للتحريف، والمثبتين لسلامة القرآن وحفظه، ولكننا عند التنقيب نرى أنهما يوردان نصوصًا تخالف ما ذهبا إليه.

- فهذا الصدوق شيخ الطائفة لا يسلم من ذكر بعض روايات التحريف (وناقل الكفر ليس بكافر!): فقد جاء في كتابه (ثواب الأعمال) في ثواب من قرأ سورة الأحزاب، عن أبي عبد الله ﷺ قال: « إن سورة الأحزاب فضحت نساء قريش من العرب، وكانت أطول من سورة البقرة ولكن نقصوها وحرّفوها » [(١)].

فهل أحبط الصدوق بسوقه هذه الرواية - دون أن يردّها أو يضعّفها أو يعلّق عليها على أقلّ تقدير - قوله الأول: « اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك،... ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك؛ فهو كاذب » [(٢)]!.

إنه لتناقض عجيب، فسح المجال لدعاة التحريف أن ينسبوا أمر الصدوق إلى الاضطراب قائلين: « فأمر الصدوق مضطرب جدًّا » [(٣)].!

ويفسّر د. القفاري هذا التناقض بين أقوال الصدوق باحتمال تعرّض كتبه للتحريف بالزيادة على ما فيها، وهذا ليس ببعيد؛ لأن « الزيادة أمر ميسور عندهم، كما بدا لنا ذلك في كتاب (سليم بن قيس) والذي اعترف بوضعه والتغيير فيه شيوخهم [كالمفيد [(٤)]] وكما زادوا في روايات كتاب (من لا يحضره الفقيه) لابن بابويه [أي: الصدوق شيخ الطائفة] نفسه أكثر من الضعف » [(٥)].

- وقد ذكرنا أن الطوسي ينكر القول بالتحريف، ولكنه يقرّ بوجود روايات شيعية تدلّ عليه، فيقول: « الكلام في زيادته ونقصانه مما لا يليق به أيضًا؛ لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضًا من مذهب المسلمين خلافه، وهو

---

(١) ثواب الأعمال (ص ١٣٩)، وانظر: بحار الأنوار (٥٠/٩٢).

(٢) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦). (٣) الخوئي: معجم رجال الحديث (٣٤٨/١٧).

(٤) يقول المفيد: « هذا الكتاب غير موثوق به، ولا يجوز العمل على أكثره، وقد حصل فيه تخليط وتدليس » (المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق: ص ١٢٦).

(٥) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٥٣/١).

الأليق بالصحيح من مذهبنا، ورويت روايات كثيرة من جهة العامة والخاصة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع، لكن طريقها الآحاد التي لا توجب علمًا؛ فالأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها؛ لأنه يمكن تأويلها » [(١)].

ولكن شأنه شأن الصدوق يروي روايات تثبت التحريف؛ لأجل الطعن على الصحابة؛ كروايته عن أحد الأئمة: « لا تأخذن معالم دينك من غير شيعتنا؛ فإنك إن تعديتهم أخذت دينك عن الخائنين الذين خانوا اللّه ورسوله، وخانوا أماناتهم، إنهم اؤتمنوا على كتاب اللّه - جل وعلا - فحرّفوا وبدّلوه.. » [(٢)].

ويورد في (دعاء الغيبة): « اللّهم جدّد ما محي من دينك، وأحيِ به ما بدل من كتابك » [(٣)]، « ولا شك أنه يؤمن بهذا الدعاء؛ لأنه من إمامهم المعصوم بزعمهم، وهو صريح في تبديل القرآن »!! [(٤)].

٢ - خضوع مسألة سلامة القرآن للاجتهاد عند الشيعة: والقارئ لكل ما كتبه الاثنا عشرية في مسألة القرآن يصل إلى نتيجة مهمة وخطيرة: وهي إمكانية خضوع مسألة سلامة القرآن من التحريف عند كثير من علمائهم للرأي والاجتهاد - بخلاف مسألة الإمامة، فلا إمكانية للاجتهاد فيها عندهم، - فمن شكّ في إمامة إمام واحد من الأئمة يكفر - كما سنبين في مبحث الإمامة في فصل العقائد الخاصة - أما من انتقص القرآن الكريم، واعتقد نقصانه وتحريفه، فإنه يعدّ مجتهدًا لا يكفّر، بل قد يعذر عند كثير من علماء الاثني عشرية، ويشكر عند أنصار القول بالتحريف.

قال إحسان الأمين عن فئة منهم قالت بنقص القرآن: « ولأنهم التزموا صحة الأخبار عمومًا وتمسكوا بظاهرها دون بحث أو تنقيب فإن بعضهم، وخلافًا لإجماع علماء الشيعة وأعلامهم [(٥)] قد اتجه إلى القول بنقص بعض الآيات في الولاية من القرآن الكريم كالشيخ النوري والسيد الجزائري وغيرهما » [(٦)].

ولذلك عندما أخرج هذا النوري الطبرسي كتابه (فصل الخطاب في إثبات تحريف

---

(١) تفسير التبيان (٣/١). وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٣٥٣/١).

(٢) رجال الكشي (ص ٤).

(٣) الطوسي: كتاب الغيبة (ص ١٦٥).

(٤) ماماكادو: موقف الرافضة من القرآن الكريم، مكتبة ابن تيمية (ص ١٣٤).

(٥) في ادعاء الإجماع نظر؛ لأن كثيرًا منهم خالفه كما سنبين.

(٦) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٤).

كتاب رب الأرباب) أنكر عليه من أنكر من علماء الشيعة، وهم على حق وصدق في ذلك، ولكن لم أعلم أنهم كفروه، بل ما تزال كتبه مبثوثة في وسط الشيعة، وكتابه (مستدرك الوسائل) من أشهر الكتب الحديثية عندهم - بعد الأصول الأربعة - و « عزّز وكرّم ودفن في أعظم الأمكنة عندهم وأقدسها » [١]. وهو المشهد المرتضوي عام (١٣٢٠هـ) [٢].

وهذا التناقض بين إنكار التحريف ثم الثناء على القائلين بالتحريف من علماء الشيعة هو الذي حيّر الباحثين في التشيع، وأثار تعجبهم: يقول الدكتور السالوس: « والذي تعجب له هو موقف المعتدلين من الشيعة حيث نرى تناقضًا واضحًا؛ فهم يثنون على الصحابة الكرام، ويقولون بأن القرآن الكريم الذي بين أيدي المسلمين هو كما أنزله اللّٰه ﷻ... والتناقض يأتي في الإشادة بكتب الغلاة كالمراجعات، وهو الذي يتعارض مع كل ما سبق... وكذلك القول بأن كل ما في تفسير علي بن إبراهيم القمي صحيح، وهو الذي كفّر الصحابة وقال بالتحريف تنزيلًا وتأويلًا... تناقض واضح جلي، فمتى يزول مثل هذا التناقض؟! » [٣].

في حين رأينا الحجاج واللغط يدور بين علماء الاثني عشرية حول سلامة الصدوق من تهمة تحريف رواية واحدة اتُّهم بأنّه حرّفها فأنقص منها حتى قال فيه بعضهم: (تورث سوء الظن بالصدوق)، فانبرى من يدافع عنه، في حين تتهم روايات الكافي والمجلسي والنوري كتاب اللّٰه تعالى بالتحريف، فيأتي من يدافع عنهم، مدعيًا أنهم مجتهدون، وأن هذا المذهب لا يضرّهم! يقول آية اللّٰه الأصفهاني: « لا يضر القول بالتحريف بمذهب القائل به... بل القائل به إنما ترجّح بنظره التحريف لأجل الروايات »! [٤].

أما مسألة وجوب اعتقاد الأئمة الاثني عشر، فلا عذر لأحد في إنكار معشارها، فعن محمّد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد اللّٰه عليه السلام: رجلٌ قال لي: اعرف الآخر من الأئمّة ولا يضرّك أن لاَ تعرف الأوّل. قال: فقال: « لعن اللّٰه هذا، فإنّي أبغضه ولا أعرفه، وهل

---

(١) علماء الشيعة يقولون (ص ٦).

(٢) انظر: د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٦٠).

(٣) انظر علي أحمد السالوس: مع الاثنى عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، وحول تفسير البيان بالذات (١/١٣). دار التقوى مصر (ط٤)، (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م).

(٤) آية اللّٰه الأصفهاني: آراء حول القرآن (ص ٨٧)، دار الهادي - بيروت (ط١)، (١٩٩١م).

عرف الآخر إلا بالأوّل؟! » [١].

فقد حكم الاثنا عشرية على منكر إمام واحد من الأئمة الاثني عشر بالضلال والنفاق - كما سنبين في فصل (العقائد الخاصة بالاثني عشرية) - رغم أن هذه المسألة كثر فيها الخلاف بين طوائف الأمة، وتخللّها من الغموض ما تخللّها، فأي المسألتين أولى بالعذر: وجوب الاعتقاد بالأئمة الاثني عشر، أم سلامة القرآن من التحريف؟!

إننا نطالب إخواننا الاثني عشرية بالتبرؤ من كل من يقول بالتحريف، دون خجل أو هيبة؛ فالحقّ أحقّ أن يتّبع، وهذا خير من تلمّس الأعذار لهم في مسألة أوضح من ضوء الشمس لذي عينين.

وليس هذا بدعًا من القول؛ فقد قال به بعض علماء الشيعة المتقدمين والمتأخرين، فإن ممن ذهب إليه من المتقدمين: الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) حيث كان يكفّر من قال بتحريف القرآن، وقد نقل ابن حزم ذلك عنه [٢]. وممن أكده من المعاصرين الشيخ محمد جواد مغنية في قوله: « ونحن لا نتردد ولا نتوقف في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن، وأن جحود البعض تمامًا كجحود الكل؛ لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي ﷺ بضرورة الدين واتفاق المسلمين » [٣].

٣ - إنصاف كتّاب الفرق لعلماء الشيعة في هذه المسألة: قد تجرّ العاطفة بعضَهم اليوم إلى ادعاء أن كل الشيعة على القول بتحريف القرآن.

وقد علمنا أن التعميم دون استقراء كامل من أهم الأخطاء المنهجية، والقرآن الكريم يعلّمنا منهج التفصيل في نسبة الأمور إلى أصحابها، حتى مع غير المسلمين - فمن باب أولى أن يكون هذا هو المنهج في التعامل مع المسلمين - فقد قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وقال: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦]، وهذا المنهج العادل هو

---

(١) أصول الكافي (١/٤٣٥) كتاب الحجة، باب من ادّعى الإمامة وليس لها بأهلٍ ومن جحد الأئمة أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهلٍ، وقيل: المراد بالأول: الله ورسوله، وبالآخر: الإمام. انظر: المازندراني (٥/١٥٧).

(٢) انظر: مجمع البيان (١/٣١)، ابن حزم: الفصل (٤/١٣٩).

(٣) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

الذي ينبع من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

وقد سار كتّاب الفرق الإسلامية الأقدمون على هذا المنهج القرآني؛ فالأشعري في (مقالات الإسلاميين) لم ينسب مقالة تحريف القرآن إلى كل طوائف الشيعة، بل بيّن أن بعضهم ينكر هذه المقالة [١]، وكذلك فعل ابن حزم [٢] وغيره. وهذا يدل على إنصافهم وسعة اطلاعهم على مذاهب وأقوال الطوائف الأخرى.

٤ - براءة الزيدية والمعتزلة من القول بالتحريف مع تقاربهم من الشيعة: ومما يجدر ذكره أن شيوخ الزيدية والمعتزلة - على تقاربهم مع الشيعة - إلا أنهم أنكروا نقصان القرآن أو زيادته، « وقد ألّف يحيى بن الحسين الزيدي المعتزلي كتابًا اسمه (الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه)، ويظهر من عنوانه أنه في الرد على من قال بنقص القرآن من الشيعة الإمامية، كما يعطي إشارة إلى تبرئة الزيدية من تلك التهمة، كذلك شن الخياط حملة شديدة على أصحاب هذا القول في كتابه (الانتصار) واختصهم بالنصيب الأوفر من هجومه، وكرر في أكثر من موضع أنهم يزعمون أن القرآن بُدِّل وغُيّر وزيد فيه ونُقص منه وحُرِّف عن مواضعه، ومعروف أن ابن الراوندي الذي ألّف (الانتصار) في الرد عليه كان متسترًا تحت ستار التشيع [٣].

---

(١) قال الأشعري: « اختلف الروافض في القرآن هل زيد فيه أو نقص منه؟ وهم ثلاث فرق، فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن القرآن قد نقص منه، وأما الزيادة فذلك غير جائز أن يكون،... فأما ذهاب كثير منه فقد ذهب كثير منه والإمام يحيط علمًا به.

والفرقة الثالثة منهم وهم القائلون بالاعتزال والإمامة يزعمون أن القرآن ما نقص منه ولا زيد فيه، وأنه على ما أنزل اللّه تعالى على نبيه ﷺ لم يغير ولم يبدل ولا زال عما كان عليه » (مقالات الإسلاميين (ص ٤٧) ط إحياء التراث العربي، تحقيق هلموت ريتر).

(٢) قال ابن حزم: « ومن قول الإمامية كلها قديمًا وحديثًا أن القرآن مبدّل زيد فيه ما ليس منه، ونقص منه كثير وبدل منه كثير، حاشا عليّ بن الحسن [يقصد الشريف المرتضى]... وكان إماميًا يظاهر بالاعتزال مع ذلك، فإنه كان ينكر هذا القول ويكفّر من قاله، وكذلك صاحباه أبو يعلى ميلاد الطوسي، وأبو القاسم الرازي » الفصل (١٣٩/٤). أما حصر ابن حزم القائلين بسلامة القرآن من الإمامية في ثلاثة، فغير مسلّم به، ولكنه مبلغ علمه، وقد ذكرنا أن كثيرًا من علمائهم نزّهوا القرآن عن التحريف.

(٣) انظر: حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد قوشتي عبد الرحيم، ماجستير دار العلوم (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد اللّه الشرقاوي (ص ٦٥).

٥ - إنكار روايات التحريف والتبرؤ من القائلين به خير من رجم الطوائف الأخرى بالقول بالتحريف: إن التأكيد على سلامة القرآن، وأن ذلك عقيدة مجمع عليها لدى كل الطوائف الإسلامية، وإثبات كذب ووضع الروايات المنكرة الزاعمة للتحريف، والتبرؤ من القائلين به، هو الموقف المرجو من كل المسلمين شيعة وسنة.

وهذا الموقف خير من التأكيد على سلامة القرآن من التحريف ثم قذف الفرق الأخرى بهذه التهمة الشنيعة التي لا طائل من ورائها إلا بثّ الأحقاد، وزعزعة عقيدة العامة، وشغل علماء الأمة في أمر لا خلاف فيه.

لقد دأب كثير من كتّاب الشيعة - من باب الردّ على من اتهموهم بالتحريف، أو النيل من خصومهم - على أن يرموا الآخرين بتهمة القول بالإنقاص والزيادة في القرآن، مستندين على بعض الشّبه الواهية التي قرؤوها في تراث خصومهم. وعلى سبيل المثال يقول الفضل بن شاذان الأزدي (ت ٢٦٠) [(١)] مخاطبًا أهل السنة: « ثم رويتم عن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن، وأنه لم يثبتهما في مصحفه، وأنتم تروون أنه من جحد آية من كتاب اللّه ﷻ فهو كافر باللّه [(٢)]، وتقرّون أنهما من القرآن. فمرّة تقرّون على ابن مسعود أنه جحد سورتين من كتاب اللّه، وأنه من جحد حرفًا منه فقد كفر، فكيف قبلتم أحاديث ابن مسعود في الحلال والحرام والصلاة والصيام والفرائض والأحكام؟! فإن لم تكن المعوذتان من القرآن لقد هلك الذين أثبتوهما في المصاحف، ولئن كانتا من القرآن لقد هلك الذين جحدوهما ولم يثبتوهما في المصاحف » [(٣)].

أقول: ثبت عند بعض علماء السنة رواية تقول: إن ابن مسعود لم يكتب المعوذتين في

---

(١) هناك بهذا الاسم اثنان، الأول سنّي، وهو الفضل بن شاذان الرازي، أبو العباس، قال ابن أبي حاتم: « الفضل بن شاذان بن عيسى المقرئ أبو العباس، روى عن إسماعيل بن أبي أويس وأحمد بن عبد اللّه ابن يونس وسعيد بن منصور ومهدي بن جعفر وإبراهيم بن حمزة والليث بن خالد البلخي وإبراهيم بن موسى كتب عنه أبي وكتبت عنه وهو صدوق » (الجرح والتعديل ٦٣/٧).

والآخر شيعي وهو الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري، أبو محمد، من أعلام الشيعة، وكبار رواتها ومتكلميها، وهو المقصود هنا، روى عن أبي جعفر الثاني، والهادي والعسكري، قيل: ألّف (١٨٠) كتابًا، منها كتاب (الإيضاح) الذي ننقل منه، ومنها كتاب (الرجعة)، قال عنه الشيعة: كان ثقة جليلًا متكلمًا، توفي سنة (٢٦٠هـ). انظر: رجال النجاشي (ص ٣٠٦ - ٨٤٠).

(٢) وهو بهذا يقرّ لأهل السنة بأنهم يكفرون من ينتقص القرآن، كما يؤكد كلامه ما وصلنا إليه من أنّ الشيعة لا يرون تكفير من يقول بانتقاص القرآن معتمدًا على روايات التحريف الواهية.

(٣) الفضل بن شاذان الأزدي: الإيضاح (ص ٢٢٩).

مصحفه، وأنّ أبي بن كعب أثبت في مصحفه دعاء القنوت [1]، ولكن هذا لا يعني أن ابن مسعود جحد قرآنية المعوذتين، ولا أنّ أبي أثبت قرآنية دعاء القنوت.

قال أهل العلم: « لا يجوز أن يضاف إلى عبد اللّٰه أو إلى أبي بن كعب أو زيد أو عثمان أو علي أو واحد من ولده أو عترته جحد آية أو حرف من كتاب اللّٰه وتغييره أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الآحاد، وأن ذلك لا يحل ولا يسمع، بل لا تصلح إضافته إلى أدنى المؤمنين في عصرنا، فضلًا عن إضافته إلى رجل من الصحابة، وأن كلام القنوت المروي عن أبي بن كعب أثبته في مصحفه لم تقم حجة بأنه قرآن منزل، بل هو ضرب من الدعاء، وأنه لو كان قرآنًا لنقل نقل القرآن وحصل العلم بصحته....

أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأنّ من جحد منها شيئًا كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطل وليس بصحيح،.... إنما صح عنه قراءة عاصم عن زر ابن حبيش عنه وفيها المعوذتان والفاتحة، وقال القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب (التقريب) لم ينكر عبد اللّٰه بن مسعود كون المعوذتين والفاتحة من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، وإثبات الحمد؛ لأنه كانت السنة عنده ألا يثبت إلا ما أمر النبي ﷺ بإثباته وكتبه، ولم يجده كتب ذلك ولا سمع أمره به، وهذا تأويل منه وليس جحدًا لكونهما قرآنًا » [2]. وهكذا نعلم أن إثبات أفراد من الصحابة لبعض الأحاديث والتفسيرات في مصاحفهم الخاصة، أو عدم كتابة بعض الآيات - كفعل ابن مسعود مع المعوذتين - لا يعني إنكار شيء من القرآن أو الزيادة عليه، وهذا سرّ إحراق عثمان ﷺ المصاحف التي كانت في أيدي الصحابة، والاعتماد على المصاحف التي تمّ نسخها في عهده والتي أجمعت عليها الأمة؛ حيث أثبت فيها كل آيات القرآن، ولم يسمح أن يكتب فيها شيء غيره مهما كان مهمًا - كالتفسيرات والأدعية والأحاديث - وذلك صونًا للقرآن الكريم من أن يختلط بغيره.

ثم إن الشيعة ذاتهم يردّون على هذه الشبهة قائلين: إن مصحف ابن مسعود ليس متواترًا، ولا يجوز العمل به، وفي هذا يقول العلامة الحلي: « يقرأ بما نقل متواترًا في المصحف الذي يقرأ به الناس أجمع، ولا يقول على ما يوجد في مصحف ابن مسعود؛

---

(١) انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (١/١٧٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/١٢٧) وما بعدها.

لأن القرآن ثبت بالتواتر، ومصحف ابن مسعود لم يتواتر، ولو قرأ به بطلت صلاته » [(١)].

إن محاولة بعض كتّاب الشيعة اتهام أهل السنة بالتحريف، مستندين إلى بعض هذه الشبه الواهية يزيد تعقيد الأمور، ويفتح المجال أمام المستشرقين لمحاولة النيل من القرآن الكريم، وما أظن إخواننا الشيعة يرضون بذلك.

والأولى بكل طائفة أن تقوم بنقد ما في جعبتها من نصوص صحيحة توهم القول بالتحريف؛ فتنفيه من خلال تأويلها تأويلًا صحيحًا مقبولًا، والتأكيد على كذب الروايات الموضوعة التي تدل على التحريف.

يقول الشيخ مغنية: « أما النقصان... فقد قال به أفراد من السنة والشيعة في العصر البائد، وأنكر عليهم يومذاك المحققون وشيوخ الإسلام من الفريقين، وجزموا بكلمة قاطعة أن ما بين الدفتين هو القرآن المنزل دون زيادة أو نقصان للآية [٩] من سورة الحجر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ والآية [٤٢] من سورة فصلت: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ واليوم أصبح هذا القول ضرورة من ضرورات الدين وعقيدة جميع المسلمين؛ إذ لا قائل بالنقيصة لا من السنة ولا من الشيعة، فإثارة هذا الموضوع والتعرض له في هذا العصر لغو وعبث، أو دس وطعن على الإسلام والمسلمين » [(٢)].

وإذا كان إحراق الكتب الحاوية لروايات التحريف أمرًا متعذّرًا، أو ثقيلًا على نفوس أبناء الطائفة، فلا أقلّ من التنويه إلى بطلان تلك الروايات المكذوبة، تنويهًا ينفي الشك باليقين، ويقوي عقيدة الأمة بسلامة كتاب ربّها، ويجمع أمرها ولا يفرّق جمعها. ومن أمثلة ذلك ما فعل كتّاب علوم القرآن من أهل السنة – كالسيوطي في الإتقان والزركشي في البرهان – إذ أزالوا كل شبهة حول سلامة القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك لدى الشيعة: تلك الجهود التي قام بها بعض محققي الكتب الشيعية، حيث بيّنوا وضع وكذب روايات التحريف كلّما مرّت، وعلى سبيل المثال: وجدت أثناء متابعة روايات التحريف في (بحار الأنوار) للمجلسي، أن السادة محققي الكتاب – ومنهم الشيخ البهبودي – يعلّقون على هذه الروايات بما هي أهله من التكذيب والإنكار،

---

(١) منتهى المطلب: العلامة الحلي (٢٧٣/١)، ولكن ادعى الحلي أن الجمهور يجيزون القراءة بمصحف ابن مسعود، وهذا غير مسلّم به؛ لأن الجمهور يتفقون مع الحلي في عدم جواز القراءة إلا بالمتواتر.

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

مؤكدين أن سلامة القرآن الكريم من التحريف هو عقيدة الأمة الإسلامية جمعاء.

ففي رواية البحار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥] قال: « (من نفسي) هكذا نزلت ». علّق المحققون قائلين: « هذا يوافق ما قيل من التحريف، وقد أشرنا مرارًا: ما عليه جمهور محققي الإمامية خلفًا وسلفًا أن ما بين الدفتين هو المنزل من عند اللَّه على النبي الكريم، لم يزد فيه ولم ينقص، فكلما ورد خبر شاذ أو قول نادر يدل على خلافه فهو عندنا مطروح لا نعبأ به، ونردّ علم الخبر الوارد فيه إلى أهله » [(١)].

وفي تلك الرواية التي ذكرها العياشي في تفسيره ثم ساقها المجلسي في البحار والتي تقول: « إن القرآن قد طرح منه آي كثير، ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتبة، وتوهمها الرجال » يقول هؤلاء المحققون معلّقين: « والحديث مع الغض عن وثاقته وعدمها مرسل معارض لما عليه إجماع الأمة من أن القرآن هو ما بين الدفتين، لم يزد فيه ولم ينقص عنه، وهو أحد الثقلين الذي تركه النبي بين الأمة، وهو باق إلى قيام الساعة » [(٢)].

٦ - إجماع كل الاثني عشرية على وجوب العمل بهذا المصحف: هناك حقيقة ينبغي التوقف عندها وذكرها من باب الإنصاف: وهي أن جميع الشيعة مشتركون في حجية القرآن الكريم الآن، أما من نفى التحريف فواضح رأيه، وأما من أثبته فقد قال بوجوب اتباعه وقراءته على حاله هذه حتى يأتي المهدي المنتظر فيصحّحه، حسب الرواية التي تقول: « اقرؤوا كما تعلمتم فسيجيئكم من يعلمكم » [(٣)].

ولذلك جاءت الروايات تحض على تعلم القرآن الكريم وحفظه: عن الفضيل بن يسار، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: سمعته يقول: « إن الذي يعالج القرآن ويحفظه بمشقة منه وقلة حفظ له أجران » [(٤)]. فهذه الرواية - المتفق على معناها بين الطائفتين: السنة والشيعة - تؤكد وجوب التمسك بالقرآن الكريم عند الشيعة، وتلغي كل ذلك اللغط والروايات المفتراة.

فهذا الجزائري القائل بوقوع التحريف بقوله: « وأخبارنا متواترة بوقوع التحريف والسقط منه بحيث لا يسعنا إنكاره، والعجب العجيب من الصدوق وأمين الإسلام الطبرسي، والمرتضى في بعض كتبه كيف أنكروه وزعموا أن ما أنزله اللَّه تعالى هو هذا المكتوب مع أن فيه رد متواتر الأخبار ».

---

(١) بحار الأنوار (١٠٧/١٣)، الحاشية. (٢) بحار الأنوار (١٧٩/١٥)، الحاشية رقم (٣).

(٣) أصول الكافي (٥٨٣/٢) كتاب الدعاء، باب أن القرآن يرفع كما أنزل، قال محققه: هذا الحديث مجهول.

(٤) أصول الكافي (٥٧١/٢) كتاب الدعاء، باب من يتعلم القرآن بمشقة، قال محققه: والحديث صحيح.

ويحاول أن يجيب عما اعترض به عقلاء قومه من أن القول بتحريف القرآن يلزم منه ألا يعمل به لارتفاع الثقة عنه، وهذا مخالف لما عليه الشيعة والأئمة.. فيقول: « وما قيل من طرفهم أنه يلزم عليه ارتفاع الموثوق بالآيات الأحكامية، وينتفي جواز الاستدلال بها لمكان جواز التحريف عليها. فجوابه: أنهم عليهم السلام أمرونا في هذه الأعصار بتلاوة هذا القرآن والعمل بما تضمنته آياته؛ لأنه زمن هدنة، فإذا قامت دولتهم وظهر القرآن كما أنزل الذي ألفه أمير المؤمنين بعد وفاة الرسول ﷺ وشده في ردائه وأتى إلى أبي بكر وعمر وهما في المسجد في جماعة من الناس فعرضه عليهم فقالوا: لا حاجة لنا في قرآنك ولا فيك، عندنا من القرآن ما يكفينا. فقال: لن تروه بعد هذا اليوم حتى يقوم قائمنا. فعند ذلك يكون ذلك القرآن هو المتداول بين الناس. مع أن ما وقع من التحريف في الآيات الأحكامية أظهروه عليهم السلام، فيقوم الظن بأن ما لم يعرفونا تحريفه لم يكن فيه تحريف »[(١)].

ولذلك لا عجب أن يضع عبد الله شبر (١٢٤٢هـ)، مع أنه من القائلين بالتحريف - هذا العنوان العريض: (باب وجوب العمل بما في أيدينا من القرآن الكريم، وعدم تجاوزه وعدم جواز القراءة بما حذف منه، وإن ما بين الدفتين حجة يجب العمل به »[(٢)].

٧ - آراء علماء السنة في فهم موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم: وقد اختلفت وجهة علماء السنة في موقفهم من فهم رأي الشيعة في القرآن:

- فهناك من علماء السنة من يرى تعميم دعوى القول بالتحريف على كل علماء الشيعة كمحب الدين الخطيب، في (الخطوط العريضة لدين الشيعة) ومحمد مال الله في (الشيعة وتحريف القرآن) وإحسان إلهي ظهير في (الشيعة والقرآن). ويرى أصحاب هذا الرأي أن ما ينقل عن بعض علماء الشيعة خلاف القول بالتحريف إنما هو من باب التقية.

- وهناك من يرى أن القائلين بالتحريف هم الأخبارية فقط، كالشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق)، والدكتور علي أحمد السالوس في (مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع)، والدكتور ناصر بن عبد الله بن علي القفاري في (أصول

---

(١) انظر: شرح الصحيفة السجادية (ص ٤٣)، د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٤٥).

(٢) عبد الله شبر: الأصول الأصلية (ص ١٣٣)، انظر: موقف الرافضة من القرآن الكريم (ص ١٠٨).

مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية)[١]. وأن أقوال بعض علماء الاثني عشرية في إنكار التحريف يعدّ موقفًا عن عقيدة وتصميم، لا عن تقية أو مراوغة.

ولعل مما يؤيد الرأي الأخير، الذي يثبت أن دعوى تحريف القرآن بين أخذ ورد بين علماء الشيعة أنفسهم بعيدًا عن التقية - « أن صاحب فصل الخطاب ألف كتابه - كما سيأتي - لإقناع طائفة من قومه أنكرت هذا الكفر وأبت أن تهضمه، واحتجت بما قاله بعض شيوخها السابقين من إنكار هذه الفرية، فرد عليها صاحب فصل الخطاب بكتابه هذا، وعزا الإنكار من شيوخه السابقين إلى التقية أو إلى عدم توفر المصادر عندهم »[٢].

ومما يدل على هذا محاربة القائلين بالتحريف لمعارضيهم القائلين بسلامة المصحف، كقول أبي الحسن العاملي - أحد القائلين بالتحريف - عن المرتضى، يعيب عليه قوله بسلامة القرآن: « والعجب من مثل السيد [أي: المرتضى] أن يتمسك بأمثال هذه الأشياء التي هي محض الاستبعاد بالتخيلات في مقابل متواتر الروايات »، وقال: « ومن أعجب الغرائب أن السيد في مثل هذا الخيال الضعيف الظاهر خلافه.. واستضعف الأخبار التي وصلت فوق الاستفاضة عندنا وعند مخالفينا »[٣]، وقال البحراني في رده على الصدوق والمرتضى: « وأما ما احتج به الصدوق في اعتقاداته، وكذلك المرتضى في جملة كلامه أوهن من بيت العنكبوت، وإنه لأوهن البيوت »[٤]. وقال الفيض الكاشاني في رده على الطوسي: « وليت شعري كيف يجوز لمثل الشيخ أن يدعي أن عدم النقصان ظاهر الروايات... ومن الغرائب أن الشيخ ادعى إمكان تأويل هذه الأخبار، وقد أحطت خبرًا بأن أكثرها مما ليس بقابل للتوجيه »[٥].

فهذا الجدال العنيف بين الفريقين يدلّ على أن ما بينهما أقوى من التقية.

وهذا ما نصره الدكتور القفاري عندما قال: « أقول بأن هذا الموقف من كبار علماء الشيعة في رد وإنكار ما ورد في كتبهم مما يمس كتاب اللّه - سبحانه - لا نقول: إنه تقية؛ فلا سبيل إلى معرفة ذلك على وجه اليقين، وإن كان البعض من السنة والشيعة قد ذهب إلى ذلك، فقد لاحظت الصراع الدائر بين الطائفتين في (فصل الخطاب)، كما

(١) د. ناصر بن عبد اللّه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٦١، ٢٦٢).
(٢) المرجع السابق (١/٢٦١ - ٢٦٤).
(٣) مقدمة مرآة الأنوار (ص ٥٠)، مامادو كارامبيري: موقف الرافضة من القرآن الكريم (ص ١٣٣).
(٤) الدرر النجفية (ص ٢٩٨، ٢٩٩). (٥) مقدمة مرآة الأنوار (ص ٥٠).

تبين شيوع الكذب والدس في كتبهم كما بينًّا، ثم إن من يتبرأ من هذا الكفر (بعد إيمانه بالله ورسوله) نقبل ذلك منه، والله يتولى السرائر » [١].

ومنهج الإسلام في التعامل مع من أنكر الكفر يقتضي منا أن نصدق تأكيد علماء الشيعة المعاصرين على سلامة القرآن من التحريف، لا تحريجهم وتكذيبهم، فلم يأمرنا الإسلام أن نشق الصدور لنعلم حقائق الإيمان، وهذه قضية من قضاياه [٢].

وعلى كلٍّ فرغم كل الخلاف بين علماء الشيعة القدامى في مسألة سلامة القرآن، وما تبعهم من مقولة النوري في (فصل الخطاب)؛ فإن الصوت الأقوى اليوم هو الصوت المؤكد على سلامة القرآن؛ ولذلك نجد المعاصرين من أئمة الشيعة كالإمام الخميني والإمام الخوئي أشد نكيرًا على القائلين بالتحريف، وينكرون على صاحب فصل الخطاب: « إيراد روايات أعرض عنها الأصحاب واختلاط ضعاف بين الروايات ». ويؤكدون على أن إنكار القول بالتحريف هو « مذهب المحققين من علماء الإسلام والمعتبرين من الفريقين » [٣].

وهناك جهود مشكورة من هؤلاء العلماء للرد على المخالفين في المسألة سواء كانوا من القدامى أو المحدثين [٤].

وقد صرح محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ) بتكفير من يقول بالتحريف – دون تعيين أحد بعينه – فقال: « ونحن لا نتردد ولا نتوقف في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن، وأن جحود البعض تمامًا كجحود الكل؛ لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي ﷺ بضرورة الدين واتفاق المسلمين » [٥].

ولذلك يجب أن تطوى هذه الصفحة حول القرآن، ويجب تأكيد سلامته للأجيال القادمة، والبراءة من كل من قال بتحريفه.

---

(١) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٦٥).

(٢) المرجع السابق (١/٢٦٥).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨، ٣٥٩).

(٤) انظر مثلًا: مجلة تراثنا (ص ٢٤٩): قم عدد (١)، سنة (١٤٠٧هـ)، مؤسسة آل البيت، حيث أفردت مقالًا كبيرًا حول هذه المسألة، وردّت على المجلسي وغيره، وبيّنت أن القرآن جمع على عهد النبي ﷺ وحاولت تأويل معنى التحريف والنقصان: بالزيادة والنقصان من جهة الأحاديث القدسية، ومن جهة التأويل والتفسير، ومن جهة الناسخ والمنسوخ.

(٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

المطلب الثالث

تفسير القرآن الكريم عند الاثني عشرية

« الرأي المشهور عند الشيعة أن تفسير القرآن لا بد فيه من الرجوع إلى المأثور عن رسول الله ﷺ وأهل البيت (ع) باعتبارهم خزنة علمه وحفظة وحيه » [1].

وهنالك فكرة اثني عشرية تقول بلزوم وجود قيّم على القرآن، وهو الإمام، مع أن القرآن الكريم جعل مهمة النبي ﷺ تبيين القرآن وإيضاح حجته في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، ولم تسند إلى النبي الكريم ﷺ مهمة حفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ ولذلك نهى القرآن النبي ﷺ عن إجهاد نفسه في تحصيل حفظ القرآن فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

ومع أن الله تعالى تكفّل بإيضاح القرآن وتيسير تفهيمه للبشر، كما مرّ في الآية السابقة، وفي قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧]؛ فإن روايات الاثني عشرية تدّعي أنه لا يمكن الاحتجاج بالقرآن وبيانه إلا بوجود الإمام: عن منصور بن حازمٍ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « ... فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ والقدريّ والزّنديق الّذي لا يؤمن به حتّى يغلب الرّجال بخصومته، فعرفت أنّ القرآن لا يكون حجّةً إلا بقيّم فما قال فيه من شيء كان حقًّا، فقلت لهم: من قيّم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعودٍ قد كان يعلم، وعمر يعلم، وحذيفة يعلم، قلت: كلّه؟ قالوا: لا. فلم أجد أحدًا يقال: إنّه يعرف ذلك كلّه إلا عليًّا عليه السلام وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: أنا أدري؛ فأشهد أنّ عليًّا عليه السلام كان قيّم القرآن وكانت طاعته مفترضةً، وكان الحجّة على

---

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٦٩) وإن كان يرى أن هناك رأيا آخر عندهم يجيز التفسير بالرأي « بالتدبر في آيات القرآن نفسها وبالاستعانة بأدوات اللغة واستنباط المفاهيم الدلالية منها وبالاستعانة بآيات القرآن بعضها في تفسير البعض الآخر ». وانظر: هاشم بن سليمان الحسيني البحراني: البرهان في تفسير القرآن (١) مقدمة التفسير، مؤسسة البعثة، طهران، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ومحمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن (٣/١٠١)، مؤسسة الأعلمي - بيروت (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

النّاس بعد رسول اللَّه ﷺ وأنّ ما قال في القرآن فهو حقٌّ.فقال: رحمك اللَّه » (١).

وهذه الرواية تناقضها رواية أخرى تبين وضوح معاني القرآن، مما لا يجعل العقول تتيه فيه دون فهم، وهو الكتاب العربي الذي يسّر اللَّه جمعه وقرآنه وبيانه، وقد قال تعالى عن القرآن في القرآن: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] فمن فهم العربية فهّمه اللَّه تعالى كثيرًا من أسرار القرآن، وتكفل اللَّه تعالى ببيانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٩].

وإلى هذا يشير ما نقل عن جعفر الصادق: « ما كان اللَّه ﷻ ليخاطب خلقه بما لا يعلمون » (٢).

وقد جعلت إحدى الروايات عليًّا قسيمًا للقرآن؛ حيث سمّوه الكتاب الصامت، ويروون عن علي ﷺ أنه قال: « هذا كتاب اللَّه الصامت، وأنا كتاب اللَّه الناطق » (٣).

وهذه النزعة في حصر فهم غور القرآن في مدرسة آل البيت يقررها كتّاب الشيعة، فيؤكد الطباطبائي أن الإنسان العادي قد يفهم شيئًا من ظاهر الآيات القرآنية، و « لكن إدراك وفهم معانيها يستلزم اتخاذ نهج أهل البيت عليهم السلام مع الاستعانة بالآيات، فإنها تفسر بعضها بعضًا، ولا يمكن الاستعانة برأي خاص » (٤). ومن أجاز التفسير بالرأي منهم فإنه لا يجيزه إلا بعد الاطلاع على التفسير المأثور عن النبي ﷺ وآل بيته: قال الطباطبائي صاحب تفسير الميزان: « واجب المفسر هو ملاحظة الأحاديث الواردة في التفسير عن النبي ﷺ وأئمة البيت (ع) والغور فيها ليعرف طريقتهم، ثم يفسر القرآن الكريم بالمنهج الذي يُستفاد من الكتاب والسنة، ويأخذ بالأحاديث التي توافق الكتاب ويطرح ما عداها » (٥).

وإذا كان أهل السنة يعتمدون في التفسير المأثور على ما يصح من أحاديث نبوية، ثم ما أتى عن الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - في تفسير القرآن الكريم، سواء أكانوا من آل البيت كعلي ﷺ وابن عباس ﷺ، أم من غير آل البيت كابن مسعود ﷺ وغيره؛ فإن الشيعة يرون عدم إمكانية أخذ التفسير عن الصحابة الكرام - رضوان اللَّه عليهم - ومن

(١) أصول الكافي (١٨٣/١)، كتاب الحجة باب الاضطرار إلى الحجة (٢٢٢/١).

(٢) رجال الكشي (ص ٢٩١). (٣) الحر العاملي: الفصول المهمة (ص ٢٣٥).

(٤) الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ٨٠)، مركز بقية اللَّه الأعظم - بيروت (١٩٩٩م).

(٥) محمد حسين الطباطبائي: القرآن في الإسلام (ص ٨٦)، مؤسسة الإعلام الإسلامي - طهران (١٤٠٤هـ).

بعدهم من التابعين [(١)]. فيستشهدون بمواقف كثيرة أعلن فيها الصحابة عن عدم معرفتهم بعض الآيات كما فعل عمر ﷺ، فلم يعرف الأبّ في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]، كما روى الحاكم في المستدرك عن أنس، وكذلك يروون عن ابن عباس ترجمان القرآن أنه أخذ تفسيره عن علي، ومع ذلك كان يجهل تفسير بعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١] وأنه قال: كنت لا أدري ما (فاطر السماوات) حتى أتاني أعرابيان - اختلفا على بئر - فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها » [(٢)].

وليس المجال هنا مجال تفصيل في التفسير، لكن يمكن القول: إننا لو جمعنا ما نقله الشيعة في كتبهم التفسيرية كلها لم نجد عندهم زيادة على ما نقله أهل السنة في تفسيرهم؛ اللّهم إلا ما يسندون به نظرية الإمامة وما يحيكون حولها من روايات تدعم موقفهم العقدي وتحارب منكري الإمامة. أما فيما عدا ذلك فلن نجد أي جديد.

بل ربما لجأ مفسرو الشيعة إلى كتب تفسير أهل السنة مستفيدين مما فيها من آثار عن الصحابة الكرام. قال إحسان أمين: « وقد عددنا في فهارس تفسير (الميزان) [للطباطبائي الشيعي] الموارد التي رجع فيها إلى الدر المنثور للسيوطي فكانت تزيد عن ثمانمائة مورد، كما أورد فيه آراء معظم الصحابة والتابعين من المفسرين كعبد اللّه بن عباس (أكثر من ٥٠٠ مورد) وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب (١٠٩ موردًا) وعبد اللّه بن مسعود (١٢٦ موردًا) وآخرين كثيرين ممن وردت عنهم الآثار » [(٣)].

وإن كانت هذه الاستفادة لم تسلم من نقد بعض كتاب الشيعة، ومثال ذلك أن سالم الصفار عندما وجد الفيض الكاشاني (محسن بن محمد المرتضى ت ١٠٩١هـ) يعتمد على تفسير البيضاوي (السني) في تفسيره (الصافي) قال متألمًا: « ومن المؤسف له حقًّا أن هناك بعض علمائنا مَنْ أغرتهم أسماء بعض المفسرين وكتب أهل السنة الرنانة

---

(١) انظر: د. عبد العزيز حاجي: تفسير آيات العقيدة: استعراض شامل لمذاهب المفسرين في العقيدة (٨٤٨/٢) دار الصابوني (١٤٢٤هـ / ١٤٠٣)، وهي في الأصل رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم - القاهرة.

(٢) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٨٤ - ٨٨).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ١٢٧، ١٢٨). ومع ذلك يعدّ ما فعله محمد حسين الطباطبائي - وهو من المعاصرين - فلتة إذا ما قورن بالكتب التفسيرية الشيعية المتقدمة. انظر حول تفاسير الشيعة المعتدلين منهم والمتطرفين: د. علي أحمد السالوس: مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (٢٥٥/٤). دار التقوى مصر (ط٤) ، (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م).

وراحوا يستفيدون منها والاعتماد عليها! »[١]. ويزداد الأمر خطورة عندما يقترن هذا الاقتباس من أهل السنة بمحاولة التجديد والنقد الداخلي للتشيع، كما حصل للسيد محمد حسين فضل الله في تفسيره (من وحي القرآن) « وقد حاول تذويب بعض الفوارق بين المسلمين - حسب منهجه - بتأثير إعجابي بمفسري أهل السنة مما أثار النقود بل الحملات عليه عندما لمسوا منه - حسب ما فهموه - أنه على حساب المساس بمنزلة علي وأهل البيت »[٢].

ويعترف كتّاب الشيعة بوجود الوضع في بعض كتب التفسير الشيعي، يقول إحسان أمين: « ورغم سعي كثير من مفسري الشيعة للحذر من الأحاديث الموضوعة وتأكيدهم على مبدأ عملهم في التفسير وردّهم الكثير من الموضوعات، إلا أنه مع ذلك فقد تسرّبت بعض هذه الموضوعات إلى كتبهم خصوصًا كتب التفسير بالمأثور، ولا سيما التي تتبع نهج جمع الأحاديث ودرجها دون دراسة وتحقيق؛ فقد كان السبب الرئيس وراء ذلك هو الأخذ أساسًا من مصادر متهمة بالوضع نذكر منها:

- التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) إذ إن راوييه مجهولان، والراوي الثالث لم تثبت وثاقته... والتفسير موضوع عن سهل الديباجي عن أبيه بأحاديث من هذه المناكير... ومع ذلك فقد أخذت روايات هذا التفسير طريقها إلى الكثير من المجامع التفسيرية بالمأثور كتفسير (البرهان) و (نور الثقلين) و (الصافي)، وغيرها..

- كتاب (مشارق الأنوار في أسرار أمير المؤمنين) للشيخ رجب البرسي، وهو متهم بالغلو عند علماء الشيعة، وكتابه فاقد للاعتبار العلمي... وكتابه مشحون بالغلو والأخبار المكذوبة... ومع ذلك فقد كان من مصادر البحراني في تفسيره (البرهان).

- كتاب (مصباح الشريعة) المنسوب إلى الإمام الصادق، ولم تثبت نسبته ومؤلفه مجهول... رجع إليه البحراني أيضًا.

- كتاب (الاحتجاج) للطبرسي[٣] الذي يرجع إليه البحراني وأكثر منه الحويزي

---

(١) سالم الصفار: نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن (ص ٣٧٩) دار الهادي بيروت (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

(٢) المرجع السابق (ص ٤١٩).

(٣) مما يشكل طباعة هذه الكتب طبعات جديدة ومحققة على الدوام، مما يجعلها تبقى في ضمير عوام الشيعة، فالاحتجاج مطبوع طبعة فاخرة في مجلدين، منشورات الشريف الرضي (١٣٨٠هـ)، منسوبًا لأبي المنصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي من علماء القرن السادس. والاحتجاج مرجع من مراجع بحار الأنوار، =

في تفسيره (نور الثقلين) والكتاب لا يعلم مؤلفه بدقة،... وهو لا يعدو مراسيل لا إسناد لها، أكثرها تلفيقات من روايات نقلية واحتجاجات عقلية....

- وهناك مصادر أخرى مقطوعة السند وبعضها لا اعتبار لها، كما أورد بعض المفسرين طائفة من الروايات الضعيفة من حيث السند والمضطربة من حيث المتن، ومع الأسف لم تجر عملية تصفية في الأصول والتفسير في روايات أهل البيت (ع) كما جرى في حقل الفقه » [١].

ونحن نشكر إحسان الأمين على جرأته؛ لأنه بيّن كثرة الموضوعات في كتب التفسير عند الشيعة، ولكن الملاحظ أنه نسب ذلك إلى بعض الغلاة، وهذا بعض الحقيقة، ولكن الحقيقة أن الموضوعات متجذّرة في معظم كتب التفسير والحديث الشيعية؛ إذ هناك روايات تفسيرية موجودة في كتب معتبرة، بل هي أصول كتب عقائد الإمامية؛ كالكافي للكليني محدث الشيعة الأشهر، ومع ذلك فيها من الغلو والتطرف ما فيها:

فقد استخدمت روايات الاثني عشرية تأويل آيات القرآن لإثبات مكانة الأئمة وفضلهم، ووصلوا في ذلك إلى حد التكلف الشديد، ولعل فعلهم هذا فسح المجال بعد ذلك للباطنية للإسراف في التأويل الباطني. ومن أمثلة هذه التأويلات البعيدة عن أصول التفسير القرآني ما يأتي:

- فقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي الأئمة. وفي قوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]: رسول الله ﷺ المنذر، وعليٌّ الهادي [٢]. مع أن الله تعالى قال عن رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وجاء بالهادي أثناء الحديث عن الأنبياء عليهم السلام، فكل نبي هو هادٍ لأمّته.

- عن صالح بن سهلٍ الهمدانيّ قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ [النور: ٣٥]: فاطمة عليها السلام. ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾: الحسن. ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾: الحسين. ﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾: فاطمة كوكبٌ

= وينقل عنه كثيرًا مثلًا (٢٢١/١٧)، وكثير من أحاديث الاحتجاج مبثوثة في كتاب بحار الأنوار، وهو من أشهر وأكبر كتب الحديث الشيعية!!.

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) أصول الكافي (٢٤٧/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة عليهم السلام هم الهداة.

درّيٌّ بين نساء أهل الدّنيا. ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾: إبراهيم عليه السلام. ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾: لا يهوديّةٍ ولا نصرانيّةٍ. ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ ﴾: يكاد العلم ينفجر بها. ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾: إمامٌ منها بعد إمامٍ. ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾: يهدي اللّه للأئمّة من يشاء... ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا ﴾ [النور: ٤٠]: إمامًا من ولد فاطمة عليها السلام. ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠]: إمامٍ يوم القيامة. و... في قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ [الحديد: ١٢]: أئمّة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وبأيمانهم حتّى ينزلوهم منازل أهل الجنّة [(١)].

– عن الحسن بن محبوبٍ قال: سألت أبا الحسن الرّضا عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٣] قال: « إنّما عنى بذلك الأئمّة عليهم السلام بهم عقد اللّه عز وجل أيمانكم » [(٢)].

– عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦] قال: « يعني لو استقاموا على ولاية عليّ بن أبي طالبٍ أمير المؤمنين والأوصياء من ولده عليهم السلام وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]: يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطّريقة هي الإيمان بولاية عليٍّ والأوصياء » [(٣)].

– عن موسى بن جعفرٍ في قول اللّه عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] قال: « إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمامٍ جديدٍ » [(٤)].

– عن الحسين بن نعيم الصّحّاف قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل: ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢] فقال: « عرف اللّه إيمانهم بولايتنا وكفرهم بها يوم أخذ عليهم الميثاق في صلب آدم عليه السلام وهم ذرٌّ » [(٥)].

– عن جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧] قال: أمير المؤمنين عليه السلام والأئمّة، ﴿ وَأُخَرُ

---

(١) أصول الكافي (٢٥١/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة نور اللّه عز وجل. حكم محقق أصول الكافي على هذه الرواية بالضعف، دون بيان سببه.

(٢) أصول الكافي (٢٧٣/١) كتاب الحجة، باب أنّ القرآن يهدي للإمام.

(٣) أصول الكافي (٢٧٧/١) كتاب الحجة، باب أنّ الطّريقة الّتي حثّ على الاستقامة عليها ولاية عليٍّ.

(٤) أصول الكافي (٣٩٩/١) كتاب الحجة، باب في الغيبة.

(٥) أصول الكافي (٤٧٩/١) كتاب الحجة، باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية، والحديث حسن. وارجع لهذا الباب ففيه عدة أحاديث تؤول القرآن بغير ما ورد لإثبات الولاية.

مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧] قال: فلانٌ وفلانٌ، ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧]: أصحابهم وأهل ولايتهم، ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧]: أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام » [١].

وهكذا جاءت هذه الرواية الضالة لأعظم آية في باب التفريق بين المحكم والمتشابه من آيات كتاب اللّه تعالى، لتحرفها عن معناها ومقصدها، فيحقّ على واضعها صفة الزيغ الذي حذّرت منه الآية الكريمة.

- وذكرت الرواية عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: ١، ٢]... فقال: « هي في أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه، كان أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه يقول: ما للّه عز وجل آيةٌ هي أكبر منّي، ولا للّه من نبأٍ أعظم منّي » [٢].

يقول د. الذهبي: « وما ذكره إبراهيم بن فرات الكوفي في تفسيره لأول سورة النبأ قول ينبو عنه سياق السورة، ويبطله أن للّه عز وجل أنباء وآيات أعظم من علي رضي الله عنه » [٣].

- عن أبي جعفر عليه السلام قال: « نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمّدٍ صلى الله عليه وسلم هكذا: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ [البقرة: ٥٨] آل محمّدٍ حقّهم ﴿ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ [البقرة: ٥٨] آل محمّدٍ حقّهم ﴿ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨] » [٤].

ولعل خير ما يردّ على الكليني في تفسيراته وتأويلاته الغريبة هذه هو الرجوع للنصوص ذاتها والملاحظة لسباقها وسياقها؛ فالآية السابقة لهذه الآية تتحدث عن نعم اللّه تعالى على بني إسرائيل في تظليل الغمام والمن والسلوى.. والآية وما بعدها تتحدث عن قصة دخول القرية وجحود بني إسرائيل، وما بعدها عن استسقاء بني إسرائيل [٥]،

---

(١) الكليني: أصول الكافي (١/٤٨٢) كتاب الحجة باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية.

(٢) أصول الكافي (١/٢٦٤)، كتاب الحجة، باب أن الآيات التي ذكرها اللّه عز وجل في كتابه هم الأئمة.

(٣) بدع التفسير في الماضي والحاضر، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، المملكة الأردنية الهاشمية (ص ٦٠).

(٤) الكليني: أصول الكافي (١/٤٩٢) كتاب الحجة، باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية.

(٥) قال تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ [البقرة: ٥٧ - ٦٠].

ولم تتعرض الآيات لمسألة الإمامة من قريب ولا بعيد، فكيف تنزع الآية من سياقها وسباقها، وتفسر بغير معناها؟

- وإذا كان الشيعة كالطبرسي يستدلون على العصمة بقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ فإن سياق الآيات وسبقاها يخاطب أمهات المؤمنين رضوان اللّٰه عليهن، وادعاء العصمة للأئمة بأنهم المخاطبون بآية التطهير، دون أزواج النبي على أقل تقدير « مدفوع بأن صدر الآية [(١)] وما بعدها في أزواج النبي ﷺ ». وإخراج أمهات المؤمنين رضوان اللّٰه عليهن من مفهوم الآية « تحكّمٌ ظاهر دفعه إليه الهوى، وحمله عليه التعصب المذهبي » [(٢)].

الشيعة والتأويل الباطني:

تؤكد روايات الشيعة أن للقرآن ظهرًا وبطنًا، حتى يروون عن النبي ﷺ في حقّ القرآن الكريم: « ظاهره أنيق وباطنه عميق » و « للقرآن بطن وظهر ولبطنه بطن إلى سبعة بطون » [(٣)]. ولهذا ذكر المجلسي صاحب بحار الأنوار عنوانًا يقول: « باب أن للقرآن ظهرًا وبطنًا » [(٤)]؛ وهذا البطن موكول للأئمة يشرحونه ويبينونه.

وهكذا فتح تقسيم القرآن إلى ظاهر وباطن المجال واسعًا للتأويل الباطني على يد الغلاة أولًا ثم على أيدي الفرق التي انفصلت عن فكر الشيعة الأوائل كالإسماعيلية. وحسبنا دليلًا على إيغال هذه الفرقة في عالم السر والباطن ما صورها به أحد أتباعها المعاصرين في قوله: « الإسماعيلية كنز مقفل، يقوم على حراسته دعاة احتجبوا بالتقية، وحجج استتروا بالستر الكثيف الذي لم تصل إليه أيدي الساعين والراغبين » [(٥)]. وقد أفاض الإمام الغزالي رحمه الله في الرد على هؤلاء الباطنيين في كتابه (فضائح الباطنية) [(٦)].

ولم تسلم كتب التفسير الشيعية من تسربات وترسّبات بعض أفكار هؤلاء الغلاة،

---

(١) الآية بتمامها: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) بدع التفسير في الماضي والحاضر (ص ٦١).

(٣) انظر: تفسير الصافي (١٥/١)، بحار الأنوار (١١٧/١).

(٤) انظر: بحار الأنوار (٧٨/٩٢ - ١٠٦).

(٥) عارف تامر: مقدمة كتاب أربع رسائل إسماعيلية، رسالة الدستور ودعوة المؤمنين للحضور (ص ٨).

(٦) انظر: أبا حامد الغزالي: فضائح الباطنية (ص ٥٥ - ٥٨).

فقد « قامت مصادرهم في التفسير - غالبًا - على هذا المنهج الباطني في التأويل الذي استقته من أبي الخطاب وجابر الجعفي والمغيرة بن سعيد وغيرهم من الغلاة » [١]. وإن كانت هناك محاولات اثني عشرية مشكورة في محاربة تأويلات الباطنية التي تؤكد إلهية الأئمة. يقول المازندراني: « فتح أمير المؤمنين عليه السلام باب التأويل، ولكن التأويل شيء يختص به الراسخون في العلم، وليس لكل أحد أن يؤول كل شيء بهواه كما فعله الباطنية، بل لكل شيء حد وقاعدة ومورد ومصدر »، وقد ذكر الشيعة أن علماءهم ردوا قديمًا على الباطنية، كفضل بن شاذان (ت ٢٦٠هـ)، وهو صاحب الإمامين الهادي والعسكري، ولمحيي الدين الحسين بن المظفر بن علي الحمداني - قرأ على أبي جعفر الطوسي معظم كتبه - كتاب (هتك أستار الباطنية) [٢]، كما عدّ الاثنا عشرية الإسماعيلية من الباطنية [٣].

ولكن علماء الاثني عشرية لم يستطيعوا أن يقفوا الموقف نفسه من التأويلات الباطنية في حق الأئمة التي تحشى بها بعض كتب التفسير الاثني عشرية. وعلى سبيل المثال:

ذكر العياشي في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: « الصلوات التي يجب المحافظة عليها هم: رسول اللّه وعلي وفاطمة وابناهما ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: طائعين للأئمة » [٤]. فهل أبقى تأويل الصلاة المفروضة بطاعة الأئمة للباطنية شيئًا يضيفونه أو جهدًا يبذلونه؟.

وإن كانت هناك كتب تفسيرية أخرى نحت منحًى آخر بعيدًا نسبيًا عن فكر الغلاة، بمقدار اقترابها نسبيًا من كتب التفسير عند أهل السنة، ويلاحظ أنه في القرن الخامس بدأ اتجاه التفسير عندهم يحاول التخلص من تلك النزعة المغرقة في التأويل الباطني؛ حيث بدأ شيخ الطائفة عندهم أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠هـ)

---

(١) د. ناصر بن عبد اللّه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٤١/١، ٢٤٢). وانظر: منهاج السنة (٢٤٦/٣)، د. علي أحمد السالوس: مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع الجزء الثاني الخاص بعلم التفسير.

(٢) انظر: بحار الأنوار (٢١٩/١٠٢)، وأيضًا (٢٥٦/٤٧).

(٣) محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٩٣/٤).

(٤) تفسير العياشي (١٢٧/١، ١٢٨)، لأبي النظر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي (ت ٣٢٠)، ذكر ابن النديم في الفهرست أنه من فقهاء الإمامية، أوحد دهره وزمانه في غزارة العلم!.

يؤلف لهم كتابًا في تفسير القرآن يستضيء في تأليفه بأقوال أهل السنة، ويأخذ من مصادرهم في التفسير، ويحاول فيه أن يتخلص أو يخفف من ذلك الغلو الظاهر في تفسير القمي والعياشي وفي أصول الكافي وغيرها، وهو وإن كان يدافع عن أصول طائفته ويقرر مبادئهم، إلا أنه لا يهبط ذلك الهبوط الذي نزل إليه القمي ومن تأثر به. ومثل الطوسي في هذا النهج الفضل بن الحسن الطبرسي في (مجمع البيان) [١].

ولذلك ينبغي لمن يقرأ كتب التفسير الشيعية أن يميز بين منهجين، منهج أقرب للاعتدال، ومنهج أقرب للغلو؛ فالكتب القديمة كتفسير القمي والعياشي.. قامت على منهج تأويل باطني مغال في الأئمة، بينما حاول من جاء بعدهم التخفيف من حدة الغلو.

وإذا كان كتّاب أهل السنة - بدافع الإنصاف العلمي - يحاولون التفريق بين المنهجين (الغالي والأقرب إلى الاعتدال) عند مفسري الشيعة رغم الاختلاف في المذهب، فإن من العجب أن النوري الطبرسي صاحب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) يأبى إلا أن ينسب جميع مفسري طائفته إلى الغلو، فيؤكد أن كتب التفسير المعتدلة لدى الشيعة إنما خرجت مخرج التقية للعامة فقط [٢]!!. وما أظن أهل طائفته اليوم يوافقونه على ما زعم.

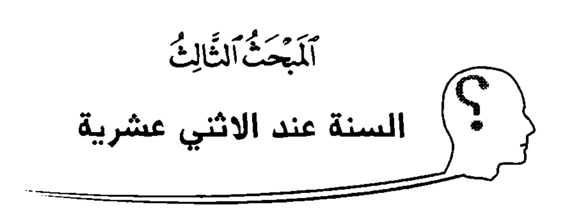
* * *

---

(١) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٤١، ٢٤٢). وانظر: منهاج السنن (٣/٢٤٦).

(٢) فصل الخطاب (ص ٣٥). ط إيران (١٣٩٨هـ).

المبحث الثالث



السنة عند الاثني عشرية

إن جميع المسلمين متفقون على حجية السنة النبوية، سوى طوائف شاذة منحرفة هم على التحقيق خارجون عن مسمى الإسلام، وهذا الإجماع على حجية السنة ينسحب على الفرق الكلامية الإسلامية المشهورة كالمعتزلة والأشاعرة والاثني عشرية [(١)].

ويكفي المسلمين دليلًا على حجية السنّة ووجوب اتباع أوامر الرسول ﷺ قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

هذا من حيث المبدأ، أما من حيث التطبيق فالأمر مختلف؛ إذ « ترى الشيعة أن السنة هي كل ما يصدر عن النبي وأهل بيته المعصومين من قول أو فعل أو تقرير، وانطلاقًا من ذلك فكل حديث نُقل أو رُوي من غير طريقهم ولم يكن إماميًا يسقط من الاعتبار » [(٢)].

« معنى ذلك أن أحاديث أهل السنة والجماعة أحاديث موضوعة مردودة من وجهة النظر الشيعية » [(٣)]. إلا إن أُتي مثلها عن أئمة أهل البيت. فلا اعتبار لا لصحيح البخاري ولا لصحيح مسلم، ولا للسنن الأربعة وباقي كتب حديث أهل السنة، وإن رأينا في بعض كتب الاثني عشرية استشهادًا بكتب أهل السنة؛ فإن ذلك من باب إسكات الخصوم من كلامهم على مبدأ (من فمك أدينك)، وغالبًا ما يكون ذلك بمنهج انتقائي؛ إذ يأتون من الأحاديث ما يرضيهم ويعجبهم ويدعم آراءهم، ويتناسون الأحاديث التي تخالفهم في العقيدة. وعلى سبيل المثال: كتاب (عقائد الإمامية برواية الصحاح الستة)

---

(١) حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد قوشتي عبد الرحيم، ماجستير، دار العلوم (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي (ص ٩٨)، وانظر: د. محمد محمد أبو شهبة: دفاع عن السنة (ص ١٣)، د. رؤوف شلبي: السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين (ص ٣٧)، وغيرهما.

(٢) د. خالد علي عباس القط: أثر الأحاديث الموضوعة في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية، رسالة دكتوراه، كلية البنات، قسم الدراسات الفلسفية (ص ٣٣)، إشراف الدكتورة كوكب محمد عامر (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٣).

يجمع مؤلفه من النصوص ما يخدم هدفه، ويهمل الأخرى التي لو جمعها مع تلك ثبت ضد ما أراد [١].

« والحقيقة أن الشيعة تخصصوا تخصصًا واضحًا في التقاط النصوص التي تؤيد نزعاتهم، ومع أن بعضهم يعرف درجة الحديث من الضعف في متنه والجرح والقدح في رجاله إلا أنه يصر دائمًا على نقل الضعيف والموضوع والمكذوب على رسول الله ﷺ بدعوى حب علي وحب آل البيت » [٢].

و « على الرغم من التشابه بين تصور أهل السنة لعلوم الحديث وتصور الشيعة لها، إلا أن الأحاديث المروية عن طريق أهل السنة هي أحاديث مردودة موضوعة لدى الشيعة الإمامية، وكذلك الأحاديث المروية عن طريق الشيعة والمخالفة لعقائد الإسلام والسنة النبوية الصحيحة والعقل الصريح هي أحاديث مردودة لدى أهل السنة والجماعة، وانطلاقًا من ذلك تدرك أن هناك اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف، يصعب التقريب أو التوفيق بينهما، لاختلافهما في أصول العقائد الدينية » [٣].

و « لو أن أهل السنة والشيعة اتفقوا على وضع قواعد في مصطلح الحديث يكون التحاكم فيها عند الاختلاف في مفردات الروايات، ثم اعتمدوا جميعًا على ما صح منها، لو أنهم فعلوا ذلك لكان هناك أمل في التقارب والتفاهم في أمهات المسائل المختلف فيها بينهم؛ أما والخلاف لا يزال قائمًا في القواعد والأصول على أشده؛ فهيهات هيهات أن يمكن التقارب والتفاهم معهم، بل كل محاولة في سبيل ذلك فاشلة » [٤].

وإذا كان أهل السنة يطلقون مصطلح السنة على قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، ولا يرتبطون بأقوال غيره من الصحابة والتابعين إلا بمقدار ما يبين قول النبي ﷺ ويشرحه أو يبني عليه فهمًا، وإذا كانوا يرون عليًا رضي الله عنه وباقي آل البيت ممن عاصروا النبي ﷺ كالعباس وابنه رضي الله عنهما في عداد أشهر الصحابة الكرام، ويرون أبناءهم من التابعين كباقي التابعين من حيث الاستدلال بأقوالهم مع حفظ مكانتهم الشريفة باعتبارهم آل بيت

(١) انظر: محمد علي الحلو: عقائد الإمامية برواية الصحاح الستة، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت (ط١)، (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).

(٢) د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٤٩١).

(٣) د. خالد علي عباس القط: أثر الأحاديث الموضوعة في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية، خاتمة البحث (ص ٣٦٩).

(٤) الشيخ ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/٢٩٩).

النبي ﷺ، ولكن لا يرون ذلك ميزة في مسألة الحجية لأقوالهم - إذا كان أهل السنة كذلك؛ فإن الشيعة لهم رأي آخر؛ إذ ترى الشيعة أنه لا فرق بين حديث النبي ﷺ وحديث أي واحد من الأئمة الاثني عشر (المعصومين)، فقد رووا عن جعفر الصادق أنه قال: « حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله عز وجل »[١].

وعن أبي بصيرٍ قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « الحديث أسمعه منك أرويه عن أبيك أو أسمعه من أبيك أرويه عنك؟ قال: سواءٌ، إلا أنّك ترويه عن أبي أحبّ إليّ. وقال أبو عبد الله عليه السلام لجميلٍ: ما سمعت منّي فاروه عن أبي »[٢].

قال المازندراني: « إن حديث كل واحد من الأئمة الطاهرين قول الله عز وجل، ولا اختلاف في أقوالهم كما لا اختلاف في قوله تعالى »[٣].

وإذا عرفنا أن نهضة علوم الشيعة قد جاءت على يد الإمام جعفر وتلامذته؛ فإنا نلاحظ كثرة المرويات عن جعفر الصادق (أبي عبد الله) في كتب الشيعة، لدرجة أننا إذا فحصنا أقوال أئمة أهل البيت - والصادق على وجه الخصوص - في بعض المسائل وجدناها أغزر وأكثر من الأحاديث التي يرويها الاثنا عشرية عن النبي ﷺ، وقد لاحظت هذا باستقرائي لكتاب أصول الكافي، وكذلك فقد لاحظ الأستاذ الدكتور السنهوتي - من قبلُ - كثرة الأقوال المنقولة عن آل البيت في مجال الصفات الإلهية، فقال: « تمثل أقوال الأئمة من آل البيت المصدر الذي يستقي منه علماء الاثني عشرية مذهبهم في التوحيد بين ذات الله تعالى وصفاته »[٤].

وكما أنه لا حجية لنقول الصحابة والتابعين في تفسير القرآن عند الاثني عشرية؛ فلا حاجة عند الشيعة أيضًا لجهود الصحابة - وبالأخص من خالف عليًا رضي الله عنه في مواقفه السياسية - في حفظ السنة؛ إذ السنة محفوظة عند الأئمة، كما أن القرآن محفوظ لديهم بوحي يأتيهم فيسمعون صوته ولا يرونه. أما « قول الصحابي كصحابي فيفقد

---

(١) أصول الكافي (١/٤‏/١٠٤) كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المازندراني: شرح أصول الكافي (٢/٢٧٢).

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، دكتوراه، كلية دار العلوم (ص ٩٤).

اعتباره عند الشيعة إلا إذا كان الصحابة من الأئمة المعصومين كالإمام علي الذي أقيمت أدلة ساطعة على حجية قوله » (١).

وعلى الرغم من النصوص الواضحة في رضا الله تعالى عن الصحابة وتوثيقهم؛ فإن الشيعة لا ترى في صحبة النبي ﷺ أي ميزة، فلا تكسبهم عدالة ولا حصانة، في حين نرى أن مجرد معرفة رجل لأحد الأئمة تجعله مقدسًا رغم أخطائه الكثيرة؛ كهشام ابن الحكم وزرارة بن أعين...، قال العاملي عن الصحابة: « وحكمهم عندنا في العدالة حكم غيرهم » (٢). قال المامقاني: « فمجرد كون الرجل صحابيًّا لا يدل على عدالته، بل لا بد من إحرازها. نعم ثبوت كونه صحابيًّا مغنٍ عن الفحص عن إسلامه إلا أن يكون ممن ارتد بعد وفاة النبي ﷺ » (٣). في حين يثبتون لمن رأى الغائب المنتظر عندهم هالة من الاحترام والقداسة، فأيهما أعظم رؤية النبي الأكرم ﷺ أم رؤية المهدي المنتظر؟ فقد قالوا عن أحد رجالهم: « تشرّف برؤية الحجة المنتظر... فإنا نستشهد بذلك على كون مرتبته أعلى من مرتبة العدالة؛ ضرورة أنه لا يحصل ذلك إلا بتصفية النفس وتحلية القلب من كل رذيلة، وإلى هذا أشار مولانا العسكري عليه السلام بقوله لمن رأى الحجة: لولا كرامتك على الله ما أريتك ولدي هذا » (٤)!!.

والمقياس الذي قاسوا به الرجال عمومًا والصحابة خصوصًا هو الموقف من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، قال عبد الحسين شرف الدين: « فالصحابة كغيرهم من الرجال فيهم العدول، وفيهم أهل الجرائم من المنافقين، وفيهم مجهول الحال. فنحن نحتج بعدولهم ونتولاهم في الدنيا والآخرة، أما البغاة على الوصي وأخي النبي وسائر أهل الجرائم والعظائم، كابن هند وابن النابغة وابن الزرقاء وابن عقبة وابن أرطأة وأمثالهم؛ فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم » (٥). « لأن النبي ﷺ جعل حب علي من الإيمان وبغضه من علامات النفاق؛ لذا فهم [أي الشيعة] لا يلتزمون برواية من قاتل الإمام عليًّا أو الأئمة

---

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط١)، (١٤٢٢) - قم (ص ٣٢).

(٢) العاملي: الرعاية في علم الدراية (ص ٤٤٣).

(٣) المامقاني (ت ١٣٥١هـ): تلخيص مقباس الهداية (ص ٢٠٧)، (ط١) جامعة الإمام الصادق طهران، تحقيق علي أكبر الغفاري (ط١). وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ١٢٠).

(٤) تنقيح المقال (٢١١/١)، وانظر د. فرماوي: الشيعة والصحابة (ص ٢٥).

(٥) أجوبة مسائل جار الله (ص ١٥)، (ط٢) طبعة الفقيه: قم.

من أهل البيت (ع) ومن عاداهم صحابيًا كان أو غير صحابي » [(١)].

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

كتب الحديث عند الاثني عشرية

يرى الشيعة أن « أول من دوَّن الحديث في مدرسة أهل البيت هو الإمام علي عليه السلام حيث دوّن ما أملاه عليه رسول اللَّه ﷺ في كتب منها (الجامعة) التي كان طولها سبعين ذراعًا في عرض الأديم... ثم توارث الأئمة من ولده كتبه، ورووا منها عن رسول اللَّه ﷺ » [(٢)].

ويرون أن « أول من دوّن الحديث من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بعده أبو رافع، وله كتاب (السنن والأحكام والقضايا) [(٣)] وابنه كان كاتبًا لأمير المؤمنين علي عليه السلام وجمع كتابًا في فنون الفقه والوضوء والصلاة وسائر الأبواب » [(٤)].

وهناك خلاف في الزمن الذي كتبت فيه أصول كتب الحديث الشيعية: فالقول الأول أنها كتبت من زمن ممتد بين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وعهد الإمام العسكري، والقول الثاني

---

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ١٢٣). نعم جعل النبي ﷺ حب علي من الإيمان، ولكن كذلك جعل حب الأنصار من الإيمان في الروايات نفسها، انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، (باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنه من الإيمان)، وسنن الترمذي: (باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان وبغضهم من النفاق)، وأهل السنة جمعوا بين الخيرين.

(٢) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٣٦، ٣٣٧).

(٣) أبو رافع القبطي مولى النبي ﷺ، واسمه أسلم وقيل: إبراهيم، كان للعباس، ووهبه للنبي ﷺ، فلما أسلم العباس أعتقه النبي ﷺ، أسلم قديمًا، وهاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد مع النبي ﷺ، ولزم بعده أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وشهد معه حروبه، وكان صاحب بيت المال في الكوفة، وابناه عبيد اللَّه وعلي كاتبا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. انظر: رجال النجاشي (ص ٤)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم (١٤١٦). وقد روى أهل السنة عن أبي رافع رضي الله عنه، وروى هو عن ابن مسعود رضي الله عنه. وله في البخاري حديث واحد، وثلاثة أحاديث في صحيح مسلم، وفي مسند أحمد سبعة عشر حديثًا، توفي قبل عام (٣٦هـ)، قيل: في آخر خلافة عثمان، وقيل: في خلافة علي، ولعله الراجح. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات (٩/٣١)، محمد جعفر الطبسي: رجال الشيعة في أسانيد السنة (ص ١٣)، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم (١٤٢٠هـ).

(٤) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة، تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط١)، (١٤٢٢) قم (ص ٤٥) عن السيد حسن الصدر تأسيس علوم الشيعة (ص ٢٨٠، ٢٨١).

يرى أنها كتبت في زمن الإمام جعفر الصادق، صاحب النهضة العلمية للفكر الاثني عشري، فهذه الأصول هي: « ما جادت به أنامل أصحاب الإمام الصادق وتلامذته » [(١)].

وقد كثرت أصول الحديث الشيعية - ووصلت إلى أربعمائة أصل - إلا أنها في النهاية استقرت على ثمانية كتب. وعمدتها الكتب الأصول الأربعة، وقد أُلّفت في القرن الرابع والخامس الهجري، وهذه الكتب الأربعة هي: (الكافي) للكليني، (من لا يحضره الفقيه) للصدوق (ت ٣٨١هـ)، و (التهذيب) و (الاستبصار) للطوسي (ت ٤٦٠هـ). في حين جاءت الكتب الأخرى الرديفة في عصور متأخرة (القرن الثاني عشر الهجري وما بعده).

وهناك خلاف بين الأخباريين والأصوليين - وهما جناحا الاثني عشرية - في قطعية صدور هذه الأحاديث عن الأئمة، فمال الأخباريون إلى قطعية صدور روايات الكتب الأربعة، وخالفهم في ذلك الأصوليون [(٢)].

وقد أثبت السيد الخوئي في معجم رجال الحديث « أن الشيخ الطوسي والصدوق وشيخه لم يكونوا يرون صحة جميع ما جاء في الكافي من حديث، وأن الشيخ الطوسي لم يكن يرى صحة جميع ما جاء في (من لا يحضره الفقيه) من حديث، والأهم من ذلك أن الكليني نفسه لم يكن يرى جميع ما ذكره من حديث في كتابه الكافي صحيحًا، وكذلك الصدوق لم يكن يرى صحة جميع أحاديث (من لا يحضره الفقيه)، والشيخ الطوسي لم يكن يرى صحة جميع ما ذكر من حديث في (التهذيب) و (الاستبصار)، واستدل فيما أفاد بأدلة قوية » [(٣)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض علماء الشيعة كوالد الشيخ البهائي... ذكروا أصلًا خامسًا وهو كتاب (مدينة العلم) للشيخ الصدوق [ت ٣٨١هـ] والذي يبلغ ضعف كتاب (من لا يحضره الفقيه)؛ ولذا عبروا عنها بالأصول الخمسة، بيد أن الكتاب المذكور عفى عليه الدهر « على أثر إحراق كتب أتباع أهل البيت ومكتباتهم ومطاردتهم

---

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٨٩). وقد ذكر خلافًا في عدد هذه الأصول بين (٤٠٠، و ٥٩) في الفهرست، و (٧) عند النجاشي، وأحصى صاحب الذريعة (١١٧)، وقال: وليس من السهل حسم الموقف في هذا الموضوع في الوقت الحاضر. انظر: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٩٠، ٩١).

(٢) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٩٣).

(٣) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣٤٩/٣، ٣٥٠). وانظر: الخوئي: معجم رجال الحديث (٢٢/١ - ٣٦). بيروت (١٤٠٣هـ).

وتشريدهم » [١]، على حدّ زعمهم - فلم يصل إلى العلامة المجلسي، ومن هنا ساد اصطلاح الكتب الحديثية الأربعة [٢].

أولاً: الكافي للكليني:

وهو أهم كتاب في عقائد الشيعة وأحكامهم على الإطلاق.

يرى الشيعة أن « أول كتاب في الحديث أُلّف في الإسلام كتاب علي، أملاه رسول الله ﷺ وخطه علي على صحيفة فيها حلال وحرام، وله كذلك صحيفة في الديات، كان يعلقها بجراب سيفه، وقد نقل البخاري منها، ثم دوّن أبو رافع القبطي الشيعي مولى الرسول ﷺ كتاب السنن والأحكام والقضايا، ثم صنف علماء الطبقات كتبًا كثيرة وأصولاً قيمة جمعها وهذبها ورتبها طائفة من ثقات المحدثين في مجموعات حديثية ربما كان أجلّها الكافي للكليني » [٣].

ويرى الشيعة أن ما كتبه الكليني وغيره مأخوذ من مجموعات حديثية هي الأصول، وأن عددها أربعمائة كتاب [٤]، ولكن لا ذكر لها ولا وجود. ولا ذكر لأصحابها اليوم « وكانت تلك الأصول بأجمعها موجودة في عصر الكليني » [٥].

وقد ألّف الكليني كتابه الكافي في عشرين سنة، وكان معاصرًا لوكلاء المهدي المنتظر وسفرائه الأربعة، وقال صاحب (الوسائل) « ما حاصله أن الأصول والكتب التي كانت منابع اطلاعات الكليني قطعية الاعتبار؛ لأن باب العلم واستعلام حال تلك الكتب بوسيلة سفراء القائم كان مفتوحًا عليه، لكونه معهم في بلد واحد بغداد... وأما عدة أحاديث الكافي فهي ستة عشر ألف ومائة وتسعون حديثًا، وزاد بعضهم على ذلك تسعة أحاديث » [٦].

---

(١) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٣٧).

(٢) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٩٣).

(٣) مقدمة الكافي بقلم: د.حسين علي محفوظ (ص ٣).

(٤) المصدر السابق، وراجع الوجيزة للشيخ البهائي (ص ١٨٣)، والذريعة (٢/٧٠ - ١٢٥)، (٦/٣٠١ - ٣٧٤)، مادة كتاب الحديث، وأعيان الشيعة (١/٢٦٢، ٢٦٣).

(٥) الشيخ محمد صالح الحائري: منهاج عملي للتقريب إلى إخواننا المسلمين (ص ٢٣٣). مطبوع ضمن كتاب الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب الإسلامية السبعة، وهو مجموعة مقالات لكبار علماء السنة والشيعة، جمعها ورتّبها: عبد الكريم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (ط٢)، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).

(٦) المرجع السابق (ص ٢٣٣).

ويعتقد الاثنا عشرية أن الكافي « عرض على القائم - صلوات اللَّه عليه، فاستحسنه، وقال: (كافٍ لشيعتنا) » [١].

ومع أن الكليني كان في زمن سفراء المهدي الأربعة الذين كانوا في عهد الغيبة الصغرى إلا أنه لم يرو عنهم أي حديث!

والكافي ينقسم إلى ثلاثة أقسام: (أصول الكافي) وهو جامع لعقائد الشيعة، و (فروع الكافي) يتكلم في فقه الاثني عشرية، و (الروضة) وفيها أخبار متفرقة وسير ونوادر. والذي يهمنا في دراسة عقائد الشيعة هو القسم الأول (أصول الكافي).

ويجدر بالذكر أن كتاب الكافي لم يوجد له ذكر عند علماء الملل من أهل السنة كالأشعري، مع أنه كان معاصرًا للكليني، أو ابن حزم، أو ابن تيمية، مع أن الكافي هو الأصل الأول المعتمد عند الاثني عشرية [٢]؛ مما يدعونا للمقارنة بين ما كتبه علماء الملل من أهل السنة عن الاثني عشرية وما هو مسطر في كتاب الكافي، ومما يجعل الباحثين في التشيع يزدادون قناعة بإمكانية إضافة ما هو جديد في هذا المضمار.

شروح الكافي وحواشيه:

وللكافي شروح كثيرة، وقد ذكر محقق أصول الكافي اثني عشر شرحًا له، ألفت في زمن الدولة الصفوية (٩٠٥ - ١١٤٨هـ)، إلا واحدًا تأخر للقرن الثالث عشر الهجري [٣]. وهذا يدلنا على ازدهار علوم الشيعة زمن الصفويين الذين حملوا المذهب الاثني عشري ونشروه.

وأهم هذه الشروح: شرح محمد بن صالح المازندراني المتوفى (١٠٨٠هـ)، وكذلك مرآة العقول في شرح أخبار الرسول للمجلسي، محمد باقر بن محمد تقي المتوفى سنة (١١١٠هـ)، وهما مطبوعان، كذلك الوافي للفيض الكاشاني المتوفى (١٠٩١هـ) مطبوع.

المقارنة بين الكافي والبخاري غير منطقية:

ويباهي بعض كتّاب الاثني عشرية بتفوق الكافي على البخاريِّ في عدد الأحاديث،

(١) مقدمة الكافي (ص ٢٠، ٢١)، وانظر: منتهى المقال (ص ٢٩٨)، وروضات الجنات (ص ٥٥٣).

(٢) د. ناصر بن عبد اللَّه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٣/١) دار الرضا للنشر والتوزيع، القاهرة (ط٣)، (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).

(٣) المتأخر هو (هدي العقول في شرح أحاديث الأصول) للقطيفي، فقد توفي مؤلفه في القرن الثالث عشر الهجري وهو مخطوط. انظر تقديم أصول الكافي (٢٤/١ - ٢٦)، وانظر الذريعة باب الكاف.

فيقول المولى محمد أمين الأسترابادي في الفوائد المدنية: « وقد سمعنا عن مشايخنا وعلمائنا أنه لم يصنف في الإسلام كتاب يوازيه أن يدانيه » (١). « فإن عدة أحاديث الكافي (١٦١٩٩) حديثًا، وجملة ما في كتاب البخاري الصحيح (٧٢٧٥) حديثًا، بالأحاديث المكررة » (٢). وهذه المباهاة بالكافي تنطلي على من لا علم له بمصطلح الحديث، ولو كان الأمر بالكم فإن مسند أحمد يزيد تعداده على ما في الكافي بأكثر من عشرة آلاف حديث؛ إذ يقترب تعداد ما فيه من أحاديث من (٢٨٠٠٠) حديث، وهو أقدم تأليفًا من الكافي.

ولعمر الحق ليست المسألة بالكثرة والقلة إنما العبرة بالدقة العلمية؛ فإن هذا الكافي باعتراف كثير من علماء الشيعة لم يقتصر على الحديث الصحيح، ففيه الضعيف وما دون الضعيف، بخلاف صحيح البخاري، الذي كان مؤلفه حافظًا متقنًا ثقة، اجتهد ألا يضم في كتابه الجامع إلا الحديث الصحيح، وكتاب الكافي ذاته يدلّك على قلة ضبط الكليني:

- ففيه شكٌ ونسيان أسماء بعض الرواة: وعلى سبيل المثال:

قال الكُلينيّ: « وحدّثني شيخٌ من أصحابنا **ذهب عنّي اسمه** أنّ أبا عمرٍو سأل عن أحمد بن إسحاق عن مثل هذا فأجاب بمثل هذا » (٣).

- كما أن فيه روايات ضعيفة مبهمة لم يعرف قائلها، حشاها الكُليني في الكافي، عبّر عنها بقوله: (عن عدة من أصحابنا)، وتتكرر هذه العبارة وأمثالها فيه كثيرًا، وعلى سبيل المثال: « عن سهل بن زياد عن علي بن أسباط عن إسماعيل بن يسار عن بعض من رواه قال: قال: « إذا أحزنك أمر فقل في آخر سجودك: يا جبرئيل يا محمد، يا جبرئيل يا محمد. تكرر ذلك - اكفياني ما أنا فيه فإنكما كافيان، واحفظاني بإذن الله فإنكما حافظان » (٤) هذه الرواية التي لا يعرف قائلها، كيف قبل الكُليني أن يحشو بها وبأمثالها كتابه؟.

- والملاحظ أيضًا من روايات الكافي أنها في معظمها معنعنة، مما يعني تأخر علوم

---

(١) مقدمة الكافي (ص ٢٢)، وانظر: مستدرك الوسائل (٣/٥٣٢).

(٢) مقدمة الكافي.

(٣) أصول الكافي (١/٣٨٩) كتاب الحجة، باب في تسمية من رآه [يعني الإمام الثاني عشر].

(٤) أصول الكافي (٢/٥٢٦) كتاب الدعاء، باب الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف قال محققه: هذا الحديث ضعيف من جهة، ومضمر من جهة أخرى باعتبار أنه لم يعرف القائل فيه!! أقول: وهو باطل من كل جهة؛ لأن فيه استغاثة بغير الله القريب السميع المجيب.

الحديث وطرق الرواية عند الكليني، فلا تستخدم مصطلحات المحدثين (حدثنا، أنبأنا، أخبرنا) بل الروايات كلها تساق سوقًا واحدًا بالعنعنة.

- وقد روى عمن عُرف تجريحهم: كزياد بن مروان القنديّ وكان من الواقفة [١] وليس من الاثني عشرية، وقصة جحوده لمال الإمام موسى بن جعفر مشهورة، وكان سبب وقفه مع سماعه النص من موسى بن جعفر على ابنه الرضا أنه « كان عنده سبعون ألف دينار من مال موسى فأنكر موته وإمامة الرضا لئلَّا يدفع المال إليه » [٢]. وكفى بهذا تجريحًا له وإسقاطًا لروايته. وقد قال المجلسي: « كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية، والواقفة » [٣].

وعلى كلٍّ فالأصوليون من الشيعة لا يرون كل ما في الكافي صحيحًا بخلاف المتقدمين والأخباريين المعاصرين، قال الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني: « وكلها صحيح باصطلاح القدماء، أي حجة معتبرة، وأما على اصطلاح المتأخرين - أي الأصوليين - في تنويع الأحاديث المنسوب إحداثه إلى ابن طاوس والعلامة الحلي، فالصحيح الاصطلاحي (٥٠٧٢) والموثقات (١١١٨)، والقوي (٣٠٢)، والمعتبر أي الصحيح القدمائي (٩٤٨٥) » [٤].

والحقيقة أن القول بأن كل ما في الكافي صحيح هو مكابرة وتناقض عظيم؛ فإن في الكافي رواة ليسوا على مذهب الاثني عشرية، ولا يمكن أن يصحح الاثني عشرية روايتهم؛ لأنهم اشترطوا في الصحيح أن يكون رواته على مذهب الاثني عشرية، وعلى سبيل المثال: علي بن أبي حمزة، قال عنه النجاشي: « روى عن أبي عبد الله عليه السلام، ثم وقف، وهو أحد عمد الواقفة » [٥].

وقد بشّرته إحدى الروايات بالنار: عن يونس قال: دخلت على الرضا عليه السلام فقال لي: « مات علي بن أبي حمزة؟ قلت: نعم، قال: قد دخل النار، قال: ففزعت من ذلك، قال:

---

(١) أصول الكافي (٣٦٩/١) كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا. « أحمد بن مهران عن محمّد بن عليّ عن زياد بن مروان القنديّ وكان من الواقفة قال: دخلت على أبي إبراهيم وعنده ابنه أبو الحسن عليه السلام فقال لي: يا زياد هذا ابني فلانٌ كتابه كتابي وكلامه كلامي ورسوله رسولي وما قال فالقول قوله ».

(٢) المازندراني: شرح أصول الكافي (١٦٨/٦).

(٣) بحار الأنوار (٣٤/٣٧).

(٤) محمد صالح الحائري المازندراني: منهاج عملي للتقريب (ص ٢٣٥).

(٥) رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠).

أما إنه سئل عن الإمام بعد موسى أبي فقال: لا أعرف إمامًا بعده، فقيل: لا؟ فضرب في قبره ضربة اشتعل قبره نارًا » [١].

ومع ذلك كان هو قائد أبي بصير - الراوي الضرير المكثر عن الأئمة - وروى عنه عدة روايات، وقد أحصيت له (٤٦) رواية في أصول الكافي (٢٤ رواية في الجزء الأول، و٢٢ رواية في الجزء الثاني) فهل تكون رواياته صحيحة؟!.

ولوضوح هذه الحقيقة قام محمد باقر البهبودي من علماء الشيعة فألف كتابًا أسماه: (الصحيح من الكافي) يقع في ثلاثة مجلدات [٢]. « واعتبر من مجموع (١٦١٢١) حديثًا من أحاديث الكافي: (٤٤٢٨) حديثًا صحيحًا، وترك (١١٦٩٣) حديثًا منها لم يرها حسب اجتهاده صحيحة » [٣]، وقد انتقده كثير من علماء الشيعة - وعلى الأخص الأخباريون منهم - على هذه الخطوة الجريئة.

والحقيقة أن فعل البهبودي ليس بدعة؛ فإن الإمام المجلسي، وهو من لا ينكر مكانته العلمية أحد من الاثني عشرية - قام في كتابه (مرآة العقول) بذكر « علل الحديث وقوّته وصحته وفق القواعد المتبناة لدى المحدّثين منذ عصر العلامة الحلي وابن طاوس، وخالفهم أحيانًا وقال: (ضعيف على المشهور معتمد عندي) أو (معتبر عندي) وكان نتيجة تقويمه لأحاديث الكافي أنه وجد منها خمسة وثمانين وأربعمائة وتسعة آلاف (٩٤٨٥) حديث ضعيف من مجموع (١٦١٢١) حديثًا » [٤].

ثانيًا: كتاب (من لا يحضره الفقيه):

للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المتوفى سنة (٣٨١هـ)، المشهور بالصدوق. مدحه بعض الشيعة قائلين: « كان محمد بن علي بن الحسين حافظًا للأحاديث، فقيهًا، بصيرًا بالفقه والرجال، ناقدًا للأخبار، لم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه » [٥].

---

(١) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٧٤٢/٢)، بحار الأنوار - العلامة المجلسي (٢٤٢/٦)، وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٤).

(٢) البهبودي: صحيح الكافي، الدار الإسلامية (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

(٣) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣٤٤/٣).

(٤) المرجع السابق: (٣٩٣/٣، ٣٩٤).

(٥) انظر: الفوائد الرجالية (٢٩٣/٣)، ومقدمة من لا يحضره الفقيه (ص ٨)، منشورات جماعة المدرسين، قم (ط٢)، تحقيق علي أكبر غفاري.

ولكن لم يسلم من نقد بعض أعلام الاثني عشرية، ويكفي في ذلك موقف الشيخ المفيد؛ حيث قام بتصحيح (اعتقادات الصدوق) معترضًا على بعض المسائل العقدية التي أثبتها الصدوق في كتابه (اعتقادات الإمامية)، وانتقده في أكثر من مكان في هذا الكتاب، فاتهمه بالاعتماد على كتب غير موثوقة ككتاب سليم بن قيس، كما اتهمه بقلة الفطنة، وعدم التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها [١].

ثالثًا، ورابعًا: (التهذيب) و (الاستبصار):

لمؤلفهما شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (المولود في سنة ٣٨٥هـ والمتوفى بالنجف في المحرم سنة ٤٦٠هـ).

وقد ساهم الاستقرار السياسي وقوة الشوكة الاثني عشرية على يد الصفويين الذين حملوا المذهب الاثني عشري؛ في نشاط النهضة العلمية لعلوم الاثني عشرية، وفي مقدمتها تأليف الموسوعات الحديثية، ذات الطابع الأخباري، المعتمد على جمع الروايات ونقلها، ومن أشهر رجاله محمد أمين الأسترابادي (ت ١٠٣٦هـ)، وقد أسدى علماء هذه المرحلة « خدمات هامة للحديث » [٢] الاثني عشري.

فقد جمعت الأصول الأربعة في كتاب (الوافي) للمحسن الكاشاني (محمد ابن المرتضى ت ١٠٩١هـ). ولعل أوضح ثمرة لنتاج هذه المرحلة الصفوية كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي:

خامسًا: بحار الأنوار:

لمحمد باقر المجلسي المتوفى سنة (١١١٠هـ) و قيل: سنة (١١١١هـ). « ويعد هذا الأثر دائرة معارف للتراث الروائي الشيعي، وقد لعب دورًا هامًّا في بقاء الأحاديث وحفظها من الاندثار » [٣]. جمع غالب ما قبله من الكتب الحديثية الاثني عشرية، وغلب عليه الطابع الأخباري الجمعي.

---

(١) انظر مثلًا نقده للصدوق لاعتماده على كتاب سليم بن قيس، المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١٢٦)، ونقده لرأيه في بقاء الأنفس واتهامه له بعدم التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها (ص ٨٧).

(٢) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط١)، (١٤٢٢هـ) قم (ص ١٢٣).

(٣) المرجع السابق (ص ١٣٠).

سادسًا: الوسائل:

لمحمد بن الحسن الحر العاملي. وهو أيضًا موسوعة حديثية ضخمة.

سابعًا: مستدركات الوسائل:

« لمحمد الحسين المرحوم المعاصر النوري، صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة » [1] في ثلاثة مجلدات كبيرة مطبوعة [2]. وهو صاحب فرية تحريف القرآن الكريم، التي حاول تعميمها وإلصاقها بالمذهب الاثني عشري في كتابه المشؤوم: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب). ومع ذلك فكتابه (مستدركات الوسائل) من مصادر الاثني عشرية الحديثية!.

ويلاحظ أن هذه الكتب الأربعة الأخيرة (الوافي والبحار والوسائل ومستدركات الوسائل) تضمنت الكتب الأربعة الأولى، فالوافي ما هو إلا جمع للكتب الأربعة الأولى بترتيب جديد، وكذلك بحار الأنوار جمع معظم الكتب القديمة التي ألفت؛ ولذلك جاء منهجه الأخباري الجمعي المستكثر من روايات الكتب السابقة دون تمحيص ولا تدقيق.

بقي أن نتحدث عن كتابين مشهورين لدى الشيعة الاثني عشرية، وهما وإن غلب على أحدهما الأسلوب التاريخي (وهو كتاب سليم بن قيس)، وغلب على الثاني أسلوب الخطابة والبلاغة العربية (وهو كتاب نهج البلاغة)، ولكنهما يعدان من مصادر الحديث التي تثري الفكر الشيعي.

كتاب سليم بن قيس [3]:

هو أول كتاب ظهر للشيعة، كما ذكر ابن النديم في (الفهرست) [4]. بل يعدونه

---

(١) ولا يضير هذا الرجل - عندهم - أن يقول بعد ذلك بتحريف القرآن الكريم؛ إذ من مؤلفاته: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب ط إيران ١٣٩٨هـ). ويبقى كتابه مستدركات الوسائل من أسس حديث الشيعة.

(٢) انظر: منهاج عملي للتقريب: الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني (ص ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٣) سليم بن قيس الهلالي يكنى أبا صادق، كان من أصحاب أمير المؤمنين، وكان هاربًا من الحجاج؛ لأنه طلبه ليقتله، ولجأ إلى أبان بن أبي عياش فآواه، فلما حضرته الوفاة أعطاه (سليم) كتابًا وهو كتاب سليم ابن قيس. انظر: البرقي: الرجال (ص ٣، ٤)، الطوسي: الفهرست (ص ١١١)، الأردبيلي: جامع الرواة (٣٧٤/١)، رجال الكشي (ص ١٦٧)، رجال الحلي (ص ٨٢، ٨٣). ابن النديم (محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم): الفهرست (ص ٣٠٧)، دار المعرفة - بيروت (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م).

(٤) ابن النديم: الفهرست (ص ٣٠٧).

أول كتاب صنف في الإسلام، ولنا معه وقفات كثيرات؛ إذ يعد من أهم المراجع العقدية بالنسبة لموقف الشيعة من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

قال محققه: « كتاب سليم بن قيس أول مصنف عقائدي حديثي تاريخي وصل إلينا من القرن الأول، تأليف التابعي الكبير سليم بن قيس الهلالي (٢ ق.هـ - ٧٦هـ) من خواص أصحاب الإمام أمير المؤمنين والإمامين الحسنين والإمام زين العابدين والإمام الباقر عليهم السلام »[١].

ويدعي محققه أن كتاب سليم يتميز بأنه عرض على ستة من الأئمة المعصومين عليهم السلام فأقروه ووثقوا صاحبه! فقد عرض سليم كتابه على أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين والإمام زين العابدين عليهم السلام. كما عرضه أبان بن أبي عياش على الإمام زين العابدين والإمام الباقر عليهما السلام. ثم عرضه حماد بن عيسى - الناقل الرابع للكتاب - على الإمام الصادق عليه السلام أيضًا[٢].

ونقل المحقق عن علماء الشيعة ذكر مكانة هذا الكتاب؛ قال السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ): « وهو كتاب مشهور معتمد نقل عنه المصنفون في كتبهم ». وقال المجلسي (ت ١١١١هـ): « كتاب سليم بن قيس الهلالي في غاية الاشتهار »، وقال المحدث القمي: « كتاب معروف بين المحدثين ». وقال العلامة الطهراني: « كتاب سليم هذا من الأصول الشهيرة عند الخاصة والعامة ». وقال السيد الأمين العاملي: « كتاب مشهور »، وقال العلامة الأميني: « كتاب سليم من الأصول المشهورة المتداولة في العصور القديمة »[٣].

وقال عبد الله شبر عنه « كتاب سليم بن قيس الهلالي، الذي رواه عنه أبان بن أبي عياش، وقرأه جميعَه على سيدنا علي بن الحسين بحضور جماعة من أعيان أصحابه، منهم أبو الطفيل، فأقره عليه زين العابدين عليه السلام وقال: هذه أحاديثنا صحيحة »[٤].

ولكن وجدت في حنايا البحث عن كتب التفسير بالمأثور عند الشيعة، أن الشيخ سالم الصفار من كتّاب الشيعة يرى أن هذا الكتاب دس فيه ما ليس منه، فيقول في

---

(١) انظر عنوان الكتاب وتقديم محمد باقر الأنصاري الزنجاني لكتاب سليم بن قيس (ص ١)، وتاريخ الوفاة لسليم غير متفق عليه، فهناك من الشيعة من ذكر أنه توفي (٩٠هـ)..

(٢) مقدمة محمد باقر الأنصاري الزنجاني لكتاب سليم بن قيس (ص ٢٤).

(٣) المرجع السابق (ص ٢٢).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٠٨).

معرض نقده لتفسير البرهان للبحراني: « ومما يؤخذ عليه في تفسيره هذا أنه يعتمد كتبًا لا اعتبار بها أمثال: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري الذي هو من صنع أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد وأبي الحسن علي بن محمد بن سيار الأسترابادين، وكذلك كتاب سليم بن قيس الهلالي المدسوس فيه بما لا يليق، سواء من الأعداء أو الأصدقاء، وغير ذلك من الكتب التي لا اعتبار فيها عندنا، فضلًا عن ضعف الإسناد أو الإرسال في أكثر الأحاديث التي ينقلها من هذه الكتب » [١].

وهذا ما جعلني أعرض عن مديح كثير من علماء الشيعة لسليم وكتابه، وأبحث في حقيقته، حتى وصلت إلى أن الشيخ المفيد قد أنكره وأنكر كتابه فقد قال رادًّا على أبي جعفر الصدوق:

« وأما ما تعلق به أبو جعفر رَحِمَهُ اللهُ من حديث سليم الذي رجع فيه إلى الكتاب المضاف إليه برواية أبان بن أبي عياش؛ فالمعنى فيه صحيح غير أن هذا الكتاب غير موثوق به، ولا يجوز العمل على أكثره وقد حصل فيه تخليط وتدليس » [٢]، ورأيت أن هناك من علماء الشيعة من ذهب هذا المذهب مؤكدًا أن سليمًا هذا لا يُعرف ولا يُذكر في خبر، وأن أسانيد هذا الكتاب مختلفة مضطربة [٣]، واتهموا في وضع الكتاب أبان ابن أبي عياش [٤].

وقال فيه ابن أبي داود الحلي: « سليم بن قيس الهلالي ينسب إليه الكتاب المشهور، وهو موضوع... لم يرو عنه إلا ابن أبي عياش، وفي الكتاب مناكير مشتهرة، وما أظنه إلا موضوعًا » [٥].

وحدد بعض المعاصرين تاريخ وضعه فقال: إنه « موضوع في آخر الدولة الأموية لغرض صحيح » [٦]!. وفريق منهم عزّ عليهم - فيما يبدو - أن يفقدوا هذا الكتاب

---

(١) سالم الصفار: نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن (ص ٣٧٧)، دار الهادي بيروت (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).

(٢) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١٢٦).

(٣) انظر: رجال الحلي (ص ٨٣)، الخوانساري: روضات الجنات (٦٧/٤)، ابن داود: الرجال (ص ٤١٣، ٤١٤).

(٤) ابن داود الحلي: الرجال (ص ٢٤٩)، المطبعة الحيدرية - النجف.

(٥) الرجال، ابن أبي داود الحلي، المطبعة الحيدرية، النجف (ص ٢٤٩).

(٦) صاحب هذا الرأي هو أبو الحسن الشعراني في تعليقه على الكافي مع شرحه للمازندراني (٣٧٣/٢، ٣٧٤). وانظر: علي أكبر غفاري: دراسات في علم الدراية (ص ٢٣٢) الهامش.

جملة واحدة مع أنه أصل من أصولهم وعمدة لشيوخهم.. فقال هذا الفريق: « والوجه عندي الحكم بتعديل المشار إليه والتوقف في الفاسد من كتابه » [١].

مع أن هذا الفاسد ينقض بنيان الاثني عشرية من الأساس؛ وذلك في جعله « الأئمة ثلاثة عشر » يقول د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري، وهو الذي أسهب في تتبّعه لهذا الكتاب وتاريخه مشكورًا: « وقد بحثت عن عيوب الكتاب في نظر الشيعة، والتي أشار إليها الفريق الأول في طبعتين من طبعات الكتاب [٢] فلم أجد لها ذكرًا فيه، وهذا يدل على أنهم يغيرون في كتبهم ويزيدون وينقصون. ومع هذا فقد أصبح هذا الكتاب عمدة عند متأخري الشيعة كما قرره المجلسي في البحار والحر العاملي في الوسائل وغيرهما » [٣].

ويرجح د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري - بعد تنقيبه عن سليم في كتب التراجم عند أهل السنة - أن شخصية سليم بن قيس شخصية خيالية أو نكرة من النكرات التي لم يعرفها التاريخ [٤]. فاللّٰه أعلم.

والذي يميل إليه الباحث أن شخصية سليم بن قيس هذا شخصية حقيقية، والذي يدلّ على ذلك كثرة رواية الكليني عنه في كتابه (الكافي) [٥]. أما بالنسبة لصحة نسبة ذلك الكتاب الذي سمّي باسمه (كتاب سليم بن قيس) إليه فهو أمر مختلف فيه بين كتّاب الاثني عشرية، بين مؤيد لنسبة الكتاب بعجره وبجره إليه، وبين مثبت لبعض ما جاء فيه، منكرٍ لما يخالف فيه العقيدة الاثني عشرية، وبين منكر لهذا الكتاب جملة وتفصيلًا.

قال هاشم بن معروف الحسني: « سليم بن قيس بن سمعان، وثّقه جماعة، وضعّفه آخرون، وادعى جماعة من المحدّثين أن الكتاب المعروف بكتاب سليم بن قيس من الموضوعات، وأطالوا الحديث حوله وحول كتابه، وجاء فيه أن الأئمة ثلاثة عشر إمامًا، وأن محمد بن أبي بكر وعظ أباه عند الموت، مع أنه كان في حدود السنتين » [٦].

---

(١) رجال الحلي (ص ٨٣)، ووسائل الشيعة (٢٠/ ٢١٠).

(٢) طبعة النجف الحيدرية، وطبعة الأعلمي - بيروت.

(٣) د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٧٥/١).

(٤) د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٧١/١، ٢٧٢) هامش.

(٥) انظر: على سبيل المثال: الكافي (٤٤/١ - ٤٦ - ٦٢ - ١٧١ - ٢٩٧ - ٥٢٢ - ٥٢٩)، (٣٢٣/٢ - ٣٩١).

(٦) هاشم معروف الحسني: دراسات في الحديث والمحدثين، (ص ١٩٧). (ط١)، دار التعارف للمطبوعات - بيروت - لبنان (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م).

كتاب نهج البلاغة:

لقد « حاز كتاب نهج البلاغة على شهرة واسعة » [(١)]، وهو من الكتب المشهورة في مصادر الفكر الاثني عشري، « فهم يكثرون من الاستشهاد به في دراساتهم العقدية قديمًا وحديثًا » [(٢)]. « ويضم خطب أمير المؤمنين وكتبه وكلماته القصار » [(٣)]، « ولا يزال هذا الكتاب متداولًا يتمتع بإجلال واحترام الشيعة، ذا قيمة أدبية كبيرة » [(٤)].

وقد جمعه الشريف الرضي (المتوفى ٤٠٦هـ) [(٥)]، وانتهى من تأليفه عام (٤٠٠هـ) [(٦)].

ومن أهم الاستفهامات المطروحة حول نهج البلاغة – من داخل البيت الشيعي –: خلوّ الكتاب من الأسانيد الحديثية والتاريخية التي يمكن من خلالها تمحيص الأخبار؛ حيث إن الشريف الرضي لم يتعرض لذكر الرجال الذين نقلوا تلك الخطب والرسائل؛ مما يجعل اعتبارها في مهب الشك والتردد، حتى قيل: إن نهج البلاغة كتاب مرسل، ولا يمكن الاعتماد عليه فقهيًّا، ولكن هذا الرأي خالفه كثير من كتّاب الشيعة، كالأميني في كتابه الغدير [(٧)].

وقد استقر في الفكر السني أن كتاب نهج البلاغة لم تثبت نسبته إلى علي ﷺ فقد شك النقّاد قديمًا وحديثًا في صحة نسبة الكتاب إلى عليّ ﷺ. قال الذهبي: « ومن طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي ﷺ »، ثم بيّن علامات ذلك [(٨)].

والنقد الداخلي لنصوص الكتاب يثبت أنه ألّف في عهد متأخر؛ ففيه بعض الكلمات التي لم يكن يتداولها العرب في عهد علي ﷺ، ومنها في وصف القرآن الكريم: (كتاب ربكم مبينًا حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه،

---

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٦٧).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٢٣ – ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٦٧).

(٤) أبو الحسن الندوي: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية (ص ٣٠).

(٥) وقيل: إن الذي ألفه الشريف المرتضى. انظر: ميزان الاعتدال (٣/١٢٤)، ترجمة الشريف المرتضى.

(٦) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٦٧).

(٧) انظر: مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٧٩)، وقارن الأميني: الغدير (٤/١٩٣ – ١٩٨).

(٨) انظر: ميزان الاعتدال (٣/١٢٤)، ترجمة الشريف المرتضى، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/١٦١).

وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسّرًا مجمله ومبينًا غوامضه » [١].

ومن المعروف أن (الخاص والعام، والمحكم والمتشابه والمفسر والمجمل) من مصطلحات علم الأصول الذي وضع في القرن الهجري الثاني [٢].

وقد استحسن الشيخ أبو الحسن الندوي قول الأستاذ حسن الزيات: « ومن الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صناعة الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهجر، ولأن فيه من فلسفة الأخلاق وقواعد الاجتماع ودقة الوصف وتكلف الصنعة ما ليس في إمكان ذلك العصر، ولا في طبعه، والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام، وفيه الصحيح والمشوب » [٣].

وإذا عرفنا أن الشريف الرضي ارتضع فكر المعتزلة، فلن نستغرب صدور تلك العبارات الكلامية والفلسفية عنه في (نهج البلاغة)، كاستخدامه كلمة الأزل بمعنى القدم كقوله: (لم يخلق الأشياء من أصول أزلية) [٤]، « وقد صرح أئمة اللغة أن قولهم أزلي وأزلية مصنوع وليس من كلام العرب » [٥]، ومثل كلمة (الغيرية والأبعاض) في قوله من خطبة التوحيد: « ولا يوصف بشيء من الأجزاء، ولا بالغيرية والأبعاض » [٦]. وفيه من الآراء ما عرف به المعتزلة ومتكلمو الاثني عشرية في موقفهم من القرآن بعد قرن من الزمن: (وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنًا، ولو كان قديمًا لكان إلهًا ثانيًا) [٧].

---

(١) مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المسمى: (نهج البلاغة) (١/٢٥)، دار المعرفة - بيروت، تحقيق الشيخ محمد عبده.

(٢) تقديم الأستاذ حسن السماحي لكتاب دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي (ص ١٤٤) دار القلم - دمشق (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

(٣) تاريخ الأدب العربي للزيات (٢/٢٣٠) ط القاهرة.

(٤) مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المسمى: (نهج البلاغة) (٢/٦٦).

(٥) تقديم الأستاذ حسن السماحي لكتاب دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي (ص ١٤٥) دار القلم - دمشق (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

(٦) مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المسمى: نهج البلاغة (٢/١٢٢).

(٧) نهج البلاغة (٢/١٢٣).

أما أخلاقيًا فإن فيه من الألفاظ ما لا يتناسب مع ما عرف به علي ﷺ من نبل ودماثة خلق، ففي النهج قوله لأحدهم: « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك ابن حائك، ومنافق ابن كافر » [١]، وقوله لآخر: « يا ابن اللعين الأبتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع » [٢].. إلى غير ذلك، مما ننزّه أمير المؤمنين عنه، وقد تربّى في حجر خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ القائل: « **ليس المؤمن بالطّعّان ولا اللعّان ولا البذيء ولا الفاحش** » [٣].

ولا يخلو الكتاب من كثير من الألفاظ التي نوقن بصدورها عن سيدنا علي ﷺ، وخصوصًا كلماته الخلقية البليغة؛ فقد أجمعت الفرق على فصاحة أمير المؤمنين علي، فاهتموا بجمع خطبه وكلماته؛ ولذلك يقر الشيعة أنهم لم ينفردوا بذكر خطب علي ﷺ، فقد جمع الجاحظ المعتزلي مئة كلمة من كلمات الإمام علي تحت عنوان: (مطلوب كل طالب من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)، وكذلك ألّف أبو عبد الله القضاعي من أهل السنة جمع كتابًا سمّاه: (دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم) جمع فيه كثيرًا من كلمات علي ﷺ في تسعة أبواب [٤]. وهناك قواسم مشتركة كثيرة من الكلمات والجمل البليغة بين كتاب (نهج البلاغة) و (دستور معالم الحكم).

وكذلك هناك بعض القواسم المشتركة بين بعض النصوص الموجودة في نهج البلاغة والموجودة في كتاب (أصول الكافي) للكليني، وهو متقدم بجيل كامل تاريخيًا عن الشريف الرضي.

قال الشيخ أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أما كتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي.. فهو أكبر مجموع لكلام أمير المؤمنين خطبًا وكتبًا ورسائل وحكمًا وأمثالًا... ولكن الناقد البصير الذي تذوق أسلوب ذلك العصر ولغته وعرف كذلك ما طبع عليه سيدنا [عليّ] من المواهب الاستثنائية، وما مارسه من طبائع الناس وحلو الحياة ومرها، يستطيع أن يميز بين ما فاض من لسانه أو قلمه، وبين ما تأخر زمانه ونسب إليه، ومنه ما استشهدنا به ونقلناه في كتابنا، وقد جاء الشيء الكثير في مؤلفات أدبية قديمة كالكامل للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للجاحظ.

(١ ، ٢) نهج البلاغة (٥٦/١)، (١٨/٢).

(٣) أخرجه ابن حبان: صحيح ابن حبان (٤٢١/١) رقم (١٩١)، مؤسسة الرسالة (ط٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) تحقيق شعيب الأرناؤوط، وأخرجه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٤٠٥/١).

(٤) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط١)، (١٤٢٢) قم (ص ١٧٧، ١٧٨).

وقد اعتُني بشرح نهج البلاغة اعتناء كبيرًا، وشرّاحُه في القديم والحديث أربوا على الخمسين، منهم أبو الحسين البيهقي والإمام فخر الدين الرازي، وشرحه عز الدين ابن أبي الحديد المدائني، ويعدّ شرحه أفضل الشروح وأطولها، نشر في عشرين جزءًا في دار الفكر، ومن المتأخرين الشيخ محمد عبده » [١].

* * *

المَطلَبُ الثَّاني

ملاحظات على كتب الحديث الشيعية

حول العناية والضبط في كتب الحديث الشيعية:

لقد بقي الكافي من القرن الرابع إلى القرن العاشر دون شروح، وقد قال محقق أصول الكافي: « قررت - وحفاظًا على النص شكلًا ومضمونًا - أن أبقي ما وجدت له وجهًا ولو بعيدًا يمكن أن يحمل عليه من تلك القواعد، وأعملت قلم التغيير فيما يبدو شاذًّا بل غلطًا واضحًا لا يمكن توجيهه، وهذا ما أُغفل في جميع الطبعات التي خرجت حتى الآن من هذا الكتاب الجليل » [٢]. وهذا في القرن الخامس عشر الهجري، في حين اشتهرت عناية علماء أهل السنة منذ العصور الأولى بكتب الحديث حفظًا وضبطًا وشرحًا لغريب الألفاظ، وغير ذلك [٣].

وربما ساهم في ضعف الضبط في روايات الأئمة ما ورد عنهم باتباع الحديث دون سؤال عن مصدره؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « من سمع شيئًا من الثواب على شيء فصنعه كان له وإن لم يكن على ما بلغه » [٤]. في حين لم يجمع أهل السنة على العمل

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: المرتضى (ص ٢٠١) هامش، دار القلم - دمشق (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، (ط٢)، وهو كتاب قيّم في بيان فضل سيدنا علي رضي الله عنه وعلاقته بصحابة النبي ﷺ.

(٢) محمد جعفر شمس الدين: مقدمة تحقيق شرح أصول الكافي، دار التعارف للمطبوعات - بيروت (١٤١٩هـ /١٩٩٨م)، ص (ج).

(٣) وانظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، والعناية بنسخه، وروايات الحفاظ عن البخاري له، مع تقدمه في الزمن عن كتب الحديث عند الشيعة؛ فقد توفي البخاري رحمه الله (٢٥٦هـ). ناهيك عن وجود حفّاظ له ولغيره من كتب السنن في القديم والحديث.

(٤) أصول الكافي (٩٣/٢) كتاب الإيمان والكفر باب من بلغه ثواب من الله على عمل، والحديث حسن كالصحيح على حد قول المحقق.

بالحديث الضعيف، ومن ارتضى ذلك منهم وضع لذلك شروطًا (١).

وقد جاء في روايات الأئمة عدة نصائح من أجل إيجاد منهج حديثي رصين:

أ - كاستحباب الإسناد والكتابة: عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « إذا حدّثتم بحديثٍ فأسندوه إلى الّذي حدّثكم؛ فإن كان حقًّا فلكم، وإن كان كذبًا فعليه » (٢).

وعن أبي بصيرٍ قال: سمعت أبا عبد اللّٰه عليه السلام يقول: « اكتبوا فإنّكم لا تحفظون حتّى تكتبوا » (٣).

ب - وكراهة التدليس وقطع سند الحديث: وقال أبو عبد اللّٰه عليه السلام: « إيّاكم والكذب المفترع. قيل له: وما الكذب المفترع؟ قال: أن يحدّثك الرّجل بالحديث فتتركه وترويه عن الّذي حدّثك عنه » (٤).

ج - رواية الحديث بلفظه عزيمة، مع جواز رواية الحديث بالمعنى بشرط عدم تغيير المعاني: عن أبي بصيرٍ قال: قلت لأبي عبد اللّٰه عليه السلام: قول اللّٰه جلّ ثناؤه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ ﴾ [الزمر: ١٨] قال: « هو الرّجل يسمع الحديث فيحدّث به كما سمعه لا يزيد فيه ولا ينقص منه ».

وعن محمّد بن مسلمٍ قال: قلت لأبي عبد اللّٰه عليه السلام: « أسمع الحديث منك فأزيد وأنقص، قال: إن كنت تريد معانيه فلا بأس ».

وعن داود بن فرقدٍ قال: قلت لأبي عبد اللّٰه عليه السلام: « إنّي أسمع الكلام منك فأريد أن أرويه كما سمعته منك فلا يجيء. قال: فتعمّد ذلك؟ قلت: لا، فقال: تريد المعاني؟ قلت: نعم. قال: فلا بأس » (٥).

د - جواز الرواية من الكتب (الوجادة): عن محمّد بن الحسن بن أبي خالدٍ شينولة قال: قلت لأبي جعفرٍ الثّاني عليه السلام: « جعلت فداك! إنّ مشايخنا رووا عن أبي جعفرٍ

---

(١) وهي: ألا يكون الضعف فيه شديدًا بوجود راوٍ متهم بالكذب، وعدم الاعتقاد بصحته عند العمل به، وإنما العمل به من باب الاحتياط، وأن يندرج تحت أصل شرعي عام.

(٢) أصول الكافي (١٠٤/١) كتاب فضل العلم باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه. والمفترع هنا: من الفرع بمعنى العلو فكأن هذا يريد أن يجعل حديثه مفترعًا أي مرتفعًا فيسنده إلى الأعلى بحذف الواسطة ليعلو السند. انظر الوافي (٥٥/١). ويقترب هذا من مصطلح التدليس عند علماء مصطلح الحديث السني.

(٥) أصول الكافي (١٠٣/١) كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث، وفضل الكتابة والتمسك بالكتب.

وأبي عبد الله عليه السلام وكانت التّقيّة شديدةً، فكتموا كتبهم ولم ترو عنهم، فلمّا ماتوا صارت الكتب إلينا؟ فقال: حدّثوا بها فإنّها حقٌّ » [1].

وسائل الترجيح بين الروايات المتعارضة:

لا تخلو روايات الشيعة من روايات متعارضة أو متناقضة، مثل تناقض رواية تدل على وجوب إظهار العلوم مع رواية أخرى تجيز الكتمان للعلم:

عن محمّد بن جمهورٍ العمّيّ يرفعه قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا ظهرت البدع في أمّتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله** ».

وقد خالف هذه الرواية روايةٌ تقول: عن عبد الله بن سليمان قال: « سمعت أبا جعفرٍ عليه السلام يقول، وعنده رجلٌ من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعمى وهو يقول: إنّ الحسن البصريّ يزعم أنّ الّذين يكتمون العلم يؤذي ريح بطونهم أهل النّار، فقال أبو جعفرٍ عليه السلام: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتومًا منذ بعث الله نوحًا عليه السلام فليذهب الحسن يمينًا وشمالًا فوالله ما يوجد العلم إلا هاهنا » [2]. فهذه الرواية تتناقض مع الرواية السابقة الآمرة بكشف وإظهار العلوم.

ولأجل هذا احتاج الاثنا عشرية لوسائل يرجّحون بها بين الروايات المتعارضة:

ومن أهم وسائل الترجيح بين الروايات:

أ - **عرضها على الكتاب الكريم**، فلا يصح أن يتضادّ الوحي الكريم بين الكتاب والسنة، وهو أمر متفق عليه بين أهل القبلة. وقد جاءت الروايات مصرحة بوجوب طرح ما خالف القرآن الكريم من الروايات:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « **إنّ على كلّ حقٍّ حقيقةً، وعلى كلّ صوابٍ نورًا؛ فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه** ».

وعن أيّوب بن الحرّ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « كلّ شيءٍ مردودٌ إلى الكتاب والسّنّة، وكلّ حديثٍ لا يوافق كتاب الله فهو زخرفٌ ».

وعن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خطب النّبيّ ﷺ بمنًى

(١) أصول الكافي (١/١٠٦) كتاب فضل العلم باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب.

(٢) أصول الكافي (١/١٠٦) كتاب فضل العلم باب النوادر.

فقال: « **أيّها النّاس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب اللّه فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب اللّه فلم أقله** ».

ب – **ويعد ما أجمع عليه الناس من وسائل الترجيح،** لقول جعفر الصادق: « خذوا بالمجمع عليه، فإن المجمع عليه لا ريب فيه » [1]. ولكن هذا المرجح يفتح المجال للنقاش: ما هو المجمع عليه، هل هو ما رأته جماعة المسلمين؟ أم هو ضرورات المذهب التي أجمع عليها الاثنا عشرية؟.

ج – **ومن المرجحات الغريبة والعجيبة: (مخالفة العامة) أي:** أهل السنة، وذلك عند عدم وجود مرجّح آخر؛ فعن الإمام جعفر الصادق: دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم » [2]. ويعللون ذلك بأن السابقين الأولين حرّفوا الفتاوى والأحكام عكس مراد اللّه تعالى، فإذا خالفوا العامة – وهم أتباع أولئك السابقين – وصلوا إلى الصواب. وهذا ليس في الروايات المتعارضة فقط بل في المعاملات وغيرها.

ولا يعد أمر حكّام المسلمين قاطعًا للخلاف في المسائل؛ لأن هؤلاء الحكام لم يعينوا من قبل الإمام الغائب، فحكوماتهم باطلة، وأي تحاكم إليهم إنما هو تحاكم إلى الطواغيت، فعن عمر بن حنظلة قال: « سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعةٌ في دينٍ أو ميراثٍ فتحاكما إلى السّلطان وإلى القضاة أيحلّ ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حقٍّ أو باطلٍ فإنّما تحاكم إلى الطّاغوت.... قال: ينظر فما وافق حكمه حكم الكتاب والسّنّة وخالف العامّة فيؤخذ به ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسّنّة ووافق العامّة. قلت: جعلت فداك! أرأيت إن كان الفقيهان عرفا حكمه من الكتاب والسّنّة ووجدنا أحد الخبرين موافقًا للعامّة والآخر مخالفًا لهم بأيّ الخبرين يؤخذ؟ قال: ما خالف العامّة ففيه الرّشاد. فقلت: جعلت فداك، فإن وافقهما الخبران جميعًا؟ قال: ينظر إلى ما هم إليه أميل حكّامهم وقضاتهم فيترك ويؤخذ بالآخر » [3].

– **ويختصر المفيد الحديث عن طرق الترجيح** بين الروايات ومعايير قبولها أو ردها فيقول:

– « فإذا وجدنا أحد الحديثين متفقًا على العمل به دون الآخر علمنا أن الذي اتفق

---

(١) الكليني: أصول الكافي (٤٩/١). مقدمة الكليني.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الكليني: أصول الكافي (١٢١/١، ١٢٢)، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث.

على العمل به هو الحق في ظاهره وباطنه، وأن الآخر غير معمول به، إما للقول فيه على وجه التقية أو لوقوع الكذب فيه ».

- « وإذا وجدنا حديثًا يرويه لرواية عشرة من أصحاب الأئمة يخالفه حديث آخر في لفظه ومعناه لا يصح الجمع بينهما على حال رواه اثنان أو ثلاثة قضينا بما رواه العشرة ونحوهم على الحديث الذي رواه الاثنان أو الثلاثة، وحملنا ما رواه القليل على وجه التقية أو توهّم ناقله ».

- « ومتى وجدنا حديثًا بما يخالفه الكتاب ولا يصح وفاقه على حال اطّرحناه، لقضاء الكتاب بذلك وإجماع الأئمة عليه ».

- « وكذلك إن وجدنا حديثًا يخالف أحكام العقول طرحناه لقضية العقول بفساده، ثم الحكم على أنه صحيح أخرج مخرج التقية، أو باطل أضيف إليهم » [(١)].

ومن خلال تأمل وسائل الترجيح التي رواها الكليني في الكافي عن الأئمة، والتي قعّدها المفيد (ت ٤١٣) في تصحيح اعتقادات الصدوق: يتأكد بكل وضوح أن علوم الحديث، وهي أهم الأدوات التي استخدمها محدثو أهل السنة لتمحيص الروايات والترجيح بينها، بالتفريق بين الصحيح والضعيف - لم يكن لها وجود عند الشيعة حتى القرن الخامس الهجري، ولم تستخدم في تمحيص الروايات المختلفة؛ ولذلك اضطروا إلى تلك القرائن الخارجية لرد هذا الحديث أو قبول ذلك الحديث، ولو وجدت معايير تقسيم الحديث إلى صحيح وغير صحيح عبر دراسة الإسناد لما اضطر الاثنا عشرية إلى تلك القرائن الخارجية للترجيح بين الروايات.

ترك أحاديث صحيحة لأنها تخالف ضروريات المذهب أو ادعاء التقية فيها:

هنالك سؤال يجب الجواب عنه: هل المذهب قام على الروايات؟ أم أن الروايات قامت على المذهب؟

فهناك أحاديث صحيحة عند الشيعة ومع ذلك ذهبوا إلى حرف معانيها، وقصرها على بعض الأفراد مع أنها عامة، وعلى سبيل المثال ما رواه معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالديّ إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدّق

---

(١) المفيد: تصحيح الاعتقاد (ص ١٢٥).

عنهما، وإن كانا لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله ﷺ قال: « **إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق** » (١).

ومع صحة هذا الحديث إلا أن محقق أصول الكافي يقول مبيّنًا من هو الوالد الذي يستحق الدعاء: « سواء على الكفر أو على مذهب المخالفين، ولكن لما كان هذا مخالفًا لما عليه أكثر علماء الإمامية من عدم جواز الدعاء للكافر ومنه الناصب وعدم انتفاعه بالطاعات لا بد من حمل الحديث على المستضعف » (٢).

فأنت تلاحظ كيف تدخلت ضروريات المذهب لتخصص هذا الحديث، وتقصره على ضعيف الإدراك من الناس، مع أن لفظه عام.

كما أن هناك أمثلة كثيرة لروايات صحيحة، تركها الاثنا عشرية، وقالوا: إنها خرجت مخرج التقية، كما ظهر وسيظهر في ثنايا البحث.

اعتبار الحديث وإن كان في رواته كذّاب ما دام داعمًا للعقيدة الاثني عشرية:

ولنضرب لهذه الدعوى دليلين وردا في كتاب الكافي:

عن أحمد بن إدريس عن عمران بن موسى عن موسى بن جعفرٍ البغداديّ عن عليّ ابن أسباطٍ عن محمّد بن الفضيل عن أبي حمزة الثّماليّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « سمعته يقول: ألواح موسى عليه السلام عندنا وعصا موسى عندنا، ونحن ورثة النّبيّين » (٣).

وعن محمّد بن يحيى عن محمّد بن الحسين عن موسى بن سعدان عن أبي الحسن الأسديّ عن أبي بصيرٍ عن أبي جعفر عليه السلام قال: « خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلةٍ بعد عتمةٍ وهو يقول: همهمةٌ همهمةٌ، وليلةٌ مظلمةٌ، خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم وفي يده خاتم سليمان وعصا موسى عليه السلام » (٤).

وهذان الحديثان ضعيفان عند الشيعة أنفسهم (٥)، ولكن قال أحد علمائهم معلقًا:

---

(١) أصول الكافي (١٦٦/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب البر بالوالدين، قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (١٦٦٥/٢) الهامش حاشية رقم (٣).

(٣) الكليني: أصول الكافي: كتاب الحجة، باب ما عند الأئمّة من آيات الأنبياء عليهم السلام (٢٨٧/١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) وإن ورد بمعناهما أحاديثُ صحيحة عندهم. انظر: الكليني: كتاب الحجة: باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النّبيّ وجميع الأنبياء والأوصياء الّذين من قبلهم فقد حكموا بصحة أحاديث منها حديث: محمّد بن يحيى عن محمّد بن عبد الجبّار عن محمّد بن إسماعيل عن عليّ بن النّعمان عن ابن مسكان عن أبي بصيرٍ عن أبي عبد الله عليه السلام =

« فكونه خبرًا ضعيفًا لا يدل على عدم وقوعه، وإن كان بعض رواته معروفًا بالكذب؛ لأن الكذوب قد يصدق، ولهذا أمر الله ﷻ عباده المؤمنين أن يتبينوا في أخبار الفاسقين، حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] فأمر بالتبين في أخبارهم ولم يأمر بردها » (١).

وكذلك فعلوا بحديث « **العلماء ورثة الأنبياء** »، لما ورد عندهم بسند ضعيف - بخلاف أهل السنة؛ إذ ثبت الحديث عندهم - قال محقق الكافي: « فقد ورد عن أبي البختري، قال محقق أصول الكافي: « هنالك اثنان يكنيان بأبي البختري أحدهما وهب بن وهب وصف بالكذاب، بل أكذب البرية كما نقل الكشي، والثاني هو سعد ابن عمران، وقد اختار المازندراني أن الأول هو الذي ورد بكنيته في سند هذا الحديث، ومع ذلك ذهب إلى اعتباره وإن كان أحد رواته كذوبًا، (لأن الكذوب قد يصدق) » (٢). ولو مشينا وراء هذه الدعوى الباطلة لدمّرنا جهود علماء الجرح والتعديل الذين ميزوا بين الثقات والضعفاء.

ظاهرة الوضع في كتب الحديث الاثني عشري:

يقول محمد جواد مغنية - بأسلوبه الإعلامي المعروف -: « ولا نعرف فرقة من المسلمين تشددت في تحريم الكذب عامة وعلى الله والرسول خاصة كالإمامية؛ فإنهم حكموا بخروج مستحله من الإسلام... واختصوا دون سائر الفرق بالقول: إنّ تعمّد الكذب على الله ورسوله من المفطرات، وإنّ على هذا الكاذب أن يكفّر بالجمع بين عتق رقبة وصيام شهرين متتابعين وإطعام ستين مسكينًا » (٣).

وهذا الكلام من الشيخ مغنية جميل، وجميل جدًّا. ولكن المتأمل في كتب الحديث الاثني عشري لا بدّ أن تسترعي اهتمامه ظاهرة الوضع في الحديث، حتى إن كثرة الوضع في كتب الحديث عند الاثني عشرية ألجأت للباحثين دراسة هذه الظاهرة، كما

= قال: قال لي: « يا أبا محمّدٍ إنّ الله ﷻ لم يعط الأنبياء شيئًا إلا وقد أعطاه محمّدًا ﷺ قال: وقد أعطى محمّدًا جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصّحف الّتي قال الله ﷻ: ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٩]، قلت: جعلت فداك، هي الألواح؟ قال: نعم ».

(١) الشيخ حسن عبد الله: وقفة مع الجزائري (ص ٣٢).

(٢) أصول الكافي (١/٨٠) حاشية (١)، وانظر المازندراني (٢/٢٩)، والملاحظ أن المجلسي ضعف الحديث في مرآة العقول (١/١٠٣).

(٣) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨٥، ٨٦).

فعل الدكتور خالد علي عباس القط؛ حيث اختار لأطروحة الدكتوراه عنوان (أثر الأحاديث الموضوعة في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية) [١].

وهي ظاهرة قديمة مرتبطة بالغلو والغلاة، « وليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أعظم افتراء للكذب على اللّه وتكذيبًا بالحق من المنتسبين إلى التشيع، ولهذا لا يوجد الغلو في طائفة أكثر مما يوجد فيهم، واتفق أهل العلم على أن الكذب ليس في طائفة من الطوائف المنتسبين إلى القبلة أكثر منه فيهم » [٢]. « لا سيما على جعفر بن محمد الصادق، فإنه ما كذب على أحد ما كذب عليه، حتى نسبوا إليه كتاب (الجفر) و (البطاقة) و (الهفت) و (اختلاج الأعضاء) و (جدول الهلال)، و (أحكام الرعود والبروق)، و (منافع سور القرآن) و(قراءة القرآن في المنام)... فهي إنما صُنفت بعد موت جعفر بن محمد بنحو مائتي سنة؛ فإن جعفر بن محمد توفي سنة ثمان وأربعين ومائة، وهذه وضعت في أثناء المائة الرابعة لما ظهرت الدولة العبيدية بمصر، وبنوا القاهرة، فصنفت على مذهب أولئك الإسماعيلية، كما يدل على ذلك ما فيها، وقد ذكروا فيها ما جرى على المسلمين من استيلاء النصارى على سواحل الشام، وهذا إنما كان بعد المائة الثالثة، وقد عرف الذين صنفوها مثل زيد بن رفاعة وأبي سليمان بن معشر البستي المعروف بالمقدس » [٣].

لقد أحس هؤلاء الغلاة الوضاعون « أن مجرد صوغ عقائدهم ونظرياتهم في صورة تقريرية وصفية لا يغني فتيلًا ما لم تؤيَّد هذه العقائد والنظريات بأسانيد قوية تضفي عليها صفات الصحة والقبول؛ فاحتالوا لذلك بأن لاذوا بحمى آل البيت ينتحلون الأخبار عليهم وينطقون بالروايات والآثار التي تعضد عقائدهم ونظرياتهم » [٤].

---

(١) رسالة دكتوراه - كلية البنات، قسم الدراسات الفلسفية (ص ٣٣) إشراف الدكتورة كوكب محمد عامر (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/٣٤).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦٤ - ٤٦٦).

(٤) انظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ١٤٥).

ويذكر الإسفراييني أن الذي دلّ الشيعة على هذه الطريقة المرذولة هو الجاحظ، حيث طلبوا إليه أن يصنف لهم كتابًا في ترسيخ عقائدهم، فقال: لست أدري لكم شبهة حتى أرتّبها وأتصرّف فيها. فقالوا له: إذن دلنا على شيء نتمسك به. فقال: إذا أردتم أن تقولوا شيئًا تزعمونه فقولوا: إنه كلام جعفر بن محمد الصادق، فتمسكوا بهذه السوأة التي دلّهم عليها. (انظر: الإسفراييني (طاهر بن محمد): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص ٤٣). عالم الكتب - بيروت الطبعة الأولى (١٩٨٣م)، تحقيق: كمال يوسف =

ولم يكتف الوضاعون بالكذب على ألسنة الأئمة؛ بل اخترعوا أسانيد كاملة لنصرة آرائهم، وسموا بعضهم بأسماء بعض العلماء الأثبات الثقات، ووضعوا الكتب بأسماء مشهورة ليلبّسوا على الناس، ونسبوا بعض الكتب الدخيلة إلى بعض العلماء المشهورين؛ فقد كان منهم من سمّي بالطبري، و « كان منهم من سمّي بالسدي، ومنهم من سمّي بابن قتيبة، فكانوا يروون عن السدي وابن قتيبة... بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم ونسبوها لأئمة أهل السنة ككتاب (سر العارفين) الذي نسبوه للغزالي » [١].

ومن العلماء من ربط ظاهرة الوضع والكذب في الروايات بعقيدة التقية، فإذا « جوّزوا ارتكاب المعاصي حتى الكفر تقيةً عند معرفتهم غضب من عرف بمذهبهم وسخطه عليهم... فلا أمان أن يكذبوا على رسول الله وآله وصحبه » [٢].

والحقيقة أن مسألة الإمامة كان لها دورها العظيم في وضع الحديث النبوي عند جميع الطوائف، وليس الاثني عشرية وحدهم، بل صار سلاحًا يستخدمه المتعصبون الجاهلون من كل الفرق. وهذا ما حدا بالأستاذ محسن عبد الناظر ليدرس هذه الظاهرة في كتابه (مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية) [٣]. وكانت تلك الظاهرة قد رصدت من قبل علماء الحديث في القرون المتقدمة؛ فكتاب (الموضوعات) لابن الجوزي و (تذكرة الموضوعات) لمحمد طاهر بن علي الفتني، وغيرهما من الكتب المتخصصة في رصد الأحاديث الموضوعة زاخرة بالأحاديث الموضوعة في مسألة الإمامة عند كل الفرق، ومن يطالع هذه الكتب ير أحاديث موضوعة في فضل علي ﷺ كما يجد أحاديث موضوعة في فضل أبي بكر ﷺ أيضًا كحديث: « إن الله يكره في السماء أن يخطّأ أبو بكر في الأرض » [٤].

كما أن موقف أهل السنة من الوضع والوضاعين أكثر تشددًا ومحاربة نظريًّا وعمليًّا، فقد سُئل الإمام أحمد بن حنبل عن محدث كذب في حديث واحد ثم تاب ورجع؟

= الحوت). والله أعلم بصحة هذا الخبر عن الجاحظ، فأنا أراه أعلى من أن ينزل إلى هذا المستوى، اللّهم إلا أن يريد افتضاح الكذّابين بين الناس!..

(١) فجر الإسلام (ص ٤٣٦).

(٢) عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري: فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٢/١٤٠، ١٤١)، (١٣٢٤هـ)، دار الفكر دمشق.

(٣) مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية. طبعة الدار العربية للكتاب.

(٤) الفتني: تذكرة الموضوعات (ص ٩٣).

« قال: توبته فيما بينه وبين اللّٰه تعالى، ولا يكتب حديثه أبدًا » [1]، بل إن بعض المحدثين من أهل السنة حكموا بردة الكذّاب على رسول اللّٰه، وعدم قبول توبته [2].

اعتراف كتّاب الشيعة بكثرة الوضع:

وتقرّ كتب الحديث الاثني عشرية بوجود أشخاص حول الأئمة كانوا يكذبون ويضعون الحديث، وهم الغلاة:

عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد اللّٰه ﷺ يقول: لا تقبلوا علينا حديثًا إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهدًا من أحاديثنا المتقدمة؛ فإن المغيرة بن سعيد لعنه اللّٰه دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا اللّٰه ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد ﷺ، فإنا إذا حدثنا قلنا: قال اللّٰه ﷻ، وقال رسول اللّٰه ﷺ.

وقال يونس: وافيت العراق... ووجدت أصحاب أبي عبد اللّٰه ﷺ متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها بعد على أبي الحسن الرضا ﷺ فأنكر منها أحاديث كثيرة أن تكون من أحاديث أبي عبد اللّٰه ﷺ، وقال لي: « إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد اللّٰه ﷺ، لعن اللّٰه أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد اللّٰه ﷺ، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن؛ فإنا إن تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة، إنا عن اللّٰه وعن رسوله نحدث، ولا نقول: قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إن كلام آخرنا مثل كلام أولنا، وكلام أولنا مصداق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليه وقولوا: أنت أعلم وما جئت به، فإن مع كل قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك قول الشيطان » [3].

ويقرّ المنصفون من كتّاب الشيعة بوجود الوضع في الروايات عن الأئمة، ولبعضهم

---

(١) الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر): الكفاية في علم الرواية (ص ١١٧)، المكتبة العلمية – المدينة المنورة، تحقيق: أبو عبد اللّٰه السورقي، إبراهيم حمدي المدني.

(٢) انظر: ا.د. مصطفى البغا: بحوث في علوم الحديث (ص ٨٤)، كتاب كلية الشريعة – جامعة دمشق، للسنة الأولى (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (٢/٢٥٠)، مؤسسة الوفاء – بيروت، الطبعة الثانية المصححة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، وعند الطوسي: اختيار معرفة الرجال (وهو تهذيب رجال الكشي): (٤٩١/٢)، وفيه ذكر المغيرة فقط دون أبي الخطاب، ولكن ثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٥٨٤/٢)، مؤسسة آل البيت، قم.

محاولات جادّة لبيان الموضوعات منها، وإن كانت هذه الجهود تقبل على مضض، أو لا تقبل أحيانًا وخصوصًا من الأخباريين، يقول مهدي المهريزي: « لا شك أن في ثنايا الكتب الحديثية روايات موضوعة، والاعتقاد بصحة الروايات قاطبة أمر لا يقبله أحد، وحتى الأخباريون فإن مدّعاهم يقتصر على صحة روايات الكتب الأربعة، وفرز الروايات الموضوعة عند الشيعة تم في هذا الدور على يد العلامة الشوشتري في كتابه (الأخبار الدخيلة) المنشور في أربعة أجزاء، هذا العمل، وإن أثار حفيظة بعض الشخصيات الشيعية، لكنه على أية حال إنجاز مبارك » [(١)].

وقال هاشم معروف الحسني في كتابه (الموضوعات في الآثار والأخبار): « كما وضع قصاص الشيعة مع ما وضعه أعداء الأئمة عددًا كبيرًا من هذا النوع للأئمة الهداة ولبعض الصلحاء الأتقياء »... وبعد التتبع في الأحاديث المنتشرة في مجاميع الحديث كالكافي والوافي وغيرهما - نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمة الهداة لم يتركوا بابًا من الأبواب إلا ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمة والإساءة إلى سمعتهم » [(٢)].

ومن العجيب استمرار الكذب حتى إن زين الدين العاملي يفتري على الإمام مالك المحذِّر من كذب الرافضة، فيقول: « نقل مالك بن أنس أخبارًا جمة في فضائل علي، وكان يفضله على أولي العزم من الأنبياء فرمي بالغلو لذلك » [(٣)]. فأين نجد مثل هذا الافتراء عند الإمام مالك؟ وأين ذكر هذا القول الذي تهتز له السماوات؟.

الوضع في روايات التاريخ:

عرفنا قيمة التاريخ في عقائد الشيعة، فهم يعتمدون على التاريخ ورواياته لتأجيج العاطفة الداعمة للمذهب، وخصوصًا أحداث الفتن العظيمة التي مرت بها الأمة كحروب علي ﷺ وفاجعة كربلاء، ويعتمد الشيعة في أخبار الفتنة على راوٍ شيعي هو لوط بن يحيى أبو مخنف، ويعتمد السنة في هذه الأخبار على راو ضعيف متروك هو سيف بن عمر.

ويكثر الشيعة الاعتراض على روايات سيف بن عمر، ويجعلونه مختلقًا لشخصيات

---

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٤٣).

(٢) هاشم معروف الحسني: الموضوعات في الآثار والأخبار (ص ٥٣)، (س ١٦٥)، (ط ١)، (١٩٧٣م).

(٣) العاملي علي بن يونس العاملي (ت ٨٧٧): الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (١/ ٢١٠). المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، بتحقيق محمد باقر البهبودي (١٣٨٤هـ).

لا وجود لها في التاريخ كابن سبأ [(١)]. وقد رأينا - في فصل الغلو والغلاة - أنه لم ينفرد وحده بذكر ابن سبأ وأخباره.

والحقيقة أن سيف بن عمر ضعيف متروك الحديث، كما ذكر النسائي وابن أبي حاتم [(٢)]. أما في مجال الأخبار والتاريخ، فيدافع عنه بعض رجال الحديث، يقول عنه الذهبي: « كان إخباريًّا عارفًا » [(٣)]، ويرى ابن حجر أنه « عمدة في التاريخ » [(٤)].

وإذا أكثر الشيعة الملامة على رواية المؤرخين لأخبار سيف بن عمر ذكّرناهم بروايات أبي مخنف، فليس أبو مخنف (لوط بن يحيى) وأمثاله بثقة عندنا، وهو راوي روايات الفتنة في تاريخ الطبري، كما رواها سيف، فلنسقط هذين الراويين وأخبارهما من الحسبان. فلا يحتج كل منا على الآخر برواياتهما ولا بروايات أمثالهما؛ لأننا لو رجعنا إلى علماء الجرح والتعديل لرأينا وصف أبي مخنف مشابهًا لوصف سيف بن عمر؛ إذ كلاهما ضعيف في الحديث قوي في الأخبار والتاريخ: يقول علماء الجرح والتعديل: « أبو مخنف أخباري تالفٌ لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال: مرة ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم... روى عن الصعق بن زهير وجابر الجعفي ومجالد، روى عنه المدائني وعبد الرحمن بن مغراء. مات قبل السبعين ومائة » [(٥)].

قال ابن كثير: « وللرافضة في صفة مصرع الحسين كذب كثير وأخبار باطلة، وفيما ذكرنا كفاية، وفي بعض ما أوردناه نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة

---

(١) انظر: محمد جواد مغنية: تقديمه لكتاب مرتضى العسكري: ابن سبأ (ص ١٢)، (ط٦)، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، نشر التوحيد. وانظر مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٢/ ٤٤٧).

(٢) يقول النسائي في الضعفاء والمتروكين (ص ١٤): « سيف بن عمر الضبي ضعيف. وذكر ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/ ٢٧٨) أن سيف بن عمر: « متروك الحديث، يشبه حديثه حديث الواقدي ». وعند ابن معين في نفس المصدر (٢/ ٢٧٨) أن سيفًا ضعيف الحديث. وذكره الذهبي فيمن له رواية في الكتب الستة، واكتفى بالقول: « ضعفه ابن معين وغيره ». الكاشف (١/ ٤١٦). وفي المغني في الضعفاء (ص ٢٩٢) قال الذهبي: « سيف بن عمر التميمي الأسدي له تواليف، متروك باتفاق ». وعند ابن حجر في التقريب (١/ ٣٤٤): « سيف ضعيف الحديث ». ويقول ابن حبان في المجروحين (١/ ٣٤٥): « سيف بن عمر الضبي الأسدي من أهل البصرة اتهم بالزندقة.. يروي الموضوعات عن الأثبات » ولم يرق اتهامه بالزندقة لابن حجر فقال: « أفحش ابن حبان القول فيه » (تقريب التهذيب ١/ ٣٤٤).

(٣) ميزان الاعتدال (٢/ ٢٥٥).

(٤) تقريب التهذيب (١/ ٣٤٤).

(٥) ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٥/ ٥٠٨)، رقم (٦٩٩٨).

ذكروه ما سقته، وأكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعيًّا، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره » (١).

فهل يكفي أن يكون عنده ما ليس عند غيره من تفاصيل الأحداث مبررًا للرواية عنه، إن « هذا الدفاع في واقع الأمر ضعيف؛ لأن المؤرخ الذي يجترئ على الكذب وغش المسلمين في أعز ما يعتزون به وهو سنّة نبيهم ﷺ لا يتورع أن يدلس عليهم تاريخهم ويدس عليهم الأكاذيب والأساطير » (٢). وهذا ينطبق على أبي مخنف كما ينطبق على سيف بن عمر، فإما أن نردّ رواياتهما معًا أو نعتبرها معًا، وحذفهما وردّهما معًا أحب إليّ وإلى منهج المحدّثين (٣).

وقد أدرك علماء الحديث من أهل السنة ظاهرة الوضع هذه، ورصدوا لها الكتب الكثيرة، وأدركوا أيضًا دور الشيعة - وبالأخص الغلاة منهم - في الكذب في الأحاديث.

وقد سئل الإمام مالك عن الرافضة فقال: « لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون » (٤) وكان يقول: « نزّلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، لا تصدّقوهم ولا تكذّبوهم » (٥).

وإذا كانت الكوفة بلد الغلاة؛ فإن « الكذب في الكوفة نشأ مع التشيع جنبًا إلى جنب » (٦) فقد شبّهها الإمام مالك رحمه الله بدار ضرب الدنانير، فقد قال له أحد الكوفيين: « يا أبا عبد اللَّه، سمعنا في بلدكم أربعمائة حديث في أربعين يومًا، ونحن في يوم واحد

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٨/٢٢٠) دار إحياء التراث العربي - بيروت (١٤١٨هـ).

(٢) عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٥٧).

(٣) بعد صياغتي هذا البحث وقع بين يدي كتاب تناول روايات سيف بن عمر، تحت عنوان (نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي) حيث فنّد صاحبه روايات سيف، وذكر أنه لا يروي غالبًا إلا عن مجهولين ولا يروي عنه إلا مجهولون كشعيب بن إبراهيم الكوفي، وبيّن أقوال العلماء فيه القدامى والمعاصرين، وذكر ممن وافقه في رأيه هذا الشيخ محمد العربي التباني في كتابه (تحذير العبقري من محاضرات الخضري)، ود. أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة النبوية الصحيحة) (١/٣٩). انظر: نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي (قراءة نقدية لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعية) حسن بن فرحان المالكي، كتاب الرياض العدد (٤٢) يونيو (١٩٩٧م)، مؤسسة اليمامة الصحفية (١٩٩٨م). (ص ٤٥ - ١١٠)، ولكنه للأسف لم يتناول بالمنهج نفسه لوط بن يحيى (أبا مخنف الشيعي) الذي عليه المدار في كثير من أحداث الفتنة.

(٤) منهاج السنة (١/١٦).

(٥) المصدر السابق (١/٣٠٩).

(٦) يحيى اليحيى: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (ص ٤٠).

نسمع هذا كله. فقال له عبد الرحمن: ومن أين لنا دار الضرب، أنتم عندكم دار الضرب تضربون بالليل وتنفقون بالنهار » [(١)].

ويروى عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: لم أر أحدًا أشهد بالزور من الرافضة [(٢)] وعن الأعمش أنه قال: أدركت الناس وما يسمّونهم إلا الكذابين، يعني أصحاب المغيرة ابن سعيد [(٣)] وهو من الغلاة وقد تبرأ منه الشيعة.

وظاهرة الوضع في كتب الشيعة لم تسترع أنظار أهل السنة وحدهم، بل تعدّتها إلى غيرهم من الزيدية والمعتزلة، فهذا هو نشوان الحميري يذكر أن بعضهم كان يجمع حكم بزرجمهر وينسبها إلى الأئمة بأسانيد يضعها، فقيل له في ذلك فقال: « ألحق الحكمة بأهلها » [(٤)].

ويقول ابن أبي الحديد: « الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة » [(٥)].

كما رصد علماء أهل السنة ظاهرة الوضع عمومًا بكل إنصاف وحياد، فبيّنوا الأحاديث الموضوعة في فضل كل الصحابة - رضوان اللّٰه عليهم - بلا استثناء، وبدؤوا بالموضوعات في حق أبي بكر الصديق قبل غيره ﷺ، وعلى سبيل المثال: قال العجلوني (١١٦٢هـ): « وباب فضائل أبي بكر الصديق ﷺ أشهر المشهورات من الموضوعات كحديث: « إن اللّٰه يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ». وحديث: « ما صب اللّٰه في صدري شيئًا إلا وصببته في صدر أبي بكر ». وحديث: « كان ﷺ إذا اشتاق إلى الجنة قبّل شيبة أبي بكر ».. وحديث: « أنا وأبو بكر كفرسي رهان ».. وحديث: « إن اللّٰه لما اختار الأرواح اختار روح أبي بكر ».. وأمثال هذا من المفتريات المعلوم بطلانها ببديهة العقل. وباب فضائل علي ﷺ وضعوا فيه أحاديث لا تعدّ، ومن أفضحها الأحاديث المجموعة في الكتاب المسمى بـ (الوصايا النبوية) أول كل حديث: يا علي!، والثابت من تلك الجملة حديث واحد: « **يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى** ». وباب فضائل معاوية ليس فيه حديث صحيح. وباب فضائل أبي حنيفة والشافعي وذمهما ليس فيه شيء صحيح » [(٦)].

---

(١) منهاج السنة (٣٠٩/١).
(٢) منهاج السنة (١٦/١).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) نشوان الحميري: الحور العين (ص ٢٥٣)، مطبعة السعادة (١٩٤٨م).
(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٣٤/٢) (عن السنة ومكانتها في التشريع: ص ٧٦).
(٦) العجلوني (إسماعيل بن محمد الجراحي ت ١١٦٢هـ): كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (٤١٩/٢) دار الكتب العلمية (ط٢)، (١٤٠٨هـ).

لقد نضج علم الحديث عند أهل السنة لدرجة أن الحفّاظ منهم كانوا يميزون - وللوهلة الأولى - بين الصحيح والضعيف؛ ذلك لأن الأحاديث عند أهل السنة قسمت إلى صحيح وحسن وضعيف وموضوع، وصنفت التصانيف في كل نوع من الأنواع، حتى صنّفت للأحاديث المكذوبة الموضوعة كتب مستقلة [1]. ناهيك عن التحذير منها في التصانيف المتنوعة.

قال ابن خلدون في مقدمته: « واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها... ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفطنون إلى أنه قد قلب عن وضعه، ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، حين ورد على بغداد وقصد المحدثون امتحانه، فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها، فقال: لا أعرف هذه، ولكن حدثني فلان.. ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح، وردّ كل متن إلى سنده وأقروا له بالإمامة » [2].

* * *

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

منهج التعامل مع روايات الأئمة عند الاثني عشرية
(بين الأخباريين والأصوليين)

لقد « ظهرت في الساحة الفكرية الشيعية تيارات متعددة، متشددة ومعتدلة في تعاملها مع النص عمومًا، ومع الحديث بشكل أخص » [3]؛ فعلماء الشيعة ليسوا على

(١) من أشهر الكتب التي اختصت بالموضوعات عند أهل السنة (الموضوعات) لابن الجوزي في ثلاثة أجزاء، و (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة) للشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني (ت ٩٦٣هـ) مطبوع في مجلدين، و (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) لابن قيم الجوزية، و (اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، و (تذكرة الموضوعات) لمحمد طاهر بن علي الصديقي الفتني، و (البرق اللموع لكشف الحديث الموضوع) لمحمد بن محمد الخيضري الشافعي (ت ٨٩٤) (انظر: كشف الظنون ١/٢٣٩)، وكتاب (الكشف الإلهي عن شديد الضعف والموضوع والواهي) لمحمد بن محمد بن محمد الحسيني الطرابلسي السندروسي الحنفي (ت ١١٩٧هـ)، و (المصنوع في معرفة الحديث الموضوع) لملا علي القاري. انظر: الرسالة المستطرفة (١/١٤٩).

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٤٤، ٤٤٥)، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط٤).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٠).

خط واحد في التعامل مع النصوص؛ فهناك اتجاه يُعمل العقل في النصوص، فيصحّح ويضعّف، ويقبل ويرفض حسب معايير كثيرة، وهناك اتجاه يصدق كل خبر ورد في النصوص. **وهكذا انقسم الشيعة إلى أصولية وأخبارية.**

ومن هنا نشأت جماعة الأخباريين الذين « عارضوا الاجتهاد وبالتالي شجبوا علم الأصول... وقد شكل هذا فيما بعد تيارًا اتسع في بعض الفترات، ولكنه عاد فتقلص تحت عنوان الأخباريين، والذي اعتبره بعض العلماء موازيًا لتيار الحشوية عند أهل السنة » [(١)].

وقد أدرك علماء السنة وجود هذين التيارين عند الشيعة قديمًا؛ فهذا هو الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) يقول: « صارت الإمامية متمسكين بالعدلية في الأصول والمشبهة في الصفات، متحيرين تائهين، بين الأخبارية منهم والكلامية [أي: الأصولية] سيف وتكفير » [(٢)].

فالأخبارية يقولون بصحة جميع الأخبار المروية، وقطعية روايات الكتب الأربعة (الكافي والتهذيب والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه) بل ذهب بعضهم إلى صحة أخبار غير هذه الكتب من كتب الصدوق وأمثاله، وردّوا استحداث تقسيم الروايات إلى صحيح وضعيف.. إلخ، يقول المحقق البحراني – ممثلًا هذا الاتجاه وقريبًا منه الحر العاملي –: « صرح جملة من أصحابنا المتأخرين بأن الأصل في تنويع الحديث إلى الأنواع الأربعة المشهورة هو العلامة [يعني: ابن مطهر الحلي] أو شيخه جمال الدين بن طاوس – نوّر الله تعالى مرقديهما – وأما المتقدمون فالصحيح عندهم هو ما اعتضد بما يوجب الاعتماد عليه من القرائن والأمارات... وعلى هذا جرى جملة من أصحابنا المحدثين وطائفة من متأخري المجتهدين كشيخنا المجلسي رَحِمَهُ اللَّهُ وجمعٌ ممن تأخر عنه. وقد اتسع خرق الخلاف بين المجتهدين من أصحابنا والأخباريين في جمل عديدة من مسائل الأصول التي تبنى عليها الفروع الفقهية. وبسط كل من علماء الطرفين لسان التشنيع على الآخر، والحق الحقيق بالاتباع ما سلكه طائفة من متأخري المتأخرين كشيخنا المجلسي » [(٣)].

---

(١) التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٠).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (١/ ١٦١) دار المعرفة (١٤٠٤هـ) بيروت، تحقيق محمد سيد كيلاني.

(٣) الحدائق الناضرة (١/ ١٤، ١٥)، والعاملي: الوسائل (٣/ ٢٥١) الفائدة التاسعة. وذكر البحراني أن سبب هذا التنويع قلة العلم: « إن السبب – الداعي إلى تقرير هذا الاصطلاح في تنويع الحديث إلى الأنواع الأربعة – هو أنه لما طالت المدة بينهم وبين الصدر الأول، وبعدت عليهم الشقة وخفيت عليهم تلك القرائن التي أوجبت صحة الأخبار عن المتقدمين. وضاق عليهم ما كان متسعًا على غيرهم. التجؤوا إلى العمل بالظن بعد فقد العلم؛ لكونه أقرب مجازًا إلى الحقيقة عند تعذرها، وبسبب التباس الأخبار غثها بسمينها وصحيحها =

فإذا قال علماء الشيعة هذا القول حول الإسناد، وأنه مستحدث عندهم، فإنه عندئذ لا يستغرب أن يقول أهل السنة: « والإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة، والرافضة من أقل الناس عناية؛ إذ كانوا لا يصدقون إلا بما يوافق أهواءهم، وعلامة كذبه أنه يخالف هواهم، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم. ثم إن أوّلهم كانوا كثيري الكذب، فانتقلت أحاديثهم إلى قوم لا يعرفون الصحيح من السقيم، فلم يمكنهم التمييز إلا بتصديق الجميع أو تكذيب الجميع » [1].

وقد نقل عبد الله المامقاني (ت ١٣١٥هـ) عن أهل هذا الموقف قولهم: « إن أحاديثنا كلها قطعية الصدور عن المعصوم، وما كان كذلك فلا يحتاج إلى ملاحظة سنده » [2]، وقالوا أيضًا: « ولما كان الإمام معصومًا عند الإمامية فلا مجال للشك فيما يقول » [3]، و « إن الاعتقاد بعصمة الأئمة جعل الأحاديث التي تصدر عنهم صحيحة دون أن يشترطوا إيصال سندها إلى النبي ﷺ كما هو الحال عند أهل السنة » [4].

ويا للعجب من أصحاب هذا الرأي! حيث قطعوا بقطعية صدور الحديث عن الأئمة، ولم يقطع كثير منهم بسلامة القرآن من التحريف - كما بيّنّا في مبحث القرآن الكريم - سيرًا وراء بعض الروايات المنسوبة للأئمة؛ فأي القولين أولى بالقطعية والحفظ والسلامة من التحريف؟ كلام الله ﷻ القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] أم الكلام المنقول عن الأئمة؟!

بل أنكر أصحاب هذا الاتجاه الأخباري أي محاولة للأصوليين لتقسيم كتاب الكافي المصدر الحديثي الأول إلى صحيح وغير صحيح، فيقول صاحب كتاب (الكُليني والكافي): « ومع كل ذلك فقد أنكر بعض المتأخرين جملة كبيرة من الأحاديث التي أودعها الشيخ في (الكافي)، فهذا محمد باقر البهبودي قد صير (الكافي) في ثلاثة أجزاء صغيرة وسماه بـ (صحيح الكافي)، ثم أعاد طبعه تحت عنوان (زبدة الكافي)

= بسقيمها التجؤوا إلى هذا الاصطلاح الجديد. وقربوا لنا البعيد، ونوعوا الحديث إلى الأنواع الأربعة » الحدائق الناضرة (١٥/١).

(١) منهاج السنة النبوية (٣٧/٧).

(٢) تنقيح المقال في علم الرجال (١٧٧/١)، وقد خالف المامقاني هذا القول.

(٣) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة (ص ١٤٠).

(٤) المرجع السابق (ص ١٥٨).

ظنًّا منه أنه يحسن صنعًا، وما يدري أن ذلك إساءة كبيرة إلى التراث الشيعي، بل إساءة إلى أهل البيت عليهم السلام »[(١)].

والعجيب أن علي أكبر غفاري - محقق كتاب أصول الكافي - يسطر في نهاية تحقيقه إقرارًا بتضلّع البهبودي وخبرته العلمية قائلًا: « أقدم شكري المتواصل وثنائي العاطر إلى زميلنا المحترم البارع المفضال (محمد باقر البهبودي)، زاد اللّٰه في تأييده، حيث عاضدني في تصحيح الكتاب [أي أصول الكافي] ومقابلته على النسخ المخطوطة »[(٢)]، وهكذا نعلم أن عمل البهبودي لم يأت من اعتباط أو قلّة خبرة، بل من تدقيق ومراجعة ومعرفة.

ولكن هذا المحقق لكثير من كتب التراث الشيعي، و (البارع المفضال!): « لم يلق عمله القبول في الحوزات العلمية » على حدّ قول مرتضى العسكري[(٣)]، وما ذلك إلا لأنه حذف بعض الروايات التي حكم المجلسي في (مرآة العقول) بصحتها مع أنها في حقيقتها تمثل تسربات فكر الغلاة[(٤)].

فهل كان البهبودي غافلًا عن آراء المجلسي؟ أم أنه اطّرحها عن عمد، إن القارئ يمتلك الجواب إذا علم أن البهبودي كان أحد الأعضاء الناطقين باسم لجنة التحقيق والتصحيح لدار الكتب الإسلامية، صاحبة الجهد في تدقيق وتحقيق كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي ذاته؛ حيث يقول عن عمل اللجنة في تحقيق هذا الكتاب: « ولقد بذلنا الجهد عند طبعها في التصحيح، فخرج بعون اللّٰه ومشيئته نقيًّا من الأغلاط... »[(٥)].

ومن اطلع على التراث الشيعي لا يستغرب ما حصل مع البهبودي؛ ففي الماضي قام عدد من مشاهير علماء الشيعة بانتخاب أحاديث أطلق عليها لفظ الصحيح والحسن،

---

(١) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم (١٤١٦هـ)، (ط١).

(٢) علي أكبر غفاري: تحقيقه لأصول الكافي للكليني (٢/٦٧٤)، دار الكتب الإسلامية - طهران (١٣٦٥هـ).

(٣) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٤٣) هامش (١).

(٤) مثل باب أن الأئمة إذا شاؤوا أن يعلموا علموا، وباب أن الأئمة يعلمون متى يموتون ولا يموتون إلا باختيار منهم، وباب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء صلوات اللّٰه عليهم، وغيرها. انظر: د. ناصر بن عبد اللّٰه بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٦٩).

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (١٩/٣٦٧)، وسترى أن اسم البهبودي سيبقى ظاهرًا في الكتاب إلى الجزء الأخير رقم (١٠٧).

مثل « ما انتخبه العلامة الحلي (الحسن بن يوسف ت ٧٢٦هـ) من حديث، ودوّنه في عشرة أجزاء، وسمّاه (الدر والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان)، وكذلك ما انتخبه الشيخ حسن (ت ١٠١١هـ) ابن الشهيد الثاني (زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد العاملي ت ٩٦٥هـ) مقتفيًا أثر العلامة، وسمّاه منتقى الجمان من الأحاديث الصحاح والحسان) لم يتداول في الحوزات العلمية، ولم يعتد به العلماء، وإنما اعتبروا عملهما اجتهادًا شخصيًا،... نسيت مؤلفاتهم في صحاح الأحاديث وحسانها »[١].

وما دام الأخباريون لا يعتنون بالسند تصحيحًا وتضعيفًا؛ فكيف يحكمون على الحديث؟

إن لهم منهجًا آخر، وهو في الحقيقة جزء من منهج الأصوليين، لا كله، ويعتقدون أنهم قد أخذوا هذا المنهج أو هذا المعيار لقبول الحديث أو ردّه من كلام الأئمة من أهل البيت، فهم يرون أنه: « لا ضرورة تلجئ إلى اصطلاحهم [أي الأصوليين]؛ لأنهم عليهم السلام قد أمرونا بعرض ما شك فيه من الأخبار على الكتاب والسنة فيؤخذ بما وافقهما ويطرح ما خالفهما، فالواجب في تمييز الخبر الصادق من الكاذب مراعاة ذلك، وفيه غنية عما تكلفوه، ولا ريب أن اتباع الأئمة عليهم السلام أولى من اتباعهم »[٢].

وقد رفض الأخباريون الاجتهاد وعلم الأصول الموصل إليه، وانكبّوا على الأخبار؛ ولذلك كثرت المصنفات الحديثية في زمن ازدهار الأخبارية (أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الهجري) فكان (بحار الأنوار) للمجلسي، و (الوسائل) للحر العاملي، و (الوافي) للفيض الكاشاني، ومؤلفات السيد هاشم البحراني صاحب تفسير (البرهان)[٣].

- أدلة الأخباريين:

وقد استدل الأخباريون بروايات آل البيت التي تدعو للعمل بالحديث مطلقًا:

- عن علي السائي، عن أبي الحسن عليه السلام أنه كتب إليه في رسالة: « ولا تقل لما بلغك عنا أو نسب إلينا هذا باطل، وإن كنت تعرف خلافه؛ فإنك لا تدري لم قلنا، وعلى أي وجه وصفة »[٤].

---

(١) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣٣٨/٣).

(٢) الحدائق الناضرة (١٦/١).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٠).

(٤) بحار الأنوار (١٨٦/٢)، نقلًا عن البصائر.

- وعن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: « أما واللَّه! إن أحب أصحابي إلي أورعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالًا وأمقتهم إلي الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يعقله ولم يقبله قلبه، اشمأزّ منه وجحده، وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا أُسند، فيكون بذلك خارجًا من ولايتنا » [١].

- وعن سفيان بن السمط، قال: قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام: جعلت فداك، إن الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك بالعظيم من الأمر، فيضيق بذلك صدورنا حتى نكذبه، قال: فقال أبو عبد اللَّه عليه السلام: « أليس عني يحدثكم؟ » قال: قلت: بلى، قال: « فيقول لليل: إنه نهار، وللنهار: إنه ليل؟ » قال: فقلت له: لا، قال: فقال: « ردّه إلينا، فإنك إن كذّبت فإنما تكذّبنا » [٢].

- وفي كتاب سليم بن قيس أن علي بن الحسين عليهما السلام قال لأبان بن أبي عياش: « يا أخا عبد القيس، فإن وضح لك أمر فاقبله، وإلا فاسكت تسلم، ورد علمه إلى اللَّه، فإنك في أوسع مما بين السماء والأرض »، قال أبان: فعند ذلك سألته عما يسعني جهله وعما لا يسعني جهله، فأجابني بما أجابني... » [٣].

- ولهم رواية عن النبي ﷺ: « **من رد حديثًا بلغه عني فأنا مخاصمه يوم القيامة، فإذا بلغكم عني حديث لم تعرفوا فقولوا: اللَّه أعلم** » [٤].

ثم قال صاحب كتاب (الكليني والكافي) بعد أن أورد هذه الروايات: « وهناك عشرات الأحاديث الواردة في هذا المعنى، وقد أحصى منها الشيخ العلامة المجلسي أكثر من مائة حديث، فراجع. فما أكثرها الأحاديث التي لا تدركها عقولنا، أو لا يمكن أن نظفر لها على وجه للجمع بينها وبين غيرها من الروايات، فهل يعني ذلك أن نردها أو ننفيها؟! نعم، ما خالف القرآن والسنة، وما جاء عن المخالفين ونقطع بعدم صدوره عن الإمام، للقرائن الخارجية والأمارات الدالة على كذب الراوي وفسقه وعناده... آنذاك نستطيع أن نشكك في الحديث، أما إذا كان السند صحيحًا والرواة ثقات فلا بد من الوقوف عنده أو رده إلى الإمام؛ لأن حديثهم صعب مستصعب، لا يتحمله إلا عبدٌ

---

(١) بحار الأنوار (١٨٦/٢)، نقلًا عن البصائر. (٢) بحار الأنوار (١٨٧/٢).

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ٦٧). (٤) بحار الأنوار (٢١٢/٢).

امتحن اللَّه قلبه للإيمان، ولا تعي أحاديثهم إلا الصدور الأمينة والأحلام الرزينة » [١].

والحقيقة أنهم نسفوا هذا المنهج عندما قالوا بتحريف القرآن، جريًا وراء تلك الروايات التي أقرّت ذلك الإفك؛ « لأنهم التزموا صحة الأخبار عمومًا وتمسكوا بظاهرها دون بحث أو تنقيب فإن بعضهم وخلافًا لإجماع علماء الشيعة وأعلامهم قد اتجه إلى القول بنقص بعض الآيات في الولاية من القرآن الكريم كالشيخ النوري والسيد الجزائري وغيرهما » [٢]. قال كاشف الغطاء: « القول بالتحريف هو مذهب الأخباريين والحشوية [٣] خلافًا لأصحاب الأصول الذين رفضوا احتمال التحريف في القرآن رفضًا قاطعًا » [٤]. فمسألة قول الأخباريين بتحريف القرآن دليل على أنهم لم يملكوا منهجًا قويمًا في التصحيح والتضعيف.

الاتجاه الأصولي:

وقد وقف في وجه هذا الاتجاه العلماء الأصوليون، وسفّهوا رأي الأخبارية، يقول الطوسي في تفسيره البيان مؤكدًا على ضرورة التدبر في التعامل مع متن الحديث: « تنبيه على بطلان قول الجهال من أصحاب الحديث: (إنه ينبغي أن يروى الحديث على ما جاء وإن كان مختلًا في المعنى)؛ لأن اللَّه دعا إلى التدبر والتفقه وذلك منافٍ للتجاهل والتعامي » [٥].

ويرى الطباطبائي وجود اتجاهين منكرين في التعامل مع الحديث النبوي الشريف: اتجاه الرفض المطلق للأحاديث النبوية، واتجاه القبول المطلق للأحاديث؛ فيقول: « سلك بعض الأخباريين وأصحاب الحديث والحرورية وغيرهم مسلك الإفراط والأخذ بكل رواية منقولة كيف كانت، وكما أن القبول المطلق تكذيب للموازين المنصوبة في الدين؛ لتمييز الحق من الباطل ونسبة الباطل واللغو من القول إلى النبي ﷺ؛ كذلك الطرح

---

(١) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢ - ٤٣٤).

(٢) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٤).

(٣) لماذا هذا الإصرار على ضم الحشوية إلى الأخبارية، مع أن الحشوية لم يقولوا بتحريف القرآن الكريم، بل علمنا أن منهم من بالغ فقال: إن جلدة القرآن قديمة، في ردّة فعل عنيفة على قول المعتزلة بخلق القرآن الكريم؟

(٤) صيانة القرآن من التحريف (ص ٦٤، ٦٥)، وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨).

(٥) الطوسي: البيان (٩/٣٠١)، تفسير الآية (٢٤) من سورة محمد ﷺ.

الكلي تكذيب لها وإلغاء وإبطال للكتاب العزيز » (١).

يقول الخوئي: « لم تثبت صحة جميع روايات الكتب الأربعة، فلا بد من النظر في سند كل رواية منها، فإن توفرت فيها شروط الحجية أخذ بها، وإلا فلا » (٢).

وبين هؤلاء الأخبارية والأصولية سجال وخلاف كبير؛ إذ يدعي كل منهم أنه الأصل في مذهب الاثني عشرية، فالأخبارية يرون أنهم يمثلون الخط الأصيل لعلماء الإمامية وأنهم كانوا يشكلون الاتجاه السائد إلى عصر الكليني والصدوق قبل أن يخرج عن هذا الاتجاه (الأصوليون) فيتأثرون بعلم الأصول وعلم الحديث السنّيين، وبالتالي يعمدون إلى طريق الاستنباط الذي اعتمده أهل السنة.

ويرفض الأصوليون زعم الأخباريين أن « الاتجاه الأخباري كان هو الاتجاه السائد بين فقهاء الإمامية... ولم يتزعزع هذا الاتجاه إلا في أواخر القرن الرابع وبعده حين بدأ جماعة من علماء الإمامية ينحرفون عن الخط الأخباري ويعتمدون على العقل في استنباطهم ويربطون البحث الفقهي بعلم الأصول تأثرًا بالطريقة السنية في الاستنباط [!!] ثم أخذ هذا الانحراف بالتوسع والانتشار » (٣).

وقد صور الشهيد المطهري تأثير هذه المقولات على عامة الناس وتحريكها لعواطفهم المذهبية فقال: « إن مما يبعث على انتشار طراز التفكير الأخباري بين العامة هو إرضاء ما يميل إليه العامة » (٤). وبالفعل نرى هذا الاتجاه الأخباري سائدًا عند قصّاص الشيعة المعاصرين وعامّتهم.

في حين يرى الأصوليون أن الأخبارية هي الطارئة على المذهب، وأنها ظهرت بشكل بارز في أوائل القرن الحادي عشر على يد الميرزا محمد أمين الإسترابادي (ت ١٠٢١هـ) (٥).

---

(١) الطباطبائي: تفسير الميزان (١/٢٣٧).

(٢) أبو القاسم الخوئي: معجم رجال الحديث (١/٩١) المقدمة الخامسة، وانظر: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية، د. عداب محمود الحمش (ص ٤٣٥). فقد بيّن أن علماء الرجال منذ القرن الثالث كأحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤ أو ٢٨٠هـ) إلى الخوئي (١٣٩٨هـ) وثقوا وضعفوا كثيرًا من رجال كتب الأصول الأربعة لدى الاثني عشرية.

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٦٠)، عن المعالم الجديدة للأصول (ص ٨٠).

(٤) الاجتهاد والتجديد (ص ٨٩) عن إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (٣٦١).

(٥) انظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٢). والمعالم الجديدة للأصول (ص ٨٠).

- **التضعيف والتصحيح والجرح والتعديل عند الأصوليين:**

يقسم علماء الشيعة الأصوليون الحديث إلى عدة أقسام أشهرها: الحديث الصحيح، والموثق، والحسن، والضعيف؛ « فالحديث الصحيح منها حجة بلا خلاف بين القائلين بحجية خبر الواحد... وأما الموثق والحسن فالمشهور حجيتهما، وخالف في ذلك جماعة » [(١)].

ويذكر محمد جواد مغنية - بطريقته المحببة بالمذهب - أنه « لا يشترط الإمامية في الراوي أن يكون إماميًا، ويكتفون بصدقه وأمانته، سنيًا كان أو شيعيًا، وقد صرحوا بذلك في جميع كتب الرجال - منها: كتاب تنقيح المقال للمامقاني -: ورد النص عن الإمام أن نأخذ برواية من خالفنا دون ما رآه، وقد لزمنا بذلك العمل بالخبر الموثوق الذي هو في اصطلاح العلماء من كان ثقة غير إمامي » [(٢)].

ولكننا لو رجعنا إلى تعريف الحديث الصحيح عند الشيعة لرأينا أنه يشترط أن يكون بسلسلة إمامية متصلة؛ إذ يعرّف الشيعة الحديث الصحيح: « هو ما اتصل سنده إلى المعصوم عليه السلام بنقل العدل الإمامي عن مثله في جميع الطبقات » [(٣)].

وهم يعتدون برواية غير الإمامي في الحديث الموثّق أو القوي الذي هو دون الصحيح برتبتين، وهذا تفصيل رأيهم في المسألة: (صحيح إن كان كل واحد من رواته ثقة إماميًا. وحسن إن كان الجميع إماميًا ممدوحًا، أو بعضه إماميًا ممدوحًا وبعضه ثقة إماميًا. وقوي إن كان جميع رجاله ثقات مع فساد مذاهب الكل أو البعض، أو بعضه ممدوحًا إماميًا وبعضه ثقة غير إمامي. وضعيف إن كان جميع رجاله أو بعض رجاله ضعيفًا أو مهملًا » [(٤)].

---

(١) انظر تفاصيل أنواع الحديث عند الاثني عشرية: د.عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ١٠٤). رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين بالقاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م)، المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية، د. عداب محمود الحمش (ص ٤٣٤، ٤٣٥).

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨١) عن تنقيح المقال (١/٢٠٦).

(٣) محيي الدين الموسوي: قواعد الحديث (ص ٢٤) عن: د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ١٠٤). رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين بالقاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

(٤) السيد مصطفى التفرشي: نقد الرجال (٥/٣٢٩، ٣٣٠). (ط١)، (١٤١٨هـ)، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

ولكن ما هو مفهوم الثقة إذا كان أبو هريرة (راوية الإسلام) ليس بثقة عندهم؟!

وقد بيّن الدكتور الفرماوي أن الشيعة لا يلتزمون بما ألزموا به أنفسهم في تعريف الحديث الصحيح، وقد ذكر عدة أحاديث منقطعة السند ومع ذلك حكم علماء الشيعة بصحتها، وهذه مخالفة في أصل المنهج (1).

ويشترط في الحديث حتى يكون صحيحًا عندهم وروده من طرقهم برواية « عدل إمامي » (2).

وإذا كان الشيعة لا يعدون رواية من خالفهم صحيحة؛ فإن الأئمة خالفوهم في هذا المنهج، فهذا نافع مولى عبد الله بن عمر أشهر الرواة عند أهل السنة، وسلسلته سلسلة الذهب المعروفة: مالك عن نافع عن ابن عمر ﷺ، ومع ذلك فإن الشيعة لا يعتبرون رواياته؛ في حين اعتمده جعفر وأبوه محمد الباقر في الشهادة على وصيته:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنّ أبي عليه السلام استودعني ما هناك، فلمّا حضرته الوفاة قال: ادع لي شهودًا. فدعوت له أربعةً من قريشٍ فيهم نافعٌ مولى عبد الله بن عمر، فقال: اكتب: هذا ما أوصى به يعقوب بنيه ﴿ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأوصى محمّد بن عليٍّ إلى جعفر بن محمّدٍ وأمره أن يكفّنه في برده الّذي كان يصلّي فيه الجمعة، وأن يعمّمه بعمامته، وأن يربّع قبره ويرفعه أربع أصابع » (3).

ومع ذلك لا وجود لهذا العالم الفقيه المحدث في كتاب الكافي ولا مكانة له بين الرواة فيه، في حين رووا عن بعض من خالفهم كالواقفة.

أما عن جهود علماء الاثني عشرية في مجال الجرح والتعديل؛ فلهم فيه عدة مؤلفات،

---

(١) د. الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ١٠٥)، وعلى سبيل المثال: رواية محمد بن أبي عمير مرسلة، وقد تلفت كتبه فحدّث من حفظه. قال عنه النجاشي بعد أن ذكر تلف كتبه: « فحدث من حفظه، ومما كان سلف له في أيدي الناس، فلهذا أصحابنا يركنون إلى مراسيله » رجال النجاشي (٢/٢٠٤)، وقد روى عن الضعفاء كعلي بن حمزة - لعنه الطوسي وقال عنه الحسن بن فضال: كذاب ملعون - في حين لم يركن أهل السنة إلى روايات ابن لهيعة القاضي المصري الصالح (ت ١٧٤هـ)؛ لأنه اختلط عليه بعد احتراق مكتبته، ونصّوا على ضعف روايته، جاء في الكامل في الضعفاء للجرجاني (٤/١٤٥): « قال عمرو بن علي: عبد الله بن لهيعة كان احترقت كتبه، ومن كتب عنه قبل ذلك مثل بن المبارك والمقبري أصح ممن كتب بعد الاحتراق، وهو ضعيف الحديث ». وانظر: الذهبي: الكاشف (١/٥٩٠)..

(٢) محمد صالح الحائري المازندراني: منهاج عملي للتقريب: الشيخ (ص ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٣) أصول الكافي (١/٣٦٣)، كتاب الحجة باب الإشارة والنص على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق.

وإن لم يتفقوا مع علماء أهل السنة حول كل المعايير التي يتم الجرح والتعديل على أساسها:

« فألّف عبيد اللّه بن أبي رافع كتابًا في « الطبقات » خلال القرن الأول الهجري، وألّف عبد اللّه الكناني (ت٢١٩هـ) كتابًا في « الرجال » وكذلك الحسن بن فضال (ت ٢٢٤هـ) وعلي بن الحسن بن فضال (المولود عام ٢٠٦هـ)، والبرقي (ت ٢٨٠هـ) وغيرهم كثيرون، كابن عقدة والكشي والعقيقي، الذين دُونت أسماؤهم في كتب الفهارس. أما في القرنين الرابع والخامس الهجريين؛ فقد تصدّى العالمان الجليلان الشيخ أحمد بن علي النجاشي (ت ٤٥٠هـ) والشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) لهذه المهمة، وألّفا أربعة كتب رئيسية في علم الرجال، جمعا فيها ما تراكم من تراث رجالي خلال القرون المنصرمة، وهي: (اختيار معرفة الرجال) و (الفهرس) و (الرجال) للشيخ الطوسي، و (الفهرس) المعروف بـ (رجال الكشي) [(١)] » [(٢)].

وتغصّ كتب الرجال الشيعية بالخلافات حول كثير من الرواة، هل هو فلان أم أنه فلان، ويحتمل أنه فلان؛ لكذا وكذا، وعلى سبيل المثال: « محمد بن إسماعيل هذا

---

(١) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي: نسبة إلى « كشّ » (بفتح الكاف وتشديد الشين) وهي قرية من قرى كركان وعلى قولٍ من بلاد ما وراء النهر في حدود منتصف القرن الرابع. ذكر الشيخ الطوسي في الفهرست في ترجمة حياة (أبي عمرو الكشي): (ثقة بصير بالأخبار وبالرجال حسن الاعتقاد، له كتاب الرجال...) الفهرست (ص ١٦٧). كما لم تشتمل عبارة النجاشي على توضيح أكثر من ذلك، فقد اكتفى بذكر أنه: « كان ثقة عينًا، وروى عن الضعفاء كثيرًا، وصحب العياشي وأخذ عنه، وتخرج عليه في داره التي كانت مرتعًا للشيعة وأهل العلم، له كتاب الرجال... » رجال النجاشي (ص ٢٨٨).

(٢) الشيخ محمد علي التسخيري: تقديمه لكتاب: الأصول الأربعة في علم الرجال: للإمام الخامنئي (١٤١٤هـ).

ويرجح الشويشري، ويتابعه الخامنئي تحت عنوان (نسبة الكتاب إلى الشيخ الطوسي ت ٤٦٠هـ) أن كتاب رجال الكشي هو تهذيب الطوسي لهذا الكتاب، وليس الكتاب الأصلي، فيقول: « لقد اختلفوا في نسبة الكتاب إلى الشيخ الطوسي، غير أن أكثر علماء هذا الفن ذهبوا إلى أن الكتاب المذكور هو تهذيب وتنقيح الشيخ الطوسي لكتاب الرجال لأبي عمرو محمد بن عبد العزيز الكشي، وعنوان الكتاب يؤيد هذا الرأي إلى حد ما، أما الرأي الآخر فيذهب إلى أن الكتاب الموجود هو أصل كتاب الكشي وليس هو منتحب الشيخ، ويظهر من كلام أحمد بن طاوس الحلي (ت ٦٧٣هـ) وتلميذيه العلامة الحلي (ت ٧٢٦ هـ) وابن داود الحلي (ت ٦٤٧هـ) الرأي الثاني. إلّا أن هناك قرائن وشواهد تؤيد بشكل قاطع انتساب هذا الكتاب إلى الشيخ الطوسي نفسه، وتؤيد كونه منتخبًا من أصل كتاب الكشي ». ويعزو إلى الشويشري: قاموس الرجال (٣٣/١). وهذا الكلام يزيد من قيمة الكتاب؛ إذ يجعل ما فيه معتبرًا عند عالمين من علماء الشيعة، الكشي أولًا ثم الطوسي إمام الشيعة في زمانه.

الاسم مشترك بين ثلاثة عشر رجلًا، ثلاثة منهم ثقات معتمدون، وهم محمد بن إسماعيل بزيع، ومحمد بن إسماعيل بن ميمون الزعفراني، ومحمد بن إسماعيل بن أحمد البرمكي، والعشرة الباقية لم يوثق علماء الرجال أحدًا منهم، ولما اتفق علماؤنا على تصحيح ما يرويه المصنف عن محمد بن إسماعيل، وكان الظاهر أن روايته عنه بلا واسطة ولا حذف - ظهر أن ليس المراد أحد هؤلاء العشرة، على أنهم عدوا ستة منهم من أصحاب الصادق ﷺ، وبقاؤهم إلى زمان المصنف بعيد جدًّا؛ فتعين أن يكون أحدًا من الثلاثة المذكورين أولًا » [(١)].

وقد وقع الخلط في رواية أخرى بين هذه الشخصيات، ومن الغريب أن المجلسي جمع في حديث فيه هذا الراوي بين الصحة والجهالة: فقد ورد في هامش شرح المازندراني: « اختلاف العلماء في محمد بن إسماعيل هذا معروف، والصحيح قول السيد الداماد: إنه النيسابوري المعروف ببندفر. وقال المجلسي رحمه الله: في إسناده مجهول كالصحيح [!!] وليس في الإسناد مجهول إلا أن يكون محمد بن إسماعيل هذا » [(٢)].

حجية حديث الآحاد عند الاثني عشرية:

إذا نظرنا إلى موقف الاثني عشرية من حديث الآحاد، وهو كل حديث صحيح لم ينقل بالتواتر؛ فإن هنالك مذهبين واضحين؛ أما الأول، فهو مذهب الأخباريين الذي يقبل الحديث الآحاد، وكيف لا يقبل الأخباري حديثًا آحادًا صحيحًا ما دام يرى قطعية كل الكتب المروية عن الأئمة دون تمحيص ودون أن يقسمها إلى صحيح وضعيف؟! فلأن يقبل الصحيح الآحاد من باب أولى.

أما من فرّق بين الصحيح وغيره كالأصوليين؛ فإنهم نصوا على أن الآحاد لا يفيد اليقين؛ ولذلك قال المفيد - معبرًا عن هذا المذهب -: « الأحاديث التي رويت في صفة الملائكة الحاملين للعرش أحاديث آحاد، وروايات أفراد لا يجوز القطع بها ولا العمل عليها، والوجه الوقوف عندها والقطع على أن الأصل في العرش هو الملك، والعرش المحمول جزء من الملك، تعبّد الله بحمله الملائكة على ما قدمناه » [(٣)].

---

(١) مولى محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٢/١٦).

(٢) انظر: هامش: المازندراني شرح أصول الكافي (٤/٢٧٧). وانظر: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية، د.عداب محمود الحمش (ص ٤٥٠).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٦٢).

وهذا الرأي مستعار من المعتزلة، فقد اتفقت كلمة المعتزلة على عدم جواز الاعتداد بأخبار الآحاد في مجال العقيدة، ويأتي ذلك نتيجة حتمية لما سبق أن قرروه من إفادتها الظن وقصورها عن الارتقاء إلى مرتبة اليقين، ولما كانت مسائل العقيدة لا يقبل فيها سوى القطعيات؛ لم يصحَّ الاحتجاج عندهم بأخبار الآحاد في إثباتها أو التدليل عليها » [١].

أما عند أهل السنة فإن المحدثين عمومًا جروا على وجوب قبول حديث الآحاد ما دام صحيحًا، وهو رأي الإمام الأشعري من أهل الكلام، فإن الأشعري ذاته لم يفرق بين الآحاد والمتواتر من حيث الاستشهاد في كتابه الإبانة عندما قال: (وما رواه الثقات عن رسول اللّٰه لا يردون من ذلك شيئًا) [٢]، وقد استشهد بها في الإبانة، وإن كان أتباعه من بعده تدرجوا حتى اقتربوا من منهج المعتزلة والاثني عشرية في ردّ حديث الآحاد، وذاك تطور ملحوظ في المذهب لا يجوز أن يغفل [٣].

مثال يوضح الفرق بين منهج الأصوليين والأخباريين:

- حول ما روي عن حمارٍ كلّم النبي ﷺ:

روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: « إنّ ذلك الحمار كلّم رسول اللّٰه ﷺ فقال: بأبي أنت وأمّي! إنّ أبي حدّثني عن أبيه عن جدّه عن أبيه أنّه كان مع نوحٍ في السّفينة، فقام إليه نوحٌ فمسح على كفله ثمّ قال: يخرج من صلب هذا الحمار حمارٌ يركبه سيّد النّبيّين وخاتمهم. فالحمد للّٰه الّذي جعلني ذلك الحمار » [٤].

علق المجلسي على هذه الرواية: قائلًا: « ولا يستبعد من كلام الحمار من يؤمن بالقرآن

---

(١) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ١٥٢).

(٢) أبو الحسن الأشعري: الإبانة (ص ٢٧).

(٣) « وتظهر أول بادرة للتفريق بين الآحاد والمتواتر في الاحتجاج على المسائل العقدية عند الباقلاني، والذي يرى أن خبر الواحد لا يوجب العلم وإنما يوجب العمل، ويرى قبوله إن تلقته الأمة بالقبول (التمهيد ص ١٦٤)، ثم استقر المذهب فيما بعد الجويني على اعتبار أن الآحاد لا يعول عليها في مجال العقيدة وصرح به الغزالي (في المنخول والمستصفى (١/١٤٥) وإلجام العوام (ص ٧٧)) والآمدي في غاية المرام (ص ٣٦٨)، وابن العربي في العواصم من القواصم (ص ١٧٢)، والتفتازاني وابن جماعة، والإيجي في المواقف (ص ٣٦١). والرازي الذي حكى الاتفاق بين الأصوليين على عدم اعتماد الآحاد في العقائد: في المطالب العالية (٩/٢٠٣) وعصمة الأنبياء (ص ١٠٥). انظر: د. قوشتي حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد قوشتي عبد الرحيم (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٤) أصول الكافي (١/٢٩٣) باب ما عند الأئمة من سلاح رسول اللّٰه ومتاعه.

وبكلام الهدهد والنمل وغيرهما » وهذا يدل على منهج أخباري واضح.

في حين قال محمد جعفر شمس الدين محقق أصول الكافي: « ونحن وإن كنا نؤمن بما قصه اللَّه سبحانه علينا من كلام الهدهد والنمل وغيرهما، ولكننا لسنا أمام قرآن يحدثنا فنعلم قطعيته صدورًا ودلالة؛ وإنما نحن أمام قول من دون سند مصدّر بمقولة (روي) ولكن أين روي ومن الراوي؟ هذا من جهة... لكل ذلك نميل إلى طرح ذيل هذه الرواية، بل نميل إلى أنها من جملة المدسوسات التي كان أبو الخطاب أو ابن أبي العوجاء الذي دسها ليشنّع علينا ويشكك في مروياتنا وأحاديثنا، كما ثبت أن هذين وأمثالهما قد دسَّا في أحاديث أهل البيت مئات الأحاديث المكذوبة عليهم، والحديث ضعيف وآخره مرسل » [(١)].

من هذا المثال نرى الفرق بين منهج المجلسي (الأخباري) الذي يرى صحة ما روي عن الأئمة دون تمحيص فيدافع عن هذا الخبر الواهن الواهي الذي لا معنى له، حيث لم يكن أصلًا في سفينة نوح إلا حمار واحد لقوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فلا بد من أن يكون عفير (كما جاء اسم الحمار في رواية الشيعة) من نسل ذلك الحمار الوحيد على السفينة، وكذلك كل حمير الدنيا من نسل ذلك الحمار!.

أما محقق أصول الكافي فيسلك مسلك الأصوليين فيمحص في الخبر، ولكن لنا معه وقفة أن هذا الخبر لا ينال من شيء من أمور عقائد التشيع الخاصة كالإمامة؛ ولذلك فإعمال العقل فيه سهل ولا مندوحة فيه، أما عندما تتعلق المسألة بأمر من أمور العقائد - كالإمامة وصفات الإمام - فهناك كثير من الروايات كانت تحتاج من المحقق الوقوف عندها ومناقشتها، ولكنه لم يفعل، بل أقر بصحتها رغم مخالفتها لصريح القرآن الكريم؛ كالقول بوجود الكتب السماوية غير محرفة عند الأئمة، وقد ذكر لنا القرآن تحريف تلك الكتب عند أهلها.

ثم لما ذكر المحقق وجود دسٍّ من الغلاة في كتب الشيعة، لم يحدد لنا هذا الدس، ويبين الأحاديث المدسوسة من غيرها، وهكذا تصبح كل رواية تخالف المذهب من دسائس الغلاة!.

---

(١) أصول الكافي (٢٩٣/١) باب ما عند الأئمة من سلاح رسول اللَّه ومتاعه. هامش رقم (٣).

الحكم بالتضعيف عند الشيعة لا يعني عدم الاعتماد على الحديث:

ليس الكلام هنا عما ورد عن أهل السنة [١] وأهل التشيع من الاستئناس بالحديث الضعيف الذي لم يصل دركة شديدة الضعف. فقد قال بذلك كتّاب من أهل السنة والشيعة على السواء: يقول الشهيد الثاني (زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد العاملي ت ٩٦٥هـ): « جوّز الأكثرون العمل بالحديث الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في نحو صفات الله تعالى، وأحكام الحلال والحرام، وهو حسن حيث لا يبلغ بالضعيف حد الوضع والاختلاق، لما اشتهر بين العلماء المحققين من التساهل بأدلة السنن، وليس في المواعظ والقصص غير محض الخبر » [٢]. بل جاء في إحدى الروايات عن أبي عبد الله عليه السلام: « من سمع شيئًا من الثواب على شيء فصنعه؛ كان له أجره، وإن لم يكن على ما بلغه » [٣]!!.

بل الكلام عما يدور حول تصحيح روايات اثني عشرية ضعيفة، ما دامت تخدم المذهب؛ مما يجعل التضعيف والتصحيح مزاجيًا انتقائيًا. فمن المعلوم في علم الحديث أن كثرة رواية الراوي عن الضعفاء دون ضوابط تتسبب بتضعيف رواياته وجرحه، ولكن عبد الرسول غفار يدافع عن الرواية عن المخالفين للاثني عشرية؛ فيقول مدافعًا عن ابن محبوب الذي روى عن أحد الواقفة هو علي بن حمزة البطائني [٤]: « فالمتعين هو علي بن حمزة البطائني حيث كان معاصرًا لابن محبوب، ثم في رواية الثقة عن غيره من المخالفين لا يقدح في عدالة الراوي الثقة، كما أن الكذوب قد يصدق، فلو كان الخبر المنقول وفق الموازين السليمة فلا ضير فيه » [٥].

---

(١) هناك أربعة أقوال متعددة في حكم العمل بالحديث الضعيف عند أهل السنة، وأوسطها - والله أعلم - العمل به بشروط: وهي (ألا يكون شديد الضعف، ويندرج تحت أصل معمول به في الدين، وألا يعتقد ثبوته عند العمل به، بل الاحتياط) راجع الأستاذ الدكتور: مصطفى البغا: بحوث في علوم الحديث ونصوصه (ص ١٣٥، ١٣٦)، منشورات كلية الشريعة - جامعة دمشق.

(٢) مقباس الهداية (١/١٩٢). وانظر: شرح المازندراني على أصول الكافي (٨/٢٧٥).

(٣) الكليني: أصول الكافي مع شرح المازندراني (٨/٢٧٤)، وقال في شرحه: الحديث حسن الطريق، مؤيد بالخبر الذي بعده، وساق رواية قريبة منه تؤيده.

(٤) جاء في رجال النجاشي: « روي عن أبي عبد الله عليه السلام، ثم وقف، وهو أحد عمد الواقفة » رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠) مؤسسة النشر الإسلامي - قم (١٤١٦هـ) ومع ذلك كان هو قائد أبي بصير - الراوي المكثر عن الأئمة - وروى عنه عدة روايات. وله في الكافي (٤٦) رواية كما بيّنت عند الحديث عن كتاب الكافي.

(٥) عبد الرسول عبد المحسن غفار: الكافي والكليني (ص ٤٧٦)، مؤسسة النشر الإسلامي (١٤١٦)، =

وأي موازين سليمة مع قوله: (الكذوب قد يصدق)؟ لم يبق من هذه الموازين إلا موافقة ضرورات مذهب الاثني عشرية!

وعلى سبيل المثال: رواية تعلل عدم دخول آدم عليه السلام في أولي العزم من الرسل؛ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ.. ﴾ [آل عمران: ٨١]: « عن أبي جعفر.. ثم أخذ الميثاق على النبيين... قالوا: أقررنا يا رب ولم يجحد آدم ولم يقرّ، فثبتت العزيمة لهؤلاء الخمسة في المهدي، ولم يكن لآدم عزم على الإقرار به، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥] ». « هذا الحديث حكم عليه محقق أصول الكافي بأنه مجهول، ومع ذلك قال في شرحه للحديث: « يفهم من هذا أن آدم عليه السلام لما لم يعزم على الإقرار بالحجة (عج) [(١)] خرج عن كونه من أهل العزم » [(٢)].

فما دام الحديث مجهولًا ما كان ينبغي زيادة التأكيد والتفهيم والتوضيح حوله، « ومن المعلوم أن تجرد الرواية الضعيفة من أي قيمة علمية » [(٣)]. وهذا الاهتمام

= وكلامه غير مسلَّم به، فقد اتهم بعض الأصحاب من الشيعة ابن محبوب بسبب روايته عن أبي حمزة الثمالي. قال الخوئي: معجم رجال الحديث (٨٦/٣): قال الكشي عن نصر بن الصباح: ما كان أحمد بن محمد ابن عيسى يروي عن ابن محبوب؛ من أجل أن أصحابنا يتهمون ابن محبوب في روايته عن أبي حمزة الثمالي، ثم تاب ورجع عن هذا القول ». إضافة إلى روايته عن الواقف (علي بن أبي حمزة) ومع ذلك يبقى هذا الراوي من الثقات عند الشيعة.

وقد روى عدة من المحدثين أحاديث الحسن بن محبوب عن علي بن أبي حمزة؛ فقد روى له الكليني في الكافي (١٣٨/٣): عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن علي بن أبي حمزة قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: « المرأة تقعد عند رأس المريض وهي حائض في حد الموت؟ فقال: لا بأس أن تمرّضه، فإذا خافوا عليه وقرب ذلك فلتتنحّ عنه وعن قربه، فإن الملائكة تتأذى بذلك »!! وحديث آخر (٣٠٨/٣)، و (٢١٠/٨)، وروى له في ما لا يحضره الفقيه عن ابن محبوب أيضًا (٣٩١/٢)، والصدوق في إكمال الدين وتمام النعمة (ص ٢٣٤) عن أبي بصير عن الصادق: إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام ». ولهذا نرى أن السبب في الرواية عن هذا الرجل طول صحبته لأبي بصير، وروايته لأحاديث مهمة تدعم عقيدة الإمامة.

(١) رمز لدعائهم للإمام: عجل الله فرجه، أي خروجه وظهوره من غيبته الطويلة.

(٢) أصول الكافي (١١/٢) كتاب الإيمان والكفر (٣) باب آخر منه (زيادة وقوع التكليف الأول). انظر هامش رقم (١). وترد عليه رواية تعلل تسميتهم بأولي العزم؛ لأنهم أنزل عليهم كتب ألزم من بعدهم باتباعها انظر: أصول الكافي (٢١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، وهي رواية موثقة.

(٣) الشيخ محمد حسين الفقيه: لماذا أنا شيعي؟ (ص ٧٤)، دار الغدير للدراسات والنشر - بيروت (ط٣)، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

بالضعيف وشرحه يدل على جواز الاستدلال به في موضوع خطير وهو الإقرار بالإمام، وإن كان هذا الحديث يتعارض مع روايات أخرى تؤكد التوقف عن الإقرار بالأئمة تخرج المرء من دائرة الإيمان!.

فكيف يتجرأ الرواة والشارحون على مقام أبي البشر آدم عليه السلام فينسبون إليه ما يحذرون منه عامة الناس، وهو خطر إنكار الأئمة؟!.

إن أهمية موضوع الإمامة في الفكر الشيعي وما يقترب من محيطها يجعل التصحيح والتضعيف دون معيار؛ فيضرب الصفح عن علم الرجال والجرح والتعديل، فهناك عقيدة يجب تثبيتها بأي وسيلة.

ومن أجلى أمثلة ذلك ما جاء في (باب أن الحجة لا تقوم للَّه على خلقه إلا بإمام) في الكافي. « وفيه أربع روايات.. الصحيح الذي فيها أحد رواته داود البرقي من أصحاب الصادق، نص النجاشي في رجاله أنه كان من الغلاة، وقال عنه الغضائري إنه كان فاسد المذهب، يأتي بالموضوعات. ومع ذلك صححه المجلسي » [(١)]!.

فإذا كنا نخشى من غلو الأخباري في قبول كل حديث في الأصول الأربعة، على ما فيها من أخبار غير مقبولة؛ فإنا نخشى أيضًا التصحيح والتضعيف عند الأصوليين على مقياس (الحفاظ على ضرورات المذهب) وعلى قاعدة (الكذوب قد يصدق) والتصحيح والتضعيف كيفيًّا، وهو ما يشم من قول أحدهم: « إنما يكون الحديث حجة على الشيعي الذي ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية، وهذه نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد لكل من له الأهلية؛ فإن الاجتهاد يكون في صحة السند وضعفه، كما يكون في استخراج الحكم من آية أو رواية » [(٢)].

وهذا هو في الحقيقة أسُّ الخلاف بين أهل السنة والاثني عشرية: قضية الحديث النبوي، وكيفية الحكم على الحديث، والاتفاق على الأحاديث المشتركة بين الطائفتين؛ ولذلك أدرك الإمام المحدث المفسر ابن كثير: استحالة الحوار دون وجود قواسم حديثية مشتركة؛ حيث قال بعد أن ساق أحداث الفتنة - وفيها ما فيها من خلاف بين روايات الطائفتين -:

---

(١) المجلسي: مرآة العقول (٢/٢٩٣)، وانظر: أحمد حارس سحيمي توثيق السنة: بين الشيعة الإمامية وأهل السنة في أحكام الإمامة ونكاح المتعة (ص ٣٣٤، ٣٣٥). ماجستير دار العلوم. دار السلام - القاهرة (٢٠٠٣م)، (ط١).

(٢) باقر شريف القرشي: سلامة القرآن الكريم من التحريف (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م). (ص ٧٠).

« هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ عن أئمة هذا الشأن، وليس ما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلقة على الصحابة والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها، وإذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه، وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] » [١].

أصوليون ولكنّهم أخباريون!:

ومن الملاحظ أن الأصوليين وهم المشهورون بجسارتهم على التضعيف والتصحيح - يتحولون إلى أخباريين لا قدرة لهم على رد الحديث أو مناقشته ما دام هذا الحديث يتناول مسائل تتصل بضروريات المذهب كمسألة المهدي المنتظر وما شابه ذلك من مسائل.

يقول السيد محمد الصدر في مقدمة كتاب (تاريخ الغيبة الصغرى): « الأمور التي هي من ضروريات مذهبنا أو قام عليها بالتواتر في النقل فإننا نعتبر ذلك إثباتًا تاريخيًا كافيًا » [٢].

وهكذا نرى أنه يساوي بين ضرورة المذهب والتواتر! مع أن المنطق يقول: إن التواتر هو السبيل لوصول فكرة ما لتصبح ضرورة من ضروريات المذاهب.

وعندما يحتاج الاثنا عشرية إلى أحاديث تدعم مسألة عقدية؛ فلن يتورع علماؤهم عن الاستشهاد بأحاديث لها أسانيد واهية فيها الضعفاء والمجروحون، وعلى سبيل المثال: « نرى الشيخ الطوسي الذي ألّف (الفهرست) [٣] و (الرجال) في علم الرجال ينقل تلك الروايات عن رجال يضعفهم في كتبه، وذلك بسبب الحاجة إلى تلك الروايات لبناء نظرية كلامية معينة » [٤]. وعلى سبيل المثال: رواية أبي الأديان البصري، وهو مجهول غير معروف [٥].

---

(١) البداية والنهاية (٢٥٧/٧).

(٢) انظر السيد محمد الصدر في مقدمة كتاب (تاريخ الغيبة الصغرى) (ص ٣٣ - ٤١)، وقد نقلت هذا النص من كتاب المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية، د. عداب محمود الحمش (ص ٤١٥).

(٣) لاحظ أن الفهرست للطوسي غير الكتاب المشهور (الفهرست) لابن النديم: (محمد بن إسحاق أبو الفرج) الذي يتحدث عن المؤلفات العلمية وأصحابها.

(٤) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٥)، انظر المرجع السابق (ص ٢١٠).

(٥) المرجع السابق (ص ٢١٠). وتذكر المصادر الشيعية كالصدوق في كمال الدين (٤٧٤/١) أنه كان خادمًا للحسن العسكري، لكن لا تذكر أي معلومات حوله، بينما تذكر مصادر أهل السنة أنه من شيوخ=

في حين وجدنا من علماء الشيعة المعاصرين - كالسيد مرتضى العسكري - من يستخدم التضعيف والتصحيح لصالح آرائه، فتراه يبذل « جهودًا مضنية » لكي ينفي وجود عبد اللّٰه بن سبأ ودوره في الفكر الشيعي، ولكنه لم يبذل واحدًا بالمائة أو بالألف من الجهود ليبحث عن حقيقة وجود الإمام الثاني عشر، أو يدرس تلك الروايات التي تتحدث عن ولادته، ولم يتوقف عندها في كتاب من كتبه، وهو الذي اكتشف وجود مائة وخمسين صحابي مختلق!! (١) - حسب زعمه - ولو حكّم هو وأمثاله تلك القواعد التي انتقد فيها روايات أهل السنة في الروايات الشيعية لوصل إلى إنكارها وحكم بوضعها، ولكنه لن يفعل، فالتضعيف والتصحيح صار ذاتيًّا لا معياريًّا عند هذا الكاتب وأمثاله.

« ولو أن علماء الشيعة الإمامية قاموا بنقد مصادر الاعتقاد والفكر والتشريع والتاريخ، وأوضحوا لمقلديهم أن هذه الروايات التي بنيت بعض العقائد وكثير من المواقف الشيعية عليها غير صحيحة بل هي باطلة،... وهي أثر من آثار الصراع الطائفي القديم؛ لكان أبناء الشيعة الإمامية في طليعة المسلمين دينًا وإيمانًا وخلقًا؛ لأن في تربيتهم من الانقياد للمجتهد الحي ما يساعد على ذلك » (٢).

ولذلك فإننا « ننادي الشيعة بنبذ تلك الروايات التي تخالف كتاب اللّٰه والعقل الصريح، والتي تمثل الغالبية العظمى في هذه الكتب، إننا نناديهم بأن يخطوا خطوة شجاعة فيفعلوا كما فعل أهل السنة؛ حيث أخرج أهل السنة كتبًا خاصة بالأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وكتبًا خاصة بالأحاديث الموضوعة والمكذوبة، وكتبًا خاصة بالأحاديث الضعيفة وهكذا... وبهذا تبرأ الذمة ويذبّ عن الكتاب والسنة » (٣).

* * *

= الصوفية. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٥/٣٨٠)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٥/٤٩٠).

(١) د. عداب محمود الحمش: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية (ص ٤٢٢).

(٢) المرجع السابق (ص ٤٠٩).

(٣) علماء الشيعة يقولون: وثائق مصورة من كتب الشيعة، إعداد مركز إحياء تراث آل البيت (ص ٦). والحقيقة أن بعض علماء الشيعة مشوا على هذا الطريق، والأمة تطالبهم بمتابعة المسير فيه بجرأة وجدّية، وتطالب إخوانهم بتشجيعهم وتأييدهم.

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

ردود على بعض شبهات كتّاب الشيعة حول الحديث النبوي

من الأمور التي تسترعي الاهتمام أن كتّاب الشيعة ينقلون من أمهات الكتب الحديثية لأهل السنة؛ وذلك إما بقصد الحجاج، أو دعم آرائهم العقدية، أو الاستكثار من الأحاديث فيما لا يمس عقيدة الإمامة، فيأخذون من الصحيحين ما يوافقهم، في حين أن أهل السنة لا يروون عن كتب الاثني عشرية؛ وذلك لاستقلال أهل السنة في مصادرهم وشروط قبول الحديث عندهم، ولما شاع لدى السنة من اتهام رواة الاثني عشرية بالوضع؛ مما سبب في النهاية قلة اطلاع كثير من علماء السنة على أحاديث الشيعة، وبالتالي الجهل العميق بمنهجهم وعقائدهم.

وإن عدم اطلاع أي فريق على أدلة خصومه وأسلحته سيؤدي إلى ضعف الحجة لدى مناقشته، وخصوصًا إذا كان هذا الخصم مطلعًا على أدلة خصمه محيطًا بها، وهذا سيؤدي إلى فتنة للعامة.

فعلى علماء أهل السنة المعاصرين – وخصوصًا من يحتكّون بالاثني عشرية أو يسعون للتقريب بين المذاهب الإسلامية – أن يكونوا على تضلّع ومعرفة بما في كتب الشيعة.

وهذا ليس بدعًا من القول؛ فقد كان العلماء السابقون من أهل السنة على اطلاع واسع على كتب الفرق الأخرى ومقالاتهم، ومن قرأ كتاب (مقالات الإسلاميين) للأشعري، يقر بما كان عند علماء المسلمين القدامى من سبر واسع لأفكار وكتب الفرق الأخرى.

ومن المؤسف أن بعض كتّاب الشيعة المعاصرين جلسوا في خندق واحد مع المستشرقين في حملة التشكيك بالسنة النبوية. ومن أمثلة ذلك أنهم يستشهدون في ضرب السنة والحديث بما ذكره المستشرقون في افتراءاتهم، وينقلون عن أذناب المستشرقين كأبي رية، و (يؤستذونه) كأنه عملاق من عمالقة الحديث النبوي!! فهذا أحدهم يقول ناقلًا وماشيًا وراء أبي رية حذو القذة بالقذة: « قال الأستاذ أبو رية: كان من آثار تأخير تدوين الحديث وربط ألفاظه بالكتابة إلى ما بعد المائة الأولى من الهجرة وصدر كبير من المائة الثانية أن اتسعت أبواب الرواية وفاضت أنهار الوضع بغير ضابط ولا قيد » [1].

---

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٦١)، عن أبي رية: أضواء على السنة المحمدية (ص ١٨٨).

ويغفل هؤلاء أن مكايد المستشرقين والعلمانيين وأذيالهم تنال من الحديث النبوي السني والشيعي على السواء، ولكنه التعصب المذهبي المقيت يأتي بالخراب على صاحبه قبل الآخرين.

والسنة النبوية محفوظة بحفظ اللَّه تعالى، ولن تصمد شبهات هؤلاء في وجه السنة ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

وعلى حد قول الشاعر:

كناطحٍ جبلًا يومًا ليوهنه فلم يضره وأوهى رأسه الوعل

وتأمل - بشيء من الصبر والحلم - قول أحدهم مشككًا في السنة الشريفة: « وجاء في كتب السنة أنفسهم أن جماعة منهم تعمد وضع الأحاديث على لسان رسول اللَّه، واحتجوا بأنهم يكذبون تأييدًا لدينه وانتصارًا لشريعته » [١].

ومعلوم أن العلماء نخلوا الأحاديث فبيّنوا صحيحها من سقيمها، ثم هذا النص أخذه جواد مغنية عن كتاب (أضواء على السنة المحمدية) لأبي رية [٢]. وهذا الكتاب غير معترف به عند أهل السنة، ولا يصح الاستدلال به على أهل السنة. ولو جاز للشيعة أن يحكموا بمثله على أهل السنة، جاز إذن أن نحكم على الشيعة من خلال كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)، ولكن العجيب أن دور النشر الشيعية في العالم العربي تنشر كتاب أبي رية بناءً على إطراء علماء الشيعة له، وتتبنى تسويقه وإذاعته رغم إنكار العالم الإسلامي له ولأمثاله من الكتب التي تطعن في الحديث النبوي؛ فقد وجدْتُ عددًا من نسخه عند عدد من الدور الشيعية في معرض الكتاب الدولي في دمشق، وعلى سبيل المثال مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، وهي دار شيعية بحتة.

- ويتهم كتّاب الشيعة الصحابة عمومًا بالوضع بالأحاديث، ولم يتورع بعضهم أن ينسب إلى أبي بكر ﷺ ذلك أيضًا، يقول أحدهم في حق صحابة النبي ﷺ عمومًا وأبي بكر ﷺ خاصة: « ولن يتركوا الرئاسة بسبب كلام اللَّه، غاية الأمر أن أبا بكر يحل المسألة بوضع حديث كما حصل بالنسبة لآيات الإرث، أما عمر فلا يستبعد منه أن يقول في آخر الأمر: إن اللَّه أو جبرئيل أو النبي قد اشتبهوا في هذه الآية فيتركها، والسنة

---

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨٦).

(٢) أبو رية: أضواء على السنة المحمدية (ص ١٠٢)، (١٩٥٨م).

حينئذ ستتبعه، كما تبعوه في جميع تغييراته التي أوجدها في دين الإسلام » [١].

مع أن أبا بكر ﷺ قال للصحابة في أول خلافته: « أيها الناس فإني قد ولّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني » [٢]. وفي طبقات ابن سعد: « أيها الناس! إنما أنا متبِـع ولست بمبتدِع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني » [٣]. فمن رام الابتداع في الدين لم يكن ليبدأ خلافته بتشجيع الصحابة على نصحه وتقويمه. ثم إن من بين الذين خاطبهم في هذه الخطبة الجليلة علي ﷺ الذي لم يكن يخاف في اللّه لومة لائم، فهل شعر من اتهم الصحابة بمجاراة أبي بكر واتباعه أنه في الحقيقة ينال من علي ﷺ الذي كان كثير النصح لأبي بكر، وعمر وعثمان من بعده؟!.

- ولما كان عمر ﷺ يخوّف الناس باللّه حفاظًا على سنة النبي ﷺ؛ ولذلك لم يكن يقبل أي حديث إلا بعد الوثوق منه بالبينة خوف الوضع في الحديث، استغل بعض كتّاب الشيعة ذلك فقال أحدهم: « فنعتقد أن الهدف الأساس من منع رواية الحديث ونقله هو الهدف من منع تدوينه وتقييده وضبطه، وهو إخفاء الأحاديث الدالة على إمامة أمير المؤمنين علي ﷺ، وعلى أساس سياسة مدبّرة » [٤].

مع أن عمر ﷺ كان يهدف من تحفّظه ضبط السنة، ومنع الوضع في الحديث، فقد قال معاوية ﷺ: « إياكم وأحاديثَ إلا حديثًا كان في عهد عمر، فإن عمر كان يخيف الناس في اللّه ﷻ » [٥].

وقد كان عمر يتشدد في قبول الحديث ويطلب البينة على الحديث في أي موضوع كان، وعلى سبيل المثال: حديث الاستئذان: عن عبيد بن عمير: « أن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثًا، فكأنه وجده مشغولًا فرجع، فقال عمر: ألم تسمع صوت عبد اللّه بن قيس؟ ائذنوا له، فدعي له، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إنا كنا نؤمر بهذا. قال: لتقيمن على هذا بينة أو لأفعلن. فخرج فانطلق إلى مجلس من الأنصار، فقالوا: لا يشهد

---

(١) روح اللّه الخميني: كشف الأسرار (ص ١٢٦)، عن علماء الشيعة يقولون (ص ٨٧)، مصورة من أصل الكتاب.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٢/٢٣٨).

(٣) طبقات ابن سعد: الطبقات الكبرى (٣/١٨٣)، ابن عساكر: تاريخ دمشق (٣٠/٣٠١).

(٤) محمد رضا الحسيني الجلالي: تدوين السنة الشريفة (ص ٤٧٠)، (ط٢)، (١٤١٨هـ) مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة رقم (١٠٣٧).

لك على هذا إلا أصغرنا، فقام أبو سعيد فقال: كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ؟! ألهاني عنه الصفق بالأسواق » [(١)]. والعجيب أن الكاتب يأتي من هذا الحديث بما يعجبه، فلا يذكر من هذه الرواية إلا قول عمر: « والله لتقيمن عليه بينة » وفي لفظ: « أقم عليه البينة وإلا أوجعتك » ليستدل بها على العنوان الذي اجترأ عليه قائلًا: (عمر يهدد الصحابة على الحديث ويهينهم) [(٢)] [يقصد بسبب رواية الحديث]. ولا يذكر خضوع عمر لأبي سعيد وهو من صغار السن بين الصحابة، في آخر عبارة في الرواية التي اجتزأها، ولا يذكر إقرار عمر بصحة الحديث بعد ما تبيّن له، ولا يذكر تحسّر عمر واعترافه بخفاء الحديث عليه بسبب انشغاله بتجارته: « فقام أبو سعيد فقال: كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ؟! ألهاني عنه الصفق بالأسواق » [(٣)]. وهذا هو المنهج الانتقائي الذي عوّدنا عليه « نقّاد » الشيعة في قراءتهم لسنة النبي ﷺ وشبهاتهم عليها.

- ويتهم بعض كتّاب الاثني عشرية فرسان الحديث النبوي الثقات بالكذب والنفاق!! يقول عبد الحسين شرف الدين في حقّ راوية الإسلام أبي هريرة ﷺ: « استعبد بنو أمية أبا هريرة ببرّهم، فملكوا قياده، واحتلّوا سمعه وبصره وفؤاده، فإذا هو لسان دعايتهم في سياستهم، يتطور فيها على ما تقتضيه أهواؤهم، فتارة يفتئت الأحاديث في فضائلهم.. وتارة يلفق أحاديث في فضائل الخليفتين نزولًا على رغائب معاوية... وتارة يرتجل أحاديث يدافع فيها عن منافقي بني أمية » [(٤)].

ويختلق عبد الحسين صورة في وصف أبي هريرة في معركة صفين أنه « كان يعجبه المضيرة [(٥)] جدًّا فيأكلها مع معاوية، فإذا حضرت الصلاة صلّى خلف علي، فإذا قيل له قال: مضيرة معاوية أدسم، والصلاة وراء علي أفضل، فكان يقال له: شيخ المضيرة! » [(٦)].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التجارة، باب الخروج في التجارة، وصحيح مسلم: كتاب الآداب، باب الاستئذان رقم (٢١٥٣).

(٢) محمد رضا الحسيني الجلالي: تدوين السنة الشريفة (ص ٤٣٤، ٤٣٥)، (ط٢)، (١٤١٨هـ)، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التجارة، باب الخروج في التجارة، وصحيح مسلم: كتاب الآداب، باب الاستئذان رقم (٢١٥٣).

(٤) عبد الحسين شرف الدين: أبو هريرة (ص ٤٥ - ٤٧).

(٥) المضيرة مريرة تطبخ باللبن الحامض.

(٦) عبد الحسين شرف الدين: أبو هريرة (ص ٢١٣).

مع أن أبا هريرة ﷺ لم يحضر حرب صفين، بل كان مع من اعتزل الفتنة من الصحابة الكرام ﷺ.

ولم تأت اتهامات عبد الحسين لأبي هريرة والصحابة الكرام من فراغ، فلها جذور عميقة غائرة في التراث الاثني عشري؛ فقد جاء في بحار الأنوار: « ثلاثة كانوا يكذبون على رسول الله أبو هريرة وأنس وامرأة » [١] وقد جاء في هامش بحار الأنوار بيان ما أبهمته الرواية: (عائشة)!

ولماذا لا يصرح من في قلبه مرض بأنهم يحقدون على الحديث النبوي بالطعن على أشهر رواته كأبي هريرة وأنس [٢]، وعائشة، أكثر أمهات المؤمنين حديثًا عن النبي ﷺ.

الرد على تشكيك الاثني عشرية بتوثيق أحاديث الصحابة (أبو هريرة ﷺ نموذجًا):

إن الشيعة – في الغالب – لم يحتجوا بأحاديث كل الصحابة الذين روى لهم أهل السنة؛ بل رووا عمن أعجبهم موقفه من علي وآل بيته وحروبهم، وهكذا فاتهم من الأحاديث النبوية التي يرويها أهل السنة الشيء الكثير.

وحسبك أن تعلم أنهم لم يرووا عن راوية الإسلام أبي هريرة ﷺ حديثًا واحدًا في أصولهم الحديثية؛ بل إنه ﷺ لم يسلم منهم، فأنكروا رواياته واستكثروها، واستغربوها، وشككوا بها، في حين نسبوا لبعض أتباعهم أنه روى عن أئمتهم أضعاف أضعاف ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ.

فإذا كان كل ما رواه أبو هريرة لا يتجاوز ستة آلاف (٥٣٧٤ حديثًا) عن النبي ﷺ،

---

(١) بحار الأنوار (٢١٧/٢)، (١٠٢/٢٢ – ٢٤٢)، (٦٤٠/٣١).

(٢) دمرت الدهماء في هذا اليوم ٢٦ محرم (١٤٢٧هـ) الموافق لـ (٢٠٠٦/٢/٢٤م) ضريح سيدنا أنس ابن مالك في مدينة البصرة، بحجة هدم مجهولين – غير معروفين – ضريحي الإمام الهادي والعسكري في سامراء في ٢٤ محرم، في فتنة عمياء مدبّرة بليل، وقد صدرت تصريحات المراجع الشيعية التي استنكرت هدم ضريحي الإمامين الهادي والعسكري، ودعت إلى التظاهر السلمي في الشوارع؛ مما دعا الغوغاء ومن اندس فيهم من أعداء الإسلام، فقاموا بهدم (١٧٢) مسجدًا من مساجد أهل السنة وإحراقها وتمزيق مصاحفها أو الاستيلاء عليها في بغداد وغيرها من المناطق، ومقتل ما يزيد عن مائة وثلاثين مسلمًا هم أقدس وأطهر عند الله تعالى من الكعبة أقدس مكان، ذلك كله تحت مسمع من حكومة شيعية واحتلال أجنبي. فندعو المسلمين سنة وشيعة لنبذ نار الحقد والأضغان التي يشعلها الغرباء. وندعوهم للتآخي تحت راية الإسلام، ووالله الذي لا إله إلا هوا لو خرج أصحاب تلك الأضرحة لنهوا هؤلاء الدهماء عن هذه الأفعال.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

فإنهم يروون أن جابر الجعفي روى عن إمامه اثني عشر ضعفًا أو يزيد عن إمام واحد من الأئمة؛ فقد قال الشيعة عن جابر الجعفي [١] أنه « روى سبعين ألف حديث عن الباقر عليه السلام، وروى مائة وأربعين ألف حديث » [٢].

وهذا عالم الشيعة في الجرح والتعديل أبو العباس النجاشي يروي في كتابه المعروف برجال النجاشي أن الراوي أبان بن تغلب روى عن الإمام جعفر الصادق ثلاثين ألف (٣٠٠٠٠) حديث!! [٣]. فكيف ينسى عبد الحسين ذلك وهو ينتقد أبا هريرة ولم يرو ستة آلاف حديث عن النبي ﷺ؟ [٤].

وحسب من أحب أبا هريرة وأمه بشارة النبي ﷺ له بالإيمان: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: « قلت: يا رسول اللَّه! ادع اللَّه أن يحبّبني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: « **اللَّهم حبّب عبيدك هذا – يعني أبا هريرة – وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين** ». فما خلق مؤمنٌ يسمع بي ولا يراني إلا أحبني » [٥].

أما عن الافتراء على أبي هريرة أنه كان محابيًا لبني أمية، فنقول: ما كان أبو هريرة انتهازيًّا راكضًا وراء الدنيا؛ بل كان يصدع بالحق، ولم يكن تأخذه في كلمة الحق لومة لائم، فقد صدع بالحق في بيوت حكّام بني أمية، كمروان بن الحكم، قال أبو زرعة: « دخلت مع أبي هريرة في دار مروان، فرأى فيها تصاوير » فما كان من أبي هريرة

---

(١) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي، توفي سنة (١٢٧هـ) وأخبار الشيعة فيه متناقضة كابن زرارة، فأخبار تجعله ممن انتهى إليه علم أهل البيت، وأخبار تطعن فيه.. ذكر الكشي: قال زرارة: سألت أبا عبد اللَّه رضي الله عنه عن أحاديث جابر فقال: « ما رأيته عند أبي قط إلا مرة واحدة، وما دخل عليّ قط » لكنهم يحملون أخبار الطعن فيه على التقية. انظر: وسائل الشيعة: (٥١/٢٠)، رجال الكشي: (ص ١٩١)، جامع الرواة: (١٤٤/١). أما عند أهل السنة فقد قال ابن حبان: كان سبئيًا من أصحاب عبد اللَّه بن سبأ. كان يقول: إن عليًا يرجع إلى الدنيا، وروى العقيلي بسنده عن زائدة أنه قال: جابر الجعفي رافضي يشتم أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: لا يكتب حديثه ولا كرامة، قال ابن حجر: ضعيف رافضي. انظر: ميزان الاعتدال: (٣٧٩/١، ٣٨٠)، تقريب التهذيب (١٢٣/١)، الضعفاء للعقيلي: (١٩١/١ – ١٩٦). انظر: د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٢٠٣/١) هامش (٢).

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٣٢٩/٣٠). وقال عنه: ضعفه بعض علمائنا، والأرجح توثيقه.

(٣) رجال النجاشي (٧٨/١، ٧٩)، وخاتمة وسائل الشيعة (١١٦/٢٠). انظر: البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، عبد اللَّه بن عبد العزيز بن علي الناصر (ص ٢٢).

(٤) انظر: المراجعات لعبد الحسين، مراجعة رقم (١١٠)، (ص ٧٢٢)، تحقيق حسين الراضي.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، رقم (٢٤٩١).

إلا أن ينصح مروان ويصدع بالحق، ويحدّث عن النبي ﷺ حديثًا يبين فيه مسألة التصاوير: « **يقول الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي، فليخلقوا ذرة، وليخلقوا حبة، وليخلقوا شعيرة** » (١). فهل يقول هذا الحق - دون خوف ولا محاباة - من كان همّه طعامه وشرابه؟!

وقد ثبت أن أبا هريرة كان يحدّث ولا يكترث برضا ولاة بني أمية، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « **إذا صلى أحدكم الركعتين قبل الصبح فليضطجع على يمينه** ». فقال له مروان بن الحكم: أما يجزئ أحدنا ممشاه إلى المسجد حتى يضطجع على يمينه؟! قال عبيد الله في حديثه: قال: لا. قال: فبلغ ذلك ابن عمر فقال: أكثر أبو هريرة على نفسه. قال: فقيل لابن عمر: هل تنكر شيئًا مما يقول؟ قال: لا. ولكنه اجترأ وجبنّا (٢).

وكان ﷺ يتخوّف على الأمة مما سيأتي بعد معاوية ﷺ من حكم قاهر، ويصرّح بذلك معلنًا وهو يمشي في سوق المدينة داعيًا: « اللّهم إني أعوذ بك من رأس الستين وإمارة الصبيان » (٣). ومن المعلوم أن في عام ستين كان حكم يزيد وما جاء في حكمه من المصائب في مقدّمتها: مقتل الحسين ﷺ واستباحة جيش الأمويين مدينة النبي ﷺ. وقد استجاب الله دعاء أبي هريرة ﷺ فمات سنة سبع وخمسين للهجرة على الراجح، ولم يدرك إمارة الصبيان التي حذر الناس منها (٤).

أسباب اشتهار أبي هريرة بالحديث:

إن من أهم أسباب اشتهار أبي هريرة بحفظ حديث النبي ﷺ: تفرغه لحديث النبي ﷺ، ودعاء النبي ﷺ له بقوة الحفظ، وتعميره طويلًا بعد النبي ﷺ على خلاف كثير من الصحابة، وقلة ممارسته السياسة - بما فيها من انشغال - كما مارسها غيره من الأصحاب، ومذاكرته لحديث النبي ﷺ في الأسحار.

وقد كان جريئًا في سؤاله النبيّ ﷺ؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: « **والذي**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، باب نقض الصور رقم (٥٩٥١)، ومسلم في كتاب الألبسة، باب في تحريم صور الحيوان رقم (٢١٠٨) ترقيم دار القلم - دمشق.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٤/١)، وسنده صحيح كما ذكر الشيخ الألباني.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ١٨٠)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٢٢٩/٦).

(٤) انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤٤٤/٧)، وقيل: توفي عام (٥٨) أو (٥٩). وقد رجّح ابن حجر (٥٧هـ).

نفس محمد بيده، لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي؛ لما رأيت من حرصك على العلم » [(١)]. وفي رواية قال: « **لقد ظننت لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث** » [(٢)].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **أبو هريرة وعاء من العلم** » [(٣)].

وقال زيد بن ثابت ﷺ: فقلنا: يا رسول الله، ونحن نسأل الله علمًا لا ينسى. فقال: « **سبقكم بها الغلام الدوسي** » [(٤)].

وعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: « يقولون: إن أبا هريرة قد أكثر والله الموعد، ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه؟ وسأخبركم عن ذلك: إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضيهم، وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا، ولقد قال رسول الله ﷺ يومًا: « **أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي هذا ثم يجمعه إلى صدره فإنه لن ينسى شيئًا سمعه؟** » فبسطت بردة علي حتى فرغ من حديثه ثم جمعتها إلى صدري، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثني به، ولولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئًا أبدًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] » [(٥)].

وقد أقر بحفظ أبي هريرة ابن عمر؛ إذ يقول له: « يا أبا هريرة أنت كنت ألزمنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه » [(٦)].

كما شهد بجرأته في السؤال أبي بن كعب ﷺ؛ إذ يقول: « كان أبو هريرة جريئًا

---

(١) مسند أحمد (٢٠٨/١٥).

(٢) فتح الباري (٢٠٣/١)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٠/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٣٠/٢).

(٤) فتح الباري (٢٢٦/١)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٢/٢) وحلية الأولياء (٣٨١/١).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الحجة على من قال: إن أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة (٦٩٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي ﷺ رقم (٢٤٩٣)، واللفظ لمسلم.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٦٨٤/٥) وقال: هذا حديث حسن.

على النبي ﷺ يسأله عن أشياء لا نسأله عنها » [١].

ورع الصحابة - رضوان الله عليهم - في التحديث عن رسول الله ﷺ:

وانظر إلى دقة رواية أصحاب النبي وتشددهم في الرواية وفي قبول الحديث: فهذا زيد بن ثابت ﷺ يقول ليزيد بن حيان، وقد سأله المزيد من الحديث: « يا بن أخي، والله! لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلّفونيه » [٢].

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود « أنه حدث يومًا عن رسول الله ﷺ فارتعد وارتعدت ثيابه ثم قال: أو نحو هذا » [٣]. وفي رواية أخرى: « قال ابن عون: قلّ ما أخطأني عشية خميس إلا أتيت فيها ابن مسعود فما سمعته لشيء يقول: قال رسول الله ﷺ، حتى إذا كان ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ: « **فنظرت إليه فإذا هو محلول أزرار قميصه منتفخ أوداجه مغرورقة عيناه، ثم قال: هكذا أو فوق ذا أو قريب من ذا أو كما قال رسول الله ﷺ** » [٤].

وما هذا التحفظ إلا من تذكر هذا الصحابي الجليل وأمثاله قول النبي ﷺ الذي بلغ حد التواتر: « **إنّ كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار** » [٥]. وفي رواية أخرى: « **لا تكذبوا عليَّ فإنه من كذب عليَّ فليلج النار** » [٦].

فهذا كعب بن مالك يقول: « قلت لأبي قتادة: حدّثني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ

---

(١) المستدرك (٥٨٤/٣)، سكت عنه الذهبي في التلخيص، وفي مسند أحمد بن حنبل (١٣٩/٥)، قال عنه الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، ولكن في مجمع الزوائد (٤٠٨/٨): « رواه عبد الله ورجاله ثقات وثقهم ابن حبان ».

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي ﷺ، رقم (٢٤٠٨)، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤).

(٣) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين (١٩٣/١)، ووافقه الذهبي.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) متفق عليه، رواه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، وأخرج مسلم شطره الأول في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ رقم (٤). وشطره الثاني في الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه رقم (٩٣٣).

(٦) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ رقم (١٠٦)، وأخرجه مسلم في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ رقم (١).

قال: أخشى أن يزل لساني بشيء لم يقله رسول الله ﷺ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إياكم وكثرة الحديث عني، من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار** » (١).

ولذلك رأينا محدثي الأمة يتورعون أن يرووا عمّن خافوا منه قلة الضبط، وإن كان من الصالحين أو من الأحباب المقربين، حتى إن الرجل يأبى أن يحدث عن أبيه أو أخيه بالرغم من ورعه وصلاحه، ويبين أمره للناس، من ذلك قول علي بن المديني في أبيه حين سألوه عنه قال: سلوا عنه غيري، فأعادوا المسألة، فأطرق ثم رفع رأسه فقال: هو الدين إنه ضعيف.

كما كانوا يأبون أن يحدّثوا من يرتابون في أمره، وإن كان صالحاً أو ذا منزلة ومكانة، من هذا ما رواه أحمد بن أبي الحواري قال: « جاء رجل من بني هاشم ليسمع من ابن المبارك فامتنع، فقال الهاشمي لغلامه: قُمْ بنا، فلما أراد الركوب، جاء ابن المبارك، ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن لا ترى أن تحدثني وتمسك بركابي!! قال: رأيت أن أذلّ لك بذلي، ولا أذل لك الحديث!!

هؤلاء جهابذة العلم، ورجال الفن، الذين نقبل حكمهم في أبي هريرة، فلو عرفوا عنه شيئًا ما سكتوا عنه وإن كان صحابيًا؛ لأن السنة والشريعة لا تحابي أحدًا (٢).

ردٌّ على شبهة ترك أهل السنة الرواية عن أئمة آل البيت:

- ويسأل بعض كتّاب الشيعة: لماذا لم يرو بعض المحدثين عن بعض سادة أهل البيت في حين رووا عن الخوارج؟

قال عبد الحسين شرف الدين الموسوي: « إعراض إخواننا أهل السنة عن مذهب الأئمة من أهل البيت، وعدم الاعتناء بأقوالهم في أصول الدين وفروعه بالمرة، وعدم الرجوع إليهم في تفسير القرآن العزيز... وأنكى من هذا كله عدم احتجاج البخاري في صحيحه بأئمة أهل البيت النبوي؛ إذ لم يرو شيئًا عن الصادق والكاظم والرضا والجواد والهادي والزكي العسكري، وكان معاصرًا له... حتى أنه لم يرو شيئًا من حديث سبطه الأكبر وريحانته من الدنيا أبي محمد الحسن المجتبى سيد شباب أهل الجنة، مع احتجاجه

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين (١/١٩٣)، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: أستاذنا الدكتور محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام (ص ١٦٣، ١٦٤)، انظر: عبد الله بن عبد العزيز بن علي الناصر: البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان (ص ٢٢).

بداعية الخوارج وأشدهم عداوة لأهل البيت عمران بن حطان [(١)] » [(٢)].

فهذه دعوى دون دليل، وهذا الأمر أصلًا يتبع ثبوت الرواية عنهم، ولا يتأثر بموقفهم منهم ﷺ، ثم قد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن علي ﷺ- وهو الإمام الأول للاثني عشرية الأحاديث الكثيرة - أكثر مما رووا عن أبي بكر ﷺ ولو كان هناك تحرّج لما رووا عنه ﷺ.

وغاية ما يحتج به الشيعة أن البخاري لم يرو عن جعفر الصادق وأبيه، فنحب أن نبين لهم - خدمة للحقيقة وكشفًا لها ودفعًا للّبس - أن من ترك من محدثي السنة الرواية عن فضلاء البيت لم يفعل ذلك زهادة فيهم ولا إنقاصًا من مكانتهم الشريفة، ولكن بسبب كثرة الوضّاعين الملتفين حولهم والكاذبين على ألسنتهم. ولو صحّت المسانيد إليهم لكانوا أولى من غيرهم في الرواية عنهم؛ فقد أكّد أهل السنة فضلهم وتقدّمهم -

---

(١) جاء في ترجمته في تهذيب الكمال (٢٢/٣٢٢) رقم (٤٤٨٧): « عمران بن حطان بن ظبيان... الخارجي... قال العجلي: بصري تابعي ثقة، وقال أبو داود: ليس في أهل الأهواء أصح حديثًا من الخوارج. ثم ذكر عمران بن حطان وأبا حسان الأعرج، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقال أبو سلمة عن أبان بن يزيد: سألت قتادة فقال: كان عمران بن حطان لا يتهم في الحديث. وقال يعقوب بن شيبة: أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وصار في آخر أمره أن رأى رأي الخوارج.... توفي سنة أربع وثمانين روى له البخاري وأبو داود والنسائي » اهـ.

وقال ابن حجر: الإصابة (٥/٣٠٣، ٣٠٤): « تابعي مشهور وكان من رؤوس الخوارج... ذكر أبيات عمران هذا التي رثى بها عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي يقول فيها:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره يومًا فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

قال: فعارضه الإمام أبو الطيب الطبري فقال:

إني لأبرأ مما أنت تذكره ... عن ابن ملجم الملعون بهتانا
إني لأذكره يومًا فألعنه ... دينًا وألعن عمران بن حطانا

... واعتذروا عنه [أي عن البخاري] بأنه إنما أخرج عنه لكونه تاب، فقد ذكر المعافى في تاريخ الموصل عن محمد بن بشر العبدي قال: ما مات عمران بن حطان حتى رجع عن رأي الخوارج، وقيل: إنما خرّج عنه ما حدث به قبل أن يبتدع؛ فقد قال يعقوب بن شيبة: أدرك جماعة من الصحابة وصار في آخر أمره أن رأى رأي الخوارج، وكان سبب ذلك أنه تزوج ابنة عم له فبلغه أنها دخلت في رأى الخوارج، فأراد أن يردها عن ذلك، فصرفته إلى مذهبها » فأنت تلاحظ أن أهل السنة لم يوافقوه فيما ذهب إليه من آراء، بل على العكس تبرّؤوا من فكره وشعره، وعارضوه فيهما، ولكنهم للإنصاف الذي اتصفوا به رووا عنه لمّا كان موثوقًا في حديثه.

(٢) السيد شرف الدين: الفصول المهمة في تأليف الأمة (ص ١٨٠، ١٨١).

كما بيّنا سابقًا في تمهيد الرسالة. فالرواية عنهم شرف يتسابق إليه المحدّثون، كما تسابقوا على رواية أحاديث أمير المؤمنين علي ﷺ.

ولو كان للبخاري ﷺ موقف من سيدنا علي وابنه الحسن والحسين - وحاشا أن يكون لمؤمن موقف منهم - لما خرّج في فضلهم أحاديثه الصحيحة على شرطه في جامعه الصحيح. فمما رواه تعليقًا: « ولما مات الحسن بن الحسن بن علي ﷺ ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت فسمعوا صائحًا يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا، فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا »[١]، ومما رواه مسندًا قول النبي ﷺ في حق الحسن: « **اللّهم أحبّه وأحب من يحبه** »[٢]. وروى قول أبي هريرة في حق الحسن بعد هذا الحديث: « فما كان أحد أحب إليّ من الحسن بن علي بعدما قال رسول اللّه ﷺ ما قال ».

وروى البخاري أوصاف الحسن: عن الزهري أخبرني أنس قال: « لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي »[٣]. وروى أحاديث كثيرة في حق الحسن والحسين، لا يسعني ذكرها؛ منها حديث نهي النبي الحسن عن الأكل من تمر الصدقة، وحديث تقبيل النبي للحسن أمام الأقرع بن حابس، وخبر صعود الحسن على المنبر وعمار في أسفله.

وخرّج حديثًا من أروع معجزات النبي ﷺ في حق الحسن، وهو نبوءته ﷺ في صلح الحسن ﷺ مع معاوية ﷺ وجند الشام وحقن دماء المسلمين والإصلاح بينهم، فقد جاء الحسن بن علي ﷺ إلى معاوية بالكتائب، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تولّي حتى تدبر أخراها. قال معاوية: من لذراري المسلمين؟ فقال: أنا، فقال عبد اللّه ابن عامر وعبد الرحمن بن سمرة: نلقاه فنقول له الصلح.

قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة قال: بينا النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: « **ابني هذا سيّد، ولعلّ اللّه أن يصلح به بين فئتين من المسلمين** »[٤].

ولا يستغرب أن لا يكثر حديث الحسن والحسين عن النبي ﷺ إذا تذكرنا أن النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.

(٢) صحيح البخاري، باب ما ذكر في الأسواق (٥٥٤٥)، وقد أخرجه مسلم أيضًا في فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين ﷺ رقم (٢٤٢١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين ﷺ رقم (٣٥٤٢).

(٤) صحيح البخاري، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي (إن ابني هذا لسيد ولعل اللّه أن يصلح به بين فئتين من المسلمين) رقم (٦٦٩٢).

انتقل إلى الرفيق الأعلى، والحسن دون العاشرة، فلم يتح له أن يسمع ما سمع غيره من الصحابة، ومن باب أولى أخوه الحسين وهو أصغر منه سنًّا. في حين كثرت روايات سيدنا علي ﷺ عند البخاري وغيره من كتب السنة لطول مصاحبته للنبي ﷺ.

ثم ما ذنب البخاري رحمه الله إذا لم تصح عنده إلى الصادق وأبيه الباقر - رحمهما اللّٰه - طريق صحيحة على شروطه الدقيقة ليروي بها عنهما؟ خصوصًا إذا تذكرنا كثرة من كذب على لسان الصادق والباقر.

فقد أقرت روايات الشيعة أنفسهم بوجود كثرة من الكذّابين على جعفر والباقر؛ فعن شريك: « إن أقوامًا يزعمون أن جعفر بن محمد ضعيف في الحديث فقال: أخبرك القصة؛ كان جعفر بن محمد رجلًا صالحًا مسلمًا ورعًا، فاكتنفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون: حدثنا جعفر بن محمد، ويحدثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر، يستأكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم، فكانوا يأتون من ذلك بكل منكر، فسمعت العوام بذلك منهم، فمنهم من هلك ومنهم من أنكر »[1]. وقد مرّ أن المغيرة بن سعيد من أشهر من كذب على لسان الإمام جعفر الصادق.

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « كان بيان يكذب على علي بن الحسين عليه السلام فأذاقه اللّٰه حر الحديد، وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه اللّٰه حر الحديد، وكان محمد بن بشير يكذب على أبي الحسن موسى عليه السلام فأذاقه اللّٰه حر الحديد، وكان أبو الخطاب يكذب على أبي عبد اللّٰه عليه السلام فأذاقه اللّٰه حر الحديد، والذي يكذب عليّ محمد بن فرات. قال أبو يحيى: وكان محمد بن فرات من الكتّاب، فقتله إبراهيم ابن شكلة »[2].

وإن قاصمة الظهر لهذا الافتراء على البخاري: أن البخاري ترجم لجعفر الصادق في كتابه التاريخ الكبير فقال: « جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي المدني، أبو عبد اللّٰه الهاشمي، سمع أباه والقاسم وعطاء، سمع منه مالك والثوري وشعبة. قال أبو نعيم: مات سنة ثمان وأربعين ومائة »[3]. وكذلك روى عنه

---

(١) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٦١٦/٢). مؤسسة آل البيت قم (١٤٠٤هـ).

(٢) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (وهو تهذيب رجال الكشي) (٥٩١/٢) وثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٥٨٤/٢)، مؤسسة آل البيت قم، وانظر: بحار الأنوار (٢٥٠/٢)، مؤسسة الوفاء بيروت، الطبعة الثانية المصححة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).

(٣) البخاري: التاريخ الكبير (١٩٨/٢). دار الفكر، تحقيق: السيد هاشم الندوي.

أيضًا: « قال لنا سعيد بن سليمان عن حفص بن غياث عن جعفر بن محمد قال: « كان بين الحسن والحسين طهر واحد » [١]، وأخرج له عن « سعيد بن سفيان الأسلمي قال الحميدي: حدثنا بن أبي الفديك سمع سعيدًا، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن عبد اللّٰه بن جعفر عن النبي ﷺ أن اللّٰه مع الدائن حتى يقضي دينه » [٢]، وهناك أمثلة كثيرة [٣].

وأخرج بالسند عنه رأيه في مسألة القرآن: عن « معبد بن راشد أبو عبد الرحمن سمع معاوية بن عمار عن جعفر بن محمد قال: القرآن كلام اللّٰه ليس بمخلوق » [٤].

وكذلك خرّج عن الباقر والد الصادق - رحمهما اللّٰه تعالى - في التاريخ الكبير، ومثال ذلك: « قال لي شهاب: حدثنا بكر بن سليمان قال: أخبرنا ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن عبد اللّٰه بن قيس بن مخرمة عن الحسن بن محمد بن علي عن أبيه محمد عن جده علي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « **ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول بيني وبينه، ما هممت بعدهما حتى أكرمني اللّٰه برسالته** » [٥].

وذلك لأن البخاري لم يشترط في التاريخ الكبير صحة الإسناد، ولو كان هناك سبب خفي غير اشتراط الصحة لما روى البخاري عن الصادق في التاريخ الكبير ولما ترجم له فيه.

ولمّا صح السند عند غير البخاري إلى جعفر وأبي جعفر - رحمهم اللّٰه - رووا عنهما، ودوّنوا أحاديثهما، فقد روى مسلم وغيره عن جعفر الصادق وأبيه الباقر رحمهما اللّٰه. فأشهر حديث في الحج، هو حديث جابر بن عبد اللّٰه وقد رواه عنه الإمام الباقر:

ففي صحيح مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم جميعًا عن حاتم قال أبو بكر: حدثنا حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد اللّٰه، فسأل عن القوم حتى انتهى إليّ، فقلت: أنا محمد بن علي ابن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زري الأعلى ثم نزع زري الأسفل ثم وضع كفه بين ثديي وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: مرحبًا بك يابن أخي، سل عما شئت

---

(١) البخاري: التاريخ الكبير (٢/٢٨٦).
(٢) المصدر السابق (٣/٤٧٥).
(٣) وانظر روايات أخرى (٢/٣٨١)، (٤/٢٨٦).
(٤) البخاري: التاريخ الكبير (٧/٤٠٠).
(٥) البخاري: التاريخ الكبير (١/١٣٠). وانظر (١/١٧٧)، (١/٢٨٠).

[وهذا يدل على تعظيمه لأهل بيت النبي ﷺ] فسألته [١] وهو أعمى... فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ.... وفي الحديث قوله ﷺ في خطبة الوداع: « **قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به كتاب الله** » [٢].

وهناك أحاديث أخرى وروايات كثيرة رواها مسلم في صحيحه عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر، ناهيك عما رواه لكل واحد منهما دون الآخر [٣].

---

(١) من العجيب الغريب أن في الكافي رواية تقول: إن الباقر كان يخاف أن يحدث فيكذّبه الناس؛ ولذلك كان يروي الحديث عن جابر! في حديث طويل يظهر كذب الراوي؛ إذ ينسب إلى جابر البصر، مع أنه ثبت أنه عمي آخر عمره. وهذه هي رواية الكافي في الجزء الأول: باب مولد أبي جعفرٍ محمّد بن عليّ عليهما السلام: « عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ جابر بن عبد الله الأنصاريّ كان آخر من بقي من أصحاب رسول الله، وكان رجلًا منقطعًا إلينا أهل البيت، وكان يقعد في مسجد رسول الله ﷺ وهو معتجرٌ بعمامةٍ سوداء، وكان ينادي: يا باقر العلم يا باقر العلم! فكان أهل المدينة يقولون: جابرٌ يهجر. فكان يقول: لا والله ما أهجر، ولكنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنّك ستدرك رجلًا منّي اسمه اسمي وشمائله شمائلي يبقر العلم بقرًا ». فذاك الّذي دعاني إلى ما أقول، قال: فبينا جابرٌ يتردّد ذات يومٍ في بعض طرق المدينة؛ إذ مرّ بطريقٍ في ذاك الطّريق كتّابٌ فيه محمّد بن عليٍّ فلمّا نظر إليه [ومن المعلوم أن جابرًا فقد بصره آخر عمره كما في الصحيح] قال: يا غلام! أقبل. فأقبل ثمّ قال له: أدبر. فأدبر، ثمّ قال: شمائل رسول الله ﷺ والّذي نفسي بيده... فكان محمّد ابن عليٍّ يأتيه على وجه الكرامة لصحبته لرسول الله ﷺ، قال: فجلس عليه السلام يحدّثهم عن الله تبارك وتعالى فقال أهل المدينة: ما رأينا أحدًا أجرأ من هذا. فلمّا رأى ما يقولون حدّثهم عن رسول الله ﷺ فقال أهل المدينة: ما رأينا أحدًا قطّ أكذب من هذا يحدّثنا عمّن لم يره. فلمّا رأى ما يقولون حدّثهم عن جابر بن عبد الله، قال: فصدّقوه، وكان جابر بن عبد الله يأتيه فيتعلّم منه.

(٢) صحيح مسلم (٨٨٦/٢)، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ رقم (١٢١٨).

(٣) ومن هذه الروايات التي رواها جعفر عن أبيه في صحيح مسلم: حديث جابر، وقد كرره بضع مرات. وهناك روايات أخرى هذا ما جمعته منها:

١ - وحدثني حجاج بن الشاعر حدثنا معلى بن أسد حدثنا وهيب بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبي مرة مولى عقيل عن أم هانئ أن رسول الله ﷺ صلى في بيتها عام الفتح ثماني ركعات في ثوب واحد. صحيح مسلم (٥٨٨/٢).

٢ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ ثم نرجع فنريح نواضحنا. قال حسن: فقلت لجعفر: في أي ساعة تلك؟ قال زوال الشمس، صحيح مسلم (٥٩٢/٢).

٣ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومسّاكم، صحيح مسلم (٨٦٩/٢).

٤ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في حديث أسماء بنت عميس حين نفست بذي الحليفة أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر رضي الله عنه فأمرها أن تغتسل وتهلّ. صحيح مسلم (١٤٤٤/٣). وهذا الحديث يدل على حسن العلاقة بين الآل والصحب، فجعفر يروي عن أبيه قصة عن أبي بكر، وهذا =

أما عند غير مسلم؛ كالسنن ومسند أحمد وموطأ مالك وغيرها من الكتب الحديثية كالمستدرك وسنن الدارقطني... إلخ، فهناك مئات الروايات عن (جعفر بن محمد عن أبيه) ناهيك عن كل واحد منهما برواياته على انفراد، مما لا يتسع المقام لإحصائه، وقد حاولت إحصاءها على الحاسوب فعجزت. ومن أمثل تلك الروايات ما عند مالك في الموطأ: « عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم! فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: « **سنّوا بهم سنة أهل الكتاب** » [(١)]. وفي هذا الحديث من الفوائد الفرائد: رواية إمام أهل السنة مالك بن أنس عن جعفر الصادق عن باقر العلم حديثًا يحكي حال عمر ابن الخطاب، الخليفة الراشدي الذي يبغضه الشيعة بغضًا شديدًا، وفيه الرواية عن عبد الرحمن بن عوف أحد المبشرين بالجنة، الذين أكثرت الروايات الاثنا عشرية من النيل منهم بسبب مسألة الإمامة [(٢)].

وأما عن انتقاد كتّاب الشيعة للبخاري وغيره لروايته عن الخوارج؛ فهذه مسألة متفرعة عن رأي أهل السنة في حكم الرواية عن المبتدعة؛ حيث كان الخوارج لا يستبيحون الكذب لنصرة مذهبهم؛ لذلك جوّزوا الرواية عنهم، ومهما يكن فإن الرواية عن الخوارج ليست دعمًا لمذهبهم إنما لما عرفوا فيه من التحرج من الكذب؛ لأنهم يرون الكذب ذنبًا وكبيرة، والكبيرة كفر عندهم؛ ولذلك قال أبو داود: « ليس في أهل الأهواء أصح حديثًا من الخوارج » [(٣)]. وغاية ما خرج البخاري لعمران بن حطان روايتين في أمر تعبدي متعلق بالحلال والحرام، ولا صلة له بآراء الخوارج ولا بآراء أهل السنة، وكان فيهما

= لا يستغرب؛ لأن جعفر سبط لأبي بكر من طرف الأم مرتين؛ ولذلك قال جعفر: ولدني أبو بكر مرتين كما سنبين.

٥ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن يزيد بن هرمز: أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال فقال ابن عباس: لولا أن أكتم علمًا ما كتبت إليه كتب إليه نجدة أما بعد فأخبرني هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء... وهذا الحديث يدلّ أيضًا على حسن العلاقة بين آل بيت النبي جميعًا، فهنا يروي جعفر عن محمد في سند عن ابن عباس وهو أحد أعمامه، ثم يدل على إنصاف الإمامين جعفر ومحمد؛ إذ يرويان حديثًا موضوعه حول الفرقة التي قتلت جدهما علي ﷺ، وهي الخوارج.

(١) الإمام مالك بن أنس: الموطأ برواية يحيى الليثي (٢٧٨/١). دار إحياء التراث العربي - مصر. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) انظر: فصل موقف الاثني عشرية من الأمة المسلمة والمخالفين عمومًا، وهو الفصل الأخير من الرسالة.

(٣) تهذيب الكمال (٣٢٢/٢٢). مع أننا ننكر عليهم ضيق أفقهم وضعف تفكيرهم، وشر أعمالهم وأهمها ولوغهم في دماء المسلمين وقتلهم أمير المؤمنين علي ﷺ.

ابن حطان ناقلًا، ولم يمتدحه البخاري ولم يثنِ عليه شيئًا، ولست أدري أي الأمرين أحب إلى صاحب (الفصول المهمة) الذي انتقد البخاري في روايته عن ابن حطان: أن يقبل حديثًا عن رسول اللَّه وَصَلَ للبخاري بسند صحيح، أم أن يردّه؟

ثم كيف يستجيز الاثنا عشرية أن يرووا عن الواقفة ما يعجبهم وينصر نظرية الإمامة الاثني عشرية، مع أن الواقفة جحدوا بعض الأئمة، وهم عند الاثني عشرية مكفّرون؟ فقد قال المجلسي: « كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية، والواقفة » [١] كرواية الكُليني في (الكافي) عن (زياد بن مروان القنديّ) وكان من الواقفة؛ حيث وقف على موسى، وأنكر إمامة الرضا، وسرق ماله [٢]. وروايته عدة روايات عن (علي بن أبي حمزة) - وكان يقود أبا بصير الأعمى، أحد المكثرين في الرواية عن الأئمة - وقد قال عنه النجاشي: « أحد عمد الواقفة » [٣] - كما مرّ - ثم يعيبون على محدثي أهل السنة أن يرووا، من باب الأمانة العلمية - عن الخوارج في أمور لا تتعلق بنصرة فرقة على أخرى، إنما بأمر تعبّدي يتعلق بالحلال والحرام؟! [٤].

لقد فصّل محدثو أهل السنة الحديث حول جواز الرواية عن المخالفين الصادقين الذين لا يستحلّون الكذب، ووقع بينهم الخلاف في هذا [٥]. قال المنذري: « قد اختلف أهل

---

(١) بحار الأنوار (٣٤/٣٧).

(٢) أصول الكافي (٣٦٩/١) كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا. « أحمد بن مهران عن محمّد بن عليّ عن زياد بن مروان القنديّ - وكان من الواقفة - قال: دخلت على أبي إبراهيم وعنده ابنه أبو الحسن عليه السلام فقال لي: يا زياد هذا ابني فلانٌ كتابه كتابي وكلامه كلامي ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله.

(٣) رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠) مؤسسة النشر الإسلامي قم (١٤١٦هـ).

(٤) روايتا ابن حطان في صحيح البخاري (٢١٩٤/٥) رقم (٥٤٩٧). قال البخاري: « حدثني محمد ابن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن عمران بن حطان قال: سألت عائشة عن الحرير فقالت: ائت ابن عباس فسله، فسألته فقال: سل ابن عمر، قال: فسألت ابن عمر، فقال: أخبرني أبو حفص، يعني عمر بن الخطاب أن رسول اللَّه ﷺ قال: « إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة ». فقلت: صدق وما كذب أبو حفص على رسول اللَّه ﷺ. والحديث الثاني: صحيح البخاري (٢٢٢٠/٥) رقم (٥٦٠٨): حدثنا معاذ بن فضالة حدثنا هشام عن يحيى عن عمران بن حطان أن عائشة رضي الله عنها حدثته: أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه.

(٥) قال الإمام السيوطي: « وقد صرح بذلك الذهبي في الميزان فقال البدعة: على ضربين صغرى كالتشيع بلا غلو أو بغلو كمن تكلم في حق من حارب عليًا، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع. والغلو فيه والحط على أبي بكر وعمر والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة [أقول: وإن كان المنهج العملي في كتب الحديث قد خالف هذا الاتجاه فروى عنهم كما سنبين أعلاه] وأيضًا فما أستحضر الآن في =

العلم في أهل البدع كالقدرية والرافضة والخوارج:

أ - فقالت طائفة: لا يحتج بحديثهم جملة.

ب - وذهبت طائفة إلى قبول أخبار أهل الأهواء الذين لا يعرف منهم استحلال الكذب ولا الشهادة لمن وافقهم بما ليس عندهم فيه شهادة.

= هذا الضرب رجلًا صادقًا ولا مأمونًا، بل الكذب شعارهم والتقية والنفاق دثارهم ». اهـ. وهذا الذي قاله هو الصواب الذي لا يحل لمسلم أن يعتقد خلافه.

وقال في موضعٍ آخر: اختلف الناس في الاحتجاج برواية الرافضة على ثلاثة أقوال:

- المنع مطلقًا.
- والترخص مطلقًا إلا من يكذب ويضع.
- والثالث: التفصيل بين العارف بما يحدث وغيره.

وقال أشهب: سئل مالك عن الرافضة فقال: لا تكلموهم ولا ترووا عنهم. وقال الشافعي: لم أر أشهد بالزور من الرافضة، وقال يزيد بن هارون: يكتب عن كل صاحب بدعة إذا لم يكن داعية، إلا الرافضة ». تدريب الراوي (٣٢٦/١، ٣٢٧) (مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف). ونلاحظ من النص أن من ردّت روايته منهم إنما ردّت لتخوّف الكذب منه.

قال السخاوي: « قال صاحب المحصول: الحق أنه إن اعتقد حرمة الكذب قبلنا روايته؛ لأن اعتقاده كما قدمت لمنعه من الكذب وإلا فلا، قال شيخنا: والتحقيق أنه لا يرد كل مكفر ببدعة؛ لأن كل طائفة تدعي أن مخالفيها مبتدعة وقد تبالغ فتكفرها، فلو أخذ ذلك على الإطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف؛ فالمعتمد أن الذي ترد روايته من أنكر أمرًا متواترًا معلومًا من الدين بالضرورة، أي إثباتًا ونفيًا، فأما من لم يكن بهذه الصفة وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله أصلًا. وقال أيضًا: والذي يظهر أن نحكم بالكفر على من كان الكفر صريح قوله، وكذا من كان لازم قوله وعرض عليه فالتزمه، أما من لم يلتزمه وناضل عنه فإنه لا يكون كافرًا، ولو كان اللازم كفرًا. وينبغي حمله على غير القطعي ليوافق كلامه الأول، وسبقه ابن دقيق العيد فقال: الذي تقرر عندنا أن لا تعتبر المذاهب في الرواية؛ إذ لا نكفر أحدًا من أهل القبلة إلا بإنكار قطعي من الشريعة، فإذا اعتبرنا ذلك وانضم إليه التقوى والورع فقد حصل معتمد الرواية وهذا مذهب الشافعي؛ حيث يقبل شهادة أهل الأهواء. فقال: وأعراض الناس حفرة من حفر النار، وقف على شفيرها طائفتان من الناس: المحدثون، والحكام. أشار بذلك إلى أنهم من أهل القبلة، فتقبل روايتهم، كما نرثهم ونورثهم، وتجري عليهم أحكام الإسلام. وممن صرح بذلك النووي فقال: في الشهادات من الروضة: جمهور الفقهاء من أصحابنا وغيرهم لا يكفّرون أحدًا من أهل القبلة. وقال في شروط الأئمة منها: ولم يزل السلف والخلف على الصلاة خلف المعتزلة وغيرهم ومناكحتهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم » اهـ. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: فتح المغيث شرح ألفية الحديث (٣٣٤/١)، دار الكتب العلمية - لبنان (ط١)، (١٤٠٣هـ). وانظر: الصنعاني: توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٢٣٦/٢)، المكتبة السلفية - المدينة المنورة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ولا بد من التذكير أن الرافضة في زمانهم يقصد بهم غلاة الشيعة، وردّت روايتهم؛ لأنهم كانوا يكذبون في حق أئمتهم لدعم مذهبهم.

ج - وذهبت طائفة إلى قبول غير الدعاة من أهل الأهواء؛ فأما الدعاة فلا يحتج بأخبارهم.

د - ومنهم من ذهب إلى أنه يقبل حديثه إذا لم يكن فيه تقوية لبدعتهم » [١].

هذا الخلاف من الناحية النظرية، أما المنهج العملي الذي اتبعه المحدثون في كتب الحديث فإنه يعتمد ترجيح القول بالرواية عن ثقات الفرق الأخرى، من الخوارج والقدرية والشيعة أنفسهم، يقول ابن قيم: « كم في الصحيح من رواية الشيعة الغلاة والقدرية والخوارج والمرجئة وغيرهم، لم يتمكنوا من الطعن في هذا الحديث بأن رواته شيعة؛ إذ مجرد كونهم شيعة لا يوجب رد حديثهم » [٢].

وقال الحافظ ابن حجر: « وأما التشيع فقد قدمنا أنه إذا كان ثبت الأخذ والأداء لا يضره، ولا سيما ولم يكن داعية إلى رأيه » [٣].

نماذج لرواةٍ ثقات من أهل الفرق المخالفة لأهل السنة في صحاح كتب أهل السنة:

وهناك أمثلة كثيرة لتطبيق محدثي أهل السنة هذه القاعدة؛ فهذا ابن حجر يذكر أحد الرواة فيقول:

- « **أجلح بن عبد الله بن حجية**:.. يعد في شيعة الكوفة، وهو عندي مستقيم الحديث صدوق.. وقال عمرو بن علي: مات سنة (١٤٥هـ) في أول السنة » [٤].

ومن هؤلاء الرواة أيضًا:

- **عبد العزيز بن سياه الأسدي الكوفي**: أخرج له الجماعة إلا أبا داود، ووثقه أبو داود وابن معين، والعجلي، وابن نمير، ويعقوب وسفيان. قال أبو زرعة: ثقة، وهو من كبار الشيعة [٥].

- **والسدي** (إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، المفسر المشهور): روى له مسلم في الصحيح، منسوب إلى سدة جامع الكوفة، وثقه ابن حنبل، وعبد الرحمن

---

(١) المنذري: (عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد): رسالة في الجرح والتعديل (ص ٣٥، ٣٦)، مكتبة دار الأقصى - الكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي.

(٢) ابن قيم الجوزية: تهذيب سنن أبي داود (٦/١٧١) دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١٥هـ / ١٩٩٥م).

(٣) ابن حجر العسقلاني: هدي الساري (ص ٣٩٨).

(٤) تهذيب التهذيب (١/١٦٥) دار الفكر بيروت (١٤٠٤هـ /١٩٨٤م)، (ط١).

(٥) المصدر السابق (٦/٣٤٠، ٣٤١).

ابن مهدي والعجلي، وقال القطان: لا بأس به، ما سمعت أحدًا يذكره إلا بخير، وما تركه أحد، وقال النسائي في (الكنى): صالح، وذكره ابن حبان في (الثقات) مات (١٢٧هـ). قال عنه الجوزجاني: كذّاب شتّام.. وقال حسين بن واقد: « سمعت من السدي فأقمت حتى سمعته يتناول أبا بكر وعمر، فلم أعد إليه » [١]، وذكره المامقاني من كتّاب الشيعة، وذكر أنه معدود من أصحاب السجّاد، ومرة من أصحاب الباقر، ومرة من أصحاب الصادق، ثم حكى عن تقريب الحافظ ابن حجر: أنه صدوق، ثم قال: « وصف ابن حجر إياه بكونه صدوقًا مع اعترافه بالتشيع كافٍ في ذلك؛ لأن الفضل ما شهدت به الأعداء... والمتحصل من ذلك كون الرجل من الحسان » [٢].

– **وسليمان بن قرم بن معاذ التيمي الضبي** (أبو داود النحوي): « أخرج له مسلم، روى عنه سفيان الثوري وهو من أقرانه... قال عبد اللّٰه بن أحمد بن حنبل: كان أبي يتتبع حديث قطبة بن عبد العزيز وسليمان بن قرم ويزيد بن عبد العزيز بن سياه، وقال: هؤلاء قوم ثقات، وهم أتم حديثًا من سفيان وشعبة، وهم أصحاب كتب، وإن كان سفيان وشعبة أحفظ منهم. وقال محمد بن عوف عن أحمد: لا أرى به بأسًا، لكنه كان يفرط في التشيع » [٣].

– وهذا **سعيد بن عمر** بن أشوع الهمذاني القاضي الكوفي: قال ابن معين: مشهور، وقال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الجوزجاني: غال زائغ، يعني في التشيع، ووثقه العجلي والحاكم [٤].

– وروى أهل السنة عن **خالد بن مخلد القحطاني**: وكان متهمًا بالتشيع، روى له البخاري ومسلم وأهل السنن إلا أبا داود، وقد أخرج البخاري من روايته حديث **« من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب... »** [٥].

---

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب (٣١١/١، ٣١٢)، الثقات لابن حبان (٢٠/٤)، الأنساب (١٠٩/٧)، وذكره المامقاني في تنقيح المقال ونسبه للشيعة (١٣٧/٢).

(٢) المامقاني: تنقيح المقال (١٣٧/٢).

(٣) تهذيب التهذيب (١٨٧/٤)، وانظر أصل الترجمة المزي (يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج): تهذيب الكمال (٥٣/١٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) تحقيق: د. بشار عواد معروف.

(٤) انظر: تهذيب التهذيب (٦٧/٤).

(٥) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٦٤١/١)، تهذيب الكمال (٥٨٨/٦).

- **وخالد بن مخلد القطواني**: أبو الهيثم البجلي، وثّقه ابن حبان، وروى له الشيخان في صحيحيهما، وقال ابن سعد: كان متشيعًا منكر الحديث مفرطًا في التشيع، وكتبوا عنه للضرورة، وقال العجلي: ثقة فيه قليل تشيع، وكان كثير الحديث، وقال صالح ابن محمد: ثقة في الحديث إلا أنه كان متهمًا بالغلو. وقال الجوزجاني: كان شتّامًا معلنًا لسوء مذهبه، وقد كان المحدثون يروون عنه وهم يعلمون حاله؛ فقد روى له أبو داود، مع أنه قال فيه: « **صدوق، ولكنه يتشيع** » [(١)].

- وهذا **عدي بن ثابت الأنصاري**: الشيعي المعروف، روى له الجماعة، قال أهل الجرح والتعديل: كوفي، ثقة، غير أنه كان من الشيعة، وكان إمام مسجدهم وقاصّهم، قال ابن معين: « شيعي مفرط، قال الدارقطني: ثقة إلا أنه كان غاليًا، وقال أحمد: ثقة إلا أنه كان يتشيع، قال عنه الذهبي: عالم الشيعة وصادقهم وقاصهم، وإمام مسجدهم، ولو كانت الشيعة مثله لقلّ شرّهم » [(٢)].

- **وعبد الرحمن بن صالح الأزدي العتكي أبو صالح**: « كان عبد الرحمن بن صالح رافضيًا، وكان يغشى أحمد بن حنبل فيقربه ويدنيه، فقيل له فيه، فقال: سبحان اللَّه! رجل أحب قومًا من أهل بيت النبي ﷺ وهو ثقة... قال محمد بن هارون: كان ثقة، وكان يحدث بمثالب أزواج الرسول ﷺ،... كان رجل سوء » [(٣)]. ومع ذلك روى له النسائي حديثًا في جزء (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه) [(٤)].

قد يقول قائل: إن الاثني عشرية أيضًا رووا عمن خالفهم من أهل الملل الأخرى، نقول: نعم، ولكنهم لم يعدوا أحاديثهم صحيحة، بل هي في المرتبة الثالثة، فهي دون الصحيح ودون الحسن، وسموه القوي. وهذا يبيّن الفرق بين المنهجين.

وقد روى أهل السنة عن أصحاب المواقف السياسية والفكرية المختلفة في الكتب الصحاح:

فكما روى أهل السنة في الصحيح عن رجال الشيعة رووا عن غيرهم من أصحاب المواقف السياسية والعقدية المختلفة؛ منهم:

---

(١) تهذيب التهذيب (٣/١٠١). نسخة دار الفكر - بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

(٢) ميزان الاعتدال (٣/٦١)، التهذيب (٧/١٦٥).

(٣) تهذيب التهذيب (٧/١٧٨).

(٤) الإمام النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ص ٢٠١) تحت باب ذكر الأخبار المؤيدة لما تقدم وصفه. مكتبة المعلا - الكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ)، تحقيق: أحمد ميرين البلوشي.

- **ابن حصين: عثمان بن عاصم الكوفي**: من رجال الجماعة، كان ثقة ثبتًا في الحديث، وكان عثمانيًا [١].

- **وإسماعيل بن سميع**: روى له مسلم: باب من أشرك في عمله غير اللَّه في (كتاب الزهد): كان بيهسيًّا، وهم طائفة من الخوارج يرى رأيهم، ثقة في الحديث، وهو قول البخاري وأحمد والقطان وغيره. جاور في المسجد أربعين سنة، ولم ير في جمعة ولا جماعة [٢].

- **وسعد بن عبيدة السلمي**: أبو حمزة الكوفي، كان يرى رأي الخوارج، ثم تركه، يكتب حديثه، وثقه ابن سعد وابن حبان [٣].

- **والمنقري**: عبد اللَّه بن عمر بن أبي الحجاج التيمي من رواة الجماعة، ثقة، كان يرى القدر، مات سنة (٢٢٤هـ) [٤].

- **وشيبان بن فروخ**: روى له مسلم وأكثر عنه، قال الساجي عنه: إنه قدري إلا أنه كان صدوقًا، وقال أبو حاتم: كان يرى القدر، واضطر إليه بآخر، مات سنة (٢٣٦هـ) [٥].

وهذا منهج أهل السنة في الرواية عن أهل الأهواء والبدع التي لا تكفر، ولا يستحل أهلها الكذب.

- **وعثمان بن غياث**: الزهراني البصير، روى له مسلم، قال عنه أحمد: ثقة، كان يرى الإرجاء، وثّقه ابن معين والنسائي [٦].

ومن أمثلة الإنصاف وحرية الرأي عند رواة ومحدّثي السلف الصالح من هذه الأمة: أن كثيرًا منهم على اختلاف مذاهبهم العقدية رووا عمن خالفهم؛ فهذا زبيد الشيعي، وهو زبيد بن الحارث بن عبد الكريم اليامي... وكان علويًّا مات (١٢٢هـ) [٧]، يروي عن سعد بن عبيدة الخارجي، وهو أبو حمزة الكوفي، وكان يرى رأي الخوارج، ثم تركه، يكتب حديثه، وثقه ابن سعد وابن حبان [٨]. وقد أخرج ذلك مسلم في صحيحه:

---

(١) تهذيب التهذيب (١١٦/٧).

(٢) تهذيب التهذيب (٣٠٥/١)، وتكملة فتح الملهم (٢٣٩/٦).

(٣) تهذيب التهذيب (٤٧٨/٣).

(٤) المصدر السابق (٣٣٦/٥).

(٥) المصدر السابق (٣٧٥/٤). روى له مسلم عدة أحاديث منها في كتاب الأيمان والنذور، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (٤٢٤٤) روى عنه مسلم مباشرة، كشيوخه.

(٦) تهذيب التهذيب (١٤٧/٧).

(٧) المصدر السابق (٢٦٨/٣).

(٨) المصدر السابق (٤٧٨/٣).

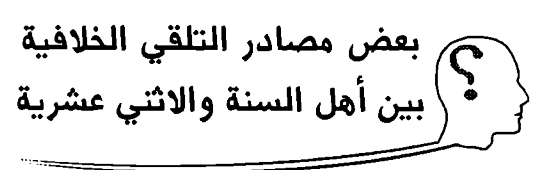
فقال: « عن زبيد عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن عن علي أن رسول اللَّه ﷺ بعث جيشًا وأمّر عليهم رجلًا.. » (١).

وأحيانًا كان أصحاب البيت الواحد نفسه ينقسمون، فبعضهم يتبع هذا المذهب أو ذاك، ولا غضاضة، قال محمد بن طلحة بن مصرف: ما كان بالكوفة من أب وأخ أشد تحابيًا من طلحة بن مصرف وزبيد اليامي؛ كان طلحة عثمانيًّا وكان زبيد علويًّا (٢).

بل يحكي لنا تاريخ الرواة أن بعضهم غيّر مذهبه العقدي؛ فقد تقدم أن بعض الخوارج رجعوا عن مذهبهم، هذا أبو عبد الرحمن السلمي (عبد اللَّه بن حبيب) أشهر قرّاء التابعين، من رواة مسلم « كان ثقة كثير الحديث وقال غيره عن الواقدي: شهد مع علي صفين ثم صار عثمانيًّا، ومات في سلطان الوليد بن عبد الملك، وكان من أصحاب ابن مسعود، وقال ابن عبد البر: هو عند جميعهم ثقة » (٣).

* * *

المَبْحَثُ الرَّابِعُ



بقي لنا كلمة - ونحن نتحدث عن مصادر التلقي - أن نذكر رأي الشيعة في الإجماع والقياس؛ إذ هما دليلان شرعيان عند جلّ أهل السنة والجماعة - إن استثنينا نفاة القياس وهم الظاهرية - فنذكر رأيهم في هذين الدليلين بشيء من الاختصار، ثم نتطرق لبعض المصادر التي مال إليها الاثنا عشرية، وأنكرها باقي علماء الأمة:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الإجماع والقياس

أما الإجماع: فلا يعتدّ به الشيعة في إثبات العقائد والأحكام إلا أن كان بين العلماء المجمعين أحد الأئمة المعصومين، ويكون الاعتداد به ليس لذات الإجماع؛ بل لوجود الإمام ضمن المجمعين، يقول الشيخ الطوسي عن هؤلاء المجمعين: « حكم اجتماعهم حكم انفرادهم، فإذا كان كل واحد منهم ليس معصومًا فكيف يصيرون باجتماعهم معصومين... وذلك باطل »[(١)].

وبهذا نعلم أن الزنجاني قد أجمل حين يجب التفصيل عندما تحدث عن الإجماع بصفته دليلًا شرعيًا، فقال: « الأدلة الشرعية هي الكتاب والسنة النبوية والأحاديث التي رواها الثقات عن أئمة الهدى، والإجماع والعقل على التفصيل المذكور في كتب الفقه »[(٢)]. مما يدل على أن كلامه عن الإجماع كان إعلاميًا، لا حقيقيًا موضوعيًا.

وقد جرّهم قولهم بوجوب وجود الإمام للاعتداد بالإجماع إلى مسألة غريبة: وهي أنه إن كان العلماء المجمعون على مسألة معروفين فلا يعتدّ بهم، أما إن كان هناك عالم مجهول النسب بينهم ففي هذه الحالة يعتدّ بهذا الإجماع؛ رجاء أن يكون هو المهدي الغائب المنتظر!! ففي مسألة إنكار السهو والنسيان في حق الأئمة ذهب الصدوق وشيخه

---

(١) الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ): الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد (ص ٣٠٣).

(٢) الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي - بيروت (ص ١١٣).

ابن الوليد إلى وقوع ذلك، فردّ الشيعة على هذا بقولهم: « إن خروجهما لا يخل بالإجماع لكونهما معروفي النسب »!! [(١)]. وما الذي يضمن أن يكون هذا الذي خفي نسبه بين المجمعين هو الإمام، وليس شخصًا شريرًا مدسوسًا لإفساد رأي السادة العلماء ؟!

أما أهل السنة فيرون الإجماع دليلًا تشريعيًا أكّدته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، « فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند اللّٰه حسن، وما رأوا سيّئًا فهو عند اللّٰه سيئ » [(٢)].

وأما القياس [(٣)]: فإن الشيعة يعدون العقل أحد المصادر الشرعية للأحكام، وقد مر منذ قليل قول الزنجاني: « الأدلة الشرعية هي الكتاب والسنة النبوية والأحاديث التي رواها الثقات عن أئمة الهدى والإجماع والعقل على التفصيل المذكور في كتب الفقه » [(٤)]. وقد امتدحت روايات الشيعة العقل، وكذلك أكّد عليه علماؤهم: « والحقيقة أن العقل بوصفه حجة قاطعة ومصدرًا من مصادر اليقين يقف إلى جوار السنة،... بل إن بعض علمائهم يؤكد على أن العقل لا يعد فقط طريقًا إلى معرفة اللّٰه تعالى، بل يعد أيضًا طريقًا إلى معرفة أصول الاعتقاد الخمسة المعروفة عند الإمامية، وأن العقل بذاته حجة في إثبات هذه الأصول « وهم بهذا لا يختلفون عن المعتزلة الذين يعدون العقل أصلًا من أصول الأدلة » [(٥)]. بل يؤكد الإمامية على إثبات التلازم بين العقل والشرع، وهناك قول مشهور عند الإمامية: (كل ما حكم به العقل فقد حكم به الشرع) [(٦)].

وتروي كتب الشيعة من الأحاديث ما يبين مكانة العقل، فعن أبي جعفر قال:

---

(١) بحار الأنوار (٣٥١/٢٥).

(٢) من كلام ابن مسعود ﷺ، انظر: مسند أحمد بن حنبل (٣٧٩/١)، حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، ورواه الحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي (٨٣/٣).

(٣) نذكر أننا نذكر القياس هنا من باب المقارنة بين مصادر التشريع بين أهل السنة والاثني عشرية، لا من حيث مكانة القياس في العقيدة وتلقّيها عند أهل السنة والجماعة؛ إذ عمل القياس في الأحكام الشرعية التي لا دليل فيها، بقياس ما فيه دليل شرعي من الكتاب والسنة على ما لا دليل عليه منهما، عند وجود العلة الواضحة المشتركة، أما العقائد فالقياس فيها ممتنع.

(٤) الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي - بيروت (ص ١١٣).

(٥) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١١٤).

(٦) محمد رضا المظفر: أصول الفقه (١٨٨/١)، (ط٤)، (١٣٧٠هـ)، الحوزة العلمية قم.

« لما خلق اللّه العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا أحسن منك، إياك آمر وإياك أنهى، وإياك أثيب وإياك أعاقب » [١].

وتنسب كتب الحديث الشيعية إلى النبي ﷺ: « إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهوا به حتى تنظروا كيف عقله » [٢].

وجاء في أصول الكافي عن موسى بن جعفر: « يا هشام، إن للّه على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة؛ فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الحجة الباطنة فالعقول ». وجاء في بحار الأنوار عن الرضا: « العقل تعرف به الصادق فتصدّقه، والكاذب فتكذّبه ».

ولكن مما يثير العجب أن الشيعة مع وقوفهم هذا الموقف من العقل أنكروا حجية القياس، والمنطق يقول: إن القياس هو أحد العمليات العقلية البحتة التي يستخدمها كل العقلاء؛ فكيف امتلأت كتب أصول العقيدة عندهم بعبارات ذم القياس وذم الفقهاء الذين قالوا به؟!

عن جعفر بن محمّدٍ عليه السلام قال: قال رسول اللّه ﷺ: « من عمل بالمقاييس فقد هلك وأهلك، ومن أفتى النّاس بغير علمٍ وهو لا يعلم النّاسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك » [٣].

وقال شارح هذا الحديث: « والمراد بالمقاييس: القياس عند أبي حنيفة ومن تابعه من فقهاء العامة، وجعلوه دليلًا على الحكم الشرعي يعوّلون عليه في عملية الاستنباط » [٤].

وعن أبي شيبة الخراسانيّ، قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: « إنّ أصحاب المقاييس

---

(١) الكليني: أصول الكافي (٦٩/١) كتاب العقل والجهل. وهذا الحديث وإن كان صحيح المعنى؛ فإن علماء السنة حكموا بضعفه أو وضعه؛ حيث لم يرد بسند جيد. انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني (ص ٤٧٧)، المكتب الإسلامي - بيروت (ط٣)، (١٤٠٧هـ)، تحقيق: عبد الرحمن يحيى المعلمي، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٣٠٧/١): « قال الصغاني: موضوع باتفاق » وكذلك نقل عن الزركشي متابعًا ابن تيمية، كشف الخفاء (١٠٧١/٢)، وقد أخرجه الطبراني الكبير (٢٨٣/٨)، من حديث أبي أمامة وأبي هريرة رضي الله عنهما، وضعّفه العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين المسمّى: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٥١/١).

(٢) الكليني: أصول الكافي (٧٠/١) كتاب العقل والجهل.

(٣) المصدر السابق (٩٣/١)، كتاب فضل العلم، باب النهي عن القول بغير علم.

(٤) محمد جعفر شمس الدين، في تعليقه على أصول الكافي (٩٣/١)، الحاشية.

طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحقّ إلا بعدًا، وإنّ دين اللّه لا يصاب بالمقاييس » [(١)].

وعن محمّد بن حكيم قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: « جعلت فداك فقّهنا في الدّين وأغنانا اللّه بكم عن النّاس، حتّى إنّ الجماعة منّا لتكون في المجلس ما يسأل رجلٌ صاحبه تحضره المسألة ويحضره جوابها فيما منّ اللّه علينا بكم، فربّما ورد علينا الشيء لم يأتنا فيه عنك ولا عن آبائك شيءٌ، فنظرنا إلى أحسن ما يحضرنا وأوفق الأشياء لما جاءنا عنكم فنأخذ به؟ فقال: هيهات هيهات في ذلك واللّه! هلك من هلك يا بن حكيمٍ. قال: ثمّ قال: لعن اللّه أبا حنيفة كان يقول: (قال عليٌّ وقلت) قال محمّد بن حكيمٍ لهشام بن الحكم: واللّه ما أردت إلا أن يرخّص لي في القياس » [(٢)].

ولا مجال إذن لفسح المجال للعقول لتفترض فرضيات لا وجود لها، فقد جاء عن يونس عن قتيبة قال: « سأل رجلٌ أبا عبد اللّه عليه السلام عن مسألةٍ فأجابه فيها، فقال الرّجل: أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: مه، ما أجبتك فيه من شيءٍ فهو عن رسول اللّه ﷺ. لسنا من أرأيت في شيءٍ » [(٣)].

وهذه النصوص التي روتها كتب الإمامية في ذم القياس العقلي هي التي جعلت قسمًا من الشيعة – مع اعترافهم بكون العقل أصلًا من أصول اليقين – يقللون من مكانة العقل. ومثل هذه النصوص التي وردت في روايات الأئمة وعن علمائهم تثبت صدق ما نسبه الغزالي إليهم؛ إذ « نسب الغزالي إلى الإمامية القول بإثم المجتهد المخطئ، وذهب بشر المريسي إلى أن الإثم غير محطوط عن المجتهدين في الفروع... وتابعه على هذا ابن علية وأبو بكر الأصم، ووافقه جميع نفاة القياس ومنهم الإمامية » [(٤)]. على حد قول أحد الأئمة: « أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على اللّه » [(٥)].

ويحاول الدكتور السنهوتي أن يفسر موقف الأئمة المتشدد من القياس فيقول: « لأنهم يريدون من الناس أن يردّوا لهم كل شيء » وقد عبّر عن هذه الحقيقة الشيخ

---

(١) أصول الكافي (١٠٩/١) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقاييس.

(٢) أصول الكافي (١٠٨/١) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقاييس.

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقاييس (١١٢/١).

(٤) عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري: فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٤٦١/٢)، (١٣٢٤هـ)، دار الفكر – دمشق.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٣٠٦/٢).

المظفر عندما قال: « ونعتقد أن الأحكام الشرعية الإلهية لا تستقى إلا من نمير مائهم، ولا يصح أخذها إلا منهم » [١]، وخصوصًا في مسألة الإمامة: فإذا كان أهل السنة يرون وجوب الاجتهاد بالعقول لاختيار الإمام - هذا ما كان ينبغي بخلاف ما وقع في كثير من مراحل التاريخ - فإن الاثني عشرية يرون أن الإمامة فوق العقل، وأنها « أجلّ من أن يدركها الناس بعقولهم » [٢].

أما جمهور أهل السنة فيرون القياس مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي.

والحقيقة أن قول علماء الاثني عشرية بوجوب الاجتهاد حال الغيبة الكبرى - وقد وقعت - يقرّب وجهات النظر في مسألة القياس والاجتهاد العقلي واقعيًا. يقول الزنجاني: « نعتقد أن الاجتهاد في الأحكام الفرعية واجبٌ بالوجوب الكفائي على جميع المسلمين في عصر غيبة الإمام من تاريخ (٣٢٩هـ) إلى زماننا » [٣]. « فأرجع شيعته إلى فقهاء مدرستهم، وأنابهم عنه نيابة عامة دون تعيين أحد بالخصوص... حيث تحولت الحلقات الدراسية التي كانت تعقد في المساجد والبيوت على عهد الأئمة إلى معاهد تعليمية وحوزات علمية » [٤].

والحقيقة أن تلك النصوص الذامّة للقياس، والتي نقلها أتباع الأئمة عنهم - كان من الممكن توجيهها من علماء الاثني عشرية: بأن المراد بالقياس المذموم هو القياس والاجتهاد عند ورود النص الصحيح الصريح؛ إذ (لا اجتهاد في مورد النص) وهو أمر واضح الصواب، أما الاجتهاد والقياس عند غياب النص بعيدًا عن الهوى فلا حرج فيه، بل لا بد منه.

ولكنهم لم يوجهوها هذا التوجيه؛ لأن هنالك بعدًا آخر لذم القياس؛ فإذا كان تأثر الشيعة بالمعتزلة جعلهم يقولون بمكانة العقل ودوره في تأسيس اليقين، فإن عقيدة الشيعة في الأئمة وشمول علومهم وأنهم (خزّان العلوم الإلهية)، وأنهم قد علموا كل شيء يحتاجونه - كل ذلك يجعل الشيعة يتجهون اتجاهًا معاكسًا؛ إذ يعوّلون على ما نقل من كلام الأئمة، ويعرضون عن الاجتهاد، وهذا هو مذهب الأخبارية منهم [٥].

---

(١) الشيخ المظفر: عقائد الإمامية (ص ٥٥).

(٢) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٦٥).

(٣) الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي - بيروت (ص ١١٣).

(٤) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣٩٢/٣).

(٥) انظر: د. عائشة المناعي (ص ١١٥)، وانظر: د. رشدي محمد عرسان: العقل عند الشيعة الإمامية مطبعة دار السلام - بغداد (ط١)، (١٩٧٣م)، (ص ٩٨).

وبهذا ندرك أن الصراع بين الأصوليين والأخباريين لم يقتصر على إمكانية دور العقل في الحكم بتضعيف أو تصحيح النصوص الواردة عن الأئمة؛ بل يتعدى ذلك الخلاف والصراع إلى دور العقل في الاجتهاد والمعرفة بعيدًا عن روايات الأئمة.

ولا عجب بعد ذلك أن نرى قسمًا من الشيعة يوغل في تمسكه بظواهر أقوال الأئمة دون تمحيص بين صحيحها وسقيمها، في حين يتجه القسم الآخر إلى علم الكلام والفلسفة المشائية ويوغل فيها.

* * *

المطلب الثاني

بعض المصادر الغريبة لتلقي العقيدة عند الاثني عشرية

إذا كان الاثنا عشرية قد أنكروا الإجماع - بماهيته عند أهل السنة والجماعة - وكذلك أنكروا القياس وذموه؛ فإنهم في الحقيقة وقعوا في شراك الاعتقاد بمصادر غريبة لم يوافقهم عليها أهل السنة والجماعة ولا غيرهم. ومن هذه المصادر الغريبة:

١ - توقيعات المهدي الغائب المنتظر:

وهي عبارة عن رسائل يزعم بعض الاثني عشرية أنهم يحصلون عليها من الإمام الغائب - وخصوصًا في فترة الغيبة الصغرى التي ابتدأت بولادته منتصف شعبان (٢٥٥هـ) وانتهت بغيبته الكبرى في (١٥ شعبان ٣٢٨هـ).

واعلم أن الرقاع كثيرة؛ منها رقعة علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، فإنه كان يظهر رقعة بخط الصاحب في جواب سؤاله، ويزعم أنه كاتب أبا القاسم ابن أبي الحسين ابن روح [أحد سفراء الإمام حال الغيبة الصغرى] على يد علي بن جعفر بن الأسود أن يوصل له رقعته إلى الصاحب فأوصلها إليه، فزعم أبو القاسم أنه أوصل رقعته إلى الصاحب (أي المهدي) وأرسل إليه رقعة زعم أنها جواب صاحب الأمر له.

ومنها رقاع محمد بن عبد الله بن جعفر بن حسين بن جامع بن مالك الحريري أبو جعفر القمي، كاتب صاحب الأمر وسأله مسائل في أبواب الشريعة قال: قال لنا أحمد بن الحسين: وقفت على هذه المسائل من أصلها والتوقيعات بين السطور. ذكر تلك الأجوبة محمد بن الحسن الطوسي في كتاب الغيبة وكتاب الاحتجاج.

فهؤلاء كلهم كانوا يزعمون أنهم كانوا يكاتبون صاحب الأمر (المهدي المنتظر) ويسألونه مسائل في أحكام الشرع، وأنه كان يكتب جواب أسئلتهم كما ذكره النجاشي وغيره من علمائهم، وأبو العباس هذا قد جمع كتابًا في الأخبار المروية عنه وسماه (قرب الإسناد إلى صاحب الأمر).

ومنها رقاع علي بن سليمان بن الحسين بن الجهم بن بكير بن أعين أبو الحسن الرازي فإنه كان يدعي المكاتبة أيضًا ويظهر الرقاع. قال النجاشي: كان له اتصال بصاحب الأمر وخرجت له التوقيعات.

وقد ذكر الكليني في الكافي أن الشيعة كانوا يكاتبون المهدي في صغار الأمور مثل كبارها؛

فعن القاسم بن العلاء قال: « ولد لي عدّة بنين فكنت أكتب وأسأل الدّعاء فلا يكتب إليّ لهم بشيء فماتوا كلّهم، فلمّا ولد لي الحسن ابني كتبت أسأل الدّعاء فأجبت: يبقى والحمد للّه » [1].

وآخر يسأله الدعاء لشفاء من مرض؛ فعن محمّد بن يوسف الشّاشيّ قال: خرج بي ناصورٌ على مقعدتي فأريته الأطبّاء وأنفقت عليه مالًا فقالوا: لا نعرف له دواءً، فكتبت رقعةً أسأل الدّعاء فوقّع ﷺ إليّ: « ألبسك اللّه العافية وجعلك معنا في الدّنيا والآخرة. قال: فما أتت عليّ جمعةٌ حتّى عوفيت وصار مثل راحتي، فدعوت طبيبًا من أصحابنا وأريته إيّاه فقال: ما عرفنا لهذا دواءً » [2].

وآخر يكتب ليستأذن بركوب الماء فلا يؤذن له، وآخر يستأذن بالسفر إلى بغداد فلا يؤذن له، ثم يؤذن له بالخروج يوم الأربعاء [3]، وهذا يسأله عن الجارية أيستولدها؟؛ عن محمّد بن صالح قال: « كانت لي جاريةٌ كنت معجبًا بها فكتبت أستأمر في استيلادها فورد: استولدها ويفعل اللّه ما يشاء. فوطئتها فحبلت ثمّ أسقطت فماتت » [4].

وعن الحسن بن الفضل بن زيد اليمانيّ قال: « كتب أبي بخطّه كتابًا فورد جوابه، ثمّ كتبت بخطّي فورد جوابه، ثمّ كتب بخطّه رجلٌ من فقهاء أصحابنا فلم يرد جوابه،

---

(١) أصول الكافي (١/٥٩٦) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه.

(٢) أصول الكافي (١/٥٩٧) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه. الناصور: قروح داخلية تصيب مخرج الغائط.

(٣) أصول الكافي (١/٥٩٧) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه..

(٤) أصول الكافي (١/٥٩٧) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب. حكم بصحته محققه.

فنظرنا فكانت العلّة أنّ الرّجل تحوّل قرمطيًا » [١].

وبعضهم كان يسأل في هذه الرقاع عن أهم أصول الدين، وكأن القرآن والسنة لم يبيّنا أصول العقيدة؛ عن أيّوب بن نوحٍ أنّه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عز وجل أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها..؟ فوقّع بخطّه: لم يزل الله عالمًا بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء.

وعن جعفر بن محمّد بن حمزة قال: كتبت إلى الرّجل عليه السلام أسأله أنّ مواليك اختلفوا في العلم... فكتب عليه السلام بخطّه: « لم يزل الله عالمًا تبارك وتعالى ذكره » [٢].

وهذه التوقيعات قدّست وعظّمت عند الاثني عشرية - مع أنها من الناحية العلمية لا قيمة لها؛ إذ من السهل ادعاؤها أو تزويرها، كما أنها خالية عن السند - وقد أحاطتها هالة من الهيبة والقداسة، حتى قدّمت على الأحاديث المسندة. مع أنها من الأمور الخفية التي لا يدل عليها أي دليل؛ غاية ما في الأمر أن هذا السفير « كان يزعم أنه يكتب مسألة في رقعة فيضعها في ثقب شجرة ليلًا، فيكتب الجواب عنها المهدي صاحب الزمان بزعمه »!! وقد قدّموها على الكتب المسندة، كما ذكر الآلوسي في مقال كتبه في مجلة المنار أنهم: رجّحوا التوقيع على المروي بالإسناد الصحيح لدى التعارض، قال ابن بابويه في الفقه بعد ذكر التوقيعات الواردة من الناحية المقدسة في (باب الرجل يوصي إلى الرجلين): هذا التوقيع عندي بخط محمد بن الحسن بن علي، وفي الكافي للكليني رواية بخلاف ذلك التوقيع عن الصادق، ثم قال: لا أفتي بهذا الحديث، بل أفتي بما عندي من خط الحسن بن علي [٣]! فما دامت أحاديث الكليني منقولة عن الأئمة، وقد زعموا أن الكليني أرسل بكتاب (الكافي) إلى الإمام الغائب، « فاستحسنه، وقال كافٍ لشيعتنا » [٤] - فكيف تتصادم أحاديثه مع خبر أتى عن الإمام الغائب نفسه؟!! ولو كان هذا الخبر في الكافي ضعيفًا فكيف لم يصححه الغائب ويحذفه من النسخة

---

(١) أصول الكافي (٥٩٧/١) كتاب الحجة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه..

(٢) أصول الكافي (١٦٠/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٣) مجلة المنار مجلد (٢٩) (٤٢٤/٦)، ربيع الآخر (١٣٧٤هـ) أكتوبر (١٩٢٨م)، تحت عنوان خطة المنار في التأليف بين المسلمين، وهي في أصلها صورة الكتاب الذي أرسله علامة العراق السيد محمود شكري الآلوسي إلى علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي في الرد على صاحب رسالة (الحصون المنيعة فيما أورده صاحب المنار في الشيعة) العاملي.

(٤) مقدمة الكافي (ص ٢٠، ٢١)، وانظر: منتهى المقال (ص ٢٩٨)، وروضات الجنات (ص ٥٥٣).

التي وصلت إليه؟ ولذلك جاء السيد مرتضى العسكري ليشكك بهذا القول الذي يتصدّر كتاب أصول الكافي، فيقول: « أما ما قيل من أن المهدي عليه السلام قال: (إن الكافي كافٍ لشيعتنا)؛ فإنه قول مجهول راويه، ولم يسمّ أحدٌ باسمه »[1]، فيستدلون بهذا القول حينما يريدون، ويطرحونه حينما يريدون.

٢ - حساب الحروف واعتقاد النفع والضر في النجوم:

أما علم الفلك فهو من العلوم الكونية المهمّة التي نشط فيها علماء المسلمين، ولكن المذموم هو التنجيم واعتقاد الضرر والنفع في النجوم.

وهنالك روايات اثنا عشرية تعظّم من شأن النجوم والتطلع إليها، وترفع قدر حساب الحروف، وتنسب إلى نبي اللّٰه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حساب النجوم؛ فعن عليّ بن محمّدٍ رفعه عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام في قول اللّٰه عز وجل: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٨ ، ٨٩] قال: « حسب فرأى ما يحلّ بالحسين عليه السلام فقال: إنّي سقيمٌ لما يحلّ بالحسين عليه السلام »[2].

وعن محمّد بن عبد اللّٰه رفعه عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام قال: إنّ أبا طالبٍ أسلم بحساب الجمّل قال: بكلّ لسانٍ. وحساب الجمّل: « هو حساب الأبجد؛ إذ لكل حرف من حروفه عدد مخصوص به »[3].

و « عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام قال: « أسلم أبو طالبٍ بحساب الجمّل وعقد بيده ثلاثًا وستّين »[4].

« عنى بذلك: (إله أحد جواد)، وتفسير ذلك أن الألف واحد، واللام ثلاثون، والهاء خمسة، والألف واحد، والحاء ثمانية، والدال أربعة، والجيم ثلاثة، والواو ستة، والألف واحد، والدال أربعة؛ فذلك ثلاثة وستون »[5].

ومن المعلوم عند أهل السنة والجماعة، بل عند عقلاء البشر أن التعامل بالنجوم وحساب الحروف ليس من الإسلام في شيء.

---

(١) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٤٤).

(٢) أصول الكافي (١/٥٣٧) كتاب الحجة، باب مولد الحسين بن علي. قال محققه: والحديث مرفوع، مع أنه لم يذكر له سندًا هنا، ويعلم من له أدنى معرفة بمصطلح الحديث أن رفع الحديث لا يعني تصحيحًا ولا تضعيفًا.

(٣) أصول الكافي (١/٥٢١)، كتاب الحجة، بابٌ في مولد النبي ﷺ ووفاته. هامش (٣).

(٤) أصول الكافي (١/٥٢١)، كتاب الحجة، بابٌ في مولد النبي ﷺ ووفاته.

(٥) مرآة العقول (٥/٢٥٨).

اعتقاد النفع والضرر في النجوم:

« عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « جعلت فداك، إني أخاف العقرب، فقال: انظر إلى بنات نعش [١] الكواكب الثلاثة الوسطى منها بجنبه كوكب قريب منه تسميه العرب: السها، ونحن نسميه: أسلم، أحدّ النظر إليه كل ليلة وقل ثلاث مرات: « اللَّهم رب أسلم صلّ على محمد وآل محمد، وعجل فرجهم وسلّمنا » قال إسحاق: فما تركته منذ دهري إلا مرة واحدة فضربتني العقرب » [٢].

وجاء في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: « من سافر أو تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى » قال المحقق: « أي في بروجها أو محاذاة كواكبها » [٣].

ولما انتشرت مثل هذه الترهات بين العامة تصدى لها علماء السنة وأكّدوا وضعها، جاء في (تذكرة الموضوعات): « (لا تسافروا والقمر في العقرب): موضوع » [٤].

ولذلك لا غرابة أن يطبع في النجف كتاب (ضياء الصالحين) الذي يجمع في بعض صفحاته عدة طلاسم تقرأ على مدار الأسبوع معنونة: (طلسم يوم الجمعة... إلخ)، فيه آيات من القرآن إلى جانب بعض الحروف والرموز [٥].

وسرُّ انتشار هذه الكتب تلك الروايات التي ذكرت النجوم والحروف، وتردد علماء الشيعة في تحريم الطلاسم التي يقولون: إنه لا ضرر فيها. يقول الأنصاري – الشيعي –:

« ما كان من الطلسمات مشتملًا على إضرار أو تمويه على المسلمين، أو استهانة بشيء من حرمات اللَّه – كالقرآن وأبعاضه وأسماء اللَّه الحسنى، ونحو ذلك – فهو حرام بلا ريب، سواء عد من السحر أم لا، وما كان للأغراض – كحضور الغائب، وبقاء العمارة، وفتح الحصون للمسلمين، ونحوه – فمقتضى الأصل جوازه » [٦].

كما حوى بحار الأنوار بعض التعويذات عن الأئمة بكلمات أعجمية لا يعرف

---

(١) بنات نعش: سبعة كواكب؛ أربعة منها نعش وثلاث بنات وكذلك الصغرى، والسها: هي الكوكب الثاني من بنات نعش ويسمى الأول منها: القائد والثاني: المحور، ويسميها الناس اليوم: الدب الأكبر.

(٢) أصول الكافي (٥٣٧/٢) كتاب الدعاء، باب الحرز والعوذة. قال محققه: الحديث حسن أو موثق.

(٣) الروضة من الكافي (٢٧٥/٨) باب فضل الشيعة وأنهم نور في ظلمات الأرض.

(٤) الفتني: تذكرة الموضوعات (ص ١٢٢)، باب فضل السفر للغازي وغيره في البر والبحر.

(٥) انظر: الحاج محمد صالح الجوهري: ضياء الصالحين (ص ٥٢٥)، مكتبة الألفين – الكويت.

(٦) الشيخ الأنصاري: كتاب المكاسب (٢٦٦/١) مطبعة باقري قم (١٤١٥هـ).

معناها، شأن كثير من تعاويذ الكهان والسحرة والمشعوذين:

« ٣ مكا: حرز لأمير المؤمنين صلوات الله عليه للمسحور والتوابع والمصروع والسم والسلطان والشيطان وجميع ما يخافه الإنسان، ومن علق عليه هذا الكتاب لا يخاف اللصوص والسارق، ولا شيئًا من السباع والحيات والعقارب وكل شيء يؤذي الناس وهذه كتابته: بسم الله الرحمن الرحيم، أي كنوش أي كنوش، ارشش عطنيطنيطح، يا ميططرون فريالسنون، ما وما ساما سويا، طيطشالوش خيطوش مشفقيش مشاصعوش أو طيعينوش ليطفيتكش هذا هذا، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤] اخرج بقدرة الله منها أيها اللعين بعزة رب العالمين، اخرج منها وإلا كنت من المسجونين، اخرج منها ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣] »[١].

ولا شك أن هذه الأخبار مكذوبة على علي وآل بيته الكرام، كما قال ابن قيم: « والكذّابون كثيرًا ما ينفقون سلعهم الباطلة بنسبتها إلى علي وأهل بيته، كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والمراحم وغيرها، فلا يدري ما كذب على أهل البيت إلا الله سبحانه »[٢].

وقد ثبت عند أهل السنة قول النبي ﷺ - كما في صحيح مسلم -: « **من أتى عرّافًا لم تقبل منه صلاة أربعين يومًا** »[٣]، وجاء في المسند: « **من أتى كاهنًا أو عرّافًا فصدّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ** »[٤]، وثبت عندهم قول سيدنا علي أمير المؤمنين ﷺ: « من طلب علم النجوم تكهّن »[٥].

وورد أنه قيل له: « لا تحاربهم اليوم فإن القمر في العقرب. فقال ﷺ: قمرنا أم قمرهم[٦]؟!

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٩١/١٩٣).

(٢) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة (٢/٢٢٦ - ٢٢٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم الكهانة، رقم (٢٢٣٠).

(٤) مسند أحمد بن حنبل (٢/٤٢٩). وحسّنه الشيخ شعيب الأرناؤوط، وقال: رجاله ثقات رجال الصحيح، والطبراني: المعجم الكبير (١٠/٧٦).

(٥) القضاعي: (الحافظ أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي): دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ص ١٨٦) دار القلم - دمشق (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

(٦) ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة (١٩/٣٧٦). دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١٩٥٩م).

وهذا الجواب منه - رضوان اللَّه عليه - من دلائل علمه وفطنته؛ إذ النحس والطيرة ستكون للفريقين، فلو كان لها وجود لكان جيشه وجيش عدوه في الطيرة والشؤم سواء.

« ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج فقال له: يا أمير المؤمنين، إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام: زعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء، وتخوّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر؟! من صدّق بهذا فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الإعانة باللَّه في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه؛ لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر. ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر؛ فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجّم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار. سيروا على اسم اللَّه »[1].

وقد أشار الشيخ شبّر إلى جملة من المعاصي منبهًا، فذكر « منها الإخبار عن الغائبات على البتّ والقطع لغير نبي أو وصي نبي، سواء كان بالتنجيم أو الكهانة أو القيافة أو غير ذلك والشعبذة والسحر، وفي الحديث...: « المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون »... ومنها: استخدام الملائكة والجن واستنزال الشياطين في كشف الغائبات واستحضارهم وتلبيسهم ببدن صبي أو امرأة أو نحو ذلك، فتعلّم ذلك وأشباهه وتعليمه حرام، والكسب به سحت إلا للتوقي ودفع المبتلى »[2].

هل تعود أمة الإسلام إلى الاستقسام بالأزلام؟!

نهانا اللَّه تعالى عن الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بصلاة ودعاء الاستخارة، ولكن عن الكُليني والمجلسي رواية تبين إمكانية الرجوع للأزلام، ولكن بطريقة تدخل عبارات إسلامية!

عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: « إذا أردت أمرًا فخذ ست رقاع فاكتب في ثلاث منها (بسم اللَّه الرحمن الرحيم، خيرة من اللَّه العزيز الحكيم لفلان ابن فلانة، افعل) وفي ثلاث منها (بسم اللَّه الرحمن الرحيم، خيرة من اللَّه العزيز الحكيم لفلان بن فلانة، لا تفعل) ثم ضعها تحت مصلّاك ثم صل ركعتين، فإذا فرغت فاسجد سجدة وقل مائة مرة: (أستخير اللَّه برحمته خيرة في عافية). ثم استوِ جالسًا وقل: (اللَّهم

---

(١) نهج البلاغة (١/١٢٨، ١٢٩).

(٢) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٤١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

خر لي واختر لي في جميع أموري في يسرٍ منك وعافية). ثم اضرب بيدك إلى الرقاع فشوشها وأخرج واحدة واحدة، فإن خرج ثلاث متواليات (افعل)؛ فافعل الأمر الذي تريده، وإن خرج ثلاث متواليات (لا تفعل)؛ فلا تفعله، وإن خرجت واحدة (افعل) والأخرى (لا تفعل)؛ فأخرج من الرقاع إلى خمس فانظر أكثرها، فاعمل به، ودع السادسة لا يحتاج إليها » [1].

وهذا قريب من حال أهل الجاهلية في ابتغاء علم الغيب، قال تعالى مبينًا بعض ما نهانا عنه: ﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن جرير الطبري: « أي وأن تطلبوا علم ما قسم لكم أو لم يقسم بالأزلام... قال ابن قتيبة: الأزلام القداح واحدها زَلَم وزُلَم، والاستقسام بها أن يضرب بها فيعمل بما يخرج فيها من أمر أو نهي... قال سعيد بن جبير: الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدوًّا أو رواحًا كتبوا في قدحين في أحدهما: أمرني ربي، وفي الآخر: نهاني ربي. ثم يضربون بهما، فأيهما خرج عملوا به » [2].

فما الفرق بين الصورتين؟!

٣ - مكانة الإلهام بين مصادر العقيدة عند الاثني عشرية وأهل السنة والجماعة:

قال الجرجاني الحنفي [3]: « الإلهام ما يلقى في الروع بطريق الفيض، وقيل: الإلهام ما وقع في القلب من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة » [4].

قال ابن الجوزي: « ولا ينكر أن الله ﷻ يلهم الإنسان الشيء كما قال النبي ﷺ: « **إنّ في الأمم محدّثين، وإن يكن في أمتي فعمر** » [5]، والمراد بالتحديث: إلهام الخير، إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه... وليس الإلهام من العلم

---

(١) الكليني: الكافي (٣/٤٧٠، ٤٧١)، والمجلسي: بحار الأنوار (٨٨/٢٣٠)، واللفظ للمجلسي.

(٢) ابن الجوزي: زاد المسير (٢/٢٣٨).

(٣) علي بن محمد الجرجاني الحنفي (ت ٨١٦هـ)، شارح (المواقف في علم الكلام) للإيجي (٧٥٦هـ)، وهو غير عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني اللغوي (ت ٤٧١هـ) صاحب (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة).

(٤) الجرجاني: التعريفات (ص ٥٢)، دار الكتاب العربي - بيروت (ط ١)، (١٤٠٥هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

(٥) أخرجه البخاري بلفظ (إنه كان قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب) كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾ [الكهف: ٩] رقم (٣٢٨٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر، رقم (٢٣٩٨). (محدّثون): جمع محدث، وهو الذي يجري الصواب على لسانه أو يخطر بباله الشيء فيكون.

في شيء؛ إنما هو ثمرة العلم والتقوى فيوفق صاحبهما للخير ويلهم الرشد، فأما أن يترك العلم ويقول إنه يعتمد على الإلهام والخواطر؛ فليس هذا بشيء... واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية؛ فإن العقلية كالأغذية، والشرعية كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا » (١).

ويقول الجرجاني في حجية الإلهام: « هو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفيين » (٢).

ويرى بعض كتّاب الشيعة أن الإلهام من مصادر العقيدة؛ إذ يقول الأستاذ مرتضى مطهري - شيعي معاصر - عن الإلهام أنه: « أحد أنواع الهداية الأخرى... العلم الإشراقي (الإلهام) »، ويراه سابقًا للتفكير والتجربة فيقول: « إن هناك منشأً اسمه الإلهام أو الحدس أو الإشراق - سمه ما شئت - وراء التجربة والتفكير... هذا وفي الأحاديث إشارات كثيرة إلى العلم الإشراقي اللدني خصوصًا فيما يتعلق بتهذيب النفس وطهارتها، وأنها كلما كانت على حد من الطهارة والنزاهة كلما كانت مستعدة لقبول العلم والإلهام والإشراق » (٣).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥] يقول مطهري: « وفي ذلك إشارة - على ما في بعض التفاسير - إلى استعداد بعض النفوس لكسب العلوم والمعارف من دون طي مقدمات العلم ». وقد أخذ مطهري القول بأهمية الإلهام في العلوم عن بعض فلاسفة المسلمين كابن سينا وعلماء الغرب كأنشتاين وألكسيس كاريل (٤). وهكذا يتفق القائلون بالإلهام من الشيعة مع المقرين بأهميته من أهل التصوف؛ فكلاهما يستشهد بالحديث القائل: « من أخلص لله أربعين يومًا فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (٥).

وإذا كان الكشف طريقًا من طرق المعرفة عند بعض المتصوفة وبعض الشيعة؛ فإن هنالك من علماء الشيعة من أنكر أن يكون الكشف طريقًا موصلًا إلى الله؛ إذ لو كان أحد طرق الوصول إلى الحقيقة لبيّنه القرآن الكريم وفصّله، يقول الطباطبائي - المعاصر -:

---

(١) ابن الجوزي: تلبيس إبليس (ص ٣٩٢)، دار الكتاب العربي - بيروت (ط ١)، (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، تحقيق: د. السيد الجميلي.

(٢) الجرجاني: التعريفات (ص ٥٢).

(٣) مطهري: التوحيد (ص ١٤١، ١٤٢).

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٦٧/٢٤٩)، وليس له ثبوت عند أهل السنة، فقد ذكره الفتني في (تذكرة الموضوعات) باب خرقة الصوفية والأربعينات والمجاهدة (ص ١٩١، ١٩٢). قال ابن عدي عن الحديث: منكر.

« فهل يمكن أن يتصور أن الإسلام يعرّف لنا الطريق إلى الله تعالى ولا يحث الناس على تتبعه، أو يعرّفه ويغفل عن تبيان نهجه في حين يقول: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] » [(١)].

وهذا ينسجم مع ما قرره المحققون من علماء الكلام من أهل السنة، من إنكار أن يكون الإلهام موصلًا للعلم الملزم بين الناس، وإن أجاز بعضهم أن يكون الإلهام طريقًا خاصًا للاستئناس، فلا يترتب عليه شيء من الأحكام؛ فقد قال النسفي عن الإلهام: « والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق » [(٢)]. وقال التفتازاني شارحًا: « الظاهر أنه أراد أن الإلهام ليس سببًا يحصل به العلم لعامة الخلق ويصلح للإلزام على الغير، وإلا فلا شك أنه قد يحصل به العلم، وقد ورد القول به في الخبر، وحكي عن كثير من السلف » [(٣)].

أما اليزدي الاثنا عشري فإنه يقسم المعرفة والرؤية الكونية إلى:

١ - الرؤية الكونية العلمية (العلوم التجريبية).

٢ - الرؤية الكونية الفلسفية.

٣ - الرؤية الكونية الدينية (من طريق الاعتقاد بقادة الأديان والإيمان بأحاديثهم).

٤ - الرؤية الكونية العرفانية التي تحصل من طريق الكشف والشهود والإشراق ».

ويتحدث عن هذا النوع الرابع فيقول: « في الكثير من الحالات ربما يشتبه الشهود الحقيقي بالتصورات الخيالية لها وتفسير الذهن لهذا الشهود، وربما يعرض هذا الخلط الاشتباه حتى على المشاهد نفسه...لا يمكن التوصل للحقائق التي يعبر عن تفسيرها الذهني (الرؤية الكونية) إلا بعد سنوات طويلة من السير والسلوك العرفاني » [(٤)].

والملاحظ أن اليزدي يضخم دور الرؤية الفلسفية؛ لتكون سندًا بعد ذلك للرؤى

---

(١) الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١٠٨) وما بعدها.

(٢) النسفي: (عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل السمرقندي الحنفي ت ٥٣٧هـ): العقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني (ص ٧٤). تحقيق محمد عدنان درويش.

(٣) التفتازاني: (سعد الدين بن مسعود بن عمر ت ٧٩٢): شرح العقائد النسفية (ص ٧٤). تحقيق محمد عدنان درويش، تقديم الشيخ أديب الكلاس.

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (١٤٢٤هـ)، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع - طهران، ترجمة هاشم محمد (ص ٥٤).

الكشفية، فيقول: « الطريق الوحيد لكل باحث عن معالجة المسائل الأساسية للرؤية الكونية وحلها هو طريق العقل والمنهج العقلي، ومن هنا فالرؤية الواقعية هي الرؤية الكونية الفلسفية... وأخيرًا بعد التوفر على الرؤية الكونية والأيديولوجية الصحيحة يمكن التوصل من خلال المكاشفات والمشاهدات ومن خلال السعي والرقي في مراحل السير والسلوك، ليتوصل وبدون الوسائط الذهنية إلى الكثير من الحقائق التي أثبتتها الاستدلالات العقلية » [1].

وإذا قارنا موقف اليزدي (الشيعي) من مصادر المعرفة بموقف الشيخ عبد الرحمن حبنكة (السني) منها؛ فنرى الأستاذ حبنكة يحصر مسالك الوصول إلى اليقين في ثلاثة مسالك: (الخبر الصادق، الإدراك الحسي، الاستنتاج العقلي). ويعلق على الإشراق والإلهام بقوله: فمن الناس من « يكون صادق الفطرة والإشراق، بدليل موافقة إشراقه الخاص لنتائج مسالك الآخرين البرهانية اليقينية... قد يصلح للمعتقد نفسه، ولكنه لا يغنيه في إقامة الحجة على الآخرين، إلا إذا كان من الأمور التي يشهد الناس بصدقها » [2].

وبهذا نرى أن الطباطبائي واليزدي في موقفهما من الإشراق والإلهام يتقاربان مع التفتازاني المتقدم والأستاذ عبد الرحمن حبنكة - المعاصر - في حين ضخّم بعض علماء الاثني عشرية دور الإلهام في الوصول إلى المعارف، وضخم غيرهم دور الرؤية الفلسفية.

ويا حبّذا لو ركّز الباحثون في مجال العقيدة على أهمية وأوّلية الخبر الصادق، حسب عبارة الشيخ حبنكة - أو الرؤية الكونية الدينية - على حد تعبير الشيخ اليزدي - في مجال العقيدة، وذلك لعدة أسباب:

- لأن الخبر الصادق هو الذي جاءت به رسل الله تعالى، وبهم أقام الله الحجة على العباد كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

- ولأنه هو الوحي المعصوم من الله تعالى، وهو المنظار الواضح الذي يكشف لنا عن عالم الغيب، بشكل يقيني.

- ولأن موضوع عالم الغيب يتناسب مع الخبر الصادق، فهو مجاله وميدانه.

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٥٤، ٥٥).

(٢) الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٤٥، ٤٦)، دار القلم - دمشق (ط٧)، (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م).

أما التجربة والمشاهدة فمجالها عالم الشهادة والمحسوسات؛ فلا سلطان لها على عالم الغيب الذي جاءت به الأنبياء.

وأما طريق الاستنتاج العقلي، فمرحبًا بها في فهم النصوص الواردة بطريق الوحي المعصوم؛ بحيث تكون وسيلة لفهمه، لا ندًّا له ولا مناقشًا ولا معقّبًا.

أما الرؤية الفلسفية فإنما تبحث في المجردات العقلية؛ فإنها وإن كانت لا تخلو من فوائد تخدم المناهج الأخرى، ولكن فيها من الصعوبة ما فيها، مما لا يستطيع كل البشر الوصول إليها، بل نخبة قليلة منهم، وقد تختلف آراؤهم في كثير من مسالكها، مما لا يجعل حجة اللَّه تعالى تقوم على الناس بها.

ولعل من أهم الأخطاء المنهجية المعرفية التي وقعت بها البشرية في تاريخها - وقد تغلغل في معظم المعارف الإنسانية - هو: سوء استخدام مناهج الوصول إلى الحقيقة، بالخلط بين مناهج المعرفة، واستخدام بعض المناهج في غير ما وضعه اللَّه تعالى له، كاستخدام منهج التجربة في مجال عالم الغيب، واعتماد منهج الوحي في مجال عالم التجربة والمشاهدة.

* * *

الفَصۡلُ الثَّالِثُ

مسائل الاعتقاد العامة
بين الشيعة الاثني عشرية وأهل السنة

(وفيه مباحث):

ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلۡأَوَّلُ: الإيمان والإسلام.

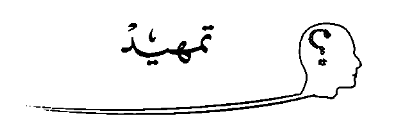
ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلثَّانِي: الإلهيات.

ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلثَّالِثُ: النبوات.

ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلرَّابِعُ: الإيمان بالملائكة عليهم السلام.

ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلۡخَامِسُ: القضاء والقدر.

ٱلۡمَبۡحَثُ ٱلسَّادِسُ: أحداث ما بعد الموت.



تمهيد

يعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن أصول العقائد هي (الإمامة والتوحيد والعدل والنبوة والمعاد)، ويسيرون في كتب عقائدهم على هذا الترتيب.

أما أهل السنة فيعتقدون أن أصول العقائد هي أركان الإيمان الستة (الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر) ويتناولها المتكلمون في (الإلهيات والنبوات والسمعيات).

وقد يبتدئ الفريقان كتب عقائدهم بمدخل تمهيدي عن معنى الإيمان والإسلام.

وهذا لا يعني الجمود على هذه التقسيمات عند مؤلفي أهل السنة والشيعة؛ فإن من المؤلفين المعاصرين من أحدث تقسيمات جديدة [1]، وإن كانت المضامين مشتركة بين المتقدمين والمتأخرين من الطرفين، فالحديث عن التوحيد والعدل عند الشيعة يتناوله السنة في قسم الإلهيات، والحديث عن المعاد يتحدث عنه أهل السنة في السمعيات، ولا مشاحّة في الاصطلاح.

وسيسير هذا الفصل على الترتيب الذي جاء في حديث جبريل عليه السلام المشهور عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ حيث قال ﷺ: « **الإيمان أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر واليوم الآخر** ». وقد استغرق هذا الحديث مسائل الاعتقاد العامة التي أجمع عليها الفريقان. وهو ترتيب حوى عقائد الاثني عشرية العامة.

أما عقيدة الإمامة ومتعلقاتها عند الاثني عشرية فهي ليست داخلة في هذا الفصل؛ لأنها ليست من العقائد المتفق عليها، بل يرى أهل السنة أنها من مسائل الفروع الفقهية، لا الأصول العقدية؛ ولذلك ستبحث في فصلٍ قادمٍ باسم (العقائد الخاصة عند الاثني عشرية) إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) مثلًا: قسم أستاذنا الدكتور محمد سعيد البوطي العقائد في كتابه (كبرى اليقينيات الكونية) إلى (الإلهيات، النبوات، الكونيات، الغيبيات). وقسم الشيخ محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) إلى (الإلهيات - النبوة - الإمامة - ما أدّب به آل البيت شيعَتهم (تعرض فيه للدعاء وموقف الشيعة من الجور والظلم ووحدة المسلمين وحقوق المسلمين) - المعاد).

ولا نقصد من خلال تسمية هذا الفصل (العقائد العامة) أن يكون للطائفتين الرأي نفسه في هذه العقائد؛ وإنما المقصد هو ذكر المسائل العقدية المشتركة التناول، والتي يثبتها الاثنا عشرية وأهل السنة في كتبهم العقدية، بحيث يراها الطرفان باتفاق من أصول العقائد، وإن اختلفا في تصورها وتفصيلها والحديث عنها أحيانًا.

* * *

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الإيمان والإسلام

الإيمان عند الاثني عشرية:

« المشهور بين المتكلمين أن الإيمان لغةً: التصديق؛ من الأمن بمعنى سكون النفس واطمئنانها، واختلف في معناه شرعًا على أقوال شتى ». والذي ذكره (شبّر) عن المحققين من الإمامية أن التصديق « هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر » [1].

واشتراط الاختيار في التصديق يخرج العلم الاضطراري؛ لأن المعرفة « قد تحصل بلا كسب كما في الضروريات » [2]. وقد قال المفيد: « إن المعرفة باللّه تعالى اكتساب، وكذلك معرفة أنبيائه وكل غائب، وأنه لا يجوز الاضطرار إلى شيء مما ذكرناه، وهو مذهب كثير من الإمامية والبغداديين من المعتزلة خاصة، ويخالف فيه البصريون من المعتزلة والمجبرة والحشوية من أصحاب الحديث » [3].

ومما يدعو للاستغراب أن هشام بن الحكم أحد أشهر متكلمي الإمامية يرى أن معرفة اللّه تعالى ضرورية، كما أورد عنه المفيد وغيره؛ فاضطر المهتمون بهشام وآرائه أن يؤولوا معنى الاضطرار [4]!

وخلاصة رأي الإمامية أن معرفة اللّه تعالى ليست ضرورية ولا حسية، وإنما هي كسبية تكتسب بالنظر والاستدلال، ولم يخرج الشيعة بهذا عما قاله المعتزلة في المعرفة [5].

ولكن الحد الفاصل بين التصديق وغيره من المعارف هو عزم القلب على عدم الإنكار؛ ولذلك يقول شبر: « فينبغي أن يشترط في التصديق القلبي: عدم الإنكار » [6].

والفاحص للأدلة سيجد أن منها ما يكون فطريًّا أو بدهيًّا، وهي تدل على معنى قريب

---

(١) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٥٥)، مؤسسة الأعلمي - بيروت (١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الشيخ المفيد: أوائل المقالات (ص ٦٥).

(٤) انظر: عبد اللّه نعمة: هشام بن الحكم (ص ١٦٦).

(٥) انظر: د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٠٩).

(٦) عبد اللّه شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٥٥).

من معنى الاضطرار، وقد ذكر القرآن الكريم أن من الناس من يصل إلى المعرفة اضطراريًّا أو اختياريًّا؛ كقوله تعالى في حق سحرة فرعون: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧ - ١٢٢] وكذلك ملأ فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]. وكانت المعوّل عليه - بعد استيقان قوم فرعون والسحرة - موقفهم من هذا الاستيقان؛ هل يعزم عليه القلب ويصدّقه اللسان والعمل كما فعل السحرة، أم يصرفه القلب وينكره اللسان والجوارح كما فعل قوم فرعون؟! ولذلك ذهب متأخرو الشيعة كالطوسي إلى اشتراط الإقرار باللسان إلى جانب تصديق القلب في الإيمان [1]. فلا يهمنا كيف وصل العاقل إلى الإيمان أبدليل مركّب أم بدليل بدهي أم بالاضطرار، ولكن يهمنا - في قضية الإيمان - ما يتبع هذه المعرفة من خضوع أو إنكار.

« وقد اختلف المتكلمون في أنه هل يشترط في العقائد الإيمانية العلم اليقيني أم يكفي الظن القوي؟ ويقرب من ذلك الخلاف في أنه هل يجب ذلك بالدليل أم يكفي فيه التقليد؟ وظاهر الأكثر الأول، بل حكي الإجماع عليه للآيات والأخبار الدالة على النهي عن متابعة الظن؛ فإن شمولها لأصول الدين مستيقن، ولو لم يكن إلا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم: ٢٨] لكفى، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟.. ﴾ [الحجرات: ١٥]. حيث نفى الريب؛ فيكون الثابت هو اليقين، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وللإجماع على وجوب المعرفة. والتقليد وما في حكمه لا يوجب العلم.... وللإجماع على عدم جواز تقليد غير المحقّ، وإنما يعلم المحقّ من غيره بالنظر في أن ما يقوله حق أم لا؛ وحينئذ فلا يجوز له التقليد إلا بعد النظر والاستدلال، وإذا صار مستدلًّا امتنع كونه مقلدًا، فامتنع التقليد في المعارف الإلهية.

وأجيب بأن العلم شرعًا ما تسكن إليه النفس، كما عرفه المرتضى في (الذريعة) وغيرها؛ فهو شامل للظن اللغوي، والظن المنهي عنه ما لا تسكن إليه النفس... واحتج من أوجب التقليد في الأصول بأن العلم بالله تعالى غير ممكن... ولذا ورد: عليكم بدين العجائز... ولذا ترى أن من اكتفوا بالدلائل الإجمالية، ولم يعرفوا التسلسل ولا اصطلاحات

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٦٠)، عن تجريد الاعتقاد للطوسي.

المتكلمين والمنطقيين: أكمل إيمانًا وأثبت جنانًا، وأشد اعتقادًا ممن يخوضون في ذلك »[١]. كما سنبين في مبحث أدلة وجود اللّٰه تعالى.

وكما جرى الخلاف بين علماء الشيعة في حكم المقلد في العقائد، فكذلك جرى بين علماء أهل السنة، والمختار من أقوالهم: أنه إن جزم على ما قلّد أجزأه، وفيه يقول اللقاني:

فقال: إن يجزم بقول الغير كفى وإلا لم يزل في الضير[٢]

وتأكيدًا على مكانة العمل في الإيمان فإن الروايات الواردة عن الأئمة تؤكد على إطلاق الإيمان على « العقائد الحقة مع ترك الكبائر وفعل الفرائض التي يكون تركها كبيرة »[٣]. وعن محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال: « الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل »[٤].

وعن الإمام الباقر قال: « الإيمان هو الإقرار باللسان وعقد في القلب، وعمل بالأركان »، وعن الباقر عليه السلام قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: « من شهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمدًا رسول اللّٰه كان مؤمنًا؟ قال: فأين فرائض اللّٰه؟! ». وعن الصادق: « الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل »[٥].

ولكن ما هي العقائد الأساسية التي يحصل بها الإيمان؟

يرى الشيعة - كما ذكر الطوسي في قواعد العقائد - أن أصول الإيمان هي:

١ - التصديق بوحدانية اللّٰه تعالى في ذاته.

٢ - والعدل في أفعاله.

٣ - والتصديق بنبوة الأنبياء.

٤ - والتصديق بإمامة الأئمة.

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٧٢/٢). وقد نسب القول إلى الإمام علي (ص ٢٤) « البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة لا يدلان على اللطيف الخبير؟! » نقله عن جامع الأخبار.

(٢) جوهرة التوحيد (ص ٥٧).

(٣) عبد اللّٰه شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦١/٢).

(٤) أصول الكافي (٢٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة، وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٥) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٥٩/٢).

٥ - والإيمان بالمعاد الجسماني [١].

ويظهر الفرق بين أهل السنة والاثني عشرية في أصول الإيمان في مسألة (الإمامة)؛ إذ هي عند أهل السنة من مسائل الفروع الفقهية، بينما يجعلها الشيعة من أصول الإيمان، فلا إيمان لمن لا يؤمن بالأئمة وعصمتهم وباقي صفاتهم.

ولكن هناك روايات واردة عن الأئمة في كتب الشيعة تعدّ أمورًا أخرى من شروط تحقق الإيمان؛ فقد ورد عن الإمام الرضا قوله: « من أقر بتوحيد اللّه... وأقرّ بالرجعة والمتعتين، وآمن بالمعراج والمسألة والقبر والحوض والشفاعة، وخلق الجنة والنار والصراط والميزان، والبعث والنشور والجزاء والحساب؛ فهو مؤمن حقًّا، وهو من شيعتنا أهل البيت » [٢].

وهذا النص يجعل مسألة الرجعة - وهي مسألة عقدية خلافية بين الشيعة - وكذلك المتعة - وهي مسألة فقهية - من أصول الإيمان. وسنعرض لهاتين المسألتين بشرح وافٍ في فصل (العقائد الخاصة).

معنى الإسلام عند الشيعة الاثني عشرية:

وهنا يتبادر تساؤل مهم هو: ما حكم من أقرّ بما اتفق عليه أهل السنة والاثنا عشرية وغيرهم من المسائل العقدية، ثم أنكر ما تفرّد به الاثنا عشرية؟ هل يكون مؤمنًا؟ أم كافرًا؟ أم فاسقًا؟

يطلق الإسلام عند الشيعة الإمامية على معنيين عام وخاص.

فالمعنى العام هو:

١ - الاعتقاد بوجود اللّه الواحد الأحد.

٢ - وبنبوة سيدنا محمد ﷺ والتصديق برسالته.

٣ - والإيمان بيوم البعث والجزاء.

فكلّ من نطق الشهادتين واعتقد ما سبق، ولم ينكر ضرورة من ضرورات الدين الإسلامي؛ بحيث يعود إنكارها إلى تكذيب النبي ﷺ فيما جاء به؛ كان مسلمًا حقًّا، دمه وماله وعرضه حرام،.. فالإسلام بهذا المعنى تنتظم به جميع الفرق الإسلامية من دون فرق بينها، وكل من أنكر هذه الأصول الثلاثة.. أو أنكر واحدًا منها فليس بمسلم، بل هو كافر.

---

(١) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٦٥ - ٥٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٣١٩).

أما المعنى الخاص:

فهو يقوم على اعتقاد أصلين آخرين بالإضافة إلى الثلاثة السابقة، وهما:

١ - الاعتقاد بأن الله عادل لا يظلم أحدًا (العدل الإلهي).

٢ - الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثني عشر وعصمتهم ووجوب الطاعة لهم [١].

فالمعنى العام للإسلام لا يتضمن الإيمان، في حين يكون الإطلاق الخاص للإسلام مساويًا لمعنى الإيمان.

وتفرق الروايات المنقولة عن أئمة الاثني عشرية بين الإيمان والإسلام - بالمعنى العام - تفريقًا جوهريًّا، بحيث لا يقوم أحدهما مقام الآخر، بل الإسلام باب، والإيمان بيت ومستقر، وأهم ما يفرق بينهما: أن الإسلام يأتي أولًا وهو إقرار بالواجبات الرئيسة للدين:

« عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال: الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل » [٢]؛ فالإسلام « إقرار بالشهادتين وبما هو من ضروريات الدين، وإن لم يعمل وفق إقراره، بشرط ألا يظهر خلافه، وأما الإيمان فهو انضمام العمل بما أقر به إلى الإقرار » [٣]. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: « ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] فمن زعم أنهم آمنوا فقد كذب، ومن زعم أنهم لم يسلموا فقد كذب » [٤].

فبين الإسلام والإيمان عموم وخصوص؛ فلا بد للمؤمن أن يكون أولًا مسلمًا، ثم يصطبغ بالإيمان؛ ولذلك لا يكون كل مسلم مؤمنًا حسب روايات الشيعة.

والإسلام بالمعنى العام عند الشيعة لا يترتب عليه نجاة يوم القيامة؛ إنما يترتب عليه فقط عصمة الدم وصحة المعاملات الدنيوية بين الناس، كالنكاح والمواريث. أما الإيمان فعليه مدار النجاة والفوز يوم القيامة.

---

(١) انظر: عبد الله نعمة: روح التشيع (ص ٣٩٥ - ٤٠٠) دار الفارابي اللبنانية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ٢٤)، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين - القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

(٢) أصول الكافي (٢٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٣) أصول الكافي (٢٨/٢) هامش، حاشية رقم (٧).

(٤) أصول الكافي (٢٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: هذا الحديث موثق كالصحيح. ويفيد بأن الإسلام أعم من الإيمان.

عن فضيل بن يسارٍ قال: سمعت أبا عبد الله الطَّيْلاً يقول: « .. إنّ الإيمان ما وقر في القلوب، والإسلام ما عليه المناكح والمواريث وحقن الدّماء. والإيمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان » (١).

وهذه الروايات تنسجم مع قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولكن لمّا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ.. ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]؛ « اختلف في معنى الإسلام أيضًا على أقوال، فقيل: هو والإيمان واحد... وقيل: إن الإسلام عبارة عن الإقرار بالشهادتين واعتقادهما مع عدم إنكار ضروري من ضروريات الدين، وقيل: إنه مجرد الإقرار بالشهادتين وإن لم يعتقدهما... والحق أن الإسلام كالإيمان له مراتب ودرجات، ويطلق على معانٍ كثيرة » (٢). ففي الحديث المروي عند الشيعة والسنة: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ». وقال أبو جعفر: « المؤمن من ائتمنه المسلمون على أموالهم وأنفسهم، والمسلم حرام على المسلم أن يظلمه أو يخذله أو يدفعه دفعة تعنته » (٣).

وقال أمير المؤمنين علي ﷺ في إحدى خطبه: « لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل » (٤).

أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا أو كافرًا أو ضالًّا:

هناك رواية عن أمير المؤمنين علي ﷺ تبيّن أدنى ما يكون به المرء مؤمنًا أو كافرًا، أو ضالًّا - وهو مصطلح خاص عند الشيعة كما سنرى -:

---

(١) أصول الكافي (٣٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان، والحديث صحيح.

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٧٠/٢).

(٣) أصول الكافي (٢٣٤/٢، ٢٣٥) كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن علاماته وصفاته، قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) المولى المازندراني: شرح أصول الكافي (١٣٨/٨)، عبد الله شبر: حق اليقين (٥٧٠/٢).

عن سليم بن قيسٍ قال: سمعت عليًا ﷺ يقول - وأتاه رجلٌ فقال له: ما أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا وأدنى ما يكون به العبد كافرًا وأدنى ما يكون به العبد ضالًّا؟ - فقال له: قد سألت فافهم الجواب:

- أمّا أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا أن يعرّفه اللّه تبارك وتعالى نفسه فيقرّ له بالطّاعة، ويعرّفه نبيّه ﷺ فيقرّ له بالطّاعة ويعرّفه إمامه وحجّته في أرضه وشاهده على خلقه فيقرّ له بالطّاعة. قلت له: يا أمير المؤمنين، وإن جهل جميع الأشياء إلا ما وصفت؟ قال: نعم إذا أمر أطاع وإذا نهي انتهى.

- وأدنى ما يكون به العبد كافرًا من زعم أنّ شيئًا نهى اللّه عنه أنّ اللّه أمر به ونصبه دينًا يتولّى عليه ويزعم أنّه يعبد الّذي أمره به وإنّما يعبد الشّيطان.

- وأدنى ما يكون به العبد ضالًّا أن لا يعرف حجّة اللّه تبارك وتعالى وشاهده على عباده الّذي أمر اللّه ﷻ بطاعته وفرض ولايته قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لي، فقال: الّذين قرنهم اللّه ﷻ بنفسه ونبيّه فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ.. ﴾ [النساء: ٥٩] قلت: يا أمير المؤمنين جعلني اللّه فداك، أوضح لي. فقال: الّذين قال رسول اللّه ﷺ في آخر خطبته يوم قبضه اللّه ﷻ إليه: « **إنّي قد تركت فيكم أمرين لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي؛ فإنّ اللّطيف الخبير قد عهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض كهاتين، وجمع بين مسبّحتيه، ولا أقول كهاتين وجمع بين المسبّحة والوسطى فتسبق إحداهما الأخرى، فتمسّكوا بهما لا تزلّوا ولا تضلّوا ولا تقدّموهم فتضلّوا** » [1].

ومع أن القول بالولاية عندهم شرط إيمان لا شرط إسلام؛ فإن هناك من الروايات الصحيحة لديهم ما يخالف هذا، فيعدّ الولاية جزءًا من الإسلام ذاته، وليس فقط من الإيمان:

عن أبي بصيرٍ قال: كنت عند أبي جعفرٍ عليه السلام فقال له سلامٌ: إنّ خيثمة بن أبي خيثمة يحدّثنا عنك أنّه سألك عن الإسلام فقلت له: « إنّ الإسلام من استقبل قبلتنا، وشهد شهادتنا، ونسك نسكنا، ووالى وليّنا، وعادى عدوّنا، فهو مسلمٌ. فقال: صدق خيثمة. قلت: وسألك عن الإيمان فقلت: الإيمان باللّه، والتّصديق بكتاب اللّه، وأن لا يعصي اللّه. فقال: صدق خيثمة » [2].

---

(١) أصول الكافي (٢/٣٩٤، ٣٩٥) كتاب الإيمان والكفر، باب أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا... قال محققه: والحديث مختلف فيه معتبر عند المجلسي.

(٢) أصول الكافي (٢/٤٣) كتاب الإيمان والكفر، بابٌ في أنّ الإيمان مبثوثٌ لجوارح البدن كلّها، قال محققه: هذا الحديث صحيح.

وأوضح منه حول هذا المعنى ما جاء في حديث دعائم الدين:

عن زرارة عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: « بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصّلاة والزّكاة والحجّ والصّوم والولاية ».

قال زرارة فقلت: وأيّ شيءٍ من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل؛ لأنّها مفتاحهنّ، والوالي هو الدّليل عليهنّ. قلت: ثمّ الّذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصّلاة... قلت: ثمّ الّذي يليها في الفضل؟ قال: الزّكاة....... ثمّ قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرّحمن الطّاعة للإمام بعد معرفته.

إنّ اللّه عز وجل يقول: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠] « أما لو أنّ رجلًا قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحجّ جميع دهره ولم يعرف ولاية وليّ اللّه فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على اللّه - جلّ وعزّ - حقٌّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان. ثمّ قال: أولئك المحسن منهم يدخله اللّه الجنّة بفضل رحمته » [1].

فهذا الحديث يبين أن الإسلام جاء هنا بمعنى الدين، وليس هو الإسلام الظاهري الذي ورد في الروايات السابقة، أي إنه أطلق على الإسلام بالمعنى الخاص المرادف للإيمان.

ولكن هناك رواية أخرى صحيحة تخالف هذه الرواية عن سليمان بن خالدٍ عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: ألا أخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك. قال: أمّا أصله فالصّلاة، وفرعه الزّكاة، وذروة سنامه الجهاد. ثمّ قال: إن شئت أخبرتك بأبواب الخير. قلت: نعم جعلت فداك. قال: الصّوم جنّةٌ من النّار والصّدقة تذهب بالخطيئة وقيام الرّجل في جوف اللّيل بذكر اللّه ثمّ قرأ عليه السلام : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] [2]. وهذه الرواية لم تذكر الولاية، وهي رواية قريبة لرواية صحيحة عند أهل السنة من حديث معاذ بن جبل قال صلى الله عليه وسلم: « **رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد** » [3].

وهناك رواية تجعل الإمامة سببًا من أسباب الرقيّ في الجنة، لا شرطًا من شروط دخولها، وهذا لا يجعلها ركنًا من أركان الإيمان؛ فقد ساق الشيخ دستغيب عن بحار

---

(١) أصول الكافي (٢/٢٢، ٢٣) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام. قال محققه: هذا الحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٢/٢٨) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام. قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٣١) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. وهو حديث صحيح لغيره بشواهده.

الأنوار أن « أم أيمن خادمة فاطمة من أهل اليمين وليست من السابقين؛ لأنها لم تعرف الإمامة » [(١)].

وهكذا نتبين أن روايات الاثني عشرية لم تأت على نسق واحد في بيان معنى الإسلام؛ بل مرة استخدمته بالمعنى الأعم الشامل الوارد في سورة الحجرات، وهو التسليم الذي تحقن على أساسه الدماء، ومرة استخدمته بمعنى الإيمان الكامل؛ ولأجل ذلك ضمّت إليه ركن الإمامة.

زيادة الإيمان ونقصانه:

نص القرآن واضح في زيادة الإيمان، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة وعقيدة الاثني عشرية أيضًا، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]. ولذلك قال الشيخ دستغيب: « المحققون يعتقدون أن ظاهر الآيات والروايات يدل على أنه يمكن زيادته ونقصانه، ومنها الآية التي تقول: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢] هذه الآية تبين أن الإيمان قابل للزيادة فهو إذن قابل للنقصان... مما يوجب زيادة نور الإيمان، واليقين العبادة الخالصة، خصوصًا مجالسة الصالحين... وعلى العموم كل عمل خير يقوم به المرء خالصًا للّٰه » [(٢)].

عن أبي عمرٍو الزّبيريّ عن أبي عبد اللّٰه عليه السلام قال: قلت له: « أيّها العالم أخبرني أيّ الأعمال أفضل عند اللّٰه؟ قال: ما لا يقبل اللّٰه شيئًا إلا به، قلت: وما هو؟ قال: الإيمان باللّٰه الّذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجةً وأشرفها منزلةً وأسناها حظًّا. قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان أقولٌ هو وعملٌ أم قولٌ بلا عملٍ، فقال: الإيمان عملٌ كلّه، والقول بعض ذلك العمل، بفرضٍ من اللّٰه بيّن في كتابه واضحٍ نوره ثابتةٍ حجّته يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه. قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتّى أفهمه. قال: الإيمان حالاتٌ ودرجاتٌ وطبقاتٌ ومنازل؛ فمنه التّامّ المنتهي تمامه ومنه النّاقص البيّن نقصانه ومنه الرّاجح الزّائد رجحانه. قلت: إنّ الإيمان ليتمّ وينقص ويزيد؟ قال: نعم. قلت: كيف ذلك؟ قال: لأنّ

---

(١) آية اللّٰه السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٤٣)، مؤسسة المنار (ط٢) ترجمة لجنة الهدى عن بحار الأنوار.

(٢) آية اللّٰه السيد عبد الحسين دستغيب: اليوم الآخر (ص ٢٨٥، ٢٨٦).

اللّه تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسّمه عليها وفرّقه فيها؛ فليس من جوارحه جارحةٌ إلا وقد وكّلت من الإيمان بغير ما وكّلت به أختها... فسمّى الصّلاة إيمانًا، فمن لقي اللّه ﷻ حافظًا لجوارحه موفيًا كلّ جارحةٍ من جوارحه ما فرض اللّه ﷻ عليها لقي اللّه ﷻ مستكملًا لإيمانه، وهو من أهل الجنّة، ومن خان في شيءٍ منها أو تعدّى ما أمر اللّه ﷻ فيها لقي اللّه ﷻ ناقص الإيمان. قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: قول اللّه ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، ولو كان كلّه واحدًا لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحدٍ منهم فضلٌ على الآخر ولاستوت النّعم فيه، ولاستوى النّاس وبطل التّفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة وبالزّيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدّرجات عند اللّه وبالنّقصان دخل المفرّطون النّار »(١).

وكما يزيد الإيمان بالطاعات فإنه ينقص بالذنوب والآثام، حتى ينحط صاحبه عن مرتبة الإيمان:

ففي رواية عن الصادق: « فإذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى اللّه ﷻ عنها كان خارجًا من الإيمان، ساقطًا عنه اسم الإيمان وثابتًا عليه اسم الإسلام؛ فإن تاب واستغفر عاد إلى دار الإيمان، ولا يخرجه إلى الكفر إلا الجحود والاستحلال »(٢).

ولا يرتضي أهل السنة هذه الرواية من حيث إنها ساوت بين الصغائر والكبائر، وقد فرّق القرآن الكريم والسنة بينهما. قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء: ٣١]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢] فاللمم هو صغائر الذنوب، وتكفرها الصلاة والصدقة والوضوء، قال اللقاني:

---

(١) أصول الكافي (٣٩/٢ - ٤٢) كتاب الإيمان والكفر، بابٌ في أنّ الإيمان مبثوثٌ لجوارح البدن كلّها، قال محققه: الحديث ضعيف على المشهور وإن أيدت مضامينه أخبار أخرى قد تدل على صحته.

(٢) أصول الكافي (٣٢/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب آخر منه وأن الإسلام قبل الإيمان، قال محققه: والحديث موثق.

وباجتناب للكبائر تغفر كبائر، وجا الوضو يكفّر [(١)]

وعن الفضيل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يسلب منه روح الإيمان ما دام على بطنها، فإذا نزل عاد الإيمان. قال: قلت له: أرأيت إن همّ؟ قال: لا، أرأيت إن همّ أن يسرق أتقطع يده؟ » [(٢)].

وهذه الرواية من معين النبوة، فقد جاء في الصحيح عند أهل السنة قوله ﷺ: « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...** » [(٣)]. قال القيرواني - معبرًا عن مذهب أهل السنة -: « الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح. ويزيد بزيادة الطاعات وينقص بنقصها » [(٤)].

وللإيمان درجات:

قال جعفر الصادق: « إنّ الله عز وجل وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البرّ والصّدق واليقين والرّضا والوفاء والعلم والحلم، ثمّ قسم ذلك بين النّاس؛ فمن جعل فيه هذه السّبعة الأسهم فهو كاملٌ محتملٌ، وقسم لبعض النّاس السّهم، ولبعضِ السّهمين، ولبعضِ الثّلاثة حتّى انتهوا إلى السّبعة. ثمّ قال: لا تحملوا على صاحب السّهم سهمين، ولا على صاحب السّهمين ثلاثةً فتبهضوهم [(٥)]، ثمّ قال: كذلك حتّى ينتهي إلى السّبعة » [(٦)].

وورد أنه قال في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢]: « الفواحش: الزنى والسرقة، واللمم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه.

---

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد (ص ٣٨٢).

(٢) أصول الكافي (٢/٢٧٢، ٢٧٣) كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر، قال محققه: والحديث حسن كالصحيح. (على بطنها): كناية عن الزنى والعياذ بالله تعالى.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأشربة وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ... ﴾ [المائدة: ٩٠] رقم (٢٢٥٥) وكرره في صحيحه، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله رقم (٥٧).

(٤) أبو محمد عبد الله بن زيد القيرواني (٣١٠ - ٣٨٦هـ): الرسالة القيروانية شرح عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام مالك، مع شرح القيروانية الميسر، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الفتح - الشارقة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)، (ص ٦٢).

(٥) بهضك شق عليك، أي لا تشقّوا عليهم وتتكلفوهم ما لا يطيقون، وهي لغة ضعيفة، والأقوى (بهظ) بالظاء، انظر: ابن منظور: لسان العرب (٧/١٢٢)، مادة بهض، تاج العروس مادة بهض.

(٦) أصول الكافي (٢/٤٧) كتاب الإيمان والكفر، باب درجات الإيمان. سكت عنه المحقق.

فسئل: بين الضلال والكفر منزلة؟ فقال: ما أكثر عرى الإيمان » [١].

الإيمان الكامل:

عن سلامٍ الجعفيّ قال: سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن الإيمان فقال: « الإيمان أن يطاع اللَّه فلا يعصى » [٢]. قال محقق أصول الكافي: « وقد حمل البعض هذا الحديث على الإيمان الكامل ».

ومرتبة الإحسان التي ذكرتها كتب السنة هي درجة عالية في الارتقاء بالإيمان، وهو ما أوصى به الأئمة الأطهار - عليهم رحمات اللَّه وسلامانه - فعن إسحاق بن عمار: قال أبو عبد اللَّه: « يا إسحاق، خف اللَّه كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك » [٣].

وتبين الروايات سنّية وشيعية أن للإيمان طعمًا؛ فقد قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على المنبر: « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » [٤].

وقد جاءت نصوص أهل السنة تبين هذا المعنى وزيادة، فللإيمان طعم وحلاوة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يقذف في النار** » [٥]، وعن العباس بن عبد المطلب أن النبي ﷺ قال: « **ذاق طعم الإيمان مَنْ رضي باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً** » [٦].

وقد أطلق عبد اللَّه شبر من علماء الشيعة لفظ الإيمان على بعض ما سمته الروايات

---

(١) أصول الكافي (٢٧١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر قال المحقق: الحديث موثق.

(٢) أصول الكافي (٣٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب (١٧).

(٣) أصول الكافي (٧٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، سكت عنه محققه.

(٤) أصول الكافي (٦٤/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فضل اليقين.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم (١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٤٣).

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي باللَّه ربًّا.... إلخ، فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر، رقم (٣٤).

إسلامًا، وذلك أنه قسم الإيمان إلى عدة أقسام، فقال:

« تختلف مراتب كمال الإيمان باختلاف مراتب الطاعات وترك المعاصي ». والحاصل أن للإيمان في الشرع إطلاقات:

أحدها: ما يرادف الإسلام، وفائدته حقن الدم والمال في الدنيا.

وثانيها: على التصديق القلبي والإقرار اللساني كما في فسّاق المؤمنين وثمرته عدم الدخول في النار.

وثالثها: على ما ذكر مع ترك الكبائر وفعل الفرائض التي تركها كبيرة كالصلاة والزكاة والحج؛ ولذا ورد: (تارك الصلاة كافر).

رابعها: إطلاقه على جميع الاعتقادات مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات.

خامسها: إطلاقه على ما ذكر مع الإتيان بالمستحبات وترك سائر المكروهات. وفائدته تضاعف الدرجات، وعليه ينزّل ما روي أن من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فلا ينامن وحده..

سادسها: إطلاقه على جميع ما ذكر مع التوجه بكله إلى عالم الملكوت وصرف الوقت في الإقبال على جنابه الأعلى، وهو الإيمان الكامل وينافيه فعل المباحات؛ ولذا تاب الأنبياء وكثر بكاؤهم » [(١)] عليهم الصلاة والسلام.

الإيمان بأئمة الاثني عشرية شرط لصحة الإيمان:

الإمامة عند أهل السنة والجماعة مسألة من فروع الفقه، لا من أصول العقيدة، أما عند الإمامية فالإيمان بالأئمة الاثني عشر كلّهم ركن من أركان الإيمان، لا يصح الإيمان بفقده؛ فمن آمن بجميع أركان الإيمان وأهمل الإيمان بالإمامة فلا يعدّ مؤمنًا عندهم، بل مسلمًا، وهذا المسلم (!!) ينعت عندهم بالضال والجاهل إن لم يعرف الأئمة جميعًا ولكنه لم ينكر إمامتهم، ويوصم بالكفر والنفاق - رغم أنه مسلم موحّد - إن أنكر أحدًا منهم!

تقول رواياتهم عن الأئمة: « لا يكون العبد مؤمنًا حتّى يعرف اللّٰه ورسوله والأئمّة كلّهم وإمام زمانه، ويردّ إليه ويسلّم له » [(٢)].

وعن جعفر الصادق: « نحن الّذين فرض اللّٰه طاعتنا لا يسع النّاس إلا معرفتنا، ولا يعذر النّاس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمنًا، ومن أنكرنا كان كافرًا، ومن لم يعرفنا

---

(١) عبد اللّٰه شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٦٤).

(٢) أصول الكافي (١/٢٣٥) كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد عليه. والمقصود بالأول الإمام الذي قبل زمانه.

ولم ينكرنا كان ضالًّا حتّى يرجع إلى الهدى الّذي افترض اللَّه عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يمت على ضلالته يفعل اللَّه به ما يشاء » (١).

وإذا كانت الرواية السابقة قد فرّقت المنكر للإمامة عن الغافل الشارد عنها؛ فإن الرواية القادمة لا تفرّق بينهما، بل تنسب من مات على غير الإمامة إلى الكفر والنفاق مطلقًا: « واللَّه يا محمّد من أصبح من هذه الأمّة لا إمام له من اللَّه - جلّ وعزّ - ظاهرًا عادلًا أصبح ضالًّا تائهًا، وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفرٍ ونفاقٍ » (٢). فهذه الرواية تقول: إن من لم يؤمن بالأئمة من المسلمين فهو ضال تائه ما دام على قيد الحياة، وربما يهتدي إليها فيصح إيمانه، فإن مات على غير معرفة الإمامة تأكّد للاثني عشرية أنه كافر منافق!

ولا بد من الاعتقاد بالأئمة كلهم، فلو أنكر واحدًا منهم صار كمنكر جميع الأئمة: عن محمّد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام: رجلٌ قال لي: اعرف الآخر من الأئمّة ولا يضرّك أنْ لا تعرف الأوّل.قال: فقال: لعن اللَّه هذا، فإنّي أبغضه ولا أعرفه، وهل عرف الآخر إلا بالأوّل؟ (٣).

فميتة من مات دون معرفة الإمام هي ميتة جاهلية وكفر ونفاق في روايات الاثني عشرية: عن ابن أبي يعفورٍ قال: سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن قول رسول اللَّه ﷺ: « **من مات وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهليّةٍ** » قال: قلت: ميتة كفرٍ؟ قال: ميتة ضلالٍ. قلت: فمن مات اليوم وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهليّةٍ؟ فقال: نعم (٤).

وإذا كانت الرواية السابقة تتحرج من نسبة الكفر إلى من لم يعرف الأئمة، فإن الرواية القادمة تتجرأ وتجاسر على ذلك:

عن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد اللَّه عليه السلام: قال رسول اللَّه ﷺ: « **من مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهليّةً** » قال: نعم. قلت: جاهليّةً جهلاء أو جاهليّةً لا يعرف

---

(١) أصول الكافي (٢٤٣/١) كتاب الحجة، باب فرض طاعة الأئمة.

(٢) أصول الكافي (٤٣٧/١) كتاب الحجة، باب فيمن دان اللَّه ﷻ بغير إمام من اللَّه ﷻ . والحديث صحيح. ولكن هذا النص يشترط ظهور الإمام وعدله، وهذا لم يتيسر إلا لعلي والحسن رضوان اللَّه عليهما، فهذا الشرط غير متوفر في حياة الأئمة الباقين، وخصوصًا هذا الإمام الثاني عشر الغائب المحجوب من ألف سنة ويزيد.

(٣) أصول الكافي (٤٣٥/١) كتاب الحجة، باب من ادّعى الإمامة وليس لها بأهلٍ ومن جحد الأئمّة أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهلٍ. وقيل: المراد بالأول اللَّه ورسوله، وبالآخر الإمام. انظر المازندراني (١٥٧/٥). وهذا تفسير بعيد يخالف سياق الرواية.

(٤) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمّة الهدى، وقيل: المراد بالأول اللَّه ورسوله، وبالآخر الإمام. انظر المازندراني (١٥٧/٥).

إمامه؟ قال: جاهليّة كفرٍ ونفاقٍ وضلالٍ » [(١)].

ولكن ألا يعكّر على هذه الروايات المغالية روايةٌ صحيحة تضيف من صار مسلمًا إلى الإيمان، ولو لم يعتقد بالأئمة؟!، وهي رواية أبي جعفرٍ ﷺ التي جاء فيها: « .. والإسلام ما ظهر من قولٍ أو فعلٍ، وهو الّذي عليه جماعة النّاس من الفرق كلّها، وبه حقنت الدّماء، وعليه جرت المواريث وجاز النّكاح، واجتمعوا على الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأضيفوا إلى الإيمان » [(٢)].

فلم تقل الرواية: (أضيفوا إلى الإسلام)، بل: (أضيفوا إلى الإيمان). ولكن هذه الرواية المصححة عند الاثني عشرية لم ترق لمحقق أصول الكافي، فقال معلّقًا: « والحديث صحيح. وهناك روايات تجعل شرط الإيمان هو القول بالولاية، وتجعلها مصدر التفريق بينهما، ولكن الرواية فيها جهالة، ومع ذلك فالعمل عند علماء الإمامية على ما في معناها، وسيأتي من الروايات ما يؤيدها » [(٣)].

وليس مقصود هذا المبحث مناقشة رأي الاثني عشرية في الإمامة، إنما معرفة مكانة الإمامة في الإيمان وحكم منكرها، وسيأتي الحديث عن تفصيل مسألة الإمامة ومناقشتها في المبحث الأول من فصل (العقائد الخاصة بالشيعة الاثني عشرية).

النتائج المترتبة على الإيمان والإسلام:

ولما اختلفت ماهية كل من الإيمان والإسلام اختلفت كذلك نتيجة كل واحد منهما،

---

(١) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمّة الهدى. لاحظ أن بين هذه الرواية وسابقتها خلاف؛ فالأولى لم تنسب الكفر لمن لا إمام له، والثانية نسبت الكفر والنفاق لمن لا إمام له.

(٢) أصول الكافي (٣١/٢، ٣٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان. قال محققه: « والحديث صحيح ».

(٣) أصول الكافي (٣١/٢، ٣٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان، (الهامش). وهو يشير إلى رواية: سفيان بن السمط قال: سأل رجل أبا عبد الله ﷺ عن الإسلام والإيمان، ما الفرق بينهما؟ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ثم التقيا في الطريق وقد أزف من الرجل الرحيل، فقال له أبو عبد الله ﷺ: كأنه قد أزف منك رحيل؟ فقال: نعم. فقال: فالقني في البيت، فلقيه، فسأله عن الإسلام والإيمان ما الفرق بينهما؟ فقال: الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان فهذا الإسلام، وقال: الإيمان معرفة هذا الأمر مع هذا، فإن أقر بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلمًا وكان ضالًا. أصول الكافي (٢٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة، وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: « والحديث مجهول ».

فالإسلام يحمي ظاهر المسلم في الدنيا ويعطيه حقوق الإسلام، أما الإيمان فلما كان هو المقصود كانت نتائج الأعمال في الآخرة مترتبة عليه: عن قاسم بن شريك بن المفضل قال: سمعت أبا عبد اللّٰه يقول: « الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وتستحل به الفروج، والثواب والعقاب على الإيمان » (١).

وتقرر الروايات أن بين الإسلام والإيمان شيئًا من التداخل والاشتراك في المعنى، ويكون هذا بحيث يدل أحدهما على الآخر، أما إن وردا معًا في سياق واحد فهنا لا بد من التفريق بينهما في المعاني، كما قيل في الفقير والمسكين، واللّهو واللعب، والحق والصدق: إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا (٢).

وهذه المسألة كما تناولها الشيعة تناولها أيضًا أهل السنة في بحوثهم العقدية، قال الإمام الغزالي: الحق فيه أن الشرع ورد باستعمالها على سبيل التوارد والترادف، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]... وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٤] ومعناه استسلمنا في الظاهر باللسان والجوارح، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: « **أن تؤمن باللّٰه وملائكته....** » فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس، فعبّر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل، وفي الحديث عن سعد أنه ﷺ أعطى رجلًا عطاءً لم يعط الآخر، فقال سعد: يا رسول اللّٰه، تركت فلانًا، لم تعطه وهو مؤمن! فقال عليه الصلاة والسلام: « **أوَ مسلم؟** » فأعاد عليه، فأعاد رسول اللّٰه ﷺ. وأما التداخل فما روي عنه أنه سئل فقيل: أي الأعمال أفضل؟ فقال ﷺ: « **الإسلام** » فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال ﷺ: « **الإيمان** ». وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة؛ لأن الإيمان عمل من الأعمال، وهو أفضلها، والإسلام إما تسليم بالقلب وإما تسليم باللسان وإما تسليم بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب وهو

---

(١) أصول الكافي (٢/٢٩) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: هذا الحديث موثق.

(٢) انظر: عبد اللّٰه شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٦٤).

التصديق الذي يسمى إيمانًا [١].

ولكن شتّان بين حقيقة الإيمان بين السنة والشيعة؛ فالشيعة ترى أن شرط رفع المرء من مرتبة الإسلام إلى مرتبة الإيمان - إضافة على الأعمال - هو الإيمان بعصمة الأئمة ووجوب طاعتهم، وهذا ما لن يتحقق عند أي أحد من أهل السنة؛ إذ لا يعتقدون بعصمة أحد من البشر بعد الأنبياء، أما عند أهل السنة فإن الذي يرفع المرء من الإسلام إلى الإيمان هو العمل الصالح وطمأنينة القلب بعد الإسلام الظاهري.

وبهذا يكون أهل السنة في نظر الاثني عشرية من أهل الإسلام بالمعنى العام الذي يترتب عليه عصمة الدم والعرض والمال، لا من أهل الإيمان الذي يوصل العبد لدخول الجنة والنجاة من النار، وهذا في غالب رواياتهم ومعظم نقول علمائهم، فصار لهذا الإسلام آثار الكفر في الآخرة. وهو ما أقر به أحد علماء الشيعة عندما قال: « هو بالنتيجة يؤدي إلى الكفر، بمعنى ترتّب أثره عليه في الآخرة، وهو الخلود في النار، وفي الدنيا هو الضلال والنفاق » [٢].

قال الجزائري: (وأما طوائف أهل الخلاف على هذه الفرقة الإمامية، فالنصوص متضافرة في الدلالة على أنهم مخلدون في النار، وأن إقرارهم بالشهادتين لا يجديهم نفعًا إلا في حقن دمائهم وأموالهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم. روي عنه ﷺ أنه قال: « **ولاية أعداء علي ومخالفة علي سيئة لا ينفع معها شيء إلا ما ينفعهم بطاعاتهم في الدنيا بالنعم والصحة والسعة، فيردوا الآخرة، ولا يكون لهم إلا دائم العذاب** ». ثم قال: « **إن من جحد ولاية علي** عليه السلام **لا يرى بعينه الجنة أبدًا، إلا ما يراه مما يعرف به أنه لو كان يواليه لكان ذلك محله ومأواه، فيزداد حسرات وندامات** ») [٣].

وسيترتب على معنى الإيمان والإسلام عند الاثني عشرية آثار مهمة في (موقف الشيعة الاثني عشرية من المخالفين) وهو الفصل الأخير من هذه الرسالة.

حكم مرتكب الكبيرة من الاثني عشرية:

يقرر الشيخ المفيد أن « مرتكبي الكبائر من أهل المعرفة [٤] والإقرار مؤمنون بإيمانهم بالله

---

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين (١/١٦، ١٧).

(٢) انظر: أصول الكافي (١/٤٣٩) كتاب الحجة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمّة الهدى. حاشية رقم (٥).

(٣) السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ): نور البراهين (١/٥٧)، (ط ١)، (١٤١٧هـ)، قم مؤسسة النشر الإسلامي قم.

(٤) أهل المعرفة، حسب نصوص الاثني عشرية، هم المقرّون بالولاية للأئمة.

وبرسوله وبما جاء من عنده، وفاسقون بما معهم من كبائر الآثام، ولا أطلق عليهما اسم الفسق ولا اسم الإيمان... وأطلق لهما اسم الإسلام بلا تقييد وعلى كل حال، وهذا مذهب الإمامية إلا بني نوبخت؛ فإنهم خالفوا فيه وأطلقوا للفساق اسم الإيمان » [١]. وهذا مذهب قريب جدًّا من رأي المعتزلة في شأن مرتكب الكبيرة، وإن وقد صرحت روايات الأئمة بمخالفته! قال إبراهيم بن العباس: كنا في مجلس الرضا عليه السلام فتذاكروا الكبائر وقولَ المعتزلة فيها: إنها لا تغفر، فقال الرضا عليه السلام: قال أبو عبد الله عليه السلام: « قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦] » [٢].

وإذا كانت روايات الشيعة وأهل السنة اتفقت على أن (قتال المؤمن كفر) [٣]، إلا أن الطائفتين أجمعتا على أنه لا يسمى من فعل ذلك كافرًا، وأن ذلك لا يخرجه من دائرة الإيمان، قال محقق أصول الكافي شارحًا هذا الحديث: « لا بدّ من حمله على أنه يقاتله بسبب إيمانه، أو أنه يقاتله مستحلًّا قتاله، أو يحمل على أن قتاله قد يكون من أسباب الكفر فيكون الإطلاق مجازيًّا » [٤].

---

(١) أوائل المقالات (ص ٨٤).

(٢) الصدوق: التوحيد (ص ٤٠٦).

(٣) عن أبي جعفر عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه). أصول الكافي (٢/٣٤٤) كتاب الإيمان والكفر، باب السباب. قال محققه: الحديث موثق كالصحيح. وقد ورد هذا الحديث عند أهل السنة أيضًا بهذا اللفظ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر). أخرجه البخاري ومسلم، والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد في خمسة رويات. (البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم (٦٤) وأخرجها أحمد في مسنده (١/٣٨٥)، (١/٤١١ - ٤٣٣ - ٤٤٦ - ٤٥٤). والفرق بين الروايتين عظيم عند ذوي النظر؛ لأن الاثني عشرية يخصّون الإيمان بأهل طائفتهم، أما غيرهم من الفرق الإسلامية فيمنحونهم لقب الإسلام فقط، دون الإيمان؛ وبالتالي فلا حرمة لغيبتهم أو شتمهم أو قتالهم، كما سنوضّح في الفصل الأخير من الكتاب (موقف الاثني عشرية من الأمة المسلمة)، في حين أكدت رواية أهل السنة حصانة دم وعرض المسلم؛ فهي تشمل من تحققت فيه صفة الإسلام، من أي فرقة إسلامية كانت.

ولكن جاءت رواية واحدة عند أحمد بلفظ (سباب المؤمن) (١/٤٣٩) عن عبد الله بن مسعود. ولعله من تصرّف الرواة وروايتهم للحديث بالمعنى؛ لأن كل الروايات عند البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وخمس روايات في مسند جاءت من طريق ابن مسعود رضي الله عنه نفسه بلفظ (سباب المسلم..). كما جاءت رواية ابن ماجه (٢/ ١٢٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه لتؤكد ذلك برواية (سباب المسلم..) مما يدل على تصرّف أحد الرواة بالمعنى في رواية (سباب المؤمن).

(٤) أصول الكافي (٢/٣٤٤) الهامش حاشية رقم (٦).

ومن هذا النص يظهر مخالفة الاثني عشرية لمذهب من قال بتكفير مرتكب الكبيرة كالخوارج، ولمذهب من قال بخلوده في النار كالمعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين.

ويظهر من روايات الاثني عشرية موافقتها لمذهب أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة، وأنه مؤمن، ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ [الحجرات: ٩]. فقد سمّاهم المولى ﷻ مؤمنين رغم قتالهم وتنازعهم.

ولكن مع إقرار الشيعة بهذه الحقيقة، عزّ عليهم ألا يحكموا بكفر من قاتل أمير المؤمنين عليًا ﷺ ، فقال قائلهم: « واجتمعت الشيعة على الحكم بكفر محاربي أمير المؤمنين ﷺ، ولكنهم لم يخرجوهم بذلك عن حكم ملة الإسلام؛ إذ كان كفرهم من طريق التأويل كفر ملة، ولم يكفروا كفر ردة عن الشرع، مع إقامته على الجملة منهم وإظهار الشهادتين، والاعتصام بذلك عن كفر الردة المخرج عن الإسلام، وإن كانوا بكفرهم خارجين عن الإيمان مستحقين اللعنة والخلود والنار » [(١)].

ومن هذا النص يظهر غموض مصطلحات الاثني عشرية وتعارضها: (كفر ملة، كفر ردة)، (لا يخرجون به من الإسلام، ولكنهم يكونون معه « مستحقين اللعنة والخلود والنار »)!

والذي يظهر للباحث أن هذا الغموض جاءهم من قبل المعتزلة من ناحية، ومن بغضهم لمن أنكر الإمامة أو ارتكب ما يعارضها بزعمهم - كقتال أمير المؤمنين علي ﷺ.

فالمعتزلة سبقوهم بالقول بالمنزلة بين المنزلتين للفاسق، وفي النهاية لم يحكموا له بكفر ولا إيمان، ثم لما سئلوا عن مصيره قالوا: الخلود في جهنم!

قال الإسفراييني: « قولهم [أي: المعتزلة] بمنزلة بين المنزلتين وزعمهم أن الفاسق الملّي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفساق من أهل الملة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر، وأنهم مع الكفار في النار خالدين مخلدين لا يجوز لله تعالى أن يغفر لهم، وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة، ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون » [(٢)].

والذي فعله الاثنا عشرية أنهم طوّروا مصطلح (المنزلة بين المنزلتين) ليشمل كل من خالفهم في مسألة الإمامة؛ ولذلك عدّوا من قاتل عليًا منكرًا للإمامة التي هي أصل من

---

(١) الجمل (ص ٢٩، ٣٠)، مكتبة الدواوري، قم.

(٢) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد الإسفراييني (ص ٢٢)، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٣م)، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

أصول الدين عندهم، فحكموا له بالخلود في النار، وإن سمّوه مسلمًا، أما من ارتكب كبيرة من الكبائر من أهل مذهبهم فحكموا بنجاته كما بيّنّا.

أنواع الكفر:

هناك رواية طويلة تعبر عن الكفر ووجوهه وأنواعه: « عن أبي عمرو الزّبيريّ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل، قال:

الكفر في كتاب الله على خمسة أوجهٍ:

فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين. والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النّعم.

- **فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالرّبوبيّة** وهو قول من يقول: لا ربّ ولا جنّة ولا نار، وهو قول صنفين من الزّنادقة يقال لهم: الدّهريّة، وهم الّذين يقولون: ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤] وهو دينٌ وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبّتٍ منهم، ولا تحقيقٍ لشيءٍ ممّا يقولون، قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨] أنّ ذلك كما يقولون وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] يعني بتوحيد الله تعالى. فهذا أحد وجوه الكفر.

- **وأمّا الوجه الآخر من الجحود على معرفةٍ** وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقٌّ قد استقرّ عنده، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وقال الله عز وجل: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] فهذا تفسير وجهي الجحود.

- **والوجه الثّالث من الكفر: كفر النّعم**، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

- **والوجه الرّابع من الكفر: ترك ما أمر الله عز وجل به**، وهو قول الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥] فكفّرهم بترك ما أمر الله عز وجل به،

ونسبهم إلى الإيمان، ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده، فقال: ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

- **والوجه الخامس من الكفر: كفر البراءة** وذلك قوله ﷻ يحكي قول إبراهيم ﷷ: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤] يعني تبرّأنا منكم. وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [العنكبوت: ٢٥] يعني: يتبرّأ بعضكم من بعضٍ » [(١)].

وجاء في روايةٍ عن سليم بن قيسٍ الهلاليّ رواية تبين دعائم الكفر التي يقوم عليها بناؤه المنهار:

عن أمير المؤمنين ﷷ قال: بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلوّ والشّكّ والشّبهة:

والفسق على أربع شعبٍ: على الجفاء والعمى والغفلة والعتوّ...

والغلوّ على أربع شعبٍ: على التّعمّق بالرّأي والتّنازع فيه والزّيغ والشّقاق...

والشّكّ على أربع شعبٍ: على المرية والهوى والتّردّد والاستسلام وهو قول اللّه ﷻ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم: ٥٥].

وفي روايةٍ أخرى: على المرية والهول من الحقّ والتّردّد والاستسلام للجهل وأهله. فمن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، ومن امترى في الدّين تردّد في الرّيب، وسبقه الأوّلون من المؤمنين، وأدركه الآخرون، ووطئته سنابك الشّيطان، ومن استسلم لـهلكة الدّنيا والآخرة هلك فيما بينهما، ومن نجا من ذلك فمن فضل اليقين، ولم يخلق اللّه خلقًا أقلّ من اليقين.

والشّبهة على أربع شعبٍ: إعجابٍ بالزّينة، وتسويل النّفس، وتأوّل العوج، ولبس الحقّ بالباطل. وذلك بأنّ الزّينة تصدف عن البيّنة، وأنّ تسويل النّفس يقحّم على الشّهوة، وأنّ العوج يميل بصاحبه ميلًا عظيمًا، وأنّ اللّبس ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ. فذلك الكفر ودعائمه وشعبه [(٢)].

---

(١) أصول الكافي (٢/٣٧١، ٣٧٢) كتاب الإيمان والكفر، باب وجوه الكفر، سكت عنه المحقق.

(٢) أصول الكافي (٢/٣٧٣) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الكفر وشعبه، سكت عنه المحقق.

أدنى الشرك:

عن بريدٍ العجليّ عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: « سألته عن أدنى ما يكون العبد به مشركًا؟ قال: فقال: من قال للنّواة: إنّها حصاةٌ، وللحصاة: إنّها نواةٌ ثمّ دان به » (١).

وعن أبي العبّاس قال: « سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركًا؟ قال: فقال: من ابتدع رأيًا فأحبّ عليه أو أبغض عليه » (٢).

فالرواية الأولى تجعل العناد ومخالفة المحسوس بداية الشرك، والرواية الثانية تبين أن الابتداع في الدين أدنى الشرك. ولا يخلو مشرك من هذين الأمرين: العناد والابتداع.

وبناء على ما في روايات أئمة البيت **فإن أهم المكفّرات:**

١ - الشك في اللّه ورسوله:

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: « من شكّ في اللّه وفي رسوله ﷺ فهو كافر » (٣).

أما الوسوسة التي تطرأ فليست من الشك وليست من الكفر؛ بل هي صريح الإيمان ودليل صفائه، كما ثبت في روايات أهل السنة والشيعة معًا:

عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ عن الوسوسة، قال: « **تلك محض الإيمان** » (٤).

وعن أبي عبد اللّه جعفر الصادق عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول اللّه، هلكت، فقال له عليه السلام: « **أتاك الخبيث فقال لك: من خلقك؟ فقلت: اللّه، فقال لك: اللّه من خلقه؟** » فقال: إي والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال رسول اللّه ﷺ: « **ذاك واللّه! محض الإيمان** » (٥).

قال محقق أصول الكافي: « وإنما كانت هذه الخطرات وما استتبعها من خوف الهلاك محض الإيمان؛ لأن الكافر لا يداخله شيء من هذا الخوف بسبب ذلك، بل لا يداخله

---

(١) أصول الكافي (٣٧٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٣٦٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث صحيح.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (٢١١).

(٥) أصول الكافي (٤٠٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الوسوسة وحديث النفس قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

خوف حتى من محاربته للّه ورسوله، فكان ذلك الخوف أمارة على صدق إيمانه » [١].

٢ - الاعتراض على اللّه تعالى أو رسوله:

عن عبد اللّه الكاهليّ قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: « لو أنّ قومًا عبدوا اللّه وحده لا شريك له، وأقاموا الصّلاة، وآتوا الزّكاة، وحجّوا البيت، وصاموا شهر رمضان، ثمّ قالوا لشيءٍ صنعه اللّه أو صنعه رسول اللّه ﷺ: ألا صنع خلاف الّذي صنع. أو وجدوا ذلك في قلوبهم؛ لكانوا بذلك مشركين. ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] ثمّ قال أبو عبد اللّه عليه السلام: عليكم بالتّسليم » [٢].

٣ - إنكار فريضة من فرائض الإسلام، أو الاستخفاف بأوامر ونواهي الدين:

عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: «.. فمن اجترأ على اللّه فأبى الطّاعة وأقام على الكبائر فهو كافرٌ. يعني مستخفٌّ كافرٌ » [٣].

و « الحكم بكفره مقيد بما إذا كان إباؤه للطاعة وإقامته على الكبائر بنحو الاستخفاف » [٤].

قال عبد اللّه شبر: « واعلم أن الأصحاب قد اتفقوا على أن إنكار أحد ضروريات الإسلام موجب للكفر، ولكنهم لم يحصروا الضروريات، بل ذكروها متفرقة في كتب الفقه... المراد بضروري الدين ما كان وضوحه وبداهته في دين الإسلام ضروريًا؛ بحيث إنّ كل من دخل في ذلك الدين عرفه، إلا من كان جديد الإسلام أو في بلدان الكفر أو بعيدًا عن بلدان الإسلام، بحيث لم يطرق سمعه ذلك » [٥].

ثم بيّن بعض هذه الضروريات التي يكفر منكرها؛ مثل وجوب الفرائض الخمس في اليوم والليلة وعدد ركعات كل منها.. ووجوب غسل الجنابة والحيض، ووجوب الزكاة، وحرمة الزنى واللواط، وحرمة الميتة ولحم الخنزير والربا وقتل المسلمين من غير حق، « وحقّية القرآن، وأنه منزل من عند اللّه بل إنه معجز على الأظهر » [٦].

(١) أصول الكافي (٢/٤٠٣).

(٢) أصول الكافي (١/٤٥٥) كتاب الحجة، باب التسليم وفضل المسلمين، والحديث حسن.

(٣) أصول الكافي (٢/٣٦٧) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث موثق كالصحيح.

(٤) أصول الكافي (٢/٣٦٧) هامش حاشية رقم (٣).

(٥) عبد اللّه شبر: حق اليقين (٢/٥٧٢ - ٥٧٧).

(٦) المصدر السابق لاحظ أنه لم يتعرض لمسألة سلامة القرآن من التحريف.

وقد ذكر عبد اللَّه شبر من المكفرات « السجود للأصنام وهتك حرمات اللَّه ونحوها » [١].

٤ – ترك الصلاة عمدًا:

ولا تعدّ روايات أئمة أهل البيت ترك طاعة من الطاعات أو فعل معصية من المعاصي كفرًا إلا ترك الصلاة:

عن عبيد بن زرارة قال: « سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن قول اللَّه عز وجل: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ.. ﴾ [المائدة: ٥] فقال: من ترك العمل الّذي أقرّ به، قلت: فما موضع ترك العمل حتّى يدعه أجمع؟ قال: منه الّذي يدع الصّلاة متعمّدًا لا من سكرٍ ولا من علّةٍ » [٢].

ونلاحظ أن الرواية اشترطت أن يكون تركه للصلاة دون عذر شرعي:« لا من سكرٍ ولا من علّةٍ ». ومن العلل: السقم والانشغال بعذر كما جاء في إحدى الروايات التي ذكرت من المكفرات: « أن يترك الصّلاة من غير سقمٍ ولا شغلٍ » [٣].

وقد بيّنت رواية أخرى عن الأئمة العلة التي من أجلها كان ترك الصلاة كفرًا، بخلاف باقي المعاصي:

عن مسعدة بن صدقة قال: « سمعت أبا عبد اللَّه عليه السلام وسئل: ما بال الزّاني لا تسمّيه كافرًا وتارك الصّلاة قد سمّيته كافرًا؟ وما الحجّة في ذلك؟ فقال: لأنّ الزّاني وما أشبهه إنّما يفعل ذلك لمكان الشّهوة لأنّها تغلبه، وتارك الصّلاة لا يتركها إلا استخفافًا بها؛ وذلك لأنّك لا تجد الزّاني يأتي المرأة إلا وهو مستلذٌّ لإتيانه إيّاها قاصدًا إليها، وكلّ من ترك الصّلاة قاصدًا إليها فليس يكون قصده لتركها اللّذّة، فإذا نفيت اللّذّة وقع الاستخفاف، وإذا وقع الاستخفاف وقع الكفر » [٤].

هذا، والحكم عند أهل السنة أن تارك الصلاة جحودًا واستخفافًا كافر باتفاق، أما تاركها تكاسلًا فإن الجمهور (الحنفية والمالكية والشافعية) يقولون بأنه مسلم عاصٍ، أما عند الحنابلة؛ فهناك روايتان: « فروي أنه يقتل لكفره كالمرتد، فلا يغسل ولا يكفن

---

(١) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٧٣). أما السجود عند أضرحة الأئمة والطواف حولها؛ فليس من المكفّرات عندهم إلا إذا قصد منه العبادة والتعظيم، كما سنبين في (فصل العقائد الخاصة).

(٢) أصول الكافي (٣٦٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محققه: والحديث موثق كالصحيح.

(٣) أصول الكافي (٣٦٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

(٤) أصول الكافي (٣٦٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محققه: والحديث ضعيف.

ولا يدفن بين المسلمين، ولا يرثه أحد، ولا يرث أحدًا، اختارها أبو إسحاق ابن شاقلّا وابن حامد، وهو مذهب الحسن والشعبي وأيوب السختياني والأوزاعي وابن المبارك وحماد بن زيد وإسحاق ومحمد بن الحسن؛ لقول رسول اللّه ﷺ:.. في لفظ عن جابر قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « **إنّ بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة** » [1]... **والرواية الثانية:** يقتل حدًّا مع الحكم بإسلامه كالزاني المحصن، وهذا اختيار أبي عبد اللّه ابن بطة، وأنكر قول من قال: إنه يكفر، وذكر أن المذهب على هذا، لم يجد في المذهب خلافًا فيه. وهذا قول أكثر الفقهاء وقول أبي حنيفة ومالك والشافعي » [2].

٥ - تحليل ما حرم اللّه، وتحريم ما أحل اللّه:

عن عبد اللّه بن مُسكان عن أبي بصير قال: « سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه عز وجل: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ.. ﴾ [التوبة: ٣١] فقال: أما واللّه ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حرامًا وحرّموا عليهم حلالًا، فعبدوهم من حيث لا يشعرون » [3].

وعن ابن أبي عمير عن رجلٍ عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: « من أطاع رجلًا في معصيةٍ فقد عبده » [4].

هل يمكن كفر المؤمن بعد إيمانه؟

اختلف المتكلمون الشيعة في هذا؛ « فالأكثر على إمكان ذلك ووقوعه، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧] وقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]... وذهب جماعة إلى عدم جواز

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة. ومن الأحاديث التي استندت عليه الرواية: قوله ﷺ: « إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة رقم (٢٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي (١/٢٣١)، وأحمد في مسند بريدة (٥/٣٤٦) رقم (٢٢٩٨٧)، وابن حبان في صحيحه (٤/٣٠٥).

(٢) ابن قدامة: المغني مع الشرح الكبير (٢/١٥٧)، ط دار الفكر - بيروت، وانظر: الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية، دار ابن حزم - بيروت، والجفان والجابي - قبرص (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، (ط١) تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي (ص ٨٣).

(٣) أصول الكافي (٢/٣٨٠) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك، قال محققه: والحديث حسن.

(٤) أصول الكافي (٢/٣٨٠) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك، قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

زوال الإيمان الحقيقي بضد أو غيره، ونسب إلى السيد المرتضى وجماعة؛ لأن ثواب الإيمان دائم وعقاب الكفر دائم، والإحباط والموافاة عنده باطلان، وأن الارتداد الواقع من بعض الناس كاشف عن عدم الإيمان سابقًا وعن نفاقهم، وأوّل الآيات الدالة على ذلك بأن المراد بمن وصفهم بالإيمان: الإيمان اللساني دون القلبي، وقد وقع مثله كثيرًا في القرآن كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] » (١).

ويشهد لمجيزي الكفر بعد الإيمان الرواية التي تذكر وجود صنف سمّوا: المعارين؛ عن الإمام أبي الحسن موسى الرضا: « إنّ اللّه خلق خلقًا للإيمان لا زوال له، وخلق خلقًا للكفر لا زوال له، وخلق خلقًا بين ذلك أعاره الإيمان، يسمّون المعارين إذا شاء سلبهم » (٢).

حكم المرتد:

الارتداد عند الشيعة نوعان: فطري وملّي:

فالارتداد الفطري: يتعلق بارتداد من كان أحد والديه مسلمًا، ويجب قتله وفسخ نكاحه وإبانة امرأته وقسمة أمواله بين ورثته، واختلف في صحة توبته، وأكثر المحققين من علماء الاثني عشرية على صحتها.

والارتداد الملي: يتعلق بمن تولّد كافرًا ثم أسلم ثم كفر؛ « فالمشهور أنه يجبر على التوبة؛ فإن تاب قبلت توبته ظاهرًا وواقعًا، وإن لم يتب قتل. واختلف في مدته، فقيل: ثلاثة أيام كما روي، وقيل: لا حدّ لذلك، بل ما احتمل توبته ورجوعه، فإن أيس من ذلك قتل، أما المرأة المرتدة فطرية أو ملية فلا تقتل، ولكن تحبس بعد الارتداد، وتضرب حتى ترجع إلى الإسلام (٣).

التفريق بين الشرك والكفر في روايات الشيعة:

عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: « واللّه إنّ الكفر لأقدم من الشّرك وأخبث وأعظم. قال: ثمّ ذكر كفر إبليس حين قال اللّه له: اسجد لآدم. فأبى أن يسجد. فالكفر أعظم من الشّرك، فمن اختار على اللّه عز وجل وأبى الطّاعة وأقام على الكبائر فهو كافرٌ، ومن نصب دينًا غير دين المؤمنين فهو مشركٌ » (٤).

---

(١) عبد اللّه شبر: حق اليقين (٢/٥٧٢، ٥٧٣).

(٢) أصول الكافي (٢/٣٩٧) كتاب الإيمان والكفر، باب المعارين، قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

(٣) عبد اللّه شبر: حق اليقين (٢/٥٧٢ - ٥٧٦).

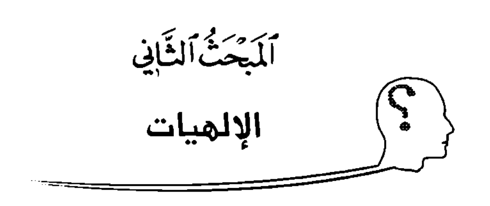
(٤) أصول الكافي (٢/٣٦٦) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

قال المجلسي: « الكفر هو ترك طاعة اللّٰه معاندة واستكبارًا، والشرك هو أن يثبت للّٰه في الخلق أو العبادة أو الطاعة شريكًا أعم من أن يكون ذلك على المعاندة أو على الجهل والضلال، فبين عليه السلام أولًا: أن ترك طاعته تعالى مع العلم معاندة واستكبارًا أخبث وأقدم من الشرك؛ لأن أول معصية وقعت من العباد وأشدها معصية إبليس، وهي كانت من هذا القبيل؛ لأنه لم يشرك بل ترك السجود والطاعة معاندة واستكبارًا وهذا أشد من شرك لم ينضم إليه ذلك، وكان من الجهل والضلالة، فأما الشرك الذي كان على وجه الاستكبار والمعاندة فهو أشد لتلك الجهة لا لجهة الشرك »[1].

فهذا التفريق بين الشرك والكفر إن صحّ لغة، إلا أن الاصطلاحات الشرعية جعلت نتيجتهما واحدة، فالشرك والكفر يؤديان إلى النار، وما داما قد أوصلا إلى النار، فلا فرق بينهما في النتيجة، لقد قال تعالى عن الشرك وأهله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال عن الكافرين: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

بل وأطلق أحدهما على الآخر؛ مما يدل على ترادفهما كقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومن المعلوم أنهم أشركوا باللّٰه تعالى، وخالفوا صفة الوحدانية، ومع ذلك سماهم كافرين؛ ذلك أن المشرك باللّٰه تعالى كافر، بمعنى أنه جاحد للّٰه تعالى، سواء كان فعله جحودًا لذاته أو صفاته، أو جحودًا لوجوب طاعته، أو جحودًا لفضله ونعمته.

* * *



لقد « أجمع العلماء كافة على وجوب معرفة اللّٰه تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية وما يصح عليه وما يمتنع عنه والنبوة والإمامة والمعاد » [١].

والتفكر عبادة حض عليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]. وقد حض أئمة أهل البيت على التفكر، قال أمير المؤمنين علي ﷺ: « أول الديانة معرفة اللّٰه وكمال معرفته توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له » [٢]. وقال: « إن الفكر يدعو إلى البر والعمل به » [٣].

وقد روى أهل السنة عن أبي الدرداء ﷺ قوله: « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » [٤].

وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: « ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر اللّٰه عز وجل » [٥].

ويعتقد علماء الاثني عشرية - موافقين المعتزلة - أن معرفة اللّٰه تعالى مستفادة من العقل، يقول الشيخ كاشف الغطاء: « يجب على العاقل بحكم عقله عند الإمامية تحصيل العلم والمعرفة بصانعه والاعتقاد بوحدانيته في الألوهية وعدم الشريك له في الربوبية » [٦].

« ومذهب الإمامية هذا مخالف للقرآن وللأخبار الواردة عنهم، أما مخالفته للقرآن فلأن اللّٰه تعالى قال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠] وقال: ﴿.. وَمَا كُنَّا

---

(١) ابن المطهر الحلي (ص ١٣).

(٢) القضاعي: دستور معالم الحكم (ص ٣٠٣)، وذكره محمد باقر المحمودي: نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة (٣٩/٣) دار التعارف - بيروت (١٣٩٧هـ).

(٣) أصول الكافي (٦١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر. سكت عنه المحقق.

(٤) البيهقي: شعب الإيمان (١٣٥/١).

(٥) أصول الكافي (٦١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر. حكم المحقق بصحته.

(٦) كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ٦١).

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]. فلو كانت معرفة اللَّه تبارك وتعالى أمرًا واجبًا بحكم العقل لوقع العذاب بترك ذلك الواجب قبل بعثة الرسل » (١).

أما مخالفته للنصوص الواردة عن أئمتهم فقد روى الكليني عن جعفر الصادق: « ليس للّه على خلقه أن يعرفوا، وللخلق على اللّه أن يعرّفهم، وللّه على الخلق إذا عرّفهم أن يقبلوا » وسئل: « من لم يعرف شيئًا هل عليه شيءٌ؟ قال: لا » (٢).

وروايات الشيعة وإن عظّمت دور الفكر للوصول لمعرفة اللّه تعالى، إلا أنها أعلنت أنه لا حساب قبل المعرفة وإرسال الرسل؛ فقد قال جعفر الصادق قوله الفصل في ذلك: « ما حجب اللّه عن العباد فهو موضوعٌ عنهم » (٣). وقال أيضًا مؤكدًا هذا المعنى: « إنّ من قولنا: إنّ اللّه يحتجّ على العباد بما آتاهم وعرّفهم، ثمّ أرسل إليهم رسولًا، وأنزل عليهم الكتاب فأمر فيه ونهى، أمر فيه بالصّلاة والصّيام... وما أمروا إلا بدون سعتهم، وكلّ شيءٍ أمر النّاس به فهم يسعون له، وكلّ شيء لا يسعون له فهو موضوعٌ عنهم » (٤).

والحقيقة أن العقل والنقل كليهما يوصل إلى الإيمان باللّه تعالى، فقد قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] (٥).

ويأتي دور الخبر اليقيني ليفتح عقولنا على حقائق ما كنا لنصل إليها إلا من خلال الوحي الصادق، فيجيبنا هذا الوحي الكريم عن أسئلة الوجود الكبرى، مبينًا لنا صفات الخالق العظيم، وواجبات المخلوق تجاه خالقه ونفسه والعالم من حوله، معرّفًا الإنسان بمصيره المحتوم الذي ينتظره بعد الموت. وما يكون في حنايا هذه المسائل من تفاصيل لا غنى للإنسان عن معرفتها.

فلا داعي لإحداث زوابع حول هذه البدهية، بضرب العقل بالنقل، وهما أخوان

---

(١) د. فرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية، جامعة الأزهر كلية أصول الدين، القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م). (ص ٢٦).

(٢) الكليني: أصول الكافي: باب حجج اللّه على خلقه (١/٢١٥).

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب حجج اللّه على خلقه (١/٢١٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) انظر: د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٠٧).

شقيقان يخرجان من معين إلهي واحد.

* * *

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

أدلة وجود الله تعالى

إن الحديث عن الله تعالى وأدلة وجوده وصفاته مما يدعو إلى الحياء من الخلاق العظيم الظاهر في كل شيء، قال سبحانه: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ولكنه سبحانه هو الذي هدانا وعرّفنا طرق الوصول إليه؛ فقد دلل ﷻ على ذاته في كتابه العظيم وسنة نبيه الكريم وكونه الواسع.

وليس لوجود الخلّاق العظيم دليل واحد، بل أدلة كثيرة تتسع لجميع أفهام البشر ومشاربهم.

« أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى، بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلّة؛ ولهذا كانت دعوة عامة الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشراكهم به بعبادة ما دونه، والذين أظهروا إنكار الصانع كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق، كقول موسى لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ولما قال فرعون: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال له موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٤ - ٢٨] »[1].

وإن خير وأوضح وأسهل الأدلة على وجود الله ما ساقه القرآن الكريم، ولا عجب في هذا؛ فليس هناك تأكيد على وجود الخالق أعظم من تأكيد الخالق على وجوده ذاته، ولن تكون هناك طريقة أسهل وأوضح من طريقته، ولن يكون هناك كتاب يشرح هذا ويبينه كما سيبينه كتاب الخالق نفسه، وهذا ما وصل إليه كثير من علماء السنة والشيعة على السواء.

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/٢٧٠).

وإذا تأملنا كتب ومؤلفات علماء الشيعة الإمامية وجدنا مسالكهم في إثبات وجود الله تعالى متنوعة تتشابه كثيرًا مع مسالك الفرق الأخرى، فإذا كان متقدموهم - كابن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) والشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) - يستدلون على وجود الله تعالى بدليل المعتزلة الذي يعتمد على فكرة (حدوث الأجسام وحاجتها إلى محدث)؛ فإن متأخري الإمامية كنصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) وابن مطهر الحلي (ت ٧٣٦هـ) لجؤوا إلى منهج الفلاسفة الذي يعتمد على فكرة (الإمكان والوجوب) [(١)]. ثم ظهر تيار آخر يدعو إلى الأدلة القرآنية والنبوية التي استخدمها أئمة أهل البيت ﷺ.

أولًا: أشهر الأدلة الفلسفية والكلامية على وجود الله تعالى:

١ - دليل الإمكان والوجوب:

وهو من أشهر أدلتهم، ولعل أول من استخدمه في المحيط الإسلامي المعتزلة، ثم تبعهم الفلاسفة الإسلاميون، كما استخدمه باقي الفرق الكلامية الإسلامية والاثني عشرية من جملتهم.

فقد لجأ الفارابي وابن سينا في استدلالهم على وجود الله إلى تقسيم الوجود إلى واجب وممكن، ثم الاستدلال بالممكن على الواجب، من حيث حدوثه بعد أن لم يكن، ومن حيث ثباته على الإمكان [(٢)]، وقد عبّر عنه ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) بقوله: « لا شك أن هنا وجودًا، وكل وجود إما واجب أو ممكن؛ فإن كان واجبًا فقد صح وجود الواجب، وإن كان ممكنًا فإن... الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود » [(٣)].

والفلاسفة وإن كانوا يلجؤون وينزعون إلى أساتذتهم من فلاسفة اليونان، إلا أنهم في هذا الدليل على وجود الله تعالى تتلمذوا على يد أقرانهم من المعتزلة، وسرّ ذلك أنهم نفروا مما رأوا من تخبّط فلاسفة اليونان في أوحال ما سمّوه العلة الأولى للكون وما رافق هذه النظرية من ضلالات، « فلما رأى ابن سينا وأمثاله من المتأخرين ما فيها من الضلال عدلوا

---

(١) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٣٧).

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٧٣، ١٧٤)، وانظر إيضاح ابن تيمية لهذه المسألة في: منهاج السنة النبوية (٩٦/١)، ط. بولاق (١٣٢٢هـ).

(٣) ابن سينا: النجاة (ص ٣٨٣) مطبعة الكندي - القاهرة (١٣٣١هـ)، والإشارات تحقيق سليمان دنيا (٤٣٥/٣)، دار المعارف مصر (١٩٦٨م)، وانظر: سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) (١٠٦).

إلى طريقة الوجود والوجوب والإمكان، وسرقوها [!] من طريق المتكلمين المعتزلة وغيرهم؛ فإن هؤلاء احتجوا بالمحدَث على المحدِث، فاحتج أولئك بالممكن على الواجب » (١).

وقد استخدم هذا الدليل أيضًا متكلمو الأشاعرة كما استخدمه متكلمو الاثني عشرية، يقول الجويني: « هذا العالم أجسام محدودة متناهية المنقطعات، وأعراض قائمة بها كألوانها... هذه الموجودات يسري عليها جميعًا حكم الجواز؛ لما تتميز به الأجسام من صفات متغيرة »؛ فالعالم « بما فيه من موجودات... غير ممتنع تقديره بخلاف ما هو عليه، فإذا لزم العالم كله الجواز استحال قدمه، وثبت افتقاره إلى محدث، وهو اللَّه تعالى » (٢). ويقول الإيجي: « العالم ممكن؛ لأنه مركب وكثير، وكل ممكن فله علة مؤثرة... نقول: مدبر العالم إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإلا كان ممكنًا فله مؤثر، ويعود الكلام فيه، ويلزم إما الدور أو التسلسل، وإما الانتهاء إلى مؤثر واجب الوجود لذاته، والأول بقسميه باطل لما مر؛ فتعين الثاني، وهو المطلوب » (٣).

وقد ظهر من متكلمي الشيعة من ذهب في الاستدلال على وجود اللَّه تعالى معتمدًا على فكرتي الوجوب والإمكان العقليين، كنصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) وابن مطهر الحلي (ت ٧٣٦هـ) (٤). وكذلك درج على شرحه بعض المعاصرين منهم، يقول اليزدي: « فواجب الوجود عبارة عن الموجود الذي هو موجود بذاته، ولا يحتاج إلى موجود آخر، وبالطبع يكون هذا الموجود أزليًا أبديًا... وممكن الوجود عبارة عن الموجود الذي لا يوجد بذاته وإنما يناط وجوده بموجود آخر ويتوقف عليه » (٥).

ويعتمد هذا الدليل على مقدمتين: **الأولى**: هي بطلان تسلسل العلل، **والثانية**: هي استحالة أن تكون الموجودات كلها ممكنة الوجود؛ لأن « ممكن الوجود محتاج للعلة، وإن التسلسل في العلل محال؛ إذن فلا بد أن تنتهي سلسلة العلل إلى موجود لا يكون ممكن الوجود وليس محتاجًا إلى علة، أي إنه واجب الوجود » (٦).

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/٣٤٧، ٣٤٨).

(٢) الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص ٢٨). مطبعة السعادة - مصر (١٣٦٩هـ).

(٣) عضد الدين الإيجي: المواقف (٣/ ٧، ٨).

(٤) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٣٧).

(٥) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٧٢، ٧٣).

(٦) المرجع السابق (ص ٧٤ - ٧٦).

وهذا دليل منطقي معقد كان محل نقد في صعوبته من قبل كثير من علماء الشيعة والسنة على السواء.

وينتقد الأستاذان الفاضلان الدكتور رزق الحجر والدكتور محمد السيد الجليند هذا المسلك في الاستدلال على وجود اللّٰه تعالى بأنه « لا يخفى أن هذه التفرقة بين الممكن والواجب إنما جاء كوسيلة للتفريق بين الفلسفة والدين » (١). فدليل الإمكان والوجوب الذي قال به المعتزلة والأشاعرة والاثنا عشرية والفارابي وابن سينا « يصح الاستدلال به على أن هناك وجودًا واجبًا في العقل فقط » أما إثبات هذا الواجب وتعيينه خارج الذهن والتصور العقلي؛ فهذا ما لم ينتجه هذا الدليل، وما زال الأمر في ذلك محتاجًا إلى دليل آخر (٢).

فالملاحظ أن هذا الدليل يغرق في التجريد؛ إذ يتناول الموجود المجرد في الذهن، لا الموجود الحقيقي في الواقع، بخلاف أدلة القرآن التي اتجهت إلى الموجود في الواقع، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧] فقد لفتت هذه الآية إلى الموجودات الحقيقية، لا المجردة في الذهن، وهذا يسهّل إدراكها والتفكر فيها.

٢ - دليل حدوث العالم وتناهيه:

اعتمد الفلاسفة والمتكلمون بعدهم على دليل حدوث العالم وتناهيه؛ لإثبات وجود محدثه، وهو اللّٰه تعالى، وقد كانت فكرة حدوث العالم وتناهيه من الأفكار التي تناولها الفكر اليوناني، وقد استمد الفلاسفة المسلمون كالكندي فكرة تناهي العالم من أرسطو، وقالوا: إن العالم إذا كان حادثًا له أول وبداية في الزمان، وله نهاية فلا بد أن يكون له محدث (٣).

وقد جاء المتكلمون فيما بعد فاعتقدوا « بحدوث العالم، وجعلوا الاعتقاد بذلك من

---

(١) أستاذنا الدكتور: سيد رزق الحجر: ابن الوزير ومنهجه الكلامي، ضمن رسائل كلية دار العلوم الجامعية (ص ١٩٤، ١٩٥).

(٢) انظر: أستاذنا الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٧٣، ١٧٤)، وانظر إيضاح ابن تيمية لهذه المسألة في: منهاج السنة النبوية (١/٩٦)، ط. بولاق (١٣٢٢هـ).

(٣) انظر: سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ص ١٠٦). وانظر: الكندي وفلسفته (ص ٦٩) وما بعدها دار الفكر العربي القاهرة (١٩٥٠م).

لوازم التوحيد » [١]. وقسموا الموجودات في العالم إلى أعراض وجواهر، واستدلوا بحدوثها وإمكانها على حدوث العالم، و« بحدوث العالم على وجود اللّٰه » [٢].

وقد اشتهر هذا الدليل لدى المتكلمين باسم دليل (الجوهر الفرد) و « مضمونه أن موجودات العالم جواهره وأعراضه حادثة لحدوث الأعراض بدلالة التغير، وملازمة الأعراض لها وحدوثها على أساس أن ما يلزم الحادث فهو حادث مثله، وإذا ثبت حدوث العالم بجوهره وأعراضه ثبت احتياجه لمحدث، وهو اللّٰه تعالى » [٣]. وبيّن الإيجي أن العالم إما جوهر أو عرض، وقد يستدل بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه على أن العالم حادث، وكل حادث فله محدث، وهو اللّٰه تعالى [٤].

وقد اعتمد متكلمو الاثني عشرية على هذا الدليل في إثبات وجود اللّٰه، وسموا هذا الدليل (دليل حدوث الأجسام)، ولا يخفى أن « دليل حدوث الأجسام عند الاثني عشرية هو نفس الدليل الذي اعتمد عليه عامة المتكلمين في البرهنة على وجود اللّٰه تعالى، سواء المعتزلة والأشاعرة وغيرهم » [٥]. وقد استخدمه القدماء والمحدثون منهم.

وقد حاول الدكتور مطهري – الاثنا عشري المعاصر – أن يتكئ على العلم الحديث للوصول إلى صحة هذا الدليل، فقرر أن « العلماء الغربيين يرون التلازم بين الاعتقاد باللّٰه تعالى وبين كون العالم له أول وبداية، وأنه إن لم نعتقد بأن للعالم بداية فلا بد من إنكار وجود اللّٰه » [٦].

ولكن هذا الدليل واجه مشكلة كبرى عندما اعتقد بعض الفلاسفة قدم العالم، وعكسوا القضية، وجعلوا من لوازم التوحيد: الاعتقاد بعدم كون العالم حادثًا وأن له بداية، بل العالم قديم لا أول له! [٧].

---

(١) د. مطهري: التوحيد (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٨٥ – ١٨٧).

(٣) سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق (ص ١٠٥). وعزا الدليل إلى الجويني: الإرشاد (ص ٢٠١)، والغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ١٣) وما بعدها.

(٤) عضد الدين الإيجي: المواقف (٧/٣، ٨).

(٥) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٩، ٢٠). وقد ذكر أنه قد استخدمه القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة، الشهرستاني في نهاية الإقدام، والباقلاني في التمهيد، والغزالي في قواعد العقائد، وفخر الدين الرازي.

(٦) د. مطهري: التوحيد (ص ١٦٠). (٧) المرجع السابق (ص ١٥٨، ١٥٩).

فقد « ذهب جميع الحكماء والفلاسفة أمثال ابن سينا والفارابي والخواجة نصير الدين الطوسي وصدر المتألهين إلى عدم تناهي العالم في القدم » [(١)]. ويستشهدون بما ورد في الدعاء: « يا عظيم المن!.. يا قديم الإحسان » [(٢)].

ومن الواضح أن هذا الدعاء – لو ثبت – لا يدل على قدم العالم؛ لأن استخدام لفظ القديم فيه لا يقتضي أن يكون قد جرى على مصطلح المتكلمين؛ فالقديم في اللغة ليس محصورًا بعدم البداية وعدم افتتاح الوجود، بل يطلق على ما كان سابقًا لغيره. فقد قص القرآن قول أهل يعقوب له: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩] أي مثل عذق النخلة اليابس [(٣)]، وقال: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١] « أي: كذب قديم، أي مأثور عن الناس الأقدمين » [(٤)].

كما استدلوا على القول بقدم العالم بأن « اللّٰه تعالى قديم لا نهاية له؛ فلا بد أن يكون خلقه مثله في القدم. فما دام اللّٰه موجودًا فهو لا يزال خالقًا؛ لأن لازم قول المتكلمين بالحدوث هو أن اللّٰه تعالى محدود من جهة الخلق، لكن ذاته المقدسة غير محدودة فهو تعالى ذاتًا وفعلًا غير محدود، فلا بد أن يكون العالم غير محدود أولًا وآخرًا » [(٥)].

ويرى الدكتور مطهري أنه « لا فرق في نظر القرآن بين أن يكون العالم محدودًا بزمان، كأن يكون مخلوقًا قبل مليون سنة، وبين أن يكون غير محدود، فإن اللّٰه في نظر القرآن كان خالقًا في المليون عام وقبله وبعده » [(٦)].

ويجدر التنبيه إلى أن إشكالية الحديث عن قدم المخلوقات أو حدوثها وعلاقتها بقدم الصفات الإلهية – فشت في الوسط الإسلامي وتغلغلت حتى استدعت ردّ العلماء عليها؛ فالطحاوي في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجري ردّ على هذه الإشكالية فقال

---

(١) مطهري: التوحيد (ص ١٦٠).

(٢) رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاوس (ت ٦٦٤هـ): إقبال الأعمال (١٦٠/١)، (ط١٤١٤) مكتب الإعلام الإسلامي. وأورده النووي في كتابه (الأذكار) في باب الدعاء والتضرّع والتكبير عند القتال بلفظ: « يا قديم الإحسان يا من إحسانه فوق كلّ إحسان يا مالك الدّنيا والآخرة يا حيّ يا قيّوم يا ذا الجلال والإكرام... » (ص ٢١١)، ط. دار الفكر.

(٣) تفسير الطبري (٤٤١/١٠).

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١٩٨/٤).

(٥) مطهري: التوحيد (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٦) المرجع السابق (ص ١٦١).

عن الرب سبحانه: « له معنى الرب ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم » [١]، وذلك إشارة إلى ثبوت صفاته تعالى في الأزل قبل خلقه [٢]، ومقتضى كلامه اعتقاد حدوث المخلوقات، لا قدمها.

والحقيقة أن دليل حدوث العالم وتناهيه دليل شائك حزن، صعب المنال لبسطاء الناس؛ لأن الاستدلال به ينبني على عدة مقدمات، « وقد كلف هذا الاستدلال أصحابه جهدًا كبيرًا؛ إذ يلزمهم أن يطيلوا البحث في صفات الجوهر، ذلك الجزء الذي لا يتجزأ، أو في إثبات الأعراض وأنها حادثة، وأن العرض لا يقوم بعرض مثله، ولا يقوم بنفسه، وأنه من المستحيل أن تعرى الجواهر عن الأعراض، كل ذلك ليتم لهم إثبات حدوث العالم بكل ما فيه » [٣].

وهكذا صار هذا الدليل مشوشًا أكثر منه مقنعًا، وطمعت البشرية بالسلامة من هذا الدليل؛ حيث سبب تشويشًا وقلقًا بدل أن يورث وضوحًا واطمئنانًا.

وبسبب هذا اللغط بين المتكلمين والفلاسفة حول القول بقدم العالم أو حدوثه جاء من العلماء من أنكر على المتكلمين استدلالهم بحدوث العالم بعدّه دليلًا على وجود الله ﷻ كابن رشد وابن تيمية.

وقد رأوا أنه مستمد من دليل (الجوهر الفرد)، والحقيقة أن القول « بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة قول لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين، لا من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين » [٤]، بل هو مأخوذ من « نظرية إغريقية استخدمها ديمقريطس لإثبات قدم العالم ولإنكار وجود الله » [٥]!

فهل يُقبل من المتكلمين - وهم يحملون لواء الدفاع عن العقائد الإيمانية - أن يعتمدوا في برهنتهم على أعظم حقيقة في الوجود وأوضحها - وهي وجود الله تعالى -

---

(١) الطحاوية مع شرحها (ص ١٤٢)، المكتب الإسلامي (١٣٩١هـ)، بيروت (ط٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

(٣) سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق (ص ١٠٥).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٣٨/٢، ١٣٩).

(٥) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٢). وانظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٧٧/١) مؤسسة قرطبة (١٤٠٦هـ) تحقيق د. محمد رشاد سالم.

على « نظرية يونانية مشكوك فيها، وهي في الوقت ذاته مؤدّية عند أصحابها إلى قدم العالم، لا إلى حدوثه كما أراد المتكلمون »؟! [(١)].

٣ - دليل الحركة:

اعتمده أرسطو في إثبات الواجب، فالعالم يتحرك ولا بد له من محرّك، ثم أخذه ابن رشد عن أرسطو، ولكن لم يقل مثله أن حركة الأفلاك قديمة [(٢)].

واعتمده من الاثني عشرية صدر المتألهين الشيرازي وتابعه الدكتور مطهري والشيخ الخنزي، حين أكّدا على أن في كل « شيء يتصور الإنسان أنه ثابت وقارّ حركة وتغيرًا مستمرًا » [(٣)]. في حين أن « الموجد الأول لا يتغير؛ إذ التغير أكبر دليل على الإمكان، وهو ﷻ واجب الوجود » [(٤)].

وقد ذكر ابن تيمية انتقاد بعض فلاسفة المسلمين لدليل أرسطو هذا قائلًا: « فلما رأى ابن سينا وأمثاله من المتأخرين ما فيها من الضلال؛ عدلوا إلى طريقة الوجود والوجوب والإمكان » [(٥)]، وبيّن مخاطر هذا الدليل بقوله: « ولكن الاستدلال على ذلك بالطريقة الجهمية المعتزلية طريقة الأعراض والحركة والسكون التي مبناها على أن الأجسام محدثة لكونها لا تخلو عن الحوادث، وامتناع حوادث لا أول لها طريقة مبتدعة في الشرع باتفاق أهل العلم بالسنة، وطريقة مخطرة مخوفة في العقل، بل مذمومة عند طوائف كثيرة... والاستدلال بهذه الطريق أوجب نفي صفات الله القائمة به ونفي أفعاله القائمة به، وأوجبت من بدع الجهمية ما هو معروف عند سلف الأمة، وسلطت بذلك الدهرية على القدح فيما جاءت به الرسل عن الله؛ فلا قامت بتقرير الدين، ولا قمعت أعداءه الملحدين » [(٦)].

---

(١) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٢).

(٢) سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق (ص ١٠٧). وانظر: د. محمود قاسم: ابن رشد وفلسفته الدينية (ص ٩٦، ٩٧)، (ط٣) الأنجلو المصرية (١٩٦٩م).

(٣) مطهري: التوحيد (ص ١٦٥).

(٤) أبو الحسن الخنزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٢١)، مؤسسة البلاغ - بيروت (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/٣٤٧، ٣٤٨).

(٦) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/٣٠٣، ٣٠٤).

٤ – دليل العناية أو العلة الغائية:

والحقيقة أن هذا الدليل واضح سهل، و « نجده في الأديان كما نجده في الفلسفة »، وقد استدل به الفلاسفة والمتكلمون، و « ليس مقصورًا على الاثني عشرية وحدهم، وإنما شاركت فيه كل الفرق الإسلامية تقريبًا باعتبار أنه دليل القرآن » (١). كما سنبين.

والملاحظ أن ما فعله الفلاسفة والمتكلمون في استدلالهم على وجود اللّٰه تعالى جاء بتهذيب فلسفة اليونان، وصبغها بالطابع الإسلامي، ولو جئنا إلى فلاسفة اليونان أنفسهم؛ لما وافقوا المسلمين في تصورهم للخالق جل في علاه، ولما وافقوهم حتى في بعض أجزاء الأدلة التي استمدها الفلاسفة والمتكلمون المسلمون منهم. و « لو أمعنا النظر في عصر الصحابة والتابعين؛ لما وجدنا هناك إشارة إلى استعمال هذه الطريقة، وإنما هي مبتدعة في الإسلام بعد المائة الأولى للّهجرة » (٢).

ذلك أن من الناس من لم يقنع بأدلة القرآن وتطلع إلى أقوال الفلاسفة والمتكلمين؛ ولذلك « لم يكد ينقضي الصدر الأول من حياة الصحابة حتى ظهر بين الناس الجدال والمراء وتشويش عقائد المسلمين » (٣)، فأولع بعض الناس بكلام « الفلاسفة بما نقل إليهم من آراء ومفاهيم إنسانية... وغلوا فيها، وربما ذهبوا إلى القول بعصمتها »؛ فالحكمة اليونانية عند « الفارابي سبيل الهدى والرشاد، وعند ابن سينا متلقّاة من أرباب الملة الإلهية، وعند السجستاني مولدة الديانة... وهم يشترطون على الرسول أن يكون عارفًا لغة الفلاسفة واصطلاحاتهم ومرموزاتهم » (٤)، ويقول ابن سينا: « فالمشترط على النبي أن يكون كلامه رمزًا وألفاظه إيماءً » (٥)؛ ذلك لأن « جلة الفلاسفة كانوا يستعملون في كتبهم المراميز والإشارات التي حشوا بها أسرارهم » (٦).

---

(١) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٤).

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٨٨، ١٨٩)، وانظر: مجموعة شذرات البلاتين (ص ٤)، ط. أنصار السنة المحمدية (١٩٥٦م)، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٣) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٧٩). وانظر: مفتاح السعادة لطاش زاده (٣٢/٢).

(٤) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١١٨). كما ذكر هذا إخوان الصفا في رسائلهم (١٢٤/٤) دار صادر – بيروت (١٩٥٧م).

(٥) تسع رسائل لابن سينا (ص ٨٤).

(٦) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١١٩) عن تسع رسائل لابن سينا (ص ٨٩).

والسؤال الذي يُوجَّه إلى الفلاسفة والمتكلمين في أدلتهم الموغلة في الغموض: هل اتفقتم معشر الفلاسفة والمتكلمين على دليل واحد لوجود اللّٰه؟ الجواب النفي؛ لأن مناهج الفلاسفة متعددة المآخذ، ومن هنا اختلفوا في عرض الأدلة، فما رضيه أحدهم رفضه الآخر؛ « إذ ليس للفلاسفة مذهب معين ينصرونه ولا قول يتفقون عليه في الإلهيات والمعاد والنبوات والشرائع » (١). فكل الأدلة التي ساقها الفلاسفة والمتكلمون بعيدًا عن القرآن هي محل أخذ وردّ، وتمحيص ونقد، أما الأدلة القرآنية فقد اتفقت عليها العقول واطمأنت إليها القلوب.

لأجل هذا كانت أدلة الفلاسفة على وجود اللّٰه محل نقد من عدد من العلماء، ومن أشهرهم: أبو الحسن الأشعري في (جواب رسالته لأهل الثغر). وابن رشد الفيلسوف الخبير بمسالك الفلاسفة، وكذلك ابن تيمية صاحب الحجاج الطويل مع الفلاسفة والمتكلمين، وابن الوزير اليمني (٢) وسعيد النورسي في كتابه (التوحيد)، وغيرهم؛ فقد قالوا عن طريقة الفلاسفة: إنها « طريقة معتاضة شائكة، وليس في استطاعة عامة الناس تقبّلها، وقد بيّن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر بأن هذه الطريقة بدعة محرمة في دين الأنبياء » (٣).

وقد بيّن أبو الحسن الأشعري أن السلف الصالح بعد إيقانهم بصدق النبي ﷺ جهدوا في: « التمسّك بالكتاب والسنة، وطلب الحق في سائر ما دعوا إلى معرفته منها، والعدول عن كل ما خالفها ». وأنهم « أعرضوا عما صارت إليه الفلاسفة ومن اتبعهم من القدرية وغيرهم من أهل البدع من الاستدلال بذلك على ما كلفوا معرفته؛ لاستغنائهم بالأدلة الواضحة في ذلك عنه » (٤).

وبيّن أن ترك الفلاسفة للدلالات الواضحة على وجود اللّٰه كدليل حدوث العالم،

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٣٥٧/١، ٣٥٨).

(٢) انظر: سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ضمن الرسائل الجامعية في كلية دار العلوم، بإشراف الأستاذ الدكتور سيد رزق الحجر (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، وكتاب البرهان الساطع طبع المطبعة السلفية مصر (١٣٤٩هـ)، ودار المأمون للتراث - دمشق (ص ٥١ - ٥٣).

(٣) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٨٥ - ١٨٧).

(٤) الأشعري: جواب رسالة إلى أهل الثغر (ص ١٩٠، ١٩١)، مكتبة العلوم والحكم - دمشق الطبعة الأولى (١٩٨٨م) تحقيق: عبد اللّٰه شاكر محمد الجنيدي.

وركونهم إلى الأدلة العويصة كدليل الأعراض والجواهر إنما كان بسبب إنكارهم بعثةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيقول: « وإنما صار من أثبت حدث العالم والمحدث له من الفلاسفة إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر لدفعهم الرسل وإنكارهم لجواز مجيئهم » [(١)].

وقارن سعيد النورسي بين أسلوب القرآن الكريم وجملة أساليب المتكلمين والصوفية في الاستدلال على وجود اللّٰه تعالى، فوصل إلى نتيجة مهمة تقول: « إن المعرفة المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين إذا جاءت على نهج القرآن المعجز؛ فإنها تصبح معرفة تامة، وتكسب الاطمئنان الكامل في القلب... وكما أن معرفة اللّٰه الناشئة عن علم الكلام تبدو ناقصة وقاصرة، وأن المعرفة عن طريق التصوف ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة المستقاة من القرآن الكريم مباشرة من قبل ورثة الأنبياء » [(٢)].

ولكن الإنصاف يقتضي أن يقال: إن بعض أدلة الفلاسفة لو دققنا النظر فيها لوجدناها أدلة بدهية صحيحة، بل تعتمد على الأدلة القرآنية، كالاستدلال بتغير وموت المخلوقات وانعدامها، ناهيك عن حاجتها لموجد أوجدها ثم لمعدم أعدمها؛ فهذا دليل قرآني واضح، ومن بابه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦].

كما رأى بعض العلماء أن في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] إشارة إلى بعض الأدلة الفلسفية، وهي بطلان رجحان الشيء دون مرجح، وبطلان الدور والتسلسل [(٣)] ولكن وضع هذا الدليل في قالب فلسفي معقد، واستخدام مصطلحات غريبة عن الحس الإسلامي (كالعرض والجوهر، والحركة، الإمكان والوجوب، بطلان التسلسل والدور) - يجعل هذه الأدلة بعيدة عن الجو الإسلامي.

فإذا تأملنا في المصطلحات التي استخدمها الفلاسفة والمتكلمون في التدليل على وجود اللّٰه وجدنا أنها ألفاظ غريبة عن البيئة العربية والإسلامية؛ ولذلك كانت هذه الكلمات في لغة الفلاسفة والمتكلمين مصطلحات لا يفقهها إلا من درس الفلسفة والكلام، « كلفظ الجسم والجهة والممكن والواجب والحركة والحيز؛ فهذه كلها ألفاظ

---

(١) جواب رسالة إلى أهل الثغر (ص ١٩٠، ١٩١). (٢) سعيد النورسي: التوحيد (ص ١٢).

(٣) انظر: أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، كلية الشريعة (ص ٣).

استعملها العرب في معنى غير المعنى الذي استعملها فيه المتكلمون والفلاسفة » [١]. وقد رأينا - المتكلمين سنة وشيعة - يستخدمون مصطلحات الفلسفة مكان المصطلحات الشرعية، مثل (أنه تعالى علة للموجودات) [٢]، ولم يقولوا: (خالق المخلوقات)، فرأوا أن « مفهوم الخالق الذي يتوصل إليه من خلال هذه العلاقة الوجودية مساوٍ للعلة الموجدة » [٣]، وعبروا عن مفهوم (الخلق، والخالق، والمخلوق) الذي ورد في كتاب اللّه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢] بلفظ (الحدوث، والمحدث، والحادث)، فعندما قرؤوا قوله تعالى: ﴿.. لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] قالوا: هذه الآية تثبت صفة (مخالفته تعالى للحوادث)، ولو قالوا: (مخالفته للمخلوقات) لوافقوا القرآن الكريم.

ونحن نعذر هؤلاء الفلاسفة في استخدامهم هذه المصطلحات في جوٍّ عاشوه، فاضطروا لاستخدام هذه المصطلحات في الرد على مخالفي التوحيد، وفي الحجاج والدفاع عن العقيدة، ولكن لا عذر لنا - وقد اختلف الزمان وتغيرت الأجواء والظروف - في أن نكبّ على مصطلحاتهم، ونعرض عن مصطلحات القرآن.

ولذلك ظهر من علماء الشيعة الاثني عشرية - كما ظهر من قبل من علماء أهل السنة - من انتقد أدلة الفلاسفة والمتكلمين، ورجّح أدلة القرآن الكريم؛ فهذا عبد اللّه شبر (ت ١٢٤٢هـ): يعرض عن أدلة المتكلمين والفلاسفة، ويسرد أدلة وجود اللّه تعالى من خلال القرآن الكريم وأقوال النبي ﷺ وأئمة الاثني عشرية، ثم يقول: « لا يجب على عامة الناس معرفة أصول الدين بالدلائل التفصيلية وترتيب الأشكال المنطقية، وإنما يجب كفايةً لدفع شبه الكفار والمعاندين...ولذا ورد (عليكم بإيمان العجائز) وبدين الأعرابي حيث قال: (البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة - كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟!) [٤].. ولذا ترى أن من اكتفوا بالدلائل الإجمالية ولم يعرفوا

---

(١) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (١٨٨، ١٨٩) وانظر: مجموعة شذرات البلانين (ص ٤).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٨٥).

(٣) المرجع السابق (ص ٩٩).

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٥٤/٣)، عبد اللّه شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٧٢/٢). وقد روت كتب أهل السنة هذا المعنى عن أحد الأعراب، انظر: ابن الجوزي (٥٩٧هـ): زاد =

التسلسل ولا اصطلاحات المتكلمين والمنطقيين أكمل إيمانًا وأثبت جنانًا وأشد اعتقادًا ممن يخوضون في ذلك » [(١)].

أدلة وجود اللّٰه تعالى في القرآن الكريم وروايات أهل البيت:

يرى الكاتب مرتضى المطهري أن « الطرق التي يمكن إثبات الوجود فيها للّٰه تعالى ثلاثة:.. **الأول**: منها الطريق الفطري أو النفسي القلبي، **والثاني**: الطرق الحسية أو العلمية وشبه الفلسفية، **والثالث**: الطرق الفلسفية » [(٢)]. ويبين أن « خصوصية القرآن التي يمتاز بها هو كونه كتابًا سماويًّا جامعًا؛ فهو في هذا المجال لم يسلك طريقًا واحدًا، بل سلك طرقًا متعددة؛ أحدها هو هذا الطريق الذي سلكه العرفاء في كتبهم » [(٣)].

« إن القرآن الكريم في الوقت الذي يتكلم فيه بلغة العرفاء من الطراز الأول فيقول: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ.. ﴾ [الحديد: ٣]، ويقول: ﴿ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ ﴾ [البقرة: ١١٥]، ويقول: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [الشورى: ١١] و ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ فتراه يتكلم بلغة العوام التي يفهمها الراعي وأمثاله، فيدل العباد على معرفة اللّٰه بكلام سلس وأمّي فيقول: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧]؛ وبذلك وأمثاله يظهر شأن القرآن وعلو منزلته » [(٤)].

وقد كثر الاستدلال على وجود اللّٰه تعالى اعتمادًا على المسلك القرآني عند متأخري الشيعة [(٥)].

وهو يرتكز على النظر والتفكر في عالم الآفاق والأنفس؛ فقد جاءت آيات القرآن الكريم لتدل الناس على اللّٰه تعالى بتحفيز فطرتهم وعقولهم للوصول إلى الإيمان باللّٰه تعالى، وأنه وحده الخالق الرازق، المستحق للعبادة والطاعة.

= المسير (١/٣٦٢)، العضد الإيجي (٧٥٦هـ): المواقف في علم الكلام (١/١٥١)، دار الجيل - بيروت (ط١)، (١٩٩٧م)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.

(١) عبد اللّٰه شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٧٢).

(٢) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ٦١)، ترجمة إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، ودار الرسول الأكرم (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).

(٣) المرجع السابق (ص ٥٣، ٥٤).

(٤) المرجع السابق (ص ٥٧).

(٥) انظر: آية اللّٰه السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٣٩ - ٤١).

دليل الفطرة:

لقد خاطب القرآن الكريم الفطرة والعاطفة البشرية، وبيّن أن نفوس البشر مجبولة على الإيمان بالخالق الذي أقرّت له بالوحدانية من عالم الذر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال: ﴿ .. فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

سأل زرارةُ أبا جعفر الباقر عن قول اللّه ﷻ: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾ [الحج: ٣١]؟ فقال: « الحنيفية من الفطرة التي فطر اللّه الناس عليها، لا تبديل لخلق اللّه، قال: فطرهم على المعرفة به » قال زرارة: وسألته عن قول اللّه ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: « أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم وأراهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه » [١]. « فالآية تريد بيان أنه تعالى سأل بلسان التكوين من بني آدم قبل أن يكونوا نطفًا وقبل أن يستقروا في الأرحام: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾؟ [الأعراف: ١٧٢]، وكان ذلك في مرحلة الاستعداد والقوة وفي مرحلة ما قبل أن يكونوا نطفًا في الأرحام، فأجاب الجميع بذلك اللسان: ﴿ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] » [٢].

أما تفسير الأئمة لقول النبي ﷺ: « **كل مولود يولد على الفطرة** » فإنه « يعني المعرفة بأن اللّه ﷻ خالقه، كذلك قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ.. ﴾ [لقمان: ٢٥] » [٣].

ومن الآيات الموقظة للفطرة البشرية السليمة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ

---

(١) أصول الكافي (١٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث حسن.

(٢) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ٥٥).

(٣) أصول الكافي (١٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث حسن. وقد روت هذا الحديث كتب حديث أهل السنة؛ فقد أخرج البخاري في كتاب التفسير، باب سورة الروم رقم (٤٤٩٧) قال ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه ».

لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

ودليل الفطرة يتميز بأنه مجمع عليه ولا خلاف في صحته، فينتصر له القرآن والسنة والعلماء جميعًا سنة وشيعة، ويعتمد عليه الصوفية؛ لارتباطه بالاطمئنان القلبي [(١)]. كما يذكره الشيعة في رواياتهم عن أئمة أهل البيت. ويراه ابن الوزير الزيدي اليمني أقوى دليل؛ ولذلك كان تعجّب الرسل من كفر أقوامهم؛ لأن هذا الكفر معاند للفطرة السليمة التي غرسها اللّٰه تعالى في القلوب، قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ [إبراهيم: ١٠] [(٢)].

ولذلك استخدمه الإمام الصادق عندما سأله سائل عن دليل وجود اللّٰه تعالى: فقال له: « يا عبد اللّٰه! هل ركبت السفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل تعلّق قلبك هنالك أن شيئًا من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق: فذلك الشيء هو القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث » [(٣)].

وهكذا أظهر الإمام بواعث الفطرة السليمة في قلب السائل، تلك الفطرة التي تجعله يلجأ في الملمات إلى ربه ﷻ، وهذا دليل أكثر القرآن من التنبيه إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ومن خصائص هذا الدليل سهولته ويسره، فهو كما يقول محمد تقي مصباح اليزدي -

---

(١) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٣٤ - ٣٦).

(٢) سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (١١٢)، ترجيح أساليب القرآن (ص ٤٥).

(٣) الصدوق: كتاب التوحيد (ص ٢٣١)، جماعة المدرسين، قم، بحار الأنوار (٤١/٣)، نعمة اللّٰه الجزائري: نور البراهين (٦/٢).

الاثنا عشري المعاصر -: « لا يحتاج إلى مقدمات صعبة معقدة وفنية، ويمكن عرضه بأسلوب ميسّر واضح في هذا المجال، ومن هنا يمكن لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية فهمه واستيعابه... إن مهمة هذا الطريق ودوره - قبل كل شيء - هو إيقاظ الفطرة، والأخذ بيد المعرفة الفطرية إلى عالم الوعي والشعور.... ومن أجل هذه الخصائص والميزات اختار قادة الدين وروّاد الأديان السماوية هذا الدليل لعرضه على الناس، ودعوا الجميع إلى السعي في هذا السبيل، وخصوا بعض أتباعهم الخواص بأدلة أخرى أو استخدموها في احتجاجاتهم وحوارهم مع العلماء الملحدين أو الفلاسفة الماديين » [١].

إن هذا الدليل إذا ترسّخ في النفس المؤمنة؛ ارتقت في معارج المعرفة واليقين، حتى صارت تعرف بارئها ببارئها، فلا تحتاج إلى أي دليل خارجي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « اعرفوا الله بالله، والرّسول بالرّسالة » [٢].

وعن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إنّي ناظرت قومًا فقلت لهم: إنّ الله جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يعرف بخلقه، بل العباد يعرفون بالله. فقال: رحمك الله » [٣]. وعن إبراهيم بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إنّ أمر الله كلّه عجيبٌ، إلا أنّه قد احتجّ عليكم بما قد عرّفكم من نفسه » [٤].

دليل الخلق أو الاختراع أو السببية:

كما حفّز القرآن الكريم العقول إلى الوصول إلى معرفة الخالق، عبر دلالة الخلق على وجود الخالق، وهو المسمى بدليل (الخلق أو الاختراع أو السببية)، فقد نادى العقول بسؤالها: من الذي خلق الإنسان، هل خلق نفسه بنفسه، أم خلق من غير خالق؟ وكلاهما محال في العقول البشرية بداهةً، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]. وقد ذكرنا أن من العلماء من يرى أن هذه الآية فيها إشارة إلى بعض الأدلة الفلسفية، وهي بطلان رجحان الشيء دون

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٦٤، ٦٥).

(٢) أصول الكافي (١/١٤٠)، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به.

(٣) أصول الكافي (١/١٤٠، ١٤١)، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به. وانظر رواية أخرى: أصول الكافي (١/١٨٣)، كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة (١/٢٢٢).

(٤) أصول الكافي (١/١٤١)، كتاب التوحيد، باب أدنى المعرفة.

مرجح، وبطلان الدور والتسلسل [١]. ولكن القرآن الكريم عرض هذه الأدلة في بساطتها وسهولتها دون أن يستخدم مصطلحات فلسفية، ثم إنه تحدث عنها مشيرًا إلى المحسوسات (خلق الإنسان، خلق السماوات)، لا إلى المجردات الذهنية كدأب الفلاسفة.

فالقرآن الكريم أمر البشر بالنظر في الآفاق والأنفس، وتأمّل ما « يتجدد في العالم في طلوع القمرين والكواكب وغروبها عند دوران الأفلاك الدائرات، والسفن الجاريات، والرياح الذاريات، والنجوم الثوابت منها... كما يدل على ذلك حركة القمرين الدائمة وسائر النجوم والأفلاك، وكذلك تغير أحوال الهواء بالغيوم والصواعق والبروق العجيبة المتتابعة المختلطة بالغيوم الثقال الحاملة للماء الكثير المطفئ بطبعه للنار المضادة له، وما في الجمع بينها وإنشائها وإنزال الأمطار منها بالحكمة البالغة » [٢]. فإن هذا التأمل يوصل البشر إلى الإيمان، ولا يكلفهم عناء البحث في المجردات الذهنية.

قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وهذا الدليل (دليل الخلق أو الاختراع، أو السببية) استخدمته كل الطوائف [٣]. وهو في الأصل دليل قرآني نيّر واضح. قال ابن الوزير اليمني - الزيدي -: « فإنا نعلم بالضرورة وجودنا أحياء قادرين عالمين ناطقين، بعد أن لم نكن شيئًا، وأن أول وجودنا كان نطفة قذرة مستوية الأجزاء الطبعية غاية الاستواء، بحيث يمتنع في عقل كل عاقل أن يكون منها بغير صانع حكيم ما يختلف أجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا » [٤].

وجاء في حوار عبد الكريم الملحد لجعفر الصادق: « قال الرّجل: فما الدّليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّي لمّا نظرت إلى جسدي ولم يمكنّي فيه زيادةٌ ولا نقصانٌ في العرض والطّول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه؛ علمت أنّ لهذا البنيان بانيًا فأقررت به

---

(١) أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، ط. كلية الشريعة، وانظر: كبرى اليقينيات الكونية.

(٢) ابن الوزير: إيثار الحق (ص ٤٩ - ٥١)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٧م) وانظر: ترجيح أساليب القرآن (ص ١١٠).

(٣) انظر: ابن تيمية: بيان تلبيس (١/١٧٤)، ومناهج الأدلة (١٥٣، ١٥٤).

(٤) ابن الوزير اليماني: إيثار الحق على الخلق (ص ٤٦).

مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السّحاب وتصريف الرّياح ومجرى الشّمس والقمر والنّجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المبيّنات علمت أنّ لهذا مقدّرًا ومنشئًا » [(١)].

فدليل خلق الخلق دليلٌ قرآني واضح غير معقد، أكثر الأئمة من الاعتماد عليه في نقاشهم للملاحدة والزنادقة، فقد « قال هشامٌ: فكان من سؤال الزّنديق أن قال: فما الدّليل عليه؟ فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: وجود الأفاعيل دلّت على أنّ صانعًا صنعها، ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناءٍ مشيّدٍ مبنيٍّ علمت أنّ له بانيًا، وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده » [(٢)].

دليل الإتقان والعناية:

ومن وسائل القرآن في الاستدلال على وجود اللّه تعالى لفت النظر إلى حقيقة (الإتقان والعناية) في الكون؛ حيث أكد أن وجود الصنعة الرائعة دليل على وجود الصانع فقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤].

وقد استخدم هذا الدليل القرآني الفلاسفة - كالفارابي [(٣)] - والمتكلمون، كما ذكر هذا الدليل المفسر الشيعي (صدر المتألهين الشيرازي) [(٤)].. وتنبه لهذا الدليل الإمام جعفر الصادق عندما ناقش الديصاني الملحد، فقال أبو عبد اللّه عليه السلام: « ناولني يا غلام! البيضة. فناوله إيّاها، فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام: يا ديصانيّ! هذا حصنٌ مكنونٌ له جلدٌ غليظٌ، وتحت الجلد الغليظ جلدٌ رقيقٌ، وتحت الجلد الرّقيق ذهبةٌ مائعةٌ وفضّةٌ ذائبةٌ، فلا الذّهبة المائعة تختلط بالفضّة الذّائبة، ولا الفضّة الذّائبة تختلط بالذّهبة المائعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارجٌ مصلحٌ فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسدٌ فيخبر عن فسادها، لا يدرى للذّكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطّواويس، أترى لها مدبّرًا؟ قال: فأطرق مليًا ثمّ قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله، وأنّك إمامٌ وحجّةٌ من اللّه على خلقه، وأنا تائبٌ ممّا كنت فيه » [(٥)].

---

(١) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) أصول الكافي (١/١٣٦)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٣) انظر: د. بكار حاج جاسم: الأثر الفلسفي في التفسير (ص ١٠٥)، رسالة دكتوراه دار العلوم، وانظر الثمرة المرضية (كتاب الجمع بين آراء الحكيمين) (ص ٢٩).

(٤) صدر المتألهين الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ): تفسير القرآن الكريم (٥/٨٣)، (٧/٣٣٥).

(٥) الكليني: أصول الكافي: كتاب التوحيد، باب حدوث العالم، وإثبات المحدث، وانظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

« إن النظم الدقيق في الكون أمرٌ متفق عليه بين الناس مؤمنهم وكافرهم، ولكن الفرق بين الملحد والموحّد هو أن الملحد يتحدث عن النظم في الكون، والموحّد يتحدث عن الناظم له.. الأول ينسب الأفعال إلى الفاعل بصيغة المجهول، والثاني ينسبها إلى الفاعل بصيغة المعلوم فيقول: اللّٰه فعل ذلك » [١].

دليل الهداية:

كما ورد في القرآن الاستدلال على الخالق بهداية المخلوقات إلى ما يصلحها (دليل الهداية)، فإن في هداية المخلوقات وإرشادها إلى ما يصلحها أكبر دليل على وجود الخالق، وقد استخدمه موسى عليه السلام في دعوته لفرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. والصدوق من أقدم من ذكره من علماء الاثني عشرية، كما ورد في كتابه التوحيد [٢]، وقد أشاد به ابن رشد في (مناهج الأدلة) [٣].

لقد « سئل الصادق عليه السلام عن قول اللّٰه عز وجل: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] قال: ليس شيء من خلق اللّٰه إلا وهو يعرف من شكله الذكر من الأنثى. قيل: ما يعني: ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، قال: ثم هداه للنكاح والسفاح من شكله » [٤].

والحقيقة أن ما ذكر عن الصادق في هذا التفسير إنما هو من باب التمثيل لا الحصر؛ فالهداية للكائنات بتسييرها إلى ما فيه صلاحها، ماديًّا ومعنويًّا.

وعلى سبيل المثال: فقد امتن اللّٰه تعالى على البشر بهداية الأخلاق فقال تعالى: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ [البلد: ١٠]، يقول مطهري: « هناك أنواع عديدة من الهداية والإلهام في الإنسان أحدها الهداية في الأخلاق.... فالإنسان بفطرته يعرف أن جزاء الإحسان هو الإحسان... قال تعالى: ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] » [٥].

فمن الذي علّم النحل بناء الخلايا بهذا الشكل الهندسي البديع؟ ومن الذي هدى الرضيع إلى ثدي أمه بمجرد ولادته؟ تقول إحدى الروايات: « ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناءٍ مشيّدٍ مبنيٍّ علمت أنّ له بانيًا وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده » [٦].

---

(١) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ٧٣، ٧٤). (٢) التوحيد (ص ٢٢٧).

(٣) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٩، ٣٠).

(٤) الحر العاملي: الفصول المهمة (٢/٣٣٩) مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا قم (١٤١٨هـ).

(٥) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ١٣٦، ١٣٧).

(٦) أصول الكافي (١/١٣٦)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

ولعل من الجدير بالتذكير أن ابن رشد الذي انتقد أدلة إخوانه من الفلاسفة قد ارتضى من الأدلة الدالة على اللّٰه تعالى طريقين: « **أحدهما**: طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسمّ هذا: (دليل العناية)، **والثاني**: ما يظهر من اختراع الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقلية، ولنسمّ هذا: (دليل الاختراع) » [1]. وهما دليلان قرآنيان كما رأينا.

ويشير مرتضى مطهري إلى هذا الدليل - ملازمًا لدليل الخلق - في قول اللّٰه تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] وقوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] يجمع بين (دليل الخلق) و (دليل الهداية) [2].

وما دمنا نتحدث عن دليل هداية اللّٰه للخلق ليعرفوه؛ يتبادر للذهن إشكال حول عوام البشر أصحاب القدرات العقلية والمعرفية المحدودة، كيف يذمهم القرآن الكريم وهم تابعون في أفكارهم لغيرهم من المراجع الدينية والفكرية؟! قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨]، ويجيب على هذا الإشكال مفهوم الهداية في الأخلاق؛ فقد ركز اللّٰه تعالى في نفوس العامة والخاصة أن من يكذب على الناس لن يصدق على اللّٰه تعالى، ومن كان خائنًا في أموال الناس يأكلها بالباطل فلن يكون أمينًا على رسالة السماء.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤]. في حين جاء وصف النبي ﷺ بالصادق الأمين قبل البعثة وبعدها.

« قال رجل للصادق عليه السلام: فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره؛ فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟... قال عليه السلام: إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصريح، وبأكل الحرام والرّشاء، وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من

---

(١) ابن رشد: مناهج الأدلة (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ١١٠، ١١١).

تعصبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم يقارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدق على اللَّه ولا على الوسائط بين الخلق وبين اللَّه؛ فلذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره، ولا تصديقه في حكاياته، ولا العمل بما يؤديه إليهم عمن لم يشاهدوه، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول اللَّه ﷺ؛ إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى، وأشهر من أن لا تظهر لهم » [١].

كما أن من أدلة وجود اللَّه تعالى دليل التأليف بين المفترق والتفريق بين المتآلف:

« وقد سبق المعتزلة إلى هذا الدليل أثناء مناقشتهم الثنوية المؤمنين بإلهي النور والظلمة، وأصله دليل قرآني، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥] » [٢].

دلالة المعجزات:

كما أوضح القرآن الكريم دلالة المعجزات على اللَّه تعالى، وقد جاءت للتأكيد على صدق دعوى الأنبياء عليهم السلام الذين تحدّاهم الجاحدون وطالبوهم بالدليل على صدق النبوة، قائلين للرسول: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فيأتي التغيير في عوائد الكون، وخرق ناموسه، ليشدّ العقول ويدعوها للتفكر في سبب هذا التغيير الذي لا قدرة للبشر عليه؛ كتحول العصا الجامدة إلى ثعبان مبين، فهناك يخضع أصحاب العقول الحرة إلى الحق المبين؛ كسحرة فرعون الذين رأوا معجزة موسى عليه السلام: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠، ١٢١].

وقد استدل بمعجزات الأنبياء معظم علماء الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربهم؛ كالبيهقي وابن تيمية وابن القيم، وتوسع بها ابن الوزير اليمني، وأكثر من ذكرها الاثنا عشرية في كتبهم، بل إن المعتزلة - وقد اشتهروا بالحجج العقلية - استخدموها كغيرهم من طوائف المسلمين [٣].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « **ما من نبي من الأنبياء**

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢/٨٧)، باب النهي عن كتمان العلم.

(٢) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٣١).

(٣) انظر: مثلًا كتاب (دلائل تثبيت النبوة) للقاضي عبد الجبار المعتزلي.

إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر » [١].

دليل عجز المخلوقات:

ومن الأدلة على وجود الله تعالى دليل العجز البشري عن إدارة النفس والكون؛ فقد يعزم المرء على أمر يخطط له فيصرفه عنه صارف، فمن الذي حال بين المرء وما يشتهي؟ إنه الرب الذي يجري الأقدار كيف يشاء على مقتضى حكمته ﷻ، فقد سئل أمير المؤمنين: « بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم، ونقض العقود » [٢]. وفي بعض الروايات: « لما هممت فحيل بيني وبين همّي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي، علمت أن المدبر غيري » [٣].

دليل التغيّر والزوال في الكون:

لقد استدل إبراهيم عليه السلام بتغير حالة الكواكب وتأثرها بما حولها على ضعفها وخلقها من العدم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦].

وقد جاء في جدال الملحد ويسمى عبد الكريم الديصاني لجعفر الصادق رحمه الله: « فقال: ما الدّليل على حدث الأجسام؟ فقال: إنّي ما وجدت شيئًا صغيرًا ولا كبيرًا إلا وإذا ضمّ إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوالٌ وانتقالٌ عن الحالة الأولى، ولو كان قديمًا ما زال ولا حال؛ لأنّ الّذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخولٌ في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في العدم. ولن تجتمع صفة الأزل والعدم والحدوث والقدم في شيءٍ واحدٍ » [٤].

وهذه الرواية تستخدم دليل التغير في الكون، ولكنها تدل من حيث الصياغة على التأثر بأدلة الفلاسفة؛ إذ نلاحظ أن قول الإمام مركب من دليل الحركة والحدوث الذي ساقه الفلاسفة والمتكلمون، وأطلنا الحديث عنه.

---

(١) صحيح البخاري، باب كيف نزول الوحي رقم (٦٨٤٦)، مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ رقم (١٥٢).

(٢) نهج البلاغة (٤/٥٤) العقود: أي عقد القلب: وهو النية.

(٣) أبو علي الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨هـ): روضة الواعظين (ص ٣٠)، منشورات الشريف الرضي - قم، عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤).

(٤) أصول الكافي (١/١٣٣)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

وبهذا نستنتج أن الأدلة التي ساقتها روايات الشيعة عن الأئمة - رحمهم اللَّه تعالى - جاءت بنت العصر الذي كانوا فيه، وخصوصًا عصر الإمام جعفر الصادق؛ فجاء بعضها على النسق القرآني والهدي النبوي السهل الواضح في الدلالة على اللَّه ﷻ. كما جاء بعضها الآخر على نسق الفلاسفة وأهل صنعة الكلام كدليل الحدوث والتغيّر في الكون.

دور علماء المسلمين (سنّة وشيعة) في محاربة الإلحاد:

لقد كان لعلماء المسلمين من كل الطوائف دور كبير في محاربة الإلحاد، ومناقشة فلسفاته، وبيان العوامل الموصلة إليه، واشترك في هذا علماء السنة والشيعة على السواء [(١)]، وخصوصًا في النصف الثاني من القرن العشرين؛ حيث طغت الفلسفة المادية الجدلية (الديالكتيكية)، وانتشر الإلحاد. وقد ردّ هؤلاء العلماء على شبه الملاحدة.

وأجاب هؤلاء العلماء عن سؤال مهم: ما دام الإيمان بالخالق فطريًّا؛ فلماذا هذا الانتكاس في فطرة بعض البشر حتى وصلوا إلى إنكار الخالق العظيم، وحاربوا شرعه وألحدوا في أسمائه وصفاته؟ وبمعنى آخر: « أي الدوافع التي يمكن أن تدفع الفرد إلى اللادينية والإلحاد؟ ».

يشير بعض الكتّاب سنة وشيعة إلى عدة عوامل « تساهم جميعًا في تكوين حالة من التردد والشك أو الجحود والإلحاد » [(٢)]. **وأهم هذه العوامل:**

١ - العوامل النفسية:

وتتلخص في « الرغبة في الراحة والاسترخاء والكسل والميل إلى العبث والتحلل وعدم الشعور بالمسؤولية؛... لأن تقبّل النظرة الإلهية والإيمان بالخالق الحكيم يعتبر منطلقًا لمجموعة من المعتقدات الأخرى تفرض على الإنسان الشعور بالمسؤولية في جميع ممارساته وأفعاله الاختيارية، وهذه المسؤولية تفرض على الإنسان في كثير من المواقف والمجالات التنكّر لرغباته، والالتزام ببعض الضوابط، ولا يتلاءم الالتزام بهذه الضوابط مع الرغبة بالتحلل؛ ومن هنا تكون هذه الرغبة الحيوانية - وإن كانت بصورة لا شعورية - سببًا في

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٣١ - ١٤١) وعلى سبيل المثال لليزدي: (الرؤية الكونية المادية عرض ونقد) و (المادية الديالكتيكية عرض ونقد). كما كان لعلماء السنة دورهم الكبير في هذا وعلى سبيل المثال: بعض كتابات الأستاذ الدكتور محمود قاسم والدكتور محمد البهي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (نقض أوهام المادية الجدلية) والأستاذ عبد الرحمن حبنكة (صراع مع الملاحدة حتى العظم)، وغيرهم من علماء المسلمين.

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٧).

ضمور الجذر والأساس لهذه المسؤوليات والضوابط وإنكار وجود اللَّه تعالى » [(١)].

يقول الأستاذ عبد الرحمن حبنكة - من علماء أهل السنة - مشيرًا إلى هذه العوامل النفسية ودورها في إلحاد الملحدين: « ثم لا نجد الإلحاد إلا عند مغفلين مضللين، أو مقلدين متعصبين، أو مجرمين شهوانيين، أو مستكبرين مغرورين بالنزر اليسير الذي تعلموه من ظواهر الكون... وذلك أنه قد تطغى على الإنسان ملاذه وأنانيته، فيحاول أن يتهرب من بعض الحقائق التي يشعر بها في قرارة نفسه إرضاءً لغرائزه وشهواته، التي أخذت صبغة الانحراف والشذوذ، أو إرضاءً لأنانيته في كبره واستعلائه وحبه للسيطرة والإجرام... ويصح لنا إذا أمعنا النظر أن نقول: إن الإلحاد باللَّه وإنكار وجوده - بعد وضوح الدلائل من خلال تأمل الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله - ليس إلا تهربًا من الفضيلة والحق والخير والجمال؛ لتبرير أعمال الرذيلة والظلم والقبح، وقلب الحقائق وإرضاء للنزوات والغرائز والشهوات الجانحة الجامحة... ما يضر الملحد لو عقل وأنصف - على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق؛ بحد زعمه الفاسد - أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها، لا في الظن ولا في الوهم، فضلًا عن اليقين، وهذه القوة إذا تم الإيمان بها تجعل منه ومن الناس جميعًا سعداء فضلاء يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم والطمأنينة النفسية والمحبة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة، وأنانيته الظالمة المستكبرة » [(٢)].

٢ - العوامل الاجتماعية:

فالبيئة التي يعيش بها الإنسان لها دور كبير في نشأة أفكاره؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** ». ثم تلا أبو هريرة ﷺ قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] [(٣)].

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٥، ١١٦).

(٢) الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، تحت عنوان: الإلحاد والملحدون (ص ١٠٧، ١٠٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الروم، ورواه غيره من محدثي أهل السنة، وأورده الشيعة في مصنفاتهم كالحلي في منتهى المطلب (٩٣٢/٢)، طبعة تبريز (١٣٣٣هـ). والشهيد الثاني (زين الدين العاملي ٩٦٥هـ): الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول (محمد بن جمال الدين العاملي=

كما أن بعض الأحداث الاجتماعية تسبب بعض ردّات الأفعال لدى الأفراد تجاه التدين، وعلى سبيل المثال: « فإن مواقف الكنيسة السيئة في مختلف المجالات الدينية والقانونية والسياسية كانت من أهم العوامل في نفور الناس وابتعادهم عن المسيحية، بل عن الدين بصورة عامة » [١]، وقد جاء بعد ذلك من يستورد هذه النظرة للدين إلى بلاد المسلمين على الرغم من أن المسلمين لم يعانوا من ظروف نصارى أوروبا.

ولذلك أكد علماء التوحيد قديمًا وحديثًا على منع التقليد، وعدم جواز اتخاذه دليلًا للوصول إلى المعرفة؛ فقد « تسلك المعتقدات إلى قلوب الناس طريق الشكوك، أو الأوهام والخيالات أو التقاليد العمياء،... وهذا لا يكون بحال مسلكًا صحيحًا ترتضيه العقول السليمة، بل هو زائف باطل، أو تحت تأثير تقليد محض من التقاليد غير المبصرة، كقولهم كما حكى اللّه عنهم في سورة الزخرف: ﴿ .. وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ولذلك نعى اللّه على المقلدين وذمّ طريقتهم بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] » [٢].

٣ - العوامل الفكرية:

تنشأ هذه العوامل عن « الشبهات التي تنشأ من الفرضيات العلمية؛ حيث يفهم البعض منها معارضتها للمعتقدات الدينية، والشبهات المتعلقة ببعض الأحكام والتعاليم الدينية » [٣]. ويأتي دور العلماء والمفكرين ليردّوا على هذه الشبهات، ويخلصوا أصحابها منها، ويرشدوهم إلى الصواب الذي جاء به الكتاب والسنة.

وقد كان الأئمة وخصوصًا الإمامان محمد الباقر وجعفر الصادق يثبتان عقيدة التوحيد في قلوب الناس؛ فهذا هو الإمام الباقر يجيب أحدهم عن سؤال حيّره: لماذا احتجب الرب ذو الجلال عن خلقه؟

= ت ٧٨٦هـ) (٧٩٧/١) طبعة قم (١٤١٠هـ)، وأخرج أوّله الكليني: أصول الكافي (١٥/٢)، كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث حسن.

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٦).

(٢) الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٤٨).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٧).

فيقول: « ويلك! وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك؛ نشوءك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوّتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوّتك، وسقمك بعد صحّتك، وصحّتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبّك بعد بغضك، وبغضك بعد حبّك، وعزمك بعد أناتك، وأناتك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاءك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك ».

فقد بيّن الإمام للسائل أن أفعال اللّٰه تعالى مع الإنسان في كل حين، ويستدل بها عليه ذوو البصائر. حتى وصل اليقين بالسائل إلى أن يقول: « وما زال يعدّد عليّ قدرته الّتي هي في نفسي الّتي لا أدفعها حتّى ظننت أنّه (سبحانه) سيظهر فيما بيني وبينه عنه » [(١)].

كما تذكر لنا روايات الشيعة مناقشة وإفحام الأئمة للملحدين المنكرين لوجود اللّٰه تعالى، وعلى سبيل المثال: جاء في أصول الكافي قول أحد الأئمة لأحد الملاحدة: « أتعلم أن للأرض تحتًا وفوقًا؟ قال: نعم،... قال: أنت جاحد بما فيهن، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! » [(٢)]. فالإمام من خلال هذه المناقشة أراد أن يقنع هذا الملحد بأن المرء قد يعتقد بوجود أشياء وإن كان لا يعرف جزئياتها ولا يراها؛ فكذلك يوقن بربه وإن كان لا يراه، ولا يعرفه حق المعرفة. « فعدم إدراك شيء بواسطة الحواس ليس دليلًا على عدم وجوده، بل لا ينبغي أن يكون سببًا في الاستبعاد والاستغراب أيضًا...، كما قالوا: عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود » [(٣)].

وعندما يئس جعفر الصادق من هداية أحد الملاحدة، بعد طول مناظرة ومجادلة قال له: « إن يكن الأمر كما تقول وليس كما نقول؛ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول؛ نجونا وهلكت، فأقبل عبد الكريم على من معه فقال: وجدت في قلبي حزازةً، فردّوني فردّوه فمات لا رحمه اللّٰه » [(٤)].

---

(١) أصول الكافي (١٣٢/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) أصول الكافي: كتاب التوحيد، باب حدوث العالم، وانظر: آية اللّٰه السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٧٨).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٢٢ - ١٢٩).

(٤) أصول الكافي (١٣٢/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

وقد استخدم من بعده الإمام أبو الحسن (علي الرضا) هذا الأسلوب في مناظرة من يئس إيمانه؛ فقد « دخل رجلٌ من الزّنادقة على أبي الحسن ﷺ وعنده جماعةٌ فقال أبو الحسن ﷺ: أيّها الرّجل أرأيت! إن كان القول قولكم وليس هو كما تقولون؛ ألسنا وإيّاكم شرعًا سواءً، لا يضرّنا ما صلّينا وصمنا وزكّينا وأقررنا، فسكت الرّجل ثمّ قال أبو الحسن ﷺ: وإن كان القول قولنا - وهو قولنا - ألستم قد هلكتم ونجونا؟! » (١).

والحقيقة أن هذا الحجاج لإفحام الملحدين في النهاية، جاء تلميحًا في كتاب اللّه في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الملك: ٢٨، ٢٩].

وقد استخدمه بأسلوب آخر المعري الذي قال:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فليس بضائري أو صح قولي فالوبال عليكما (٢)

وقد بيّن قديمًا ابن الوزير - الزيدي المذهب - تخبّط الملحدين في كفرهم بلا برهان، فقال: « فمن لم يثبت الرب قديمًا أثبت العالم قديمًا، ومن لم يثبت أسماءه الحسنى بلا سبب أثبت الإحكام العجيب للعالم بلا سبب، ومن لم يقبل الإيمان بالبرهان قبل الكفر بلا قرآن ولا برهان » (٣). وقال: « ظهر لك أن إثبات الرب والإيمان به هو الحق والأحوط، كما تبين قبل ذلك أن إثبات العلوم هو الحق، بحيث لا يخاف في هذين الاعتقادين مَضرة ألبتة، والخوف العظيم والمضار العظيمة في عدمهما » (٤).

ويقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة: « هل يستطيع أذكى وأعلم ملحد في الدنيا أن يأتينا بدليل واحد مقنع يدل على عدم وجود الخالق سبحانه؟ إن الملحدين مهما اجتمعوا لذلك فلن يستطيعوا. ما يضر الملحد لو عقل وأنصف - على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق، بحد زعمه الفاسد - أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها، لا في الظن ولا في الوهم، فضلًا عن اليقين، وهذه القوة إذا تم الإيمان بها

---

(١) أصول الكافي (١٣٢/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) ابن الوزير: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص ٦٤)، دار الكتب العلمية - بيروت (ط٢)، (١٩٧٨م).

(٣) المصدر السابق (ص ٦١).

(٤) ابن الوزير: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص ٦٤).

تجعل منه ومن الناس جميعًا سعداء فضلاء يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم والطمأنينة النفسية والمحبة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة، وأنانيته الظالمة المستكبرة. أليس يقوم في ظن الملحدين احتمال صدق دعوة الرسل الذين يكذبونهم، وماذا ستكون حجتهم بين يدي اللَّه إذا قال لهم يوم القيامة: كذبتم رسلي (١)، وأعرضتم عن البراهين التي بثثتها في الوجود، الدالة على وجودي والدالة على عدلي فحق عليكم عقابي؟! بمثل هذا النوع من الاستدلال ناقش المؤمن من آل فرعون - الذي يكتم إيمانه - فرعون ومن معه؛ قال تعالى في سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] » (٢).

ونحن نوقن أن التعليق في الإيمان، أو الإيمان من باب الاحتياط لا ينجي من عذاب اللَّه، ولا يحصّل لصاحبه السعادة ولا يوصله إلى المأمن (٣)، ولكنه أسلوب جدلي استخدمه القرآن لدمغ المعاندين في نهاية المطاف؛ كقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٨].

وهكذا نجد أن العلماء المسلمين سنة وشيعة قد جهدوا جهدهم وأدلوا بدلوهم في استخراج الأدلة على وجود اللَّه ﷻ، كما أنهم في الوقت نفسه لم يألوا جهدًا في محاجّة ونقض أوهام الملاحدة والزنادقة.

* * *

(١) وقد أشار القرآن إلى هذا عندما قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٤، ٨٥].

(٢) الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، تحت عنوان: الإلحاد والملحدون (ص ١٠٧ ، ١٠٨).

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين (٤٦٣/١).

المَطلَبُ الثَّاني

صفات الله ﷻ

أولًا - قواعد أساسية في دراسة الصفات:

قبل الحديث عن الصفات الإلهية يجدر التنويه إلى بعض القواعد الأساسية التي يجدر للباحث في الصفات الإلهية الانتباه إليها:

١ - عدم الإحاطة بصفات الله: (صفات لا نهائية في الكمال):

تقرر نصوص القرآن والسنة والروايات الواردة عن الأئمة أن صفات الله تعالى مطلقة لا نهاية لها.

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وقال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال ﷺ في سجوده: « **سبحانك! لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك** » [١].

وعن الكاهليّ قال: « كتبت إلى أبي الحسن ﵇ في دعاءٍ: (الحمد للّه منتهى علمه) فكتب إليّ: لا تقولنّ منتهى علمه. فليس لعلمه منتهًى، ولكن قل: (منتهى رضاه) » [٢].

ذلك أن « صفات الكمال والجمال لا تنحصر؛ لأن الخلو عن الكمال نقص، وكل نقص منفي، وكل كمال ثابت له تعالى، وإلا استحال كونه صانعًا » [٣].

٢ - وجوب المعرفة الإجمالية للصفات الإلهية:

عن الفتح بن يزيد عن أبي الحسن ﵇ قال: « سألته عن أدنى المعرفة فقال: الإقرار بأنّه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنّه قديمٌ مثبتٌ موجودٌ، غير فقيدٍ وأنّه ليس كمثله شيءٌ ».

وعن طاهر بن حاتمٍ في حال استقامته [٤] أنّه كتب إلى الرّجل [٥]: « ما الّذي لا يجتزأ

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).

(٢) أصول الكافي (١/١٥٩)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤).

(٤) لأنه كان مستقيمًا ثم تغير وأظهر القول بالغلو. انظر: الفيض الكاشاني: الوافي (١/٧٦).

(٥) يقصدون بالرجل: المهدي الغائب المنتظر. وهم لا يجيزون ذكره باسمه الصريح كما سنبين.

في معرفة الخالق بدونه؟ فكتب إليه: لم يزل عالمًا وسامعًا وبصيرًا، وهو الفعّال لما يريد ».

وسئل أبو جعفرٍ عليه السلام عن الّذي لا يجتزأ بدون ذلك من معرفة الخالق؟ فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] « ولا يشبهه شيءٌ، لم يزل عالمًا سميعًا بصيرًا » [(١)].

قال الزنجاني: « اللّٰه تعالى واجب الوجود بذاته ولذاته، منزه عن التجسيم والحلول والتركيب والنقائص، ومستجمع لجميع صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والعدل ونحوها، وأن صفاته الحقيقية عين ذاته، وهو الواحد الأحد، لا شريك له في الألوهية ولا في المعبودية ولا في الفاعلية، وما لسواه من العالم صنيعة، لا إله غيره، ولا معبود سواه، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه، له الخلق والأمر، ولا مؤثر غيره في عالم الوجود، وهو المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة. والمعتقد بغير اللّٰه فهو كافر مشرك خارج عن ربقة الإسلام، ولا تجوز العبادة إلا للّٰه وحده لا شريك له » [(٢)].

٣ – النهي عن وصف اللّٰه سبحانه بغير ما وصف به نفسه:

عن عبد الرّحيم بن عتيكٍ القصير قال: كتبت على يدي عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد اللّٰه عليه السلام: أنّ قومًا بالعراق يصفون اللّٰه بالصّورة وبالتّخطيط، فإن رأيت – جعلني اللّٰه فداك – أن تكتب إليّ بالمذهب الصّحيح من التّوحيد. فكتب إليّ: سألت – رحمك اللّٰه – عن التّوحيد وما ذهب إليه من قبلك، فتعالى اللّٰه الّذي ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير، تعالى عمّا يصفه الواصفون المشبّهون اللّٰه بخلقه، المفترون على اللّٰه. فاعلم رحمك اللّٰه أنّ المذهب الصّحيح في التّوحيد ما نزل به القرآن من صفات اللّٰه جلّ وعزّ. فانف عن اللّٰه تعالى البطلان والتّشبيه، فلا نفي ولا تشبيه، هو اللّٰه الثّابت الموجود، تعالى اللّٰه عمّا يصفه الواصفون، ولا تعدوا القرآن فتضلّوا بعد البيان [(٣)].

٤ – للّٰه ﷻ تسعة وتسعون اسمًا:

وإذا صحّ عن النبي ﷺ عند أهل السنة: « **إن للّٰه تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة** » [(٤)]؛ فقد صحّ ذلك أيضًا في روايات الاثني عشرية: « روى

---

(١) أصول الكافي (١/١٤١)، كتاب التوحيد، باب أدنى المعرفة.

(٢) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٥)، مؤسسة الأعلمي – بيروت.

(٣) أصول الكافي (١/١٥٣)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري، باب الشروط في القرض، رقم (٢٥٨٥)، ومسلم: باب في أسماء اللّٰه تعالى وفضل من أحصاها رقم (٢٦٧٧). وفي رواية في مسلم: (من حفظها).

الصدوق في كتاب التوحيد بإسناده عن الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال: « **إن لله – تبارك وتعالى – تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة وهي: الله، الواحد، الصمد، الأول، الآخر، السميع، البصير، القدير، القاهر، العلي، الأعلى، الباقي، البديع... الخفي،... الذاري... الفرد... قاضي الحاجات... الوفي...... القديم** » [١].

وقد أوصلت بعض روايات الأئمة الأسماء إلى ثلاثمائة وستين اسمًا – لا على سبيل الحصر – وذكرت منها: « الرّحمن الرّحيم الملك القدّوس الخالق البارئ المصوّر الحيّ القيّوم، لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، العليم الخبير السّميع البصير الحكيم العزيز الجبّار المتكبّر العليّ العظيم المقتدر القادر السّلام المؤمن المهيمن البارئ المنشئ البديع الرّفيع الجليل الكريم الرّازق المحيي المميت الباعث الوارث.. وما كان من الأسماء الحسنى حتّى تتمّ ثلاثمائةٍ وستّين اسمًا.. » [٢].

أما معنى (أحصاها) فقد ذهب بعض العلماء إلى أن المعنى حفظها عن ظهر قلب، وقيل: إحصاؤها: الإيمان بها، وقيل: العمل بمقتضاها، وقيل: معرفتها [٣].

وإذا كان الإيمان بهذه الأسماء التسعة والتسعين واجبًا على الإجمال؛ فإن تفصيل هذه الأسماء مختلف فيه بين العلماء سنة وشيعة، فقد ورد في سنن ابن ماجه والترمذي، بروايتين ضعيفتين، وبينهما خلاف في بعض الأسماء، ثم إن فيهما من الأسماء ما لم يذكر في القرآن الكريم – كالقديم – ونقص منهما بعض ما ورد في القرآن الكريم – كالأكرم.

ولذلك قام ابن حجر العسقلاني بإحصاء هذه الأسماء، بحيث جمع ما أورده القرآن، مع اعتماده على رواية الترمذي، فقال: « هذا سردها لتحفظ.. الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور، الغفار القهار التواب الوهاب الخلاق الرزاق، الفتاح العليم الحليم العظيم، الواسع الحكيم الحي القيوم، السميع البصير اللطيف الخبير، العلي الكبير المحيط القدير المولى النصير،

---

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٧٦). ومن الملاحظ أن اسم (القديم) ورد في رواية ضعيفة في سنن ابن ماجه، وفي اسم الله (الأول) الذي ورد في الكتاب والسنة غنية عن الاستشهاد باسم ورد بسند ضعيف.

(٢) أصول الكافي (١/١٦٤، ١٦٥)، كتاب التوحيد، باب حدوث الأسماء.

(٣) انظر: تكملة فتح الملهم لتقي الدين العثماني (٥/٢٧٣)، دار القلم – دمشق (١٤٢٧هـ).

الكريم الرقيب القريب، المجيب الوكيل الحسيب الحفيظ المقيت، الودود المجيد الوارث الشهيد، الولي الحميد الحق المبين، القوي المتين، الغني المالك الشديد، القادر المقتدر القاهر الكافي، الشاكر المستعان الفاطر البديع الغافر، الأول الآخر الظاهر الباطن، الكفيل الغالب الحكم، العالم الرفيع الحافظ المحيي، الجامع المليك المتعالي النور الهادي الغفور الشكور، العفو الرؤوف، الأكرم الأعلى البر الحفي، الرب الإله، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد » [(١)].

وقد أورد علماء الشيعة غير هذه الأسماء؛ فقد روى الصدوق في كتاب التوحيد بإسناده... قال أبو عبد اللّٰه عليه السلام: « إن (آه) من أسماء اللّٰه تعالى، فمن قال: (آه) فقد استغاث » [(٢)].

٥ – ضعف القدرات البشرية عن كشف كنه الصفات الإلهية:

« هذا وقد تصدى بعض المتكلمين لمباحث في الذات والصفات، ولو سكتوا عنها لكان أقرب إلى ما يقتضيه العقل والنقل » [(٣)]. قال عبد اللّٰه شبر: « اعلم أنه لا سبيل للمخلوق إلى معرفة كنه الخالق وحقيقته والإحاطة به – جل شأنه – كما قال عز وجل: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الحج: ٧٤] وفي الدعاء: « سبحان من لا يعلم ما هو إلا هو ». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: « لا تقدر عظمة اللّٰه على قدر عقلك فتكون من الهالكين » [(٤)].

« والأصل في هذا الباب أن الصفات كالذات، فكما أن ذات الحق سبحانه ثابتة حقيقة من غير أن تكون مشابهة لذوات الخلق؛ كذلك صفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون مشابهة لصفات الخلق... ومن عرف الدخول في هذه الطريقة نجا من غوائل المجاز ووصل إلى الحقيقة، وسهل عليه فهم كثير مما يعدّه الخلف متشابهًا من آيات الكتاب المنزل وأحاديث النبي المرسل صلى الله عليه وسلم وتبين له المقصد الأسنى في الأسماء الحسنى، وأما من لحظ فيما نُسب إلى الخالق مثل ما لحظه فيما نسب إلى الخلق لم ينج من إشكال » [(٥)].

---

(١) فتح الباري (٢١٩/١١). (٢) المصدر السابق (ص ٨٠).

(٣) الشيخ طاهر الجزائري: الجوهرة في قواعد العقائد (ص ١٠٥)، تصحيح الأستاذ حسن السماحي سويدان، دار القلم – دمشق (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م).

(٤) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٨).

(٥) الشيخ طاهر الجزائري: الجوهرة في قواعد العقائد (ص ١٠٠ – ١٠٣).

ولو رجع إلى نفسه عرف أنه لم يقف على كنه ذاتها، وإنما عرفها ببعض آثارها وصفاتها، وهو مع ذلك لم يعرف كيف قامت بها تلك الصفات...

العلم للرحمن ﷻ ... وسواه في غمراته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم [١]

واللّه لا موسى ولا ... عيسى المسيح ولا محمد
علموا ولا جبريل ... وهو إلى محل القدس يصعد
كلا ولا النفس البسيطة ... لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنك ... أوحديّ الذات سرمد
وجدوا إضافات وسلبًا ... والحقيقة ليس توجد
ورأوا وجودًا واجبًا ... يفنى الزمان وليس ينفد
تاه الأنام بسكرهم ... فلذاك صاحي القوم عربد
ونجا من الشرك الكثيف ... مجرّد العزمات مفرد
فلتخسأ الحكماء عن ... جرم له الأفلاك تسجد
من أنت يا رسطو؟ ومن ... أفلاط قبلك، يا مبلّد؟
ومن ابن سينا؟ حين قرّر ... ما بنيت له وشيّد!
هل أنتم إلا الفراش ... رأى السراج وقد توقّد؟
فدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشدًا لأبعد [٢]

٦ - إرجاع الصفات الإلهية إلى الأسماء الحسنى:

ومما يزيد الفهم والإيضاح لصفات اللّه تعالى: إرجاع صفات اللّه تعالى إلى أسمائه الحسنى؛ حيث « أسماؤه تتضمن صفاته » [٣]. كما فعل اليزدي من علماء الشيعة، وكما فعل الشيخ عبد الرحمن حبنكة من علماء أهل السنة [٤]، قال اليزدي: « مفهوم

---

(١) الشيخ طاهر الجزائري: الجوهرة في قواعد العقائد (ص ١٠٦)، والأبيات للزمخشري كما ذكر المحقق.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (٣١/٥٠).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/١٦٠).

(٤) انظر: الشيخ عبد الرحمن حبنكة رحمه الله: العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ١٣٧ - ٢١٤)، دار القلم - دمشق (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م).

الربوبية الذي من لوازمه تدبير الأمور، وله مصاديق عديدة، كالحافظ والمحيي والمميت والرازق والهادي والآمر والناهي وأمثالها » [١].

٧ – وجوب الربط بين الصفات الإلهية:

ولا يجوز دراسة كل صفة من الصفات الإلهية بعيدة عن أخواتها، وعلى سبيل المثال: « القدرة على كل عمل لا توجب ولا تفرض على مثل هذا القادر أن يحقق كل الأعمال التي يقدر عليها؛ بل إنما يحقق تلك الأعمال التي يريد تحقيقها، والله الحكيم لا يريد إلا الأفعال الصالحة والحكيمة، ولا يحقق إلا مثل هذه الأعمال، وإن كان قادرًا على الأعمال القبيحة والمنكرة أيضًا » [٢].

وخلافًا لهذا المنهج؛ فقد درس بعض المتكلمين صفة الإرادة بعيدًا عن صفة الحكمة، فأجازوا (من باب الجواز العقلي، لا الشرعي) أن يعذب الله المطيع ويثيب العاصي؛ فاتهمهم الاثنا عشرية بالقول بجواز الظلم على الله تعالى، وإنكار العدل الإلهي.

ولكن المتأمل يرى أن أصحاب هذا المذهب كالأشاعرة يقرّون أيضًا بالعدل الإلهي؛ حيث إن الآيات القرآنية الصريحة التي لا تقبل التأويل تثبت العدل الإلهي « ولكن البحث في هذا الموضوع يدور حول ما إذا يمكن للعقل بنفسه وبدون الاعتماد على المصادر الشرعية (الكتاب والسنة) أن يدرك ويتوصل إلى ضوابط الأفعال وخاصة الأفعال الإلهية » [٣].

فدراسة صفة القدرة والإرادة بعيدًا عن صفة الحكمة والعلم، بحيث يتم التركيز على معنى إطلاق قدرة الله وإرادته، وأنه يفعل ما يشاء، وأنه لو عاقب الطائع لما كان ظالمًا؛ إذ هذا الفعل داخل في الممكن العقلي، وهو تصرف لله تعالى في ملكه. إن هذا التركيز على هذا الجانب، ونسيان الجانب الآخر، وهو صفة العلم ومن مقتضياته الحكمة ووضع الأمور في نصابها، يجعل هذا الجائز العقلي بعيدًا عن روح الشرع الذي جاء مبينًا أن الثواب للطائعين، وأن العقوبة للعصاة المذنبين، وإنما ورد هذا الإشكال الذي سبب ذلك الهجوم على القائلين به بسبب أنهم لم يربطوا بين الصفات الإلهية؛ بل تناولوا كل واحدة منها على حدة.

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٠١).

(٢) المرجع السابق (ص ٩٥).

(٣) المرجع السابق (ص ١٨٠).

٨ - حصر الصفات والأسماء الإلهية خطأ في المنهج:

ومن الأخطاء التي وقع فيها بعض المتكلمين: حصر الصفات الإلهية في عدد معين؛ لأن صفات اللّٰه تعالى كثيرة لا نستطيع أن نحصيها، فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: « **سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك** » [١]، وكذلك أسماء اللّٰه تعالى كذلك لا حصر لها، ففي دعاء كشف الكربة قال النبي ﷺ: « **اللّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك... وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك...أو استأثرت به في علم الغيب عندك** » [٢].

وقد هاجم بعض متكلّمي الاثني عشرية كابن المطهر الحلي الأشاعرة، معتقدًا أنهم يحصرون الصفات في عدد معين، وهذا ليس قولًا مطردًا عندهم؛ ولعل الوهم جاء من كثرة حديثهم عن بعض الصفات دون بعض، وقد ردّ عليه ابن تيمية قائلًا: « حصر الصفات في ثمانية - وإن كان يقوله بعض المثبتين من الأشعرية ونحوهم - فالصواب عند جماهير المثبتة وأئمة الأشعرية أن الصفات لا تنحصر في ثمانية، بل ولا يحصرها العباد في عدد، وحينئذ فنقل الناقل عنهم أنه تاسع تسعة باطل لو كان هذا مما يقال » [٣].

- وقد فصّلت إحدى الروايات عن سيدنا علي رضي الله عنه بعض صفات اللّٰه عز وجل:

« شاء الأشياء لا بهمّةٍ، درّاكٌ لا بخديعةٍ، في الأشياء كلّها غير متمازجٍ بها ولا بائنٌ منها، ظاهرٌ لا بتأويل المباشرة، متجلٌ لا باستهلال رؤيةٍ، ناءٍ لا بمسافةٍ، قريبٌ لا بمداناةٍ، لطيفٌ لا بتجسّمٍ موجودٌ لا بعد عدمٍ، فاعلٌ لا باضطرارٍ، مقدّرٌ لا بحركةٍ، مريدٌ لا بهمامةٍ، سميعٌ لا بآلةٍ، بصيرٌ لا بأداةٍ، لا تحويه الأماكن، ولا تضمنه الأوقات، ولا تحدّه الصّفات، ولا تأخذه السّنات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥٣/٣) في باب ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل اللّٰه ذهابه عنه وإبداله إياه فرحًا رقم (٩٧٢)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٦٩٠/١). ونصه: عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن: اللّهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك.. أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي. إلا أذهب اللّٰه همه وأبدله مكان حزنه فرحًا ». قالوا: يا رسول اللّٰه ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات. قال: أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن ».

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٩٧/٢).

أزله.... كان ربًّا إذ لا مربوب، وإلهًا إذ لا مألوه، وعالمًا إذ لا معلوم، وسميعًا إذ لا مسموع » [١].

وخطب بالنّاس بالكوفة فقال: « الحمد للَّه الملهم عباده حمده، وفاطرهم على معرفة ربوبيّته، الدّالّ على وجوده بخلقه، وبحدوث خلقه على أزله، وباشتباههم على أن لا شبه له، المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصّفات ذاته، ومن الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الإحاطة به، لا أمد لكونه، ولا غاية لبقائه، لا تشمله المشاعر، ولا تحجبه الحجب، والحجاب بينه وبين خلقِهِ خلقُهُ إيّاهم، لامتناعه ممّا يمكن في ذواتهم ولإمكانٍ ممّا يمتنع منه ولافتراق الصّانع من المصنوع والحادّ من المحدود والرّبّ من المربوب، الواحد بلا تأويل عددٍ، والخالق لا بمعنى حركةٍ، والبصير لا بأداةٍ، والسّميع لا بتفريق آلةٍ، والشّاهد لا بمماسّةٍ، والباطن لا باجتنانٍ، والظّاهر البائن لا بتراخي مسافةٍ، أزله نهيةٌ لمجاول الأفكار ودوامه ردعٌ لطامحات العقول، قد حسر كنهه نوافذ الأبصار، وقمع وجوده جوائل الأوهام، فمن وصف اللَّه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال: أين؟ فقد غيّاه، ومن قال: علام؟ فقد أخلى منه، ومن قال: فيم؟ فقد ضمّنه » [٢].

ثانيًا: العلاقة بين الذات والصفات والأسماء الإلهية في مذهب الاثني عشرية:

يقول المفيد معرفًا الصفة: « إن الصفة في الحقيقة ما أنبأت عن معنًى مستفاد يخص الموصوف وما شاركه فيه » [٣].

وقد كان سلف الأمة يفهمون الصفات، دون أن يخوضوا في تقسيمها أو في محاولة فهم العلاقة بين الذات والصفات، وأول من فعل ذلك المعتزلة؛ حيث قسموا الصفات إلى ذاتية وفعلية وسلبية، وتابعهم في ذلك متكلمو الأشاعرة والاثنا عشرية [٤].

فمسألة الصفات والبحث فيها غريبة عن الحس العربي الصافي الواضح، وإنما دخلت خلسة إلى الفكر المسلم من كتب الفلاسفة على يد تلامذة (واصل)، يقول الشهرستاني: « وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلسفة » [٥].

---

(١) أصول الكافي (١٨٨/١)، كتاب التوحيد، باب جوامع التوحيد.

(٢) السابق (١٨٩/١).

(٣) أوائل المقالات (ص ٥٨).

(٤) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٧٣).

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل (٦٥/١ - ٧٧).

« ومذهب المعتزلة في مجموعه قد مرّ بمراحل تطورية في قضية الصفات، بالنسبة إلى عدد هذه الصفات، وبالنسبة للعلاقة بينها وبين الذات »[١]. وبسبب قرب الاثني عشرية من المعتزلة فقد ارتبكت عباراتهم؛ تبعًا لاختلاف متكلمي المعتزلة[٢]:

- فمنهم من جعل الصفات راجعة إلى سلب أضدادها عن اللّٰه تعالى، كما ذهب النظّام، ويظهر هذا الاتجاه عند الكليني والصدوق والمازندراني. يقول الكليني: « صفات الذّات تنفي عنه بكلّ صفةٍ منها ضدّها، يقال: حيٌّ وعالمٌ وسميعٌ وبصيرٌ وعزيزٌ وحكيمٌ غنيٌّ ملكٌ حليمٌ عدلٌ كريمٌ؛ فالعلم ضدّه الجهل، والقدرة ضدّها العجز، والحياة ضدّها الموت، والعزّة ضدّها الذّلّة، والحكمة ضدّها الخطأ، وضدّ الحلم العجلة والجهل، وضدّ العدل الجور والظّلم »[٣]. وبناء على هذا الرأي يرى الطباطبائي - المعاصر - أن « نفي صفات النقص تعني صفات الكمال، كما أن نفي الجهل يعني العلم »[٤].

- ومنهم من جعل صفات الذات هي عين الذات، كما ذكر المظفر صاحب عقائد الإمامية[٥]، وهذا مشابه لقول أبي الهذيل العلاف من المعتزلة، وهذا هو رأي جمهور الاثني عشرية كما في أوائل المقالات[٦]. وقد ردوا بهذا الرأي على الأشاعرة القائلين بزيادة الصفات على الذات[٧].

ولما كان الفلاسفة مختلفين في الصفات، وفي غيرها؛ جاء المتكلمون فاختلفوا فيها،

---

(١) فأبو علي الجبائي أرجع جميع الصفات إلى صفتي العلم والقدرة، وقال بأنهما صفتان ذاتيتان، أو هما اعتباران للذات القديمة، أما ابنه أبو هاشم فاعتبرهما حالين للذات القديمة، بعد أن أرجع جميع الصفات إليهما، وأبو الحسين البصري أرجع جميع الصفات إلى صفة واحدة أسماها العالمية، وذلك كما يقول الشهرستاني عن مذهب الفلاسفة فاللّٰه عالم بذاته، حي بذاته، قادر بذاته، أما أبو هذيل العلاف فقد أرجع جميع الصفات إلى صفة العلم والحياة والقدرة، واعتبر هذه الصفات وجوهًا للذات. ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٣ - ١٠٥)، انظر: المغني (١٢٩/٤)، الملل والنحل للشهرستاني (٤٧/١، ٤٨ - ٦٤ - ٧٧). الانتصار للخياط (ص ١٠٨ - ١٢٣).

(٢) والظاهر أن الخوارج والإباضية وجمهور الزيدية يذهبون مذهب المعتزلة في الصفات. انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٠٦).

(٣) أصول الكافي: كتاب التوحيد، باب الإرادة أنّها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل. انظر شرح المازندراني لأصول الكافي مع تعليق ميرزا عليه (٢٤٥/٤).

(٤) الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١٢٠)، مركز بقية اللّٰه الأعظم للدراسة والنشر - بيروت (١٩٩٩م).

(٥) المظفر: عقائد الإمامية (ص ٣٨، ٣٩). (٦) أوائل المقالات (ص ٥١ - ٥٨).

(٧) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٩١ - ٩٣).

ومنهم الاثنا عشرية، وقد تنبه إلى اختلاف الفلاسفة والمتكلمين فيما بينهم في الذات والأسماء والصفات عدد من علماء أهل السنة [(١)]، يقول ابن الوزير: « ويدلك على قبح تأويل هذه الأسماء الشريفة في الفطر كلها أنك تجد المعتزلي يستقبح تأويل الأشعرية للحكيم غاية الاستقباح، والأشعري يستقبح تأويل المعتزلة البغدادية للسميع والبصير والمريد غاية الاستقباح، والسني يستقبح تأويل المعتزلي والأشعري للرحمن الرحيم الحكيم غاية الاستقباح، والكل يستقبحون تأويل القرامطة لجميع أسماء الله الحسنى غاية الاستقباح » [(٢)].

ولذلك فإن كلام الاثني عشرية في مسألة الصفات يصعب فهمه، تبعًا لاختلاف مشاربهم وآرائهم؛ فهم مرة يقولون بحدوث الصفات كما سنرى، ومرة يقولون: إن صفات الله عين ذاته!!.

وفي استقراء نصوصهم يعرف أنهم يعنون بالحدوث حدوث صفات المعاني كالكلام والعلم والقدرة، نسجًا على منوال المعتزلة، ويعنون بأن صفاته عين ذاته: الصفات المعنوية؛ ككونه قديرًا سميعًا بصيرًا، وإن لم يحسنوا التعبير عن ذلك.

- فمرة تقول الرواية: إن الصفات عين ذات الله تعالى، عن أبي بصيرٍ قال: « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لم يزل الله عز وجل ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسّمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مُبصَر، والقدرة ذاته ولا مقدور » [(٣)]. فهذه الرواية عبّرت عن كونه عليمًا بـ (العلم ذاته)، وهم في الأصل قد أنكروا صفة مستقلة اسمها العلم والقدرة؛ ولذلك عابوا على الأشاعرة وغيرهم إثبات هذه الصفات، على حدّ قول ابن المطهر: « فجعلوه تعالى مفتقرًا في كونه عالمًا إلى ثبوت معنًى هو العلم » [(٤)].

- ومرة تقول الرواية بحدوث كل الأسماء والصفات، وأن « تمام توحيده نفي الصفات

---

(١) يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١١/٣٣٨): « المتكلمة والمتفلسفة أكثر خلق الله تناقضًا واختلافًا، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعًا ». وانظر: منهاج السنة النبوية (٢/٥٤٠، ٥٤١).

(٢) ابن الوزير اليمني: إيثار الحق على الخلق (ص ١٢٨)، وانظر: سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ص ١٢٢).

(٣) أصول الكافي (١/١٥٩)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات. وكان الأولى بهذه الرواية أن تعبر عن العلم بكونه تعالى (عالمًا قديرًا) لا بالعلم والقدرة، وكأن التفريق بين صفات المعاني والمعنوية لم يكن قد تبلور ونضج.

(٤) ابن مطهر الحلي (الحسن بن يوسف ٧٢٦هـ): منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق عبد الرحيم مبارك (ط١) مؤسسة عاشوراء للتحقيقات، قم (ص ٣٨).

عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وبشهادة كل موصوف أنه غير الصفة » [١].
وتقول إحدى الروايات: « والأسماء والصّفات مخلوقاتٌ، والمعاني والمعنيّ بها هو اللَّه الّذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف » [٢].

- وذكر الطباطبائي أن صفات اللَّه تعالى « في الحقيقة عين ذاته ﷻ وكل واحدة منها هي عين الأخرى » وأن الاختلاف الذي يشاهد بين الذات والصفات وبين الصفات نفسها ينحصر في المفهوم [٣].

- ويرى عبد اللَّه شبّر « أن صفاته تعالى اعتبارات نحدثها عند عقولنا عند مقايسة ذاته تعالى إلى غيرها... وإلا فذاته المقدسة لا صفة زائدة عليها، وإلا لزم كونها محلًا لغيره إن قامت به، وقيام صفته بغيره إن لم تقم به، وكلاهما بديهي البطلان، وعدم قيامها بشيء بل بنفسها أظهر بطلانًا؛ فالكل راجع إلى كمال الذات المقدسة وغنائها » [٤].

أما مذهب أهل السنة فهو اعتقاد قدم صفات اللَّه وأسمائه الحسنى، يقول اللقاني:

وعندنا أسماؤه العظيمة ... كذا صفات ذاته قديمة [٥]

وقد كان مسوّغ المعتزلة والاثني عشرية في إنكار قدم صفات اللَّه: التخوّف من الإشراك والتعدد في الذات الإلهية، فإن « شبهة تعدد القدماء كانت من أهم الأسباب التي جعلت الأئمة من أهل البيت... يعلنون رفضهم لفكرة المعاني القديمة الزائدة على الذات » [٦]. يقول ابن المطهر: « فقال بعضهم وهم جماعة الأشاعرة أن القدماء كثيرون مع اللَّه تعالى [٧]، وهي المعاني التي يثبتونها في الخارج كالقدرة والعلم وغير ذلك، فجعلوه تعالى مفتقرًا في كونه عالمًا إلى ثبوت معنًى هو العلم » [٨].

---

(١) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين، لعبد اللَّه شبر (ص ٤٢).
(٢) أصول الكافي (١٦٨/١)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.
(٣) انظر: العلامة الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١١٨، ١١٩)، مركز بقية اللَّه الأعظم للدراسة والنشر - بيروت (١٩٩٩م).
(٤) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٢).
(٥) اللقاني: جوهرة التوحيد مع شرحها للشيخ إبراهيم الباجوري (ص ١٤٢).
(٦) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٩٩).
(٧) وهو تقوّل على الأشاعرة، لا يسلّم الأشاعرة به، ولكن هذا فهم المعتزلة والشيعة لرأي مخالفيهم الذين اعتقدوا أن الصفات الإلهية زائدة على الذات، فألزموا الأشاعرة وغيرهم بما لم يلتزموا، وهذا خطأ منهجي.
(٨) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٨).

قال المفيد: « إنه الله ﷻ اسمه حي لنفسه لا بحياة، وأنه قادر لنفسه وعالم لنفسه... وهذا مذهب الإمامية كافة والمعتزلة » [١]. وقد بيّن شبر أن من كمال التوحيد الإيمان بأن صفات الله تعالى المعنوية هي عين ذاته، ووصف من خالفه في المسألة بأنه أشرك بالله تعالى؛ حيث يقول: « وقد يطلق التوحيد على معانٍ أُخر هي شرط في أصل الإيمان أو كماله منها: الأول التوحيد في الصفات وعينيتها ونفي مغايرتها... والمخالف في هذا المقام هو الأشعري؛ قال بزيادة الصفات ومغايرتها وقدمها، ومن قال بهذا فقد أشرك بالله؛ لأنه يلزم تعدد القدماء » [٢]!.

ويذكر الأدلة على أن صفات الله عين ذاته فيقول: « **الأول**: أنها لو كانت غير ذاته لكان الله تعالى محتاجًا في كامليته إلى صفاته، وإذا كان محتاجًا لكان ممكنًا؛ فلا يكون واجبًا صانعًا، وقد تقدم بطلانه. **الثاني**: أن الصفة متأخرة عن الموصوف، فيلزم أن يكون الله تعالى عاجزًا جاهلًا في وقت ثم صار قادرًا عالمًا، تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيرًا. **الثالث**: أنها لو كانت غير ذاته فإما أن تكون قديمة أو حادثة قائمة بذاته تعالى أو بغيره، واللازم باطل والملزوم مثله.. وإن قالوا: إنها قديمة وقائمة بذاته - وهكذا يقولون - فيلزم تعدد القدماء » [٣].

والحقيقة أن قياس الله تعالى على مخلوقاته هو من أسباب هذا الخطأ الذي وقع به شبّر وحزبه؛ فصفات البشر في كثير من الأحيان تكون متأخرة عن أصحابها كالعلم بعد الجهل، أما صفات الله تعالى فهو متصف بها أزلًا، فليست متأخرة عنه.

وقد بلغ الاثنا عشرية في تنزيه الله ﷻ مبلغًا أوصلهم إلى تعطيل الصفات؛ عندما حاولوا تفسير صفات الله تعالى بنفي أضدادها، فعندما يثبتون صفات الذات المعنوية ككون الله تعالى حيًّا؛ فإنهم في الحقيقة لا يثبتونها، ولكنهم يقررون نفي أضدادها عن الله تعالى، يقول الصدوق: « إذا وصفنا الله تبارك وتعالى بصفات الذات فإنما ننفي عنه بكل صفة منها ضدها، فمتى قلنا: إنه حي نفينا عنه ضد الحياة وهو الموت، ومتى قلنا: إنه عليم؛ نفينا عنه ضد العلم، وهو الجهل، ومتى قلنا: إنه سميع نفينا عنه ضد السمع وهو الصمم... » [٤].

---

(١) أوائل المقالات (ص ٥١، ٥٢).

(٢) حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧ - ٤٠).

(٣) السابق (ص ٥٨).

(٤) الصدوق: التوحيد (ص ١٥٦).

وكما قال الاثنا عشرية بحدوث الصفات قالوا بحدوث الأسماء أيضًا، قال شبر: « والحق أن أسماءه تعالى حروف حادثة مخلوقة تدل على الذات المقدسة وهي غيرها لحدوثها، ولا تكون عين الذات خلافًا لبعض العامة العمياء الذين زعموا أنها عين الذات »[١].

وقد انطلقوا في رأيهم هذا من قناعة لم يسلّم لهم بها أهل السنة ولا غيرهم، تقول قناعتهم: « إن الأسماء الإلهية اكتسبت من أفعاله التي حدثت في المستقبل ولم تكن في الأزل، فرأوا أن إطلاق هذه الأسماء عليه - وإن كان جائزًا - فإنه إنما يكون بعد فعله ما تدل عليه هذه الأسماء، ولا يجوز إطلاقها عليه في الأزل؛ ولذلك كانت حادثة بحدوث هذه الأفعال: يقول المفيد: « ألا ترى قبل خلقه الخلق لا يصح وصفه بأنه خالق »! [٢].

وقد صارت مسألة الصفات وقدمها محل مراء وجدل بين الاثني عشرية وباقي الفرق، ولم تخل أجوبة فريق من التعسف والتسرع ورمي كل طرف صاحبه بما لم يقله، فقد زعم الاثنا عشرية - بعد رميهم خصومهم بالقول بالإشراك بتعدد القدماء - أن في القول بقدم الصفات اتهامًا للخالق ﷻ بالعبث!!، يقول ابن مطهر الحلي عن أهل السنة: « وذهبوا إلى أن الله آمر وناهٍ في الأزل، ولا مخلوق عنده، قائلًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ.. ﴾ [الأحزاب: ١]... ولو جلس شخص في منزله ولا غلام عنده فقال: يا سالم قم، يا غانم كل، يا نجاح ادخل،. قيل: لمن تنادي؟ فيقول: لعبيد اشتريتهم بعد عشرين سنة؛ نسبه كل عاقل إلى السفه والحمق، فكيف يحسن منهم أن ينسبوا الله تعالى إليه في الأزل؟ » [٣].

وتصوير الحلّي لمذهب أهل السنة في الصفات بهذه الصورة المبتذلة ليس بمسلّم به؛ فليس مراد أهل السنة من أن الله آمر وناهٍ في الأزل قيام الأمر والنهي في الأزل، بل المعنى أن الله تعالى متصف بصفة الإرادة والقدرة قبل أن يخلق المراد المقدور، وهذا المعنى أوردته روايات الاثني عشرية أنفسهم؛ فقد جاء عن سيدنا علي رضي الله عنه وصف ربنا ﷻ: « كان ربًّا إذ لا مربوب، وإلهًا إذ لا مألوه، وعالمًا إذ لا معلوم، وسميعًا إذ لا مسموع » [٤]. فكأن

---

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٧٥).

(٢) تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد أو شرح عقائد الصدوق المفيد، دار الكتاب الإسلامي - بيروت (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، (ص ٢٥).

(٣) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٤٦، ٤٧). ونسبه المحقق إلى الملل والنحل (١/ ١٢٩).

(٤) أصول الكافي (١/ ١٨٨)، كتاب التوحيد، باب جوامع التوحيد.

الحلي ومن تبعه لم يفرق بين الصفات القديمة وتعلقاتها التنجيزية الحادثة، وهو ما بيّنه أهل السنة، يقول الإمام الطحاوي: « له معنى الرب ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم »[١]. « وذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه »[٢]. وقال صاحب الرسالة القيروانية: « وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه تعالى من أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة »[٣]. فالصفات قديمة، وإنما الحادث هو تعلّقها بهذا المخلوق بعد حدوثه، فالصفة والاسم قديمان، والحادث إنما هو التعلّق.

وقد ردّ أهل السنة على إنكار المعتزلة والاثني عشرية صفات المعاني؛ مبينين أن هروب المعتزلة والاثني عشرية من إثبات قدم الصفات والأسماء الإلهية أوصلهم إلى سفسطة عقلية؛ إذ « يمتنع وجود حي عليم قدير لا حياة له ولا علم ولا قدرة، فإثبات الأسماء دون الصفات سفسطة في العقليات وقرمطة في السمعيات « كما » يمتنع وجود ذات مجردة عن الصفات »[٤]؛ لأن إثبات الذات مجردة عن الصفات بدعة مخالفة للعقول، أول من ابتدأها الجهمية[٥]، ثم تسربت إلى المعتزلة فالاثني عشرية.

وأصل الخطأ في هذه المسألة عدم التفريق بين مفهوم الذات ومفهوم الصفات؛ فأهل السنة عندما يثبتون الصفات لا يعتقدون بتعدد القدماء - كما يزعم المعتزلة والاثنا عشرية - لأن هذه الصفات ليست ذواتًا مستقلة؛ بل هي أوصاف مرتبطة بالذات، « ومن حكى عن أهل السنة أنهم يثبتون مع اللّٰه ذواتًا قديمة بقدمه، وأنه مفتقر إلى تلك الذوات؛ فقد كذب عليهم »[٦].

وهناك حقيقة منطقية واضحة تقول: « إن صدق المشتق على شيء يقتضي ثبوت

---

(١) الطحاوية مع شرحها (ص ١٤٢)، المكتب الإسلامي (١٣٩١هـ)، بيروت (ط٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

(٣) أبو محمد عبد اللّٰه بن زيد القيرواني (٣١٠ - ٣٨٦هـ): الرسالة القيروانية شرح عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام مالك، مع شرح القيروانية الميسر، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الفتح، الشارقة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)، (ص ٢٤).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/١٣٤).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق (٢/١٢٤).

مأخذ الاشتقاق له »[١]. فإذا قلنا: زيد غني وقوي؛ فهو يتصف بصفة الغنى وصفة القوة، ووصفه بهاتين الصفتين لا يعني تعدد ذات زيد؛ فذاته واحدة، ولكن صفاته تعددت في أذهاننا.

ووقف أهل السنة متعجبين أمام قول الاثني عشرية: « فقدرته من حيث الوجود حياته، وحياته قدرته، بل هو قادر من حيث هو حي، وحي من حيث هو قادر...؛ لأنه لو كانت مختلفة في الوجود وهي بحسب الفرض قديمة وواجبة كالذات للزم تعدد واجب الوجود، ولانثلمت الوحدة الحقيقية، وهذا ينافي عقيدة التوحيد »![٢].

والقارئ يعجب من إنكار المعتزلة والاثني عشرية لصفات المعاني، مع أن المتبصر بكتاب الله وسنته يجد أن الوحي قد نسب صفات المعاني إلى الله تعالى، فنسب العلم والقوة إليه؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر: ١١] وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥].

وفي الحديث الصحيح: « **اللّهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب..** » وهو دعاء الاستخارة[٣].

وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: « **اللّهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق...** »[٤].

---

(١) التفتازاني: شرح العقائد النسفية (ص ١٠٠، ١٠١).

(٢) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

(٣) والحديث بتمامه: « عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: « إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللّهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - يسميه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به. صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى رقم (١١٠٩).

(٤) والحديث بتمامه: « عن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: « اللّهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللّهم إني أسألك =

« فقد سمّى اللَّه ورسوله صفات اللَّه تعالى: علمًا وقدرة وقوة » [(١)].

فقال أهل السنة: « لو كان العلم نفس الذات والقدرة أيضًا نفس الذات - كما زعموه - لكان العلم نفس القدرة، فكان المفهوم من العلم والقدرة أمرًا واحدًا » [(٢)]. ووضحوا أن أصل هذا الخطأ هو الخلط و « عدم الفرق بين مفهوم الشيء وحقيقته » [(٣)].

ومن جهة أخرى: إذا كان مذهب أهل السنة والجماعة، والأشاعرة منهم - اعتقاد قدم الذات مع الأسماء والصفات؛ فإننا « نجد عند الأشاعرة منطقًا آخر غير مفهوم في تفسيرهم للعلاقة بين الذات والصفات؛ فقد ذهب « الأشاعرة ومن تأسى بهم إلى أن له تعالى صفات موجودة قديمة زائدة على ذاته؛ فهو عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة » [(٤)]. ومحل الغموض في مذهب الأشاعرة - علاوة على قولهم: إن الصفات زائدة على ذاته تعالى - أنهم لما سئلوا في تفسير هذه العلاقة بين الذات والصفات قالوا: « صفات اللَّه تعالى ليست عين الذات، ولا غير الذات » [(٥)]، قال اللقاني عن اللَّه ﷻ:

متكلّمٌ ثم صفات الذات ... ليست بعين ولا بغير الذات [(٦)]

وعللوا قولهم هذا بأن الصفات « لو كانت هي هو؛ لكان ذلك إنكارًا لوجود الصفات والقول بنفيها، وذلك مذهب المعتزلة، ولو كانت غيره لأصبحت ذواتًا مستقلة قائمة بنفسها؛ وذلك يوجب التعدد والكثرة » [(٧)]. ويرى المفيد قول الأشاعرة هذا بعيدًا عن الصواب، وينسب قائله إلى الجنون والخروج عن المعقول فيقول عمن يعتقد هذا: « ولو علم أنه قد زاد مناقضته فيما رام به الفرق وخرج عن المعقول لاستحيى من ذلك » [(٨)].

= خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللّهم زينّا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين ». سنن النسائي (٣/٥٤)، كتاب الصلاة: باب نوع آخر منه (أي: من الدعاء)، رقم (١٣٠٥).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/١١٣ - ١١٥).

(٢) المواقف (٣/٧٠).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق (٣/٦٨).

(٥) التفتازاني: شرح العقائد النسفية (ص ١٠٢).

(٦) اللقاني: جوهرة التوحيد (ص ١٣١).

(٧) انظر: نهاية الإقدام (٢٠٠ - ٢١٠)، عن ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١١٣).

(٨) انظر: المفيد: الفصول المختارة من الفصول والمحاسن (ص ٢٨٠) دار الأضواء - بيروت (ط٤)، (١٩٨٥م)، وانظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ١٥٧، ١٥٨).

والحقيقة أن قول الأشاعرة وكذلك المعتزلة مع الاثني عشرية والجهمية والكرّامية - كله مستصعب غامض؛ ذلك أنه خوض فيما لا قدرة للعقل البشري على خوض غماره، وقد أدرك التفتازاني - الماتريدي - هذه الحقيقة فقال في مبحث الصفات: « ولصعوبة هذا المقام ذهبت المعتزلة والفلاسفة إلى نفي الصفات، والكرّامية إلى نفي قدمها، والأشاعرة إلى نفي غيريتها وعينيتها » (١).

وقد حاول أحد مفكري الاثني عشرية المعاصرين أن يقرّب - أو يطور - مذهب الاثني عشرية في الصفات قائلًا: « الصفات الإلهية ليست لها مصاديق مستقلة كل واحدة عن الأخرى، وعن الذات الإلهية؛ بل إن هذه الصفات كلها مفاهيم ينتزعها العقل من مصداق واحد بسيط هو الذات الإلهية المقدسة » (٢). وأنت تقرأ أن الكاتب الاثني عشري قد وضع يده على محز المفصل، فقرر ما ذكره أهل السنة من التفريق بين مفهوم الصفات وحقيقتها، ولو انتبه الشيعة الأوائل لذلك لما أنكروا قدم الصفات. ولكن التعنت في الصفات بإنكار قدمها جاء بسبب الروايات الكثيرات التي أكدت حدوث الأسماء والصفات:.

القول بحدوث صفات المعاني والأسماء في روايات الاثني عشرية:

صرحت رواية عن الأئمة بحدوث الأسماء والصفات: عن أبي جعفر الثاني قال: « والأسماء والصّفات مخلوقاتٌ، والمعاني والمعنيّ بها هو اللّٰه الّذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنّما يختلف ويأتلف المتجزّئ، فلا يقال: اللّٰه مؤتلفٌ، ولا: اللّٰه قليلٌ، ولا: كثيرٌ، ولكنّه القديم في ذاته؛ لأنّ ما سوى الواحد متجزّئٌ، واللّٰه واحدٌ لا متجزّئٌ » (٣).

وورد عن أمير المؤمنين أنه قال: « أول الديانة معرفة اللّٰه، وكمال معرفته توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، والإخلاص نفي الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة الموصوف أنه غير الصفة، وشهادتهما جميعًا بالتنبيه على أنفسهما بالحدث الممتنع من الأزل » (٤).

---

(١) التفتازاني: شرح العقائد النسفية (ص ١٠٤).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥٣).

(٣) أصول الكافي (١٦٨/١)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.

(٤) القضاعي: دستور معالم الحكم (ص ٣٠٣)، وذكره محمد باقر المحمودي: نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة (٣٩/٣) دار التعارف - بيروت (١٣٩٧هـ).

ومن أكثر الصفات التي أنكرت روايات الاثني عشرية قدمها: صفة الكلام؛ فقد سأل أبو بصيرٍ أبا عبد اللّه جعفرًا الصادق: « قال: قلت: فلم يزل اللّه متكلّمًا؟ قال: فقال: إنّ الكلام صفةٌ محدثةٌ ليست بأزليّةٍ كان اللّه ﷷ ولا متكلّم » (١). وفي نهج البلاغة: « وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنًا، ولو كان قديمًا لكان إلهًا ثانيًا » (٢).

إن رأي المعتزلة والاثني عشرية في إثبات خلق القرآن قد تبلور وتوضح في إثباتهم حدوث الأسماء الحسنى الإلهية، وهذا ما عبرت عنه هذه الروايات:

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: « اسم اللّه غيره، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوقٌ ما خلا اللّه، فأمّا ما عبّرته الألسن أو عملت الأيدي فهو مخلوقٌ، واللّه غايةٌ من غاياته، والمغيّا غير الغاية والغاية موصوفةٌ، وكلّ موصوفٍ مصنوعٌ، وصانع الأشياء غير موصوفٍ بحدٍّ مسمّى » (٣).

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: « من عبد اللّه بالتّوهّم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته الّتي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته؛ فأولئك أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام حقًّا. وفي حديثٍ آخر: أولئك هم المؤمنون حقًّا ».

وعن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبد اللّه عليه السلام عن أسماء اللّه واشتقاقها اللّه ممّا هو مشتقٌّ؟ قال: فقال لي: « يا هشام اللّه مشتقٌّ من إلهٍ، والإله يقتضي مألوهًا، والاسم غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئًا، ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التّوحيد. أفهمت يا هشام، قال فقلت: زدني، قال: إنّ للّه تسعةً وتسعين اسمًا، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كلّ اسمٍ منها إلهًا، ولكنّ اللّه معنًى يدلّ عليه بهذه الأسماء وكلّها غيره، يا هشام! الخبز اسمٌ للمأكول، والماء اسمٌ للمشروب، والثّوب اسمٌ للملبوس، والنّار اسمٌ للمحرق » (٤).

وعن عبد الرّحمن بن أبي نجران قال: « كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام أو قلت له: جعلني

---

(١) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٢) نهج البلاغة (١٢٣/٢).

(٣) أصول الكافي (١٦٤/١، ١٦٥)، كتاب التوحيد، حدوث الأسماء.

(٤) السابق (١٤٢/١)، كتاب التوحيد، باب المعبود.

اللَّه فداك نعبد الرّحمن الرّحيم الواحد الأحد الصّمد؟ قال: فقال: إنّ من عبد الاسم دون المسمّى بالأسماء أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئًا، بل اعبد اللَّه الواحد الأحد الصّمد المسمّى بهذه الأسماء دون الأسماء، إنّ الأسماء صفاتٌ وصف بها نفسه » [(١)].

وقال أيضًا: « إنّ ربّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيفٍ، لم يزل حيًّا بلا حياةٍ..... كان حيًّا بلا حياةٍ حادثةٍ » [(٢)].

– **وقد جاءت رواية تُبيّن كيفية خلق الأسماء وحدوثها:**

عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: « إنّ اللَّه تبارك وتعالى خلق اسمًا بالحروف غير متصوّتٍ وباللّفظ غير منطقٍ وبالشّخص غير مجسّدٍ وبالتّشبيه غير موصوفٍ وباللّون غير مصبوغٍ، منفيٌّ عنه الأقطار مبعّدٌ عنه الحدود محجوبٌ عنه حسّ كلّ متوهّمٍ مستترٌ غير مستورٍ، فجعله كلمةً تامّةً على أربعة أجزاءٍ معًا ليس منها واحدٌ قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماءٍ لفاقة الخلق إليها، وحجب منها واحدًا وهو الاسم المكنون المخزون فهذه الأسماء الّتي ظهرت فالظّاهر هو اللَّه تبارك وتعالى. وسخّر سبحانه لكلّ اسمٍ من هذه الأسماء أربعة أركانٍ؛ فذلك اثنا عشر ركنًا، ثمّ خلق لكلّ ركنٍ منها ثلاثين اسمًا فعلًا منسوبًا إليها،... وما كان من الأسماء الحسنى حتّى تتمّ ثلاثمائةٍ وستّين اسمًا، هي نسبةٌ لهذه الأسماء الثّلاثة. وهذه الأسماء الثّلاثة أركانٌ، وحجب الاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثّلاثة، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء: ١١٠] » [(٣)].

والمتعمق في روايات الأئمة يجد أن الأئمة إنما كانوا يريدون بالقول بخلق صفات المعاني والأسماء الحسنى: تنزيه اللَّه تعالى عن مشابهة المخلوقات، وفزعًا من تعدد القدماء مع الذات الإلهية، أمّا إن أمن من هذين المحذورين فلا تجد الروايات حرجًا من القول بأزلية هذه الأسماء والصفات، ودليل ذلك هذه الرواية:

عن أبي هاشم الجعفريّ قال: « كنت عند أبي جعفرٍ الثّاني عليه السلام فسأله رجلٌ فقال: أخبرني عن الرّبّ تبارك وتعالى له أسماءٌ وصفاتٌ في كتابه وأسماؤه وصفاته هي هو؟ فقال أبو جعفرٍ عليه السلام: إنّ لهذا الكلام وجهين: إن كنت تقول: هي هو أي إنّه ذو عددٍ

(١) أصول الكافي (١/١٤٢)، كتاب التوحيد، باب المعبود.

(٢) السابق (١/١٤٣ – ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧).

(٣) السابق (١/١٦٤، ١٦٥)، كتاب التوحيد، حدوث الأسماء.

وكثرةٍ؛ فتعالى اللّٰه عن ذلك، وإن كنت تقول: هذه الصّفات والأسماء لم تزل؛ فإنّ لم تزل محتملٌ معنيين؛ فإن قلت: لم تزل عنده في علمه وهو مستحقّها فنعم، وإن كنت تقول: لم يزل تصويرها وهجاؤها وتقطيع حروفها؛ فمعاذ اللّٰه أن يكون معه شيءٌ غيره، بل كان اللّٰه ولا خلق، ثمّ خلقها وسيلةً بينه وبين خلقه، يتضرّعون بها إليه ويعبدونه، وهي ذكره، وكان اللّٰه ولا ذكر والمذكور بالذّكر هو اللّٰه القديم الّذي لم يزل، والأسماء والصّفات مخلوقاتٌ والمعاني والمعنيّ بها هو اللّٰه الّذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنّما يختلف ويأتلف المتجزّئ، فلا يقال: اللّٰه مؤتلفٌ، ولا: اللّٰه قليلٌ، ولا: كثيرٌ، ولكنّه القديم في ذاته؛ لأنّ ما سوى الواحد متجزّئٌ واللّٰه واحدٌ لا متجزّئٌ » (١).

فهذا النص يؤكد أن جهد الإمام كان منصبًا على إنكار قدم الأسماء من حيث نطقنا بها، لا من حيث أزليتها وقدم اتصاف اللّٰه تعالى بها. وهذا متفق عليه، وقد تطرق إليه علماء الكلام من الفرق الأخرى، يقول الباقلاني: « أما الوصف فهو قول الواصف للّٰه تعالى ولغيره بأنه عالم حي قادر منعم متفضل، وهذا الوصف الذي هو كلام مسموع أو عبارة عنه غير الصفة القائمة باللّٰه تعالى التي لوجودها به يكون عالمًا وقادرًا ومريدًا » (٢).

فقد كان هنالك جدل حول الصفات وقدمها بين تلامذة الأئمة؛ فعن جعفر بن محمّد ابن حمزة قال: « كتبت إلى الرّجل عليه السلام أسأله: إن مواليك اختلفوا في العلم؟ فقال بعضهم: لم يزل اللّٰه عالمًا قبل فعل الأشياء، وقال بعضهم: لا نقول لم يزل اللّٰه عالمًا؛ لأنّ معنى يعلم يفعل، فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئًا، فإن رأيت جعلني اللّٰه فداك أن تعلّمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه. فكتب عليه السلام بخطّه: لم يزل اللّٰه عالمًا تبارك وتعالى ذكره ». وجاء في رواية أخرى: « لم يزل اللّٰه عالمًا بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء » (٣).

ولهذا يرى الأستاذ الدكتور السنهوتي أن الهدف من هذه الروايات التنزيه وتأكيد التوحيد، فيقول: « ويبدو من هذه الأخبار أن الأئمة كانوا يهدفون من وراء نفي الصفات الزائدة تأكيد عقيدة التوحيد، لاختلاطهم بالزنادقة وأبناء الفرس والثنوية » (٤).

---

(١) أصول الكافي (١٦٨/١)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.

(٢) الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني): تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل (ص ٢٤٥)، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٧م) تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر.

(٣) أصول الكافي (١٦٠/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد كمال =

والذي يهمنا من روايات الاثني عشرية تأكيدها على صفات اللّه تعالى، دون ذلك التقسيم، فالمهم أنهم يثبتون علم اللّه وقدرته وباقي الصفات، وهذا المقدار يكفي في مجال العقيدة الصافية، دون ذلك الجدل العقيم عن علاقة الذات بالصفات:

يقول محمد الباقر: « كان اللّه ﷻ ولا شيء غيره، ولم يزل عالمًا بما يكون؛ فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه »[١].

نقد تعمّق المتكلّمين وخوضهم في الصفات الإلهية:

والحقيقة أن البحث عن كيفية ارتباط الذات الإلهية بصفاتها وأسمائها - صعب مستصعب؛ ولذلك لم يكلفنا المولى ﷻ عناء الخوض فيه؛ لأنه خارج نطاق قدرات العقل البشري، ولذلك زلّت فيه أقدام معظم المتكلمين.

وأسوق هنا كلام الإمام الغزالي الذي بيّن فيه وُعُورة هذه المسألة، وعمق وتوسع الخلاف حولها، وأسباب الاختلاف فيها: « قد كثر الخائضون في الاسم والمسمى وتشعبت بهم الطرق وزاغ عن الحق أكثر الفرق؛ فمن قائل: إن الاسم هو المسمى ولكنه غير التسمية، ومن قائل: إن الاسم غير المسمى ولكنه هو التسمية، ومن ثالث معروف بالحذق في صناعة الجدل والكلام يزعم أن الاسم قد يكون هو المسمى، كقولنا للّه تعالى: إنه ذات وموجود، وقد يكون غير المسمى كقولنا: إنه خالق ورازق، فإنهما يدلان على الخلق والرزق وهما غيره، وقد يكون بحيث لا يقال: إنه المسمى ولا هو غيره، كقولنا: إنه عالم وقادر، فإنهما يدلان على العلم والقدرة، وصفات اللّه لا يقال: إنها هي اللّه تعالى ولا: إنها غيره »[٢].

ثم بيّن الغزالي أن « الخلاف يرجع إلى أمرين؛ **أحدهما**: أن الاسم هل هو التسمية أم لا؟ **والثاني**: أن الاسم هل هو المسمى أم لا؟ والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى، وأن هذه ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة، ولا سبيل إلى كشف الحق فيه إلا ببيان معنى كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة مفردًا، ثم بيان معنى قولنا: هو هو، ومعنى قولنا: هو غيره؛ فهذا منهاج الكشف للحقائق، ومن عدل عن هذا المنهج لم ينجح أصلًا.

... فلذلك لا بد من معرفة معنى الاسم ومعنى المسمى ومعنى التسمية، ومعرفة معنى

= جعفر، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، رسالة دكتوراه عام (١٩٧٧م)، (ص ١٠٠).

(١) أصول الكافي (١/١٥٩)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٢) ورأي الغزالي هذا هو رأي الأشاعرة كما نعلم.

الهوية والغيرية حتى يتصور أن يعرف بعد ذلك أنه هو أو غيره، فنقول في بيان حد الاسم وحقيقته: إن للأشياء وجودًا في الأعيان، ووجودًا في الأذهان، ووجودًا في اللسان. أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي » (١).

فإن كانت معرفة الصفات والأسماء الإلهية تستلزم كل هذا العناء الذي بيّن الغزالي سبيل تحققه؛ فإن في ذلك حرجًا كبيرًا تنزه اللّٰه تعالى عن تكليف خلقه به، ولكن هذا العناء إنما جاء من التعمق والتنطع والخوض في أمر ليس للعقل البشري فيه عدة ولا قدرة.

لقد « وضع المتكلمون هذه المعاني الصحيحة في هذه الألفاظ المستهجنة، ونفّروا الناس من القول بها » (٢). وكان يكفيهم الإيمان بها كما جاءت في لغة العرب.

والحقيقة أن هذا الخوض في معنى الصفة والاسم من المباحث المبتدعة، فإن الصحابة والتابعين ومن تبعهم من سلف الأمة الصالح « لم نشهد لديهم هذا الجدل العقيم في أمور العقائد، الذي وجدناه فيما بعد لدى متكلمي الإسلام من معتزلة وأشاعرة؛ ومن ثم لم تكن مسألة الصفات الإلهية موضع خلاف أو نزاع لدى كبار الأئمة من أمثال مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي والثوري وغيرهم » (٣).

« إن هؤلاء الذين أثاروا مشكلة الصفات إنما ابتدعوا للمسلمين مشكلة مزعومة فرّقتهم، وجعلت بعضهم يكفّر بعضًا، مع أنه كان يكفي في حلها أن توضع وضعًا جيدًا منذ أول الأمر، فيقال: هل تجوز المماثلة بين اللّٰه والإنسان؟ فإنها لو حددت على هذا النحو لما تطلبت حلًا، ولعلم واضعوها أنه أولى بهم أن يعترفوا بهذه الصفات دون أن يبحثوا في حقيقتها؛ لأنه ليس في طاقة المخلوق أن يعلم ذات الخالق وصفاته على النحو الذي يعلمه من نفسه وصفاته هو » (٤).

وقد أحسن الإمام الغزالي رحمه الله عندما رد على الزمخشري الذي سأله عن هذه الآية: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] فأجابه الغزالي: إذا استحال أن تعرف نفسك

(١) المقصد الأسنى (ص ٢٤، ٢٥) نشر الجفان والجابي، قبرص (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، الفصل الأول في بيان معنى الاسم والمسمى والتسمية.

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٦٧).

(٣) المرجع السابق (ص ٩٥).

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٦٥ - ١٦٧). وانظر: د. محمود قاسم: مقدمة مناهج الأدلة لابن رشد (ص ٤٥).

بكيفية أو أينية؛ فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف، وهو مقدس عن ذلك، ثم جعل الغزالي يقول:

قل لمن يَفهم عني ما أقولُ قَصِّرِ القولَ فذا شرحٌ يطول
ثَمّ سرٌّ غامضٌ من دونِهِ قَصُرت واللَّهِ أعناقُ الفحول
أنتَ لا تعرفُ إياكَ ولا تدرِ من أنتَ ولا كيفَ الوصول
لا ولا تدري صفاتٍ رُكِّبتْ فيكَ حارتْ في خفاياها العقول
أين منكَ الروحُ في جوهرِها هل تراها فترَى كيفَ تجول؟
وكذا الأنفاسُ هل تَحْصُرُها؟ لا ولا تدْرِي متى عنكَ تزول
أين منكَ العقلُ والفهمُ إذا غلب النومُ، فقل لي يا جَهول
أنتَ أكْلَ الخُبْزِ لا تعرِفُه كيف يجري منكَ أمْ كيفَ تبول
فإذا كانتْ طواياكَ التي بين جنبيكَ كذا فيها ضَلُول
كيف تدري مَنْ على العرشِ استوى لا تقل: كيف استوَى كيفَ النزول
كيف يحكي الربُّ أم كيف يرى فلعمرِي ليسَ ذا إلا فضول
فهو لا أينَ ولا كيفَ له وهو ربُّ الكيفِ والكيف يحول
وهو فوقَ الفوقِ لا فوقَ له وهو في كلِّ النواحي لا يزول
جل ذاتًا وصفات وسما وتعالى قَدْرُهُ عما تقول [١]

ولعل من أسباب خوض المتكلمين - معتزلة وأشاعرة واثني عشرية وغيرهم - في ذات اللَّه تعالى وصفاته العلية: الغرور العقلي والثقة الزائدة بالقدرات الذهنية البشرية. « وقد نتج عن هذه الثقة الكبيرة بالعقل نوع من الإقدام وعدم التهيب في تناول أي مسألة وإبداء الرأي حولها دون خوف أو وجل، أيًّا كانت طبيعة الموضوع المراد بحثه. وقد رأينا نفرًا من المعتزلة ينتقدون الصحابة، ويضعفون كثيرًا من الأحاديث الثابتة في الصحيحين؛ لاعتقادهم أنها تخالف ضرورات العقول وقواطع الشرع! » [٢].

---

(١) ا.د. مصطفى سعيد الخن: مبادئ العقيدة الإسلامية (ص ١٣٦) مطبعة جامعة دمشق الطبعة السادسة.
(٢) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم: حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ٣٩٩).

ولذلك فلا يمكن فهم قول الأشاعرة: (إن صفات اللَّه تعالى ليست ذات اللَّه تعالى ولا عين ذاته)؛ فهذا قول لا يمكن تصوره عقلًا. كما أنه لا يمكن فهم قول الاثني عشرية عن الصفات بأنها (عين الذات)، وأن (كل واحدة منها عين الأخرى).

وهذا ما يعترف به الزنجاني - الاثنا عشري - إذ يقول: « فالبحث في الصفات إن كان بحسب الواقع فهو مع فرض الذات عبارة عما ذكرناه تطويل بلا طائل...، وعلى أي حال بالغوا في البحث عن أيٍّ منها عين الذات؟ وأي منها زائد على الذات؟ » [(١)].

وكذلك قول المعتزلة ثم الاثني عشرية من بعدهم بنفي صفات المعاني (كالحياة والقدرة والإرادة..) وقولهم: إن اللَّه حي بنفسه لا بحياة، لا يمكن تفسيره، وقد وصف اللَّه تعالى نفسه في كتابه بالصفات المعاني والمعنوية، فوصف نفسه بأنه (عليم) و (علّام) وأنه (ذو علم)، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكيف يتصور أصلًا وجود عالم بلا علم، وحي بلا حياة؟ إن كل هذه المسائل مما نهانا اللَّه تعالى عن الخوض فيه، وأخشى أن يكون من يحشر أنفه في الحديث عن علاقة الذات بالأسماء والصفات ممن قال تعالى فيهم: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ولأجل جهلنا بحقيقة الذات الإلهية فقد جاءت الأوامر النبوية عند أهل السنة والشيعة لتقول للناس: « تفكّروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق ». وهذه بعض الروايات عن الأئمة تنهى عن الخوض في ذات اللَّه تعالى وصفاته: فمن قول علي ﷺ: « من تفكر في ذات اللَّه تعالى تزندق » [(٢)].

وقال أبو جعفرٍ ﵇: « تكلّموا في خلق اللَّه، ولا تتكلّموا في اللَّه، فإنّ الكلام في اللَّه لا يزداد صاحبه إلا تحيّرًا ». وفي روايةٍ أخرى: « تكلّموا في كلّ شيءٍ، ولا تتكلّموا في ذات اللَّه » [(٣)].

---

(١) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٨، ٢٩)، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٢) القضاعي: (الحافظ أبو عبد اللَّه محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي): دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم اللَّه وجهه (ص ١٨٦) دار القلم - دمشق (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

(٣) أصول الكافي (١٤٧/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية. وأورده الصدوق في كتابه التوحيد، باب: النهي عن الكلام (ص ٤٥٤).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الله عز وجل يقول: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]. فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا.

وقال: « إنّ النّاس لا يزال بهم المنطق حتّى يتكلّموا في الله فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إله إلا الله الواحد الّذي ليس كمثله شيءٌ » [(١)].

وقال أيضًا: « من نظر في الله كيف هو؛ هلك ». وقال أيضًا: « إنّ ملكًا عظيم الشّأن كان في مجلسٍ له فتناول الرّبّ تبارك وتعالى ففقد فما يدرى أين هو » [(٢)].

وهذا أمر متفق عليه في روايات أهل السنة والشيعة، فقد « روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: العجز عن الإدراك إدراك، والبحث في ذات الله إشراك، سبحان من لم يجعل سبيلًا إلى معرفته إلا العجز عن معرفته، ولا ينبغي أن نتوهم فيه كيف؛ لأن الكيف عنه مرفوع » [(٣)].

ولأجل خطورة مسلك المتكلمين فيما لا قدرة لعقولهم في الوصول إليه؛ جاء نهي الأئمة عن علم الكلام كله: قال أبو جعفرٍ عليه السلام: « يا زياد! إيّاك والخصومات؛ فإنّها تورث الشّكّ وتهبط العمل وتردي صاحبها وعسى أن يتكلّم بالشّيء فلا يغفر له، إنّه كان فيما مضى قومٌ تركوا علم ما وكّلوا به وطلبوا علم ما كفوه حتّى انتهى كلامهم إلى الله فتحيّروا، حتّى إن كان الرّجل ليدعى من بين يديه فيجيب من خلفه، ويدعى من خلفه فيجيب من بين يديه. وفي روايةٍ أخرى: حتّى تاهوا في الأرض » [(٤)].

وروايات الأئمة تحذر من التفكر في ذات الله، وتدعو إلى التفكر في خلق الله تعالى للوصول إلى عظمة الله: عن أبي جعفر قال: « إيّاكم والتّفكّر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه ».

ويبين الإمام جعفر الصادق أن ضآلة الإنسان وضعفه ينبغي أن يصدّه عن الخوض في ذات الله تعالى؛ فالإنسان عاجز عن إدراك بعض المخلوقات؛ فكيف يعرف حقيقة رب الأرباب؟ قال جعفر الصادق: « يا بن آدم! لو أكل قلبك طائرٌ لم يشبعه، وبصرك

---

(١) أصول الكافي (١/١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٢) السابق نفسه، والمعنى ففقد ما كان يعرف هو ولا يدري في أي مكان هو من الحيرة. والحديث موثق كالصحيح كما ذكر المجلسي: مرآة العقول (١/٣٢٤).

(٣) انظر: ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (دراسة لمنهج ابن تيمية في الإلهيات وموقفه من المتكلمين والفلاسفة والصوفية) دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة (ط٥)، (٢٠٠٠م)، (ص ٨١).

(٤) أصول الكافي (١/١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

لو وضع عليه خرق إبرةٍ لغطّاه! تريد أن تعرف بهما ملكوت السّموات والأرض؟! إن كنت صادقًا فهذه الشّمس خلقٌ من خلق اللَّه؛ فإن قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول » [١].

ومما يحسن التنبيه إليه أن هذه النصوص الواردة عن أئمة الشيعة قد ورد معناها في كتب أهل السنة والجماعة؛ فقد استدل الإمام أبو حامد الغزالي على منع الخوض في مسائل علم الكلام بقول النبي ﷺ: « **هلك المتنطّعون** » قالها ﷺ ثلاثًا [٢] وقال: « أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء » ثم قال: « وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف، قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصًا الفرد، وكان من متكلمي المعتزلة يقول: لأن يلقى اللَّه عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك باللَّه خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام... وقال أيضًا: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد. وقال أيضًا: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له... وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدًا » [٣].

ولكن للأسف لا أهل السنة التزموا بما ورد في كتب أحاديثهم وفقهائهم، ولا الشيعة التزموا بما ورد عن أئمتهم؛ فخاض معظمهم في مباحث الذات الإلهية باسم علم الكلام وتوسعوا فيها، كما سنرى فيما يلي من مباحث صفات اللَّه عز وجل، ولو أنصف الفلاسفة والمتكلمون « لصرحوا أنهم والعامة سواء في كشف حجب الغيب الإلهي، ولعلموا أن العقل البشري مغلوب على أمره أمام إدراك الذات واكتناه حقيقتها، وفي مثل هذه المرحلة من التفكير يستوي جميع الناس؛ فلاسفة كانوا أم عامة أم دهماء » [٤].

ثالثًا: أنواع الصفات الإلهية في روايات الاثني عشرية:

تقسم الصفات الإلهية عند الاثني عشرية إلى ذاتية « منتزعة من الذات الإلهية بالنظر إلى أنها واحدة لنوع من أنواع الكمالات، أمثال الحياة والقدرة.. ». وفعلية: وهي « نوع من الارتباط بين اللَّه تعالى ومخلوقاته؛ كالخالقية والرازقية » [٥].

---

(١) أصول الكافي (١/١٤٨)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم (٢٦٧٠).

(٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين (١/٩٥).

(٤) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (١٢٦).

(٥) انظر: محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٩٠).

الفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال:

يفرق الشيعة بين صفات الذات وصفات الفعل، « فصفات الذات كالوجود والعلم والقدرة والحياة والسرمدية ونحوها، وهي عين ذاته كما تقدم، وصفات الفعل كالخالقية والرازقية والإحياء والإماتة، فهي حادثة، وهي أمور اعتبارية انتزعت باعتبار المخلوق والمرزوق والمحيى والممات... والضابط في الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل أن صفات الذات ما اتصف اللَّه تعالى بها وامتنع اتصافه بضدها كالعلم والقدرة والحياة ونحوها،... وصفات الفعل ما يتصف تعالى بها وبضدها، فيقال: إن اللَّه تعالى خلق زيدًا، ولم يخلق ابنه، وأحيا زيدًا وأمات عمرًا » (١).

وقد جاء هذا التفريق بين الصفات في بعض الروايات؛ إذ تقول إحداها: « إنّ كلّ شيئين وصفت اللَّه بهما وكانا جميعًا في الوجود فذلك صفة فعلٍ... وصفات الذّات تنفي عنه بكلّ صفةٍ منها ضدّها، يقال: حيٌّ وعالمٌ وسميعٌ وبصيرٌ وعزيزٌ وحكيمٌ غنيٌّ ملكٌ حليمٌ عدلٌ كريمٌ. فالعلم ضدّه الجهل، والقدرة ضدّها العجز، والحياة ضدّها الموت، والعزّة ضدّها الذّلّة، والحكمة ضدّها الخطأ، وضدّ الحلم العجلة والجهل، وضدّ العدل الجور والظّلم » (٢).

وهذا التفريق بين صفات الذات والفعل وجد عند الفرق الأخرى، قال الباقلاني الأشعري: « صفات فعله هي الخلق والرزق والعدل والإحسان والتفضل والإنعام والثواب والعقاب والحشر والنشر، وكل صفة كان موجودًا قبل فعله لها » (٣). غير أنه لا يترتب على تقسيم الأشاعرة للصفات إلى صفات الذات والفعل كبير فرق؛ إذ يعتقدون – كباقي أهل السنة والجماعة – قدم هذه الصفات، يقول الباقلاني بعد تعريفه صفات الفعل: « غير أن وصفه لنفسه بجميع ذلك قديم؛ لأنه كلامه الذي هو قوله: إني خالق رازق باسط، وهو تعالى لم يزل متكلمًا بكلام غير محدث ولا مخلوق » (٤). وهذا خلاف رأي الاثني عشرية كما سنرى:

- **أولًا: صفات الأفعال:**

والذي يهمنا بعد تعريف صفة الفعل والتفريق بينها وبين صفات الذات أن نذكر رأي الاثني عشرية في حدوث هذه الصفات، يقول شبر: « وليست هذه الصفات قديمة،

---

(١) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) أصول الكافي (١/١٦٣)، كتاب التوحيد، باب جملة القول في صفات الذات وصفات الفعل.

(٣، ٤) الباقلاني: التمهيد (ص ٢٩٩).

وإلا لزم قدم العالم، فقد كان اللّه ولم يكن خالقًا ولا رازقًا ولا محييًا ولا مميتًا [!!]، وهذه الصفات ليست صفات كمال حتى يلزم النقص من انتفائها عنه تعالى، بل الكمال إنما هو قدرته تعالى على الخلق وعلمه بمصلحة وقت إيجادهم، بل ربما كان استمرار هذه الصفات وقدمها وأبديتها نقصًا؛ كما إذا كان الصلاح في إيجاد زيد في هذا اليوم لا قبله ولا بعده، فإيجاده قبل ذلك أو بعده نقص على اللّه تعالى » [١].

وقد نص علماء الشيعة على أن هذه الصفات زائدة على الذات، بخلاف صفات الذات التي هي عين الذات عندهم، فقالوا: « هذه الصفات زائدة؛ إذ لا يمكن كون النقيضين عين ذاته تعالى، فلا بد من زيادتها فلا تكون من صفات الذات، وأيضًا يلزم من كونها صفات الذات قدمها مع زيادتها، فيلزم تعدد القدماء، وأيضًا لو كانت من صفات الذات لزم زوالها عند طروء نقيضها، فيلزم التغيير في الصفات الذاتية » [٢].

وإذا قارنا موقف الاثني عشرية من صفات الأفعال بموقف أهل السنة لرأينا أنهم لم يروا صفات الأفعال إلا تجلّيات لصفة القدرة والإرادة، فالإحياء والإماتة والرزق والخلق والإعدام إنما هي عائدة إلى صفة الإرادة والقدرة الإلهية على مقتضى علم اللّه تعالى. ولم يقع أهل السنة في مشكلة فهم العلاقة بين القدرة والإرادة القديمتين، ووجود الأشياء المخلوقة وإعدامها بهما؛ إذ يقولون: إن هناك فرقًا بين قدرة اللّه تعالى وإرادته القديمتين، وتعلّقات هاتين الصفتين العظيمتين بالأشياء، فالتعلق (تنجيزي حادث) أما الصفة فقديمة أزلية، وبالتالي فلم يضطروا إلى القول بحدوث صفات الأفعال؛ لأنهم فرقوا بين الصفة ومتعلقاتها، فهذا الطحاوي يقول في حقّ الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته: « له معنى الرب ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحيا؛ استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم » [٣]. وذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه [٤]، أي قبل خلقه تعالى لمتعلقات هذه الصفات. فلا يوافق أهل السنة على جسارة ونكارة قول شبر الاثني عشري: « فقد كان اللّه ولم يكن

---

(١) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٦٥، ٦٦).

(٣) الطحاوية مع شرحها (ص ١٤٢) المكتب الإسلامي (١٣٩١هـ) بيروت (ط٤). وانظر شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

(٤) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

خالقًا ولا رازقًا ولا محييًا ولا مميتًا »[(١)]!!. بل يقولون معتقدين قدم صفات الأفعال كصفات الذات: « أما صفات الأفعال كخالق ورازق فالقول فيها أن البارئ تعالى لم يزل موصوفًا بها؛ لأنه يستحيل أن يكون البارئ تعالى في الأزل غير خالق وغير رازق ثم صار كذلك، وإنما المحدثات الخلق والرزق والمخلوق والمرزوق »[(٢)].

ولا يفوت الباحث أن ينبه أن الاثني عشرية - ومعهم كثير من المتكلمين - عندما يدرسون الصفات يؤخرون الحديث عن صفات الأفعال عن صفات الذات، ولكن الباحث ابتدأ الحديث هنا بصفات الأفعال، لقصر الحديث فيها، ولطول الحديث عن صفات الذات، فإن أخرت ربما كلّ الذهن عن تذكرها، فلا يريد الباحث أن ينسى القارئ في تجواله الطويل في صفات الذات صفات الأفعال.

وسيبدأ الحديث الآن عما سماه الاثنا عشرية بصفات الذات:

- ثانيًا: صفات الذات:

يقسم الاثنا عشرية صفات الذات للّه تعالى إلى صفات ثبوتية وسلبية.

فالصفات الثبوتية هي الصفات التي تثبت للذات الإلهية معاني الكمال.

ويرى علماء الاثني عشرية - ككثير من المتكلمين - أنها صفات لا تنحصر، ولكن أشهرها (القدرة والعلم والإرادة والإدراك - أو السمع والبصر مكانه - والكلام والصدق والسرمدية، أو البقاء). يقول الزنجاني: « ونعتقد أن من صفاته تعالى الثبوتية الحقيقية الكمالية التي تسمى بصفات الجمال والكمال؛ كالعلم والقدرة والغنى والإرادة والحياة هي كلها عين ذاته ليست هي صفات زائدة عليها، وليس وجودها إلا وجود الذات... وأما الصفات الثبوتية الإضافية كالخالقية والرازقية[(٣)]... فهي ترجع في حقيقتها إلى صفة واحدة حقيقية وهي القيومية لمخلوقاته، وهي صفة واحدة تنتزع منها عدة صفات، باعتبار اختلاف الآثار والملاحظات »[(٤)].

أما الصفات السلبية فهي الصفات التي تنفي النقائص عن الذات الإلهية.

---

(١) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٥).

(٢) البطليموسي: (أبو محمد، عبد اللّه بن محمد السيد البطليوسي الأندلسي): الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة (ص ١٠٥)، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى (١٩٨٨م).

(٣) لاحظ أن عبد اللّه شبر سماها صفات أفعال، انظر: حق اليقين (ص ٦٥).

(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

ويفسر عبد الله شبر قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] بأن الجلال هو الصفات السلبية، والإكرام: الصفات الثبوتية [١] ولذلك يسميها: صفات الجلال، وهذه التسمية أجمل وأكمل من تسميتها باسم الصفات السلبية، لما قد يتوهمه العقل من مفهوم خاطئ عن لفظ (السلبية). وإن استخدمه كثير من المتكلمين من أهل السنة والاثني عشرية وغيرهم [٢].

أ - صفات الكمال (الثبوتية):

لقد أكد علماء الاثني عشرية على أن الصفات الثبوتية لا حصر لها، قائلين: « إن صفات الكمال والجمال لا تنحصر؛ لأن الخلو عن الكمال نقص، وكل نقص منفي، وكل كمال ثابت له تعالى، وإلا استحال كونه صانعًا » [٣].

ومع ذلك حاول الاثنا عشرية إحصاء هذه الصفات، « فقد اتفقت عبارات أهل الكلام في مقدار عددها، واختلفت عباراتهم في اعتبار معدودها، فجعلها المحقق الطوسي في تجريده ثمانية؛ وهي (القدرة والعلم والحياة والإرادة والإدراك والكلام والصدق والسرمدية). وجعلها بعضهم هذه، لكن اعتبر موضع الإدراك والسمع والبصر ولم يعتبر الصدق، واعتبر البقاء موضع السرمدية، ولا يخفى أولوية اعتبار الإدراك فإنه أعم من السمع والبصر... وبالجملة فوجه الاقتصار على هذه الصفات الثمانية - مع أن صفاته تعالى كثيرة جدًّا - أن الغرض بيان الصفات الذاتية الحقيقية، وما عدا المذكورات إما إضافة محضة كالخالق والرازق والحفيظ ونحوها، أو ترجع إلى المذكورات كما لا يخفى، على أنه يمكن أيضًا رد جميع الصفات إلى القدرة والعلم، فإن الإرادة والكلام يرجعان إلى القدرة [٤]. وما سواهما إلى العلم، بل يمكن رد الجميع إلى وجوب الوجود » [٥] على حدّ قول الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير [٦]

---

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٩، ٦٠).

(٢) فالأشاعرة قسموا صفات الله تعالى إلى: صفة ذاتية واحدة هي الوجود. وخمس صفات سلبية: وهي (الوحدانية، والقيام بالنفس، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث). وتتقارب هذه الصفات السلبية بين الشيعة والأشاعرة من حيث المضمون.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤).

(٤) رجوع صفتي الإرادة والكلام إلى صفة القدرة غير مسلّم به.

(٥) المصدر السابق (ص ٤١، ٤٢).

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٢).

وقد أرجع الأشاعرة وكثير من المتكلمين الصفات الإلهية الثبوتية إلى غالب هذه الصفات التي ذكرها الاثنا عشرية، ولكنهم سمّوها صفات المعاني: (العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، الحياة) [١]:

١ - (صفة العلم):

الآيات القرآنية التي تتحدث عن علم اللّٰه تعالى كثيرة، وقد استشهد بها الشيعة وأهل السنة على السواء، كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٢]، وتدل الآيات على شمول علم اللّٰه: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

والحقيقة أن ما ذكره المتكلمون سنة وشيعة في التدليل على وجود اللّٰه تعالى بدليل الإتقان والعناية يصلح للتدليل به على علم اللّٰه تعالى وحكمته، يقول عبد اللّٰه شبر مستدلًا على علم اللّٰه تعالى بإتقانه صنع خلقه: « وتأمل في النمل واهتدائها إلى ادخار قوتها وجمعه، وتعاونها على النقل كتعاون الناس على العمل وعمدها إلى قطع الحبّ لكيلا ينبت ويفسد عليهم، وإن أصابته نداوة أخرجوه ونشروه حتى يجف » [٢].

وكذلك اعتمد المعتزلة ثم الأشعرية والماتريدية على دليل الإحكام والإتقان في الكون على إثبات كونه ﷻ عليمًا، واستدلوا على هذه الصفة أيضًا بأن المخلوقات تستمد من الخالق بقاءها، فلا بد من كون الخالق عليمًا، وقد قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

واستدلوا بكونه تعالى مريدًا على كونه عالمًا؛ لأن العلم هو الذي يخصص الإرادة، كما أن مفهوم الكمال يدل على صفة العلم؛ لأن الجهل نقص واللّٰه منزه عنه [٣].

وقد مر قول الاثني عشرية في العلم الإلهي بعدة أطوار حتى استقر على ما يوافق جمهور المتكلمين، فهشام بن الحكم، على ما نقل عنه الأشعري [٤]، والبغدادي [٥] -

---

(١) انظر: جوهرة التوحيد (ص ١٠٥ - ١١٣).

(٢) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٩).

(٣) انظر: الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١١١ - ١١٥).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين (١/٢٥٦).

(٥) انظر: البغدادي: أصول الدين (ص ٩٥)، وقارن فلاسفة الشيعة لعبد اللّٰه نعمة (ص ٤٣).

كان يقول بحدوث صفة العلم، والظاهر - كما يرى الدكتور السنهوتي - أن هذا المذهب كان قول عامة الشيعة الأوائل، كهشام بن الحكم وشيطان الطاق، وهو مذهب جهم بن صفوان من قبل [١].

وربما نجد في روايات الأئمة ما ينفي هذا القول عن هشام وإخوانه، فاحتمال وجود التباس [٢] على كتّاب الفرق؛ بين قول الاثني عشرية بحدوث متعلّقات صفة العلم - وهم أمر متفق عليه - وبين فكرة حدوث صفة العلم أساسًا، وهو أمر أنكرته روايات الاثني عشرية أنفسهم؛ ولذلك فإن الذي استقر عليه أخيرًا مذهب الاثني عشرية ومعظم المتكلمين: الاعتقاد بقدم صفة علم الله تعالى وأزليته وشموله. وهذا الاعتقاد هو المتسق مع روايات أئمة أهل البيت المبثوثة في كتب الحديث الاثني عشري؛ ومنها: عن أبي بصيرٍ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « لم يزل الله عز وجل ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم... فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم » [٣].

وقد أحسن الاثنا عشرية عندما ردّوا « على الفلاسفة الذين رأوا أن تعلق العلم بالجزئيات يستلزم حدوثه » [٤]. فقد كانت مسألة علم الله تعالى من المسائل التي زلت فيها أقدام بعض الفلاسفة، فتحدثوا عن قدم صفة العلم، وكذلك عن تعلق صفة العلم الإلهي بالجزئيات. « والحق أن البحث في كيفية علم الله بالأشياء جسارة عقلية ليس لها ما يسوغها؛ لأن هذا أمر يؤود طاقة الإنسان، ويتجاوز آماد مداركه، وإذا كان الإنسان قد عجز في ضوء علم النفس الحديث عن الوصول إلى نظرية صحيحة في كيفية المعرفة البشرية، فكيف يتطاول إلى معرفة كيفية علم الله بالأشياء، مع أنه لا مجال للمقارنة بين

---

(١) انظر هذه الآراء: الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١١٨). وقد اعتمد على ابن الخياط المعتزلي في (الانتصار).

(٢) وإن كان لهذا الالتباس المحتمل مبرر بعدم نضج أقوال متكلمي الاثني عشرية الأوائل، ولهذا أمثلة كثيرة، منها قول هشام بالجسمية، فإنه بعد قوله بأن الله جسم، قال: « جسمٌ ليس كمثله شيءٌ »!! أصول الكافي (١٥٨/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة. ونقل عنه الأشعري (مقالات الإسلاميين ص ٣٠٤) أنه عنى بالجسم الموجود!

(٣) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات. وكان الأولى بهذه الرواية أن تعبر عن العلم بكونه تعالى (عالمًا قديرًا) لا بالعلم والقدرة، وكأن التفريق بين صفات المعاني والمعنوية لم يكن قد تبلور ونضج.

(٤) الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٢٥).

علم الخالق والمخلوق والقديم والمحدث، إنه لا شك طمعٌ في غير مطمع، واستشراف لغيب يتأبى على الإدراك » [١].

٢ ، ٣ - (الأزلية والسرمدية):

وهما تعنيان عدم افتتاح الوجود واختتامه [٢]. فاللَّه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، « **هو الأول بلا أول قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده** » [٣].

وبمعنى الأزلية جاء وصف المتكلمين للَّه تعالى بأنه (القديم) [٤] « بمعنى أنه سابق الموجودات » [٥].

فالقديم المطلق هو اللَّه تعالى القائل: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [المعارج: ٤١]. والباقي المطلق هو اللَّه تعالى، فهو سبحانه لا ينام ولا يموت ولا يفنى، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨].

والدليل على هاتين الصفتين من العقل: « أنه لو جاز عليه الحدوث في الماضي والانعدام في المستقبل « لاحتاج إلى مؤثر في إيجاده وإعدامه، فيكون المؤثر أولى بأن يكون هو واجب الوجود، ولأنه لو لم يكن كذلك لم يكن وجوده واجبًا ولا أزليًا، فيكون محتاجًا - تعالى اللَّه عن ذلك - بل هو الغني بذاته عما سواه » [٦].

« ولهذا لما سئل الباقر عن اللَّه تعالى: متى كان؟ قال: متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟!، وعن أمير المؤمنين: إنما يقال: (متى كان) لما لم يكن، فأما ما كان فلا يقال: (متى كان). كان قبل القبل بلا قبل، وبعد البعد بلا بعد » [٧].

٤ - (صفة الإدراك):

يثبت الاثنا عشرية صفة الإدراك للَّه تعالى، يقول المفيد: « القول في وصف الباري تعالى بأنه سميع بصير وراءٍ ومدرك: وأقول: إن استحقاق القديم سبحانه لهذه الصفات

---

(١) ا.د. السنهوتي: التنزية والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٢٧).

(٢) الباجوري: شرح جوهرة التوحيد (ص ٨٨، ٨٩).

(٣) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١).

(٤) الباجوري: شرح جوهرة التوحيد (ص ٨٨، ٨٩).

(٥) المصباح المنير (٤٩٣/٢).

(٦، ٧) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١).

كلها من جهة السمع دون القياس ودلائل العقول » [١].

وقد اختلف أهل السنة في صحة نسبة هذه الصفة للّٰه تعالى، يقول اللقاني مبينًا الخلاف في هذه الصفة:

وهـل لـه إدراك أو لا؟ خـلـف عند قـوم صـح فيـه الوقف [٢]

وما دام إثبات الصفات الإلهية يتم من جهة السمع، أي صحّة الخبر - كما ذكر المفيد - فأين نجد صفة (مدرك) في الكتاب والسنة الصحيحة؟ إن من الملاحظ أن اللّٰه تعالى سمّى نفسه في القرآن الكريم بالسميع والبصير، ولم يسمّ نفسه مدركًا، إنما جاء الفعل من الإدراك في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فلو وقف المتكلمون حيث وقف القرآن لكانوا مصيبين، وخصوصًا أنهم قالوا: إن صفات اللّٰه وأسماءه توقيفية، لا مجال للعقول في النقصان منها أو الزيادة عليها:

واختير أن اسماه توقيفية كذا الصفات فاحفظ السمعية [٣]

٥ - (صفة الحياة):

وقد عرفها شبر بأنها: « صفة يتأتى معها العلم والقدرة، والدليل على ذلك مضافًا إلى النقل ثبوت القدرة والعلم له بما تقدم، وثبوتهما دليل على الحياة بل لازمها، فهو ﴿ ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] » [٤].

وقد أرجع الاثنا عشرية صفة الحياة إلى القدرة والعلم، فقالوا: « حياة اللّٰه عين ذاته كسائر صفاته غير زائدة عليها، ومرجعها إلى القدرة والعلم » [٥]. وهذا قريب مما قرره أهل السنة، فقد جاء في المسامرة: « (والعلم والقدرة) أي الاتصاف بهما (بلا حياة) أي بلا اتصاف بها (محال)... هي صفة حقيقية قائمة بالذات تقتضي صحة العلم والقدرة والإرادة » [٦].

---

(١) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٤)، دار المفيد - بيروت (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).

(٢) اللقاني: جوهرة التوحيد، مع شرحها للشيخ إبراهيم الباجوري (ص ١٢٠).

(٣) المصدر السابق (ص ١٤٦).

(٤) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٢).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) ابن الهمام (كمال الدين بن همام الدين عبد الواحد بن عبد الحميد الحنفي): « المسايرة في العقائد =

وتنفي الروايات الشيعية أن يكون للَّه تعالى حياة حادثة: عن أبي جعفر قال: « إن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيف، ولم يزل حيًّا بلا حياة... كان حيًّا بلا حياة حادثة » (١).

٦ - (القدرة):

وفي هذه الصفة لا يخرج استدلال الشيعة على ما ذكره أهل السنة وغيرهم، فقدرة اللَّه تعالى لا تحتاج إلى كبير عناء في إثباتها، ولكن الاثني عشرية دخلوا في مسائل كلامية أثناء جدلهم للفرق الأخرى حول مسألة تعلّقات صفة القدرة، فقد ردّوا على المعتزلة والأشاعرة في مسألة فعل القبيح وهل يجوز على اللَّه تعالى؟ يقول شبر: « أما قول المعتزلة: إنه لا يقدر على القبيح والشر لاستلزامه الظلم؛ باطل، فإن القدرة على القبيح ليست بظلم، فسبحانه قادر على ذلك منزّه عن فعله، وقد فروا من الظلم ووقعوا في العجز، ونحن بفضل اللَّه نفينا كلًّا منهما عنه تعالى، والمؤمن الصالح قادر على المعاصي والشرور ولا يفعلها مع قدرته عليها لعلمه بقبحها، ولا يقال هو عاجز عنها، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ [الجن: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] » (٢).

ويقول أيضًا: « وقول الأشاعرة بنسبة الشر إليه تعالى ووقوعه منه باطل أيضًا؛ لأنه ظلم منافٍ للحكمة، وهم قد فروا من الشرك في خلق الأفعال زاعمين أن في أفعاله تعالى الشرور، وقد وقعوا في الظلم الذي هو كفر أيضًا، ولا قبح في أفعاله تعالى، بل كلّها خير لا شرّ فيها، ولأن ذلك منافٍ للقدرة والعلم والحكمة، وخفاء الحكمة لا يدل على عدمها » (٣).

وقد جاءت روايات الاثني عشرية لتؤكد أنه لا ينبغي السؤال عن شمول قدرة اللَّه، وتنهى عن الافتراضات السخيفة التي لم يرد بها نقل ولم يرض بها عقل، فقد جاء عن جعفر الصادق: « أن إبليس قال لعيسى ابن مريم: أيقدر ربك على أن يدخل الأرض في بيضة؛ ولا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة؟ فقال عيسى - عليه الصلاة والسلام -: ويلك!

= المنجية في الآخرة » مع شرحها « المسامرة » للكمال بن أبي شريف (ص ٦٦). دار المعارف الإسلامية - كراتشي.

(١) أصول الكافي (١/١٤٣ - ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧).

(٢) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٣).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٥).

إن اللّه - تعالى - لا يوصف بعجز، ومن أقدر ممن يلطف الأرض ويعظم البيضة » [١]..

وقد جاء هذا الجواب مصداق جواب جميل مفحم للخصم من علي ﷺ لخصمه وقد سأله هذا السؤال فقال علي ﷺ: « إن اللّه تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز، والذي سألتني لا يكون » [٢].

إن هذه المسائل ليست مما علم من الدين بالضرورة، ولا مصلحة للخوض فيها من جميع الفرق الكلامية، ومثلها السؤال الذي ردده بعض المتكلمين: هل يجوز للرب أن يعذب المطيع ويثيب العاصي؟!! [٣].

تعلّق القدرة بالممكنات: « التعلق هو طلب الصفة أمرًا زائدًا على الذات يصلح لها، والذي اعتمده المحققون أن التعلق لصفات المعاني فقط » [٤].

وقد أجمع متكلمو الشيعة وأهل السنة على أن « العمل الذي تتعلق به القدرة لا بد أن يكون ممكن التحقق، فالشيء المحال في ذاته أو المستلزم للمحال لا تتعلق به القدرة » [٥].

وقال اللقاني - من الأشاعرة:

وقـدرة بمـمـكـنٍ تـعـلـقـت ... بلا تناهي ما به تعلقت [٦]

---

(١) الصدوق: التوحيد (ص ١٢٧)، بحار الأنوار (١٤٧/٤).

(٢) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٥، ٤٦).

(٣) قال الباجوري: (شرح جوهرة التوحيد ص ٢٢٨، ٢٢٩): « فليست الطاعة مستلزمة للثواب، وليست المعصية مستلزمة للعقاب، وإنما هما أمارتان عاديتان تدلان على الثواب لمن أطاع والعقاب لمن عصى، حتى لو عذّب اللّه المطيع وأثاب العاصي، بأن جعل الطاعة أمارة على العذاب، والمعصية أمارة على الثواب لكان منه ذلك حسنًا سبحانه، لا يسأل عما يفعل، وهذا كلّه بحسب العقل، وأما بحسب الشرع فلا يجوز خلف الوعد لأنه سفه، وهو يستحيل عليه سبحانه، وأما الوعيد فهو في حق الكفار واقع لا محالة... أما في حق المؤمنين فواقع في بعضهم لورود الأخبار ». وهكذا نرى أن الأشاعرة وصلوا في النهاية إلى الاستحالة الشرعية لتعذيب الطائع وإثابة العاصي، فما فائدة التركيز على الجانب العقلي في المسألة ما دام الأمر شرعيًا؟! إن هذا الخوض في هذه المسألة هو الذي جرّأ عليهم بعض الاثني عشرية كالحلّي الذي اتهم الأشاعرة بأنهم يعتقدون « أنه تعالى يفعل الظلم والعبث » ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٢)، تحقيق عبد الرحيم مبارك (ط١) مؤسسة عاشوراء للتحقيقات، قم.

(٤) الباجوري: شرح جوهرة التوحيد للقاني (ص ١٣٣).

(٥) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٩٥).

(٦) انظر: مجموعة منظومات أمهات العلوم (ص ١٩). وشرح جوهرة التوحيد للباجوري (ص ١٣٣).

٧ - (**الإرادة**):

الإرادة صفة من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من وجود أو عدم أو مكان أو زمان.. إلخ [١].

والقدر الواجب اعتقاده في صفة الإرادة متفق عليه بين المسلمين، « ويكفي المكلف أن يعتقد أن أفعال اللّه تعالى تصدر منه بالإرادة والاختيار بمقتضى الحكمة والمصالح، وأنه تعالى ليس بمقهور فيها » [٢].

« والدليل على أنه تعالى مريد لأفعال عبيده وكاره لبعضها: أنه تعالى أمرهم بالطاعة فيكون مريدًا لها، ونهاهم عن المعصية فيكون كارهًا لها؛ إذ إن الحكيم لا يأمر إلا بما يريد ولا ينهى إلا عما يكره، وحينئذ فإرادته تعالى ترجع إلى العلم بالأصلح، وكراهيته إلى العلم بالمفسدة، وقد صرح بهما في الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ.. ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]... ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨] » [٣].

وقد عنون شبر لهذه الصفة بقوله: « الإرادة: الأدلة على أنه تعالى مريد كاره » [٤].

وبالمقابلة بين الإرادة والكراهة في هذا العنوان نعلم أن الاثني عشرية فهموا من الإرادة معنى المحبة والرضا!

وقد وقع الاثنا عشرية - والمعتزلة من قبلهم - في تناقض عندما قالوا بأن اللّه لا يريد الشرور؛ حيث إن الجميع يعلم أنه سبحانه مهيمن على خلقه، ولا يقع منهم شيء إلا بإرادته؛ ولذلك انبرى عبد اللّه شبر يؤول هذا المذهب، فيقول: « وقد ورد في جملة من الأخبار أنه لا يقع في الوجود شيء إلا بإرادة اللّه تعالى، وقد ثبت أن اللّه لا يريد المعاصي والشرور والكفر والزندقة، وأن جميع ذلك غير مراد له تعالى وغير مرضي عنه، **ويمكن تطبيق ذلك من عدة وجوه:**

الأول: أن مشيئته تعالى وإرادته متعلقة بجميع الموجودات، ولكن بهذا المعنى، وهو أنه أراد تعالى أن لا يكون شيء إلا بعلمه كما يرشد إليه بعض الأخبار.

---

(١) انظر: كبرى اليقينيات الكونية، أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ١٢١).

(٢) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٤، ٥٥).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٣). (٤) المصدر السابق (ص ٥٢).

الثاني: أن الإرادة متعلقة بالأشياء كلها، لكن تعلقها بها على وجوه مختلفة؛ لأن تعلقها بأفعال نفسه بمعنى إيجادها والرضا بها، لكونها كلها حسنة واقعة على وجه الحكمة، والشر القليل تابع لخيرات كثيرة فيه وليس مرادًا بالذات، وتعلقها بأفعال العباد إما بالطاعات فهو إرادة وجودها، وإما بالمعاصي فهو إرادة ألا يمنع منها بالجبر والقهر كما صرح به الصدوق في العقائد، أو إرادة عدمها كما فسر به قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ.. ﴾ [الأنعام: ١٠٧] أي لو شاء عدم شركهم على سبيل الإجبار ما أشركوا، ولكن لم يشأ على هذا الوجه لمنافاته غرض التكليف، وإنما شاء على سبيل الاختيار، لتكون لهم القدرة على الفعل والترك، ويدل على ذلك.... عن الرضا: إرادة اللّٰه تعالى ومشيئته في الطاعات؛ الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها، وإرادته ومشيئته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها...

الثالث: أن تعلقها بأفعاله تعالى هو ما مر، وتعلقها بأفعالهم على سبيل التجوّز باعتبار إيجاد الآلة والقدرة عليها وعدم المنع منها فكأنه أرادها [١]. وهذا الوجه الثالث قريب من تعريف أهل السنة والجماعة للإرادة.

الرابع: أن إرادته تعالى عبارة عن العلم بما في الفعل من مصلحة [٢]. وهذا القول ضعيف مردود؛ فقد جعل الإرادة بمعنى العلم، وهما ليسا شيئًا واحدًا.

الخامس: أن إرادة العبد لأفعاله مخلوقة للّٰه تعالى، كما صرح به السيد الداماد في تفسير قول الصادق: خلق اللّٰه المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة؛ حيث قال: المراد هنا إرادة المخلوقين، والمراد أنه تعالى خلق إرادتهم بنفسه، لا بمشيئة أخرى مباينة لها، ثم خلق الأشياء يعني أفاعيلهم المترتب وجودها على مشيئته بإرادتهم [٣].

اختلاف الاثني عشرية في صفة الإرادة: لقد ارتبكت أقوال الاثني عشرية في صفة الإرادة بين القول بقدمها أو حدوثها، فهناك نصوص تبين حدوث صفة الإرادة، قال شبر: « واعلم أنه ورد في جملة من الأخبار عن الأئمة الأطهار أن إرادته عبارة عن إيجاده وإحداثه، وأنها من صفات الفعل الحادثة كالخالقية والرازقية ونحوها، لا من صفات الذات » [٤]. ومن هذه الروايات قول عاصم بن حميد لجعفر الصادق: « لم يزل

---

(١) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٣).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق (ص ٥٤).

(٤) المصدر السابق (ص ٥٤، ٥٥).

اللَّه مريدًا؟ » قال الصادق: « إن المريد لا يكون إلا لمراد معه، لم يزل عالمًا قادرًا ثم أراد » (١)، وهو مذهب المفيد، وينسبه إلى جمهور الإمامية ومعتزلة بغداد، مخالفين في ذلك الشيخ الصدوق (٢).

قال المازندراني في شرح هذا الحديث: « فالإرادة من صفات الفعل التي يصح سلبها عنه في الأزل، ولا يلزم منه نقص، لا من صفات الذات كالعلم والقدرة، فإن نفيها عنه يوجب النقص وهو الجهل والعجز، وثبوتهما لا يوجب وجود المعلوم والمقدور معه في الأزل. لا يقال قوله (ثم أراد) دل على اتصافه بإرادة حادثة كما هو مذهب طائفة من المعتزلة، وهو باطل لاستحالة اتصافه بالحوادث » (٣).

لقد كان الخلط بين الصفة القديمة ومتعلقاتها الحادثة - وهي المخلوقات - سببًا من أسباب ارتباك عبارات الاثني عشرية في الصفات، وقد أدرك هذا بعض الاثني عشرية كالطوسي، فذهب إلى أن « الإرادة تطلق على معنيين،... **أحدهما**: الإرادة الحادثة وهي التي فسرت في الحديث بأنها نفس الإيجاد وإحداث الفعل (٤)، **وثانيهما**: الإرادة التي هي من الصفات الذاتية التي لا تتصف الذات بنقيضها أزلًا وأبدًا، وهي التي وقع النزاع فيها، فذهب جماعة منهم المحقق إلى أنها نفس علمه الحق بالمصالح والخيرات وعين ذاته الأحدية، وذهب الأشاعرة إلى أنها صفة غير العلم، وأيد ذلك بعض المحققين بما رواه الكليني عن الفتح بن يزيد عن أبي الحسن: « إن للَّه - تعالى - إرادتين إرادة حتم وإرادة عزم » (٥).. بأن

---

(١) الكليني: أصول الكافي (١٠٩/١) طبعة غفاري.

(٢) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ١٧٨، ١٧٩)، وخالف المفيد بهذا الشيخ الصدوق واتهمه بأنه « عمل على ظواهر الأحاديث المختلفة ولم يكن ممن يرى النظر فيميز بين الحق منها والباطل ويعمل على ما يوجب الحجة ومن عول في مذهبه على الأقاويل المختلفة كانت حاله في الضعف ما وصفناه » انظر: المفيد: تصحيح اعتقادات الإمامية (ص ٤٩) دار المفيد - بيروت (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

(٣) المازندراني: شرح أصول الكافي (٢٦٤/٣)، وانظر: عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٥).

(٤) وهذا يجعلها صفة القدرة لا الإرادة، فقد عرّف العلماء القدرة بأنها: صفة يتأتى بها إيجاد كل ممكن أو إعدامه أو تكييفه. انظر كبرى اليقينيات لأستاذنا الدكتور البوطي (ص ١٢٢).

(٥) الكليني: أصول الكافي، باب الإرادة والمشيئة. النص بتمامه: عن أبي الحسن عليه السلام قال: إنّ للَّه إرادتين ومشيئتين إرادة حتم وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء أوما رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشّجرة وشاء ذلك ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة اللَّه تعالى وأمر إبراهيم أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة اللَّه تعالى ». لاحظ أنّ الرواية تجعل الذبيح إسحاق عليه السلام وهو قول شاذ مردود؛ لأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

المراد بإرادة الحتم القديمة وبالعزم الحادثة »[(١)].

والحقيقة أن أصل الخطأ الذي وقع فيه المفيد والمازندراني وغيرهما في هذه المسألة هو: الخلط بين صفتي الإرادة والقدرة، وكذلك عدم التمييز بين الصفة وتعلقاتها.فصفة القدرة - كما هو مذهب أهل السنة - قديمة، في حين أن تعلّقاتها التنجيزية حادثة. وشتان بين الصفة وتعلّقاتها.

ثم كيف استساغ شبر وغيره التفريق بين الإرادة والقدرة - من حيث التقسيم - فجعلوا الإرادة صفة فعل، في حين جعلوا القدرة صفة ذات، وهما في الحقيقة سواء في تعلقهما بالممكنات؟!

إفراد الاثني عشرية للعدل بأصل خاص: وإذا كان العدل صفة إرادة اللّٰه تعالى وقدرته، فإن الاثني عشرية قد أطالوا الحديث عن عدل اللّٰه تعالى، وأفردوا - والمعتزلة من قبلهم - العدل الإلهي بأصل خاص، ورأوا أنهم انفردوا وتميّزوا به عن باقي الأمة، واتهموا الأشاعرة وغيرهم بنسف صفة العدل الإلهي، يقول ابن مطهر الحلي، وهو من أكثر من رأيته يفتري على متكلمي أهل السنة -: « وذهب أهل السنة إلى خلاف ذلك كله، فلم يثبتوا العدل والحكمة في أفعاله تعالى، وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب، وأنه تعالى لا يفعل لغرض... وأنه تعالى يفعل الظلم والعبث »[(٢)]!!

والحقيقة أن المسلمين جميعًا من كل الطوائف مقرّون بعدل اللّٰه تعالى وحكمته، وأنهما من صفاته ﷻ، وقد قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى آمرًا عباده بالعدل فيما بينهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]؛ ولذلك فإن أصل الاعتقاد بالعدل الإلهي متفق عليه بين الطوائف الإسلامية، وهذا ما أقرّ به بعض كتّاب الاثني عشرية، يقول الأستاذ مرتضى المطهري: « ولا بد من التنبيه على أن منكري العدل لم ينكروه صراحة؛ لأن القرآن الكريم الذي يعتمد عليه كلا الطرفين قاوم الظلم ونفاه عن ذات اللّٰه سبحانه، ودعا إلى العدل وأثبته لذات اللّٰه سبحانه »[(٣)].

---

(١) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٥).

(٢) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٢)، تحقيق عبد الرحيم مبارك (ط١) مؤسسة عاشوراء للتحقيقات قم.

(٣) مرتضى مطهري: العدل الإلهي (ص ٢١، ٢٢)، الدار الإسلامية (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، (ط٣) - بيروت.

ويقول شبر: « العدل به يتم التوحيد، وتتوقف عليه سائر الأصول من النبوة والإمامة والمعاد، وهو وإن كان داخلًا في جملة صفاته تعالى... ولكنه أفرد لكثرة متعلقاته وأصوله ليسهل فهمه، وقد قال أمير المؤمنين: التوحيد ألا تتوهمه، والعدل ألا تتهمه، وبالجملة فالعدل هو اعتقاد أنه تعالى عادل في مخلوقاته غير ظالم لهم، لا يفعل قبيحًا ولا يخل بواجب، ولا يجور في قضائه ولا يحيف في حكمه وابتلائه، يثيب المطيعين، وله أن يعاقب العاصين، ولا يكلف الخلق ما لا يطيقون ولا يعاقبهم زيادة على ما يستحقون » (١).

وهذا الكلام لا غبار عليه، غير أن الاثني عشرية يضمون له مسائل فرعية يخالفون بها أهل السنة؛ منها: مسألة الحسن والقبح وأنهما عقليان، وأنه تعالى لا يريد إلا الطاعات ولا يخلق أفعال عباده (٢). بخلاف أهل السنة الذين يرون أن الحسن والقبح شرعيان، لا عقليان، وقد أحسن مرتضى مطهري في بيان هذه المسألة الفرعية عندما قال: « الأشاعرة فسروا العدل تفسيرًا خاصًّا فقالوا: إن العدل ليست له حقيقة ثابتة من قبل بحيث نستطيع تحديدها وجعلها معيارًا ومقياسًا لأفعال الباري جل وعلا،... فكل ما يفعله فهو عدل، وليس كل ما هو عدل فهو يفعله، فالعدل والظلم متأخران ومنتزعان من فعل اللّه سبحانه، فالعدل ليس مقياسًا لفعل اللّه، ولكن فعل اللّه هو مقياس العدل،.. أما المعتزلة فقد ناصروا العدل وقالوا: إن العدل له حقيقة مستقلة، ولما كان اللّه سبحانه حكيمًا وعادلًا فهو ينجز أفعاله حسب معيار العدل » (٣).

وقد حاولَ بعض المحدثين من دعاة التقريب أن يوضح سلامة القصد في المنهجين في هذه المسائل الفرعية معلنًا « أن لكلٍّ من الطائفتين المعتزلة والشيعة الإمامية في جانب وأهل السنة والصوفية في جانب آخر - وجهته في الثناء على الكمال الإلهي ». « فالمعتزلة والإمامية يؤثرون الدفاع عن جانب العدل الإلهي، أما أهل السنة والصوفية وجماعة من السلف الصالح فإنهم يؤثرون جانب الدفاع عن الحرية الإلهية، أي الحرية المطلقة للّه سبحانه، وهي الحرية التي لا تقيدها قيود ولا تعلوها قوة أخرى، والتي يستشهدون لها بقوله: ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولكل من

---

(١) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٨٣).

(٢) انظر المسائل التي فرعها عبد اللّه شبر عن العدل الإلهي في: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٨٣ - ٩٠).

(٣) مرتضى مطهري: العدل الإلهي (ص ٢١، ٢٢)، الدار الإسلامية (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، (ط٣) بيروت.

الجانبين المتضادين في نظر المنهج العلمي الحديث وجهة هو موليها » [١].

وعلى كلّ حال فإن هذه المسألة وأمثالها من المسائل الفرعية، وليست من المسائل الأساسية في العقيدة، والخلاف فيها عريض بين الفرق الإسلامية، ولا ينبني عليها كثير فائدة، وتوشك أن تكون من المشكلات الزائفة، وهذه المشكلات لا تستوجب تأصيل أصل خاص للعقيدة؛ حيث لم يرد في القرآن ولا في السنة تأصيله، وتسمية المعتزلة ومن تبعهم في هذه الفروع العقدية باسم أهل العدل يوهم باستقلالهم لوحدهم بالإيمان بالعدل الإلهي، وهذا من المزاودة على الآخرين، وكأن الطوائف الإسلامية الأخرى قد أنكرت عدل اللّه في خلقه!!

٨ ، ٩ - (السميع والبصير بلا جارحة):

ورد في كتاب اللّه تعالى وسنة النبي ﷺ وصف الرب الجليل بالسمع والبصر، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

وقد جاءت الروايات عن الأئمة تتحدث عن هاتين الصفتين للّه تعالى:

عن أبي هاشمٍ الجعفريّ قال: « كنت عند أبي جعفرٍ الثّاني عليه السلام... فسأله رجلٌ: فكيف سمّينا ربّنا سميعًا؟ فقال: لأنّه لا يخفى عليه ما يدرك بالأسماع، ولم نصفه بالسّمع المعقول في الرّأس، وكذلك سمّيناه بصيرًا؛ لأنّه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار من لونٍ أو شخصٍ أو غير ذلك، ولم نصفه ببصر لحظة العين » [٢].

عن الصادق أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال عن اللّه عز وجل: « هو سميعٌ بصيرٌ، سميعٌ بغير جارحةٍ وبصيرٌ بغير آلةٍ، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه، ليس قولي: إنّه سميعٌ يسمع بنفسه وبصيرٌ يبصر بنفسه أنّه شيء، والنّفس شيء آخر.. أنّه السّميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذّات ولا اختلاف المعنى » [٣].

قال المازندراني: « أي ليس في ذاته أجزاء يسمع ببعضها ويبصر ببعضها كما أنه ليس لذاته صفات زائدة عليها قائمة بها لاستحالة التركيب فيه » [٤].

---

(١) د. حامد حفني داود: تقديمه لكتاب عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر (ص ٢٢، ٢٣)، (ط٣)، مؤسسة أنصاريان، قم (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

(٢) أصول الكافي (١٦٨/١)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.، وباب الفرق ما بين المعاني التي تحت أسماء اللّه (١٧٢/١، ١٧٣).

(٣) أصول الكافي (١٣٨/١)، كتاب التوحيد، باب في القول بأنه شيء.

(٤) المازندراني: شرح الكافي (٩١/٣).

والحقيقة أن الإمامية وإن كانوا يقرّون بهاتين الصفتين، ولكنهم يرجعونهما إلى صفة العلم، يقول المفيد: « المعنى في جميعها العلم خاصة دون ما زاد عليه في المعنى؛ إذ ما زاد عليه في معقولنا ومعنى لغتنا هو الحس، وذلك مما يستحيل على القديم... ولست أعلم من متكلمي الإمامية في هذا الباب خلافًا، وهو مذهب البغداديين من المعتزلة وجماعة من المرجئة ونفر من الزيدية » [١]، ويقول عبد اللَّه شبر: « المراد أنه تعالى عالم بجميع المسموعات والمبصرات بلا آلة لما تقدم في العلم، فمرجع هاتين الصفتين إلى العلم » [٢]. ويقول اليزدي: « وأما السميع والبصير فإن فسّرناهما بالعالم بالمسموعات والمبصرات، أو القادر على السمع والإبصار، فتؤول إلى العليم والقدير » [٣].

وهنا يطرح سؤالٌ: ما دامت صفة العلم تضمن صفتي السمع والبصر، فما الحكمة في أن يفردهما اللَّه تعالى دون العلم؟ يجيب عبد اللَّه شبر عن هذا السؤال بعدة احتمالات:

- « إما لأن اللَّه - تعالى - أفردهما بالذكر ووصف بهما ذاته في كتابه.
- أو لأن الغرض منهما الرد على من أنكر علمه تعالى بالجزئيات...
- وإما أن يكون الغرض من ذكرهما أن أكثر أفعال المكلفين لما كانت لا تخلو من المسموعات والمبصرات أفردهما - تعالى - بالذكر من مطلق العلم ليكون أزجر لهم عن المعاصي وأرغب لهم في الطاعات » [٤].

وهذا التكلف في رد صفتي السمع والبصر إلى العلم اضطر إليه متكلمو الشيعة؛ لأنه لا يمكنهم رد الأخبار المستفيضة حول هاتين الصفتين، ولولا تواتر الأخبار فيهما لردوهما، ولذلك اعترف علماؤهم بأن هاتين الصفتين عرفتا بالسمع دون العقل، وبالنص دون القياس، يقول المفيد: « القول في وصف الباري تعالى بأنه سميع بصير وراءٍ ومدرك؛ وأقول: إن استحقاق القديم سبحانه لهذه الصفات كلها من جهة السمع دون القياس ودلائل العقول » [٥].

تأويل صفة الكلام، والقول بخلق القرآن: القرآن الكريم ينسب الكلام إلى اللَّه تعالى:

---

(١) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٤)، دار المفيد بيروت (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).
(٢) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١).
(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٩١).
(٤) عبد اللَّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١، ٥٢).
(٥) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٤)، دار المفيد - بيروت (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

وقد ثبت أن اللّٰه تعالى يكلّم ملائكته الكرام: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.. ﴾ [البقرة: ٣٠]. ويكلم الأنبياء: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. ويكلم المؤمنين يوم القيامة: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]. ويكلم الكافرين وهم في جهنم: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقد أنزل اللّٰه تعالى على رسله الكتب السماوية، وهي من كلامه ﷻ. وعقيدة أهل السنة والجماعة أن اللّٰه تعالى متكلم، وصفته الكلام.

وخالف هذا المعتزلة وتبعهم الاثنا عشرية، فادعوا أن الكلام ليس صفة من صفات اللّٰه الأزلية القديمة، بل هو مخلوق من المخلوقات.

والمصادر التاريخية السنّية تؤكد أن أصل هذه الفكرة يهودية صرفة، مؤدّاها أن التوراة مخلوقة، نشرها لبيد بن أعصم [(١)]، ثم أدخلها الزنادقة في الإسلام، فادعوا خلق القرآن كما ادعى أسلافهم خلق التوراة [(٢)].

إذن يعتقد الشيعة أن الكلام صفة حادثة، وليست صفة أزلية للّٰه تعالى، ورأيهم هذا مطابق لمذهب المعتزلة، قال عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة: « وأما مذهبنا في ذلك (أي في القرآن) فهو أن القرآن كلام اللّٰه تعالى ووحيه وهو مخلوق محدث » [(٣)]، وقد

(١) هو يهودي عاصر النبي ﷺ وحاول سحره انظر: طبقات ابن سعد (١٩٨/٢)، دار صادر - بيروت (ط ١٩٦٨م).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣٥٠/٩) لابن كثير، وانظر: مختصر تاريخ دمشق، قال ابن منظور: « سئل أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الغسيل: ممن أخذ ابن أبي دؤاد؟ فقال: من بشر المريسي، وبشر المريسي أخذه من جهم بن صفوان، وأخذه جهم من الجعد بن درهم، وأخذه جعد بن درهم من أبان من طالوت ابن أخت لبيد وختنه، وأخذه طالوت من لبيد بن أعصم، اليهودي الذي سحر النبي ﷺ. وكان لبيد يقرأ القرآن، وكان يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت، وكان طالوت زنديقًا وأفشى الزندقة، ثم أظهره جعد ابن درهم ». مختصر تاريخ دمشق (٢٧٣/٢).

ومن الممكن أن تكون الفكرة من بقايا دين الصابئة، أدخلها الجعد بن درهم؛ حيث كان من أهل حران، وحران هي موطن الصابئة بقايا دين النمروذ والكنعانيين، ومذهب هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية، أو مركب منهما. انظر: الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ٢٠٦).

(٣) القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة (ص ٥٢٨).

ذكر لنا التاريخ ما فعل المعتزلة - من خلال السلطة - بأئمة أهل السنة من أجل مسألة خلق القرآن، كالإمام أحمد والبويطي [(١)]، تلميذ الشافعي - وغيرهما.

وقد قام الاثنا عشرية يدافعون عن رأي المعتزلة في خلق القرآن، ويدللون عليه، يقول عبد الله شبر: « وحيث كان الكلام مركبًا من الحروف والأصوات، فالكلام عرض يقوم بالغير وهو حادث ضرورة، فيكون الغير الذي يقوم به الكلام محلًّا للحوادث فيكون الغير حادثًا، وحينئذ فمعنى كونه تعالى متكلمًا أنه موجد للكلام في جسم من الأجسام، كما أوجد الكلام وخلقه في شجرة الطور لموسى عليه السلام، وكذا في طبقة الأفلاك فتسمع الملائكة، وكذا في قلوب الأنبياء والرسل.... أو يوجدها في قلوب الملائكة والأنبياء والأوصياء [(٢)].

وكيف كان فالغرض من وصفه تعالى بالكلام قدرته تعالى على إيجاد الكلام لعموم قدرته... ونفس الكلام حينئذ من صفات الأفعال الحادثة؛ كالخالقية والرازقية، ويدل على حدوثه العقل والنقل، أما العقل فلأن الكلام مركب من الحروف المتتالية التي يتقدم بعضها بعضًا ويسبق بعضها على بعض فيكون حادثًا، وأما النقل فلقوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ [الأنبياء: ٢] والذكر هو القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]... وقد وصفه الله تعالى بالحدوث » [(٣)].

وقد ردّ علماء أهل السنة على الاستدلال الاثني عشري، بأن « قولهم باطل وإلحاد، لصرفهم القرآن عن ظاهره المتبادر من غير ضرورة، ويلزمهم أن يسموا الباري - تعالى مصوّتًا؛ لأنه خلق الأصوات، ونائمًا لأنه خلق النوم، إلى غير ذلك مما لا يليق ولا يصح تعقّله وإضافته إلى الرب جل وعلا » [(٤)].

فقوله تعالى: ﴿ .. وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]: « إسناد حقيقي لا مجازي، لتأكيده بالمصدر، والتأكيد يرفع المجاز » [(٥)].

(١) قال ابن كثير: « أبو يعقوب البويطي، وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن. وكان مثقلًا بالحديد ». البداية والنهاية (١٠/٣٦٩).

(٢) أي الأئمة، فعقيدة الاثني عشرية أن الأوصياء يكلّمهم الله من خلال الوحي الذي لا يرونه.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٦).

(٤) علي بن محمد المعروف بالموخر (كان حيًّا عام ١١١٨هـ): مبلّغ الطالب إلى معرفة المطالب (ص ١٨١)، (ط١)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م). تحقيق الشيخ حبيب ابن الطاهر.

(٥) المصدر السابق نفسه.

وقد دعم علماء الاثني عشرية رأيهم في مسألة خلق القرآن بروايات عن الأئمة: منها ما رواه أبو بصير عن جعفر الصادق... قال: قلت: « فلم يزل اللّه متكلّمًا؟ قال: فقال: إنّ الكلام صفةٌ محدثةٌ ليست بأزليّةٍ. كان اللّه ﷻ ولا متكلّم »[(١)].

ويتهم بعض الاثني عشرية الحنابلة من أهل السنة بأنهم يقولون بقدم الأصوات والحروف، يقول شبر: « والحنابلة ذهبوا إلى أن كلامه حروف وأصوات قديمة، بل قال بعضهم بقدم الجلد والغلاف »[(٢)]. وهذا القول ليس معبرًا عن مذهب الإمام أحمد وجمهور الحنابلة، ولا هو مذهب أهل السنة والجماعة[(٣)]؛ إذ « لم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمّة أنّ الصّوت الّذي تكلّم اللّه به قديمٌ؛ بل يقولون لم يزل اللّه متكلّمًا »[(٤)].

نصوص عن الأئمة تخالف الاتجاه المعتزلي: وقد جاء عن الأئمة نصوص تخالف ما نقله أئمة الكلام الاثني عشري، منها ما جاء في تفسير العياشي: « عن الرضا أنه سئل عن القرآن؟ فقال:... إنه كلام اللّه غير مخلوق »[(٥)].

وفي رجال الكشي: «... إن الكلام ليس بمخلوق.. »[(٦)].

وفي « التوحيد » لابن بابويه القمي قيل لأبي الحسن موسى ﵇: « يا ابن رسول اللّه، ما تقول في القرآن؛ فقد اختلف فيه من قبلنا فقال قوم: إنه مخلوق، وقال قوم: إنه غير مخلوق؟ فقال ﵇: أما إني لا أقول في ذلك ما يقولون، ولكني أقول: إنه كلام اللّه ﷻ »[(٧)].

وقد جاء قريبًا من هذا الكلام عن غير واحد من سلف الأمة، ومنهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل؛ فقد « كان أحمد وغيره من السّلف ينكرون على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوقٌ أو غير مخلوقٍ. يقولون: من قال: هو مخلوقٌ؛ فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوقٍ؛ فهو مبتدعٌ »[(٨)].

وكتب أهل السنة روت مثل هذا عن جعفر الصادق، كالبيهقي في الاعتقاد؛ حيث

---

(١) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣٦/٣). وقال: « لم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمّة أنّ الصّوت الّذي تكلّم اللّه به قديمٌ، بل يقولون: لم يزل اللّه متكلّمًا ». مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠٨/٣).

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠٨/٣).

(٥) تفسير العياشي (٨/١).

(٦) رجال الكشي (ص ٤٩٠).

(٧) ابن بابويه: التوحيد (ص ٢٢٤).

(٨) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣٦/٣).

قال بعد ذكر قول جعفر: « فهو عن جعفر صحيح مشهور ». وقال ابن تيمية: « إنه قد استفاض ذلك عن جعفر » [١].

ومن العجب أن يردّ بعض الاثني عشرية هذه النصوص بحجة أنها خرجت مخرج التقية أو بحجج أخرى؛ كالبروجردي الذي يقول عن إنكار الأئمة خلق القرآن: « ولعلّ المنع من إطلاق الخلق على القرآن إمّا للتّقية مماشاةً مع العامّة، أو لكونه موهمًا لمعنى آخر أطلق الكفّار عليه بهذا المعنى في قولهم: إن هذا إلا اختلاق » [٢]!.

وقال الصدوق ابن بابويه القمي « إنما امتنعنا من إطلاق المخلوق عليه؛ لأن المخلوق في اللغة قد يكون مكذوبًا، ويقال: كلام مخلوق: أي مكذوب، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [العنكبوت: ١٧] أي كذبًا » [٣]، وإذن فإن عبارة غير مخلوق عنده: « غير مكذوب، لا يعني به أنه غير محدث ».

ولكن هذا القول لم يرق للمجلسي، فقال بكل صراحة: « أقول: الظاهر أن فيه نوعًا من التقية أو الاتقاء لامتناع المخالفين من إطلاق هذا اللفظ على القرآن أشد الامتناع » [٤].

وقد نقل الأشعري في مقالات الإسلاميين أن هشام بن الحكم أنكر خلق القرآن، ولا عجب فهو معدود من أشهر تلامذة الصادق، « قال هشام بن الحكم ومن ذهب مذهبه: إن القرآن صفة للّه لا يجوز أن يقال: إنه مخلوق ولا: إنه خالق. هكذا الحكاية عنه، وزاد البلخي في الحكاية أنه قال: لا يقال غير مخلوق أيضًا كما لا يقال: مخلوق؛ لأن الصفات لا توصف، وحكى زرقان عنه أن القرآن على ضربين؛ إن كنت تريد المسموع فقد خلق اللّه سبحانه الصوت المقطع وهو رسم القرآن، وأما القرآن ففعل اللّه، مثل العلم والحركة منه، لا هو هو، ولا هو غيره » [٥].

ولذلك اقترب بعض كتّاب الاثني عشرية المعاصرين من مذهب الأشاعرة في الحديث عن صفة الكلام عندما قالوا: « وأما القرآن الكريم بمعنى هذه الكلمات المكتوبة أو الألفاظ أو المفاهيم الموجودة في الأذهان أو الحقيقة النورانية والمجردة فهو من المخلوقات، إلا أن يقال

---

(١) الاعتقاد (ص ٣٦)، منهاج السنة (٢٧٨/١)، وقد خرّج هذا النص في كتب كثير من كتب أهل السنة الدكتور القفاري (٦٦٢/٢) فيراجع للاستزادة.

(٢) تفسير الصّراط المستقيم (٣٠٤/١).

(٣) انظر: التوحيد (ص ٢٢٥)، بحار الأنوار (١١٩/٩٢).

(٤) بحار الأنوار (٨٤/٥٤).

(٥) مقالات الإسلاميين (ص ٥٨٢، ٥٨٣).

بأن العلم الإلهي الذاتي هو حقيقة القرآن، وفي هذه الصورة تؤول هذه الصفة إلى صفة العلم الذاتية » (١).

ومن الملاحظ أن رأي المعتزلة والاثني عشرية في القول بأن حقيقة القرآن هي العلم الإلهي، أتى موافقًا لما وصل إليه الأشاعرة، عندما قسموا الكلام إلى نفسي قديم، هو الذي يطلق عليه صفة الكلام، وكلام مخلوق حادث هو الألفاظ والأصوات والخطوط المثبتة في المصاحف، فصار الخطب بين الأشاعرة والمعتزلة ثم الاثني عشرية في هذه المسألة يسيرًا (٢).

وإن كان الأولى أن نقف حيث وقف القرآن، وهو ما أيّدته بعض روايات أئمة الاثني عشرية التي تنهى عن الخوض في هذه المسألة وأمثالها.

ولا يلام الاثنا عشرية وحدهم في تعرضهم لمسألة القرآن، ولكن يلام معظم الفرق الكلامية الإسلامية في أنها دخلت سردابًا مظلمًا ما استطاعت الخروج منه بسلام، فخاضت فيما لم يجز الخوض فيه، وفيما لا عدة ولا قدرة للخوض فيه، ولا طائل من البحث فيه؛ ولذلك عدّ أستاذنا الدكتور حامد طاهر هذه المسألة من (المسائل المزيفة) التي لا ينبني عليها عمل ولا فائدة (٣). وقد لاحظ هذه الحقيقة بعض كتّاب الشيعة المعاصرين كاليزدي الذي يقول: « هذه التأويلات حول الكلام الإلهي والقرآن الكريم بعيدة عن الفهم المعرفي للمخاورات ويلزم تجنبها » (٤).

ب - صفات الجلال (الصفات السلبية):

الصفات السلبية سماها عبد اللّه شبر بصفات الجلال (٥). و« صفات اللّه تعالى السلبية تنفي النقائص عنه تعالى؛ لأن إثبات الكمال لا يتم إلا بنفي النقائص، كما لا يتم إثبات الحق إلا بنفي الباطل » (٦). وهي « ترجع جميعها إلى سلبٍ واحد هو سلب الإمكان عنه، فإن سلب الإمكان لازمه، بل معناه سلب: الجسمية والصورة والحركة

---

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٠).

(٢) انظر: كبرى اليقينيات الكونية، للأستاذ الدكتور البوطي (ص ١٢٦).

(٣) د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا (ص ٨٧)، دار الثقافة العربية - القاهرة.

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٠).

(٥) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

(٦) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٩).

والسكون والثقل والخفة، وما إلى ذلك، بل سلب كل نقص » [١].

ويتناول الحديث عنها عند الإمامية: نفي التعدد (وهو صفة الوحدانية) ونفي التجسيم والحلول، ونفي الزمان والمكان ونفي الرؤية... إلخ مما سنتناوله بالتفصيل.

ومما يجدر التذكير به أولًا أن منهج القرآن الكريم في تناول الصفات هو الإجمال في صفات الجلال السلبية، والتفصيل في صفات الكمال الثبوتية، قال تعالى مبينًا صفات الجلال: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وقرَنَ سبحانه في مواضع كثيرة إجماله لصفات الجلال السلبية بتفصيله لصفات الكمال الثبوتية كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وفصّل في صفات الكمال الثبوتية فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، وقال في موضع واحد من سورة الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

ومما يؤسف له أن الذي جرى عليه المتكلمون شيعة وسنة هو عكس المنهج القرآني؛ إذ قاموا بالتفصيل في صفات الجلال السلبية، أكثر من التفصيل في صفات الكمال الثبوتية!. فيقولون إنه تعالى « ليس محلًا للحوادث كالنوم واليقظة والحركة والسكون والقيام والقعود... ». وقد أسرف كثيرٌ من المتكلمين في تفصيل الصفات السلبية حتى ذكروا ما لا ينبغي ذكره، حتى انتقدهم بعض العلماء في هذا المسلك، مؤكدين أن كثرة التفصيل في الصفات السلبية وضعت غشاوة على العقول، حتى صار مفهوم الإله غير معقول، وأقرب إلى العدم منه إلى الوجود [٢].

بل وصل الأمر عند بعضهم إلى ربط الكمال بنفي النقص دون إثبات بعض جوانب الكمال، يقول الزنجاني: « فغاية ما يجد العقل طريقًا إلى كماله المطلق هو سلب النقائص عنه سبحانه » [٣]. وهذا غير مسلم به، فالسلب ليس هو غاية الكمال.

---

(١) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

(٢) انظر: مثلًا ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/٣٣٦).

(٣) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

- **تفصيل الاثني عشرية للصفات السلبية تأثرٌ واضح بمنهج المعتزلة:**

وإذا رجعنا قليلًا في التاريخ رأينا أن الشيعة الأوائل كانوا مفرطين في الإثبات، حتى وصل بعضهم إلى التجسيم، فلما اختلط الشيعة بالمعتزلة اتجهوا اتجاهًا عكسيًا يفرط في التنزيه، فبعد هذا الغلو في الإثبات بدأ تغير المذهب في أواخر المائة الثالثة؛ حيث تأثر بمذهب المعتزلة في تعطيل البارئ سبحانه من صفاته الثابتة له في الكتاب والسنة، وساد اتجاه التعطيل عندهم في المئة الرابعة لما صنف لهم المفيد وأتباعه كالموسوي الملقب بالشريف المرتضى، وأبي جعفر الطوسي، واعتمدوا في ذلك على كتب المعتزلة، وكذلك ما يذكرونه في تفسير القرآن في آيات الصفات والقدر، ونحو ذلك هو منقول من تفاسير المعتزلة [(١)].

فهم يقولون: « هل يبقى مجال للبحث عن الصفات وهل له طريق إلا الإذعان بكلمة أمير المؤمنين ﷺ: كمال الإخلاص نفي الصفات عنه » [(٢)]. وصرّح علامتهم ابن المطهر بأن مذهبهم في الأسماء والصفات كمذهب المعتزلة [(٣)] ومنهم من قال: « كمذهب الفلاسفة » [(٤)].

كما وصفت مجموعة من رواياتهم رب العالمين بالصفات السلبية التي ضمنوها نفي الصفات، فقد روى ابن بابويه أكثر من سبعين رواية تقول إنه تعالى: « لا يوصف بزمان ولا مكان، ولا كيفية، ولا حركة، ولا انتقال، ولا بشيء من صفات الأجسام، وليس حسًا ولا جسمانيًا ولا صورة.. » [(٥)].

وقال شيخهم محمد الحسيني الشهير بالقزويني (ت ١٣٠٠هـ) في وصف الله سبحانه: « .. لا جزء له، وما لا جزء له لا تركيب فيه، وما ليس بمركب ليس بجوهر ولا عرض، وما ليس بجوهر ليس بعقل ولا نفس ولا مادة ولا صورة ولا جسم، وما ليس بجسم ليس في مكان ولا في زمان ولا في جهة، ولا في وقت، وما ليس في جهة لا كم له ولا كيف ولا رتبة، وما لا كم له ولا كيف له ولا جهة لا وضع له،

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/٢٢٩ - ٣٥٦)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٢/٦٤٩).

(٢) الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٨).

(٣) ابن المطهر: نهج المسترشدين (ص ٣٢).

(٤) الطبطبائي: مجالس الموحدين في أصول الدين (ص ٢١).

(٥) انظر: التوحيد، لابن بابويه (ص ٣١) وما بعدها. د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٢/٦٥١).

وما ليس له وضع ولا في وقت، ولا في مكان لا إضافة له ولا نسبة، وما لا نسبة له لا فعل فيه ولا انفعال، وما ليس بجسم ولا لون ولا في مكان ولا جهة لا يرى ولا يدرك.. » [١].

وبدل أن يتجهوا إلى إثبات الصفات التي أثبتها اللّٰه تعالى لنفسه، فهموا أن « نفي صفات النقص تعني صفات الكمال كما أن نفي الجهل يعني العلم » [٢].

وقد ناقش أهل السنة الاثني عشرية في هذا الرأي، وقالوا: إن نفي صفات النقص عن اللّٰه تعالى ليس إثباتًا لصفات الكمال مطلقًا.

كما أن هذه الطريقة في النفي المفصّل لا تتفق مع طريقة القرآن، كما لا تتفق مع الفطر السليمة والعقول الصحيحة، بل هي منكرة في مدح البشر للبشر فكيف يوصف بها رب العالمين؛ لأن « هذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه؛ فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك! لأدّبك على هذا الوصف وإن كنت صادقًا، وإنما تكون مادحًا إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجلّ. فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب، والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة. والمعطّلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات، ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده » [٣].

١ - (توحيد اللّٰه تعالى: صفة الوحدانية):

الإسلام دين التوحيد « فالتوحيد والنبوة والمعاد، تمثل العقائد الأساسية لكل الأديان السماوية » [٤]. وقد جاءت النصوص القرآنية والنبوية لتؤكد على عقيدة التوحيد، وتحارب الشرك والمشركين، وتبين أن اللّٰه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وفي وجوب طاعته وعبادته وتحكيم شريعته. والنصوص الواردة في ذلك لا يتسع المقام لسردها، ويكفي من باب الإشارة سورة الإخلاص، وقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) قلائد الخرائد في أصول العقائد (ص ٥٠)، وانظر في مثل هذه الطريقة: ابن المطهر: نهج المسترشدين (ص ٤٥ - ٤٧)، الطبطبائي: مجالس الموحدين في أصول الدين (ص ٢١). وانظر: د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٢/٦٥٢).

(٢) الطبطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١٢٠)، مركز بقية اللّٰه الأعظم للدراسة والنشر - بيروت (١٩٩٩م).

(٣) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٠٦).

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣١).

وقد أكدت روايات الأئمة على صفة الوحدانية للَّه تعالى: عن محمّد بن مسلم عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: « إنّ اليهود سألوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا: انسب لنا ربّك، فلبث ثلاثًا لا يجيبهم ثمّ نزلت: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخرها ».

وعن عبد العزيز بن المهتدي قال: سألت الرّضا عليه السلام عن التّوحيد فقال: « كلّ من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وآمن بها فقد عرف التّوحيد. قلت: كيف يقرؤها؟ قال: كما يقرؤها النّاس، وزاد فيه: كذلك اللَّه ربّي، كذلك اللَّه ربّي » [١].

وتؤكد الروايات أن التوحيد فطرة اللَّه تعالى، فقد خلق اللَّه البشر على فطرة التوحيد، بأن أوجد فيهم الاستعداد للإذعان للحق بعد تفهمه وتعقله.

عن عبد اللَّه بن سنان عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال: سألته عن قول اللَّه عز وجل: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] « ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام، فطرهم اللَّه حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وفيه المؤمن والكافر. وفي رواية أخرى: فطرهم جميعًا على التوحيد » [٢].

- **أدلة صفة الوحدانية:**

لقد استدل جمهور المتكلمين على اختلافهم، المعتزلة والأشاعرة والاثني عشرية وغيرهم - بدليل التمانع [٣] لإثبات صفة الوحدانية للَّه تعالى [٤].

وقد جاءت روايات الشيعة لتدعم هذا الدليل بروايات عن الأئمة.

عن هشام بن الحكم في حديث الزّنديق الّذي أتى أبا عبد اللَّه عليه السلام وكان من قول أبي عبد اللَّه عليه السلام: « لا يخلو قولك: إنّهما اثنان من أن يكونا قديمين قويّين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويًّا والآخر ضعيفًا. فإن كانا قويّين فلِمَ لا يدفع كلّ واحدٍ منهما صاحبه ويتفرّد بالتّدبير؟ وإن زعمت أنّ أحدهما قويٌّ والآخر ضعيفٌ ثبت أنّه واحدٌ

(١) أصول الكافي (١٤٦/١)، كتاب التوحيد، باب النسبة.

(٢) أصول الكافي (١٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث صحيح.

(٣) وخلاصة هذا الدليل كما بيّنه الإمام في روايته: أنه لو كان هناك إلهان فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا، فإن اتفقا على شيء واحد فأوجداه فيلزم ذلك اجتماع المؤثرين أو العلّتين على محل واحد، وهو محال، وإن اختلفا فأراد أحدهما وجود أمر، وأراد الثاني إعدامه - مثلًا - لزم التمانع والتطارد لعدم المرجّح فيلزم عجزهما، وإن ترجّحت إرادة أحدهما دلّ ذلك على كون الآخر العاجز غير مستحق لأن يكون إلهًا. انظر: تفسير ابن كثير (٤٩١/٥)، دار طيبة للنشر والتوزيع، تحقيق سامي بن محمد سلامة (ط٢)، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

(٤) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية: د. عائشة المناعي (ص ١٨٦).

كما نقول للعجز الظّاهر في الثّاني. فإن قلت: إنّهما اثنان لم يخل من أن يكونا متّفقين من كلّ جهةٍ أو مفترقين من كلّ جهةٍ » (١).

وهكذا نرى أن الإمام قد استخدم دليل التمانع في إثبات صفة الوحدانية. وهو دليل قرآني الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وقد استدل عليه كثيرٌ من العلماء بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والحقيقة أن هذه الآية تدل على الوحدانية بدليل آخر غير دليل التمانع، وهو دليل اتساق الكون ووحدة نظامه التي توصل العقل إلى وحدانية صانعه؛ إذ « ليست الآية مسوقة لتقرير ما يسمى بدليل التمانع، وإنما جاءت لتقرير وحدة الألوهية، ومطلوبها هو نفي الكثرة في الألوهية، ونفي أن يكون هناك شريك يُعبد مع الله. وهذا المطلوب هو الذي سيقت لأجله الآية، ليس مما يستدل عليه بدليل التمانع الذي ذكره المتكلمون، ودليل التمانع إنما يستدل به على نفي التعدد في الربوبية، وفرق كبير بين مطلوب الآية وبين مطلوب المتكلمين؛ فمطلوب الآية هو الاستدلال على وحدة الألوهية بفساد العالم لو وجد من يستحق العبادة مع الله. ومطلوب المتكلمين هو نفي أن يكون هناك رب آخر صانع للعالم » (٢).

ويتجه هذا الاتجاه الطباطبائي - المفسر الشيعي - الذي يبيّن أن النظام السببي الكوني يدل على أن وراء هذا الكون إلهًا واحدًا، ولو كان هناك أكثر من إله لما كان هذا النظام الجاري على نظمٍ واحد (٣).

وهذا الذي نقرؤه من قول الإمام الصادق: « فلمّا رأينا الخلق منتظمًا والفلك جاريًا

---

(١) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، وقد استشهد بالخبر عبد الله شبر: حق اليقين (ص ٣٥).

(٢) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة (٣٠٤/٣)، وقضية التوحيد بين الدين والفلسفة، أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند (ص ١٤١، ١٤٢).. (ط٤)، مكتبة الشباب - القاهرة، مصر (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م). والإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ٢٠٣).

(٣) انظر: الميزان في تفسير القرآن (٢٦٧/١٤). وانظر: د. بكار حاج جاسم: الأثر الفلسفي في التفسير (ص ١٦٧). دكتوراه دار العلوم، القاهرة (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

والتّدبير واحدًا واللّيل والنّهار والشّمس والقمر، دلّ صحّة الأمر والتّدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحدٌ » [١].

– معاني التوحيد:

إذا قارنا بين معاني التوحيد التي ساقها القرآن الكريم، ومعاني التوحيد التي أكّد عليها الفلاسفة والمتكلمون سنرى أن وجهتها مختلفة، فالفلاسفة والمتكلمون وجّهوا عنايتهم عند إثبات التوحيد إلى « نفي التعدد والكثرة الخارجية الذاتية »، « وعدم تركيب الذات الإلهية من أجزاء بالفعل، ونفي الصفات الزائدة على الذات، ويعني الإيمان باتحاد الصفات الذاتية مع عين الذات الإلهية » [٢]. وأكدوا على « معنى البساطة وعدم التركيب في ذات اللّٰه، فجعلوه ماهية بسيطة، فهو واحد من كل وجه، فهو في ماهيته لا تركيب له، ولا اشتراك لغيره معه فيها، ولا جنس له، ولا فصل له، ولا نوع له... وما قدموه لنا من أدلة لا تصلح دليلًا على وجود اللّٰه ووحدانيته، وإنما يستدل بها على وحدة الواجب العقلي الذي أثبتوه، وفرق بين المطلوبين، بين مطلوب الأنبياء وبين مطلوب ابن سينا والفلاسفة » [٣].

وقد أغفل كثير من المتكلمين عند حديثهم عن وحدانية اللّٰه تعالى توحيد اللّٰه بالعبادة، وهو مقصود القرآن من معنى التوحيد على الغالب؛ لأن توحيد الذات كانت العرب تعرفه وتقرّ به، بخلاف توحيد العبادة، « ولم يتعرض المتكلمون لهذا النوع من التوحيد، ولم يتنبه أحد منهم إليه، مع أنه قطب رحى القرآن؛ لأنه يتضمن التوحيد في العلم والقول » [٤].

ولكن هذه النظرة ليست على إطلاقها، فقد جاءت بعض الإشارات من كتّاب أهل السنة والشيعة للتأكيد على معنى التوحيد الذي جاء به القرآن، يقول المجلسي في مرآة العقول: « اعلم أن التوحيد يطلق على معانٍ **أحدها**: نفي الشريك في الإلهية، أي استحقاق العبادة، وهي أقصى غاية التذلل والخضوع؛ ولذلك لا يستعمل إلا في التذلل

---

(١) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، وقد استشهد بالخبر عبد اللّٰه شبر: حق اليقين (ص ٣٥).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥١، ١٥٢).

(٣) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٧٧ – ١٨٠).

(٤) المصدر السابق (ص ٢٠٤).

لله تعالى.... والمخالف في ذلك مشركو العرب وأضرابهم، فإنهم بعد علمهم بأن صانع العالم واحد كانوا يشركون الأصنام في عبادته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ.. ﴾ [لقمان: ٢٥]. **ثانيها**: نفي الشريك في صانعية العالم كما قال تعالى: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ.. ﴾ [الإسراء: ١١١] وأمثالها، وخالف في ذلك الثنوية وأضرابهم. **ثالثها**: ما يشمل المعنيين المتقدمين وتنزيهه عما لا يليق بذاته وصفاته تعالى من النقص والعجز والجهل والتركّب والاحتياج والمكان وغير ذلك من الصفات السلبية، وتوصيفه بالصفات الثبوتية الكمالية. **رابعها**: يشمل تلك المعاني وتنزيهه سبحانه عما يوجب النقص في أفعاله أيضًا من الظلم وترك اللطف وغيرها، وبالجملة كل ما يتعلق به سبحانه ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا إثباتًا ونفيًا » [١].

ويقول الشيخ كاشف الغطاء: « يجب على العاقل بحكم عقله عند الإمامية تحصيل العلم والمعرفة بصانعه والاعتقاد بوحدانيته في الألوهية وعدم الشريك له في الربوبية » [٢]، وهذا منه بيان لمعنى الوحدانية بعيدًا عن الفلسفة، وفيه تأثر بفكرة (التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية) التي أعلنها ابن تيمية في كتبه، وتظهر هذه الفكرة جلية عند اليزدي؛ حيث يقول: « الإله بمعنى المعبود أو الذي يستحق العبادة والطاعة... الذي يستحق العبادة والطاعة هو الخالق والرب فحسب، وهذه الدرجة من الاعتقاد هي حد النصاب الذي يلزم توفره في كل إنسان بالنسبة للاعتقاد بالله تعالى، أي بالإضافة إلى إيمانه بأن الله واجب الوجود، وأنه الخالق المدبر ومن يخضع العالم لإرادته، يلزم عليه أيضًا أن يؤمن بأنه الذي يستحق العبادة والطاعة » [٣]. ويؤكد على أن « الألوهية لازمة للخالقية والربوبية » [٤].

« ويقسم عبد الله شبر (١٢٤٢هـ) التوحيد: إلى: توحيد واجب الوجود فلا شريك له في وجوب وجوده، وتوحيد صانع العالم ومدبر النظام، الثالث: توحيد الإله وهو المستحق بالعبادة ونفي الشريك عنه في استحقاق العبودية، والتوحيد في الخلق والرزق

---

(١) المجلسي: مرآة العقول (١/٢٣٤).

(٢) كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ٦١).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٠٢، ١٠٣).

(٤) المصدر السابق (ص ١٥٥).

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣] »[١].

« ويرى الشيخ شبر إطلاق التوحيد على معان أخرى؛ منها:

– **التوحيد في الأمر والنهي**، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

– **التوحيد في مالكية النفع والضر**، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ... ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

– **التوحيد في التوكل والاعتماد**، بأن لا يتكل على غير اللّه، ولا يعتمد على سواه، كما قال تعالى: ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: ٩]، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

– **التوحيد في المحبة والمودة**، فلا يجعل في قلبه حب غير اللّه، كما قال تعالى: ﴿ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ.. ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ.. ﴾ [البقرة: ١٦٥].

– **التوحيد في الأعمال**، بأن لا يعمل لغير وجه اللّه، وهو الرياء الذي ورد أنه شرك، وأن الشرك في بني آدم أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء وقال تعالى: ﴿ .. كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ.. ﴾ [البقرة: ٢٦٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] »[٢].

وإذا كانت تلك المعاني السابقة متفقًا عليها بين المسلمين، فإن الاثني عشرية يضيفون بناءً على موقفهم من الصفات توحيدًا آخر، وهو: « نفي الصفات الزائدة على الذات، ويعبر عنه بالتوحيد الصفاتي، ويذكر في الروايات بتعبير (نفي الصفات) في مقابل البعض أمثال الأشاعرة الذين اعتقدوا بأن الصفات الإلهية أمور زائدة على الذات وقالوا بالقدماء الثمانية »[٣].

ويرى الشيخ عبد اللّه شبر أن هذا النوع هو شرط في أصل الإيمان أو كماله فيقول: « التوحيد في الصفات وعينيتها ونفي مغايرتها... والمخالف في هذا المقام هو الأشعري

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩ – ٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٧ – ٤٠).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥١، ١٥٢).

قال بزيادة الصفات ومغايرتها وقدمها، ومن قال بهذا فقد أشرك باللّه؛ لأنه يلزم تعدد القدماء » [١].

وهذه النظرة المتعسفة في مسألة اجتهادية بين المتكلمين ليست بجديدة، فقد قال الحلي في القرن الثامن: « فقال بعضهم وهم جماعة الأشاعرة أن القدماء كثيرون مع اللّه تعالى، وهي المعاني التي يثبتونها في الخارج كالقدرة والعلم وغير ذلك، فجعلوه - تعالى - مفتقرًا في كونه عالمًا إلى ثبوت معنًى هو العلم » [٢].

وسبب هذه النظرة الظالمة المتسرعة: الخلط بين الرأي ولازمه، وعدم فهم الرأي الآخر، فما رآه الاثنا عشرية في الصفات ليس ملزمًا للفرق الأخرى حتى يحكم على أساسه بالتوحيد أو الشرك، كما أن رأي الأشاعرة ليس في ذاته دالًّا على تعدد القدماء، بل هو لازم قولهم بالصفة الزائدة على الذات، والتكفير بلازم القول ليس منهجًا سديدًا معتدًّا به بين المسلمين، ثم هذا اللازم هو في تصور الاثني عشرية فقط، وهو أمر ينكره الأشاعرة وغيرهم؛ إذ لم يقل أحد منهم بوجود ذوات قديمة مع اللّه تعالى.

٢ - (تنزيه اللّه عن المكان والزمان):

يتفق أهل السنة والاثنا عشرية على أن اللّه تعالى « ليس بمحتاج في الذات ولا في الصفات إلى الغير والمكان والزمان والكيفية والأدوات والآلات، فإن اللّه - تعالى - لغني عن العالمين » [٣]. « تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » [٤].

وقد جاءت نصوص الاثني عشرية للدلالة على التنزيه للّه تعالى عن الزمان والمكان ومشابهة المخلوقات، ومن هذه النصوص:

عن أبي عبد اللّه جعفر الصادق قال: إن يهوديًّا يقال له سبخت جاء إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه! جئت أسألك عن ربّك، فإن أنت أجبتني عمّا أسألك عنه وإلا رجعت. قال: « **سل عمّا شئت** ». قال: أين ربّك؟ قال: « **هو في كلّ مكانٍ، وليس في شيءٍ من المكان**

---

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧ - ٤٠).

(٢) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٨).

(٣) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٠).

(٤) العقيدة الطحاوية (ص ٢٦)، وقد قال صاحب الجوهرة (شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٠):

ويستحيل ضد ذي الصفات ... في حقه كالكون في الجهات

المحدود » قال: وكيف هو؟ قال: « **وكيف أصف ربّي بالكيف، والكيف مخلوقٌ، والله لا يوصف بخلقه** » (١).

وعن أحمد بن محمّد بن خالدٍ عن أبيه رَفَعَهُ قال: « اجتمعت اليهود إلى رأس الجالوت (٢)، فقالوا له: إنّ هذا الرّجل عالمٌ – يعنون أمير المؤمنين عليه السلام – فانطلق بنا إليه نسأله، فأتوه، فقيل لهم: هو في القصر فانتظروه حتّى خرج. فقال له رأس الجالوت: جئناك نسألك فقال: سل يا يهوديّ عمّا بدا لك. فقال: أسألك عن ربّك متى كان؟ فقال: كان بلا كينونيّةٍ كان، بلا كيفٍ كان، لم يزل بلا كمٍّ وبلا كيفٍ كان، ليس له قبلٌ هو قبل القبل بلا قبلٍ ولا غايةٍ ولا منتهًى انقطعت عنه الغاية، وهو غاية كلّ غايةٍ. فقال رأس الجالوت: امضوا بنا فهو أعلم ممّا يقال فيه.... وروي أنّه سئل عليه السلام: أين كان ربّنا قبل أن يخلق سماءً وأرضًا؟ فقال عليه السلام: أين سؤالٌ عن مكانٍ وكان الله ولا مكان؟! » (٣).

وسأل نافع بن الأزرق أبا جعفرٍ عليه السلام فقال: « أخبرني عن الله متى كان؟ فقال: متى لم يكن حتّى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فردًا صمدًا، لم يتّخذ صاحبةً ولا ولدًا ».

وجاء رجلٌ إلى أبي جعفر عليه السلام فقال له: أخبرني عن ربّك متى كان؟ فقال: ويلك! إنّما يقال لشيءٍ لم يكن: متى كان. إنّ ربّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيفٍ ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون كيفٍ، ولا كان له أينٌ، ولا كان في شيءٍ، ولا كان على شيءٍ ولا ابتدع لمكانه مكانًا، ولا قوي بعدما كوّن الأشياء، ولا كان ضعيفًا قبل أن يكوّن شيئًا، ولا كان مستوحشًا قبل أن يبتدع شيئًا، ولا يشبه شيئًا مذكورًا، ولا كان خلوًّا من الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلوًّا بعد ذهابه، لم يزل حيًّا بلا حياةٍ وملكًا قادرًا قبل أن ينشئ شيئًا وملكًا جبّارًا بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيفٌ ولا له أينٌ ولا له حدٌّ ولا يعرف بشيءٍ يشبهه.

ولا يهرم لطول البقاء ولا يصعق لشيءٍ بل لخوفه تصعق الأشياء كلّها، كان حيًّا

---

(١) أصول الكافي (١٤٩/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٢) وهو من أعظم علمائهم وأحبارهم، ويكون الجالوت من ولد داود عليه السلام، والجالوت: هم الجالية الذين جلوا عن بيت المقدس. ذكر ذلك الميرزا أبو الحسن الشعراني. انظر: أصول الكافي (١٤٤/١) رقم (٣).

(٣) أصول الكافي (١٤٣/١ – ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧)، القضاعي: دستور معالم الحكم (ص ٢٦٤).

بلا حياةٍ حادثةٍ، ولا كونٍ موصوفٍ ولا كيفٍ محدودٍ ولا أينٍ موقوفٍ عليه ولا مكانٍ جاور شيئًا، بل حيٌّ يعرف وملكٌ لم يزل له القدرة والملك، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته، لا يحدّ ولا يبعّض ولا يفنى كان أوّلًا بلا كيفٍ، ويكون آخرًا بلا أينٍ، وكلّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه، له الخلق والأمر تبارك اللّه ربّ العالمين، ويلك أيّها السّائل! إنّ ربّي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشّبهات، ولا يحار ولا يجاوزه شيءٌ، ولا تنزل به الأحداث، ولا يسأل عن شيءٍ، ولا يندم على شيءٍ، ولا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، له ما في السّماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرى.

وعن زرارة قال: « قلت لأبي جعفر عليه السلام: أكان اللّه ولا شيء؟ قال: نعم كان ولا شيء. قلت: فأين كان يكون؟ قال: وكان متّكئًا فاستوى جالسًا وقال: أحلت يا زرارة وسألت عن المكان إذ لا مكان »[1].

وسأل رجل أبا الحسن الرّضا فقال: « أخبرني عن ربّك متى كان، وكيف كان، وعلى أيّ شيءٍ كان اعتماده؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّ اللّه تبارك وتعالى أيّن الأين بلا أينٍ، وكيّف الكيف بلا كيفٍ، وكان اعتماده على قدرته »[2].

وقد كان الأئمة يدحضون شبه المشككين في تنزيه اللّه تعالى عن المكان، ويلقنون أتباعهم الحجج في ذلك: عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكرٍ الدّيصانيّ: « إنّ في القرآن آيةً هي قولنا قلت: ما هي؟ فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ.. ﴾ [الزخرف: ٨٤] فلم أدر بما أجيبه، فحججت فخبّرت أبا عبد اللّه عليه السلام فقال: هذا كلام زنديقٍ خبيثٍ؛ إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنّه يقول: فلانٌ، فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فإنّه يقول: فلانٌ، فقل: كذلك اللّه ربّنا في السّماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ وفي البحار إلهٌ وفي القفار إلهٌ وفي كلّ مكانٍ إلهٌ. قال: فقدمت فأتيت أبا شاكرٍ فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز »[3].

- **إثبات العلو والفوقية بلا تشبيه، وإنكار الحلول:**

وإذا كانت النصوص السابقة تؤكد على تنزيه اللّه تعالى عن الزمان والمكان، فإن هذا

---

(١) أصول الكافي (١/١٤٣ - ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد، باب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤]..

لا يمنع من إثبات عقيدة الفوقية والعلو للّه - تعالى - على معنى يليق بجلاله: « فقد سئل أمير المؤمنين ؏: بم عرفت ربّك؟ قال: بما عرّفني نفسه. قيل: وكيف عرّفك نفسه؟ قال: لا يشبهه صورةٌ ولا يحسّ بالحواسّ ولا يقاس بالنّاس، قريبٌ في بعده، بعيدٌ في قربه، فوق كلّ شيءٍ، ولا يقال: شيءٌ فوقه، أمام كلّ شيءٍ ولا يقال: له أمامٌ، داخلٌ في الأشياء، لا كشيءٍ داخلٍ في شيءٍ، وخارجٌ من الأشياء، لا كشيءٍ خارجٍ من شيءٍ. سبحان من هو هكذا، ولا هكذا غيره، ولكلّ شيءٍ مبتدأٌ »[١].

وعن أبي عبد اللّه في وصف ربه ﷻ: « لا ظلّ له يمسكه وهو يمسك الأشياء بأظلّتها.. علا فقرب.. لا تحويه أرضه ولا تقلّه سماواته حامل الأشياء بقدرته »[٢]. وذكر أنه « قرأ في بعض الكتب أن اللّه تبارك وتعالى يقول: « وعزتي وجلالي وارتفاعي على عرشي! لأقطعن أمل كل آملٍ من الناس غيري باليأس »[٣].

وعن أبي عبيدة عن أبي جعفر الباقر قال: إن اللّه ﷻ يقول: « وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هوى نفسه إلا كففت عليه ضيعته وضمّنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء كل تجارة كل تاجر » وهناك رواية أخرى فيها: « وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلوّ ارتفاعي.. »[٤].

وعن أبي عبد اللّه ؏ في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] فقال: « هو واحدٌ واحديُّ الذّات بائنٌ من خلقه وبذاك وصف نفسه، وهو بكلّ شيءٍ محيطٌ بالإشراف والإحاطة والقدرة، لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالإحاطة والعلم لا بالذّات؛ لأنّ الأماكن محدودةٌ تحويها حدودٌ أربعةٌ، فإذا كان بالذّات لزمها الحواية »[٥].

وقال أبو الحسن ؏ لمن أنكر اللّه تعالى لأنه لم يدرك بالحواس: « ويلك! لمّا عجزت

---

(١) أصول الكافي (١/١٤٠، ١٤١)، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به.

(٢) أصول الكافي (١/١٤٦، ١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النسبة.

(٣) أصول الكافي (٢/٧١، ٧٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التفويض إلى اللّه والتوكل عليه، قال المحقق: والحديث ضعيف على المشهور.

(٤) أصول الكافي (٢/١٤٥) كتاب الإيمان والكفر باب (٢٤٨) بعد باب ذم الدنيا.

(٥) أصول الكافي (١/١٧٧)، كتاب التوحيد، باب في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].

حواسّك عن إدراكه أنكرت ربوبيّته! ونحن إذا عجزت حواسّنا عن إدراكه أيقنّا أنّه ربّنا بخلاف شيءٍ من الأشياء » [(١)].

وللاثني عشرية موقف مشكور في محاربة عقيدة الاتّحاد والحلول المنحرفتين؛ إذ يعتقد الشيعة « أنه تعالى لا يحل ولا يتحد بغيره كما زعمته بعض الفرق المبتدعة المضلة؛ لأن الحالّ يفتقر إلى المحل الذي هو فيه والفقر والاحتياج من خواص الممكن... وهو سبحانه موجود في كل مكان لا بمداخلة، خارج عنه لا بمزايلة، ولأن الانتقال من حال إلى حال علامة الزوال، والله لم يزل ولن يزال... وأما الاتّحاد وهو صيرورة الشيئين واحدًا بلا زيادة ولا نقصان، فهو محال في نفسه غير معقول، والواجب تعالى لو اتّحد بغيره لكان هذا ذلك الغير إما واجبًا أو ممكنًا، فإن كان واجبًا لزم تعدد الواجب، وإن كان ممكنًا فالحاصل بعد الاتحاد إما أن يكون واجبًا أو ممكنًا، وانقلاب كل من الممكن إلى الواجبْ إلى الآخر محال، وما زعمه بعض هؤلاء الكفرة من أن العبد إذا بلغ درجة العرفان وفاز بمنزلة الإيقان اتّحد بربه وبطل عنده ما كان يتوهم من الاثنينية والمغايرة بينه وبين ربه وسقط التكليف عنه، مستشهدين بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].. فاسد؛ لأنه لو جاز سقوط العبادات عن العارف الموقن لسقطت عن سند العارفين وسيد الموقنين..، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧] » [(٢)].

وهذا النص يجمع أهل السنة والجماعة مع الشيعة الاثني عشرية في حرب من أسقط التكاليف الشرعية سواء من بعض ضلّال المتصوفة أو من غلاة الشيعة الباطنية، وكذلك في حرب دعاة الحلول والاتحاد منهما.

- إنكار الاثني عشرية حديث نزول الرب ﷻ :

وإذا كان أهل السنة يثبتون صحة حديث النزول لله تعالى في الثلث الأخير من الليل، مع تنزيه الله تعالى عن المكان، فيؤمنون بالحديث ويكِلون الكيفية إلى الله تعالى [(٣)]؛ فإن بعض روايات الاثني عشرية تنكره!

(١) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦١، ٦٢).

(٣) الحديث رواه البخاري، أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، قال ﷺ: =

ويقول قائلهم: « فأولئك الذين أثبتوا للّه مكانًا كالعرش، أو نسبوا له الحركة والهبوط من السماء، أو اعتقدوا بأنه قابل للرؤية بالعين، أو أنه قابل للتحول والتكامل لم يعرفوا اللّه حق معرفته »[(١)]. وقد جاء إنكار حديث النزول في روايات نسبوها إلى الأئمة عليهم رضوان اللّه:

عن يعقوب بن جعفرِ الجعفريّ عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: « ذكر عنده قومٌ يزعمون أنّ اللّه - تبارك وتعالى - ينزل إلى السّماء الدّنيا فقال: إنّ اللّه لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل، إنّما منظره في القرب والبعد سواءٌ، لم يبعد منه قريبٌ ولم يقرب منه بعيدٌ، ولم يحتج إلى شيءٍ، بل يُحتاج إليه، وهو ذو الطّول، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. أمّا قول الواصفين: إنّه

= « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ ». ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

قال ابن حجر: « اختلف في معنى النزول على أقوال:

١ - فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة، تعالى اللّه عن قولهم.

٢ - ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مكابرة، والعجب أنهم أولوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث إما جهلًا وإما عنادًا.

٣ - ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمنًا به على طريق الإجمال منزهًا اللّه تعالى عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف، ونقله البيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة والسفيانين والحمادين والأوزاعي والليث وغيرهم.

٤ - ومنهم من أوله على وجه يليق مستعمل في كلام العرب.

٥ - ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف.

٦ - ومنهم من فصّل بين ما يكون تأويله قريبًا مستعملًا في كلام العرب، وبين ما يكون بعيدًا مهجورًا، فأوّل في بعض وفوّض في بعض، وهو منقول عن مالك، وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد.

قال البيهقي: وأسلمها الإيمان بلا كيف، والسكوت عن المراد، إلا أن يرد ذلك عن الصادق فيصار إليه، ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعيّن غير واجب، فحينئذ التفويض أسلم،... وقد حكى أبو بكر ابن فورك أن بعض المشايخ ضبطه بضم أوله على حذف المفعول، أي: ينزل ملكًا. ويقويه ما رواه النسائي من طريق الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد بلفظ (أن اللّه يمهل حتى يمضي شطر الليل ثم يأمر مناديًا يقول: هل من داع فيستجاب له.. الحديث) وفي حديث عثمان ابن أبي العاص (ينادي منادٍ: هل من داع يستجاب له الحديث) قال القرطبي: وبهذا يرتفع الإشكال » فتح الباري (٣/ ٣٠).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٨٤) وقال في هامش (ص ١٩٤): « نقل القول بأنه تعالى في مكان أو هبوطه من السماء أو رؤيته بالعين عن جماعات من أهل السنة ». وقال أيضًا: « فما حكي عن بعض المتكلمين من أهل السنة من أن العالم في بقائه غير محتاج للّه.... مثل هذه الآراء بعيدة عن الحقيقة » (ص ٨٧، ٨٨). ومعلوم أن أهل السنة لا يقولون بهذا، بل يقولون إن اللّه قيوم السماوات والأرض.

ينزل تبارك وتعالى. فإنّما يقول ذلك من ينسبه إلى نقصٍ أو زيادةٍ، وكلّ متحرّكٍ محتاجٌ إلى من يحرّكه أو يتحرّك به، فمن ظنّ باللَّه الظّنون هلك، فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حدٍّ تحدّونه بنقصٍ أو زيادةٍ أو تحريكٍ أو تحرّكٍ أو زوالٍ أو استنزالٍ أو نهوضٍ أو قعودٍ، فإنّ اللَّه - جلّ وعزّ - عن صفة الواصفين ونعت النّاعتين » [١].

ولكن وجدت روايات عن الأئمة تدل على صحة معنى حديث النزول، دون ذكر الكيفية، وتفويض معناه وعلمه إلى اللَّه تعالى، وهو مذهب أهل السنة والجماعة:

عن محمّد بن عيسى قال: كتبت إلى أبي الحسن عليّ بن محمّدٍ عليه السلام: « جعلني اللَّه فداك يا سيّدي، قد روي لنا أنّ اللَّه في موضعٍ دون موضعٍ على العرش استوى، وأنّه ينزل كلّ ليلةٍ في النّصف الأخير من اللّيل إلى السّماء الدّنيا، وروي أنّه ينزل عشيّة عرفة ثمّ يرجع إلى موضعه، فقال بعض مواليك في ذلك: إذا كان في موضعٍ دون موضعٍ فقد يلاقيه الهواء ويتكنّف عليه والهواء جسمٌ رقيقٌ يتكنّف على كلّ شيءٍ بقدره، فكيف يتكنّف عليه - جلّ ثناؤه - على هذا المثال؟ فوقّع عليه السلام علمُ ذلك عنده وهو المقدّر له بما هو أحسن تقديرًا. واعلم أنّه إذا كان في السّماء الدّنيا فهو كما هو على العرش، والأشياء كلّها له سواءٌ علمًا وقدرةً وملكًا وإحاطةً » [٢].

وكذلك جاءت روايات اثني عشرية صحيحة ظاهرها القول بالمكان أو الجسمية أو مشابهة المخلوقين، ولكن لا بد من نفي المكان والتجسيم الذي يطرأ على الذهن بسببها، ثم التسليم بعلمها للَّه تعالى ونفي معرفة كيفيتها، فقد روى الاثنا عشرية عن رسول اللَّه ﷺ: « **ستّ خصال من كنّ فيه كان بين يدي اللَّه ﷻ وعن يمين اللَّه... يحب المرء المسلم لأخيه ما يحب لنفسه...** » [٣].

وعن محمد الباقر قال: « إن المؤمنِين إذا التقيا وتصافحا أدخل اللَّه يده بين أيديهما فصافح أشدهما حبًا لصاحبه » [٤].

وعن جعفر الصادق قال: « إن اللَّه - جل ثناؤه - ليعتذر إلى عبده المؤمن المحوج في

---

(١) أصول الكافي (١/١٧٦)، كتاب التوحيد، باب الحركة والانتقال.

(٢) المصدر السابق (١/١٧٧).

(٣) المصدر السابق (٢/١٧٨) كتاب الإيمان والكفر، باب حق المؤمن على أخيه وأداء حقه، قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) المصدر السابق (٢/١٨٥) كتاب الإيمان والكفر، باب المصافحة، قال محققه: الحديث موثق.

الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه.. » [١]. قال محقق الكافي: « نسبة الاعتذار إلى اللَّه - سبحانه - مجازي، وهو كناية عن شموله - سبحانه - له بلطفه وإدخاله في رحمته والنظر إليه بعين عطفه ورضاه فيكون شبيهًا بالمعتذر » [٢].

والذين يهوشون على أهل السنة وينسبونهم إلى التجسيم بإثبات حديث النزول وما شابهه يثبتون من النصوص ما يساويه، فيستشهدون بحديث عن النبي ﷺ أنه قال: « **يا علي! إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة اللَّه ﷻ وأخذت أنت بحجزتي، وأخذ ولدك بحجزتك، وأخذ شيعة ولدك بحجزهم، فترى أين يؤمر بنا؟** » [٣].

ويصفون الأئمة بالجلوس على العرش: وتقول نهاية الرواية، على لسان الأئمة: « ثم يؤتى بنا فنجلس على عرش ربّنا.. » [٤]!

وقد وجد الدكتور القفاري في كتب الشيعة إثبات حديث النزول ثم تحريفه وحذفه: « قال سائل لأبي عبد اللَّه: تقول إنّه ينزل إلى السّماء الدّنيا، قال أبو عبد اللَّه: نقول بذلك؛ لأنّ الرّوايات قد صحّت به والأخبار » [٥]، يقول الدكتور القفاري: « وقد عزاه المجلسي إلى كتاب التّوحيد لابن بابويه، وقد رجعت إلى كتاب التّوحيد فوجدت الرّواية، إلا أنّ النّصّ الذي يدلّ على النزول قد حذف، لكن محقّق الكتاب أشار في الحاشية إلى وجود هذا النّصّ في بعض النّسخ الخطّيّة للكتاب، ولكنّه لم يثبته في الصّلب لعدم موافقته لمشربه » [٦]. ومثل هذا المعنى جاء في تفسير القمي أصل أصول التفاسير عندهم كما أثبت ذلك صاحب البحار [٧]، وإن كان ناشر الكتاب والمعلق عليه أضاف إليه ما يغير معناه؛ حيث قال: « ينزل أمره » [٨]، ولم يتفطن أن بقية النص تكشف ما زاده فيه، حيث جاء النص: « إن الرب تبارك وتعالى ينزل كلّ ليلة... فإذا طلع الفجر

---

(١) أصول الكافي (٢/٢٦٠٦) كتاب الإيمان والكفر، باب فضل فقراء المسلمين. وقال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

(٢) المصدر السابق (٢/٢٦٠٦).

(٣) مقدمة محقق منهاج الكرامة لابن مطهر الحلي (ص ١٩)، ونسبه لمسند الفردوس للديلمي (٥/٣٢٤). و « أصل الحجزة: موضع شدّ الإزار، ثم قيل للإزار حجزة للمجاورة. واحتجز الرجل بالإزار إذا شدّه على وسطه. فاستعار للاعتصام والالتجاء والتمسك بالشّيء والتعلّق به ». ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر (١/٨٩٧).

(٤) تفسير العيّاشي (٢/٣١٢)، البحراني: البرهان (٢/٤٣٩)، المجلسي: بحار الأنوار (٣/٣٠٢).

(٥) بحار الأنوار (٣/٣٣١).

(٦) انظر: التّوحيد لابن بابويه (ص ٢٤٨).

(٧) بحار الأنوار (٣/٣١٥).

(٨) انظر: تفسير القمي (٢/٢٠٤).

عاد الرب إلى عرشه » [١]. ولا يخفى ما فيه من الغلو في الإثبات في قوله: « ثم عاد الرب إلى عرشه » [٢]، فإن هذه الزيادة لا وجود لها في روايات أهل السنة.

فما يبرر به الاثنا عشرية هذه الأحاديث، وما يؤولونها به وما يجيبون عليها؛ يجيب بمثله أهل السنة عن حديث النزول وأشباهه؛ حيث يتفق الجميع على الإيمان والتسليم بها، مع العجز عن معرفة الكيفية. أما أن يتهم كل طرف منهما الآخر بالقول بالجهة أو المشابهة، ويتغافل عما في جعبته من نصوص تثبت قريبًا مما يثبته الطرف الأول أو أشدّ، فليس من المنهج العلمي المنصف في شيء.

٣ - (نفي الجسمية عن الله ﷻ):

عن سهل قال: كتبت إلى أبي محمّدٍ عليه السلام سنة خمسٍ وخمسين ومائتين: « قد اختلف يا سيّدي أصحابنا في التّوحيد، منهم من يقول هو جسمٌ، ومنهم من يقول هو صورةٌ، فإن رأيت يا سيّدي أن تعلّمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه فعلت متطوّلًا على عبدك فوقّع بخطّه عليه السلام: سألت عن التّوحيد وهذا عنكم معزولٌ، اللّه واحدٌ أحدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ، خالقٌ وليس بمخلوقٍ يخلق - تبارك وتعالى - ما يشاء من الأجسام وغير ذلك، وليس بجسمٍ ويصوّر ما يشاء وليس بصورةٍ، جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه أن يكون له شبهٌ هو لا غيره ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] » [٣].

وعن عليّ بن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: « سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أنّ اللّه جسمٌ صمديٌّ نوريٌّ معرفته ضرورةٌ يمنّ بها على من يشاء من خلقه فقال عليه السلام: سبحان من لا يعلم أحدٌ كيف هو إلا هو ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] لا يحدّ ولا يحسّ ولا يجسّ ولا تدركه الأبصار ولا الحواسّ ولا يحيط به شيءٌ ولا جسمٌ ولا صورةٌ ولا تخطيطٌ ولا تحديدٌ ».

ويردّ الأئمة على شبهة أن إثبات الوجود تحديد للّه تعالى: « قال له السّائل: فقد حددته إذ أثبتّ وجوده قال أبو عبد اللّه عليه السلام: لم أحُدّه ولكنّي أثبتّه؛ إذ لم يكن بين النّفي والإثبات منزلةٌ قال له السّائل: فله إنّيّةٌ ومائيّةٌ؟ قال: نعم لا يثبت الشّيء، إلا بإنّيّةٍ ومائيّةٍ. قال له

---

(١) انظر: بحار الأنوار (٣/٣١٥)، تفسير القمي (٢/٢٠٤).

(٢) انظر: الدكتور القفاري: مذهب الشيعة (٢/٦٧١).

(٣) أصول الكافي (١/١٥٦)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى.

السّائل: فله كيفيّةٌ؟ قال: لا؛ لأنّ الكيفيّة جهة الصّفة والإحاطة، ولكن لا بدّ من الخروج من جهة التّعطيل والتّشبيه؛ لأنّ من نفاه فقد أنكره ودفع ربوبيّته وأبطله، ومن شبّهه بغيره فقد أثبته بصفة المخلوقين المصنوعين الّذين لا يستحقّون الرّبوبيّة، ولكن لا بدّ من إثبات أنّ له كيفيّةً لا يستحقّها غيره ولا يشارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره » [١].

وإذا كان ابن المطهر الحلي يتهم جماعة من أهل السنة والجماعة بالقول بالتجسيم، وهم من ذلك برآء، فيقول: « البحث الثالث: أنه تعالى ليس بجسم، أطبق العقلاء على ذلك إلا أهل الظاهر كداود والحنابلة كافة، فإنهم قالوا: « إنه تعالى جسم يجلس على العرش، ويفضل عنه من كل جانب ستة أشبار بشبره، وأنه ينزل في كل ليلة على حمار » [٢]!!؛ فإن هذا من باب التعصب والافتراء على المذاهب الأخرى والتحامل عليها، والخلط بين أقوال سادتها وأقوال شذّاذها، وصحيح أخبارها وسقيم رواياتها؛ ولذلك لا يقبل قول فرقة من الفرق في حق فرقة أخرى حتى يتأكد من كتب هذه الفرقة، فهذا الذي يذكره الحلي من أقوال لم تثبت عند أهل السنة - والحنابلة منهم - وهي أقوال موضوعة منكرة [٣].
ولعل مدخل اتهام الحلي لأهل السنة بالتجسيم - والحنابلة منهم - لأنهم معظمهم قالوا بإثبات آيات الصفات الإلهية دون تأويلها، وهذا ليس تجسيمًا، ما داموا ينكرون مشابهة اللَّه تعالى لخلقه.

ولما ثبت عند أهل السنة نصوص صحيحة تثبت رؤية المؤمنين للرب الجليل يوم القيامة دون كيفية؛ اتهمهم الاثنا عشرية بالتجسيم والجمود على ظواهر النصوص، وكفّروهم لأجل ذلك؛ يقول الزنجاني: « ومن قال بالتشبيه من خلقه بأن صوّر له وجهًا ويدًا وعينًا، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، أو أنه يظهر إلى أهل الجنة كالقمر أو نحو ذلك فهو بمنزلة الكافر به جاهل بحقيقة الخالق... وكذلك يلحق بالكافر من قال إنه يتراءى لخلقه يوم القيامة وإن نفى عنه التشبيه بالجسم لقلقة من اللسان، فإن أمثال هؤلاء المدعين جمدوا على ظواهر الألفاظ في القرآن الحكيم أو الحديث الضعيف، وأنكروا عقولهم وتركوها وراء ظهورهم، فلم يستطيعوا أن يتصرفوا بالظواهر حسب ما يقتضيه النظر والدليل وقواعد الاستعارة والمجاز » [٤].

---

(١) أصول الكافي (١١٣٨/١)، كتاب التوحيد، باب إطلاق القول بأنه شيء.
(٢) نهج الحق وكشف الصدق (ص ٥٥).
(٣) انظر: د.عائشة المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٩٩).
(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٥، ٢٦).

ولو أنصف الزنجاني وغيره لعلم أن أشهر من روي عنه التجسيم في تاريخ الإسلام هو بعض رجال الشيعة الأوائل، كهشام بن الحكم وهشام الجواليقي « وهذا مما اتفق عليه نقل الناقلين للمقالات في الملل والنحل من جميع الطوائف مثل أبي عيسى الوراق وزرقان وابن النوبختي وأبي الحسن الأشعري وابن حزم والشهرستاني وغير هؤلاء، ونقل ذلك عنهم موجود في كتب المعتزلة والشيعة والكرامية والأشعرية وأهل الحديث وسائر الطوائف وقالوا أول من قال: (إن اللَّه جسم) هشام بن الحكم » [(١)].

وهذه روايات الحديث عند الشيعة تؤكد صدور القول بالجسم عن تلامذة الأئمة: فعن إبراهيم بن محمّدٍ الهمذانيّ قال: « كتبت إلى الرّجل عليه السلام [أي المهدي المنتظر] أنّ من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التّوحيد فمنهم من يقول: جسمٌ، ومنهم من يقول: صورةٌ. فكتب عليه السلام بخطّه: سبحان من لا يحدّ ولا يوصف، ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع العليم، أو قال: البصير » [(٢)].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: رأيت علي بن الحسين عليهما السلام قاعدًا واضعًا إحدى رجليه على فخذه فقلت: « إن الناس يكرهون هذه الجلسة ويقولون: إنها جلسة الرب، فقال: إني إنما جلست هذه الجلسة للملالة، والرب لا يملّ ولا تأخذه سنة ولا نوم » [(٣)].

وجاء في ترجمة هشام بن سالم الجواليقي أنه « كان يزعم أن اللَّه صورة، وأن آدم خلق على مثل الرب، ثم يشير إلى جنبه وشعر رأسه ليبين المماثلة » [(٤)].

ولم يقتصر القول بالجسمية على الهشامين بل إن صاحب الطاق، والميثمي من قدماء الشيعة وأصحاب الأئمة قالوا به كما تذكر روايات الشيعة أنفسهم في أصح كتبهم:

وعن الحسن بن سعيدٍ عن إبراهيم بن محمّدٍ الخزّاز ومحمّد بن الحسين قالا: « دخلنا على أبي الحسن الرّضا عليه السلام فحكينا له أنّ محمّدًا ﷺ رأى ربّه في صورة الشّابّ الموفّق في سنّ أبناء ثلاثين سنةً. وقلنا: إنّ هشام بن سالم وصاحب الطّاق والميثميّ يقولون: إنّه أجوف إلى السّرّة والبقيّة صمدٌ. فخرّ ساجدًا للَّه، ثمّ قال: سبحانك! ما عرفوك ولا وحّدوك، فمن أجل ذلك وصفوك، سبحانك! لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/٥٠١، ٥٠٢).

(٢) أصول الكافي (١/١٥٥)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى.

(٣) أصول الكافي: كتاب العشرة، باب الجلوس، قال محققه: الحديث حسن.

(٤) الكشي: معرفة الرجال، ترجمة هشام بن سالم الجواليقي (ص ١٨٣).

نفسك، سبحانك! كيف طاوعتهم أنفسهم أن يشبّهوك بغيرك!؟ اللّهمّ لا أصفك إلا بما وصفت به نفسك، ولا أشبّهك بخلقك، أنت أهلٌ لكلّ خيرٍ فلا تجعلني من القوم الظّالمين.

ثمّ التفت إلينا فقال: ما توهّمتم من شيءٍ فتوهّموا اللّه غيره، ثمّ قال: نحن آل محمّدٍ النّمط الأوسط الّذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التّالي » [١].

وعن محمّد بن حكيم قال: « وصفت لأبي إبراهيم عليه السلام قول هشام بن سالمٍ الجواليقيّ وحكيت له قول هشام بن الحكم أنّه جسمٌ. فقال: إنّ اللّه - تعالى - لا يشبهه شيءٌ، أيّ فحشٍ أو خَنًا أعظم من قول من يصفُ خالقَ الأشياء بجسمٍ أو صورةٍ أو بخلقةٍ أو بتحديدٍ وأعضاءٍ، تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وعن محمّد بن الفرج الرُّخَّجيّ قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عمّا قال هشام بن الحكم في الجسم وهشام بن سالمٍ في الصّورة، فكتب: دع عنك حيرة الحيران واستعذ باللّه من الشّيطان، ليس القول ما قال الهشامان » [٢].

ويدافع كتّاب الشيعة القدامى والمحدثون عن أصحاب الأئمة وينفون عنهم التجسيم والقول بالصورة، فقد قال المجلسي: « ولعل المخالفين نسبوا إليهما هذين القولين [يشير إلى ما نسب إليهما من القول بالجسم، والقول بالصورة] معاندة » [٣].

وقال محقق أصول الكافي في حق هشام بن سالم الجواليقي:« هشام هذا جليل القدر بريء كهشام بن الحكم عن مثل هذا القول الشنيع في حقه تعالى، والظاهر أن نسبته إليهما من مدسوسات أعداء مذهب أهل البيت (ع) للتشنيع على أصحاب الأئمة بغية الإيقاع بهم عند السلاطين، والحديث مرسل » [٤].

ولكن قولهما بالتجسيم لم يرد في رواية اثني عشرية واحدة يسهل إنكارها أو تأويلها، بل هنالك عدة روايات تقارب العشرين في الكافي وحده، منها ما صرح به

---

(١) أصول الكافي (١٥٤/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى. وانظر: ابن بابويه: التوحيد (ص ١١٣، ١١٤)، بحار الأنوار (٤٠/٤)، وصاحب الطاق، يعني محمد بن علي ابن النعمان أبو جعفر؛ لأنه يلقب بشيطان الطاق، والشيعة يقولون عنه: « مؤمن الطاق » والميثمي هو: علي ابن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار، من وجوه متكلمي الشيعة، وتلميذ هشام بن الحكم، له كتب منها كتاب « الإمامة »، انظر: رجال النجاشي (ص ١٧٦).

(٢) أصول الكافي (١٥٧/١، ١٥٨)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة.

(٣) بحار الأنوار (٢٨٨/٣).

(٤) أصول الكافي (١٥٧/١، ١٥٨)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة.

بالهشامين ومنها ما لم يصرح به، فإنكار هذه الروايات كلها أمر غير مسوّغ. وقد تواتر عند علماء الفرق اتهام الهشامين وغيرهما من رجال الشيعة الأوائل بالتشبيه، قال الرّازي: « اليهود أكثرهم مشبّهة، وكان بدء ظهور التّشبيه في الإسلام من الرّوافض؛ مثل هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي وأبي جعفر الأحول » (١).

ولكن هناك روايات تعبر عن رأي هشام بن الحكم بأن اللّٰه تعالى جسم ليس كالأجسام (٢)، وهذا ما ذكره أهل السنة عن هشام أيضًا، وهذا من أدلة وضوح منهج أهل السنّة وإنصافهم لخصومهم.

ولذلك فإن المجلسي أقر بوقوع كلمة الجسم من هشام، وأنه « أخطأ في إطلاق لفظ الجسم عليه تعالى، ونفى عنه صفات الأجسام كلها، ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يشبهه شيء من الأجسام، بل هو نوع مباين لسائر أنواع الأجسام » (٣).

وإذا كان الشيعة ينكرون حديث النزول للرب - تعالى - في الثلث الأخير من الليل، خدمةً للتنزيه، فإن بعض روايات الشيعة تذكر ما هو أعظم منه، ففي رواية بحار الأنوار « إنّ قبر أمير المؤمنين يزوره اللّٰه مع الملائكة، ويزوره الأنبياء ويزوره المؤمنون » (٤)!!

فإذا كانت هذه الروايات مبثوثة في أصول المذهب الشيعي، فكيف يحق لأحدهم كابن مطهر الحلي أن يتهم أهل السنة بالقول بالجهة والتجسيم، متناسيًا أن روايات الاثني عشرية أوردت ما يشابه روايات أهل السنة وما هو أعظم؟! ولذلك ردّ عليه ابن تيمية - وقد كان معاصرًا له - قائلًا: « أهل السنة أحق بتنزيهه عن مشابهة المخلوقات من الشيعة، فإن التشبيه والتجسيم المخالف للعقل والنقل لا يعرف في أحد من طوائف الأمة أكثر منه في طوائف الشيعة، وهذه كتب المقالات كلُّها تخبر عن أئمة الشيعة المتقدمين من المقالات المخالفة للعقل والنقل في التشبيه والتجسيم بما لا يعرف نظيره عن أحد من سائر الطوائف، ثم قدماء الإمامية ومتأخروهم متناقضون في هذا الباب فقدماؤهم غلوا في التشبيه والتجسيم،

---

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٩٧).

(٢) عن يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد اللّٰه عليه السلام فقلت له: إنّ هشام بن الحكم يقول قولًا عظيمًا إلا أنّي أختصر لك منه أحرفًا، فزعم أنّ اللّٰه جسمٌ؛ لأنّ الأشياء شيئان جسمٌ وفعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصّانع بمعنى الفعل ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل. أصول الكافي (١٥٨/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة. وفي رواية أخرى: إن هشام بن الحكم زعم أن اللّٰه جسم ليس كمثله شيء.

(٣) مرآة العقول (٨/٢).

(٤) بحار الأنوار (٢٥٨/١٠٠).

ومتأخروهم غلوا في النفي والتعطيل، فشاركوا في ذلك الجهمية والمعتزلة دون سائر طوائف الأمة » [١].

وعلى كلّ فإن روايات آل البيت أتت لتهدم تلك الأوهام التي بناها قدماء الشيعة، فعن عبد الرّحمن بن أبي نجران قال: « سألت أبا جعفرٍ عليه السلام عن التّوحيد فقلت: أتوهّم شيئًا فقال: نعم. غير معقولٍ ولا محدودٍ، فما وقع وهمك عليه من شيءٍ فهو خلافه، لا يشبهه شيءٌ، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل وخلاف ما يتصوّر في الأوهام؟! إنّما يتوهّم شيءٌ غير معقولٍ ولا محدودٍ » [٢].

فقد كان من أقوال جعفر الصادق عن الرب ﷻ : « شيءٌ بخلاف الأشياء، ارجع بقولي إلى إثبات معنًى وأنّه شيءٌ بحقيقة الشّيئيّة، غير أنّه لا جسمٌ ولا صورةٌ ولا يحسّ ولا يجسّ ولا يدرك بالحواسّ الخمس، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدّهور ولا تغيّره الأزمان » [٣].

وبهذا يقف أهل السنة على موقف واحد متفق مع روايات أهل البيت في نفي الجسمية والصورة عن الرب جل في علاه. فإذا أنكر علماء الشيعة تلك الروايات المبثوثة في الكافي وغيره، ولم يقولوا بتصحيحها أو أوّلوها على معانٍ تنفي التجسيم والتشبيه، فإنهم ينضمون إلى باقي طوائف الأمة. وهذا خير لهم من أن يشغبوا على أهل السنة ويتهمونهم بالتجسيم.

- الإثبات وسط بين التعطيل والتشبيه:

وتتفق الروايات عن الأئمة الأطهار بأنهم وإن نفوا الجسمية، ولكنهم أثبتوا صفات الرب تعالى، مبتعدين - كحال سلف الأمة - عن التعطيل أيضًا، ولذلك فهم يثبتون وجود الرب بلا تمثيل ولا تشبيه ولا تجسيم، ولا تعطيل عن الصفات. وقد وردت تلك الروايات عن أئمة أهل البيت المتقدمين منهم والمتأخرين؛ إذ قالوا: « لا بدّ من الخروج من جهة التّعطيل والتّشبيه؛ لأنّ من نفاه فقد أنكره ودفع ربوبيّته وأبطله، ومن شبّهه بغيره فقد أثبته بصفة المخلوقين المصنوعين الّذين لا يستحقّون الرّبوبيّة، ولكن لا بدّ من إثبات أنّ له كيفيّةً لا يستحقّها غيره ولا يشارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره... وهو متعالٍ نافذ الإرادة والمشيئة فعّالٌ لما يشاء ».

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٠٣/٢).

(٢) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب إطلاق القول بأنّه شيء.

(٣) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

وعن الحسين بن سعيدٍ قال: سئل أبو جعفرٍ الثّاني عليه السلام: « يجوز أن يقال للَّه إنّه شيءٌ، قال: نعم. يخرجه من الحدّين حدّ التّعطيل وحدّ التّشبيه » (١).

وبهذا يتبين أن علماء الإمامية بما نقلوا عن أئمتهم يثبتون التنزيه للَّه تعالى، ويرمون خصومهم بالتشبيه، وكذلك باقي الفرق تتهم بعض رجال الشيعة بالتجسيم، وعلماء الإمامية يبرئونهم من ذلك، فنخرج من هذا بأن هذه الفرق كلها تنفي عن نفسها التجسيم، إلا ما ورد في كتب الملل عن بعض المجسمة الذين لا وجود لهم الآن، فيصبح الاتهام بالتجسيم بين الفرق من باب التراجم وقذف الأطراف الأخرى بما ليس فيها، فكل الفرق تنكر التجسيم وتتبرأ منه ومن أهله.

ولكن الاثني عشرية في محاولتهم تبرئة أنفسهم من التشبيه الذي اتسم به رجالهم الأوائل، وبسبب اختلاطهم بالمعتزلة ثم تأثرهم بالفلسفة أفرطوا في التنزيه عندما لجأوا في ذلك إلى إنكار ما رأوه بزعمهم يخالف التنزيه، ولو كان ثابتًا في الأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات، وغفلوا أن منها وأعظم منها ما روته كتبهم، فقد أنكروا رؤية اللَّه تعالى يوم القيامة، وتعاملوا مع الآيات والأحاديث التي توهم التشبيه بطريق التأويل، وسيظهر هذا في الصفحات القادمة.

رابعًا: تأويل الاثني عشرية للنصوص الشرعية خدمةً للتنزيه:

التأويل في تاريخ الإنسانية:

إن مسألة صرف اللفظ عن حقيقته إلى معنى مجازي، أو مجاوزة ذلك إلى مرحلة صرف اللفظ عن حقيقته إلى معان أخرى، هي مسألة مغرقة في القدم في الفكر الإنساني.

ولكن إذا تساءلنا هل كان طروء عملية التأويل على الفكر الإسلامي بعوامل ذاتية تفرضها اللغة العربية وأسلوب الخطاب العربي، أم بعوامل خارجية؟ سنرى هنالك رأيين: السائد منهما « أن هناك علاقة تاريخية قوية بين التأويل كما نراه بين المتأولين في الفكر الإسلامي من فلاسفة وباطنية وقرامطة وصوفية، وبين ما وجدناه عند فليون والرواقيين والفيثاغورسيين... ومن السهولة بمكان أن ندرك الصلة القوية بين تصورات أفلوطين عن (الأول) وبين ما وصف به الفلاسفة المسلمون والمعتزلة واجب الوجود من صفات سلبية، وما نفوه عنه من صفات إيجابية » (٢).

---

(١) أصول الكافي (١/١٣٦) كتاب التوحيد، باب إطلاق القول بأنّه شيء.

(٢) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٤٢، ١٤٣).

ويقابل هذا الرأي اتجاه آخر يقول: إن مسألة التأويل تتعلق بالتفكير الإنساني كله، ولا يشترط فيها التأثر بالآخرين بمقدار ما هي طريقة في التعامل مع النصوص، يفرضها مناخ فكري معيّن، « وقد أشار ابن رشد إلى أن الخوارج هم أول من تأولوا نصوص القرآن من الفرق الإسلامية، ثم المعتزلة بعدهم ثم الأشعرية ثم الصوفية » [(١)]. وقد علمنا أن الخوارج لم يكن لهم تلك الصلات بأولئك الفلاسفة الأقدمين ولا غيرهم.

والسؤال المهم الذي يعني الباحث في دراسة الفكر الاثني عشري هو: كيف دخل التأويل إلى مذهب الشيعة؟

لقد كانت المسيحية ترى تجسم اللَّه في عيسى عليه السلام، وتخلع عليه صفات الألوهية، واشتهرت اليهودية بالتجسيم وامتلأ كتابها المقدس بالعديد من نماذجه، ثم جاء رجال الشيعة الأوائل فقالوا بالتجسيم [(٢)]. ولذلك اهتم المعتزلة بهذه القضية اهتمامًا كبيرًا، ووجهوا جزءًا غير قليل من جهودهم للرد على هذه الطوائف ونقض أقوالهم، وكما هي عادة ردود الأقوال فقد وجد لديهم نوع من المغالاة في الطرف المقابل، فأسرفوا في النفي، واتهموا كل من أثبت الصفات من أهل السنة والأشاعرة بأنه من المشبّهة، فكان الأسلم الاقتصار على التأويل فحسب [(٣)]. ولمّا تأثر الشيعة بالمعتزلة أخذوا التأويل عنهم، وسموا مخالفيهم بما سمى المعتزلة خصومهم: (المشبّهة) [(٤)].

وقد خالف جمهور أهل السنة هذا المنهج التأويلي؛ حيث اعتصم الجماهير من أهل السنة بالإقرار بما ورد في الآيات والأحاديث « على الوجه الذي أراده اللَّه تعالى، مذعنين للعلم بذلك الوجه، لا رادّين لما ورد في ذلك من السمع، ولا مشبهين للَّه تعالى بما لحقه من صفات النقص، معتقدين أن اللَّه تعالى كما وصف نفسه في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] منزهين اللَّه تعالى عن كل ما يقتضي النقص من شبه المخلوقين في أفعالهم وذواتهم وصفاتهم » [(٥)].

---

(١) المرجع السابق (ص ٩٨)، مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١٨٣) تحقيق الأستاذ الدكتور محمود قاسم، مكتبة الأنجلو (١٩٦٤م).

(٢) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢٨٩/١ - ٣٠٦).

(٣) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم: حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ٣٠٠ - ٣٩٩).

(٤) أستاذنا الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٧).

(٥) ابن الوزير اليماني: الروض الباسم (٣٣٥/٢).

وقد خالف هذا المنهج عدد من المتكلمين، فقالوا بتأويل بعض النصوص مع إقرارهم بأن منهج السلف لا شائبة فيه، بل هو المنهج الأسلم.

وسنعرض فيما يلي لأهم القضايا العقدية التي أدخل الاثنا عشرية التأويل في فهمها، ونحاول أن نناقش هذه القضايا معهم.

أشهر تأويلات الاثني عشرية:

١ - (تأويل الوجه واليد):

جاءت نصوص الاثني عشرية لتأول الوجه واليد: عن الحارث بن المغيرة النّصريّ قال: سئل أبو عبد اللّه عليه السلام عن قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ.. ﴾ [القصص: ٨٨] فقال: « ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون: يهلك كلّ شيءٍ إلا وجه اللّه. فقال: سبحان اللّه! لقد قالوا قولًا عظيمًا، إنّما عنى بذلك وجه اللّه الّذي يؤتى منه ».

وعن صفوان الجمّال عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عز وجل: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] قال: من أتى اللّه بما أمر به من طاعة محمّدٍ صلى الله عليه وسلم فهو الوجه الّذي لا يهلك وكذلك قال: « **من يطع الرّسول فقد أطاع اللّه** » (١).

وهذا الفهم للآية ورد عند أهل السنة، قال صاحب الفرق بين الفرق: « فأما قوله ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨] فمعناه راجع إلى بطلان كل عمل لم يقصد به وجه اللّه عز وجل » (٢).

ومما يجدر ذكره أن ابن تيمية، وهو ممن أنكر كثيرًا من تأويلات المتكلمين يتفق مع الاثني عشرية في هذا التأويل للوجه، فيقول: « كل مقصود بدون قصد اللّه فهو باطل، وعلى هذين فقد فسر قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]: إلا ما أريد به وجهه وكل شيء معدوم إلا من جهته » (٣).

وهناك تأويلات بعيدة ومتعسّفة في عدة روايات في الكافي، منها رواية تعلن أن وجه اللّه هو الأئمة المعصومون: عن أبي جعفر عليه السلام قال: « نحن المثاني الّذي أعطاه اللّه نبيّنا محمّدًا صلى الله عليه وسلم ونحن وجه اللّه نتقلّب في الأرض بين أظهركم، ونحن عين اللّه في خلقه ويده

(١) أصول الكافي (١٩٢/١)، كتاب التوحيد، باب النوادر.

(٢) عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني (ت ٤٢٩هـ): الفرق بين الفرق (١٥٩/١).

(٣) ابن تيمية: جامع الرسائل (٣٠٦/١).

المبسوطة بالرّحمة على عباده، عرفنا من عرفنا وجهلنا من جهلنا » [١].

وقال أبو عبد اللّه عليه السلام: « إنّ اللّه خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده، ولسانه النّاطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرّأفة والرّحمة، ووجهه الّذي يؤتى منه، وبابه الّذي يدلّ عليه، وخزّانه في سمائه وأرضه » [٢].

وجاء في إحدى الروايات تأويل أسماء اللّه، وأن الأئمة هم أسماء اللّه الحسنى: عن أبي عبد اللّه عليه السلام في قول اللّه عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا.. ﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: « نحن واللّه الأسماء الحسنى الّتي لا يقبل اللّه من العباد عملًا إلا بمعرفتنا » [٣].

إن وجه خطأ المؤولين أنهم قاسوا عالم الغيب على عالم الشهادة: « فلا ينبغي أن نتخذ المقياس الذي نقيس به عالم الشهادة ونطبقه على عالم الغيب » [٤].

ثم إن جميع الفرق قد لجأت شاءت أو أبت إلى التسليم ببعض الصفات الإلهية دون تأويلها، فلماذا الوقوف عند اليد والوجه إذن؟ « فإذا كان إثبات الوجه موهمًا للتشبيه؛ لأن للمخلوق وجهًا، فكذلك الأمر في صفات السمع والبصر والكلام... فإن قيل: إن سمعه تعالى وبصره وكلامه ليس كسمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم، فهذا الكلام بعينه يصح في صفة الوجه وسائر الصفات الخبرية فوجهه ﷻ لا يماثل وجوه المخلوقين ولا يشابهها » [٥]. « وإذا جاز لنفاة الوجه واليدين أن يحتجوا لنفيهم بأن هذه أبعاض تستلزم التركيب، جاز لمن يثبتها أن يقول لهم: وأنتم تثبتون العلم والسمع والبصر، وهذه أعراض تستلزم التركيب » [٦].

٢ - (تأويل بعض علمائهم للعرش والكرسي):

هناك روايات شيعية تثبت العرش والكرسي حقيقة: عن ربعيّ بن عبد اللّه عن الفضيل بن يسارٍ قال: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه جلّ وعزّ: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

---

(١) أصول الكافي (١/١٩٢)، كتاب التوحيد، باب النوادر، وهذه الروايات ضعّفها محقق أصول الكافي، وقد علمنا أن الإخباريين يأخذون بالنصوص دون تمحيص، فيقرون بمثل هذه الأحاديث.

(٢) أصول الكافي (١/١٩٢، ١٩٣)، كتاب التوحيد، باب النوادر.

(٣) أصول الكافي (١/١٩٢)، كتاب التوحيد، باب النوادر.

(٤) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٧).

(٥) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم: حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ٤٠٨).

(٦) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٩٤).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقال: يا فضيل كلّ شيءٍ في الكرسيّ، السّماوات والأرض وكلّ شيءٍ في الكرسيّ » [(١)].

وسئل أبو الحسن الرّضا: « أفتقرّ أنّ اللَّه محمولٌ؟ فقال أبو الحسن: كلّ محمولٍ مفعولٌ به مضافٌ إلى غيره محتاجٌ، والمحمول اسم نقصٍ في اللّفظ، والحامل فاعلٌ وهو في اللّفظ مدحةٌ، وكذلك قول القائل: فوق وتحت وأعلى وأسفل، وقد قال اللَّه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولم يقل في كتبه: إنّه المحمول، بل قال: إنّه الحامل في البرّ والبحر والممسك السّماوات والأرض أن تزولا، والمحمول ما سوى اللَّه، ولم يسمع أحدٌ آمن باللَّه وعظمته قطّ قال في دعائه: يا محمول، قال أبو قرّة: فإنّه قال: ﴿ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ ﴾ [غافر: ٧] فقال أبو الحسن: العرش ليس هو اللَّه، والعرش اسم علمٍ وقدرةٍ وعرشٍ فيه كلّ شيءٍ، ثمّ أضاف الحمل إلى غيره، خلقٍ من خلقه لأنّه استعبد خلقه بحمل عرشه وهم حملة علمه، وخلقًا يسبّحون حول عرشه وهم يعملون بعلمه، وملائكةً يكتبون أعمال عباده، واستعبد أهل الأرض بالطّواف حول بيته، واللَّه على العرش استوى كما قال، والعرش ومن يحمله ومن حول العرش واللَّه الحامل لهم الحافظ لهم الممسك القائم على كلّ نفسٍ، وفوق كلّ شيءٍ وعلى كلّ شيءٍ، ولا يقال: محمولٌ ولا أسفل قولًا مفردًا لا يوصل بشيءٍ، فيفسد اللّفظ والمعنى » [(٢)].

وهكذا نجد أن الإمام وقف حيث وقف القرآن، ونزّه الرب ﷻ عن كل ما تتوهّمه عقول بعض أتباعه.

وفي معرض حديث السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وهو حديث روته الطائفتان أهل السنة والشيعة، ومع ذلك جاء بعض كتّاب الشيعة فأولوا العرش وظل العرش يوم القيامة بأنه لطف من اللَّه تعالى، أحدهم تحت عنوان (سبعة يستظلون بظل لطف اللَّه): « ووجه التعبير عن لطف اللَّه بالظل هو: أنه كما يحتمي من أصابه الحر بالظل كذلك رحمة اللَّه ولطفه ملجأ العبد المذنب وملاذه من حر جهنم وأهوالها » [(٣)]. وهكذا يكون الكاتب قد أوّل العرش وظله معًا.

---

(١) أصول الكافي (١/١٨٠، ١٨١)، كتاب التوحيد، باب العرش والكرسي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) آية اللَّه السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٢٢).

وقد اختلف الاثنا عشرية في العرش وحقيقته وكذلك اللوح والقلم، وعلى سبيل المثال اختلف الصدوق والمفيد؛ فقد جاء عن الصدوق: « اعتقادنا في اللوح والقلم أنهما ملكان... اللوح كتاب اللّٰه تعالى كتب فيه ما يكون إلى يوم القيامة ». فقال المفيد: « وأما من ذهب إلى أن اللوح والقلم ملكان فقد أبعد بذلك... اعتقادنا في العرش أنه جملة جميع الخلق... العرش في اللغة هو الملك، قال الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثلثت عروشهم وأودت كما أودت أياد وحمير

وأولوا العرش بالملك، فقالوا: « عرش عظيم ملك عظيم » [١].

وتدخلت الفلسفة أخيرًا في تأويل العرش، قال أحدهم: « وقد استعمل الوحي الإلهي لفظة العرش على سبيل التجوز في دائرة ملك اللّٰه سبحانه... فعرشه كناية عن الروحانيات وما كان الحكماء يسمونه بعالم الملكوت وسماه حكماء الإسلام بعالم الأمر » [٢].

في حين هنالك روايات تبين أن العرش والكرسي كلها مخلوقات واضحة المعالم، لا تحتمل مجازًا ولا تأويلًا بالروحانيات ولا مجموع المخلوقات:

« روي عن الصادق: لو ألقي حجر في العرش لوقع على ظهر البيت المعمور ولو ألقي حجر من البيت المعمور لسقط على ظهر البيت الحرام » [٣]. وهذا دليل أن العرش مخلوق خاص.

ولكن المفيد قال: « الأحاديث التي رويت في صفة الملائكة الحاملين للعرش أحاديث آحاد، وروايات أفراد لا يجوز القطع بها ولا العمل عليها، والوجه الوقوف عندها، والقطع على أن الأصل في العرش هو الملك، والعرش المحمول جزء من الملك تعبّد اللّٰه بحمله الملائكة على ما قدمناه » [٤].

٣ - (تأويل نصوص رؤية اللّٰه ﷻ يوم القيامة):

مما يندرج تحت الصفات السلبية للّٰه تعالى عند الشيعة الاثني عشرية قولهم بأن « رؤية اللّٰه محال وغير ممكنة لا في الدنيا ولا في الآخرة » [٥]. وأنه « لا يرى بحاسة البصر لا في الدنيا ولا في الآخرة، واتفقت على ذلك الإمامية » [٦].

---

(١) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٥٨، ٥٩).

(٢) تعليق العلامة هبة الدين الشهرستاني على هامش تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٦٠).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٦١).

(٤) المصدر السابق (ص ٦٢).

(٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٦).

(٦) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٢).

وقد أخذ الاثنا عشرية هذا القول عن المعتزلة؛ إذ إن « جميع المعتزلة ينكرون الرؤية في الآخرة، وعندهم أن من قال: إن اللّٰه يرى في الآخرة بالأبصار على أي وجه فمشبّه » [١].

وعند بعضهم « المشبّه كافر » [٢]؛ فقد جعل الحرّ العاملي نفي الرؤية من أصول الأئمة، وعقد لذلك بابًا بعنوان « باب أنّ اللّٰه سبحانه لا تراه عين ولا يدركه بصر في الدّنيا ولا في الآخرة » [٣]؛ ولذلك اعتقد الاثنا عشرية ردة وجهل من أثبت الرؤية، وقال شيخهم وآيتهم جعفر النّجفي صاحب كشف الغطا: « ولو نسب إلى اللّٰه بعض الصّفات.. كالرّؤية حكم بارتداده » [٤]. وحكم ابن المطهر على من يقول بالرؤية أنه خالف قوانين العقلاء فقال: « وذهبت الأشاعرة إلى أن اللّٰه تعالى مرئي بالعين، مع أنه مجرد عن الجهات، وقد قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وخالفوا الضرورة في أن المدرك بالعين يكون مقابلًا أو في حكمه، وخالفوا جميع العقلاء » [٥].

مع أن أهل السنة لا يقولون أن من رأى اللّٰه تعالى فقد حصره في جهة ﷺ، فاللّٰه لا تحصره العيون؛ حيث إن المؤمنين يوقنون بأنه تعالى (لا تدركه الأبصار)، ولذلك قال اللقاني نافيًا معرفة الكيفية التي تثبت بها الرؤية:

ومنه أن ينظر بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار [٦]

ويعتقد أهل السنة أن الرؤية من الأمور الغيبية التي ثبتت بالنصوص الصحيحة، ولولا أنها ثبتت بالنصوص الصحيحة والصريحة من الكتاب والسنة لما قال بها أحد من المسلمين.

ويعتمد الشيعة في إنكار الرؤية البصرية على قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وعلى قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ.. ﴾ [النساء: ١٥٣].... ونسبوا إلى جعفر الصادق قوله وقد سئل عن الرؤية: « الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور العرش، والعرش جزء من

(١) انظر: الانتصار للخياط (ص ٦٨).

(٢) كأبي موسى الرمدار، انظر: الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٣)، وانظر: الانتصار للخياط (ص ٦٨).

(٣) الفصول المهمّة في أصول الأئمّة (ص ١٢). (٤) كشف الغطا (ص ٤١٧).

(٥) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٤٦).

(٦) جوهرة التوحيد مع شرحها للشيخ الباجوري (ص ٢٤٦). وقد قال: (ومنه): « أي ومن بعض جزئيات الجائز عقلًا عليه تعالى أن ينظر اللّٰه تعالى بالأبصار ».

سبعين جزءًا من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءًا من نور السر، فإن كانوا صادقين فليملؤوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب » [(١)].

ويستدلون في نفي الرؤية البصرية بدليل عقلي - اخترعه المعتزلة من قبل - مختصره أن « المرئي بحاسة البصر لا بد أن يكون جسمًا وفي جهة مقابلة وذا صورة ومثل ومكان، واللّه تعالى منزّه عن جميع ذلك » [(٢)].

وهذا الدليل العقلي ساقته بعض الروايات عن الأئمة وعن هشام بن الحكم: « عن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثّالث عليه السلام أسأله عن الرّؤية وما اختلف فيه النّاس فكتب: لا تجوز الرّؤية ما لم يكن بين الرّائي والمرئيّ هواءٌ لم ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرّائي والمرئيّ لم تصحّ الرّؤية وكان في ذلك الاشتباه؛ لأنّ الرّائي متى ساوى المرئيّ في السّبب الموجب بينهما في الرّؤية وجب الاشتباه؛ وكان ذلك التّشبيه لأنّ الأسباب لا بدّ من اتّصالها بالمسبّبات » [(٣)].

وهناك نص عن هشام بن الحكم يعلل فيه استحالة الرؤية البصرية، ولأهميته أورده الكليني في كافيه مع أنه ليس من أقوال الأئمة، يقول هشام:« الأشياء كلّها لا تدرك إلا بأمرين بالحواسّ والقلب، والحواسّ إدراكها على ثلاثة معانٍ: إدراكًا بالمداخلة وإدراكًا بالمماسّة وإدراكًا بلا مداخلةٍ ولا مماسّةٍ... وأمّا الإدراك بلا مماسّةٍ ولا مداخلةٍ فالبصر، فإنّه يدرك الأشياء بلا مماسّةٍ ولا مداخلةٍ في حيّز غيره ولا في حيّزه، وإدراك البصر له سبيلٌ وسببٌ، فسبيله الهواء وسببه الضّياء، فإذا كان السّبيل متّصلًا بينه وبين المرئيّ والسّبب قائمٌ أدرك ما يلاقي من الألوان والأشخاص، فإذا حمل البصر على ما لا سبيل له فيه رجع راجعًا فحكى ما وراءه، كالنّاظر في المرآة لا ينفذ بصره في المرآة، فإذا لم يكن له سبيلٌ رجع راجعًا يحكي ما وراءه، وكذلك النّاظر في الماء الصّافي يرجع راجعًا فيحكي ما وراءه؛ إذ لا سبيل له في إنفاذ بصره. فأمّا القلب فإنّما سلطانه على الهواء، فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهّمه، فإذا حمل القلب على ما ليس في الهواء موجودًا رجع راجعًا فحكى ما في الهواء، فلا ينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ما ليس موجودًا في الهواء من أمر التّوحيد جلّ اللّه وعزّ، فإنّه إن فعل ذلك لم يتوهّم إلا ما في الهواء

---

(١) أصول الكافي (١٥٢/١)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية، وانظر: عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٣). وقال: المراد بالحجاب والسر مقامان من مقامات تجليات نور عظمته تعالى.

(٢) عبد اللّه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٢).

(٣) أصول الكافي (١٥١/١)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية.

موجودٌ، كما قلنا في أمر البصر تعالى الله أن يشبهه خلقه » [١].

وأنت تشم من قول هشام هذا الأثر الفلسفي والاعتزالي؛ ولذلك فقد وصل الباحثون في القواسم المشتركة بين الاثني عشرية والمعتزلة إلى أن أدلة الطرفين في إنكار الرؤية واحدة [٢].

ويكفي في الرد على هذه الاستدلال أن البصر يوم القيامة مختلف عنه في الدنيا؛ حيث تتغير أجسام البشر وصفاتها، مما لا يتصوره العقل أيضًا، فالمؤمن في الجنة يعطى من القوى ما لم يكن له في الدنيا، وكذلك يتغير حال الكافر، وشكله وحجمه مما لا يسع المقام ذكره، ويكفي الخلود للبشر في الآخرة فيصلًا وفارقًا بين حال الدنيا وحال الآخرة. فالمؤمنون في الجنة « صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوّطون » [٣]. وفي النار « ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحدٍ، وغلظ جلده مسيرة ثلاثٍ » [٤].

والمنقّب في روايات الأئمة يجد أن بعضها يثبت الرؤية البصرية، ولكن يضعفها الاثني عشرية لأنها تخالف المذهب: فعن محمد بن الفرج قال: كتب إليّ أبو جعفر ابن الرضا: « ... كان النبي ﷺ يقول إذا فرغ من صلاته:... **وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وبركة الموت بعد العيش، وبرد العيش بعد الموت، ولذّة المنظر إلى وجهك، وشوقًا إلى رؤيتك ولقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة** » [٥].

فإن كان المقصود بالرؤية هنا العلم؛ فقد علم المصطفى ﷺ ربه، فلا مناص من أن المراد بالرؤية في هذه الرواية رؤية البصر؛ ولذا ضعّفها الشيعة، إذ لا مجال لتأويلها، وقد روى المفيد أنه قد حكي عن هشام بن الحكم القول بالرؤية البصرية - خلافًا لما صحّ عنه، ولما روى عنه الكافي كما بينّا - فقال: « فأما نفي الرؤية عن الله ﷻ بالأبصار فعليه إجماع الفقهاء والمتكلمين من العصابة كافة إلا ما حكي عن هشام من خلافه، والحجج عليه مأثورة عن الصادقين عليهم السلام » [٦].

---

(١) أصول الكافي (١٥٣/١)، كتاب التوحيد، باب في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

(٢) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الاثني عشرية، د. عائشة المناعي (ص ٢١٠ - ٢١٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٢٣/١١).

(٤) صحيح مسلم: كتاب صفة الجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون (٢/١٤).

(٥) أصول الكافي (٥١٦/٢) كتاب الدعاء، باب الدعاء في أدبار الصلوات قال محققه: والحديث ضعيف.

(٦) الحكايات في مخالفات المعتزلة من العدلية والفرق بينهم وبين الشيعة الإمامية (ص ٨٥، ٨٦) دار المفيد - بيروت (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م). تحقيق محمد رضا الحسيني الجلالي. ويوجد النص في كتابه الفصول المختارة، حيث ألحقت الحكايات به.

وقال الشيخ الصدوق عن « أحمد بن يحيى في جامعه: في معنى الرؤية [روايات] صحيحة لا يردها إلا مكذب بالحق أو جاهل به وألفاظها ألفاظ القرآن، ولكل خبر منها معنى ينفي التشبيه والتعطيل ويثبت التوحيد، وقد أمرنا الأئمة - صلوات الله عليهم - أن لا نكلم الناس إلا على قدر عقولهم. ومعنى الرؤية الواردة في الأخبار: العلم، وذلك أن الدنيا دار شكوك وارتياب وخطرات، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله وأموره في ثوابه وعقابه ما يزول به الشكوك ويعلم حقيقة قدرة الله ﷻ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢] فمعنى ما روي في الحديث أنه ﷻ يرى أي يعلم علمًا يقينيًا »[(١)].

ويعتمد الاثنا عشرية في تأويل الرؤيا البصرية على الروايات التي تقول بالرؤية القلبية لنور العظمة الإلهية:

عن يعقوب بن إسحاق قال: « كتبت إلى أبي محمّدٍ عليه السلام أسأله كيف يعبد العبد ربّه وهو لا يراه؟ فوقّع عليه السلام: يا أبا يوسف جلّ سيّدي ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يرى. قال: وسألته هل رأى رسول الله ﷺ ربّه؟ فوقّع عليه السلام إنّ الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبّ »[(٢)].

و « جاء حبرٌ إلى أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - فقال: يا أمير المؤمنين! هل رأيت ربّك حين عبدته؟ قال فقال: ويلك! ما كنت أعبد ربًا لم أره. قال: وكيف رأيته؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان »[(٣)].

ويؤول الاثنا عشرية ما ورد من آيات تثبت الرؤية كقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بأن المراد منتظرة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥][(٤)]. مع أن هناك فرقًا بين (نظر) التي تتعدى بـ (إلى) فتفيد الرؤية والنظر بالعين، وبين (نظر) بمعنى (انتظر)؛ إذ لا تتعدى بـ (إلى)[(٥)].

---

(١) الصدوق: التوحيد (ص ١٢٠)، نشر جماعة المدرسين قم (١٣٨٧هـ).

(٢) أصول الكافي (١/١٤٩)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية.

(٣) أصول الكافي (١/١٥١)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية.

(٤) انظر: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للطوسي (ص ٧٦، ٧٧).

(٥) قال القرطبي (١٩/٩٧): « لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: (نظرته) كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ [الزخرف: ٦٦]، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، و ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ [يس: ٤٩] وإذا =

وكذلك يؤولون ما ورد في كتبهم من نصوص الرؤية بأنها رؤية القلب، يقول شبر: « أما رؤية القلب فليست بممتنعة عليه تعالى، وعلى ذلك يحمل ما ورد في النقل من جواز الرؤية،.. وعن الصادق قال: رأى رسول الله ربه ﷻ بقلبه، وفي رواية أخرى أما سمعت الله يقول: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١] لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد » [١].

وما ثبت عند أهل السنة من روايات تذكر ضيافة الله تعالى للمؤمنين مع الرؤية له سبحانه في الجنة، يسوقها الشيعة دون ذكر الرؤية، ويحلّون محل الرؤية كلام الرب ﷻ، « وهنا يعجز الإدراك فلا يمكننا إلا أن نقول: إن السلام يأتيهم من الباري تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] » [٢].

وقد أكثر الصدوق في كتابه (التوحيد) من تأويلات للنصوص القرآنية في مسألة الرؤية والعرش وغيرها، وهذا بعض ما قال في ذلك:

« فأما قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] فإنه ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا، وليس بكائن إلّا من وراء حجاب، أو يرسل رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء، كذلك قال الله تبارك وتعالى علوًّا كبيرًا، قد كان الرسول يوحى إليه من رسل السماء فيبلغ رسل السماء رسل الأرض، وقد كان الكلام بين رسل أهل الأرض وبينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء، وقد قال رسول الله ﷺ: « **يا جبرئيل هل رأيت ربك؟ فقال جبرئيل: إن ربي لا يُرى، فقال رسول الله ﷺ: « فمن أين تأخذ الوحي؟ » فقال: آخذه من إسرافيل، فقال: « ومن أين يأخذه إسرافيل؟ » قال: يأخذه من ملك فوقه من الروحانيين، قال: « فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ » قال: يقذف في قلبه قذفًا... »**.

وأما قوله: ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ٧٧] يخبر أنه لا يصيبهم بخير،

= أرادت به التفكر والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقرونًا بذكر (إلى) وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان... وإنّ قول القائل: (نظرت إلى فلان) ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون (نظرت إليه): إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: (نظرته) قال:

فإنكما إن تنظراني ساعة ... من الدهر تنفعني لدى أم جندب

لما أراد الانتظار، قال: (تنظراني) ولم يقل: (تنظران إليّ) وإذا أرادوا نظر العين قالوا: (نظرت إليه) قال:

نظرت إليها والنجوم كأنها ... مصابيح رهبان تشبّ لقفال

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٣).

(٢) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١١٦). تحت عنوان (الجمعة يوم خاص لضيافة الله).

وقد تقول العرب: واللَّه ما ينظر إلينا فلان، وإنما يعنون بذلك أنه لا يصيبنا منه بخير، فذلك النظر ههنا من اللَّه تعالى إلى خلقه، فنظره إليهم رحمة منه لهم.

وأما قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]، فإنما يعني بذلك يوم القيامة أنهم عن ثواب ربهم محجوبون... فقال ﷺ: وأما قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ [تبارك: ١٦]، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ.. ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ.. ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، فكذلك اللَّه تبارك وتعالى سبوحًا قدوسًا، تعالى أن يجري منه ما يجري من المخلوقين وهو اللطيف الخبير، وأجلّ وأكبر أن ينزل به شيء مما ينزل بخلقه وهو على العرش استوى علمه، شاهد لكل نجوى، وهو الوكيل على كل شيء، والميسّر لكل شيء، والمدبر للأشياء كلها، تعالى اللَّه عن أن يكون على عرشه علوًّا كبيرًا. فقال ﷺ: وأما قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.. ﴾ [الأنعام: ٩٤]، قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ.. ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ.. ﴾ [الأنعام: ١٥٨] فإن ذلك حق كما قال اللَّه ﷻ، وليس له جيئة كجيئة الخلق.

وقد أعلمتك أن رُبَّ شيء من كتاب اللَّه تأويله على غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر، وسأنبئك بطرف منه فتكتفي إن شاء اللَّه، من ذلك قول إبراهيم ﷺ: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات: ٩٩] فذهابه إلى ربه توجهه إليه عبادة واجتهادًا وقربة إلى اللَّه ﷻ، ألا ترى أن تأويله غير تنزيله، وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ.. ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني السلاح وغير ذلك.

وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ.. ﴾ [الأنعام: ١٥٨] يخبر محمدًا ﷺ عن المشركين والمنافقين الذين لم يستجيبوا للَّه وللرسول، فقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ.. ﴾ [الأنعام: ١٥٨] حيث لم يستجيبوا للَّه ولرسوله، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ.. ﴾ [الأنعام: ١٥٨] يعني بذلك العذاب يأتيهم في دار الدنيا كما عذب القرون الأولى، فهذا خبر يخبر به النبي ﷺ عنهم، ثم قال: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨] يعني من قبل

أن تجيء هذه الآية، وهذه الآية طلوع الشمس من مغربها، وإنما يكتفي أولو الألباب والحجى وأولو النّهى أن يعلموا أنه إذا انكشف الغطاء رأوا ما يوعدون، وقال في آية أخرى: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ.. ﴾ [الحشر: ٢] يعني أرسل عليهم عذابًا، وكذلك إتيانه بنيانهم قال اللّٰه ﷻ: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ.. ﴾ [النحل: ٢٦] فإتيانه بنيانهم من القواعد إرسال العذاب عليهم.

وكذلك ما وصف من أمر الآخرة تبارك اسمه وتعالى علوًّا كبيرًا أنه يجري أموره في ذلك اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة كما يجري أموره في الدنيا لا يغيب ولا يأفل مع الآفلين.

فاكتف بما وصفت لك من ذلك مما في صدرك مما وصف اللّٰه ﷻ في كتابه، ولا تجعل كلامه ككلام البشر، هو أعظم وأجل وأكرم وأعز - تبارك وتعالى - من أن يصفه الواصفون إلا بما وصف به نفسه في قوله ﷻ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

... ﴿ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥] يعني: من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد اللّٰه لآتٍ من الثواب والعقاب، فاللقاء ههنا ليس بالرؤية، واللقاء هو البعث، فافهم جميع ما في الكتاب من لقائه فإنه يعني بذلك البعث، وكذلك قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ.. ﴾ [الأحزاب: ٤٤] يعني أنه لا يزول الإيمان عن قلوبهم يوم يبعثون [١].

وهناك تأويلات اختلف متكلمو الاثني عشرية فيما بينهم في تقريرها، كبعض الأمور الغيبية المتعلقة بأحداث يوم القيامة كالميزان؛ إذ « قال الشيخ المفيد رحمه الله: الموازين هي التعديل بين الأعمال والجزاء عليها ووضع كل جزاء في موضعه، وإيصال كل ذي حق إلى حقه » [٢]. ولكن عبد اللّٰه شبر أعلن رفضه تأويل هذه الحقائق قائلًا: « والأحوط والأولى الإيمان بالميزان، وردّ العلم بحقيقتها إلى اللّٰه وأنبيائه وخلفائه، ولا نتكلّف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان. واللّٰه العالم بالحال » [٣].

---

(١) الصدوق: التوحيد (ص ٢٦٤ - ٢٦٦).

(٢) عبد اللّٰه شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٢٤).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٢٥).

- **وهنا يبيّن الباحث ثلاث ملاحظات مهمّات حول الآيات المتشابهة وتأويلها:**

الأولى: الفرق بين تأويلات أهل السنة وتأويلات غيرهم: قد ثبت عن بعض أهل السنة - كالأشاعرة وغيرهم - أنهم جروا في التأويل، كما جرى الاثنا عشرية، متأثرين بالمنهج المعتزلي.

فقد قال اللقاني صاحب الجوهرة:

وكلّ نص أوهم التشبيها أوّله أو فوّض ورم تشبيها [(١)]

فمن هذا النص نرى أنه أجاز التأويل للنصوص المتشابهة، وقدّم منهج التأويل على منهج التفويض [(٢)]، فقدم المختلف فيه على المتفق عليه!

ولكن الأشاعرة ومن معهم من أهل السنة وإن أجازوا مذهب التأويل في الآيات المتشابهة إلا أنهم لم يكفّروا غير المؤولين، ولم يعنّفوا عليهم، بل أبقوا باب التسليم للنصوص الشرعية بلا تشبيه ولا تعطيل مفتوحًا، وبقي ذلك عندهم تحت مسمى (مذهب السلف)، وسموا طريقتهم (مذهب الخلف)، أما الاثنا عشرية فقد رموا من رفض التأويل بألفاظ التجسيم والتكفير!

ثم إن من أوّل من أهل السنة لم يصل إلى حيث وصل الاثنا عشرية؛ فقد اشتط الاثنا عشرية في التأويل حتى أنكروا الرؤية للّه تعالى، وأنكروا الاستواء على العرش، وأنكروا أحاديث كثيرة - كحديث النزول - مع أن بعض هذه النصوص مبثوث في أصول كتبهم، ومنقول عن بعض رجالهم كهشام بن الحكم، ومع ذلك فلم يجيزوا إثبات هذه النصوص دون تأويل.

كما أنهم توسّعوا في التأويل واستخدموه لنصرة مذهبهم وشتم خصومهم - فالجبت والطاغوت في القرآن - حسب زعمهم -: خليفتا النبي ﷺ أبو بكر وعمر! والبئر المعطلة: الإمام الصامت، والقصر المشيد: الإمام الناطق، والصلاة الوسطى النبي ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم رضوان اللّه! [(٣)] - حتى سلّموا الباطنية من

---

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد (ص ١٤٩). قال الشيخ إبراهيم الباجوري: « المراد من التفويض: صرف اللفظ عن ظاهره، مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه، بل يترك ويفوض علمه إلى اللّه تعالى، بأن يقول: اللّه أعلم بمراده ». شرح جوهرة التوحيد (ص ١٤٩).

(٢) التفويض: هو منهج وسط بين التأويل والإثبات، يعتمد على التسليم أو التوقف في النص، وقد فهم اللقاني أن هذا هو مذهب السلف، وسيأتي الحديث عن ذلك في الملاحظة الثالثة.

(٣) عن أبي عبيدة الحذّاء قال عن أبي جعفر: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ [الزمر: ١٧] والجبت =

بعدهم راية التأويل، ليفتح بابه على مصراعيه، دون ضابط ولا دليل.

الملاحظة الثانية: التفريق في التأويل بين سلامة المقصد وسوئه: إن اللَّه – تعالى – قد ذم أصحاب القلوب الزائغة الذين يؤولون المتشابهات بقصد تحريف الكتاب ومعانيه، وبهدف نشر الفتنة والفساد، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

أما التأويل بمعنى محاولة فهم الآية مع تنزيه اللَّه – تعالى – عن مشابهة المخلوقين؛ فإنا لا نعامل صاحبه معاملة من قصد من وراء التأويل الفتنة وهدم الشريعة.

وبناء على ذلك لا يجوز حشر من أوّل الآيات المتشابهات من أهل العلم – بقصد التنزيه للَّه تعالى أو تقريب معناها للعامة – في زمرة من قال تعالى عنهم: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لأن هؤلاء المذكورين في الآية أرادوا من تأويلهم هدم الدين، وتحريفه، كاليهود والنصارى والمنافقين، والباطنية.

قال ابن كثير رحمه الله: « ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧] أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل، ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٧] أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه. فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم؛ ولهذا قال:

= والطّاغوت: فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ، والعبادة: طاعة النّاس لهم » الكليني: أصول الكافي (٤٩٨/١) كتاب الحجة، باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية. قال محققه: هذا الحديث صحيح. وعن عليّ بن جعفرٍ عن أخيه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥] قال: البئر المعطّلة: الإمام الصّامت، والقصر المشيد: الإمام النّاطق. الكليني: أصول الكافي (٤٩٥/١) كتاب الحجة، باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية. صححه محقق أصول الكافي، وذكر العياشي في تفسير قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: الصلوات التي يجب المحافظة عليها هم: رسول اللَّه وعلي وفاطمة وابناهما ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: طائعين للأئمة. تفسير العياشي (١٢٧/١، ١٢٨)، لأبي النظر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي (ت ٣٢٠)، ذكر ابن النديم في الفهرست أنه من فقهاء الإمامية، أوحد دهره وزمانه في غزارة العلم.

يراجع للاستزادة من الأمثلة: الفصل الثاني من الرسالة (مصادر تلقي العقيدة عند الاثني عشرية) المبحث الأول (موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم).

﴿ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ ﴾ [آل عمران: ٧] أي: الإضلال لأتباعهم، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله [تعالى]: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩] وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرّحة بأنه خلق من مخلوقات اللَّه، وعبد، ورسول من رسل اللَّه » [١].

ويرى أحد الكتّاب الداعين إلى التقارب بين المذاهب الإسلامية « أن لكل من الطائفتين المعتزلة والشيعة الإمامية في جانب، وأهل السنة والصوفية في جانب آخر، وجهته في الثناء على الكمال الإلهي » [٢]. مما يدل على أن العقول قد تختلف في بعض الحيثيات، فتصل إلى نتيجتين مختلفتين وإن كان المقصد واحدًا.

وهنا يتبين الفرق في المقصد والنوايا، فجمهور من أجاز التأويل من علماء المسلمين أجازه لخدمة التنزيه والحفاظ على الدين. على خلاف من أراد من التأويل هدم شعائر الدين كالباطنية ومن لفّ لفّهم، وإن كان هؤلاء قد اتخذوا من فعل المؤولين الأوائل أرضًا بنوا عليها بناءهم المتصدّع.

يقول أستاذنا الدكتور الجليند: « والمعتزلة والأشاعرة لم يقصدوا من وراء مقالاتهم في النفي والإثبات إلا تحقيق معنى الكمال للَّه الذي تصوروه في حق اللَّه تعالى، إلا أنهم جميعًا قد أخطؤوا في تصور هذا الكمال وتفسيرهم لمعناه » [٣].

وهذا المقصد الحسن كفيل - إن شاء اللَّه تعالى - برفع التأثيم عن أصحاب هذا الرأي، وأقسى وأقصى ما يقال فيهم: (قصدوا الحق فأخطؤوه) وربما أجروا.

ومن باب أولى أن لا يرمى صاحب التأويل المستساغ لغةً بألقاب الكفر والتفسيق والتبديع.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٨).

(٢) د. حامد حفني داود: تقديمه لكتاب عقائد الإمامية، لمحمد رضا المظفر (ص ٢٢، ٢٣)، (ط٣) مؤسسة أنصاريان - قم (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

(٣) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٧)، وقد قال الأستاذ الدكتور السنهوتي: « الفرق التي أثبتت الصفات، والفرق التي نفتها كانت تقصد جميعًا إلى غاية واحدة هي إثبات الكمال للَّه تعالى »: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٠٨).

وهذه ملاحظة مهمة لبعض الشباب المتحمس اليوم لطريقة السلف، ولكنه لم يسر على هديهم في الحجّة وحسن النقاش، فأسرع إلى التبديع والتفسيق، وربما التكفير.

فيجب على هؤلاء المتحمسين أن يعلموا أن « المهم في العقيدة هو تنزيه اللّٰه تعالى عن التشبيه والتعطيل، وإنّ كل واحد من هذه المذاهب... جازم بذلك، والاختلاف بينها ليس اختلاف عقيدة، فإن العقيدة هي التنزيه عن التشبيه والتعطيل، وإنما هو اختلاف رأي في التعبير عن تلك العقيدة وتقعيدها على النصوص... ولكن الحق أن أصل الخلاف ليس إلا خلافًا اجتهاديًا، نظير اختلاف الفقهاء في المسائل الفقهية المجتهد فيها » [١].

فهل يجمع تأويل المنافقين واليهود والباطنية، القاصدين حرب الإسلام والتحلل من ربقة أحكام الشرع الحنيف، مع تأويل بعض علماء المسلمين القاصدين تنزيه للّٰه تعالى والذبّ عن عقائد الإسلام؟!

إن التأويل يطلق ويراد منه عدة معانٍ، منها ما هو ممدوح، ومنها ما هو مذموم. وهذا ما أكده علماء التفسير.

ولهذا قال ابن كثير في تفسير آية آل عمران: « من العلماء من فصّل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان:

– **أحدهما**: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا اللّٰه ﷻ، ويكون قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧] مبتدأ و ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧] خبره.

– وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧] لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه » [٢].

---

(١) الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٥/٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/١٢).

وبهذا التفريق بين المعنيين يتوضّح لنا سر اختلاف العلماء في الراسخين في العلم: هل يعلمون المتشابه أم لا، فإن كان على المعنى الأول فلا يعلمه إلا اللّٰه تعالى، ويحمل على هذا المعنى قول ابن عباس: « وما يعلم تأويله إلا اللّٰه، ويقول الراسخون [في العلم]: آمنا به » (١).

وإن كان على المعنى الثاني؛ فالراسخون في العلم يعلمونه، بردّ المتشابه إلى المحكم؛ حيث « يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس » (٢). وعلى هذا تحمل الرواية الثانية لابن عباس رضي الله عنهما، حيث يقول: « أنا ممن يعلم تأويله » (٣). فلا تعارض بين الروايتين عنه.

- ولا يجوز لنا في حمأة الجدال حول جواز أو منع تأويل الآيات المتشابهات أن نخلط بين تأويل العلماء المبني على الاجتهاد مع قصد التنزيه وبين التأويل المتفق على نكارته، وهو الذي ذكرته الآية، وهو تحريف الكلم عن مواضعه، لهدم الدين وتوهين أركانه، وهو ما فعله أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والباطنية وغيرهم، وما يزالون يفعلون، وهم: ﴿ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧]. فلا يجوز بحال من الأحوال أن نحشر تحت هذا المعنى البغيض للتأويل اجتهادات علماء المسلمين في فهم الآيات، سواء وفّقوا فيها أو جانبوا الصواب.

الملاحظة الثالثة: تمحيص معنى الآيات المتشابهة: لقد توسّع كثير من العلماء في مفهوم الآيات المتشابهة، فحشدوا بينها من الآيات ما ليس منها، ثم ساقهم الورع والحذر من التأويل إلى ترك تفسيرها والتعمق في معانيها، فصار معنى التسليم للآيات المتشابهات عندهم ترك تدبّر كثير من آيات القرآن الكريم، الذي أنزله اللّٰه هداية للعالمين.

لقد جاء عن سلف الأمة أن التفسير على أربعة أوجه: وجهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا اللّٰه تعالى ذكره (٤). وهو يتعلق بالآيات المتشابهة.

---

(١) تفسير الطبري (٦/٢٠٢). (٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/٦).

(٣) تفسير الطبري (٦/٢٠٣)، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/١١).

(٤) وهو مروي عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنها، وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك رحمهم اللّٰه، وغيرهم. انظر: تفسير الطبري (١/٧٥)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (ط١)، (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/١٤)، (٢/١٠).

صحيح أن فتح باب التأويل على مصراعيه خطأ كبير، ولكن من الخطأ أيضًا إقحام كثير من الآيات الواضحة تحت مسمّى الآيات المتشابهة، ومنع تأويلها بما ينسجم مع العقيدة الصحيحة ولغة العرب، سواء أسمينا هذا التأويل مجازًا أو جريًا على لغة العرب.

ذلك أن مما يساعد في فهم القرآن الكريم دراسة اللغة الفصحى واستخداماتها، فإن في القرآن الكريم روائع بيانية تدرك من خلال معرفة بلاغة لغة العرب.

وعلى سبيل المثال: قد يتوقف بعض الناس بحذر عند قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ.. ﴾ [المائدة: ٦٤] يعدّها من الآيات المتشابهة، ويفوض علمها إلى اللَّه تعالى،؛ فيعجز عن فهمها وإدراك معناها، ولو أمعن النظر فيها لرأى أسلوبًا لغويًّا بديعًا تستعمله العرب، فهذه الآية إنما هي رد على قول اليهود: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟.. ﴾ [المائدة: ٦٤]، فجاء الجواب مستخدمًا الأسلوب اللغوي ذاته: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ.. ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن كثير رحمه الله « أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه » [١].

وقد بيّن القرآن ذاته أن مصطلح بسط اليد وقبضها ليس إثباتًا لليد بمعنى الآلة والعضو المخلوق، إنما هو كناية عن البذل أو البخل، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]. قال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: « وإنما وصف تعالى ذكره » (اليد) بذلك، والمعنى العطاء؛ لأن عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب بأيديهم. فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضًا، إذا وصفوه بجود وكرم، أو ببخل وشحّ وضيق، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه، كما قال الأعشى في مدح رجل:

يداك يدا مجدٍ، فكفٌّ مفيدةٌ وكفٌّ إذا ما ضنّ بالزّاد تنفق

فأضاف ما كان صفة صاحب اليد من إنفاق وإفادة إلى (اليد). ومثل ذلك من كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن يُحصى. فخاطبهم اللَّه بما يتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم [٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٤٦/٣).

(٢) تفسير الطبري (٤٥١/١٠). قال الشيخ أحمد شاكر في الهامش عن شعر الأعشى: « في ديوانه (ص ١٥٠)، من قصيدته الغالية التي رفعت المحلّق وطارت بذكره في الآفاق، يقول له: =

- وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

قال أهل العلم: « أي: بقوة » [1].

ولذلك قال تعالى في وصف داود عليه السلام، وهو النبي الملك الذي ألان الله تعالى له الحديد: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧].

فاليد في لغة العرب تطلق على معان كثيرة، قال ابن حجر: « اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى ما بين حقيقة ومجاز » [2]. والذي يبين المعنى المراد سياق الجمل وتركيبها.

- وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

قال ابن كثير: « أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله » [3].

والمسلمون للأسف في حمأة الجدال العنيف في تاريخهم، أضاعوا الوقت والجهد في التساؤل: هل له - سبحانه - يد؟ بين مجسّم ومعطّل، ومثبت ومؤوّل، ويطول الجدال، فيفسّق بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ويكفّر بعضهم بعضًا!

وربما تغيب - في صخب هذا الجدال - المعاني الأساسية التي جاءت الآية لتقرّرها،

=

لعمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ	إلى ضوء نارٍ في يفاعٍ تحرّق
تُشبّ لمقرورَينِ يصطليانها	وبات على النّار النّدى والمحلّق
رضيعي لبانٍ ثديَ أمٍّ تحالفا	بأسحمَ عوضُ الدّهر لا نتفرّق
ترى الجود يجري ظاهرًا فوق وجهه	كما زان متنَ الهندوانيّ رونق
يداه يدا صدقٍ، فكفٌّ مفيدةٌ	وكفٌّ إذا ما ضنّ بالمال تنفق »

(١) قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد. انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤٢٤/٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر (٣٩٤/١٣)، وقد ذكر من هذه المعاني: « **الأول**: الجارحة، **الثاني**: القوة، نحو ﴿ دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ ﴾ [ص: ١٧]، **الثالث**: الملك: ﴿ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣]، **الرابع**: العهد ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الفتح: ١٠].. **الخامس**: الاستسلام والانقياد.... الذل ﴿ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٍ ﴾ [التوبة: ٢٩].. السلطان، الطاعة، الجماعة، الطريق: يقال: أخذتهم يد الساحل، التفرق: تفرقوا أيدي سبأ، الحفظ، يد القوس أعلاها، يد السيف مقبضه، يد الرحى عود القابض، جناح الطائر، المدة يقال: لا ألقاه يد الدهر، الابتداء، يقال: لقيته أول ذات يدي وأعطاه عن ظهر يد، يد الثوب ما فضل منه، يد الشيء أمامه، الطاقة، النقد: نحو بعته يدًا بيد ».

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٢٩/٧).

وفي مقدّمتها: بيان فضل صحابة النبي ﷺ المبايعين، ووجوب الوفاء بعهد اللَّه تعالى، وتغليظ الغدر بالعهود!

- ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه: ٣٩] وقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨]؛ فمثل هذه الآيات لا ينبغي الخلاف فيها، بل تفهم على وفق لغة العرب وبلاغتهم بما لا يخالف التوحيد.

وقد وجدت بعد طباعتي مسودة هذه الرسالة - بيّض اللَّه صحائف كاتبها وقارئها - كلامًا نفيسًا لابن دقيق العيد نقله عنه ابن حجر في فتح الباري، يدور حول هذا المعنى الذي بيّنته؛ إذ يقول:

« نقول في الصفات المشكلة: إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده اللَّه، ومن تأولها نظرنا: فإن كان تأويله قريبًا على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه، وإن كان بعيدًا توقفنا عنه، ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه، وما كان منها معناه ظاهرًا مفهومًا من تخاطب العرب حملناه عليه لقوله: ﴿ .. عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ.. ﴾ [الزمر: ٥٦]، فإن المراد به في استعمالهم الشائع: حق اللَّه، فلا يتوقف في حمله عليه، وكذا قوله ﷺ: « **إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن** » [(١)] فإن المراد به إرادة قلب ابن آدم مصروفة بقدرة اللَّه وما يوقعه فيه، وكذا قوله تعالى: ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ.. ﴾ [النحل: ٢٦] معناه خرب اللَّه بنيانهم، وقوله: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ.. ﴾ [الدهر: ٩] معناه لأجل اللَّه، وقس على ذلك، وهو قلّ من تيقّظ له » [(٢)].

فهذه النصوص مفهومة بلغة العرب، فلا حاجة إذن إلى ضمّها إلى الآيات المتشابهة؛ لأن معانيها واضحة، فهمتها العرب فهمًا واضحًا جليًّا.

أما النصوص التي أتت لتؤكد على حقيقة دينية غيبية ثابتة، وتكرّر تقريرها مرات عديدة؛ فلا يد للتأويل ولا لبلاغة العرب في فهمها، وإنما الطريق هو إثباتها كما وردت، وهذه التي يصح أن يطلق عليها مصطلح الآيات المتشابهة، كالعرش والاستواء، فقد تكررت النصوص بشأنها. و « تنوعت أساليب القرآن في التعبير عن هذه الصفة غاية التنوع، فعبّر تارة بالاستواء إلى السماء، وأخرى بصعود الأشياء إليه، وثالثة بنزول

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف اللَّه تعالى قلوب العباد كيف شاء، رقم (٦٧٠٦) ترقيم دار القلم - دمشق.

(٢) ابن حجر: فتح الباري (١٣/٣٨٣) كتاب التوحيد، باب ما يذكر في النعوت والصفات.

الملائكة من عنده، وبأنه رفيع الدرجات، وأن عباده يخافونه من فوقهم، وأنه دنا من نبيه ليلة المعراج، وأن عنده من يسبحون له بالليل والنهار » [(١)].

فهذا التأكيد والتكرار يدل على أن نصوص العرش والاستواء جاءت لتثبت عقيدة واضحة بيّنة، لا لمجرد استخدام بلاغة العرب وحسن بيانهم.

وهي التي ينطبق عليها قول الإمام مالك رحمه الله، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الرعد: ٢]، أو قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ « فأطرق مالكٌ برأسه حتى علاه الرحضاء [(٢)]، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعًا. فأمر به أن يخرج » [(٣)]. ويروى قريبًا من « هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا ومرفوعًا إلى النبي ﷺ » [(٤)].

* * *

(١) أستاذنا الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ٨٤، ٨٥).

(٢) الرحضاء: العرق الكثير.

(٣) البيهقي: الأسماء والصفات (٢/٤١٠).

(٤) ابن أبي العز: شرح الطحاوية (٢/١٧٦).

إلى هنا ينتهي المجلد الأول

ويليه المجلد الثاني حيث يبدأ

بالمبحث الثالث (النبوات)


منتدى سور الأزبكية


دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

هَذا الكِتَابُ

يعرّف بمسائل الاعتقاد عند الشيعة الإمامية من المصادر الأصلية التي يؤمنون بها، ومما كتبوا هم عن أنفسهم، لا مما كُتب عنهم، مستندًا إلى فهمهم للقرآن الكريم ورواياتهم الحديثية المعتمدة، دون الاعتماد على ما كُتب عن الشيعة في تراث غيرهم ولو كانوا من أهل السنة، فلا يأتي ذكر ما رواه أهل السنة عنهم إلا من باب الاطلاع أو المقارنة بين العقائد، أو لمعرفة مدى ما تميّز به علماء السنة من إنصاف للفرق الأخرى. ولا يتأتى ذلك إلا بعد جمع روايات أهل التشيع المعتبرة – عندهم – في باب العقيدة، وعقد المقارنات بين هذه العقائد؛ لنصل إلى إجابة على سؤال مهم مفاده: ما مدى اتساق روايات الشيعة الحديثية مع أفكار علمائهم؟ وهل شهدت عقائد الشيعة تطورًا بعد غيبة الإمام الثاني عشر؟

Dar-Alsalam Designs

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٢+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

